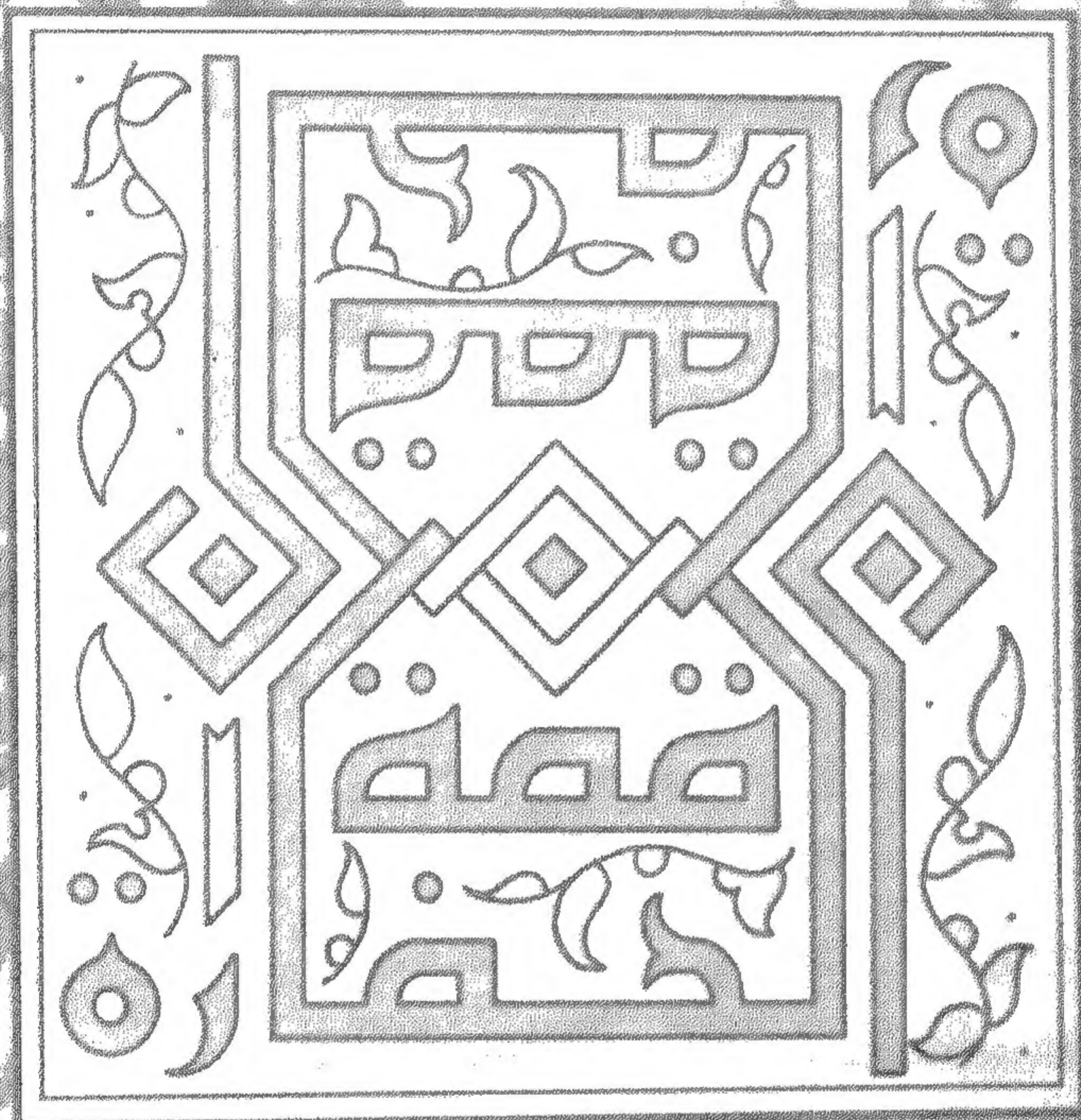


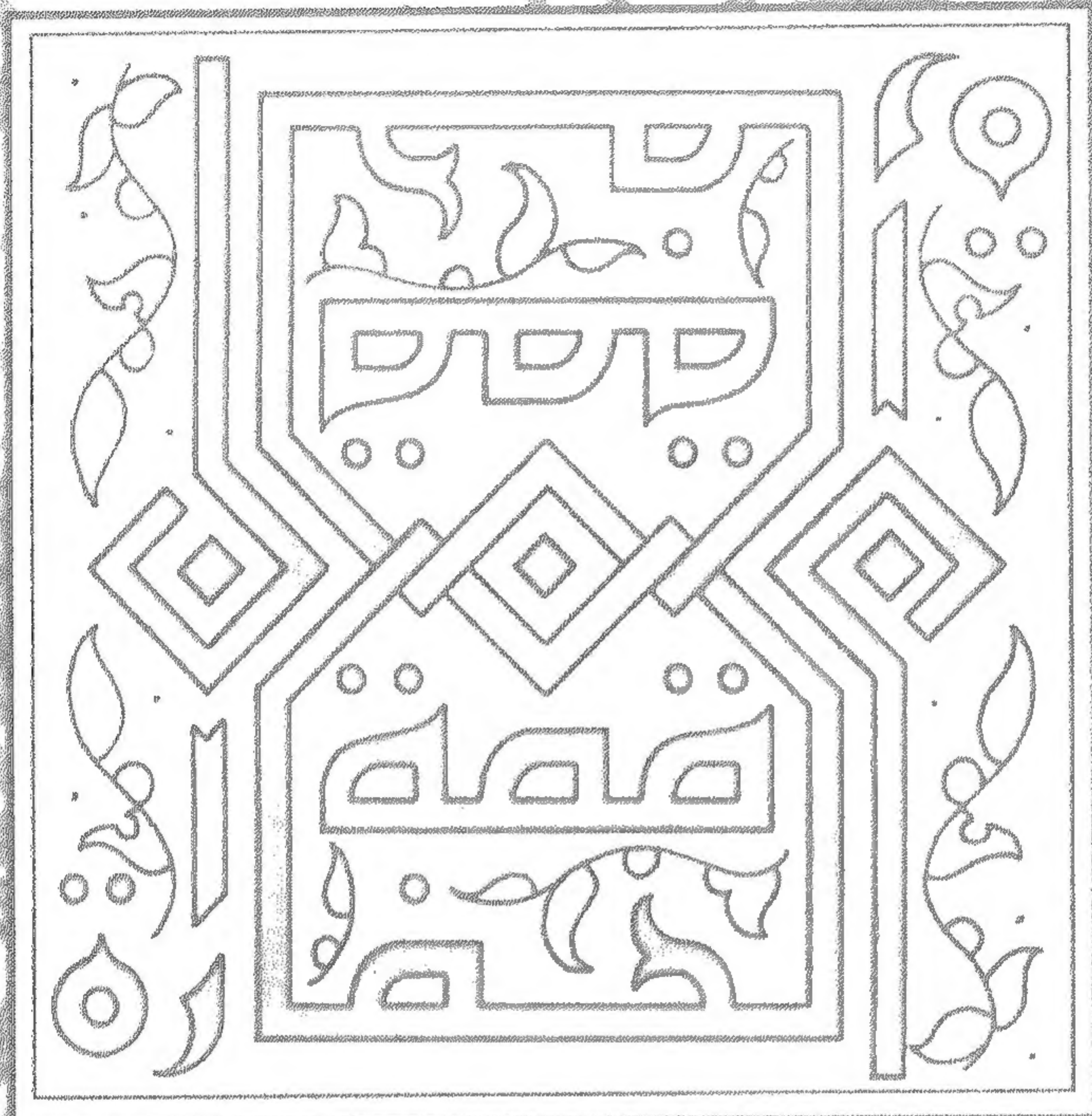
ول وایر نیل دیورانت

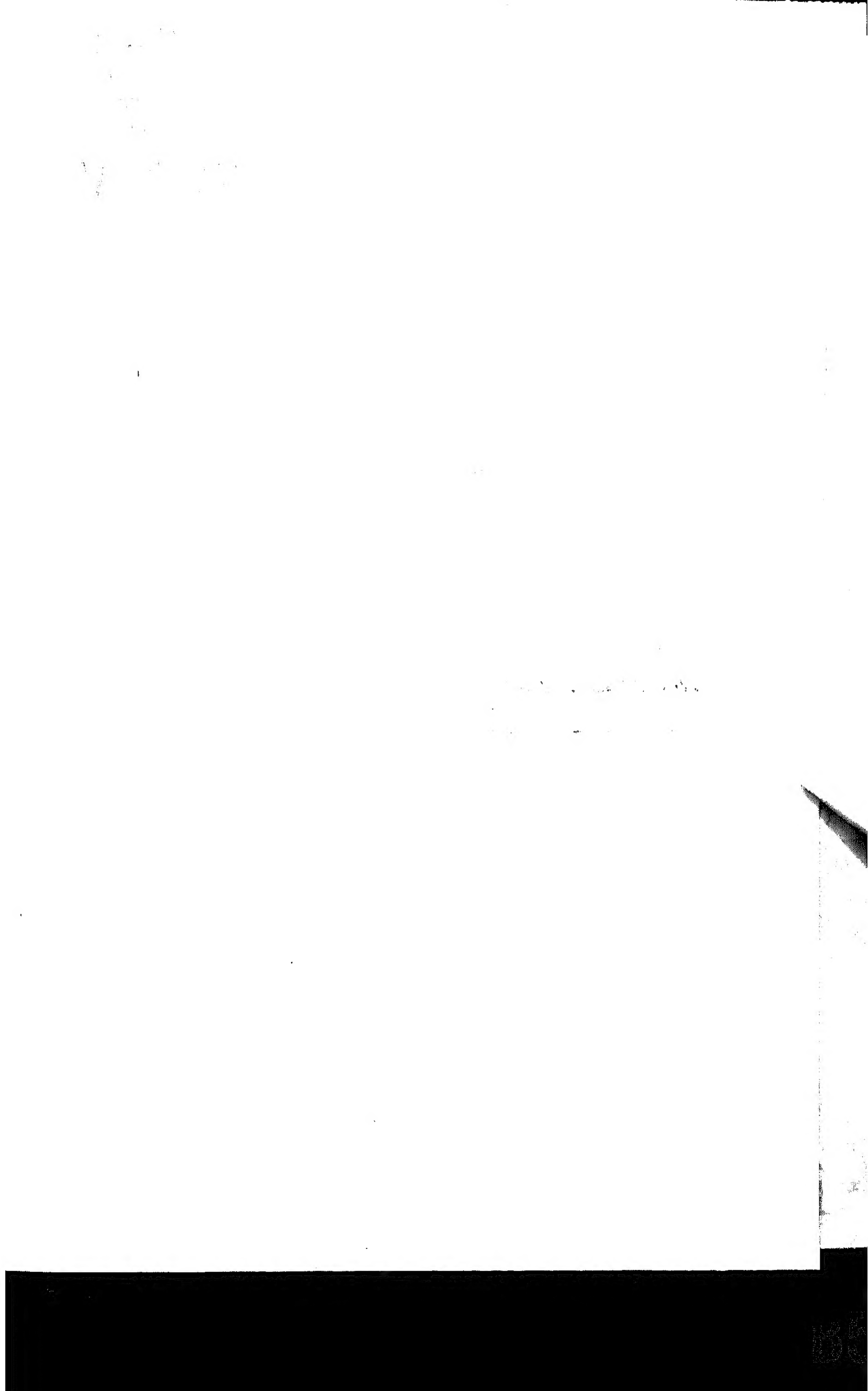
قصّة الحضارة

النهضة
الإصلاح الديني

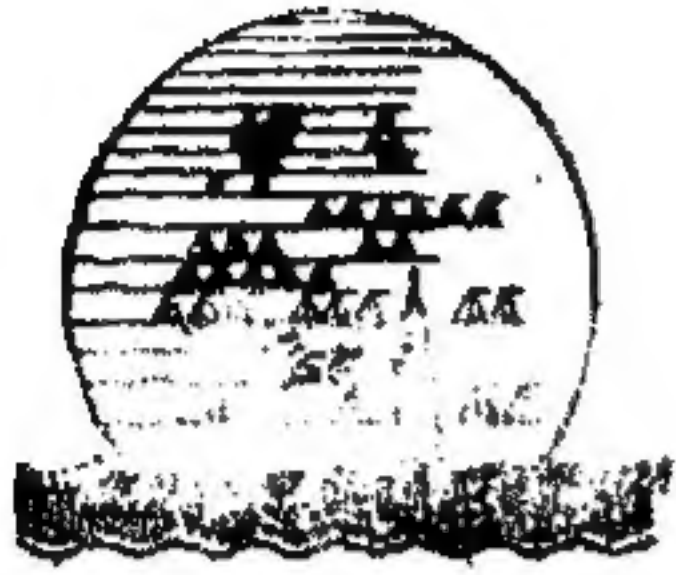








قصة الحضارة



ول وايريل ديورانت

General Organization of the Jila Library (GOAL)
Bibliothèque de Jilane

النهضة

وهو يروي تاريخ الحضارة في إيطاليا من تولد بتراركة
حتى ممات تيسيان - من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف :
رقم التسجيل : ١١ / ١٩٠٥٨ / ٤٤

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الرابع من المجلد الخامس



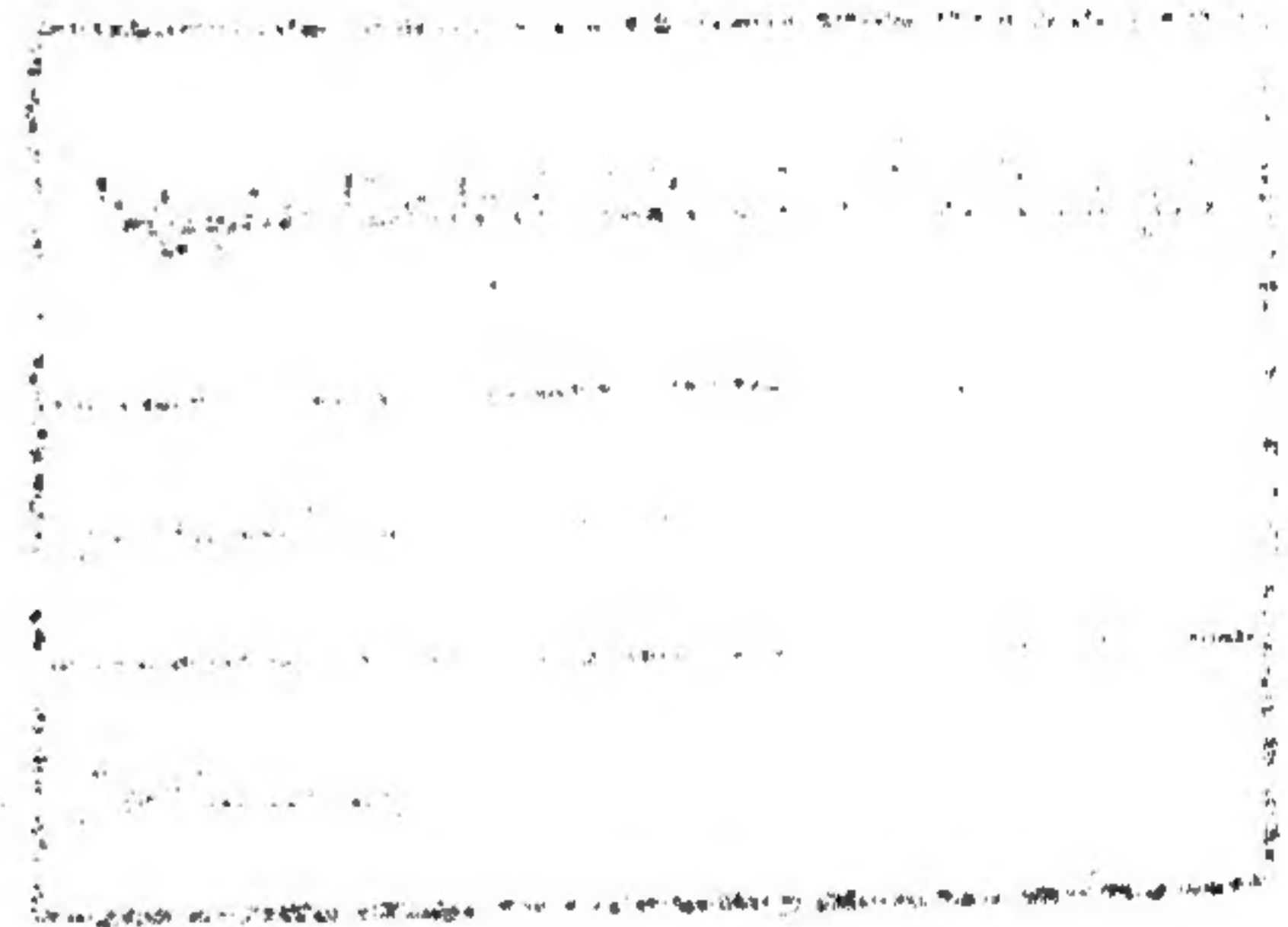
تونس

٢١



بيروت

حقوق الطبع محفوظة



دار الحديث : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلکس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان



(الصورة رقم ١) معجزة القديس مرقس - بالبندقية
من عمل تانتورتو . انظر ص ٢٦٠



فهرس الجزء الرابع من المجلد الخامس

الكتاب الخامس

الصداع

الصفحة

الموضوع

الباب التاسع عشر - الثورة العقلية

الفصل الأول :	الفنون الخلقية	٣
الفصل الثاني :	العلوم	١٠
الفصل الثالث :	الطب	١٤
الفصل الرابع :	الفلسفة	٢٦
الفصل الخامس :	جوتشيارديني	٣٨
الفصل السادس :	مكيثلي	٤٤
١ -	الدبلوماسي	٤٤
٢ -	المؤلف والرجل	٤٨
٣ -	الفيلسوف	٥٦
٤ -	تأملات	٧١

الباب العشرون - الانحلال الخلقى

الفصل الأول :	منايع الفساد الخلقى وأشكاله	٧٦
الفصل الثاني :	أخلاق رجال الدين	٨٢
الفصل الثالث :	الأخلاق الجنسية	٨٩
الفصل الرابع :	الرجل فى عصر النهضة	٩٨
الفصل الخامس :	المرأة فى عصر النهضة	١٠١
الفصل السادس :	المنزل	١٠٩
الفصل السابع :	الأخلاق العامة	١١٤
الفصل الثامن :	العادات العامة ووسائل التسلية	١٢٣
الفصل التاسع :	التمثيل	١٣١

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر : الموسيقى	١٣٥
الفصل الحادى عشر : نظرة شاملة	١٤٨

الباب الحادى والعشرون — الانهيار السياسى

الفصل الأول :	فرنسا تكشف إيطاليا	١٥٣
الفصل الثانى :	تجدد الهجوم	١٦٢
الفصل الثالث :	خلف كبرىه	١٦٦
الفصل الرابع :	ليو وأوربا	١٧٣
الفصل الخامس :	أدريان السادس	١٧٧
الفصل السادس :	كلمنت السابع — الفترة الأولى من حياته	١٨٣
الفصل السابع :	نهب رومة	١٩٠
الفصل الثامن :	شارل المنتصر	١٩٩
الفصل التاسع :	كلمنت السابع والفنون	٢٠٥
الفصل العاشر :	ميكل أنجيلو وكلمنت السابع	٢١٢
الفصل الحادى عشر :	خاتمة عصر	٢١٨

الكتاب السادس : الخاتمة

الباب الثانى والعشرون — أفول نجم البندقية

الفصل الأول :	بعث البندقية	٢٢٣
الفصل الثانى :	أريتينو	٢٣١
الفصل الثالث :	تيشيان والملوك	٢٤٥
الفصل الرابع :	تنتورتو	٢٥٧
الفصل الخامس :	فيرونيزى	٢٧٥
الفصل السادس :	نظرة شاملة	٢٨٧

الباب الثالث والعشرون — انحطاط عصر النهضة

الفصل الأول :	اضمحلال إيطاليا	٢٨٩
الفصل الثانى :	العلم والفلسفة	٢٩٩
الفصل الثالث :	الأدب	٣٠٧

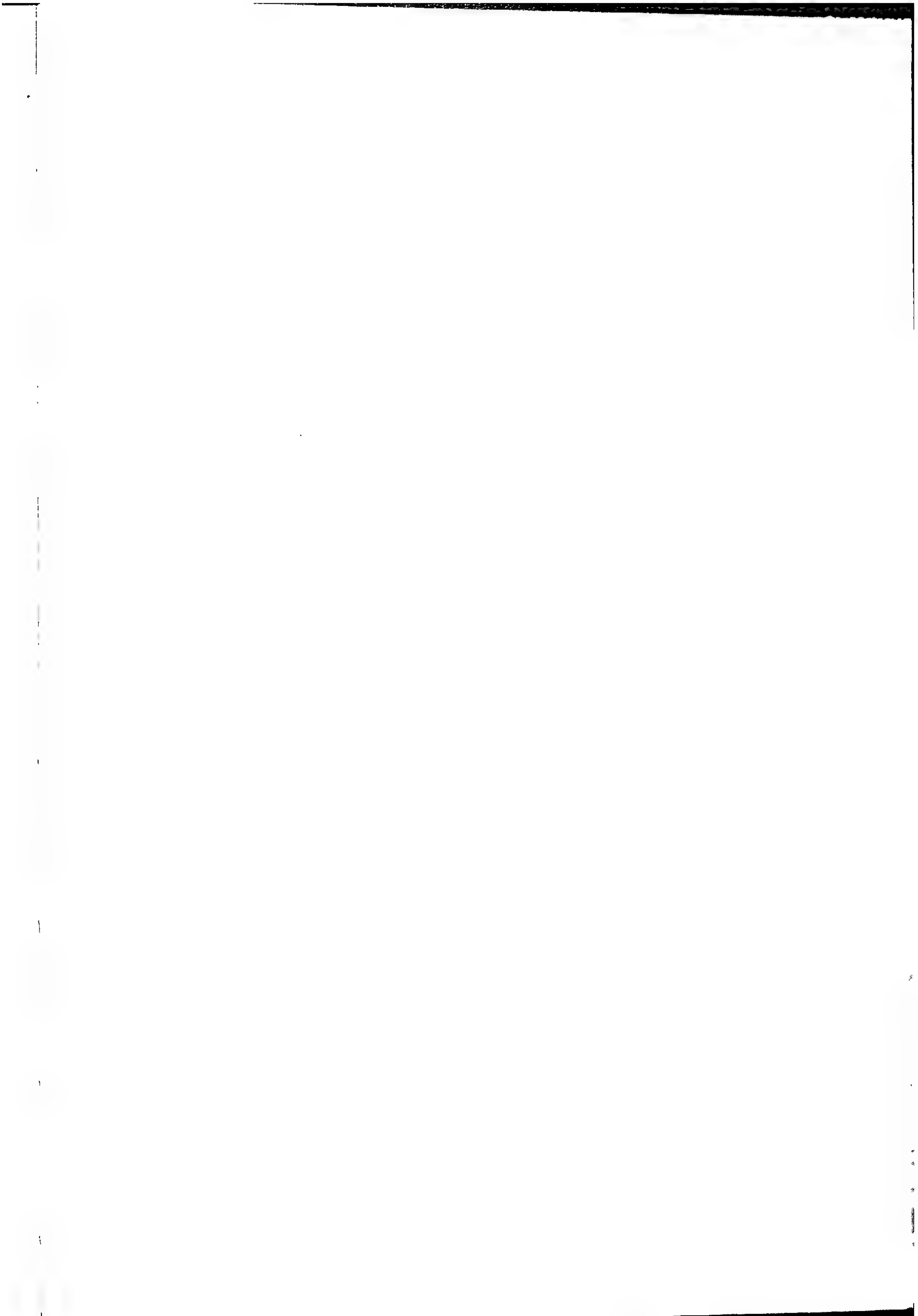
الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : صحوة السحر في فلورنس	٣١٣
الفصل الخامس : بينثينوتو تشليني	٣٢٤
الفصل السادس : أخواء صغرى	٣٣٤
الفصل السابع : ميكل أنجيلو : آخِر المطاف	٣٤١
حاشية	٣٥٧
المراجع	٣٦٦

فهرس الصور

رقم الصفحة	مدلوها	رقم الصورة
أول الكتاب	معجزة القديس مرقس	١ -
أمام ص ٢١٢	مدفن لورندسوده ميديتشي	٢ -
» ٢١٢	أريتينو	٣ -
» ٢٤٨	البابا بولس الثالث	٤ -
» ٢٤٨	شارل الخامس	٥ -
» ٢٥٠	فينوس أرينو	٦ -
» ٢٥٤	رجل إنجلزي	٧ -
» ٢٥٤	تيشيان	٨ -
» ٢٦٢	التنصيب	٩ -
» ٢٧٢	دانييل بربارا	١٠ -
» ٢٧٢	پاولو فيرونيزي	١١ -
» ٢٧٩	اختطاف أوربا	١٢ -
» ٢٧٩	تمثال نصفي لميكل أنجيلو	١٣ -
» ٢٨٢	المريخ وفينوس	١٤ -

الكتاب الخامس

المصدع



الباب التاسع عشر

الثورة العقلية

الفصل الأول

الفنون الخفية

الحضارة في كل عصر من العصور وعند كل أمة من الأمم نتاج أقلية من الأهلين تستمع بامتيازاتها وتحمل تبعاتها . والمؤرخ العليم بما تتصف به السخافات بمن عناد شامل نفاذ يوطن نفسه على الاعتقاد بما سوف يكون للخرافات من مستقبل باهر مجيد ؛ ذلك أنه لا يتوقع أن تنشأ درل كامامة على أكتاف خلائق ناقصة ؛ ويدرك أن نسبة قليلة من الناس في أي جيل هي وحدها التي تستطيع أن تتحرر من المتاعب الاقتصادية تتحرراً يتيح لها من الفراغ والنشاط ما تستطيع به أن تفكر تفكيرها الخاص بدل تفكير أسلافها أو من يحيطون بها ؛ ويتعلم هذا المؤرخ أن يتبع إذا استطاع أن يجد في كل فترة من الفترات عدداً قليلاً من الرجال والنساء رفعوا أنفسهم بقوة عقولهم أو بفضل مولدهم أو ظروفهم من وهدة الخرافات ، والفنون الخفية ، والسذاجة العقلية إلى مستوى من الذكاء القائم على العلم وعلى المودة يدركون به ما هم فيه من جهل لا حد له .

ومضداً لهذا كانت الحضارة في إيطاليا إبان عصر النهضة مزرة مخنونة بها القليلون ، وينشأ القليلون ، ولا يستمتع بها إلا القليلون . أما الرجل

العادي الساذج ، الذي ليس أكثر من فرد في جماعة ، فكان يحرق الأرض ويستخرج منها المعادن ، ويجر عربات النقل أو يحمل الأثقال ، ويكد ويكدح من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، حتى إذا أمسى المساء أنهكه التعب فلم يجد في نفسه قدرة على التفكير . ومن أجل هذا كان يتلقى آراءه ، ودينه ، وما يجيب به عن ألغاز الحياة من الهواء الذي يحيط به ، أو يرثها من كوخ آبائه وأجداده ؛ فكان يترك غيره يفكرون لأن غيره من الناس كانوا يرغبونه على أن يعمل لهم ؛ ولم يكن يكتفى بقبول العجائب التي تخلب ليه ، وتريح نفسه ، وتلهمه وتروعه ، والتي يحتويها دينه التقليدي - وهي عجائب كان يتكرر انطباعها في عقله كل يوم عن طريق العدوى ، والتلقين ، والفن - بل كان يضيف إليها من ثنايا عقله الشياطين ، والسحر ، والنذر ، والتنبؤ بالغيب ، والتنجم ، وعبادة المخلوقات ، وصنع المعجزات التي يتألف منها ما يمكن أن نسميه الميتافيزيقا الشعبية التي لا تجيزها الكنيسة وتستنكرها وترى فيها مشكلة تسبب لها من المتاعب أكثر مما يسببه عدم الإيمان . وبينما كان الرجل الممتاز في إيطاليا أرقى من مثيله في طبقته من أبناء ما وراء الألب في الثروة والثقافة بنصف قرن أو أكثر ، كان الرجل العادي المقيم في جنوب الألب يشارك نظرائه في شمال تلك الجبال في كل ما كان سائداً في ذلك العصر من خرافات وأوهام .

وكثيراً ما كان الكتاب الإنسانيون أنفسهم يسلمون عقولهم لسخافات يبتهم ، وينثرون في الصحف التي تفيض بالفصاحة الشيشرونية روح هذه البيئة أو سخافاتهما إن شئت . فها هو ذا يجيو مثلاً يرتع ويمرح وسط النذر وغرائب المخلوقات كالفرسان الذين لا رعوس لهم والذين يهاجرون من كومو إلى ألمانيا ؛ أو آلهة البحار الملتحين الذين يخرجون من أعماق البحار ليختطفوا النساء الحسنان من شواطئها^(١) . وها هو ذا مكيفلي المتشكك في الدين لا يستبعد أن يكون « الهواء مليئاً بالأرواح » ويجهر باعتقاده أن الحوادث الخطيرة

تسبقها وتدل عليها خوارق الطبيعة ، والنبوءات ، والوحي ، والعلامات التي تظهر في السماء^(٢) . وكان أهل فلورنس الذين يظنون أن الهواء الذي يتنفسونه يجعلهم مهرة لا يجاريهم في ذلك غيرهم من الناس ، يعتقدون أن جميع الحوادث الخطيرة تقع في أيام السبت ، وأن السير إلى الحرب في شوارع معينة من المدينة يجبر عليهم مصائب لا يستطيعون النجاة منها^(٣) . واضطرب عقل بولتيان من جراء مؤامرة باتسي Pazzi اضطراباً لم يسعه معه إلا أن يعزو إليها ما أعقبها من مطر مدمر ، وعفا عن الشبان الذين أرادوا أن يضعوا خدأً للمطر ، بأن أخرجوا جثة زعيم المؤامرة ، وعرضوها في شوارع المدينة ، ثم ألقيوها في نهر الآرنو^(٤) . وكتب مرسليو فتشينو بدافع عن التنبؤ بالغيب ، والتخمين ، ووجود الشياطين ، واعتذر عن عدم زيارة بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola لأن النجوم وقتئذ لم تكن في اقترانها بمبشرة بالخير^(٥) . ولعل ذلك الاقتران كان وهما صورته له الخيال . وإذا كان يسع الكتاب الإنسانيين أن يؤمنوا بهذا ، فهل يحق لنا أن نلوم عامة الشعب الذين لا نصيب لهم من الفراغ ولم ينالوا حظاً من التعليم إذا ظنوا أن العالم الطبيعي مليء بالقوى الخارقة وأنه أداة لها تستخدمه لا غير .

وكان سكان إيطاليا يعتقدون أن كثيراً من الأشياء من مخلقات المسيح أو الرسل حقاً . وقد بلغت هذه المخلقات من الكثرة درجة يستطيع الإنسان معها أن يجد في الكنائس الرومانية في عهد النهضة أشياء تمثل جميع مناظر الأناجيل . فواحدة منها تدعى أن قطعة من قماط الطفل يسوع ، وأخرى تقول إن بها عود دريس من مزود بيت لحم ، وثالثة تزعم أنها تضم قطعاً من الأرغفة والسمك التي تضاعف غديدها ؛ ورابعة تنادي أن بها المائدة التي استخدمت في العشاء الأخير ؛ وواحدة تعتقد أن بها صورة العذراء التي رسمها الملائكة للقديس لوقا^(٦) . وكانت كنائس البندقية تعرض لجسم القديس مرقس ، وقطعة من ذراع القديس جورج وإحدى أذني القديس

بولس ، وبعض السمك المحمر الذي أكل منه القديس لورنس ، وبعض الحجارة التي قتلت القديس استيفن (٧) .

وكان الاعتقاد السائد أن لكل جسم — بل لكل عدد وكل حرف — قوة سحرية . ويقول أرتيكنو إن بعض العاهرات الرومانيات كن يطعن عشاقهن لحم الجثث البشرية المتعفنة يسرقنه من المقابر ليقوين به باههم (٨) . وكانت الرقي تستخدم لألف غرض من الأغراض ؛ ويقول أبوليان إنك إذا تلوت الرقية الصحيحة استطعت أن تقي نفسك شر الكلاب . وكانت الأرواح الخيرة والشريرة تملأ الهواء ؛ وكثيراً ما كان الشيطان يظهر بنفسه أو يلبس جسم من ينيبه ليغوى أو يرهب ، أو يخدع ، أو ينفث القوة أو العلم فيمن يريد ؛ وكان لدى العفاريت طائفة لا تنفذ من العلم الخفي يستطيع المرء أن ينال ما يريده منها إذا استطاع أن يستميلها إليه بطريقة خاصة . وظل بعض رهبان الكرمل المقيمين في بولونيا (حتى أداهم سكستس الرابع في عام ١٤٧٤) يعلمون الناس أن لا ضرر مطلقاً من أخذ العلم عن الشياطين (٩) ، وكان السحرة المحترفون يعرضون رقاهم التجربة الصحيحة التي ينالون بها معونة الشياطين على من يؤدون ثمنها من الطالبين . وكان المعتقد أن الساحرات — ونقول الساحرات لأنهن كن في العادة من النساء — أقدر بنوع خاص على الاتصال بأولئك العفاريت الذين يقدمون هذا العون ، وكن يعاملنهم كأنهم عشاقهن أو آلهة هن . وكانت اللاتي خُلعت عليهن هذه القوى الشيطانية يستطعن — كما يعتقد الناس — أن يتنبأ بالمستقبل ، ويطرن في أقصر اللحظات مسافات شاسعة ، ويدخلن من الأبواب المغلقة صغيرة أو كبيرة ، ويصبن بشرهن المستطير من يسىء إليهن من الناس . وكان في مقدورهن أن يبعثن في النفوس الحب أو البغض ، ويحدثن الإجهاض ، ويصنعن السم ، ويحدثن الموت برقية أو نظرة .

وأصدر إنوسنت الثامن في عام ١٤٨٤ مرسوماً يابوياً يحرم فيه الالتجاء

إلى الساحرات ، ويسلم فيه بصحة بعض ما يدعيه من القوى ، ويعزو إليهن بعض العواصف والأوبئة ، وشكا من أن بعض المسيحيين ، الذين حادوا عن الشعائر الدينية الصحيحة ، كانوا قد اتصلوا اتصالاً جسيماً بالشياطين ، وأنهم استعانوا بالرق ، والعبارات السحرية المسجعة ؛ واللعنات ، وغيرها من الفنون الشيطانية . فأوقعوا ضرراً شديداً ببعض الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والحيوانات (١٠) . وأشار البابا علي عمال محاكم التفتيش أن يكونوا يقظين حذرين من هذه الأعمال . ولم يفرض هذا المرسوم على الناس الإيمان بالسحر على أنه من العقائد الرسمية للكنيسة . ولم يبدأ به عقاب الساحرات ؛ ذلك أن اعتقاد الناس بوجود الساحرات ، وعقائهن في بعض الأحيان قد حدثا قبل صدور هذا المرسوم بزمان طويل . وكان البابا حين أصدره أميناً على ما جاء في العهد القديم إذ يقول : « لا تدع ساحرة تعيش » (١١) . وكانت الكنيسة قد ظلت قروناً طويلاً تؤمن بإمكان تأثير الشياطين في الآدميين (١٢) . ولكن افتراض البابا حقيقة وجود السحر قد قوى الاعتقاد بصحة هذا التأثير ، وكان التحذير الذي وجهه لأعضاء محكمة التفتيش بعض الأثر في اضطهاد الساحرات (١٣) . فقد حدث في العام الأول بعض هذا المرسوم أن حرق إحدى وأربعون امرأة في كومو وحدها بتهمة أنهن من الساحرات (١٤) . وقضى المفتشون في بريشيا عام ١٤٨٦ على عدد من الساحرات المزعومات بأن يسلمن إلى السلطة الزمنية أي أن يعدمن ، ولكن الحكومة رفضت تنفيذ الحكم ، وغضب لذلك إنوسنت أشد الغضب (١٥) وسارت الأمور سيراً أكثر من هذا انسجاماً بين السلطتين في عام ١٥١٠ ، فمنح نسمع أن ١٤٠ امرأة قد أحرقن في بريشيا بتهمة السحر ، وفي عام ١٥١٤ في بابوية ليو الرحيم الظريف أحرق ثلاثمائة أخريات في كومو (١٦) .

وازداد عدد الأشخاص الذين يعتقدون . أو يعتقد غيرهم فيهم

أنهم يمارسون السحر زيادة سريعة وبخاصة في إيطاليا الواقعة في جنوب
جبال الألب ، ولعل ذلك كان بسبب ما أحدثه الاضطهاد من استفزاز
للنفوس أو لغيره من الأسباب . وأخذ الأمر يتفاقم حتى اتخذت صورة
وباء في طبيعته وكثرة المصابين به . وقال الناس وقتئذ إن ٢٥,٠٠٠ شخص
حضرُوا « سينا للساحرات » على سهل قريب من بريشيا ، وفي عام ١٥١٨
أُحرق عمال محكمة التفتيش سبعين ساحرة مزعومة من أهل ذلك الإقليم .
وزج آلاف في سجون المحكمة . واحتج مجلس السيادة في بريشيا على زج
الناس جملة في السجون ، وحال دون الاستمرار في قتل السحرة والساحرات ،
فما كان من ليو إلا أن أصدر مرسوماً (١٥ فبراير سنة ١٥٢١) ، يأمر فيه
بحرمان أى موظف يأبى أن ينفذ دون تحقيق أو جدل أحكام عمال محكمة
التفتيش ، ووقف جميع الخدمات الدينية بين أية جماعة تمتنع عن هذا التنفيذ .
وتجاهل مجلس السيادة هذا المرسوم ، وعين أسقفين ، وطبيين من أهل
بريشيا ، وعامل من عمال محكمة التفتيش للإشراف على ما يحدث بعدئذ
من محاكمات للسحرة والساحرات ، وللبحث في عدالة ما صدر من أحكام
سابقة ؛ ونحول هؤلاء الرجال دون غيرهم سلطة إصدار الأحكام على
المتهمين . وأصدر مجلس السيادة المندوب البابوي بأن يضع حداً لإدانة الناس
لكى يستطيع بذلك مصادرة أملاكهم (١٦) . وكان هذا إجراء غاية في
الجرأة ولكن الجهالة وشهوة القتل والتعذيب تغلبتا آخر الأمر ، وظل
إحراق الناس بتهمة السحر وصمة عار لا تمحى من تاريخ البشرية في القرنين
التاليين ، في البلاد البروتستنتية والكاثوليكية ، وفي العالم الجديد والعالم القديم
على حد سواء .

وكانت الرغبة الجنونية في معرفة المستقبل عوناً كبيراً للمتنبئين بحظوظ
الناس بأنواعهم المألوفة — قراء الكف ، ومفسرى الأحلام ، والمنجمين ؛
وكان هؤلاء أكثر عدداً وأعظم قوة في إيطاليا منهم في سائر أنحاء أوروبا .

وكادت كل حكومة إيطالية يكون لها منجم رسمي يحدد لها بالنظر في مواقع النجوم الأوقات الملائمة للبدء في المشروعات الهامة . ولم يشأ يوليوس الثاني أن يغادر بولونيا إلا بعد أن أنبأه منجمه أن الوقت ملائم لمغادرتها ، وكان سكستس الرابع وبولس الثالث يطلبان منجميهما تحديد الساعات التي يعقدان فيها مؤتمراتهما الكبرى^(١٦) . وقد بلغ انتشار العقيدة القائلة بأن النجوم تسيطر على أخلاق البشر وشؤونهم حداً جعل كثيراً من أساتذة الجامعات في إيطاليا يصعدون في كل عام تنبؤات قائمة على أساس التنجيم^(١٦) ، وكان من أفانين أرتينو المضحكة أن يحاكي هذه التقاويم التي يضعها أولئك العلماء . ولما أن أعاد لورندسو ده ميديتشي جامعة پيزا ، لم يقرر ضمن مواد الدراسة فيها منهجاً للتنجيم ؛ ولكن الطلاب ضجوا طالبين وضع هذا المنهج ، ولم يجد بداً من الخضوع لمطلبهم^(١٦) . ووجه ييكو دلاميرندولا أحد العلماء الأعلام المحيطين بلورندسو هجوماً كتابياً شديداً على التنجيم ، ولكن مرسيليو فتشينو الأغزرمه علماً دافع عنه . وصاح جوتشياردينى قائلاً : « ألا ما أسعد المنجمين الذين يؤمن الناس بأقوالهم ولو صدقوا مرة واحدة وكذبوا مائة مرة ، على حين أن غيرهم من الناس يفقدون الثقة بهم إذا كذبوا مرة واحدة وصدقوا مائة مرة »^(١٢) . لكن التنجيم مع ذلك كان ينطوى على شيء من التطلع نحو النظرة العلمية إلى الكون ؛ وكان فيه إلى حد ما مهرب من الاعتقاد بوجود كون تسيطر عليه مشيئة الله أو نزعات الشياطين ، ويهدف إلى العثور على قانون طبيعي شامل ينسق المظاهر الطبيعية ويوفق بينها .

الفصل الثاني

العلوم

لم يكن سبب تأخر العلوم هو مقاومة الكنيسة . بل كان ما يتمسك به الناس من خرافات وأوهام . ولم تكن الرقابة على النشر عقبة كأداء في سبيل العلم إلى أن قامت حركة الإصلاح المعارضة عقب مجلس ترنت (١٥٤٥ وما بعدها) ، فقد جاء سكستس الرابع إلى رومة (١٤٦٣) بأشهر منجم عاش في القرن الخامس عشر وهو جوهان ملر رچيو « مونس » Johan Müller "Regiomontnus" . وكان كوبرنيق في عهد البابا ألكسندر يدرس العلوم الرياضية والفلك في جامعة رومة ، ولم يكن كوبرنيق هذا قد وصل بعد إلى نظريته التي هزت كيان العالم والتي تقول بدوران الأرض في فلكها حول الشمس ، ولكن نقولاس الكوزائي Nicholas of Cusa كان قد أشار إليها قبل ذلك الوقت ، وكلاهما من رجال الدين . وكانت محكمة التفتيش ضعيفة ضعفاً نسبياً في إيطاليا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان من أسباب هذا الضعف بعد البابوات عنها في أفنيون ، وما قام بينهم من نزاع أثناء عهد الانشقاق ، وما وصل إليهم من عدوى الاستنارة في عهد النهضة . وحدث في عام ١٤٤٠ أن حاكت محكمة التفتيش في ميلان أماديو ده لاندی Amadeo de' Landi صاحب النزعة المادية ، وبرأته مما عزی إليه ، وحمى نصير جبريلي ده سالو Gabriele de. Salo. هذا الطبيب الملاحد من محكمة التفتيش مع أنه « اعتاد أن يقول إن المسيح ليس هو الله بل هو ابن يوسف » (٦٧) . وكان التفكير في إيطاليا أكثر حرية والتعليم فيها أكثر تقدماً مما كانا في أي بلد آخر خلال القرن الخامس عشر وفي أوائل القرن السادس عشر . وكانت مدارسها التي تعلم

الفلك ، والقانون ، والطب ، والآداب ملتحق الطلاب من أكثر من عشرة أقطار ، ولما أن أتم تومس ليناكر Thomas Lamacrel الطبيب والعالم الإنجليزى دراسته الجامعية فى إيطاليا وقفل راجعاً إلى إنجلترا أقام فى جبال الألب الإيطالية مذبحاً ، ودشنه وهو يلتقى آخر نظرة على إيطاليا باسم هذه البلاد **الرؤم الخنور للعلم منشئة الدراسات** وجامعة العالم المسيحى التى يواصل فيها العلماء دراساتهم بعد تخرجهم .

وإذا لم يكن العلم قد تقدم خلال القرنين السابقين على أيام فيساليوس Vesalius (١٥١٤ - ١٥٦٤) إلا تقدماً يسيراً فى هذا الجو المشبع بالخرافات من أسفل ، وبالحزب العقلى من أعلى ، فقد كان أكبر السبب فى هذا أن المناصرة والتكريم كانا موجهين إلى الفن ، والمنح مخصصة للأدب ، وللشعر ، ولم تكن قد قامت بعد دعوة واضحة للأساليب والأفكار العلمية فى حياة إيطاليا الاقتصادية والعقلية . ووَكان يسع رجلاً مثل ليوناردو أن يكون ذا نظرة كونية شاملة ، ويمس أكثر من عشرة علوم بعقلية الطلعة المتشوف ، ولكن البلاد كانت خالية من المعامل العلمية الكبرى ، وكان تشريح الأجسام لا يزال فى بدايته ، ولم يكن ثمة مجهر يستعان به على دراسة علم الأحياء أو الطب ، أو مرقب يكبر الكواكب ويأبى بالقمر على حافة الأرض . وَكان حب الجمال السائد فى العصور الوسطى قد نضج حتى عاد فناً فخماً بجليلا ، ولكن لم يكن فى تلك العصور حب للحقيقة . ينمو حتى يصير علماً ، وَكان كشف الآداب القديمة قد بعث فى الناس نزعة أبيقورية متشككة تمجد القديم وتتخذ مثلاً أعلى بدل أن تجعلهم يخلصون إخلاص الرواقين للبحوث العلمية التى تهدف إلى تشكيل المستقبل . ذلك أن النهضة قد وهبت روحها للفن ، ولم تترك للأدب منها إلا القليل ، وتركت أقل من هذا القليل للفلسفة ، وأقل من هذا وذاك العلوم . ولهذا كان ينقصها من هذه الناحية ذلك للنشاط العقلى المتعدد الأشكال والذى امتاز به العصر الذهبي اليونانى من أيام بركليز

ولاسكلس إلى زينون الرواقى وارسناخوس الفلكى . ولم يكن فى مقدور العلوم أن تتقدم حتى تمهد الفلسفة لها الطريق .

من أجل هذا كان مل الطبيعى أن يجد القارئ ، الذى يعرف عشرة من أسماء الفنانين ، مشقة فى تذكر اسم عالم إيطالى واحد فى عصر النهضة . هذا اسم ليوناردو ، وهو لا يذكر اسم أمرجو فسبوتشى نفسه إلا إذا ذكر به ، وأما جليليو فهو من رجال القرن السابع عشر (١٥٦٤ - ١٦٤٢) . والحق أنا لا نجد أسماء خالدة فى ذلك العصر إلا فى الجغرافية والطب . ففى أولها اشتهر أودريك الپردنوني Oderic of Pordenone الذى سافر إلى الهند والصين للتبشير بالدين (حوالى عام ١٣٢١) وعاد عن طريق التبت وبلاد الفرس ، وكتب وصفاً لما شاهد ، وأضاف معلومات كثيرة قيمة لما كتبه . ماركوپولو قبل جبل من ذلك الوقت . ولاحظ پاولو تسكانيلي Paolo Toscanelli الفلكى ، والطبيب ، والجغرافى مذهب هالى فى عام ١٤٥٦ . ويقال إنه أمد كولمبس بالمعلومات وبالتشجيع فى مغامرته لاجتياز المحيط الأطلنطى (١٦) . وقام أمرجو فسبوتشى الفلورنسى بأربع رحلات بحرية إلى العالم الجديد (١٤٩٧ وما بعدها) ، وقال إنه أول من كشف أرض القارة وأعد لها خرائط ؛ نشرها مارتن وولد سيملر Martin Waldseemüller واقترح أن تسمى القارة « أمريكا » ، وأعجب الإيطاليون بالفكرة وأذاعوها . فى كتاباتهم (١٦ خ) .

وكانت علوم الأحياء آخراً ما نشأ من العلوم ، لأن نظرية خلق الإنسان خلقاً خاصاً منفصلاً عن سائر الكائنات - وهى التى كان يؤمن بها الناس - كافة تقريباً - قد جعلت من غير الضرورى ومن الخطر أن يبحث الناس فى أصله الطبيعى . وكانت هذه العلوم تقتصر فى الأغلب الأعم على البحوث والدراسات العملية فى علم النبات الطبي ، وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار ، والزراعة : من ذلك أن پيترو ده كريستشنديسى Pietro de Crescenzi

نشر وهو في سن السبعين (١٣٠٦) كتيباً في الجغرافية خليقاً بالإعجاب وإن كان قد تجاهل كتابات مسلمي أسبانيا في ذلك الميدان ، وهي خير من كتابته . وأنشأ لورندسو ده ميديتشي في كاريجي Careggi حديقة شبه عمومية من النباتات النادرة الوجود ، وأما أولى الحدائق العمومية المخصصة لعلم النبات فهي التي أنشأها لوكا غيني Luca Ghini في پزا عام ١٥٤٤ ، وكان للحكام ذوى النزعة الحديثة كلهم تقريباً حدائق للحيوان ، كما كان الكردنال أبوليتو ده ميديتشي politico de Medici يحتفظ بمعرض من الآدميين - هم طائفة من الهمج ينتمون إلى عشرين قومية مختلفة كلهم من ذوى الأجسام القوية الممتازة .

الفصل الثالث

الطب

وكان الطب أكثر العلوم ازدهاراً لأن الناس يضحون بكل شيء ما عدا
الحرص على صحة الأجسام ؛ وكان الأطباء ينالون من الثروة الإيطالية
الجديدة قسطاً موفوراً مشجعاً ؛ فقد كانت يدوا مثلاً تويي لواحد منهم
ألفي دوق في العام ليكون مستشاراً طبياً لها ، وتركته في الوقت نفسه حراً
بتقاضى ما يشاء من الأجر في عمله الخاص . وكان يترارك الذي يعيش من
مرتباته يندد أشد التنديد بأجور الأطباء العالية وبأثوابهم القرمزية وقلانسهم
المصنوعة من فرو السنجاب^(١٦) . وخواتمهم البراقة ومهاميزهم الذهبية .
وقد حذر بجد وحرارة البابا المريض كلمنت السادس من الوثوق
بالأطباء فقال :

« أعرف أن الأطباء يحاصرون فراش مرضك ، وطبيعي أن يملأ هذا
قلبي خوفاً عليك . ذلك أن آراءهم متضاربة على الدوام ؛ وأن من لا يجد
منهم جديداً ينطق به يحمله عار التخلف عن غيره من الأطباء . وهم يتجرون
بحياتنا لكي تبيع شهرتهم بما يستحدثون من جديد كما يقول بليني Plini .
وحسب الواحد منهم أن يقول إنه طبيب لكي يؤمن الناس بكل كلمة يقولها ،
وليس هذا شأن الحرف الأخرى ، مع أن كذبة الطبيب يكمن فيها من
الأنطار ما لا يكمن في كذبة غيره . وهم يتعلمون مهنتهم على حسابنا ،
وحتى موتنا يهيئ لهم أسباب الخبرة ، فالطبيب وحده من حقه أن يقتل
الناس دون أن يخشى عقاباً ؛ ألا أيها الأب يا أرحم الراحمين ! انظر إلى
عصبتهم نظرتك إلى جيش من الأعداء ، واذكر القرية المحذرة التي نقشها
رجل بائس على شاهد قبره : « لقد مت من كثرة الأطباء ! »^(١٧) .

ولقد كان الأطباء في جميع البلاد والعهود المتحضرة ينافسون النساء فيما يمتازن به من أنهن أكثر من يشتهى بنو الإنسان أكثر من بهجون .

وكان الأساس الذي قام عليه تقدم الطب هو بحث التشريح . ذلك أن خدم الكنائس كانوا يتعاونون مع الأطباء كما كانوا يتعاونون مع الفنانين ، فيقدمون جثث الموتى لتشرح في المستشفيات التي يشرف عليها أولئك الأطباء . فكان مندينيو ده لوتسي Mondino de' Luzzi مثلاً يشرح

جثث الموتى في بولونيا وكتب كتاباً في « التشريح Anatomia » (١٣١٦) بقي مرجعاً من أهم المراجع مدى ثلاثة قرون . على أنه كان يصعب على الأطباء مع ذلك أن يحصلوا على الجثث ، وحدث في عام ١٣١٩ أن سرق بعض الطلاب في بولونيا جثة في إحدى المقابر وجاءوا بها إلى أستاذ في الجامعة شرحها أمامهم ليدرّسوا أجزاءها ، فسبق الطلاب للمحاكمة ، ولكنهم برثوا ، وأخذت ولاية الأمور المديون من ذلك الوقت يغضون الطرف عن استخدام جثث المشنوقين التي لا يطالب بها أحد في « التشريعات » (١٨) . ويعزى إلى بيرينجاريو دافيري Berengario da Capri (١٤٧٠ - ١٥٥٠) أستاذ التشريح في جامعة بولونيا أنه شرح مائة جثة (١٩) . وكان التشريح يحدث في جامعة پيزا منذ عام ١٣٤١ إن لم يكن قبله ، وسرعان ما سمح به في جميع مدارس الطب بإيطاليا ومنها مدرسة الطب البابوية القائمة في رومة ، وأجاز سنكستس السادس (١٤٧١ - ١٤٨٤) هذا التشريح رسمياً (٢٠) .

واستعاد التشريح في عهد النهضة على مهل تراثه المنسى في عهد اليونان والرومان الأقدمين ، وحرره رجال أمثال أنطونيو بنيفيني Antonio Beniveni ، وألسندرو أكياني Alessandro Achillinni ، وألسندرو بينيديتي Marcantonio della Torre ، وماركانطونيو دلاتوري ، وحرره هؤلاء من سيطرة العرب ، وعادوا به إلى جالينوس وأبقراط ، وشكروا حتى في هذين العميدين المقدسين ، وأضافوا إلى المعارف

العلمية في الجسم البشري كلى عصب ، وعظم ، وعضله فيه : ووجه بينيفيني
بحوثه في التشريح لمعرفة الأسباب الداخلية للأمراض ، وكانت رسالته في

الأسباب الخفية والعجيبة الأمراض وعبرها (De abditis nonnullis ac

Mirandis Morborum et canationm causis. ١٥٠٧) أساس التشريح

المرضى (الباثولوجى) وجعل فحص الجسم بعد الموت عاملاً أساسياً في

نمو الطب الحديث : وزاد فن الطباعة بالحديد في هذه الأثناء سرعة تقدم

الطب لأنه يسر انتشار الكتب الطبية وتبادلها بين الدول المختلفة :

وفي وسعنا أن نقلر بعض التقدير انتكاس العلوم الطبية في العالم المسيحي

باللاتيني خلال العصور الوسطى إذا لاحظنا أن أعظم المشرحين والأطباء

في ذلك العصر لم يكادوا يبلغون من العلم قبل عام ١٥٠٠ ما بلغه أبقراط ،

وجالينوس ، وسورانوس Soranus في الفترة المحصورة بين ٤٥٠ ق . م

و ٢٠٠ بعد الميلاد . وكان العلاج في خلال العصور الوسطى لا يزال قائماً

على نظرية الأخلاط لأبقراط : وكانت الحجامة هي العلاج الشافى من كل

العلل . وكانت أول محاولة معروفة لنقل الدم هي التي قام بها طبيب يهودى

لعلاج البها إينوسنت الثامن (١٤٩٢) ؛ وأنقذت هذه المحاولة كما قلنا من

قبل . وكان الراقون لا يزالون يدعون لعلاج العجز الجنسي وفقدان

الذاكرة بالرقى الدينية أو تقبيل الخلفات ؛ ولعل سبب التجاثر إلى هذه

الأساليب أن هذا العلاج الإيماني كان يساعد على الشفاء في بعض الحالات :

وكان الصيادلة يبيعون حبوباً وعقاقير عجيبة ويكثرون أمواهم بأن يضمنوا

إلى سلهم الكتب والورق ، والأدهان ، والحلوى ، والتوابل ، والحلى (٢١) ،

وألّف ميشيل سقزولا والد الراهب الناثر رسالة الطب التجريبي (حوالى

عام ١٤٤٠) ورسائل أخرى أقصر منها ؛ بحث في إحداها كثرة إصابة

الفنانين العظام بالأمراض العقلية ؛ وتحدث في رسالة أخرى عن مشهورى

الرجال الذين ظال غمرهم نتيجة تعاطيهم المشروبات الكحولية كل يوم .

وكان الأطباء المدجالون لا يزالون كثيرى العدد ، ولكن القانون أصبح وقتئذ يعنى بتنظيم مهنة الطب أكثر من ذى قبل ؛ فكانت العقوبات توقع على الذين يمارسون الطب دون أن يحصلوا فيه على درجة علمية ؛ وكان حصولهم عليها يتطلب دراسة منهج فيه يدوم أربع سنوات (١٥٠٠) ؛ ولم يكن يسمح لأى طبيب بأن يشخص مرضاً خطيراً إلا إذا ضم إليه زميلاً له . وكانت شرائع البندقية تحتم على الأطباء والجراحين أن يجتمعوا كل شهر ليتبادلوا المذكرات الطبية ، وأن يحتفظوا بحدة معلوماتهم بالاستماع إلى منهج في التشريح مرة كل عام على الأقل . وكان يفرض على طالب الطب وقت تخرجه أن يقسم ألا يطيل على مريض زمن مرضه ، وأن يشرف على تحضير الدواء الذى يصفه له ، وألا يشارك الصيدلى فى الثمن الذى يتقاضاه نظير إعداد الدواء . وحدد هذا القانون نفسه (قانون البندقية الصادر فى عام ١٣٦٨) أجر الصيدلى نظير تحضير الدواء بعشرة صليديات (٢٢) . والصيدلى عملة لا استطاع الآن تقدير قيمتها . وقد وصلت إلى علمنا عدة حالات جعل فيها شفاء المريض شرطاً لتقاضى الطبيب أجره . وذلك بناء على تعاقد خاص بينهما (٢٣) .

وأخذت الجراحة ينتشر صيتها انتشاراً سريعاً كلما اقترب سجل عملياتها وآلاتها مما كان عليه من التنوع والاتفاق فى عهد المصريين الأقدمين . من ذلك أن برناردو دا رابلو Bernardo da Rapallo ابتكر الجراحة العجائية لاستخراج الحصوة (١٤٥١) ؛ واشتهر مريانو سانتو Mariano Santo بكثرة نجاحه فى استخراج حصاة المثانة بالشق الجانبي (حوالى ١٥٣٠) وابتكر جيوفنى دا فيجو جراح يوليوس الثانى وسائل لربط الشرايين والأوردة خيراً . من الوسائل التى كانت معروفة من قبل ؛ وغادت الجراحة التعويضية التى كانت معروفة للأقدمين إلى الظهور فى صقلية حوالى عام ١٤٥٠ ؛ وكانت الأنوف ، والشفاه ، والأذان المشدوهة تصلح بترقيعها

بالجلد المأخوذ من أجزاء أخرى من الجسم ، وقد بلغ من إتقانها أن الناظر إليها لا يكاد يتبين خطوط الالتحام (٢٤) .

وأخذت أساليب الصحة العامة تتحسن تحسناً مطرداً . من ذلك أن أندريا دندولو حين كان دوج البندقية (١٣٤٣ — ١٣٥٤) أنشأ أول لجنة بلدية معروفة للصحة العامة (٢٥) ، وحذت حذو البندقية في ذلك غيرها من المدن الإيطالية . وكانت هذه اللجان الخاصة بالصحة العامة تختبر جميع الأطعمة والعقاقير التي تعرض للبيع على الجماهير ، وتأمّر بعزل من يصابون ببعض الأمراض المعدية . ولما فشا الموت الأسود في أوروبا منعت البندقية في عام ١٣٧٤ جميع السفن التي تحمل أشخاصاً يرتاب في أنهم مصابون بالمرض أو بضائع مشتبه في أنها مصابة به من الدخول في موانئها . وفي راجوسا Ragusa كان القادمون يحجزون في أماكن خاصة ثلاثين يوماً قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة . وكانت البضائع المشتبه فيها تعامل هذه المعاملة نفسها . وأطالت مرسيليا مدة الحجر الصحي (١٣٨٣) (الكرنطينة la quarantaine) فجعلته أربعين يوماً ، وحذت البندقية حذوها في عام ١٤٠٣ (٢٦) .

وأخذت المستشفيات يتضاعف عددها بهمة رجال الدين وغير رجال الدين وغيرهم ، فأنشأت سينا في عام ١٣٠٥ مستشفى اشتهر بسعته وبما كان يؤديه من خدمات ، وأسس فرانثيسكو اسفوردسا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore في ميلان (١٤٥٦) ، وحولت البندقية في عام ١٤٢٣ جزيرة سانتا ماريا دي نازاريت Santa Maria di Nazaret إلى محجر صحي لإيواء المصابين بالجذام ؛ وكان هذا أول محجر معروف من نوعه في أوروبا كلها (٢٧) . وكان في فلورنس في القرن الخامس عشر ثلاثة وخمسون مستشفى (٢٨) ؛ وكانت هذه المؤسسات كلها تستمد معونة سخية من الطبقات الخاصة والعامة ؛ وكانت بعض المستشفيات مضرب المثل في روعة البناء

وفخامته ، ومنها المستشفى الكبير في ميلان ؛ ومنها ما كان يزين جدرانها
بالتحف الفنية الملهمة . واستخدم مستشفى كبا Ospedale del Coppa
في بستويا جيوفني دلا ريبيا ليشكل لجدرانها نقوشاً من الصلصال المحروق
تصف في وضوح نماذج من مناظر المستشفيات ، وامتازت واجهة مستشفى
البراء Ospedali degli Innocenti في فلورنس الذي خططه برونياكو
بالمدييات الرائعة المصنوعة من الصلصال المحروق التي وضعها في البندريلات
القائمة على عقود بابها أندريا دلاريبيا : ولشد ما تأثر لوثر بما وجدته في
إيطاليا من معاهد طبية وخيرية في عام ١٥١١ ، وهو الذي روع بما كان
فيها من فساد خلقي . وقد وصف لنا في مريد المائدة مستشفياتها بقوله :

« المستشفيات في إيطاليا جميلة البناء مزودة أعجب التزويد بأحسن أنواع
الطعام والشراب ، ويعتنى فيها أحسن عناية بخدمة المرضى ، وجدرانها مغطاة
بالصور والنقوش . وإذا جاءها مريض نزعته عنه ملابسه بحضور كاتب
يثبتها عنده بعناية وتحفظ في أمان . ثم يلبس المريض قميصاً أبيض اللون ،
وينحصر له سرير مريح عليه غطاء نظيف من التيل . ويحضر إليه على الفور
طبيبان ويأتيه الخدم بالطعام والشراب في آنية نظيفة ويزور المستشفى
بالتناوب كثير من السيدات ويعنين بالمرضى وهن محجبات الوجوه ، حتى
لا يعرف أحد كنهن ؛ وتبقى كل واحدة منهن في المستشفى بضعة أيام ،
تعود بعدها إلى منزلها ، وتحل غيرها محلها وتضارع هذه المستشفيات
في الجودة ملاجئ اللقطاء في فلورنس ، حيث يعنى أكبر عناية بإطعام
الأطفال وتعليمهم ، وحيث يزودون بحلل متشابهة من الثياب ويلقون أعظم
العناية بجميع أنواعها (٢٩) » .

وكثيراً ما يكون من نحس طالع الطب أن أمراضاً جديدة تقابل تقدمه .
العظيم في العلاج - وتكاد تعقبه على الدوام . ومصادقاً لهذا نقول إن الجدرى
والحصبة اللذين لا نكاد نسمع عنهما في أوروبا قبل القرن السادس عشر أصبحا :

وقتشذ في مقدمة الأوبئة الأوروبية . وقاست أوروبا في عام ١٥١٠ أول وباء أنفلونزا سجله التاريخ في ربوعها . واجتاح إيطاليا في عامي ١٥٠٥ و ١٥٢٨ وباء من أوبئة التيفوس - وهو مرض لم يرد له ذكر قبل عام ١٤٧٧ . ولكن ظهور الزهري فجأة وانتشاره السريع في إيطاليا وفرنسا في أواخر القرن الخامس عشر كانا أكثر الظواهر رهبة وأشدّها اختباراً لعلم الطب في عصر النهضة . ولسنا نعرف هل كان الزهري موجوداً في أوروبا قبل عام ١٤٩٣ أو هل جاء إليها من أمريكا حين عاد منها كولمبس في ذلك العام ، فتلك مسألة لا تزال مثار الجدل بين العلماء وليس هذا موضع البت فيها .

وتؤيد بعض الحقائق النظرية القائلة إنه مرض أصيل في أوروبا ؛ من هذه أن مومسا أقرت في محكمة بديچون أنها أقنعت أحد طلابها بعدم الاقتراب من لأنها مصابة بالمرض الكبير *le gros mal* ، ثم لا ترى بعدئذ وصفاً لهذا المرض في ذلك السجل (٣٠) . وفي الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٤ أمر منادى المدينة في باريس أن بأمر كل المصابين بـ البثرة الكبيرة (٣١) . أن يخرجوا من المدينة . ولسنا نعرف ماذا كانت هذه « البثرة الكبيرة » ، فلربما كانت هي الزهري نفسه . وفي أواخر عام ١٤٩٤ غزا إيطاليا جيش فرنسي ، واحتل نابلي في ٢١ فبراير من عام ١٤٩٥ ، وسرعان ما فشا فيها بعدئذ وباء أطلق عليه الإيطاليون اسم الداء الفرنسي *il morlo gallico* يزعمون أن الفرنسيين قد جاءوا به إلى إيطاليا . وأصيب بهذا المرض كثيرون من الجنود الفرنسيين ، ولما عاد هؤلاء إلى فرنسا في شهر أكتوبر من عام ١٤٩٥ نشروا الوباء بين الأهليين ؛ ولهذا سمي في فرنسا مرض نابلي *Le mal de Naples* لأن الأهليين افترضوا أن الجنود الفرنسيين قد أصيبوا به فيها . وفي السابع من شهر أغسطس عام ١٤٩٥ أي قبل عودة الجيش الفرنسي من إيطاليا بشهرين أصدر الإمبراطور مكسميليان مرسوماً ورد فيه ذكر المرض الفرنسي *malum Francicum* ؛ وغير خاف أن هذا « المرض

الفرنسي « لا يمكن أن يعزى إلى الجيش الفرنسي الذي لم يكن قد عاد بعد من إيطاليا . وأخذ لفظ « المرض الفرنسي morbus gallicus » منذ عام ١٥٠٠ يطلق على مرض الزهري في جميع أنحاء أوروبا (٣٢) . ويحسن بنا أن نختم هذه الفقرة بقولنا إن هذه كلها مجرد إشارات وليست أدلة قاطعة على أن الزهري كان موجوداً في أوروبا قبل عام ١٤٩٣ .

أما القول بأن أصل المرض أمريكي فقام على تقرير كتبه طبيب أسباني يدعى راى دياز ده إزلا Rug Díaz de Izla بين عامي ١٥٠٤ و ١٥٠٦ (ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٥٣٩) . وهو يقول إن قبطان سفينة أمير البحر أصيب في أثناء عودته كولمبس إلى أوروبا بحمى شديدة مصحوبة بطفح جلدي مروع ؛ ويضيف إلى ذلك قوله إنه هو نفسه عالج وهو في برشلونة بحارة مصابين بهذا المرض الجلدي الذي لم يكن ، على حد قوله ، معروفاً فيها من قبل . وقد قال إنه هو بعينه المرض الذي كانت تطلق عليه أوروبا اسم « المرض الفرنسي » ويؤكد أن العدوى قد جاءت إليهم من أمريكا (٣٣) . ومعروف أن كولمبس حين عاد من رحلته الأولى إلى جزائر الهند الغربية وصل إلى بالوس Palos في أسبانيا في الخامس عشر من شهر مارس سنة ١٤٩٣ . وقد لاحظ پنتور Pintor طبيب البابا اسكندر السادس في ذلك الشهر نفسه ظهور المرض الفرنسي لأول مرة في رومة (٣٤) . ومرت سنتان كاملتان تقريباً بين عودة كولمبس واحتلال الفرنسيين ناپلي - وهي مدة تكفي لانتشار الداء من أسبانيا إلى إيطاليا - ؛ غير أننا لسنا واثقين من أن الوباء الذي اجتاحت ناپلي في عام ١٤٩٥ هو الزهري عينه (٣٥) ، والعظام التي يمكن أن يفسر ما فيها من تغيرات على أنه من فعل الزهري نجد نادرة في المخلفات الأوروبية قبل عهد كولمبس ، لكن عظاماً كثيرة من هذا النوع قد وجدت في أمريكا من مخلفات العهود السابقة لرحلة كولمبس (*) (٣٦) .

(*) ويختم سارتن بحثه بقوله : « أما من حيث الزهري فإنني قد عجزت حتى الآن عن أن -

ومهما يكن مصدر المرض الجديد ، فإنه انتشر بسرعة مروعة ، ويلوح أن سيزارى بورچيا قد أصيب به فى فرنسا ، كما أصيب به أيضاً كثير من الكرادلة ويوليوس الثانى نفسه ؛ على أننا يجب أن ندخل فى حسابنا إمكان انتقال العدوى به عن طريق الاختلاط البرىء بأشياء أو أشخاص تحمل أو يحملون جرثومة المرض النشيطة . وكان الطفح الجلدى يعالج فى أوربا من زمن بعيد بالمرهم الزئبقى ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد أصبحت مركبات الزئبق شائعة شيوع الإنسولين فى هذه الأيام . وكان الجراحون والدجالون يسمون بالكيميائيين لأنهم حولوا الزئبق إلى ذهب ، واتخذت إجراءات للوقاية من الداء . من ذلك أن قانوناً صدر عام ١٤٩٦ يحرم على الحلاقين قبول المصابين بالزهرى أو استخدام الآلات التى استعمالوها أو استعمالهم . وتقرر فحص العاهرات مراراً أكثر من ذى قبل ، وحاولت بعض المدن تجنب هذه المشكلة بطرد المومسات منها ؛ فنفتن فيرارا وبولونيا فى عام ١٤٩٦ بحجة أنهم مصابات « بنوع من الطفح السرى يسميه بعضهم بجذام القديس أيوب » (٢٨) . ودعت الكنيسة إلى العفة لأنها هى طريق الوقاية الذى يحتاجه الناس وعمل بهذه النصيحة كثيرون من رجال الدين .

وكان أول من أطلق لفظ syphilis (الزهرى) على هذا الداء هو جيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro أحد الأشخاص ذوى المواهب المتعددة ولكنه مع ذلك من جلة العلماء فى عصر النهضة . وقد بدأ

= أكشف وصفاً واحداً له قبل الأوصاف التى ظهرت متتابعة تتابهاً سريعاً فى عام ١٤٩٥ والأعوام التالية له . ولا أزال حتى الآن غير مقتنع رغم التأكيدات الكثيرة التى صدرت فى السنين الأخيرة ، بأن الزهرى الأوروبى وجد قبل أيام كولمبس » (٢٧) . ومن شاء الإستزادة من العلم بتاريخ الأوبئة وأثرها فى أحداث العالم فإنه واجد علماً ومنتعة فى كتاب Rats, Lice and History الذى ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد بدران ونشرته مؤسسة فرانكلين باسم التينوس والتاريخ .

حياته بداية طبية : فقد ولد في فيرونا (١٤٨٣) من أسرة شريفة أنجبت قبله عدداً من الأطباء المشهورين . ودرس في بلدوا كل شيء تقريباً ؛ وكان من زملائه في الدرس كوبرنيك وكان بمبونتسي Pomponazzi وأكايني Achilini يعلمانه الفلسفة والتشريح ؛ ولما بلغ الرابعة والعشرين من العمر كان هو أستاذ للمنطق ثم ما لبث أن اعتزل هذا العمل ليخصص نفسه للبحث العلمي بوجه عام والبحث الطبي بوجه خاص تخففه رغبة قوية في دراسة الآداب القديمة . وأثمر جمعه بين العلوم والآداب على هذا النحو شخصية مصقولة مهذبة . كما أثمر قصيدة رائعة مكتوبة باللغة اللاتينية على نمط قصيدة

الفارسية Georgics لفرجيل سماها الزهري ، النجاة من الداء الفرنسي Syphilis, sive le morbo gallico (١٥٢١) . وكان الإيطاليون من أيام لكريتيوس قد برعوا في كتابة القصائد التعليمية ، ولكن من الذي كان يظن أن المطوقات المتناوبة (*) يمكن أن يتحدث عنها بشعر سلس ؟ أما لفظ سيفيلس فكان يطلق في الأساطير القديمة على راع اعتزم ألا يعبد الله الذي لا يستطيع رؤيته ، بل يعبد الملك ، وهو وحده سيد قطعانه الذي يمكنه أن يراه ؛ ولذلك غضب منه أبلو فلأ الهواء بأبخرة كريهة أصيب منها سفلس بمرض مصحوب بطفح وخراجات في جميع أجزاء جسمه ؛ تلك في جوهرها هي قصة أيوب . واقترح فراكستورو أن يبحث عن أول ظهور « مرض شديد الوطأة ، نادر لم يرقط في القرون الماضية اجتاح أوروبا كلها ومدن آسية وليبيا المزدهرة وغزا إيطاليا في تلك الحرب المشثومة التي كانت سبباً في اشتقاق اسمه من بلاد غاله (فرنسا) ليتبين مبدأ ظهوره ، وانتشاره الوبائي ، وأسبابه ، وعلاجه . وهو يرتاب في أن المرض قد وفد من أمريكا ، لأن ظهوره كاد يكون في وقت واحد في كثير من بلاد أوروبا البعيدة

(*) اسم طبي يطلق على نوع من الجراثيم منها جرثومة الحمى المالطية وحمى البحر المتوسط والزهري الخ . (المترجم)

بعضها عن بعض . ويقول إن العدوى ؛ « لم تكن تظهر في الحال ، بل كانت تبقى كأمنة فترة من الزمن قد تطول أحياناً إلى شهر . . . بل إلى أربعة أشهر . وكانت قرح صغيرة تبدأ في الظهور في معظم الحالات على الأعضاء التناسلية . . . ثم تظهر على الجلد بعدئذ بثرات عليها غشاء . . . ثم تأكل هذه البثرات المتقرحة الجلد . . . وتصل عدواها إلى العظام نفسها . . . وتنتأكل في بعض الحالات الشفتان ، أو الأنف ، أو العينان ، وفي حالات أخرى تتآكل جميع الأعضاء التناسلية » (٣٩) .

ثم تمضى القصيدة فتبحث في علاج هذا الداء بالزئبق أو بالجواياك (صمغ خشب الأنبياء) — وهو « خشب مقدس » يستعمله هنود أمريكا .

وتحدث فرانكستورا في كتاب آخر منشور يسمى العموى عن بعض الأمراض المعدية — كالزهرى ، والتيفوس ، والتدرن — وطرق انتشارها . واستدعاه بولس الثالث في عام ١٥٤٥ ليكون كبير الأطباء لمجلس ترنت . وأقامت فيرونا نصيباً عظيماً تخليداً لذكراه ، ونقش جيوفاني دال كافينو Giovanni dal Cavino صورته على مدلاة تعد من أجمل التحف الفنية التي من نوعها .

وكانت العادة المتبعة قبل عام ١٥٠٠ أن يطلق على جميع الأمراض المعدية على اختلاف أنواعها ذلك الاسم العام الشامل وهو « الطاعون » . ثم كان من الأعمال الدالة على تقدم الطب أنه قد ميز في وضوح وشخص طبيعة هذا الوباء الخاص ؛ وأعد العدة لمقاومة انتشار مرض خطير كالزهرى . ولم يكن الاعتماد على أبقراط وجالينوس كافياً في هذه الأزمة الطاحنة ؛ كما أنه لم يكن في مقدور مهنة الطب أن تواجه هذه التجربة الغير المتوقعة إلا لأنها قد أدركت ضرورة الدراسة المفصلة الدائمة للتجدد لأعراض هذا الداء ، وأسبابه ، وطرق علاجه بتجارب تجرى في ميدان دائم الاتساع متصلة ببعضها ببعض على الدوام .

وإلى هذه المؤهلات العالية ، وإلى الإخلاص في العمل ، والنجاح فيه ،

يرجع فضل اعتراف الناس بأن الطبقة الممتازة من الأطباء تمثل في إيطاليا،
أرستقراطية عصامية لم تثر المجد عن الآباء والأجداد . ولما أن فصل أولئك
الأطباء مهمتهم عن الكنيسة فصلاً تاماً ، أصبح الناس يجلونهم أكثر مما يجلون
رجال الدين ؛ فلم يكن كثير من منهم مستشارى الأمراء ، والأحبار ،
والملوك في الطب فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مستشاريهم السياسيين ،
وكثيراً ما كانوا رفاقهم المحبين . وكان كثير من منهم من الكتاب الإنسانيين ،
ملمين بالآداب القديمة ؛ يجمعون المخطوطات والروائع الفنية ؛ وكثيراً
ما كانوا أصدقاء كبار الفنانين وثيقى الاتصال بهم . وآخر ما نقوله عنهم
أن كثيرين منهم قد حققوا المثل الأبقراطى الأعلى وهو الجمع بين الفلسفة
والطب (*) ، فكانوا يتنقلون في يسر من موضوع إلى موضوع في دراساتهم
وفي تعليمهم ، ولبثوا في الهيئة المهنية الفلسفية المتأخية حافزاً لإخضاع
أفلاطون ، وأرسطو ، وأكوناس - كما أخضعوا أبقراط ، وجالينوس ،
وابن سينا - للفحص المتجدد ، الجريء الذى مهدف إلى معرفة الحقيقة ؛

(*) لقد حقق هذا الجمع على أوسع نطاق أطباء العرب (انظر الجزء الثالث عشر من
هذه السلسلة . (المترجم)

الفصل الرابع

الفلسفة

يبدو من أول نظرة أن النهضة الإيطالية لم تثمر محصولاً موفوراً من الفلسفة ، ذلك أن محصولها هذا لا يمكن أن يضارع ما أثمرته الفلسفة المدرسية الفرنسية في أيام عزها من عهد أبلار إلى عهد أكوناس ، دع عنك « مدرسة أثينة الفلسفية » . وأعظم الأسماء التي اشتهرت بها في الفلسفة (إذا تجاوزنا الزمن الذي يحدد عادة لنهاية النهضة) هو جيور دانو برنو Giordano Bruno (١٥٤٨ ؟ - ١٦٠٠) ؛ وعمل هذا الرجل خارج نطاق الفترة التي ندرسها في هذا الكتاب . ويبقى بعد ذلك اسم بمبونتزي Pomponazzi ، ولكن منذ الذي يعظم الآن هذا الصارخ المتشكك الجريء المسكين ؟

وقد احتضن الإنسانيون مبادئ الثورة الفلسفية حين اكتشفوا ونشروا بخذر عالم الفلسفة اليونانية ولكنهم كانوا في معظم الأحوال - إذا استثنينا فلا Valla - أكثر دهاء وحرصاً من أن يعرضوا معتقداتهم جهره . وكان أساتذة الفلسفة في الجامعات تقف في سبيلهم تقاليد الفلسفة المدرسية ؛ ولهذا فإنهم بعد أن قضوا سبعة أعوام أو ثمانية يضربون في تلك البيداء انتهوا إما إلى الخروج منها إلى ميادين أخرى من الدراسة وإما إلى دفع أجيال أخرى إليها ، بعد أن مجدوا لهم ما صادفوه من العوائق التي حطمت إرادتهم ووصلت بعقولهم سالمة إلى غاية عقيمة لا حياة فيها . ومن يدرى لعل الكثيرين منهم أحسوا بتسوط من السلامة العقائدية والاقتصار على المسائل الخفية الغامضة يصوغونها بعناية وحذر في مصطلحات مجازية غير مفهومة المتنى ؟ وكانت الفلسفة المدرسية لا تزال في معظم الكتابات الفلسفية خاضعة لتقاليد

والرسميات ، وقد أخذت أطرافها تتجمد استعداداً للموت والفناء ؛ وأصبحت المسائل القديمة التي كانت مشار الجدل في العصور الوسطى يعاد النظر فيها بأساليب الجدل القديمة التي كانت متبعة في تلك العصور ، ويبدل في هذا الجدل كثير من الجهد والعناء ثم تنشرها هيئة التدريس في الكليات مزهوة بها مفتخرة .

وكان ثمة عنصران من عناصر الحياة يعملان لإحياء الفلسفة : هما النزاع القائم بين الأفلاطونيين والأرسطوطالين ، ثم انقسام الأرسطوطالين أنفسهم إلى مستمسكين بتقاليدهم القديمة ورشدين (*) . وأضحى هذا النزاع في بولونيا وبدوا مبارزة حقيقية ومسائل حياة أو موت بمعناها الحرفي . وكانت كثرة الإنسانيين أفلاطونية بتأثير جمستس پليثو Gemistus Pletho ، وبساريون Bessarion ؛ وثيودورس جادسا Fheodorus Gaza ، وغيرهم من اليونان وقد سكروا بنخمر المحاورات ، وكان من العسير عليهم أن يفهموا كيف يطبق أى إنسان المنطق الخاف ، وما حواه كتاب الأرخانور الهزيل ، والطريقة « الوسطى الذهبية » الرصاصية التي ينادى بها أرسطو الحذر : ولكن هؤلاء الأفلاطونيين كانوا يصرون على أن يبقوا مسيحيين ؛ وكأما كان مارسيليو فتشينو Marsilio Ficino ممثلاً لهم ومندوباً عنهم حين كرس نصف حياته للتوفيق بين أساليب التفكير المختلفين . ولكي يحقق هذا الغرض شرع يدرس دراسة واسعة ، وتوسع في هذه الدراسة حتى شملت زردشت وكنفوشيوس . ولما وصل في دراسته إلى أفلاطون ، وترجم هو نفسه الربائيات ، أحس أنه عثر في الأفلاطونية الحديثة الصوفية على الخيط الحريري الذي استطاع به ربط أفلاطون بالمسيح . وحاول أن يصوغ هذا الارتباط في كتابه الموهوت الإفلوطوني Theologia platonica وهو خليط

(*) أتباع ابن رشد الميسوف الأندلسي المعروف . (ترجم)

مهوش من الدين القويم ، والإيمان بالعلوم الخفية ، والهلينية ، ووصل فيه بعد تردد وإحجام إلى نتيجة من نوع مذهب الأحدية(*) فقال إن الله هو روح العالم . وأصبح هذا هو فلسفة لورندسو والمثقفين حوله ، والمجامع العلمية الأفلاطونية في رومة ، وناپلى ، وغيرهما من البلاد ؛ ووصلت هذه الفلسفة من ناپلى إلى جيوردانو برونو ، ثم انتقلت من برونو إلى أسبنوزا ، ومنه إلى هيغل ، ولا تزال حية قائمة إلى يومنا هذا .

ولكنهم كانوا يجدون ما يقولونه دفاعاً عن أرسطو وخاصة إذا أسىء فهمه وتفسيره . ترى هل كان أكوناس على حق حين فهم أنه يقول بالخلود الشخصى ، أو هل كان ابن رشد محقاً حين فهم من كتاب النفس أنه لا يؤكد عدم الموت إلا لنفس بنى الإنسان الكلية ؟ وكان ابن رشد الرهيب ، ذلك الفيلسوف العربى المرعب ، الذى ظل الفن الإيطالى زمناً طويلاً يصوره منكباً على وجهه تحت قدمى القديس تومس ، كان ابن رشد هذا منافساً يدعو إلى غلبة الفلسفة الأرسطوطالية بلغ من قوته أن أضحت يدوا وبولونيا تعجبان بإلحاده . وكانت يدوا هى التى أضاع فيها مرسلْيوس ، الذى تسمى باسمها ، احترامه للكنيسة(**) . وفى يدوا استقى فلپو أليجرى دانولا Filippo Algeri da Nola برونو المولود فى نولا نفسها تلك الأخطاء المروعة التى لقي فيها ذلك المصير المحزن إذ ألقى به فى برميل من القار وهو يغلى(٤٠) . ويبدو أن نقولتو فرنياس Nicoletto Vernias ، كان ، وهو أستاذ للفلسفة فى يدوا (١٤٧١ - ١٤٩٩) ، يعلم فيها العقيدة القائلة إن النفس الكلية العالمية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة(٤١) ، وعرض تلميذه أجستينو نيفو Agostino Nifo هذه الفكرة نفسها فى رسالة لـ

(*) أى القائلين بوحدة الوجود أى أن الله والعالم أحد واحد . (المترجم)

(**) ينتمى مرسلْيوس فيلسوف يدوا إلى الإصلاح الدينى لا إلى النهضة ولهذا أرجأتها.

الحديث عنه إلى المجلد التالى .

تدعى De intellectu et daemonibus (١٤٩٢) . وكان المتشككة يسعون في العادة إلى تهدة ثائرة محكمة التفتيش بأن يفرقوا (كما كان ابن رشد يفرق) بين نوعين من الحقيقة - الدينية والفلسفية : فيقولون إن قضية من القضايا يمكن رفضها في الفلسفة إذا نظر إليها من ناحية العقل ، ولكنها مع ذلك يمكن قبولها على أساس الإيمان إذا أخذنا بقول الكتاب المقدس أو الكنيسة . وعبر نيفو عن هذا المبدأ ببساطة كان فيها جريئاً متهوراً فقال : « يجب أن نتحدث كما يتحدث الكثرون ، ويجب أن نفكر كما يفكر القليلون » (٤٢) . وبدل نيفو رأيه أو بدل أقواله لما تبدل لون شعره وتصلح مع مبادئ الدين القويم ، وكان وهو أستاذ الفلسفة في بولونيا يجتذب الأعيان ، وكراثم السيدات ، وجماهير لا تحصى ، محاضراته المصحوبة بالتعجيم والسخرية ، والحللة بالقصص والفكاهة . وأصبح من الناحية الاجتماعية أكثر معارضي ميمونتسى نجاحاً .

وكان بيتر و ميمونتسى ، القنبلة المجهرية لفلسفة النهضة ، ضئيل الجسم إلى حد جعل أصفياه يسمونه پريتو Peretto - أى « بطرس الصغير » . ولكنه كان كبير الرأس ، عريض الجبهة ، أقنى الأنف ، صغير العينين ، نفاذهما أسودهما ، وكان رجلاً يأخذ الحياة والفكر مأخذاً جدياً أليماً . وقد ولد في مانتو (١٤٦٢) ودرس الفلسفة والطب في پدوا ، ونال الدرجتين فيهما وهو في سن الخامسة والعشرين ، ولم يلبث أن أصبح أستاذاً في جامعة تلك المدينة نفسها و غمرته جميع نقاليد فلسفة پدوا المتشككة ، وبلغت فيه غايتها . حتى قال فيه فانيني Vanini المعجب به : « لقد كان يحق إلى فيتاغورس أن يحكم بأن روح ابن رشد قد تقمصت جسم ميمونتسى » (٤٣) . ويلوح أن الحكمة تكون على الدوام تجسداً لحكيم قديم أو صدى لأقواله لأنها تبقى الدوام دون أن يطرأ عليها تغيير بعد أن تمر بالآلاف الأنواع المختلفة من الأغلاط .

وواصل ميمونتسي التدريس في بدوا من ١٤٩٥ إلى ١٥٠٩ ؛ ثم اجتاحت
أعاصير الحرب المدينة وأغلقت قاعات جامعتها التاريخية . وفي عام ١٥١٢
نجدته مستقراً في جامعة بولونيا حيث بقي إلى آخر أيام حياته ، وتزوج
ثلاث مرات ، وظل على الدوام يحاضر عن أرسطو ، ويشبه في تواضع جم
علاقته بأستاذه بدودة تحاول ارتياد مجاهل فيل^(٤٤) . وكان يرى أن من
الأسلم له ألا يعرض آراءه كأنه هو - صاحبها ، بل أن يعرضها على أنها
متضمنة في آراء أرسطو كما شرحه اسكندر الأفروديسي . وكانت طريقته
تبدو أحياناً مسرفة في التواضع ؛ يظهر فيه الخضوع الشديد للسلطة الميتة .
غير أنه لما كانت الكنيسة تدعى أن عقائدها هي نفسها عقائد أرسطو ؛ متبعة
في ذلك رأى أكوناس ، فلعل ميمونتسي كان يشعر بأن الجهر بأية عقيدة
خارجة على سلطان الكنيسة عقيدة أرسطوطالية بحق ستؤدي إلى غضب
رجال الدين ، إن لم تؤد به هو نفسه إلى الحرق حياً . ذلك أن مجلس لاتران
الخامس الذي عقد برياسة ليو العاشر (١٥١٣) أدان كل من يقول إن
النفس واحدة لا تنجزاً في جميع الناس ، وإن النفس الفردية يحق لها الفناء
ونشر ميمونتسي بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أكبر كتبه المسمى
في خلود النفس الذي حاول فيه أن يثبت أن هذا الرأي الذي رفضه المجلس
هو رأي أرسطو بحذافيره ، فأرسطو حسبما يرى بيترو يقول إن العقل يعتمد
على المادة في كل خطوة من خطى تفكيره ، وإن أكثر المعارف تجريبياً
نستقي في آخر الأمر من الحواس ؛ وإن العقل لا يستطيع أن يؤثر في العالم
إلا عن طريق الجسم ؛ ولهذا فإن النفس المجردة عن الجسم ، إذا بقيت بعد
الإطار الفاني ، لا تكون إلا طيفاً لا حول له ولا عمل يقوم به . وينتقم
ميمونتسي حديثه بأن من واجبنا بوصفنا مسيحيين ومن أبناء الكنيسة المخلصين
لنا ، أن نؤمن بخلود النفس الفردية ؛ أما بوصفنا فلاسفة فليس هذا من
واجبنا . ويبدو أنه لم يدر قط بخلد ميمونتسي أن دعواه لا تستقيم أمام دعوى

الكنيسة التي كانت تقول ببعث الجسم والروح جميعاً ؛ ولعله لم يكن يحمل هذه العقيدة على محمل الجدل ، ولم يكن يظن أن قراءه أنفسهم سيحملونها على هذا المحمل . ومبلغ علمنا أن أحداً لم يُثر رأيه هذا ضده .

وأثار الكتاب عاصفة من الاحتجاج ، وأقنع الرهبان الفرنسيين دوج البندقية بأن يأمر بإحراق كل ما يمكن العثور عليه من نسخة علناً ؛ ونفذ هذا الأمر فعلاً . ثم قدمت الاحتجاجات إلى المحكمة البابوية ، ولكن بمبو وببيا كانت لهما مكانة سامية في مجالس ليو ، وأكدوا له أن النتائج التي يعرضها الكتاب سليمة ليس فيها ما يعارض الدين الصحيح ، والحق أنها كانت كذلك . ولم يستطع المعارضون أن يسخروا ليو لما كانوا يريدون ، وقد كان يعرف حق المعرفة تلك الحيلة الصغيرة حيلة الحقيقتين (*) التي يقول بها ميمونتسي ، ولكنه قنع بأن أمر ميمونتسي بكتابة كلمة لطيفة بعلنها خضوعه

للكنيسة (٤٥) . وأجابه بترو إلى ما طلب وأصدر كتاب الاعتذار (١٥١٨) الذي يؤكد فيه بوصفه مسيحياً بأنه يؤمن بكل تعاليم الكنيسة . ثم أمر ليو حوالى ذلك الوقت أجستينو بأن يرد على كتاب ميمونتسي ؛ وإذا كان أجستينو مولعاً بالجدل ، فقد قام بهذه المهمة بنحوق وسرور . ومن عجب أنه بينما كان رأس ميمونتسي معلقاً في ميزان محكمة التفتيش ، إذا صح ذلك التعبير ، كانت ثلاث جامعات تتنافس للانتفاع بخدماته ؛ ولعل في هذا التنافس دليلاً على أن العداء بين الجامعات ورجال الدين كان لا يزال قائماً لم تنقطع أسبابه . فلما أن سمع رجال الحكم في بولونيا أن بيزا تسعى لإغرائه بالهجرة إليها ، وكانت وقتئذ خاضعة رسمياً للبابا ، ولكنها مع ذلك أصمت أذنها عن سماع نداء الرهبان الفرنسي الحائقين ، أطالت بقاء ميمونتسي فيها ثماني سنين أخرى . ورفعت مرتبه إلى ١٦٠٠ دوقه (٢٠,٣٠,٠٠ ؟ دولار) في العام (٤٦) .

(٤) أي أننا نستطيع أن نقبل الشيء الواحد بالاعتماد على إيماننا الديني وأن نرفضه معتمدين على عقائدنا العقلانية . (المترجم)

وواصل بمهونتسى حملته التى يدعو فيها إلى التشكك فى كتابين صغيرين لم ينشرهما فى حياته ، أرجع فى أحدهما المسمى De incantione كثيراً من للظواهر الخارقة للطبيعة كما يزعم الناس إلى أسباب طبيعية . وكان سبب تأليفه أن طبيباً كتب إليه عن علاج شاف يقال إنه ثمرة رقى أو سحر ، فأمره ببترو أن يشك فى الأمر وكتب له يقول : « إن من السخف ومما يدعو إلى السخرية أن يحتقر الإنسان ما هو واضح وطبيعى لكى يلجأ إلى علة غير واضحة لا يؤكد صحتها أى احتمال موثوق به » (٤٧) . وهو بوصفه مسيحياً يؤمن بالملائكة والأرواح ، ولكنه بوصفه فيلسوفاً يرفضها ، ويقول إن جميع العلل فى عالم الله طبيعية . وهو يتأثر بتدريسه الطبي فيسخر بالاعتقاد الشائع فى المصادر السحرية الخفية الشافية من الأمراض ويقول إنه لو كان فى مقدور الأرواح أن تشفى أمراض الأجسام لكانت هذه الأرواح مادية أو كانت تستخدم وسائل مادية كى تستطيع أن تؤثر فى جسم مادى ، ثم يمضى فيصور فى سخرية الأرواح الشافية تهرول غادية رائحة ومعها ما لديها من جبس ، ومرهم ، وحبوب (٤٨) . على أنه يعتقد أن لبعض النباتات والحجارة قوة علاجية ، ويصدق المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس ، ولكنه يظن أنها كانت عمليات طبيعية ، ويقول إن الكون تسيطر عليه قوانين ثابتة منسقة ، وإن المعجزات ليست إلا مظاهر غير عادية لقوى طبيعية لا نعرف نحن إلا جزءاً من قدرتها ووسائلها ، والناس يعزون إلى الأرواح أو إلى الله ما لا يستطيعون إدراكه بعقولهم (٤٩) . ويصدق بمهونتسى كثيراً مما ورد فى التنجيم دون أن يرى فى ذلك ما يتعارض مع هذه النظرة ، نظرة العلل الطبيعية للأشياء ؛ وهو لا يقول إن حياة الآدميين خاضعة لتأثير الأجرام السماوية فحسب ، بل يضيف إلى ذلك أن جميع الأنظمة البشرية ، ومنها الأديان نفسها ، تنشأ ، وتزدهر ، وتضمحل بفعل المؤثرات السماوية ، ويصدق هذا أيضاً فى رأيه على المسيحية ، ويقول إن ثمة فى تلك الأيام

دلائل على أن المسيحية آخذة في الزوال (٥٠) ؛ ثم يقول بعدئذ إنه بوصفه مسيحياً يرفض هذا كله ويراه سخفاً وهراء .

أما كتابه الأخير De Fato فيبدو أنه أكثر اتفاقاً مع الحقائق العلمية لأنه دفاع عن حرية الإرادة ؛ وهو يعترف بأن هذه الحرية لا تتفق مع علم الله بكل شيء ومعرفته بكل شيء قبل وقوعه ، ولكنه يصر على اعتقاده بحرية الإنسان في نشاطه وعلى أنه لا بد له أن يفترض في الإنسان قسماً من حرية الاختيار إذا كان للإنسان شيء من التبعية الأخلاقية . وكان في رسالته عن الخلود قد عالج إمكان نجاح أى قانون أخلاقي إذا لم يستند إلى العقاب والثواب تفرضهما قوة غير بشرية . وآمن بفخر شبيه بافتخار الرواقين أن الفضيلة نفسها جزاء كاف للفضيلة ، وليس ذلك الجزاء الجنة بعد الموت (٥١) ، ولكنه يقر بأنه لا يمكن حمل معظم الناس على مراعاة السلوك الحسن إلا بالاعتماد على الآمال والخواف يتلقونها من قوة غير بشرية . وهذا ، فيما يقول ، هو الذى دعا كبار المشرعين إلى أن يغرسوا في نفوس الناس الإيمان بوجود حالة في المستقبل تحل محل الشرطة التى لا يخلو منها مكان ، وأكثر منها اقتصاداً ؛ ويبرر ، كما يبرر أفلاطون تلقين الناس الخرافات والأساطير إذا كان في مقدورها أن تساعد على كبح جماح ما فطر عليه الآدميون من نخبة (٥٢) :

« ولهذا وعدوا الصالحين بالنعم السرمدي في الدار الآخرة ، وأنذروا الطالحين بالعقاب الأبدى الذى يرعبهم أشد الرعب . والكثرة الغالبة من الناس ، إذا فعلوا الخير ، إنما يفعلونه خوفاً من العقاب الأبدى لا أملاً في النعم السرمدي ، لأننا أكثر علماً بالعقاب من تلك النعم السرمدية . وإذا كان في وسع الناس جميعاً أياً كانت طبقتهم أن يفيدوا من هذه الطريقة الأخيرة ، فإن المشرع ، وهو يرى ميل الناس إلى الشر وينزع هو إلى الخير العام ، قد نادى بأن النفس الخالدة ، غير مبال في نداءه هذا بالحقيقة ، وإنما يعنى

بالخير والصالح ، كى يستطيع بذلك أن يهذى الناس إلى الفضيلة (٥٢) .
وهو يرى أن الكثيرين من الناس يبلغون من السذاجة فى العقل ،
والوحشية فى الأخلاق درجة لا بد معها من معاملتهم كما يعامل الأطفال
أو المرضى ، وليس من الحكمة أن يعلم هؤلاء العقائد الفلسفية . ويقول عن
آرائه هو : « يجب ألا تنقل هذه الأشياء لعامة الناس لأنهم يعجزون عن
تلقى هذه الأسرار ، بل إن من واجبنا أن نحذر من التحدث عنها إلى رجال
الدين الجاهلاء » (٥٣) وهو يقسم بنى الإنسان إلى فلاسفة ورجال دين ، ويعتقد
اعتقاداً لا يصح لنا أن نلومه عليه وهو أن « الفلاسفة وحدهم هم آلهة
الأرض ، وأنهم يختلفون عن سائر الناس أياً كانت مراتبهم وأحوالهم ، بقدر
ما يختلف الناس الأحياء عن تلك الصور المرسومة على القماش » (٥٤) .

وكان فى الملاحظات التى هو فيها أكثر تواضعاً منه فى غيرها يدرك ضيق
مجال العقل البشرى وما فى المتافيزيقا من عبث شريف . وقد صور نفسه
فى سنيه الأخيرة رجلاً منهوئلاً هزيراً ، حائراً ، وشبه الفيلسوف بېروميثيوس
الذى حكم عليه بأن يشد إلى صخرة وأن ينقر قلبه صقر لا ينقطع عن ذلك
أبداً (٥٥) لأنه أراد أن يسرق النار من السماء - أى أن يختطف المعرفة الإلهية .
ويقول فى هذا : « إن المفكر الذى ينقب عن الأسرار الإلهية الخفية ليشبه
پروتېوس Proteus فمحكمة التفتيش تحاكمه بتهمة الإلحاد ، والجاهل
تسخر منه لأنه أبله » (٥٦) .

وأنهك الجدل الذى شغل كثيراً من وقته قواه وأضعف صحته ، فكان
ينقلب الداء فى أثر الداء حتى اعتزم أخيراً أن يموت ، فاختار إلى الانتحار
أشق صورة من صورته : إذ آثر أن يموت جوعاً ، فقاوم كل حجة يراد
بها حمله على العدول عن قراره وكل تهديد وجه إليه ، وتغلب على القوة
نفسه : رأى أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب ، فلما مضت على هذا النظام
الصارم سبعة أيام شعر بأنه كسب المعركة التى تقرر حقه فى أن يموت ،

وأنه يستطيع وقتئذ أن يتكلم وهو آمن فقال : « إنى أفارق الحياة مسروراً » ،
ولما سأله بعضهم : أنى تذهب ؟ أجاب « إلى حيث يذهب جميع الخلائق
الهالكين » . ويبذل أصدقائه آخر جهودهم ليقنعوه بأن يتناول بعض
الطعام ، ولكنه أبى وفضل الموت (١٥٢٥) (٥٧) . وأمر الكردنال جندساجا
الذى كان تلميذاً له أن تنقل رفاته إلى مانتوا وأن توارى في ثراها ، وأقام
فيها تمثالاً تخيلاً للذكراء ، وجرى في هذا على سنة التسامح التى تسود
عصر النهضة .

ولقد عمد ميمونتسى إلى التشكك الذى ظل قرنين كاملين يحطم أسس
العقائد المسيحية فصاغه في صورة فلسفية . واجتمعت عوامل كثيرة لتجعل
الطبقات الوسطى والعليا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس
عشر « أكثر الشعوب الأوروبية تشككاً » (٥٨) ، نذكر منها إخفاق الحروب
الصليبية ؛ انتشار الأفكار الإسلامية في العالم الغربي بتأثير الحروب الصليبية ،
والتجارة ، والفلسفة العربية ؛ وانتقال البابوية إلى أفنيون ، وانقسامها
الضعيف على نفسها في عهد الانشقاق الكبير ؛ وتكشف عالم وثني يوناني -
روماني مليء بالحكماء والفن العظيم رغم خلوه من الكتاب المقدس ومن
الكنيسة ؛ وانتشار التعليم وتحرره المتزايد من السيطرة الكهنوتية ؛ وفساد
أخلاق رجال الدين ومنهم البابوات أنفسهم وانهماكهم في شئون الدنيا
نما يوحى بعدم إيمانهم بما يجهررون به من عقائد ؛ واستخدامهم فكرة المطهر
لجمع المال لأغراضهم الخاصة ، ومعارضة طبقات التجار وأصحاب المال
الناشئة لسيطرة رجال الكنيسة ؛ وتحول الكنيسة من منظمة دينية إلى ساطة
دنيوية سياسية ، هذه العوامل كلها وكثير غيرها هي التي أدت إلى النتيجة
السالفة الذكر .

ويتضح من شعر بولتيان وبلتشي Pulci وفلسفة فتشينو Ficino ، أن
لورندسو والملتفين حوله لم يكونوا يؤمنون إيماناً حقاً بحياة في الدار الآخرة ؛

كما أن عواطف مدينة فيرارا تتضح من استهزاء أريستو بالبحيم الذي كان يبدو لدانتى من قبل رهيباً بحق . ويكاد نصف الأدب في العصور الوسطى يكون معارضاً للكهنوت ؛ وكان كثيرون من رؤساء العصابات المغامرة يجهرون بكفرهم (٥٩) ، كما كان رجال الحاشية Cortigiani أقل تديناً من العاهرات Cortigiane ؛ وكان التشكك في أدب وظرف سمة السيد المهذب ، والصفة التي ينبغي له أن يتصف بها (٦٠) . وكان بترارك يأسف لأن كثيرين من رجال العلم يرون أن تفضيل الدين المسيحى على الفلسفة الوثنية دليل على الجهل (٦١) ؛ وتبين أن معظم أفراد الطبقة العليا في البندقية في عام ١٥٣٠ يهملون أداء الواجبات الدينية في عيد الفصح أى أنهم لا يذهبون للاعتراف وللعشاء الربانى ولو مرة واحدة في العام (٦٢) . ويقول لوثر إنه وجد قولاً شائعاً بين الطبقات المتعلمة في إيطاليا حين يذهبون للقداس : « هيا بنا نرتكب الخطأ الذى يرتكبه العامة » (٦٣) .

أما عن الجامعات فإن الحادثة الآتية العجيبة تكشف عن مزاج الأساتذة والطلبة : دعى سيمونى پوردسيو Simone Porzio تلميذ پمپونتنسى بعد وفاة أستاذه بتليل ليحاضر في پيزا ، فاختار موضوعاً لمحاضراته كتاب المتيورولوجيا لأرسطو . ولكن المستمعين لم يعجبهم هذا الموضوع ، وصاح بعضهم بعد أن نفذ صبرهم : « وماذا تقول في النفس ؟ quid de anima » . واضطر پوردسيو إلى أن يطرح كتاب المتيوروجيا جانباً ويتناول كتاب النفس وسرعان ما كان المستمعون كلهم آذاناً صاغية (٦٤) . ولسنا نعرف هل جهر پوردسيو في تلك المحاضرة باعتقاده أن النفس البشرية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن نفس أسد أو نبات ؛ ولكننا نعرف أن هذا هو ما كان يدعو إليه في كتابه العقل البشرى De mente humana (٦٥) ؛ ويبدو أنه لم يصب بأذى من جراء دعوته هذه . وروى يوجينيو طرابالبا

Euginio Tarralba ، الذى اتهمته محكمة التفتيش الأسبانية فى عام ١٥٢٨ ، أنه كان فى شبابه يأخذ العلم فى رومة على ثلاثة من المعلمين يقولون كلهم إن النفس هالكة (٦٦) . ودهش إرمس إذ وجد فى رومة أن المبادئ الأساسية للدين المسيحى كانت موضوعات للجدل المتشكك بين الكرادلة أنفسهم ؛ وأن واحداً من رجال الكنيسة أخذ يشرح له سخف الاعتقاد بحياة فى الدار الآخرة ؛ وكان غيره يسخرون من المسيح والرسل ؛ وكان غيرهم ، كما يؤكد إرمس نفسه ، يقولون إنهم سمعوا كبار الموظفين البابويين ينكرون القداس ويسبونونه (٦٧) . أما الطبقات الدنيا فقد ظلت مستمسكة بإيمانها ، كما سترى بعد ؛ وما من شك فى أن الآلاف المؤلفة الذين أنصتوا إلى سفنرولا كانوا يؤمنون بما يسمعون ؛ ولنا فى المثل الذى ضرب به فتوريا كولنا ما يدل على أن التقي قد يبق مع العلم . لكن سهام الشك كانت قد نفذت فى العقيدة الكبرى ؛ وكانت روعة أسطورة العصور الوسطى قد لوّثها ما تراكم عليها من ذهبها .

الفصل الخامس

جوتشيار دينى

إن عقل جوتشيار دينى لم يخلو خلاصة لما حدث فى ذلك الوقت من تشكك منشؤه خيبة أمله وتكشف الغشاء عن عيني أهله . وكان هذا العقل من أقوى عقول زمانه ، لا يطيقه ذوقنا لإسرافه فى سخريته ، ولا يتفق مع آمالنا لإفراطه فى تشاؤمه ، ولكنه عقل نافذ كالضوء الكشاف يحجب أطراف السماء ، صريح صراحة الكاتب الذى قرر بحكمته ألا ينشر ما يكتب إلا بعد وفاته .

وكان فرانتشيسكو جوتشيار دينى يستمتع منذ البداية بميزة مولده الأرسقراطى . فكان منذ طفولته يستمع إلى حديث المتعلمين باللغة الإيطالية الصحيحة ، وقد تعلم أن يقبل الحياة كما هى بواقعية الرجل الواثق من مكانته وطمأنينة باله . وقد شغل عم والده منصب حامل شعار الجمهورية عدة مرار ؛ كما تولى جده معظم المناصب الرئيسية فى الحكومة واحداً بعد واحد ؛ كان والده يعرف اللغتين اللاتينية واليونانية وقد شغل هو الآخر عدة مناصب دبلوماسية . وكتب فرانتشيسكو يقول إن « أشيئنه هو مستر مرسيلو فتشينو أعظم الفلاسفة الأفلاطونيين فى العالم فى أيامه » (٦٨) ولم يحل هذا بين المؤرخ وبين أن يكون أرسطوطاليسى النزعة . ودرس القانون المدنى وعن وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أستاذاً للقانون فى جامعة فلورنس . وكان كثير الأسفار ، ولم يفقه حتى أن يلاحظ « المحترعات العجيبة التى لا يتصورها العقل » ، التى ابتدعها هيرونيمس بوش Hieronymus Bosch فلاندرز (٦٩) وتزوج مارياسلفياتى Maria Salviati وهو فى السادسة والعشرين من عمره « لأن آل سلفياتى كانوا ، فضلاً عن ثرائهم العظيم ،

يفرقون غيرهم من الأسرى في النفوذ والسلطان ، وأنا مولى تشد الولع بهذه الأشياء» (٧٠) .

ولكنه مع ذلك كان شغوفاً بالتفوق يروض نفسه على تأليف الكتب العظيمة في فن الأدب . وقد كتب وهو في السادسة والعشرين من عمره تاريخ فلورنس Storia Fiorentina وهو من أعجب ثمار عصر نرى فيه العبقرية التي امتلأ إناؤها بتراثها المستعاد ، ولكنها تحررت من التقاليد ، تنساب حرة كاملة في عشرات المسائل ، وقد اقتصر هذا الكتاب على جزء قصير من تاريخ فلورنس ، وهو الجزء المحصور بين عامي ١٣٧٨ و ١٥٠٩ ، ولكنه عالج هذه الفترة بدقة في التفاصيل ، ويبحث للمراجع ونقد لها ، وتحليل نفاذ للعامل ، ونضوج ونزاهة في الحكم ، وقدرة على القصص الواضح في لغة إيطالية حلوة ؛ لم يرق إلى شيء منها تاريخ فلورنس Storie Fiorentine الذي كتبه ميكفلي بعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت في العقد السابع من حياته .

وأرسل جوتشارديني في عام ١٥١٢ ، وهو لا يزال شاباً في الثلاثين ، سفيراً لفرديناند الكاثوليكي ، ثم عينه لبو العاشر وكلمنت السابع في أوقات متعاقبة متلاحقة حاكماً لرجيو إميليا ، ومودينا ، وبارما ، ثم حاكماً عاماً على إقليم رومانيا كله ، ثم قائداً عاماً لجميع الجيوش البابوية ، وعاد إلى فلورنس في عام ١٥٣٤ وأيد السندروده ميديتشي طوال الخمس السنوات التي فرض فيها هذا الوعد سلطته الاستبدادية على المدينة . وكانت له اليد الطولى في إقامة كوزيمو الأصغر دوقاً على فلورنس ، ولما ذهب ما كان يأمله من السيطرة على كوزيمو هذا انسحب إلى قصره الريفي ليكتب في عام واحد المجلدات العشرة التي يتألف منها أعظم كتبه على الإطلاق وهو

تاريخ إيطاليا Storia d' Italia

وهذا الكتاب أقل من كتابه الأول في حلاوة أسلوبه وقوته . وكان جوتشياردينى في هذه الأثناء قد درس كتابات الأدباء الإنسانيين وانزلق إلى الاهتمام بالشكل وجمال اللفظ ؛ ومع هذا كله فالأسلوب جزل يبشر بنثر جن Gibbon مضرب المثل في البلاغة . وعنوان الكتاب الفرعى وهو تاريخ المحروب يقصر موضوعه على المسائل العسكرية والسياسية ، ولكن ميدان البحث يتسع في الوقت نفسه حتى يشمل كل إيطاليا ، وكل أوروبا من حيث علاقتها بإيطاليا ؛ وهذا أول تاريخ ينظر إلى نظام أوروبا السياسى على أنه كل متصل . وجوتشياردينى يكتب في الغالب عما شاهده بنفسه ، وإذا ما قرب الكتاب من نهايته فإنه يكتب عن الحوادث التى اشترك فيها بنصيب ، وقد بذل جهودا كبيرة في جميع الوثائق ؛ وهو أكثر دقة وأجدر بالثقة من مكيفلى . وكان إذا ما رجع إلى العادة القديمة ، التى يرجع إليها معاصره الذى يفوقه شهرة ، عادة اختراع الخطب ليلقيها أشخاص قصته ، يقول بصراحة إن هذه الخطب ليست صحيحة إلا في جوهرها ، وينص على أن بعضها حقيقى ؛ وهو يستخدم هذه وتلك ليعرض على القارئ جانبي موضوع من موضوعات النقاش أو يكشف عن سياسة الدول الأوروبية في الدخول والخارج . وهذا التاريخ الضخم وتاريخ فلورنس الباهر مجتمعين يرفعان جوتشياردينى إلى مقام أعظم مؤرخ في القرن السادس عشر . وكما أن نابليون كان شديد الرغبة في أن يرى الفيلسوف جيته ، كذلك أبى شارل الخامس في بولونيا الأعيان وقواد الجيش جالسين في حجرة الانتظار بينما كان هو يتحدث مع جوتشياردينى حديثاً طويلاً ، ويقول : « إن في وسعى أن أخلق عشرين نبيلاً في ساعة ، ولكنى لا أستطيع إيجاد مؤرخ واحد في عشرين عاماً » (٧١) .

أما من حيث هو رجل من رجال الدنيا ، فإنه لم يكن ينظر بعين الجدل إلى ما يبذله الفلاسفة من جهود لمعرفة أسرار الكون . وما من شك في أنه لو رأى ما يثيره ميمونتسى من حماسة لتبسم ساخرأ منها . وكان يرى أن من

العبث أن يثور بيننا النزاع حول خوارق الطبيعة لأن هذه الخوارق بعيدة عن مداركنا . والأديان كلها في رأيه تقوم على افتراض صحة الأساطير ، ولكن هذا مما يمكن اغتفاره إذا كانت هذه الأديان تساعد على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي والتأديب الأخلاقي ؛ ذلك بأن الإنسان ، كما يراه جوتشيارديني ، أناني يعمل لنفسه ، فاسد الأخلاق ، خارج على القانون ؛ ولهذا وجب أن توضع في سبيله ، في كل خطوة يخطوها ، عوائق من العادات ، والأخلاق ، والقوانين ، والقوة ؛ والدين في العادة أقل الوسائل الموصلة إلى هذه الغاية مدعاة للنفور . ولكن إذا ما فسد الدين حتى أصبح عاملاً على فساد الأخلاق بدلاً من أن يكون سبباً في صلاحها ، فإن المجتمع تسوء حاله لأن الدعامة الدينية التي يستند إليها قانونه الأخلاقي قد تقوضت من أساسها ، ويكتب جوتشيارديني في سجله السري يقول :

ليس ثمة من يبغض الطمع ، والشهـره ، ومظاهر الإفراط في التساوسة
كما أبغضها أنا ، وليس ذلك لأن كل الشرور بغية في ذاتها فحسب ،
بل لأن . . . هذه الشرور يجب ألا يكون لها مكان عند رجال يفترض فيهم
أنهم ذوو علاقة خاصة بالله واقد كانت علاقتي ببعض البابوات
مما جعلني أرغب في مثل عظمتهم مضجياً في سبيل ذلك بمصالحى نفسها .
ولولا هذا الاعتبار لأحببت مارتن لوثر كما أحب نفسي ؛ وليس ذلك
لأنى أحب أن أكون حراً طليقاً من القيود التى تفرضها علينا المسيحية . . .
بل لآنى أحب أن أرى هذا الحشد من الأوغاد (questa caterva di scelerate)
محصورين فى نطاق الحدود الواجبة ، فيما أن يحيا حياة مبرأة من الإجرام
أو حياة مجردة من السلطان (٧٢) .

ولكن أخلاقه مع ذلك قلما كانت خيراً من أخلاق القساوسة ؛ وكان القانون الذى وضعه لحياته هو أن يكيف نفسه فى كل ساعة حتى تتفق مع أقوى سلطة قائمة . أما مبادئه العامة فقد اختص بها كتبه ، وفيها هى أيضاً يستطيع أن يكون ساخرًا سخريه مكيفلى :

« إن الإخلاص مجلبة للسرور ويكسب صاحبه الثناء ؛ أما الخداع فمجلبة للوم والكراهية ، بيد أن أولهما أكثر نفعاً للناس منه لصاحبه ؛ ولهذا فإن من واجبي أن أثني على من كان أسلوب حياته متمسكاً بالصراحة والإخلاص ، فلا يلجأ إلى الخداع إلا في بعض الأشياء ذات الخطر العظيم ، وفي هذه الحالة يكون الخداع أكثر نجاحاً كلما كثرت محاولات الإنسان في أن يشتهر بين الناس بالإخلاص (٧٣) .

وكان ينفذ ببصره وراء دعاوى الأحزاب السياسية المختلفة في فلورنس ، ويرى أن كل حزب وإن نادى بالحرية إنما يسعى وراء السلطان :

« يبدو واضحاً لي أن الإنسان قد طبع على الرغبة في السيطرة على زملائه وإثبات تفوقه عليهم ، ولهذا فما أقل من يحبون الحرية حباً يحول بينهم وبين تحييد الفرصة المناسبة لحكم الناس وفرض السلطان عليهم . انظر عن كثب إلى سلوك الناس الذين يقيمون في مدينة واحدة ، ولا حظ خلافاتهم وتقص أسبابها ، تجد أن هدفهم التسلط عليهم لا طلب الحرية لهم . ولهذا ترى أن أكبر الأهلين مقاماً لا يسعون إلى الحرية ، وإن كانوا لا ينفكون يلوكون هذا بلسانهم ، بل كل ما يضمرونه في سرائرهم هو ازدياد سلطانهم وتفوقهم على غيرهم . أما الحرية عندهم فهي خداع وتصنع يخفى وراءه شهوة التفوق في السلطان والشرف (٧٤) .

وكان يحتقر جمهورية سدريني التجارية التي اعتادت أن تحمي حريتها بالذهب لا بالسلاح ، ولم يكن يؤمن بالشعب ولا بالديمقراطية .

« إن الحديث عن الشعب حديث عن الجنون ، لأن الشعب وحش جبيل على الاضطراب والأخطاء ، ومعتقداته الباطلة بعيدة عن الحقيقة بعد أسبانيا عن الهند . . . وتدل التجارب على أن الأشياء قلما تحدث كما تتوقع الجماهير . . . وسبب ذلك أن النتائج . . . تعتمد في العادة على رغبة عدد قليل من الأفراد تختلف نواياهم وأهدافهم في جميع الأحوال تقريباً عن نوايا الكثرة وأهدافها (٧٥) .

وكان جوتشيار ديني مثلاً لآلاف في إيطاليا إبان عصر النهضة ، لا إيمان لهم في شيء ما على الإطلاق ، فقد واحب المسيحية ، وعرفوا أضواء السياسة ؛ ولم تكن لهم مثل عليا ، أو أحلام ؛ ألقوا بأنفسهم في أماكنهم لا حول لهم ولا طول بيدنا كانت الحرب والهمجية تكتسحان إيطاليا ؛ وكانوا شيوعاً مفكرين تحررت عقولهم وتحطمت آمالهم ، تبينوا بعد فوات الأوان أنه إذا ماتت الأساطير فلن تتحرر إلا القوة .

الفصل السادس

مكيثلى

١ - الدبلوماسى

بقى من هذه الطائفة رجل واحد يصعب علينا أن نضمه إلى صنف بعينه ، فقد كان دبلوماسياً ، ومؤرخاً ، وكاتباً مسرحياً ، وفيلسوفاً ، وأكبر مفكر ساخر فى زمانه ، ولكنه كان مع ذلك وطنياً متحمساً يتحرق رغبة فى تحقيق مثل أعلى نبيل ، أخفق فى كل ما أخذ على عاتقه أن يقوم به من الأعمال ، ولكنه طبع التاريخ بطابع يكاد يكون أشد عمقاً مما طبعه به إنسان آخر فى ذلك العصر .

كان نقولو مكيثلى ابن أحد المحامين فى فلورنس - وكان هذا المحامى رجلاً متوسط الثراء ، يشغل منصباً صغيراً فى الحكومة ، ويمتلك بيتاً ريفياً صغيراً فى سان كاستشيانو San Casciano على مسيرة عشرة أميال من المدينة . وتلقى الغلام التعليم الأدبى المعتاد ، وتعلم أن يقرأ اللغة اللاتينية بسهولة ، ولكنه لم يتعلم اللغة اليونانية . وراقه التاريخ الرومانى ، وأولع بليثى ، ويكاد يجد لكل نظام سياسى ، وكل حادثة فى أيامه شبيهاً فى تاريخ رومة يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة . وبدأ يدرس القانون ، ولكن يبدو أنه لم يتم هذه الدراسة ، وقلما كان يعنى بفن النهضة ، ولم يظهر شيئاً من الاهتمام حين كشفت أمريكا ، ولعله كان يشعر بأن كل ما حدث بعد هذا الكشف أن مسرح السياسة قد اتسع ، أما المسرحية فستبقى كما كانت وسيظل أشخاصها دون تغيير . وكان شغله الشاغل هو السياسة ، فن الحصول على النفوذ ، ولوحة الشطرنج التى تنتقل عليها قطع القوة والسلطان . وعين فى عام ١٤٩٨

وهو في التاسعة والعشرين من عمره أميناً للديتشي دلا جويرا Dieci della Guerra - مجلس الحرب المكون من عشرة - وظل في هذا المنصب أربعة عشر عاماً .

وكان هذا المنصب في بادئ الأمر من المناصب المتواضعة - عمله جمع محاضر الجلسات ، والسجلات ، وتلخيص التقارير ، وكتابة الرسائل ؛ ولكنه كان يعمل في أداة الحكم ، ويستطيع مراقبة سياسة أوربا من نقطة الملاحظة الداخلية ، وكان في وسعه أن يحاول التنبؤ بالتطورات المقبلة بتطبيق معلوماته التاريخية . . وأحست روحه المتوثبة ، العصبية ، الطموحة ، بأن الوقت دون غيره هو الذي يحتاجه لكي يرقى إلى القمة ، ويسخر قوى الدولة العنيفة ضد دوق ميلان ، ومجلس شيوخ البندقية ، وملك فرنسا ، وملك نابلي ، والبابا ، والإمبراطور . وما لبث أن أرسل في بعثة إلى كترينا اسفوردسا Caterina Sforza كونه إمولاً وفورلي (١٤٩٨) . وأثبتت كترينا أنها أشد دهاء من أن تقع في حباله ، فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جزاءه . وجرب مرة أخرى بعد عامين ، وصحبه في هذه التجربة فرانتشيسكو دلا كاسا في بعثة إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا . ومرض دلا كاسا ، وكان على مكيفلي أن يرأس البعثة ؛ فتعلم اللغة الفرنسية ، وتنقل مع الحاشية من قصر إلى قصر ، وبعث إلى مجلس السيادة من الأنباء اليقظة ، والتحليلات الدقيقة ، ما جعل أصدقاءه في فلورنس يشنون عليه ويقولون إنه أصبح دبلوماسياً ضليعاً .

وكانت نقطة الانقلاب في تطور ذهنه هي البعثة التي عين فيها مساعداً للأستقف سدريني وسافرت إلى سيزاري بورجيا في أربينو (١٥٠٢) . ولما استدعى إلى فلورنس ليلقي بياناً عنها بنفسه ، احتفل بمنزلته الراقية التي باعها في العالم بأن اتخذ له زوجة . وأرسل مرة أخرى إلى سيزاري في شهر أكتوبر ، فالتقى به في إمولاً ، ووصل إلى بنجاليا Benigallia في الوقت الذي

استطاع أن يرى فيه سعادة بورجيا بعد أن أفلح في اقتناص الذين ائتمروا به ،
أو خنقهم ، أو سجنهم . وكانت هذه حوادث هزت مشاعر إيطاليا بأجمعها ؛
أما أثرها في مكيفلي بعد أن التقى بالطاغية الباهر وجهاً لوجه ، فقد كانت
دروساً في الفلسفة . ذلك أن رجل الأفكار وجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل
الأعمال فكرمه هذا وعظمه ، وتحرق قلب السياسي الشاب حسداً حين أدرك
المسافة التي لا بد له أن يقطعها من التفكير التحليلي النظري إلى العمل الرائع
المحطم . فها هو ذا رجل يصغره بست سنين ، قد قضى في سنتين اثنتين على
أكثر من عشرة طغاة مستبدين ، وأصدر الأوامر إلى أكثر من عشر مدن ،
وأثبت أنه الكوكب الوضاء في سماء زمانه ؛ وما أضعف ما بدت الألفاظ
أمام هذا الشاب الذي لم يكن ينطق منها إلا بالقليل ، وكان ينطق بهذا القليل
في ازدراء ! وأصبح سيزاري بورجيا من تلك الساعة بطل فلسفة مكيفلي ،
كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نتشة . فقد وجد في هذا الرجل الذي
تجسدت فيه إرادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية فوق الخير والشر ، ونموذجاً
للإنسان الأسمى .

ولما عاد مكيفلي إلى فلورنس في عام ١٥٠٣ ، أدرك أن بعض رجال
الحكومة يظنون أن بورجيا الجريء المتهور قد غلبه على أمره فبدل عقليته
غير ما كانت . ولكن جهوده التي بذلها لتحقيق مصالح مدينته أعادت إليه
احترام سديريني حامل شعار المدينة ومجلس العشرة الحربى . وشهد في
عام ١٥٠٧ انتصار مبدل من مبادئه الأساسية . فقد كان من زمن بعيد
يقول إنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى
جنود مرتزقين ، وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم في الأزمات ، ولأن
في مقتل العدو المسلح بالقدر الكافي من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم . ولهذا
يرى مكيفلي أنه يجب إنشاء قوة حرس وطنى من أبناء البلاد ، والأفضل
أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا

في الهواء الطلق . ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب ، كما يجب أن تكون هي آخر خط للدفاع القوي الثابت عن الجمهورية . وقبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل ، وعهدت إلى مكيفلي أن ينفذه . فلما كان عام ١٥٠٨ قاد حرسه الوطني إلى حصار پيزا ، حيث أظهر براعة فائقة ، وسلمت له پيزا ، وعاد مكيفلي إلى فلورنس وقد بلغ ذروة مجده .

وأرسل في بعثة أخرى إلى فرنسا (١٥١٠) ، اجتاز فيها سويسرا ، وأثار حماسه الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية ، واتخذها مثلاً أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا . ولما عاد من فرنسا أدرك المشكلة التي تواجهها بلاده : كيف تستطيع إماراتها المتفرقة أن تتحد لتدافع عن إيطاليا إذا ما قررت دولة متحدة مثل فرنسا أن تستولى على شبه الجزيرة بأجمعها .

وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطني قبل الأوان . ذلك أن يولوس الثاني قد استشاط غضباً من فلورنس لأنها رفضت الانضمام إليه في طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فأمر جيوش الحلف المقدس في عام ١٥١٢ أن تسقط حكومة الجمهورية وتعيد آل ميديتشي إلى العرش . وهزم حرس مكيفلي الوطني الذي عهد إليه الوقوف في خط الدفاع الفلورنسي عند پراتو Prato وولى رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين . واستولى جنود الحلف على فلورنس ، وانتصر آل ميديتشي ، وفقد مكيفلي سمعته ومنصبه الحكومي ، وبذل كل ما في وسعه لاسترضاء المتصرين ؛ وكان يسعى أن ينجح ، لولا أن شابين متحمسين دبرا مؤامرة لإعادة الجمهورية ، فاكشف أمرهما ، ووجد بين أوراقها ثبت يحتوي أسماء أشخاص يعتمدان على تأييدهم ، ومن بينها اسم مكيفلي ؛ فألقي القبض عليه ، وعذب أربع دورات على العذراء ؛ ولكنهم لم يجدوا دليلاً على اشتراكه في المؤامرة فأطلق صراخه . ونحشى مكيفلي أن يقبض عليه مرة أخرى ، فانتقل هو

وزوجته وأبنائه الأربعة إلى بيت أسرته في سان كاستيليانو ، حيث قضى
السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها ، يعاني
الفقر ويعمل نفسه بالآمال ، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط ، لأن هذه
السنين العجاف هي التي ألف فيها الكتب التي هزت مشاعر العالم كله .

٢ - المؤلف والرجل

وكانت هذه عزلة موحشة لرجل عاش في خضم بحر السياسة الفلورنسية .
وكان أحياناً يذهب راكباً إلى فلورنس ليتحدث مع أصدقائه القدامى ،
ويتحسس ما عسى أن يكون هناك من فرص للعودة إلى المناصب الحكومية .
وكتب عدة مرار إلى آل ميديتشي في هذا الموضوع ، ولكنه لم يتلق منهم
جواباً ، وقد وصف حياته في رسالة ذائعة الصيت إلى صديقه فتورى
Vittori سفير فلورنس في رومة ، وأشار فيها إلى سبب تأليف كتاب
الأمير فقال :

لقد ظللت منذ حلت بي الكارثة الأخيرة أحيا حياة هادئة في الريف ؛
فأصبح في مطلع الشمس وأسير إلى إحدى الغابات حيث أقضى بضع ساعات
أراجع فيها عمل الأمس ؛ ثم أمضى بعض الوقت مع قاطعي الأشجار وأجد
لديهم على الدوام متاعب يفضلون بها إلى سواء أكانت متاعبهم هم أو متاعب
جيرانهم . فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء ثم إلى حظيرتي التي أصطاد
منها الطيور ، ونحت إبطى كتاب دانتى ، أو بترارك أو أحد الشعراء
الذين هم أقل منهما شأنًا مثل تيبيلس Tibellus أو أوغد . وأقرأ في هذه
الكتب عن عواطفهم الغرامية وقصص حبهم ، فتذكرني بتاريخى حي أنا ؛ ويمر
الوقت وأنا مبتهج مسرور بهذه الأفكار . ثم آوى بعدئذ إلى الفندق القائم
على جانب الطريق ، وأتحدث إلى المارة ، وأسألهم عن أخبار الأماكن التي
أقبلوا منها ، وأستمع منهم إلى ما يتحدثونني عنه وهو كثير ، وألاحظ مختلف

الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان . وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأبتلع في صحبة من معي ما عسى أن أجده في هذا المكان الصغير من طعام غير ذي شأن يفي به ما ورثته عن أبوي من مال قليل . وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد في العادة صاحبه ، وقصاراً ، وطحاناً ، وانبين من صانعي الطوب ، فأختلط مع هؤلاء الأقوام الغلاظ طول النهار ألعب معهم النرد وغيره ، وتثور بيننا آلاف المنازعات ، وتبادل كثيراً من السباب ، ونتشاحن على أنفه النقود حتى تسمع أصواتنا في بلدة سان كاستشيانو . ويؤدي انغماسي في هذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية ، فأصب غضبي على القدر وبلواه

وأعود إلى داري في المساء ، وآوي إلى شجرة مكتبي ، وأنخلع عند بابها ملابسي الريفية الملطخة بالطين والأقذار ، وأرتدى ثياب رجال البلاط ؛ حتى إذا لبست ما يليق بي من الثياب دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن الترحيب ، ويطعمونني الطعام الوحيد الذي أحبه وأرتضيه ؛ والذي ولدت له ، ولا أستحي من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم ، وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتى ، وأقضي على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب ، ولا أعود أخشى الفقر أو أهرب الموت ، لأن كياني كله يكون مستغرقاً فيهم . وإذا كان دانتى يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحتفظ الإنسان بما يستمع ، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميته في الإمارة غرقت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير . هذا الموضوع ، وبحث فيه طبيعة الإمارة ، وعدد أنواعها ، وطريق الوصول إليها ، والاحتفاظ بها ، وسبب ضياعها ؛ فإذا كنت تعنى بشيء من عبثي ، فإنك لن تجد في هذا ما يسوئك . ويجب أن يرحب به على

الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة . ومن أجل هذا أهديه إلى فخامة جوليانو . . . (في ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣) (٧٦) .

ونرجح أن مكيفلى قد اختصر القصة بقوله هذا . والظاهر أنه بدأ بوضع كتابه المسمى *أماريت عن العشرة الكتب الأولى للبغى* ، وأنه لم يتم شروحه للثلاثة الأولى منها . وقد أهدي هذه الأحاديث *Discorsi* إلى دسانوبى بونديلمنتى *Zanobi Bunodelmonti* وكوزيمو رتشيللى *Cosimo Rucelli* وقال : « أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك . لأنها تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة . ويشير إلى أن آداب القدامى وقانونهم وطبهم قد بعثت من جديد ليستنير بها المحدثون فى كتاباتهم وأعمالهم ؛ وهو يقترح كذلك بعث مبادئ الحكمة القديمة ، وتطبيقها على السياسة المعاصرة . وهو لا يستمد فلسفته السياسية من التاريخ ، ولكنه يختار من التاريخ حوادث تؤيد النتائج التى قادته إليها تجاربه وأفكاره . ويأخذ أمثاله كلها تقريباً من لىقى ، وتؤدى به سرعته أحياناً إلى إقامة حججه على الأفاصيص ، ويستعين فى بعض الأحيان بمقتبسات من بوليبيوس *Polybius* .

ولما سار بعض الخطى فى أماريت أدرك أنها ستطول أكثر مما يجب ، وأنها لن تتم إلا بعد زمن طويل ، فلاتفيد فى أن تكون هدية عملية لأحد الحاكين من آل ميديتشى . لهذا قطع عمله ليكتب خلاصة تضم ما وصل إليه من النتائج ؛ لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول ، وتكون أعود عليه بصداقة الأسرة القوية التى تحكم وقتئذ (١٥١٣) نصف .

إيطاليا . وهكذا وضع كتاب *الأصول Il principe* (وهو العنوان الذى اختاره له) فى عدد قليل من شهور هذا العام . وكان ينوى إهداءه إلى جوليانو دى ميديتشى ، الذى كان يحكم فلورنس فى ذلك الوقت ، ولكن برينوتونى (١٥١٦) ، قبل أن يصمم مكيفلى على إرسال الكتاب إليه ، ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورنسو ، دوق أربينو ، الذى

لم يرسل إليه ينثيه بوصوله . وتداولت الأيدي المخطوط ، وكتبت منه عدة نسخ خلسة ، ولم يطبع إلا في عام ١٥٣٢ بعد خمس سنين من موت المؤلف ، وأصبح من ذلك الحين من أكثر ما يعاد طبعه من الكتب في أى لغة من اللغات .

وليس في مقدورنا أن نضيف إلى ما وصف به نفسه إلا صورة له لا يعرف مصورها محفوظة في معرض أفزى . ويظهر فيها شخصاً نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، غائر الخدين ، حاد العينين أسودهما ، رقيق الشفتين مطبوقهما ، تتم معارفه عن رجل تفكير أكثر مما هو رجل عمل ، له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطيبة والوداعة . ولم يكن في مقدوره أن يصبح دبلوماسياً صالحاً ، لأنه لم يكن يسهه أن يخفى دهائه ، ولا أن يكون حاكماً قديراً لأنه كان مسرفاً في عنفه ، يقبض على الأفكار بتعصب وعناد ، كما يقبض في صورته على قفازيه اللذين يؤكدان مرتبته نصف الأرستقراطية ، وهذا الرجل الذى كثيراً ما كتب كما يكتب الفيلسوف الكلبى ، والذى كثيراً ما تنقلب شفتاه انقلاب الساخر المتهمك ، والذى اعتاد الكذب حتى جعل الناس يظنون أنه يكذب حين يقول الحق (٧٧) ، هذا الرجل كان فى خبيثة نفسه وطنياً شديداً الحماسة ، يرى أن مصلحة الشعب هى القانون الأعلى ، ويخضع كل القوانين الأخلاقية لغاية واحدة هى توحيد إيطاليا وإنقاذها مما تعانيه .

وكان يتصف بكثير من الصفات غير المحبوبة ؛ منها أنه لما أقبلت الدنيا على بورجيا اتخذته مثلاً أعلى ، ولما انصرفت عنه سار وراء الجماهير وندد « بالقيصر » (*) الساقط ووصفه بأنه مجرم و« عاص للمسيح » (٧٨) . ولما طرد آل ميديتشى عنهم بأفصح عبارة ، فلما عادوا إلى الحكم لعق أحذيتهم ملتصقاً منهم منصّباً . ولم يكن يزور المواخير قبل الزواج وبعده فحسب .

بل كان يبعث إلى أصدقائه بأوصاف مفصلة لمغامراته فيها (٧٩) وإن كثيراً من رسائله لتبدو فيها الغلظة والوقاحة واضحتين وضوحاً لم يجرؤ معه كاتب سيرته والمعجب به ، الذي أطال في الترجمة له ، على نشرهما ، ولما قرب مكيشلي من سن الخمسين كتب يقول : « إن شباك كيوبد لا تزال تقتنصني ، والطرق الوعرة لا تستنفد صبري ، والليالي السوداء لا توهن شجاعتي . . . إن عقلي كله لمتجه للحب اتجاهاً أحمد عليه فينوس » (٨٠) . تلك أشياء في وسعنا أن نغفرها له . لأن الرجل لم يخلق لكي يقتصر على زوجة واحدة ؛ ولكننا لانستطيع أن نغفر له بمثل هذه السهولة عدم وجود كلمة حنان واحدة موجهة إلى زوجته في كل ما بقي لدينا من رسائله وهو كثير ؛ وإن كان هذا مما يتفق مع سنة تلك الأيام .

ووجه قلمه البليغ في هذه الأثناء إلى أنواع من التأليف متباينة ، وبز الأساتذة في كل نوع منها . وكان منها رسالة في فن الحرب *L'arte della guerra* نشرها في عام ١٥٢٠ ، وأعلن فيها من برجه العاجي للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية والنجاح فقال إن الأمة التي تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة . والجيش لا يحتاج إلى الذهب بل إلى الرجال ؛ لأن « الذهب وحده لا يأتي بالجنود الصالحين على الدوام ، ولكن الجنود الصالحين يأتون بالذهب » (٨١) ، والذهب ينساب إلى خزائن الأمة القوية ، ولكن القوة تفارق الأمة الغنية لأن الثراء يعمل على الراحة والاضمحلال ؛ ولهذا يجب أن يظل الجيش مشغولاً على الدوام ، فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقى العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربي صالحاً متأهباً . وسلاح الفرسان جميل إلا إذا واجهته الحراب القوية ؛ ويجب أن يعد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه (٨٢) . والجنود المرتزقة عار يجمل لإيطاليا ، ودليل على تراخيها وضعفها ، وسبب في خرابها ، ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطني من أهلها مؤلف من رجال يخاربون دفاعاً عن وطنهم وأرضهم .

وأراد مكيفلي أن يجرب حظه في القصص فكتب قصة تعد من أحب الروايات للشعب في إيطاليا ، وهي قصة بيلفاجور أرتشديافولو Belfagor arcidiavolo ، التي تفيض بالفكاهة والهجاء يصبهما على الزواج . ثم تحول بعدئذ إلى كتابة المسرحيات ، فألف أهم مسلاة ظهرت على مسرح النهضة الإيطالي وهي مسرحية مندراجولا Mandragola . وتضرب مقدمة هذه الرواية نغمة جديدة إذ يجامل فيها النقاد مجاملة لا عهد لهم بها من قبل :

« إذا شاء أحد أن يبعث الخوف في قلب المؤلف بالقدح فيه ، فلنأخذره بأن المؤلف أيضاً يعرف كيف يقدح ، بل إنه بارع في هذا الفن ، وأنه لا يحترم أحداً في إيطاليا وإن كان ينحني ويتذال لمن هم أحسن لباساً منه (٨٣) » .

والمسرحية تكشف عن أخلاق عصر النهضة كشفاً يروع الإنسان ويندهله . والمكان الذي تقع فيه حوادثها هو مدينة فلورنس ، ومضمونها أن كليماسكو Callimaco يسمع إنساناً يعرفه يمتدح جمال لكريدسيا زوجة نتشياس فيقرر أنه لا بد من أن يغويها ، وإن لم يكن قد رآها من قبل ، وإن لم يكن يقصد بإغوائها إلا أن ينام هادئاً مستريح البال . ويقلقه أن لكريدسيا تشتهر بتواضعها بقدر ما تشتهر بجمالها ، ولكن أماله يقوى حين يقال له إن نتشياس يألم من أنها لا تحمل . ويرشو كليماسكو صديقاً له لكي يقدمه لنتشياس على أنه طبيب ، ويدعي أنه سيخلط له مزيجاً يجعل في مقدور أية امرأة أن تحمل ، ولكنه يعرف مع الأسف الشديد أن أي رجل يضاجعها بعد أن تتناوله سيموت بعد قليل ، ويعرض عليه أن يقوم بهذه المغامرة المهلكة ، ويرضى نتشياس أن يحل هو محله متبعاً في ذلك طيبة الخلق التقليدية التي يتصف به أشخاص القصص لمبتكريهم . غير أن لكريدسيا تناضل عن عفتها ، وتردد في أن ترتكب جريعتين في ليلة واحدة هما جريمة الزنا والقتل لكن الرجاء لن يخيب كله ، ذلك أن أمها ، في حرصها الشديد على أن يكون

لايتها خلف ، ترشو راهباً فينصحها أثناء اعترافها بأن تنفذ الخطة ؛
وتخضع لكريدسيا ، وتشرب الدواء ، وتنام مع كليماكو ، وتحمل . وتختتم
القصة خاتمة سعيدة لكل أشخاصها : فالراهب يطهر لكريدسيا ، ويتزوج
نتشياس لأنه أصبح له ولد مشكوك في بنوته ، ويستطيع كليماكو أن ينام .
والمرحبة ممتازة في بنائها ، بديعة في حوارها ، قوية في هجائها . وليس
الذي يشردهشتنا فيها هو ما موضوع الإغواء ، الذي طالما رددته المسالى القديمة
حتى مللناه ، وليس هو ما تحويه من تفسير الحب تفسيراً جسدياً شهوانياً ،
بل هو المحور الذي تدور عليه وهو استعداد الراهب لأن يحلل الزنا
نظير خمسة وعشرين دوقه ؛ إن المسرحية قد مثلت في عام ١٥٢٠ بنجاح
عظيم أمام ليو العاشر . وقد بلغ من سرور البابا بها أن طلب إلى الكردينال
جويليو ده ميديتشي أن يعهد إلى مكيفلي بعمل من نوع التأليف فاقترح
جويليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ فلورنس وعرض عليه في
نظير ذلك ثلثمائة دوقه (٣٧٥٠ ؟ دولاراً) .

وكتب التاريخ فعلاً (١٥٢٠ - ١٥٢٥) وكاد يحدث في فن كتابة
التاريخ ثورة لا تقل حدة عن الثورة التي أحدثها في الفلسفة السياسية كتاب
الأمير . ولسنا ننكر أنه كانت في الكتاب عيوب أساسية خطيرة : ذلك
أن السرعة التي صدر بها جعلته عديم الدقة ، وأنه نقل فقرات كبيرة عن
المؤرخين السابقين ، وأن النزاع بين الأحزاب كان يلقى فيه من الاهتمام
أكثر مما تلقاه الأنظمة ، وأنه أغفل التاريخ الثقافي إغفالا تاماً ، كما أغفله
المؤرخون كلهم تقريباً قبل أيام قليلة . ولكنه كان أول تاريخ كبير كتب
باللغة الإيطالية ؛ وكانت لغته الإيطالية هذه واضحة ، جزلة ، نحالية من
النعيم ؛ وقد رفض الخرافات التي كانت فلورنس تجمل بها منشأها ؛
وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهي تأريخ الحوادث سنة فسنة ، وعمد
بدلاً منها إلى الرواية المنسجمة المتصلة المنطقية ؛ ولم يكن يعالج الحوادث

مفحسب . بل كان يبحث في أسبابها ونتائجها ، وأفانن على فوضى السياسة
الفلورنسية تحليلًا للمنازعات القائمة بين الأسر ، والطبقات ، والمصالح يكشف
عنها ويوضحها . وقد جعل محور القصة موضوعين يوحدهان بين أجزائها :
أولهما أن البابوات قد أبقوا إيطاليا مشتتة منقسمة على نفسها لكي يحافظوا على
استقلال البابوية في الشئون الزمنية ، وثانيهما أن ما حدث في إيطاليا من تقدم
عظيم كان في عهد الأمراء أمثال ثيودريك ، وكوزيمو ، ولورندسو . ومما يدل
على شجاعة المؤلف ، وكرم البابا من الناحيتين العقلية والمالية أن يكتب كتاباً
هذه النزعة رجل يسعى للحصول على المال من البابا ، وأن يرضى البابا
كلمنت السابع بأن يهدي إليه الكتاب دون أن يشكو مما جاء فيه .

وشغل تاريخ فلورنسي مكثلي خمس سنين ، ولكنه لم يحقق ما كانت
تتوق إليه نفسه وهو عودته إلى السباحة في مجرى الساسة الموحد . ولما أن
خسر فرانسيس الأول كل شيء عدا شرفه وحياته في باثيا (١٥٢٥) ،
وألقي كلمنت السابع نفسه عاجزاً ضعيفاً أمام شارل الخامس ، بعث مكيفلي
برسائل إلى البابا وإلى چوتشيارديني يوضح ما يستطيع عمله لصد الفتح
الأسباني - الألماني الذي كان يهدد إيطاليا ، ولعل اقتراحه بأن يمد البابا
چيوفني دلي باندی نيري Giovanni delle Bande Nere بالمال ، والسلطان ،
والسلاح كان من شأنه أن يوجب المصير المحتوم إلى حين . ولما مات چيوفني ،
وزحفت الحوافل الألمانية على فلورنسي الخليفة الغنية لفرنسا والمجزرة لمن
ينهبها ، أسرع مكيفلي إلى المدينة ، واستجاب إلى ما طلبه كلمنت فوضع
تقريراً عن الطريقة التي يمكن بها إعادة أسوارها لحملها صالحة للدفاع عنها .
وفي الثامن عشر من مارس سنة ١٥٢٦ اختارته الحكومة الميديتشية لرأس
لجنة من خمسة « أمناء على الأسوار » . ليقوموا بهذه المهمة . غير أن الألمان
مروا بفلورنسي واتجهوا إلى رومة . ولما نهبت هذه المدينة ، وأسر الغوغاء
كلمنت ، طرد الحزب الجمهوري في فلورنسي آل ميديتشي مرة أخرى

من المدينة وأعادوا إليها الحكم الجمهورى . (١٦ مايو سنة ١٥٢٧) .
وابتهج مكيفلى لهذا العمل وطالب بمنصبه التقديم منصب أمين مجلس العشرة
الحربى ، وكان يرجو أن يعود إزيه ؛ لكنه لم يجب إلى طلبه (١٠ يونية
سنة ١٥٢٧) ؛ ذلك أن صلابة آل ميديتشى قد أفقدته عطف
الجمهوريين ومعاونتهم .

ولم تطل حياته بعد هذه الصدمة ؛ فقد نجت فيه جذوة الحياة والأمل
وتركته جسداً بلا روح . وانتابه المرض ، وكان يشكو من تقلصات شديدة
فى المعدة ؛ واجتمع حول فراشه زوجته ، وأبنائه ، وأصدقائه ؛ واعترف
أمام قسيس ومات ولما يمض على رفض طلبه غير اثنى عشر يوماً ، وخلف
أسرته فى الدرك الأسفل من الفاقة ، وترك إيطاليا التى كان يعمل جاهداً
لتوحيدها خراباً يباباً . ودفن فى كنيسة الصليب المقدس ، حيث أقيم له نصب
جميل نقش عليه هذه العبارة : « ليس فى مقدور أى مديح أن يوفى هذا
الاسم العظيم حقه » - وهو قول يشهد بأن إيطاليا التى توحدت آخر الأمر
قد تجاوزت عن سيئاته وذكرت له أحلامه .

٣ - الفيلسوف

ولنبعث الآن الفلسفة « المكيفلية » بأكثر ما نستطيع من النزاهة فنقول
إننا لا نجد عند غير مكيفلى مثل ما نجده عنده من الاستقلال فى رأى
ومن التفكير الجرىء المجرد من الخوف فى عالم الأخلاق والسياسة ، وإن من
حق مكيفلى أن يدعى أنه قد شق طرقاً جديدة فى بحار لم يكدها بطرقها
أحد قبله .

وفلسفة مكيفلى تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة ، ليس فيها شىء من
فلسفة ما بعد الطبيعة ، ولا اللاهوت ، ولا الإيمان أو الكفر ، ولا بحث
فى الجبرية أو القدرية ؛ وحتى الفلسفة الأخلاقية نفسها لا تلبث أن تنحنى ،

جانباً. لأنها بوصفها فلسفة تابعة للسياسة ، وتكاد تكون أداة لها . وهو يفهم السياسة على أنها الفن العالى الذى يراد به إيجاد دولة ، أو الاستيلاء عليها ، أو حمايتها ، أو تقويتها ؛ وهو يهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة ؛ ولا يرى فى الأفراد إلا أنهم أعضاء فى دولة ، إلا إذا نظر إليهم من حيث أنهم يساعدون على تقرير مصيرها ؛ وهو لا يعنى قط باستعراض الأفراد على مسرح الزمان . وهو يريد أن يعرف لم تنشأ الدول وتسقط ، وكيف يمكن تأخير اضملاها المحرم إلى أبعد ما يستطاع من الوقت .

وهو يرى أن فلسفة التاريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لأن الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً :

« يقول الحكماء ، ولهم الحق فيما يقولون ، إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل فعليه أن يرجع إلى الماضى ؛ لأن الأحداث البشرية تشابه دائماً أبداً أحداث الأزمنة الماضية . ومنشأ هذا التشابه أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا ، ولا يزالون ؛ وسيكونون على الدوام ، تحركهم نفس العواطف والانفعالات ، ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لا بد أن تكون النتائج نفسها^(٨٤) . . . وأنا أعتقد أن العالم كان هو يعينه على الدوام ، وأنه كان يحتوى دائماً كل ما يحتويه الآن من خير وشر ، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات »^(٨٥) .

وظاهرتا نشأة الحضارات والدول وضمحلها من أكثر الظواهر المتتابعة المنتظمة دلالة فى التاريخ . وهنا يواجه مكيفلى مشكلة معقدة غاية التعقيد بقانون بسيط غاية البساطة فيقول : « الشجاعة تنتج السلم ؛ والسلم تنتج الراحة ، والراحة تستتبع الفوضى ، والفوضى تؤدى إلى الخراب . ومن الفوضى ينشأ النظام ، والنظام يؤدى إلى الشجاعة (virtu) ، ومن هذه ينال الحمد والخط الحسن . ومن أجل هذا قال الحكماء إن عهد السمو الأدبى يأتى فى أعقاب التفوق الحربى ؛ وإن . . . المحاربين العظام ينشئون قبل

الفلاسفة « (٨٦) . وقد تكون هناك أسباب أخرى لنشأة الأمم واضمحلالها غير الأسباب العامة وهى عمل القادة والزعماء من الأفراد وتأثيرهم ؛ من ذلك أن مطامع الحاكم المتطرفة ، التى تعميه فلا يرى أن موارده لا تكفى لتحقيق أغراضه ، قد تكون سبباً فى خراب دولته إذ تجرّها إلى الاشتباك فى الحرب مع دولة أعظم منها قوة . وللمحظ والمصادفات كذلك أثر فى قيام الدول وسقوطها . « فالحظ هو الذى يتحكم فى نصف أعمالنا ، ولكنه يترك لنا مع ذلك القدرة على توجيه النصف الآخر » (٨٧) . وكلما كثر نصيب الإنسان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الحظ واستسلامه له .

وتاريخ دولة ما يتبع قوانين عامة ، يحددها ما تنطوى عليه طبيعة الناس من خبث وشر . والناس كلهم بطبيعتهم مقتنون ، مخادعون ، مخاصمون ، قساة ، فاسدون .

« ومن أراد أن ينشئ دولة ، ويضع لها قوانين ، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار ، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طبيعتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ؛ فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة محتفية إلى حين ، فيجب أن يعزى اختفاؤها هذا إلى سبب غير معروف ؛ ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها ؛ ولكن الزمن . . . لن يعجزه الكشف عنها . . . والرغبة فى الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة فى واقع الأمر ، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون ؛ ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ولا يلامون عليه » (٨٨) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس أنجباً — أى قادرين على أن يعيشوا بنظام فى مجتمع — هى أن يطبق عليهم القسرس ، والخداع ، والاعتياد واحداً بعد واحد . ومن هذا تنشأ الدولة : تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة ، ووضع القواعد والقوانين ، وتكوين العادات تدريجاً للاحتفاظ بالزعامة والنظام فى الجماعة البشرية . وكلما كانت

«الدولة أكثر نماء . قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها ؛ واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون في يدي المشرع أو الحاكم التقدير أشبه بالصلصال اللين في يدي المثال .

والدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع إلى القانون والنظام . ويكتب مكيفلي الذي يسميه باولو جيوفيو Paolo Giovio أحد المعجبين به الطاهر السراج^(٨٩) ، عن الدين حماسة بالغة يقول :

« لم تر الآلهة أن الشرائع التي وضعها رميولوس كافية لرومة ، وإن كان هذا الأمير هو الذي أنشأها . . . ، ولهذا أوحى إلى مجلس الشيوخ الروماني أن يختار نوما پمپيليوس Numa Pompilius خليفة له . . . ووجد نوما شعباً متوحشاً أشد التوحش ، أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة المدنية ، فلعجاً إلى الدين الذي رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدني وألزمه ، فأقامه على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون أن يوجد في مكان ما خوف من الآلهة أكبر مما كان في هذه الجمهورية . وقد يسر هذا تيسيراً كبيراً لجميع المشروعات التي حاول القيام بها مجلس الشيوخ أو كبار أعضائه . . . وقد ادعى نوما أنه تحدث إلى إحدى الحور ، وأنها أملت عليه كل ما يريد أن يقنع به الناس . . . والحق أنه لم يوجد قط مشرع عظيم . . . لم يلجأ إلى القوة الإلهية ، وإلا لما أطاع الناس شرائعه ؛ لأن ثمة شرائع صالحة كثيرة يدرك المشرع الحكيم أهميتها ، ولكن أسباب وضعها لا تتضح للناس وضوحاً يكفي لأن يمكنه من إقناع غيره من الناس بإطاعتها ؛ وهذا هو السبب الذي يجعل العقلاء من الناس يلجئون إلى السلطة الإلهية ليتغلبوا على هذه الصعوبة^(٩٠) . . . واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات ؛ وإهمال هذه النظم يؤدي إلى خراب الدول ؛ ذلك أنه إذا انعدم من بلد ما خوف الله ، قضى على هذا البلد لا محالة ؛ إلا إذا دعمه خوف الأمير وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينتقص

هذا البلد من خشية الله . لكن حياة الأمراء قصيرة (٩١) .

« وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية ، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها ؛ وهذا بعينه يصدق على الجمهوريات ، فهي لا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء ووجهت إلى تلك الشعائر هذا الاحترام نفسه (٩٢) وأكثر من يستحق الثناء ممن نالوا هذا الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموها . ويلبهم في هذا الذين أقاموا الجمهوريات أو الممالك . وأعظم الناس بعد هؤلاء وأولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسعوا أملاك بلادهم . وقد نضيف إليهم رجال الأدب وعكس هذا أيضاً صحيح . فالذين يهدمون صرح الدين ، ويقضون على الجمهوريات والممالك والذين هم أعداء الفضيلة والآداب ، أولئك يجلبهم العار . وتصب عليهم اللعنات من الناس أجمعين » (٩٣) .

وبعد أن ارتضى مكيفلى الدين بوجه عام انتقل إلى الدين المسيحي فأخذ يوجه إليه أشد النقد لأنه عجز عن إيجاد مواطنين طيبين . ذلك أنه حول أكثر ما يجب تحويله من العناية إلى السماء ، وأضعف الناس بأن أخذ يدعوهم إلى الفضائل النسوية وفي ذلك يقول :

« إن الدين المسيحي يدعونا إلى الاستخفاف بحب الدنيا ، ويجعلنا أكثر رقة وليناً . أما القدماء فكانوا عكس هذا ، كانوا يجدون أعظم أسباب بهجتهم في هذا العالم ولم يكن دينهم يقدس إلا الذين يتوج هاماتهم بمجد هذا العالم الأرضي ، كقواد الجيوش ، ومؤسسي الجمهوريات ؛ على حين أن ديننا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمانهم في التأمل والتفكير بدل أن يمجّد رجال العمل . وقد جعل هذا الدين أعلى درجات الخير الذلة ، وضعف العزيمة ، واحتقار الأمور الدنيوية ؛ أما الدين القديم فكان يجعل أعلى درجات الخير عظم العقل ، وقوة الجسم ، وكل ما يبعث في الناس .

الإقدام والجرأة ومن أجل هذا خر العالم صريعاً أمام الأشرار ،
فقد وجد هؤلاء الناس أكثر استعداداً للخضوع إلى الضربات طمعاً منهم في
دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها (٩٤)

« ولو أن الدين المسيحي قد احتفظ به حسب القواعد التي وضعها له
مؤسسه ، لكانت الدول والبلاد المسيحية أقوى اتحاداً وأكثر سعادة مما هي
الآن . وهل ثمة أدل على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة
الرومانية ، وهي رأس هذا الدين ، أقلها تديناً ؛ ومن يبحث المبادئ التي يقوم
عليها هذا الدين وير البون الشاسع بين هذه المبادئ وبين أساليبها الحاضرة
وشعائرها ، يحكم من فوره أن انهيار هذا الدين أو مصيره المحتوم آت غير
بعيد (٩٥) ولعل الدين المسيحي كان يقضى عليه قضاء لا مرد له بسبب
ما فيه من فساد لو لم يرد إليه القديسان فرانسيس ودمنيك مبادئه الأصيلة . . .
وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حياة أطول وأبقى ،
وجب أن نرجع بها مراراً وتكراراً إلى مبادئها الأولى الأصيلة (٩٦) » .
ولسنا نعرف هل كتبت هذه الألفاظ قبل أن تصل إلى إيطاليا أنباء
الإصلاح الديني أو بعد وصولها إليها .

ويختلف خروج مكيشلي على المسيحية عن خروج قلشير ، وديندرو ،
وبين Paine ، ودارون ، واسبنسر ، ورينان عليها . ذلك أن هؤلاء الرجال
كانوا يرفضون لاهوت المسيحية ، ولكنهم يحتفظون بالقانون المسيحي
الأخلاقي ويعجبون به . وظلت هذه الحال قائمة إلى أيام نتشة ولطفت
« حدة النزاع النائم بين الدين والعلم » . أما ميكيشلي فلا يشغل باله بالعقائد
الدينية وبعدها عن المعمول ؛ فهو يرى هذا البعد أمراً طبيعياً يأخذه على أنه
قضية مسلم بها ، ولكنه يقبل اللاهوت المسيحي قبولاً حسناً بحجة أن نظاماً
ما من المعتقدات التي فوق الطبيعة هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي .
أما الذي يرفضه من المسيحية بفضاضة با^{٩٧}

أن الصلاح والخير هما الرقة ، والذلة ، والاستسلام وعدم المقاومة ، وجبها
للسلم ، وتنديدها بالحرب ؛ وافترضها أن الدول والأفراد مرتبطون بقانون
أخلاقي واحد . وهو يفضل عن هذه المبادئ القانون الأخلاقي الروماني ،
القائم على المبدأ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هي القانون الأعلى :
« وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها ، وجب علينا ألا نقبل
البحث في العدل أو الظلم ، والرحمة أو القسوة ، وما هو خلاق بالثناء
أو الازدراء ؛ بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها وننحى
كل ما عدا هذا جانبا » (٩٧) . ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هي إلا قانون
للساوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعي ، والوحدة ،
والقوة ؛ وإن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها ، إذا كانت
وهي تدافع عن الدولة ، تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقي الذي يجب
عليها أن تغرسه في نفوس شعبها . ومن ثم فإن الدبلوماسية غير مقيدة بالقانون
الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه . « فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر
له نتيجة هذا العمل ذنبه » (٩٨) ؛ ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة . « وما من
رجل صالح يلوم رجلا غيره يحاول أن يدافع عن بلاده ، أيا كانت السبيل
التي يسلكها لهذا الدفاع » (٩٩) . فضروب الغش ، والقسوة ، والجرائم
التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته ، كلها « غش شريف »
و« جرائم مجيدة » (١٠٠) . ومن ثم فإن رمبولوس كان على حق حين قتل
أنحاه ، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة ، وإلا مزقت إربا (١٠١) .
وليس ثمة « قانون طبيعي » أو « حق » متفق عليه من الناس جميعاً ؛ والسياسة
إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً .
وإذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الأخلاقي ، فإن مكيفلي
وأتق كل الثقة من أنها تجعل نزع السلام المسيحية سخفاً وخيانة . ذلك
أن الحرب تناقض وصايا موسى كلها تقريباً ؛ فهل تجيز القسم ، والكذب ،

والسرقة ، والقتل ، وارتكاب الزنا آلاف المرات ، ولكنها إذا ما حافظت على المجتمع أو كانت سبباً في تقويته فهي خير . وإذا ما وقفت الدولة عن التوسع أخذت . الاضمحلال ، وإذا فقدت الرغبة في الحرب فقل عليها السلام . والسلام إذا طالت فوق ما يجب تؤدي إلى الضعف والتفكك ، ولذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقومية ، تعيد للأمة النظام ، والشدة ، والوحدة . ولهذا فإن الرومان في عهد الجمهورية كانوا دائماً مستعدين للحرب ، فإذا رأوا أنهم مقبلون على نزاع مع دولة أخرى ، لم يفعلوا شيئاً يجنبهم الحرب ؛ بل أرسلوا جيشاً ليهاجم فليب في مقدونية وأنطونيونخوس الثالث في بلاد اليونان ولم ينظروا حتى يأتي هذان المليونان بشرور الحرب إلى أرض إيطاليا^(١٠٢) . ولم يكن الرومان يرى أن الفضيلة هي الذلة ، أو الرقة ، أو السلام ، بل كان يرى أنها هي القوة ، والرجولة ، والبسالة ، مضافة إلى النشاط والذكاء . وهذا ما يعنيه مكيفلي بلفظ *virtu* .

ثم ينتقل مكيفلي من هذه النظرة نظرة الحاكم المتحرر من القيود الأخلاقية ليواجه ما كان يبدو له أنه هو المشكلة الأساسية في أيامه : وهي أن يحصل لإيطاليا على الوحدة والقوة اللتين لا غنى لها عنهما لنيل حريتها الجماعية . وهو يرى بعين المقت ما يسود بلاده من انقسام ، واضطراب ، وفساد ، وضعف ؛ وهنا نرى ما كان في أيام پترارك جده نادر - نرى رجلاً لا يؤدي تفانيه في حب قطره إلى أي نقض في حبه لمدينته . فإذا ما بحث عن الذي تقع عليه تبعه بقاء إيطاليا مقطعة الأوصال ، ضعيفة بسبب ذلك أمام العدو ، قال :

لا تستطيع أمة من الأمم أن تكون متحدة وسعيدة إلا إذا كانت تطيع حكومة واحدة سواء كانت جمهورية أو مملكة ، كما هي الحال في فرنسا وأسبانيا ؛ والسبب الوحيد الذي يمنع إيطاليا من أن تكون هذه حالها هو الكنيسة . ذلك أنها وقد حصصت لنفسها على ساطان زمني واحتفظت

بهذا السلطان ، لم توت في يوم من الأيام من القوة أو الشجاعة ما يكفي لأن يجعلها قادرة على الاستيلاء على بقية البلاد وفرض سيادتها الوحيدة على إيطاليا بأجمعها (١٠٣) .

وهنا تبدو لنا فكرة جديدة : تلك هي أن مكيفلي لا يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سلطتها الزمنية ، بل يهاجمها لأنها لم تستخدم جميع مواردها لإخضاع إيطاليا كلها لحكمها السياسي . ومن أجل هذا أعجب مكيفلي بسيزاري بورجيا في إمولاً وسنجاليا لأنه ظن أنه وجد في هذا الشاب القاسي فكرة إيطاليا المتحدة وأملها ؛ وكان على استعداد لأن يبرر أية وسيلة يستخدمها آل بورجيا لتحقيقها بها ذلك الهدف الأسمى النبيل . ولربما كان خروجه على سيزاري بورجيا ، حين نخرج عليه في رومة عام ١٥٠٣ ، بسبب غضبه من أن معبوده هذا قد سمح بأن تقضى كأس من السم (كما كان مكيفلي يظن) على هذا الحلم الجديد .

وكان قد مضى على إيطاليا قرنان من الزمان وهي مقسمة مشتتة ، سببها لها من الضعف والانحلال الاجتماعي ما لم يكن لينجها منها (في رأى ميكيفلي)

(*) كتب جوتشيارديني تعليقاً هاماً على هذه الفقرة قال فيه : « صحيح أن الكنيسة قد حالت بين إيطاليا وبين اجتماعها في دولة واحدة ، ولكن لا أعرف أخيراً هذا أم شر . نعم إنها لو أصبحت جمهورية واحدة لكان هذا بلا ريب سبباً في ارتفاع اسم إيطاليا إلى ذروة المجد ، ولكن في أعظم النفع لعاصمة تلك الجمهورية ، ولكنه كان يؤدي حتماً إلى خراب جميع ما عداها من المدن . وما من من شك أيضاً في أن انقسامنا قد جر علينا كثيراً من الكوارث ، وإن كان من واجبن أن نذكر أن غزوات البرابرة قد بدأت في أيام الرومان أي في نفس الوقت الذي كانت فيه إيطاليا متحدة . ولقد أفلحت إيطاليا المنتسمة على نفسها في أن تضم عدداً كبيراً من المدن الحرة ، حتى لأعتقد أنها لو اتحدت في جمهورية واحدة لحرث عليها هذه الجمهورية من الشقاء أكثر مما أنالته إياها من السعادة ... لقد كانت هذه البلاد تتوق إلى الحرية على الدوام ، ولهذا فإنها لم تتحد قط تحت سلطان حكومة واحدة » - *Consiperazioni interno ai Discorsi di Machiavelli* i, 12. (١٠٤)

إلا أشد الوسائل عنفاً . فلقد عم الفساد الحكومات والشعب . وحلت الرذائل الشهوانية محل الروح الحربية والمهارة العسكرية ؛ وعهد المواطنون إلى غيرهم - كما عهد إليهم أيام احتضار رومة القديمة - عهدوا إلى الجيوش المرتزقة كما عهدوا أولئك إلى البرابرة - أن يدافعوا عن مدنها وأرضهم ؛ وماذا يهم تلك العصابات المأجورة أو يهيم زعماءها من وحدة إيطاليا ؟ إنهم يعيشون ويتخمون بسبب انقسامها . لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتخذوا الحرب لعبة لا تقل لهم أمناً عن السياسة ؛ فجنودهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يعرضوا أنفسهم للقتل ، وإذا ما التفتوا بالجيوش الأجنبية ولوا الأديار ، وأنزلوا إيطاليا منزلة الاسترقاق والاحتقار (١٠٥) .

ولاذن فنذا الذى يوحد إيطاليا ؟ وكيف السبيل إلى هذه الوحدة ؟ ليست السبيل إليها هى الإقناع بالوسائل الديمقراطية ؛ ذلك أن الرجال متطرفون فى نزعتهم الانفرادية ، وفى حزبيتهم ، وفسادهم ، مما يحول بينهم وبين قبول الوحدة قبولاً سليماً ، ومثلهم فى ذلك مثل المدن نفسها ؛ ولهذا فإن هذه الوحدة لا بد أن تفرض عليهم بجميع وسائل السياسة والحرب ؛ ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا غير الطاغية القاسى الذى خلائقه من الرحمة ؛ والذى لا يسمح لضميره بأن يجعل منه إنساناً جباناً ، بل يضرب بيد من حديد ، ويجعل هدفه العظيم يبرر كل ما يلجأ إليه من الوسائل .

ولسنا واثقن من أن هذا هو المزاج الذى ألف به كتاب الزمير . وشاهد ذلك أن مكيفلى كتب إلى صديق له فى عام ١٥١٣ أى فى العام الذى يبدو أنه شرع يكتب فيه هذا الكتاب يقول : « إن فكرة الوحدة الإيطالية فكرة مضحكة . ذلك أنه حتى لو استطاع رؤساء الدولة الإيطالية أن يتفقوا ، فإننا ليس لدينا من الجنود من لهم شئ من القيمة غير الجنود الأسبان . يضاف إلى هذا أن الشعب لا يمكن أن يتفق فى يوم من الأيام مع الزعماء (١٠٦) . لكن حدث فى ذلك العام نفسه عام ١٥١٣ أن جلس (٥ - ج ٤ - مجلد ٥)

ليو العاشر على كرسى البابوية ، واتحدت فلورنس ورومة تحت سلطان آل ميديتشى بعد أن ظلتا عدوتين زمناً طويلاً ، ولما أن بدل مكيفلى صيغة إهداء كتابه فجعلها للورندسو ، دوق أربينو ، كانت هذه الدولة أيضاً قد سقطت فى يد آل ميديتشى ، ولم يكن الدوق الجديد قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى عام ١٥١٦ ، وكان قد أظهر غير قليل من الطموح . البسالة ؛ وكان من حق مكيفلى أن نسامحه إذا نظر إلى هذا الشاب المتهور على أنه هو الذى يستطيع بهداية ليو ودبلوماسيته (واتباع تعاليم مكيفلى) أن يحقق ما بدأه سزارى بورچيا بإرشاد ألكسندر السادس - أى أن يقود الدول الإيطالية ، أو فى القليل الدول الواقعة منها شمال ناپلى مع استبعاد دولة البندقية المتكبرة ، بعد ضمها فى اتحاد له من القوة ما يفلى عزيمة الغزاة الأجانب . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن هذا كان أمل ليو أيضاً . وإن إهداء كتاب الأمير لآل ميديتشى ليدل على أن المؤلف كان يظن مخلصاً أن هذه الأسرة هى التى يمكن أن تحقق وحدة إيطاليا . وإن كان الغرض الأول من هذا الإهداء فى أغلب الظن هو أن يكون وسيلة لإيجاد منصب بها يشغله مؤلفه .

وكان شكل كتاب الأمير هو الشكل التقليدى المؤلف : فقد أفرغ فى القالب الذى أفرغت فيه مائة من الرسائل فى العصور الوسطى خاصة بحكم الأمراء ، وسار على الطريقة التى اتبعت فى هذه الرسائل . أما فى محتوياته فقد كان ثورة لا شك فيها . فلم توجه فى الكتاب دعوة مثالية إلى أمير من الأمراء ليكون قديساً ، ولم يطلب إليه أن يطبق ما جاء فى صوغظة الجبل على مشاكل العروش ، بل نراه على عكس ذلك يقول :

« لما كنت أقصد أن أكتب شيئاً يفيد من يفهمه ، فإنه يبدو لى أن أتبع حقيقة الأمور الصحيحة من أن أجرى وراء الخيال . لقد صور كثيرون جمهوريات وإمارات لم تعرف أو تتر فى يوم من الأيام ، لأن البعد شاسع

بين الطريقة التي يعيش بها الإنسان والطريقة التي يجب أن يعيش بها ،
ومن أجل ذلك . فإن من يهمل ما يفعل في سبيل ما يجب أن يفعل يجر على
نفسه الخراب بأسرع ما يحتفظ لنفسه بالبقاء ؛ وإن الرجل الذي يريد أن
يعمل حسب ما يجهر بأنه هو الفضيلة لا يلبث أن يلقي الوبال بين ما يحيط به
من السرور من كل جانب . ومن ثم كان لابد للأمير الذي يريد أن يحتفظ
بمركزه أن يعرف كيف يرتكب الخطأ وأن يفيد منه أولاً يفيد حسياً تدعو
إليه الحاجة (١٠٧) .

ولهذا فإن من واجب الأمير أن يفرق في قوة وحزم بين المبادئ
الأخلاقية ومطالب الحكم ، أي بين ضميره الخاص والصالح العام ؛ وأن
يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً في علاقة الأفراد
بعضهم ببعض . ويجب عليه أن يزدري أساليب التردد والضعف التي
لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً ؛ والأعداء الذين لا يستطيع كسب صداقتهم
يحب القضاء عليهم ؛ ومن واجب الأمير أن يقلل من ينازعونه عرشه .
ولا بد له أن ينشئ جيشاً قوياً لأن الحاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت
أعلى من صوت مدافعه . ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده ،
وحسن نظامهم ، وعدتهم ، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه في كثير
من الأحيان لصعاب الصيد وأخطاره . وعليه في الوقت نفسه أن يدرس
فنون الدبلوماسية ؛ لأنه يستطيع أن يحصل بالمكر والخداع في بعض الأحيان
أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة وقد لا يكلفانه ما لا تكلفه . ويجب
عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة ؛ « والسيد
العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان في وسع أعدائه
أن يتخذوا محافظته هذه سلاحاً لإيذائه ، وإذا ما زالت الأسباب التي جعلته
يقطع هذا العهد على نفسه » (١٠٨) .

ولا غنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب . ولكن إذا كان لا بد

للحاكم أن يختار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبه ، وبين أن يحبه دون أن يخافه وجب عليه أن يضحى بالحب (١٠٩) . لكن حكم الجماهير بالرافة والرفقة أسهل من حكمها بالغطرسة والقسوة (١١٠) . . . وشاهد ذلك أن الأباطرة تيتوس ، ونيرفا ، وتراجان ، وهديران ، وأنطونينوس ، وماركس أورليوس لم يحتاجوا إلى الحرس البريتورى ولا إلى الفيالق الحربية لحمايتهم ، لأنهم كانوا يحتمون بسلوكهم الطيب ، وبإخلاص شعبهم وبحب مجلس الشيوخ لهم (١١١) . ومن الوسائل التى يحصل بها الأمير على تأييد الشعب أن يناصر الفنون والعلوم ، وأن يهيئ له الحفلات والألعاب العامة . ويكرم أهل الحرف بشرط أن يحتفظ على الدوام بجلال مركزه (١١٢) . ويجب عليه ألا يهيب الناس الحرية ، ولكن من واجبه أن يتمتعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية . وعليه أن يعامل المدن التابعة له — كمدىنتى أرتسو ويزا التابعتين للبندقية ، بالشدة والعنف ، بل وبالقسوة فى بادئ الأمر فإذا ما استقرت له الأمور وأطاعه أهل هذه المدن ، أمكنه أن يجعل خضوعهم له أمراً عادياً مألوفاً بأساليب اللطف والمجاملة لأن القسوة إذا طالت وعمت أهل المدن الخاضعة كانت بمثابة انتحار من يلجأ إليها (١١٣) .

وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أيا كانت عقائده الخاصة (١١٤) . والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد له من أن يكون فاضلاً بحق :

« إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضروري أن يتصف بها ؛ فعليه مثلاً أن يتظاهر بأنه رحيم ، وفى ، شفيق ، متدين مخلص ؛ ومما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات ، على أن يكون ذا عقل مرن يمكنه إذا دعت الحاجة من أن يتصف بعكسها . . . وعليه أن يحذر من أن ينطق بكلمة لا تنطبق عليها الصفات الخمس السالفة الذكر ؛ ويجب أن يبدو

لمن يروونه ويستمعون له كأنه الرحمة ، والإيمان ، والتدين ، والاستقامة مجسمة ، وعلى الإنسان أن يلوّن سلوكه ، وأن يكون مرثياً لأن الناس سذج منهمكون في حياتهم الحاضرة ، إلى حد يسهل معه خداعهم . . . وفي مقدور كل إنسان أن يرى مظهره ، ولكن قل من الناس من يعرف حقيقة مخبره ، وأولئك النفر القلائل لا يجرعون على مخالفة رأى الكثرة فيك (١١٥) .

ويضرب مكيفلى لهذه الحكم أمثلة واقعية ، فيذكر نجاح الإسكندر السادس ، ويرى أن هذا النجاح يرجع كله إلى كذبه المدهش الذى يستثير الإعجاب ؛ ويعجب بفرديناند الكاثوليكي ملك أسبانيا ، لأنه كان يتظاهر دائماً بمظهر المدافع عن الدين في مغامراته الحربية ، ويمتدح الوسائل التى ارتقى بها فرانثيسكو اسفوردسا عرش ميلان وهى الشجاعة الحربية والمهارة فى الأساليب العسكرية منضمة إلى الدهاء الدبلوماسى ، ولكن أعظم مثل يضربه ، وهو مثل يكاد يبلغ فى اعتقاده حد الكمال ، هو سيزارى بورچيا :

« إذا استعدنا فى ذاكرتنا جميع أعمال هذا الدوق فإنى لا أعرف عملاً منها يستحق عليه اللوم ، بل إنه ليبدو لى أنى أضعه أمام الناس لكى يقلده كل من يقبضون بأيديهم . . . على أزمة الحكم . . . لقد كانوا يحسبونه قاسياً ؛ ولكن قسوته هى التى أزالت الخلاف من رومانيا كلها ، وضمت شتاتها ، وأعادت إليها السلم والولاء . . . ولقد أوتى روحاً عالية ، وآمالاً كباراً ، لم يكن يستطيع غيرها أن ينظم مسلكه ؛ ولم يحل بينه وبين تحقيق أغراضه إلا قصر حياة الإسكندر ، ومرضه هو . ولهذا فإن من شاء أن يضمن لنفسه الأمان فى إمارته الجديدة ، ويكسب الأصدقاء ، ويغلب الأعداء بالقوة أو الختل ، ويبعث فى قلوب الناس حبه والخوف منه فى آن واحد ، وأن يؤيده الجند ويحلوه ، ويبيد من أوتوا قوة يستطيعون بها

أن يؤذوه ؛ أو كانت لديهم أسباب تدعوهم إلى هذا الإيذاء ، ويستبدل بنظام الأشياء القديم نظاماً جديداً ؛ وأن يكون قاسياً وكرماً ، نبيلاً وحرراً ، ويحطم قوة الجند غير الموالين له وينشئ بدلتهم جيشاً جديداً ، ويحفظ بصداقة الملوك والأمراء بحيث يرون أن من واجبهم أن يخفوا لعرفته متحمسين ، فإذا فكروا في أذاه كانوا حذرين - من شاء هذا فإنه لن يجد مثلاً أروع من أعمال هذا الرجل .

وكان مكيفلي يعجب ببورجيا لأنه كان يشعر بأن أساليبه وأخلاقه تمهد السبيل إلى توحيد إيطاليا ، وأنها لم تحل بينها وبين بلوغ تلك الغاية إلا ما صحبها من مرض البابا وولده . وهو يتوسل في ختام كتابه الأمير إلى لورندسو الدوق الشاب ، ويتوسل عن طريقه إلى ليو وآل ميديتشى ، أن يعملوا على توحيد شبه الجزيرة . وهو يصف أهل بلاده بأنهم مستعبدون ، « أكثر من العبرانيين ، وأنهم يعانون من الظلم أكثر مما يعانيه الفرس ، وأنهم مشاكسون أكثر من الأثينيين ، وأنهم قوم لا رئيس لهم ، ولا نظام ، مهزومون ، منتهبون مغتصبون ، ممزقون ، يحتاج بلادهم الجيوش الأجنبية » . « لقد أصبحت إيطاليا وكأنها مسلوقة الحياة ، تنتظر من يقبل عليها ليأسوا جراحها . . . وتدعو الله أن يقيض لها من ينجيها من هذه المظالم وهذه الخازي التي يوقعها عليها الأجانب » (١١٧) . إن الموقف جد خطير ؛ ولكن الفرصة مواتية . « ذلك أن إيطاليا متأهبة ، راغبة في أن تسير وراء العساكر ، إذا ما رافقه إنسان ما » ومن أحق برفعه من آل ميديتشى ، أشهر الأسر كلها في إيطاليا ، والتي تزعم الكنيسة في هذه الأيام ؟

« ربما الذى يستطيع أن يعبر عن الحب الذى سوف يفيض به قلب إيطاليا وهى ترحب بمحررها ؛ أو عن تعطشها للانتقام من أعدائها ، أو عن إيمانها القوي ، وإخلاصها ، ودموعها ؟ وأي باب يمكن أن يغلق في وجهه ؟ ومنذا الذى يضمن عليه بالطاعة ؟ إن هذا السلطان الأجنبي الهمجى الذى

نروح تحته لتزكم رائحته الكريمة أنوفنا . فليتلو إذن ببيتكم المجيد هذه المهمة ، وليستعن على القيام بها بالبسالة والأمل ، اللذين يتذرع بهما كل من يقوم بمغامرة عادلة ، حتى تسمو تحت علم هذا البيت مكانة بلادنا ، وتحقق بفضل رعايتها تلك الكلمات التي كتبها بترارك :

« إن ذوى الرجولة يمتشقون الحسام ليقاتلوا ذوى الجنة ، وستكون المعركة جدد قصيرة ، لأن البسالة القديمة لم ينضب بعد معينها في عروق إيطاليا » .

٤ - تأملات

وهكذا وجهت إلى آل ميديتشى تلك الدعوة التي وجهها دانتى وبترارك إلى الأباطرة الأجانب ؛ والحق أنه لو أن ليون عاش أطول مما عاش ، ولعب أقل مما لعب ، لشهد مكيفلى بداية تحرر إيطاليا . ولكن الشاب لورندسو توفى عام ١٥١٩ ، وتوفى ليون عام ١٥٢١ ؛ وفي عام ١٥٢٧ وهو العام الذى توفى فيه مكيفلى ، كان قد تم خضوع إيطاليا لدولة أجنبية ، وكان لابد أن يتأخر ذلك التحرر ٣٤٣ سنة حتى يحققه كافور Cavour بأساليب مكيفلى فى الحكم .

ويكاد الفلاسفة يجمعون على التنديد بكتاب الأمير كما يكاد الحكماء يجمعون على العمل بما فيه من حكم . وبدأ غداة نشره (١٥٣٢) ظهور ألف كتاب تعارضه . لكن شارل الخامس درسه بعناية ، وجاءت باكثرين ده ميديتشى الى فرنسا ، وكان مع هنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا وقت وفاتهما ، وكان ريشليو يعجب به ، ووليم أورنج يضعه تحت وسادته كأنه يريد أن يستظهره بطريق النصح (١١٨) . وكتب فردريك الأكبر ملك بروسيا كتابه ضد مكيفلى ليجعله تمهيداً لكتاب يتجاوز فيه ما ورد فى كتاب الأمير . ولم يكن معظم الحكماء يرون بطبيعة الحال أن هذه

التعاليم وحى جديد ، إلا إذا فهمنا لفظ الوحي أنها تكشف في غير حكمة أو حذر أسرار طائفتهم . أما الحالمون الذين حاولوا أن يجعلوا من مكيفلى نائراً كاليقوبيين فقد خيل إليهم أنه لم يكتب الأمير ليبر عن فلسفته ، بل كتبه من قبيل السخرية ، ليكشف للناس عن أساليب الحكام وخيلهم ؛ بيد أن كتاب المفاتيح ينطق بهذه الآراء نفسها ويبسط القول فيها ؛ وقد جرؤ فرانسيس بيكن فكتب هذه العبارة يصفح بها عن مكيفلى : « إنا لنشكر لمكيفلى وأمثاله من الكتاب الذين أظهروا لنا صراحة وفي غير خداع ما اعتاد الناس أن يفعلوه ، لا ما يجب أن يفعلوه » (١١٩) . وأما حكم هيجل Hegel فكان دلالة على الذكاء والكرم :

كثيراً ما أخرج كتاب الأمير في رعب لأنه يحتوى حكماً وأمثالا تدعو إلى أشد أنواع الاستبداد وأدعائها إلى الاشتياز ؛ ولكن الحقيقة أن شعور مكيفلى القوي بضرورة قيام دولة موحدة هو الذي دعاه إلى وضع المبادئ التي لا يمكن أن تقوم دول في الظروف المحيطة به وقتئذ إلا على أساسها . فقد كان لابد من القضاء على الأمراء والإمارات القائمة وقتئذ ؛ وإنا وإن كان رأينا في ماهية الحرية لا يتفق مع الوسائل التي يشير بها والتي تشمل أشد أنواع العنف وأكثرها تطرفاً ، وجميع صنوف الخداع ، والاعتقال ، وما إليها — فلا يسعنا إلا أن نقر أن الطغاة الذين لابد من قهرهم لم يكونوا ليغلبوا بغير هذه الوسائل (١٢٠) .

كذلك صور مكولى Macaulay في مقال له ذائع الصيت فلسفة مكيفلى على أنها انعكاس طبيعي لإيطاليا المتوقدة الذكاء الفاسدة الأخلاق التي عودهاحكامها المستبدون من زمن بعيد مبادئ كتاب الأمير .

ويمثل مكيفلى آخر صورة من تحدى الوثنية المنتعشة التي عادت إلى الحياة للمسيحية المستضعفة . والدين في فلسفته يصبح مرة أخرى ، كما كان في رومة القديمة ، خادماً ذليلاً للدولة حلت في واقع الأمر محل الله . فالفضائل

التي يعظمها مكيفلى هي الفضائل الرومانية الوثنية دون غيرها — الشجاعة ،
والصبر ، والاعتماد على النفس ، والذكاء ، والحاود الوحيد شهرة.
زائلة لا غير ؛ واعمل مكيفلى قد بالغ فيما للمسيحية من أثر مضعف.
موهن ، فهل يا ترى نسي مكيفلى الحروب العوان التي شبت نارها في
العصور الوسطى ، حروب قسطنطين ، وبلساريوس ، وشارلمان ، وفرسان
المعبد ، والفرسان التيوتون ؛ وحروب يوليوس الثاني التي لم يمحض عليها
وقت طويل ؟ إن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضائل النسوية إلا لأن
الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها ، وكانت فيهم قوية للدرجة
تؤدى إلى الخراب والدمار ؛ فكان لابد من وجود ترياق شاف لهذا الداء ،
ومثل أعلى مضاد له يوعظ به الرومان القساة في المجتلد ، والبرابرة الغلاظ
الذين اجتاحتوا إيطاليا ، والشعوب الخارجة على القانون التي تحاول الهبوط
إلى بلاد الحضارة . إن الفضائل التي يزدريها مكيفلى تعمل لبناء المجتمعات
المنظمة السلمية ، أما الفضائل التي يعجب بها (لأنها تنقصه كما تنقص نتشه) ،
فتعمل لقيام دول قوية ذات نزعة حربية ، وحكام طغاة في مقدورهم أن
يقتلوا الناس بالآلاف ليرغموهم على التضامن والائتلاف ، وعلى إراقة الدماء
أسهاراً لتوسيع رقعة البلاد التي يحكمونها . لكنه خلط بين خير الحاكم وخير
الامة ، وأفرط في التفكير في الاحتفاظ بالسلطة ، وقلما فكر فيما على صاحبها
من واجبات ، ولم يفكر مطلقاً فيما تؤدى إليه من فساد . وتجاهل ما بين دول
المدن الإيطالية من تنافس منعش ، ونخصب ثقافى ، وقلما كان يعنى بما فى
ذلك الوقت من فن رائع ، بل إنه لم يعن بفن رومة القديمة نفسه ، ذلك
بأنه ضل فى عبادة الدولة ضللاً مبيئاً . نعم إنه أعان على تحرير الدولة من
الكنيسة ، ولكنه أسهم فى إقامة نوع من القومية العارمة ودعا الناس إلى
عبادتها ، ولم تكن هذه القومية أرقى رقى واضحاً من الفكرة السائدة فى
العصور الوسطى عن وجود دول خاضعة لمبادئ أخلاقية دولية يمثلها البابا ..

لقد تحطم كل مثل أعلى بسبب ما طبع عليه الناس من أنانية ، ومن الواجب على كل مسيحي صريح أن يقر بأن الكنيسة وهي تدعو إلى المبدأ القائل بأن الإنسان غير ملزم بالمحافظة على عهده مع الزنديق والجرى على هذه السنة نفسها (كما حدث حين نكث عهد الأمان مع هوس Auss في كنستانس ومع ألفنسو دوق فرارا في رومة) تقول إن من الواجب على كل مسيحي صريح أن يقر بأن الكنيسة وهي تدعو إلى هذا إنما كانت تعمل بمبادئ مكيفلى عملا يحطم رسالتها بوصفها قوة أخلاقية .

ومع هذا فإن في صراحة مكيفلى قوة جافزة دافعة إلى حد ما . ذلك أنا إذا قرأنا كتابه ، واجهنا في وضوح لا مثيل له عند غيره من المؤلفين ، ذلك السؤال الذى قلما تعرض له غيره من الفلاسفة : هل سياسة الحكم مقيدة بالمبادئ الأخلاقية ؟ وقد نخرج من كتبه بنتيجة واحدة على الأقل : وهي أن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن توجد إلا بين أفراد مجتمع مسلح بالوسائل التى نستطيع تعليمها وإلزام الناس باتباعها ، وأن المبادئ الأخلاقية التى يجب أن تتبعها الدول جمعاء يجب أن تؤجل حتى تقوم منظمة تضم الدول جمعاء ، ويكون لها من القوة المادية وفيها من رأى العام ما تستطيع بهما المحافظة على القانون الدولى . وإلى أن يحين ذلك الوقت فستظل الأمم كالوحوش في الغاب ؛ وأيا كانت المبادئ التى تجهر بها حكوماتها ، فإن السنن التى تسيطر عليها هى الواردة في كتاب الأمير :

وإذا ما عدنا بأنظارنا إلى المائتى عام من الثورة الفكرية التى سادت إيطاليا من أيام بترارك إلى مكيفلى ؛ تبين لنا أن جوهر هذه الثورة وأساسها لا يعدوان أن يكونا نقص الاهتمام بالعالم الآخر ، والاهتمام المتزايد بالحياة . . فقد ابتهج الناس إذ كشفوا من جديد حضارة وثنية لا يشغل بال الناس فيها الخطيئة الأولى ، أو عقاب الجحيم ، ترتضى فيها الغرائز الفطرية وتعد عناصر في مجتمع نابض بالحياة خليقة بأن تغتفر . وفي هذه الحضارة فقد

النسك والزهد ، وإنكار الذات ، والإحساس بالخطيئة ما كان لها سلطان على الطبقات العليا من سكان إيطاليا ، وكادت تفقد ما كان لها عندهم من معنى . فاضمحلت الأديرة لقلة من كان يدخلها من الرهبان الجدد ؛ وكان الرهبان — والإخوان ، والبابوات أنفسهم يسعون وراء ملذات الدنيا بدل تعاليم المسيح . وتراخت قيود التقاليد والسلطان ، وكان صرح الكنيسة الضخم أخف على قلوب الناس وأغراضهم من ذي قبل . وأضحت الحياة أكثر اهتماماً بما هو في خارج الإنسان ؛ ومع أن هذه الضعة كثيراً ما اتخذت شكل العنف ، فإنها ظهرت كثيراً من النفوس من المخاوف والاضطرابات العصبية التي كانت تخيم على العقول في العصور الوسطى وتسبب لها الكآبة والظلمة . وأخذ العقل الطليق يمرح سعيداً في جميع الميادين عدا ميدان العلم ، وذلك لأن ما ينشأ عن هذا الإنطلاق وذاك التحرر من نخب قلوبها كان يتفق حتى ذلك الحين مع ما تتطلبه التجارب والبحوث العلمية من تهذيب نفسي وصبر طويل ؛ فهذا التهذيب وذاك الصبر إنما يجيئان في الدور الإنشائي الذي يعقب التحرر . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد أفسحت أساليب التقى السبيل إلى عبادة العقل والعبقرية ؛ واستبدل بالسعى وراء الشهرة الخالدة الاعتقاد ، بألا ضرورة للتقيد بالمبادئ الأخلاقية وعادت المثُل الوثنية كالخط ، والأقدار ، والطبيعة على فكرة الله المسيحية .

وكان لا بد لهذا كله من ثمن . لقد قوض التحرر الساطع للعقل دعائم القوة العليا السماوية المشرقة على الأخلاق ، ولم توجد قوة أخرى لها ما لهذه من سلطان تحل محلها . وكانت النتيجة التحلل من جميع الموانع والقيود : وإطلاق العنان للغرائز والشهوات ، وانتشار الفساد ، والاستمتاع المرح به استمتاعاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً منذ أن حطم السوفسطائيون الأساطير ، وحرروا العقول ، وأرخنوا قيود الأخلاق في بلاد اليونان القديمة .

الباب العشرون

الانحلال الخلقى

١٣٠٠ - ١٥٣٤

الفصل الأول

منابع الفساد الخلقى وأشكاله

ليس ثمة ميدان يمكن أن يتعرض فيه المؤرخ لتأثير أهوائه وميوله فيفضل ويصدر أحكاماً خاطئة ، كالميدان الذى يطرقة حين يريد التحقق من المستوى الأخلاقى لعصر من العصور - اللهم إلا إذا كان هذا الميدان هو ميدان البحث فى أسباب ضعف العقيدة ، الدينية ، وهو ميدان وثيق الصلة بميدان الأخلاق ، فى كلتا الحالين يكون أكثر ما يسترعى نظره هو الاستثناء غير المألوف الذى يؤثر فى النفس بمظهره فيصرف الإنسان عن الأحوال المألوفة التى لا تسجلها صفحات التاريخ . وإذا ما أقبل على المشكلة التى أمامه ولديه فكرة يريد أن يثبتها كالفكرة القائلة إن التشكك فى أمور الدين يؤدى إلى انحلال الأخلاق - نقول إنه إذا أقبل على المشكلة بهذه الفكرة زادت الحقائق انطماًساً فيعجز عن تبين الحقيقة كاملة . هذا إلى أن الحوادث المسجلة قد تفسر بالنقيضين ، ويكاد يستطيع قارئها أن يثبت بها أى شىء حسب ما يختاره من تلك الحوادث مدفوعاً إلى ذلك بميله وهواه . فى وسعه مثلاً أن يوجه اهتمامه إلى مؤلفات أريتينو Aretino وسير تشيليني Cellini الذاتية ، ورسائل مكيفلى وفتورى ليشتم منها رائحة الانحلال ، كما أن

في مقدوره أن ينقل من رسائل إزبلا وبيتريس دست ، ورسائل إلزبتا جندساجا وألسندرا استرتسي ما يصور به الحنان الأنحوى والحياة البيتية المثالية . ولهذا ينبغي لقارئ التاريخ أن يكون على حذر .

وكان ثمة عوامل كثيرة سببت ذلك الانحلال الخلقى الذى صاحب ما كان فى النهضة من رقى فكرى عظيم . وأكبر الظن أن العامل الأساسى فى هذا الانحلال هو زيادة الثراء الناتج من موقع إيطاليا الهام فى ملتقى الطرق التجارية بين أوربا الغربية وبلاد الشرق ، ومن تدفق العثور وغيرها من القروض التى كانت ترد إلى رومة من ألف مجتمع مسيحى . وزاد انتشار الإثم بازدياد المال الذى تتطلبه نفقاته ، وأضعف انتشار الثراء اتخاذ الزهد مثلاً أعلى للحياة : فقد أصبح النساء والرجال يشمئزون من المبادئ الأخلاقية التى قامت على الفقر والخوف ، والتى أضحت الآن تتعارض مع غرائزهم ووفرة ما لهم . وأخذوا يستمعون بعطف متزايد إلى آراء أبيقور القائلة إن على الإنسان أن يستمتع بالحياة ، وإن كل الملذات يجب أن تعد بريئة حتى يثبت جرمها : وغلبت مفاتن النساء أوامر الدين ونواهيها .

وربما كان العامل الثانى الذى يلى الثراء فى إفساد الأخلاق هو ما كان فى ذلك العصر من تقاتل سياسى . ذلك أن تطاحن الأحزاب والشيع المتعادية ، وكثرة الحروب ، وتدفق مرتزقة الجنود الأجانب ، وما حدث بعد ذلك من غزو الجيوش الأجنبية أرض إيطاليا ، وهى جيوش لم تكن تراعى فى تلك الأرض أى قيد من القيود الخلقية ، واضطراب أحوال الزراعة والتجارة بسبب ويلات الحرب وتخريبها ، وقضاء الحكام المستبدين على الحرية واستبدالهم القوة الغاشمة بالسلم والقانون : كل هذه الظروف أشاعت الاضطراب فى حياة إيطاليا وحطمت العادات التى كان الأهليون يعتزون بها ويحافظون عليها ، وهى فى العادة الحارس الأمين على الأخلاق . ووجد الناس أنفسهم يضربون على غير هدى فى بحر عجاج من العنف والجبروت ،

بدا لهم فيه أن الدولة والكنيسة كلتيهما عاجزتان عن حمايتهن فتولوا هم أنفسهم تلك الحماية بأحسن ما يستطيعون ، بالسلاح وبالخداع ؛ حتى أصبح الخروج على القانون هو السنة المتبعة والشرعية المقررة . وانغمس الحكام الطغاة في الملاذات جميعها بعد أن وجدوا أنفسهم فوق القانون يحبون حياة قصيرة ولكنها حياة مشيرة ، وحدث حذوهم أقلية الأهاين ذات الثراء .

وإذا شئنا أن نقدر أثر التحلل من الدين في تحلل بنى الإنسان الفطرى من القيود الخلقية ، وجب علينا أن نبدأ بالتفرقة بين تشكك القلة المتعلمة ، وتقوى الكثرة التى تعض على تقواها بالنواجذ . إن الاستنارة على الدوام من مزايا الأقليات ، والتحرر من صفات الأفراد ، لأن العقول لا تتحرر جماعات . . . فقد يحتاج عدد قليل من المتشككة على الخلافات الزائفة ، والمعجزات المزورة ، وصكوك الغفران التى تعرض تعهدا بالأداء الآجل نظير ثمن عاجل ؛ ولكن جمهرة الشعب تقبل هذه كلها فى رهبة وخشوع وأمل . وقد حدث فى عام ١٤٦٢ أن ذهب البابا العالم بيوس الثانى وجماعة من الكرادلة إلى ملقى ليستقبلوا رأس الرسول أندرو المحمول من بلاد اليونان ، وألقى الكردينال العالم بساريون Bessarion خطبة رهيبة حين وضع الرأس الموهوم الثمين فى كنيسة القديس بطرس . وكان الشعب يحج إلى لوريتو وأسيسى ، ويهرع إلى رومة فى سنى الأعياد ، ويطوف بمواضع الصليب من كنيسة إلى كنيسة ، ويصعد وأفراده ركع على الدرج المقدسة Seale Sanla التى قيل لهم إنها هى الدرج التى صعد عليها المسيح إلى محكمة بيلاطس . وقد يسخر الأقوياء من هذا كله وهم أصحاء ، ولكن قلما كان يوجد إيطالى فى عصر النهضة لا يطلب القربان المقدس وهو على فراش الموت . فيها هو ذا فيتيلتسو فيتيللى Yitelozze Vitelli الزعيم المغامر المستأجر الذى حارب الإسكندر السادس ، وسيزارى بورجيا يتوسل إلى رسول أن يذهب إلى رومة ليسأل البابا أن يغفر له قبل أن يشد جلاذ سيزارى .

الحبل حول عنقه ؛ وكانت النساء على الأنحص يعبدن مريم ؛ ولم تكده قرية من القرى تخلو من صورة لها تصنع المعجزات ؛ وأضحت المسيحية وقتئذ (ولعل ذلك كان في عام ١٥٢٤) الأداة المحببة للتسبيح والصلاة . وكان في كل بيت محترم صليب ؛ وصورة مقدسة أو صورتان ، وأمام الصورة أو الصورتين في كثير من البيوت مصباح يظل موقداً على الدوام . وكانت ميادين القرى وشوارع المدن تزدان أحياناً بتمثال للمسيح أو العذراء موضوع في صندوق خاص أو كوة في جدار . وكانت أعياد التقويم الديني يحتفل بها في أبهة وفخامة تخفف عن عامة الشعب كدحهم وتدخل السرور على نفوسهم ، وكان تتويج البابا كل عقد من السنين أو نحوه تعرض فيه المواكب والألعاب ، تذكر عارفي التاريخ القديم بما كان يجري في رومة القديمة . ولم يكن قط دين من الأديان أجمل مناظر من الدين المسيحي حين أقام فنانون النهضة ونحتوا أضرحه ، وصوروا أبطال هذا الدين وقصصه ، وحين اجتمعت المسرحيات والموسيقى ، والشعر ، والبخور في عبادة الله ، وازدانت العبادة بما كان فيها من ألوان رائعة ؛ وروائح ذكية ، ومناظر فخمة .

ولكن هذا لم يكن إلا جانباً واحداً من جوانب المنظر فيه من الاختلاف والتناقض ما لا يليق معه وصفه بإيجاز . لقد كان كثير من كنائس المدن يخلو نسبياً من المصاين ، كما هي حالها في هذه الأيام (١) . أما في الريف فلنستمع إلى ما يقوله أنطونيو كبير أساقفة فلورنس في وصف فلاحى أسقفيته حوالى عام ١٤٣٠ :

« وفي الكنائس نفسها كانوا أحياناً يرقصون ، ويقفزون ، ويغنون مع النساء . وفي أيام الأعياد لم يكونوا يقضون في الصلاة أو في سماع القداس إلا وقتاً جد قصير ؛ أما معظم الوقت فيقضونه في الألعاب ، أو في الحانات ، أو في النزاع عند أبواب الكنائس . وهم يجدفون في حق الله وأوليائه الصالحين ، أو ينطقون بأقوال مثيرة أقل من هذه قبحاً . تنطق ألسنتهم

بالكذب والخث بالعهود وقول الزور ؛ ولا يؤثبنهم ضميرهم على الفسق والفجور وما هو أسوأ من هذا وذلك . وما أكثر من لا يعترفون منهم بذنوبهم ولو مرة واحدة في العام . وما أقل من يتناولون القربان المقدس . . . ولا يكادون يفعلون شيئاً يربون به أبناءهم كما يفعل الصالحون المؤمنون . يستخدمون الرقي والتعاوين لأنفسهم وحيوانهم ، ولكنهم لا يفكرون أبداً في الله ولا في سلامة أرواحهم . . . أما قساوسة الأبرشيات فلا يعنى منهم أحد بالقطيع الذى يرعونه ، بل كل ما يعنون به هو أصواف ذلك القطيع وألبانه ، فلا يهدونه بالمواعظ العامة والاعترافات أو بالتحذير الفردى ؛ بل يرتكبون نفس الخطايا التى يرتكبها من يرعونهم ، ويسرون سيرتهم الفاسدة (٢) » .

ومن حقنا أن نستدل من حياة رجال أمثال بمبونتسى ومكيثلى ، ومن موتهم الطبيعى ، على أن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة فى إيطاليا عام ١٥٠٠ قد فقد إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية ؛ ولنا أن نفترض ، فى حذر أكثر من هذا ، أن الدين حتى بين الطبقات غير المتعلمة ، قد فقد بعض ما كان له من سلطان على الحياة الأخلاقية . وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقى موحى به من عند الله . وما كاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر ، وما كادت تجرد مما فيها من نعم فى الجنة وعذاب فى النار ، حتى فقد ذلك القانون الأخلاقى ما كان له من رهبة وقوة ، فلم يعبأ أحد بالمحرمات ، وحل محلها قانون جر المغامز وانتهاج اللذات ؛ وضعف شعور الناس بالخطيئة ، والرهبة من الجريمة ؛ وتحرر ضمير الناس من القيود أو كاد ، وأخذ كل إنسان يفعل ما يبدو له ميسراً ولو لم يكن مما اعتاد الناس أن يروه حقاً . ولم يعد الناس يرغبون فى أن يكونوا صالحين ، بل كل ما يريدونه أن يكونوا أقوياء . ومارس كثيرون من الناس ، قبل مكيثلى بزمان طويل ، امتيازات القوة ، والغش والخداع - أى المبدأ القائل

بأن الغاية تبرر الوسيلة — التي يجيزها ذلك السياسي لحكام الدول . ولعل قانونه الأخلاقي لم يكن إلا صورة تمثلت له بعد أن شهد ما حوله من أخلاق وعادات . وقد عزا بلاتينا Platina لبيوس الثاني قوله إنه « حتى إذا لم يكن الدين المسيحي مؤيداً بالمعجزات ، فإن من الواجب مع ذلك أن يتقبل لما فيه من حث على الأخلاق الكريمة » (٣) . ولكن الناس لم يكونوا يتبعون هذه الفلسفة في تفكيرهم ؛ بل كل ما كانوا يقولونه : إذا لم تكن ثمة نار ولا جنة ، فإن من واجبنا أن نمتنع أنفسنا على ظهر الأرض ، ونترك العنان لشهواتنا ، دون أن نخشى عقاباً بعد الموت . ولم يكن شيء يستطيع أن يحل محل العقوبات السماوية الضائعة إلا رأى عام قوى مفكر ؛ ولكن رجال الدين ، والكتاب الإنسانيين ، ورجال الجامعات لم يرقوا إلى المستوى الذي يستطيعون معه أداء هذا الواجب .

ذلك أن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فساداً من رجال الدين الذين يوجهون لهم لهم سهام النقد . نعم إنه كان من بينهم قلة شاذة من العلماء الناهيين الذين يرون الاحتشام والوقار مما يتفق مع التحرر العقلي — أمثال أمبروجيو ترافيرساري Ambrogio Traversari ، وفيتوريو دا فيلتري Vitoiro da Feltre ومرسليو فيتشينو Mersilio Vicino ، وألدس مانوتيوس Aldus Manutius ولكن أقلية كبيرة من الرجال الذين بعثوا الآداب اليونانية والرومانية كانت تعيش كما يعيش الوثنيون الذين لم يسمعوا قط شيئاً عن المسيحية . وكان تنقل أفرادها سبباً في اقتلاعهم من كل بيئة وجدوا فيها ؛ فقد كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يطلبون في كل منها المجد أو المال ، ولا يستقرون في واحدة منها . وكانوا مولعين بالمال ولع المرابي أو زوجته ، مزهوين بعبقريتهم ، ومكاسبهم ، وملاحمهم ، وثيابهم ؛ غلاظاً وقحين في ألفاظهم ، غير كريمين حقيرين في أحاديثهم ، غير أوفياء في صداقتهم ، متقلبين في حبيهم ، وهامو ذا أريستو ، كما قلنا من قبل ، لم يجرؤ على أن

يعهد بابنه إلى معلم من الكتاب الإنسانيين خشية أن تصيبه عدوى المعلم الخلقية .
وأكبر الظن أنه لم ير من الضروري أن يحرم على ولده قراءة قصة أورلاندو
فيوريوسو Orlando Furioso التي كانت تتخللها بعض العبارات الوقحة
الحلوة النغمة . وقد كشف فلا ، وبجيو وببيكاديلي Becadelli ، وفيافيو
بإيجاز بليغ في حياتهم المستهتره عن إحدى المسائل الأساسية في علم الأخلاق
وفي الحضارة بوجه عام : ونعني بها « هل ينبغي أن يكون القانون الأخلاقي ،
إذا أريد أن يكون ذا أثر في النفوس ، مؤيداً من قوة غير قوة بنى الإنسان —
وهل لابد لأن يكون له ذلك الأثر أن يؤمن الإنسان بحياة غير هذه الحياة
الدنيا أو يعتقد أن هذا القانون الأخلاقي منزل من عند الله ؟

الفصل الثاني

أخلاق رجال الدين

لقد كان يسوع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع . ولكن كثرتهم الغلبة ارتضت ما في أخلاق زمانها من شر وخبث ، وكانوا هم أنفسهم مرآة تنعكس عليها ما في سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادماً ساذجاً ، لم يوث في العادة إلا قسطاً ضئيلاً من التعليم ، ولكنه غالباً ما يعيش معيشة يقتدى بها^(٤) (وإن خالفنا في هذا رأى الراهب الصالح أنطونينو) ، لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب . وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذي يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح^(٥) .

وانتشرت في جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات ، وملاجئ اليتامى ، والمدارس ، وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكارتوزيون بمستوى حياتهم الخلق الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمانهم . وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين في أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين في العالم المسيحي . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا عما كان في زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخي في الأخلاق بين رجال

الدين ، نستطيع أن نثبتته بما نضربه من مثات الأمثال . فهاهو ذا يترارك نفسه الذى بقى مخلصاً لدين المسيح إلى آخر أيام حياته ، والذى صور ما فى دير الكرثوزيين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أقيون . وإن الحياة الخلية التى كان يحياها رجال الدين الإيطاليون ، التى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات فلتشيوفى فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنسديتولو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخلية موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الإيطالى فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية^(٦) . ووصف ماستشيوفى الرهبان والإخوان بأنهم « نخدم الشيطان » . منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين^(٧) .

وهاهو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ؛ ويزيد على ذلك قوله : « والحق أنه لأسهل على الإنسان أن يعثر على رومة مستفينة عفيفة من أن يعثر على كتاب صحيح^(٨) » وديكا بيجيو Poggio يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرهم ، وجهالهم ، وغطرستهم^(٩) . وبقص فولينجو Folengo فى كتاب أرلندينو Oriandino هذه القصة نفسها ؛ ويبدو أن الراهبات ، ملائكة الرحمة فى هذه الأيام ؛ كانهن نصيب ، فى هذا المرح ، أو أنهن كن مرحات رشيقات فى البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قريباً يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد : وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات^(١٠) . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حيناً لا تطاوع الإنسان نفسه على أن

ينطق به (١١) ؛ وجوتشياردينى ، الرجل الرزين المعتدل عادة ، يخرج عن طوره ويفقد اتزانه حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحي أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم » .

ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأساتفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأبحار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كباراً - لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة . لأنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء . . . تخلوا عن رعاية الأرواح . . . اتخذوا بطونهم إلهاً لهم ، يأكلون ويشربون فى الولاثم الصاخبة ، حيث يتمرغون فى الأقدار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور . . . ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء . . . ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجن » (١٣) .

وهنا أيضاً يجب أن نسقط بعض ما يحويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس فى وسع الإنسان أن يثق بأن الولى الصالح يتحدث عن سلوك الآدميين وهو غير غاضب . ولكن فى وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكي صريح :

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لا يعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . ألا إن إن الحياء قد زال من العالم . . . ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا

رومة في أيام يوليوس الثاني . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن المساوسة كانوا في رومة أكثر فساداً منهم في غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين في كل مدينة تقريباً من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال في كثير من الأماكن — كالبنديقة مثلاً — كانت أسوأ كثيراً منها في رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاعل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد في كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تجبذ زواجهم ولقد كان الكثير من الأديرة في حال يرثى لها . وأغفلت في بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاماً ولم يكن النظام في كثير من أديرة النساء أقل من هذا فساداً (١٤) .

وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي والانهماك في ملاذ المأكول والمشرب فإننا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش ، وإن كانت هذه المحاكم قد اضمحل شأنها في إيطاليا اضمحلالاً كبيراً أثناء القرن الخامس عشر . مثال ذلك أن أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi ، أحد علماء الرياضة ، حوكم في عام ١٤٤٠ لأنه اتهم بالمادية وصدر الحكم ببراءته ؛ وحدث في عام ١٤٧٨ أن حكم بالإعدام على جاليتو مارتشيو Galeotto Marcio لأنه كتب يقول إن أى إنسان يحيا حياة صالحة يكون مصيره الجنة أيا كان دينه ، ولكن البابا سكستس الرابع أنجاه من الموت (١٥) ؛ وفي عام ١٤٩٧ حمى مرضى جبريلي داسالو Gabriele de Salo هذا الطبيب من محكمة التفتيش مع أنه قال إن المسيح ليس لها ، بل هو ابن يوسف ومريم ، حملت به أمه بنفس الطريقة السخيفة التى تحمل بها كل أم ، وإن جسم المسيح لا يحتويه العشاء الربانى ، وإنه لم يفعل المعجزات بقوة إلهية

بل بتأثير النجوم (١٧) ؛ وهكذا تنفى كل أسطورة غيرها من الأساطير ،
وفى عام ١٥٠٠ أحرق جيورجيودا ناڤارا Giorgio da Navara فى بولونيا
لأنه ، على ما يظهر ، أنكر ألوهية المسيح ، ولم يكن له من يحميه من
الأصدقاء أصحاب النفوذ . وفى ذلك العام نفسه أعلن أسقف أرندا Aranda
أن ليس ثمة جنة ولا نار ، وأن صكوك الغفران ليست إلا وسيلة لجمع الأموال ،
ولم يوقع عليه مع ذلك أى عقاب (١٨) . وفى عام ١٥١٠ أراد فردناند
الكاثوليكي أن يدخل محاكم التفتيش فى نابلى ، ولكنه لقي مقاومة عنيفة
من جميع السكان على اختلاف طبقاتهم اضطر معها إلى التخلّى عن هذه
المحاولة (١٩) .

وكان فى وسط هذا الانحلال الكنسى عدة مراكز للإصلاح الطيب .
من ذلك أن البابا پيوس الثانى أبعد أحد رؤساء الرهبان الدمنيكيين من
مركزه ، وأدخل النظام فى أديرة البناقية ، وبرتشيا ، وفلورنس ، وسينا .
وفى عام ١٥١٧ أنشأ سادوليتو ، وجيبيرتى Geberti ، وكارفا Caraffa
وغيرهم من رجال الكنيسة « محراب الحب القدسى » ليكون مركزاً لأنقياء
الرجال الذين يريدون ملجأً مما فى رومة من انهماك وثنى مفاتن الدنيا .
وفى عام ١٥٢٣ أنشأ كارفا طائفة الشياتين Theatines ، التى يعيش فيها
القساوسة غير المنتمين إلى طوائف الرهبان معيشة يستمسكون فيها بقواعد
الرهبنة ، من عفة ، وطاعة ، وفقر . ونزل الكردينال كارفا عن كل
مرتباته ووزع جميع أملاكه على الفقراء ؛ وحذا حذوه القديس جيتانو
Saint Gaetano وهو أيضاً من مؤسسى طائفة الشياتين . وكان كثيرون من
هؤلاء الأنقياء الصالحين رجالاً كرام المحتد ، عظيمى الثراء ، وقد أدمسوا
رومة باستمسكهم الشديد بالقواعد التى فرضوها على أنفسهم ، وبزياراتهم
لضحايا الطاعون دون أن يخشوا الموت . وفى عام ١٥٣٣ أنشأ أنطونيو ماريا
زكريا Antonio Maria Zaccaria طائفة مماثلة لهذه من القساوسة فى ميلان ،
سمى أفرادها أولا قساوسة القديس بولس النظاميين ، ولكنهم لم يلبثوا أن

تسموا باسم البرنابيين Barnabites نسبة إلى كنيسة القديس برنابا St. Barnabas . ووضع كارفا برنابجاً طبيباً لإصلاح رجال الدين في البندقية ، ومحاول جيبيرتي إدخال إصلاحات مثلها في أسقفية فيرون (١٥٢٨ - ١٥٣١) . وأصلح إيجيديو كانيسيو Egidio Canisio أحوال الأساك الأوغسطينيين ، وكذلك أدخل جريجوريو كرتيزي Gregorio Cortese إصلاحات شبيهة بإصلاحاته بين الرهبان البندكتيين في بلدوا .

وكان أكبر ما بذل من الجهود لإصلاح الأديرة في ذلك العصر هو تأسيس طائفة الكابوتشين Capuchin Order . فقد نخل إلى ماتيو دي بسى Matteo di Bassi أحد الرهبان الفرنسيين المتزمطين من مونتى فالكوني Montefalcone أنه رأى القديس فرانسيس في رؤي وأنه سمعه يناديه بقوله : « أحب أن تتبع قاعدتي بنصها ، بنصها ، بنصها » . وعرف أن القديس فرانسيس كان يلبس قلنسوة مستدقة ذات أربعة أركان ، فاتخذ مثلها غطاء لرأسه . وسافر إلى رومة وحصل من البابا كلمنت السابع (١٥٢٨) على إذن بإنشاء فرع جديد من طائفة الرهبان الفرنسيين يمتازون من غيرهم بقلانسهم ، وبالتزامهم القاطعة الأخيرة من قواعد القديس فرانسيس . وكانوا يلبسون أخشن الثياب ، ويمشون حفاة طول العام ، ويعيشون على الخبز ، والخضر ، والفاكهة ، والماء ؛ ويراعون فروض الصيام الدقيق ، وينامون في صوامع ضيقة في أكواخ فقيرة مقامة من الخشب والطين ، ولا يسافرون قط إلا راجلين . ولم يكن عدد أفراد الطائفة الجديدة كبيراً ولكنها كانت مثلاً حافزاً للإصلاح الواسع الانتشار الذي تسرب إلى طوائف رهبان الأديرة والرهبان المتسولين في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٢٠) .

وقد بدت بعض هذه الإصلاحات استجابة إلى دعوة الإصلاح البروتستنتي ؛ لكن كثيراً منها قد نشأ من تلقاء نفسه ، وكان شاهداً على ما في المسيحية والكنيسة من قوة حيوية كانت سبباً في نجاتهما .

الفصل الثالث

الأخلاق الجنسية

ولنتقل بعدئذ إلى أخلاق غير رجال الدين ، ونبدأ بالعلاقة بين الرجال والنساء ، ونذكر من بادي الأمر أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج ، وأن لا شيء يستطيع أن يقنعه بالزوجة الواحدة إلا أقسى العقوبات ، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق ، ومراقبة زوجته له مراقبة دائمة . ولسنا واثقين من أن الزنا كان في العصور الوسطى أقل انتشاراً مما كان في عصر النهضة ؛ وكما أن الزنا في العصور الوسطى كانت تخفف من مساوئه روح القروسية وما فيها من شهامة ، كذلك كان يخفف من هذه المساوئ بين الطبقات المثقفة التقدير المثالي لركة المرأة المتعلمة ومفاتها الروحية . وساعدت زيادة التكافؤ بين الجنسين في التعليم والمركز الاجتماعي على خلق رفقة مثالية جديدة بين الرجال والنساء ؛ فكانت الحياة في مانتوا ، وميلان ، وأربينو ، وفيرارا ، وناپلي تزدان وتزداد حمية بظهور النساء الفاتنات المثقفات .

وكانت فتيات الأسر العريقة يحتجن إلى حتما عن الرجال من غير أسرهم . وكن يلقن على الدوام دروساً في مزايا الاستعفاف قبل الزواج ؛ وكان هذا التلقين يلقى أحياناً من النجاح درجة نسمع معها أن فتاة أغرقت نفسها بعد أن اعتدى على عفافها ، وإن كان هذا بلا شك فعلا شاذاً بدليل أن أسقفاً اقترح أن يقام لهذه الفتاة تمثال (٢١) ، وفي المتابر الرومانية امرأة عريقة النسب خنقت نفسها لتتخذ شرفها ، وحمل جسمها في موكب نصر مخترقاً شوارع رومة وهي رأسها لأكليل من الغار (٢٢) . بيد أنه كانت هناك بلا شك مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات قبل الزواج ؛ ولولا هذا

لما استطعنا أن نفسر وجود ذلك العدد الجرم من الأبناء غير الشرعيين في كل بلد من بلاد إيطاليا في عصر النهضة . لقد كان من ليس له أبناء غير شرعيين من الرجال والنساء يعد شخصاً ممتازاً يحق له أن يفخر على غيره ، ولكن وجود أولئك الأبناء لم يكن يحلل أبويهم عاراً كبيراً ؛ وكان الرجل إذا تزوج يستطيع في العادة أن يقنع زوجته بأن تقبل انضمام أبنائه غير الشرعيين إلى أسرته لكي يربوا مع أبنائها منه ، ولم تكن حال الابن غير الشرعي عقبة كأداء في سبيله ؛ ويكاد المجتمع لا يلتقي بالامطلقاً إلى هذه الوصلة الاجتماعية . وكان في وسع النغل أن يعد ابناً شرعياً بهبة ينقحها لرجال الكنيسة . كما كان في وسعه أن يرث أملاك أبويه ، وأن يرث العرش نفسه إذا لم يكن له أخ شرعي يليق بهذه الوراثة ، أو لم يكن له أخ شرعي على الإطلاق . مثال ذلك أن فيرانتى الأول خلف ألفونسو الأول على عرش نابلي ، وأن ليونلو دست خلف تقولو الثالث على عرش فيرارا . ولما أن قدم بيوس الثالث إلى فيرارا في عام ١٤٩٥ استقبله سبعة من الأمراء كلهم أبناء غير شرعيين (٢٣) . وكان التنافس بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين مصدر كثير من حوادث العنف في عصر النهضة ؛ كما كانت نصف الروايات تدور حول إغواء النساء ، وكانت النساء يقرأن في العادة هذه القصص أو يستمعن ، وكل ما يظهرنه من دلائل الحياء أن يطرقن بأبصارهن لحظات قصارا . وقد وصف ربرت أسقف أكوينو في أواخر القرن الخامس عشر أخلاق الشبان في أسقفيته بأنها فاسدة ، وقال إن أولئك الشبان لا يستحون من هذا الفساد . ويروى أنهم كانوا يقولون له إن الفسق ليس من الخطايا ، وإن العفة من الأوامر التي عفا عليها الزمان ، وإن عادة احتفاظ البنات بعذرتهن آخذة في الزوال (٢٤) . وحتى مضاجعة المحارم كان لها من يجذبونها ويتباهون بها .

أما اللواط فقد كاد يصبح من مستلزمات بعث الحضارة اليونانية .

وكان الكتاب الإنسانيون يكتبون عنه بما يشبه الاعتزاز العلمي ، ويقول
أريستو إنهم كلهم كانوا منغمسين فيه . وكان پولتيان ، وفليبو ، واستروتسي
وسنودو Sanudo صاحب اليوميات يتهمون بهذه العادة اتهاماً له ما يبرره (٢٥) .
كذلك اتهم بها ميكل أنجيلو ، ويوليوس الثاني ، وكلمنت السابع ، وإن
لم يبلغ هذا الاتهام من القوة والإقناع مبلغه في الحال السالفة الذكر . وقد
وجد القديس برندينو هذه العادة منتشرة في نابلي انتشاراً لم يسعه معه إلا أن
يُنذر هذه المدينة بأنها سيصيبها ما أصاب سدوم وعموره (٢٦) . ويقول أرتينو
إن هذا الشذوذ الجنسي كان شائعاً واسع الانتشار في رومة (٢٧) ، وإنه هو
كان يطلب إلى دوق مانتوا أن يبعث إليه بين كل خلية وأخرى فتى وسياً (٢٨) ،
وتلقى مجلس العشرة في مدينة البندقية في عام ١٤٥٥ مذكرة رسمية تصف
« انتشار رذيلة اللواط انتشاراً واسع النطاق في هذه المدينة » ، وأراد المجلس
« أن يتقى غضب الله » فعين رجلين في كل حي من أحياء البندقية مهمتهما
القضاء على هذه العادة (٢٩) . وعرف المجلس أن بعض الرجال قد اعتادوا
لبس أثواب النساء ، وأن بعض النساء قد أخذن يرتدين ملابس الرجال ،
وقد سمي هذا العمل « ضرباً من اللواط » (٣٠) . وأدين رجل من الأشراف
وآخر من رجال الدين في عام ١٤٩٢ بممارسة اللواط ، فأُعِدما في الميدان
العام وأُحرق رأسهما أمام الجماهير (٣١) . ولقد كانت هذه حالات شاذة
بطبيعة الحال لا يلبق بنا أن نتخذها أساساً لحكم عام ؛ ولكن لنا أن نفترض
أن اللواط كان منتشرًا انتشاراً أكثر من العادة في إيطاليا أثناء عصر النهضة
وأنه ظل منتشرًا فيها حتى قامت حركة الإصلاح المعارضة .

وفي وسعنا أن نقول هذا القول نفسه عن الدعارة . فإذا أخذنا بقول
لأنفسورا - الذي كان يميل إلى المبالغة فيما يورده من الإحصاءات عن رومة
في عهد البابوات - قلنا إنه كان في رومة ٦٨٠٠ من العاهرات مسجلات
في عام ١٤٩٠ ، بخلاف العاهرات اللاتي يمارسن هذه الحرفة خفية ، وذلك

بين سكان البلد البالغين ٩٠٠٠٠ نسمة (٣٢) ويقدر التعداد الذي أجرى في البندقية عام ١٥٠٩ عدد العاهرات بـ ١١٦٥٤ عاهراً من بين سكانها البالغ عددهم نحو ٣٠٠٠٠ (٣٣) وقد نشر طابع مغامر « سجلاً بأشهر المحاظي وأشرفهن في البندقية احتوى أسماءهن ، وغناوينهن ، وأجورهن » . وكن في الطرق يترددن على الحانات ، وفي المدن ينزلن عادة في ضيافة الفنانين اليافعين ، والفنانين المتلهفين . ويصف لنا متشيليني ليلة قضاها مع حظية له كأنها حادث عادي غير ذي بال ، كما يصف عشاء لجماعة من الفنانين من بينهم جوليو رومانو وهو نفسه ، وقد طلب إلى كل واحد من الحاضرين أن يأتي بامرأة غير متمنعة ، وفي مأدبة أخرى أرقى من هذه درجة أقامها لورندسو استروتسي المصرفي في عام ١٥١٩ لأربعة عشر شخصاً من بينهم أربعة كرادلة وثلاث نساء من الخليعات (٣٥) .

ولما ازداد الثراء وازدادت الرغبة في التمتع بدأ الأثرياء المنعمون يطلبون المحاظي اللاتي يتمتعن بقسط من التعليم والمفاتيح الاجتماعية ، وكما أن طائفة الخليلات قد نشأت في أثينة أيام سفكليز للوفاء بهذا المطلب ، كذلك نشأت في رومة في أواخر القرون الخامس عشر وفي البندقية في القرن السادس عشر طبقة من الخليلات المتهذبات ينافسن أطرف السيدات في ثيابهن ، وآدابهن ، وثقافتهن ، بل وفي تقاهن وترددهن على الكنائس في أيام الآحاد . وبينما كانت العاهرات العموميات يمارسن حرفتهن في المواخير ، كانت الخليلات الرومانيات السالفات الذكر يقمن في بيوتهن ، وينفقن بسخاء كبير على المآدب ، ويقرأن الكتب ، ويقرضن الشعر ، ويغنين ، ويعزفن على الآلات الموسيقية ، ويشتركن في الأحاديث مع الطبقة المثقفة المتعلمة ؛ ومنهن من كن يجمعن الصور والتماثيل ، والطبعات النادرة من الكتب وآخر ما صدر منها ؛ ومنهن من كن يعقدن الندوات الأدبية . وأردن أن يحتفظن بمقامهن لدى الكتاب الإنسانيين فتسمت الكثيرات منهن بأسماء لاتينية — كاميليا ، يولكسينا ، وپنثسيليا Penthesilea ، وفوستينا Faustina ، وإمپيريا .

Imperia ، وتوليا Tullia . وكتب أحد الظرفاء الأفاكين ، في أيام البابا اسكندر السادس مجموعة من النكت الشعرية بدأها بطائفة من المدح العذراء أو القديسين ثم اتبعها بلا جياء بطائفة أخرى في الثناء على العشيقات في أيامه (٣٦) . ولما ماتت إحدى أولئك العشيقات حزن عليها نصف سكان رومة ، وكان ميكل أنجيلو من الكثرين الذين أنشأوا الأغاني تخليداً لذكرها (٣٧) .

وأشهر هاته الخليلات المهنديات إمبريتا ده كنياتس Imperia de Cugnatis . وقد أثرت هذه السيدة مما كان يغدقه عليها نصيرها وحاميها أجستينو تشيجي Agostino Chigi ، فزينت بينها بالآثاث المترف الوثير والتحف النادرة ، وجمعت حولها طائفة كبيرة من العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، ورجال الدين ؛ وحتى سادوليتو Sadoleto النقي نفسه كان يتغنى بمدحها (٣٨) . وأكبر الظن أن إمبريتا هذه هي التي اتخذها رفائيل نموذجاً لسايفو في صورة البرناسوس Barnassus . وماتت في ريعان شبابها ونضرة جمالها ولم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها (١٥١١) ؛ وكزمت بعد موتها بأن دفنت في كنيسة سان جريجوريو San Gregorio ، وأقيم لها قبر من الرخام محفور أجمل حفر ومصقول أحسن صقل ؛ ورثاها مائة شاعرو بأفخم المراثي (٣٩) . (وجدير بالذكر أن ابنتها أثرت الانتحار على التفريط في عرضها (٤٠)) . ولا تقل عنها شهرة توليا الأرغونية Tullia d' Aragona ابنة كاردنال أرغونة الغير الشرعية . وكان أهل زمانها يعجبون بشعرها الذهبي وعينيها البراقتين ، وسخائها ، وعدم اهتمامها بالمال ، ورشاقة قوامها ، وسحر حديثها ، واستقبلت في نابلي ، ورومة ، وفلورنس ، وفيرارا استقبال الأمراء الزائرين . وقد وصف سفير مانتوا في فيرارا دخولها المدينة في رسالة غير دبلوماسية بعث بها إلى إزبلادست عام ١٥٣٧ قال فيها : أرى من واجبي أن أسجل مقدم سيادة ظريفة بلغ من تواضعها في سلوكها وافتتان الناس بأدبها مبلغاً لا يسعنا معه إلا أن نصفها بأنها ربانية . وهي تنفي

ارتجالاً جميع النغمات والألحان . . . وليس في فيراراً كلها سيدة واحدة ، ولا
فكتوريا كولونيا Victória Colonna دوقة بسكارا Pescara يمكن أن
تقارن بتوليا (٤١) .

وقد رسم مورتوده بريشيا Moretto de Brescia صورة ساخرة لها
تبدو فيها بريئة براءة الراهبة الحديثة العهد بالرهبة . وقد أخطأت إذ عاشت
بعد أن زالت مفاتها ، وماتت في كوخ حقير قريب من نهر التبر ؛ وبيع كل
ما تملكه بالمزاد فلم يزد ثمنه على اثني عشر كروناً (١٥٠ ؟ دولاراً) ولكنها
احتفظت رغم فقرها بعودها ومعزفها إلى آخر أيام حياتها . وتركت وراءها
أيضاً كتاباً ألفته في ملود الحب الطامل (٤٢)

وما من شك في أن هذا العنوان يدل على الطراز الذي كان يتحدث به
المتحدثون ويكتب به للكتاب عن الحب العذري في عهد النهضة . فإذا لم
تسمح امرأة لنفسها أن تزني في تلك الأيام ، فقد كان يسمح لها على الأقل
بأن تشير في الرجل نوعاً من الغرام الشعري ، فتهدى إليها القصائد والمجاملات
الأدبية والمؤلفات . ونشأت في تلك الأيام بتأثير هيام شعراء الفروسية الغزلين ،
والحياة الجديدة لدانتى ، وأحاديث أفلاطون عن الحب الروحي في عدد قليل
من الجماعات عاطفة رقيقة من الهيام بالمرأة - كانت عادة زوج رحل غير
المستهام بها . على أن الكثرة الغالبة من الناس لم يكونوا يعنون قط بهذه
الفكرة ويفضلون على هذا الحب العذري الحب الشهواني الصريح ؛ فكانوا
يكتبون الأغاني ولكن همهم الوحيد كان هو الاتصال الجنسي ، وقاما كان
هذا الحب ينتهى بالزواج إلا في حالات جد نادرة لا تتجاوز واحداً في المائة
وذلك على الرغم مما يكتبه الكتاب في رواياتهم الغرامية .

ذلك أن الزواج في تلك الأيام كان مسألة مال ، وكان جمع المال مستطاعاً
دون حاجة إلى نزعات الشهوة الجنسية ، وكانت خطبة الزواج تنظم في
مجالس الأسر ، ويقبل معظم الشبان والفتيات دون احتجاج ذي أثر من

يختار زوجاً له أو لها . وكان من المستطاع خطبة البنت وهي في الثالثة من عمرها ، وإن كان الزوج يؤجل في العادة حتى تتم الثانية عشرة . وكانت البنت في العصور الوسطى ، إذا بقيت حتى الخامسة عشرة دون زواج ، تجلب أسرته العار . ثم أجمعت تلك السن التي تجلب العار على الأسرة حتى السابعة عشرة في القرن السادس عشر ، وذلك لكي يترك الفتاة من الوقت ما تستطيع معه الحصول على قسط من التعليم العالي^(٤٣) : أما الرجال الذين يستمتعون بجميع ميزات الاختلاط الجنسي دون زواج ولا يجدون أية صعوبة في هذا الاختلاط ، فلم يكن يستطيع إغراؤهم بالزواج إلا إذا جاءت الزوجة معها ببائنة قيمة . ومن أجل هذا وجدت في أيام سفنرولا Savonarola كثيرات من البنات الصالحات لأن يكن زوجات واللاتي عجزن عن أن يجدن أزواجاً لحاجتهن إلى البائنات . ولهذا أيضاً أنشأت فلورنس نوعاً من التأمين الذي يقضى بأن تقوم الدولة بأداء البائنات لمن هن في حاجة إليها وأطلق على هذا النظام اسم : مال العذارى Motne delle fauciulle وكانت البنات يحصلن منه على بائنتهن إذا أدين قسطاً سنوياً قليلاً^(٤٤) . وفي سينا بلغ عدد الشبان العزاب من الكثرة ما اضطر المشرعين إلى فرض عقوبات قانونية عليهم ؛ وفي لوقا صدر في عام ١٤٥٤ مرسوم يقضى بحرمان كل العزاب ما بين سن العشرين والخمسين من الوظائف العامة . وكتبت السندرا إسترسي Alessandra Strozzi في ذلك الوقت (١٤٥٥) تقول : « إن تلك الأيام غير ملائمة للزواج^(٤٥) . ورسم رفائيل نحو خمسين صورة للعذارى ولكنه لم يرسم قط صورة زوجة ، وكان هذا هو الشيء الوحيد التي انفق معه ميكل أنجيلو فيه ، وكانت حفلات الزفاف نفسها تستنفد مبالغ طائلة من المال ؛ وها هو ذا ليوناردو برونى Leonardo Bruni يشكو من أن زواجه قد ذهب بميراثه^(٤٦) . وكان الملوك والملكات ، والأمراء والأميرات ، يقفون ما يعادل مليون دولار على حفلة زفاف بينما كان القمح يقضى على حياة أبناء الشعب^(٤٧) . وأعد ألفونسو العظيم Alfonso the Magnificent صاحب

ناپلى مآدبة عشاء لثلاثين ألفاً على ساحل الخليج . وكان أجمل من هذا وأفخم
الحفل الذى أقامه أريينو لاستقبال الدوق جويلدو حين جاء من مانتوا
بعروسه إليزابيتا جندساجا : فقد اصطف على سفح أحد التلال نساء المدينة
فى أبهى الحلل ، واصطف أمامهن أطفالهن يحملون أغصان الزيتون ؛
ومن ورائهم منشدون على ظهور الجياد فى أشكال بديعة يرددون أغاني
وضعت لهذه المناسبة خاصة ، وقدمت سيدة جميلة تمثل إحدى الإلهات
إلى الدوقة الجديدة ولاء أهل المدينة وعظيم حبهم (٤٨) .

وكانت المرأة بعد الزواج تحتفظ عادة باسمها الخاص ؛ فهى ذى
زوجة لورندسو ظلت تسمى السيدة كلاريتشى أرسيني Clarice Orsine ،
على أنه كان يحدث أحياناً أن تضيف الزوجة إلى اسمها اسم زوجها - مثل
ماريا سلفيانى ده ميديتشى Maria Salviati de Medici وكان ينتظر حسب
نظرية الحب فى العصور الوسطى أن ينشأ الحب بين الرجل وزوجته أثناء
اشتراكهما خلال الزواج فى الأفراح والأتراح ، والرخاء والشدة ، ويلوح
أن هذا هو الذى كان يحدث فى معظم الحالات . ولسنا نعرف حباً نشأ بين
فتى وفتاة أعمق أو أصدق من الحب الذى نشأ بين فيكتوريا كولنا
والمركز بيسكارا Pescara وقد خطبت له وهى فى الرابعة ، كما لا نعرف
إخلاصاً أعظم من إخلاص إليزابيتا جندساجا التى صحبت زوجها المقعد فى
جميع ما أصابه من محن ونفى ، وظلت وفية لذكره حتى توفيت .

ومع هذا فإن الزنا كان واسع الانتشار (٤٩) . وإذا كانت معظم الزيجات
التي تعقد بين أفراد الطبقات العليا زيجات دبلوماسية تبتغى بها المصالح
الاقتصادية أو السياسية ، فقد كان كثيرون من الأزواج يرون أن من حقهم
أن تكون للواحد منهم عشيقة ؛ وكانت الزوجة فى العادة تغض عينها عن
هذه الإساءة أو تطبق شفيتها فلا تنطبق بشيء مما قد تشعر به من أسى نتيجة
لهذا التصرف . وكان بعض رجال الطبقات الوسطى يدعون أن الزنا من

الملاهي المشروعة : ويلوح أن مكيفلي وأصدقاءه لم يكونوا يتخرجون عن تبادل الرسائل المفصحة عن خياناتهم لزوجاتهم . وإذا ما تأرت الزوجة لنفسها من زوجها فاقتدت به كان الزوج في كثير من الأحيان يتجاهل فعلها هذا ويحمل قرنيه راضياً (٥٠) . لكن تدفق الأسبان على إيطاليا عن طريق ناپلي وبتشجيع الإسكندر السادس وشارل الخامس جاء إلى الحياة الإيطالية بالغيرة على العرض والشرف ، فكان الزوج في القرن السادس عشر يرى من واجبه أن يعاقب زوجته بالموت إذا زنت في الوقت الذي يحتفظ فيه هو بمزاته الفطرية كاملة غير منقوصة . وكان في وسع الزوج أن يهجر زوجته وأن ينعم مع ذلك بالحياة ؛ أما الزوجة إذا هجرها زوجها فلم يكن أمامها إلا أن تطالب برد بائنتها ، ثم تعود إلى بيت أهلها ، وتعيش عزبة لأنها لم يكن يسمح لها بأن تتزوج مرة أخرى . وكان في وسعها أن تدخل الدير ، ولكنه كان ينتظر منها في هذه الحال أن تهبه جزءاً من بائنتها (٥١) . ويمكن القول :
يوجه عام إن الزنا كان يتخذ سلوكاً يستعاض بها عن الطلاق :

الفصل الرابع

الرجل في عصر النهضة

كان اجتماع التحرر الفكري والتحلل من القيود الخلقية هو الذي أوجد « رجل النهضة » ؛ غير أنه لم تكن له من الخواص ما يجعله خليقاً بتلك اللقب . فقد كان في ذلك العصر كما كان في غيره من العصور أكثر من عشرة أنماط . وكل ما كان له من ميزة أنه كان متمتعاً طريفاً ، ولعل سبب ذلك أنه كان من طراز شاذ غير مألوف . وكان فلاح النهضة هو الفلاح بعينه في جميع العهود إلى أن جعلت الآلات الزراعة صناعة . وكان دهماء المدن الإيطالية في عام ١٥٠٠ كما كانوا في رومة في عهد القياصرة أو في أيام مسولينى ، ذلك أن المهنة هي التي تطبع الرجل بطابعها ، كذلك كان رجل الأعمال في عصر النهضة شبيهاً بأمثاله في الماضي والحاضر . أما القس في ذلك العصر فكان يختلف عن قس العصور الوسطى أوقس هذه الأيام ؛ فقد كان أقل إيماناً منهما بالدين وأكثر استمتاعاً بالدنيا ، وكان في وسعه أن يعيش ويحارب . ثم حدث في هذه الأنماط تغير فجائى يستلقت النظر ، أدى إلى انحراف في النوع وفي طراز العصر ، ونشأ عنه الرجل الذى ترسم صورته في ذهننا حين نقول إن رجل النهضة طراز فذ في التاريخ ، وإن كان ألقبيادس إذا رآه أحس بأنه طراز قديم ولد من جديد .

وكانت خصائص هذا الطراز تدور حول بؤرتين : الجرأة الفكرية والخلقية . كان حاد الذهن ، يقطاً ، متعدد الكتابات ، مستعداً لقبول كل مؤثر وكل فكرة ، مرهف الحس بالجمال ، حريصاً على نيل الشهرة . وكانت له روح ذات نزعة فردية جريئة عديمة المبالاة ، تعمل على تنمية جميع المواهب الكامنة فيها ؛ روح مزهوة فخورة تسخر من الذلة المسيحية ،

وتحتقر الضعف والجبن ، وتتحدى العرف ، والتقاليد ، والأخلاق ،
والمحرمات ، والبابوات ، بل تتحدى الله نفسه في بعض الأحيان : وكان في
وسع هذا الرجل أن يقود حزباً ثائراً في المدينة ؛ أو جيشاً في الدولة ؛ فإذا
كان من رجال الكنيسة فقد كان يسعه أن يجمع مائة منصب تحت مسوحه ،
وأن يستخدم ثروته في الوصول إلى السلطان . وفي الفن لم يعد هذا الرجل
صانعاً يعمل مغموراً مع غيره في مشروع جماعي كما كان يعمل نظيره في
العصور الوسطى ؛ لقد كان شخصاً « منفرداً منفصلاً عن غيره » يطبع
أعماله بطابعه ، ويوقع باسمه على ما يرسمه من الصور ، بل كان من حين
إلى حين يحفره على ما يصنعه من تماثيل كما حفر ميكيل أنجيلو اسمه على تمثال
العذراء وهي تنذب طفلها . ومهما تكن الأعمال التي يقوم بها رجل النهضة
هذا فقد كان في حركة دائمة ، ساخطاً ، متأففاً من القيود ، تواقاً لأن يكون
« رجلاً عالمياً » - جريئاً في تفكيره ، حاسماً في أفعاله ، فصيحاً في أقواله ،
ماهرأ في فنه ، ملماً بالأدب والفلسفة ، ليس غريباً على النساء في القصور
ولا عن الجند في المعسكرات .

ولم يكن فساد خلقه إلا جزءاً من نزعتة الانفرادية ؛ وإذا كان هدفه
هو أن ينجح في التعبير عن شخصيته ، وكانت بيئته لا تفرض عليه أية معايير
يتقيد بها فلا يجد قدوة يقتدى بها بين رجال الدين ، ولا يجد ما يرهبه في
العقيدة الربانية ، فإنه يجيز لنفسه أن يسلك أية وسيلة تبلغه غايته ، ويستمتع
بكل لذة تصادفه في الطريق . لكنه رغم هذا كله كانت له فضائله . لقد كان
رجلاً واقعياً ، قلما ينطق بتافه القول إلا لامرأة برمة . وكان مؤدباً إذا لم يكن
يقتل ، وحتى في هذه الحال كان يفضل أن يقتل في غير قسوة . وكان
ذا نشاط ، وقوة في الخلق ، وذا إرادة موجهة موحدة ؛ وكان يقبل المعنى
الذي يفهمه الرومان الأقدمون من لفظ الفضيلة وهو « الرجولة » ؛ ولكنه
كان يضيف إلى هذا المعنى الخلق والذكاء . ولم يكن مسرفاً في القسوة من

غير داع ، وكان يمتاز عن الرومان الأقدمين باستعداداته لأن يكون تقياً صالحاً . وكان معجباً بنفسه ، غير أن هذا الإعجاب لم يكن إلا وليد إحساسه بالجمال وحسن الشكل . وكان تقديره للجمال في المرأة والطبيعة ، وفي الفن والجريمة : هو المصدر الأساسي للنهضة . وقد استبدل حاسة الجمال بالحاسة الخلقية ؛ ولو أن هذا الطراز من الرجال قد تضاعف وغلب على غيره لحلت أرسقراطية في الذوق لا تهبطها تبعات محل أرسقراطية المولد أو الثروة .

لكننا نقول مرة أخرى إنه لم يكن غير نوع واحد من أنواع كثيرة من رجل النهضة . ألا ما أعظم الفرق بين بيكوذي النزعة المثالية واعتقاده بقدرة بني الإنسان على أن يبلغوا بأخلاقهم درجة الكمال ، وبين سقزولا الصارم الذي لا تبصر عينه الجمال ، والمنهمك في التقي والاستقامة ، وبين رفائيل الظريف الرشيق الذي ينشر الجمال من حوله بسخاء ، وميكل أنجيلو ذي الجنة ، الذي طغى على عقله التفكير في يوم الحساب قبل أن يصوره ، وبوليتيان صاحب النغم الحلو الذي ظن أن الرحمة موجودة حتى في الجحيم ، وفنورينودا فلتري الأمين الذي نجح أيما نجاح في الجمع بين زينون والمسيح ؛ وجوليانو ده ميديتشي الثاني الذي بلغ من رحمته في عدالته درجة رأى معها أخوه البابا أنه لا يصلح للقيام بأعباء الحكم ؛ ما أعظم الفرق بين هؤلاء مع أنهم جميعاً من رجال النهضة . ولنا لنذكر رغم ما نبذله من الجهد في اختصار البحث ، وصياغة القواعد العامة ، أنه لم يكن ثمة رجل يصح أن يطلق عليه اسم « رجل النهضة » : لقد كان في ذلك العصر رجال لا يتفقون إلا في شيء واحد ؛ وهو أن الحياة لم تبلغ من الشدة ما بلغت في تلك الأيام . لقد كانت العصور الوسطى تقول — أو تدعى — قولاً للحياة ؛ أما النهضة فكانت تقول لها نعم بقلبيها ، وروحها ، وبكل ما كان فيها من قوة .

الفصل الخامس

المرأة في عصر النهضة

كان ظهور المرأة في المجتمع من أبهج مظاهر ذلك العصر ؛ وكانت مكانتها في التاريخ ترتفع في العادة كلما زاد الثراء وإن استثنينا من ذلك حالها في البلاد الشديدة القرب من الشرق في أيام بركلير . ويرجع السبب في ارتفاع منزلة المرأة كلما زاد الثراء إلى أن الرجل إذا لم يعد يخشى الجوع ولي وجهه نحو المرأة ؛ وأنه إذا ما ظل يسمخر حياته لطلب المال فإنما يفعل ذلك ليضعه بين قدمي المرأة ، أوبين يدي الأطفال الذين جاءت له بهم ، وإذا قاومته تصورت له في صورة المثل الأعلى ؛ وقد أوتيت في العادة من الحصافة ما يجعلها تقاومه ، وتتقاضى منه أعلى ثمن نظير النعمة التي يغمر بهاؤها مشاعره إذا ما فكر فيها ، وإذا ما جئت إلى مفاتها الجسمية محاسن عقلها وخلقها ، وهبته أعظم ما يطمع فيه من السعادة التي لا يسمو عليها إلا ما يطمع فيه من المجد وخلود الذكر ، وهو في نظير هذا يرفع منزلتها حتى تصبح مالكة حياته المسيطرة عليها .

على أننا لا ينبغي أن نظن أن هذه المكانة العليا كانت هي نصيب المرأة العادية في عصر النهضة ، فالواقع أنه لم ينلها إلا قلة من النساء المحظوظات ؛ أما الكثيرة الغالبة منهن فكان يخلعن ثياب العرس ليحملن أعباء المنزل ومتاعب الأسرة حتى يوارين الثرى : وليستمع القارئ إلى برنرد ينو يحدد الوقت المناسب لضرب الزوجة :

« وأوصيكم أيها الرجال ألا تضربوا زوجاتكم وهن حاملات فإن في ذلك أشد الخطر عليهن . ولست أعني بهذا أنكم يجب ألا تضربوهن أبداً ؛ ولكن الذي أعنيه أن تختاروا الوقت المناسب لهذا الضرب وأنا أعرف

رجالاً يهتمون بالدجاجة التي تضع بيضة في كل يوم أكثر من اهتمامهم بأزواجهم . فقد تكسر الدجاجة أحياناً وعاء أو قدحاً ، ولكن الرجل لا يضربها خشية أن يفقد بذلك البيضة التي يحصل عليها منها ، إذن فما أشد جنون الكثيرين من الرجال الذين لا يطيقون سماع كلمة من زوجاتهم اللاتي يأتين لهن بهذه الثمار الطيبة ! ذلك أن الواحد منهم إذا سمع من زوجته كلمة يرى أنها نابية ، عمد من فوره إلى عصا وشرع يضربها بها ، أما الدجاجة التي لاتنقطع عن الوقوفة طول النهار فإنه يصبر عليها من أجل بيضتها (٥٢) .

وكانت الفتاة من الأسر العريقة تدرب عادة على النجاح في الحصول على الزوج الثرى والاحتفاظ به ، وكان هذا التدريب أهم مادة في منهج تعليمها . وكانت تبقى إلى ما قبل زواجها بضعة أسابيع في عزلة إلى حد ما إما في دير أو في منزل أبويها ، تتلقى من معلمها أو من الراهبات تعليماً لا يقل درجة عما يتلقاه جميع من في طبقتها من الرجال إذا استثنينا منهم العلماء . وكانت في العادة تتعلم شيئاً من اللغة اللاتينية ، وتدرس إلى حد ما كبار الشخصيات في تاريخ اليونان والرومان ، وآدابهم ، وفلسفتهم . وكانت تعزف على بعض الآلات الموسيقية ، وتمارس أحياناً فن النحت والتصوير ، وكان بعض النساء يبلغن منزلة العلماء ، ويناقشن علناً بعض المسائل الفلسفية مع الرجال ؛ ومن هؤلاء كسندرا فيديلي من نساء البندقية ؛ ولكن أمثالها كن من الشواذ النادرات الوجود . وكان عدد لا بأس به ممن يقرض الشعر الجيد مثل قسطنطينا فارانا Contanza Varana ، وفيرونيكا جمارا Veronica Gambara ، وفتوريا كولنا . غير أن المرأة المتعلمة في عصر النهضة ظلت محتفظة بأنوثتها ، وعقيدتها المسيحية وما توجبه عليها هذه العتيدة من الثمانون الأخلاقي ؛ وكان احتفاظها بهذه الصفات يهبها وحدة في الثقافة والخلق يعز على رجل النهضة الراقى أن يقاومها .

ذلك أن الرجل المتعلم في ذلك العصر كان يحس بجاذبيتها أشد الإحساس ،

وكان هذا الإحساس يصل به إلى درجة تدفئة إلى أن يؤلف ويقرأ الكتب التي تحلل مفاتها تحليلاً علمياً مفصلاً . من ذلك أن أنيولو فيرنندسو Agnolo Firenzulo الراهب القلمبروزي Valloombrosan ألف حواراً موضوعه جمال المرأة ، وأظهر في هذا الموضوع الشاق حذقاً وعلماً غزيراً لا يكادان يليقان بالرهبان . وهو يعرف الجمال نفسه كما يعرفه أفلاطون وأرسطو بأنه « التآلف المنتظم » ، والتوافق الذي لا يستطيع الوصول إلى كنهه ، والذي ينتج من وجود عناصر مختلفة ، واتحادها ، وتفاعلها ، بحيث أن كل عنصر من هذه العناصر يتناسب مع العناصر الباقية أتم التناسب وأحسنه ، وأن يكون بمفرده جميلاً بمعنى ما ؛ ولكنها قبل أن تجتمع لتكون جسماً واحداً تختلف فيما بينها وتتنافر » (٥٣) . ثم يمضي فيبحث بمنتهى الدقة كل جزء من أجزاء المرأة ويضع الموازين القسط للجمال كل واحد منها ، فيقول إن الشعر يجب أن يكون غزيراً ، طويلاً ، أشقر - ويفسر الأشقر بأنه أصفر خفيف الزرقة قريب من السمرة ؛ أما البشرة الحميلة فهي البراقة الصافية ولكنها ليست البيضاء الشاحبة ؛ والعينان الحميلتان هما السوداوان الكبيرتان ، الممتمثلتان ، اللتان فيهما مسحة من الزرقة في حلقة بيضاء ؛ أما الأنف فيجب ألا يكون أقنى ، لأن الأنف الأقنى منفر في المرأة بنوع خاص ؛ ويجب أن يكون الفم صغيراً ، أما الشفتان فلا بد أن تكونا ممثنتين ، والدقن يجب أن يكون مستديراً ذا نونة ؛ والعنق يجب أن يكون مستديراً طويلاً بعض الطول - ولكن يجب ألا تظهر فيه الحرقدة (*) ؛ ويجب أن تكون الكتفان عريضتين ، وأن يكون الصدر ممثلاً منحدرًا انحداراً أو مرتفعاً في ظرف وخفة ، واليدان بضتين ممثلتين ناعمتين ؛ والساقان طويلتين ، والقدمان صغيرتين (٥٤) ؛ ولنا لنحس بأن فيرنندسو لو قد أمضى كثيراً من الوقت يفكر في موضوعه ، وأنه اكتشف موضوعاً جديداً بديعاً من موضوعات الفلسفة .

(*) الحرقدة عمدة الحنجور Adam's apple .

ولم تقنع المرأة في عهد النهضة بهذه المفاتن فمضت كما مضت أنحتها في جميع العصور تصبغ شعرها - لتحيله على الدوام تقريباً أشقر - وتضيف إليه الصفائر المستعارة تكمله بها ؛ وتبتاعها من القرويات اللاتي كن يتحصن غداثرهن بعد أن يذهب جمالهن ويعرضنها للبيع^(٥٥) . وكانت المرأة الإيطالية في القرن السادس عشر تجن جنوناً بالعطور ، تضمخ بها شعرها ؛ وقبعتها ، وقبصها ، وجوربها ، وقنازيها ، وحذاءيها جميعها . ولقد امتدح أريتينو اللدوق كوزيمو لأنه عطر له المال الذي بعث به إليه ، « ولا تزال بعض مخلفات ذلك العصر محتفظة برائحتها الذكية لم تفقدها بعد »^(٥٦) . وكانت منضدة لباس السيدة ذات الثراء تמיד بما عليها من مواد التجميل ، تحتويها عادة قوارير بديعة الشكل من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب . ولم تكن الأصباغ الحمراء تستخدم في الوجه وحده ، بل كانت يزين بها أيضاً الثديان ، وكانا في المدن الكبيرة يترك الجزء الأكبر منهما عارياً^(٥٧) . وكانت مستحصرات كثيرة تستخدم لإزالة العيوب الجسمية ، ولتلميع أظافر اليدين ، ولجعل البشرة ناعمة ملساء . وكانت الأزهار تزين الشعر والثياب ، واللؤلؤ والماس ، والياقوت ، والصفير (الياقوت الأزرق) والزمرد ، والعقيق ، والجمشت ، والزبرجد ، والياقوت الأصفر ، والمقيق تزين الأصابع في الحواتم ، والذراعين في الأساور ، والرأس في الأكاليل ، والأذنين (بعد ١٥٢٥) في الأقراط ، وكانت الحلى فوق ذلك ترصع بها أغطية الرأس ، والأثواب ، والأحذية ، والمرابح .

وكانت ملابس السيدات ، إذا جاز لنا أن نحكم عاينها من صورهن ، كثيرة الكلفة ، ثقيلة الوزن ، غير مريحة للجسم . وكانت الأثواب المصنوعة من الحمل ، والحرير ، والفراء تتدلى في ثنيات ضخمة من الكتفين ، أو من مشابك فوق الثديين إذا كانت الكتفان عاريتين . وكانت الأثواب تشد بمنطقة في الوسط وتكنس الأرض خلف القدمين . وكان حذاء المرأة الثرية

عالياً عند باطن القدم وعند الكعب ، لكي يحفظ قدميها من أقدار الشوارع ؛ ومع هذا فإن وجهه الأعلى كان يصنع عادة من الديباج الرقيق المقصب . وكانت نساء الطبقات العليا وقتئذ تستخدم المناديل ، تصنع في العادة من التيل ، وكثيراً ما كانت نخطط بالخيوط الذهبية أو توشى بالخرم (الذنتلا) . كذلك كانت التنورات والثياب الداخلية توشى بالخرم وتطرز بالحرير ؛ وكانت الأثواب أحياناً تعلو حتى تلتف حول العنق وتمنعها من التثني أسلاك معدنية ، وكانت في بعض الأحيان ترتفع فوق الرأس . أما أغطية رءوس النساء فكانت تتخذ مائة شكل وشكل : كان منها عمامات ، وتيجان ، ومناديل رأس ، أو أقنعة ، تمسك بالآلي ؛ أو قلانس مقامة على أسلاك معدنية ، أو شبيهة بقلانس الغلمان أو حراس الحراج . . ولما زار بعض الفرنسيين مدينة مانتوا سُروا وذهلوا حين رأوا المركيزة إزبلا تلبس قلنسوة ذات ريش من الجواهر ، ولكنها عارية الكتفين والصدر حتى حلمتي الثديين^(٥٨) . وكثيراً ما شكوا الواعظون من ارتفاع صدور النساء ارتفاعاً يراد به استلفات عيون الرجال . وكانت شهوة العرى تملك النساء أحياناً إلى حد تخرج معه عن المعقول ، حتى لقد قال ساتشني إن بعض النساء يتعرين تماماً إذا خلعن أحديتهن^(٥٩) . وكانت بعض النساء يشددن أجسامهن بمشدات يمكن تضيقها بإدارة مفتاح لها ، وقد رثى پترارك « لبطونهن التي ضغطنها في غير راحة حتى ليقاسين من الغرور آلاماً كالتى يقاسيها الشهداء لتمسكهم بالدين »^(٦٠) .

وتسلحت نساء الطبقات العليا في عصر النهضة بهذه الأسلحة الفتاكة . فرفعن جنسهن من رق العصور الوسطى ومن حياة الدير المحترقة حتى أصبحن متساوين مع الرجال . فقد كانت المرأة تتحدث مع الرجل حديث الند للند في الأدب والفلسفة ، وكانت تحكم الدول حكماً يتصف بالفطنة والحصافة ، كما فعلت إزبلا ، أوبقوة ليست كمثلهما قسو الرجال كما فعلت كترينا اسفورديسا .

وكانت أحياناً تلبس الزرد ، وتتبع زوجها إلى ميدان القتال : وتفوقه فيما يصدر من أوامر العنف والقسوة . وكانت تأبى أن تغادر المجلس حين تروى القصص البذيئة ؛ ولم تكن تستحي مما تسمع ، فكانت تستمع إلى الألفاظ الصريحة المكشوفة دون أن تخذش هذه الألفاظ حياءها أو تفقدها فتنها . وكم من امرأة إيطالية في عهد النهضة سما بها عقلها أو سمت بها فضائلها إلى أرقى منزلة . نذكر منهن بيانكا مارية فسكنتي *Bianca Maria Visconti* التي حكمت ميلان في غياب زوجها فرانتشيسكو اسفوردسا بحزم وقوة لم يسعه معها إلا أن يقول إنه يثق بها أكثر مما يثق بجيشه كله ، ثم إنها في الوقت عينه اشتهرت « بالتقى » والرافة وكثرة الصدقات ، وروعة الجمال » (٦١) ونذكر كذلك إميليا پيو *Emilia Pio* التي مات زوجها وهي في نضرة الشباب ، ولكنها احتفظت بذكراه إلى درجة أنه لم يعرف عنها فيما بقي من حياتها أنها شجعت رجلاً ما بالالتفات إليها ؛ ولكريديسيا تورنابوني *Lucrezia Tornaboni* أم لورندسو الأفخم ومشكلة أخلاقه ، والزبتا جندساجا ، وبيتريس دست ، ولكريديسيا بورجيا الظريفة المفترى عليها وكترينا كرنارو *Caterina Cornaro* التي جعلت أسولو *Asolo* مدرسة الشعراء والفنانين ، والرجال المهندسين ، وفيرونيكا جمارا *Veronica Gambara* الشاعرة صاحبة الندوة في كريجيو *Correggio* ؛ وفثوريا كولنا ربة ميكل أنجيلو التي لم يمسهما بشر .

وتمثلت في فثوريا ، دون ما زهو ونخيلاء ، جميع الفضائل الهادئة التي كانت للبطلات الرومانيات في عهد الجمهورية ، ثم جمعت إلى هذه الفضائل أنبل الصفات المسيحية . وكانت فرع شجرة طيبة ممتازة : فكان والدها فبريدسيو كولنا *Fabrizio Colonna* ، كبير رجال الشرطة في نابلي ، وأمها أنيزي ده منتيفيلترو *Agnese de Montafeltro* ابنة فيديريجو دوق أربينو المتبحر في العلم : وقد خطبت وهي في سن الطفولة لفيرانتي فرانتشيسكو دا فالوس *Ferrante Francesco d'Avalos* مركيز پيسكارا ؛

وتزوجت به حين بلغت التاسعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) وكان الحب الذى ألف بينهما قبل الزواج وبعده قصيدة أجمل من كل الأغاني التى تبادلوها أثناء حروبه . ولما جرح فى واقعة رافنا (١٥١٢) وأدناه الجرح من منيته وأسر ، انتهز الفراغ الذى أتاحه له أسره فألف كتاب الحب وأهداه إلى زوجته . وكان فى هذه الأثناء قد اتصل بإحدى وصيفات إزبلا دست (٦٢) هـ فلما أطلق سراحه عاد مسرعاً إلى قتوريا ، ثم خرج إلى حرب بعد حرب ، حتى لم تكد تراه فيما بعد . فقد قاد جيوش شارل الخامس فى بافيا (١٥٢٥) ، وانتصر بها فى معركة حاسمة ، ولما عرض عليه تاج باپلى إذا رضى أن ينضم إلى المؤتمرين على الإمبراطور فكر قليلاً ثم كشف لشارل عن المؤامرة ، ولما حضرته الوفاة (فى نوفمبر من عام ١٥٢٥) لم يكن قد رأى زوجه طيلة ثلاث سنين . وجهلت هى أو تجاهلت خياناته الزوجية ، فقضت السنين العشرين التى ترملتها بعده فى أعمال البر ، والتقى ، والوفاء للذكراء . ولما طلب إليها أن تتزوج مرة أخرى أجابت بتولها : « إن زوجى فردناند الذى تظنونه مات ، لم يمت بالنسبة لى » (٦٣) . وعاشت بقية حياتها فى عزلة هادئة فى إسكيا Ischia ثم أوت إلى دير فى أرفيتو وانتقلت منه إلى دير آخر فى فيتربو ، ثم عاشت فى عزلة شبيهة بعزلة الدير فى رومة . وهنا اتخذت لها عدداً من الأصدقاء الإيطاليين الذين كانوا يعطفون على حركة الإصلاح الدينى وإن ظلت هى مستمسكة بدينها القديم . ووضعت فترة من الزمان تحت رقابة محكمة التفتيش ، فكان الذى يجرؤ أن يكون صديقاً لها يتعرض للاتهام بالإلحاد . ولكن ميكى أنجيلو عرض نفسه لهذا الخطر ، ونشأت بينه وبينها علاقة حب روحانى لم يتعد قط حدود الشعر .

وحررت نساء النهضة المتعلمات أنفسهن دون أن يقمن بدعاوة ما لهذا التحرر ، ولم تكن وسيلتهن إليه غير ذكائهن ، وخلقتهن ، وكياستهن ، وبما أرهفن من حواس للرجال بمفاتيهن الجنسية والروحية والعقلية . وقد

أثرن في زمنهن في كل ميدان من الميادين . في الميدان السياسي لقدرتهن على حكم الدول بدلا من أزواجهن الغائبين ؛ وفي ميدان الأخلاق يجمعن بين الحرية وطيب العادات ، والصلاح ؛ وفي الفن بما أظهرن من جمال الأمومة الذي صورت على مثاله مئآت من صور العذراء الأم ، وفي الأدب إذ فتحن أبوابهن للشعراء والعلماء وعطفن عليهم وابتسمن لهم . ولسنا ننكر أن كثيراً من الهجاء قد وجه وقتئذ للنساء كما وجه إليهن في كل عصر من العصور ؛ ولكن كل بيت مرير أو ساخر قيل فيهن كان يقابله أوراد وتسابيح من المديح والابتهال . وقصارى القول أن النهضة الإيطالية ، كالأستنارة الفرنسية ، قامت على أكتاف الجنسين ؛ فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة ؛ وتجرد الرجال من نخشوتهم وغلظتهم ، ورقت آدابهم وألفاظهم ، وخطت الحضارة رغم تحللها وعنفها نحو الرشاقة والرقه خطوات . لم تشهد أوربا مثلاً مدى ألف عام .

الفصل السادس

المنزل

وتبدت الرقة المطردة الزيادة في شكل البيت وفي الحياة المنزلية . لقد ظلت مساكن الشعب كما كانت من قبل - ذات جدران مغطاة بالبلاط ، أو الحصص مطلية بالجير ، عارية عن الزينة ، وأرض مغطاة بالبلاط ، وفناء داخلي به في العادة بئر ، ويحيط بالفناء طبقة أو طبقتان من الغرف مزودتان بأبسط لوازم الحياة . أما قصور العظماء والأغنياء الحديثي الثراء فكانت روعة وتترف تذكر الإنسان مرة أخرى بقصور رومة الإمبراطورية . ذلك أن الثروة التي كانت محبوسة من قبل على الكتدرائيات قد صبت الآن صباً على القصور فجاءتها بالأثاث ، ووسائل النعيم والمتعة ، والزينة التي قلما نجد لها إذا تخطينا جبال الألب في قصور الأمراء والملوك ، فهاهو ذا بيت تشيجي الريفى ، وقصر مسمى Massimi اللذان خططهما بلدسارى بروتسى Baldassare Peruzzi يحتوى كل منهما على متاهة من الغرف تزدان كل واحدة منها بالعمد الأسطوانية والمربوعة ، أو الأطناف المنقوشة ، أو السقف ذات اللوحات المذهبة ، أو القبة والجدران المصورة ، أو المصطلى المحلى بالتماثيل ، أو الصور المنحوتة في الحصص ، أو النقوش العربية ، أو الأرضية المصنوعة من الرخام أو القرميد . وكان في كل قصر سرر ، ونضد ، وصناديق ، وأصونة صنعت لتعيش مائة عام وتسرى الناظرين . وكانت خزائن أدوات المائدة أو نضدها مثقلة بالصحاف الفضية والأواني الخزفية الجميلة الأشكال ، وكان في القصر فرش وثيرة مريحة ، وطنافس جميلة ، وستر بديعة ، وكثير من الملابس الداخلية المتينة الصنع المعطرة . وكانت مدافئ عظيمة تدفئ الحجرات ، والمصابيح أو المشاعل ، أو القناديل

تثيرها . ولم يكن شيء ما ينقص هذه القصور غير الأطفال .

ذلك أن تحديد النسل يكثر كلما كثر المال اللازم لإعالة الأطفال ، وكانت الكنيسة والكتب المقدسة تأمر بزيادة النسل ومضاعفة عدد الأبناء ، ولكن الرغبة في التمتع كانت تشير بالإقلال منهم ؛ وحتى في الريف حيث يكون الأطفال مصدر ثراء كانت الأسر التي بها ستة أبناء نادرة الوجود ، وفي المدن حيث يكون الأطفال عبئاً على الآباء كانت الأسر صغيرة العدد . وكلما زاد ثراء الأسرة قل عدد أفرادها - وكثير من الأسر لم يكن فيها أبناء على الإطلاق^(٦٤) . غير أن الأسر الإيطالية كان في مقدورها أن تنجب أطفالاً ظرفاء كما نقبين ذلك من صور الأطفال التي رسمها الفنانون ومن رسوم دوناتلو ولوكا دلا ريبيا Luca della Robbia ، والتماثيل المنحوتة . كتمثال « القديس يوحنا الشاب » الذي نحته أنطونيو رسيلىنو والمحفوظ في المتحف الأهلى بواشنطن . وإن تضامن الأسرة ، والولاء والحب المتبادلين بين الآباء والأطفال ليزيدهما رونقاً وجمالاً ما كان سائداً في ذلك الوقت من انحلال في الأخلاق .

وكانت الأسرة لا تزال وحدة اقتصادية ، أخلاقية ، جغرافية ، إذا عجز أحد أعضائها عن الوفاء بما عليه من دين وفي به سائر الأعضاء ، وتلك ظاهرة تخالف ما اتسم به ذلك العصر من نزعة فردية . ولما كان عضو يتزوج أو يترك البلاد دون موافقة أسرته ، وكان الخدم أعضاء في الأسرة أحراراً بمولدهم ، صريحين في حديثهم . وكان للوالد على الأبناء سلطان كامل ، وأمره مطاع في الأزمات ، ولكن الأم كانت هي التي تحكم المنزل في العادة ، ولم يكن حب الأم أبناءها يختلف عند الفقيرات عنه لدى الأميرات ، انظر إلى ما كتبه بيترس دست عن والدها الصغير إلى أختها . إزبلا : « كثيراً ما تمنيت أن تكوني هنا لتشاهديه بعينيك ، فلو أنك كنت هنا لما خالجنى أقل شك في أنك لن تستطيعي أن تحاجزي نفسك عن تقبيله وتدليله »^(٦٥)

وكانت معظم الأسر من الطبقة الوسطى تحتفظ بسجل يحوى تواريخ ميلاد
أعضائها ، وزواجهم ، وموتهم ، والحوادث الهامة فى حياتهم تتخللها فى
بعض المواضع تعليقات ناطقة بالحب والمودة . فقد كتب جيوفانى روتشيللى
Giovanni Rucelli (أحد أسلاف الكاتب المسرحى صاحب هذا الاسم
نفسه) هذه العبارة فى أواخر أيامه فى سجل من هذا النوع لأسرته :

« أحمد الله الذى خلقنى إنساناً عاقلاً مخلداً ، فى بلد مسيحى ، قريب
من رومة ، مركز العقيدة المسيحية ؛ وفى إيطاليا أشرف بلاد العالم المسيحى ؛
وفى فلورنس أجمل مدائن العالم كله . . . أحمد الله الذى جعل لى أمماً ممتازة ،
رفضت بعد موت أبى كل عروض الزواج مع أنها لم تكن تتجاوزت سن
العشرين عند وفاته ، وكرست حياتها كلها للعناية بأبنائها ؛ كما رزقنى أيضاً
زوجة صالحة ، حبتنى حباً صادقاً ، ووجهت أعظم عنايتها لبيتها وأبنائها ،
أبقاها الله لى كثيراً من السنين ، وكان موتها أفدح خسارة أصابتنى أو يمكن
أن تصيبنى طوال حياتى . فإذا ما تذكرت جميع هذه النعم والمزايا ، فى
الآن وأنا فى سن الشيخوخة أحب أن أتجرد من جميع المنافع الدنيوية لكى
أتوجه بروحى كلها إلى التسبيح بحمدك يا الله والشناء عليك يا حى يا قيوم
يا من وهبتنى الحياة (٦٦) » .

وكتب رجبلان ، أو لعلهما رجل واحد ، حوالى عام ١٤٣٦ رسالتين
عن الأمرة وطريقة حكمها . لقد كان أنيولو بندلفينى Anolo Pandolfini
فى أغلب الظن صاحب الرسالة المفصّلة المسماة رسالة فى حكم الأسرة
Trattato del governo della famiglia ؛ وكتب ليون باتستا ألبيرتى
Leon Battista Alberti بعده بقليل رسالة فى الأسرة Trattato della
famiglia ، يشبه الكتاب الثالث من كتبها « الاقتصاد Economico »
أعظم الشبه الرسالة السابقة حتى لقد ظن بعضهم أن الكتابين ليسا إلا صورتين

مختلفتين لرسالة واحدة من قلم ألبرقي. وليس ببعيد أن تكون نسبة كل واحدة منهما لصاحبها صحيحة ، وأن ما بينهما من تشابه كبير يرجع إلى أن كلا المؤلفين قد اعتمد في رسالته على كتاب اكسنوفون Xenophon في الاقتصاد Oeconomicus ورسالة بندلقيني أحسن الرسالتين . وكان صاحبها رجلاً ثرياً شبيهاً في هذا بآل روتشلاي ؛ وقد خدم فلورنس في مناصب دبلوماسية ، وكان سخيّاً في هباته للمشروعات العامة . وقد كتب رسالته في أواخر حياته . الطويلة ووضعها في صورة حوار بينه وبين أبنائه الثلاثة : فهم يسألونه هل يسعون إلى المناصب العامة ؛ ولكنه يشير عليهم بالابتعاد عنها ، لأنها تتطلب أعمالاً تتصف بالخيانة والقسوة ، والسرقه ، وتعرض صاحبها لارتياح الناس ، وحسد هم ، وتوجيه السباب له . ويقول لهم إن نجاح المرء في نيل السعادة لا يقف على نيل المناصب العامة أو الشهرة الواسعة ، بل إن سعادته تعتمد على زوجته ، وأبنائه ، ونجاحه الاقتصادي ، وسمعته الطيبة ، وأصدقائه الأوفياء . وينبغي للمرء أن يتخذ له زوجة تنقص عنه في السن إلى درجة تجعلها خاضعة لتعاليمه قابلة لأن يشكلها على هواه ؛ وعليه أن يعلمها ، في السنين الأولى من زواجهما ، واجبات الأمومة ، وفنون تدبير المنزل . والحياة الهنيئة مصدرها الاقتصاد والنظام في العناية بصحة الجسم والعقل ، وحسن استخدام المواهب ، والوقت ، والمال : فأما العناية بالصحة فتكون بالتعفف ، والرياضة ، والاعتدال في الطعام ؛ وأما حسن استخدام المواهب فوسيلته الدرس ، والتخلق بالأخلاق الشريفة باتباع أوامر الدين وبالقدوة الصالحة ؛ والانتفاع بالوقت يكون بتجنب البطالة ، والانتفاع بالمال يكون بحسن تدبير الدخل ، والنفقات ، والادخار والعمل على توازن هذه العوامل الثلاثة . والرجل الحكيم يستثمر ماله أولاً في مزرعة أو ضيعة يصرف شئونها بحيث تملكه هو وأسرته بمسكن ريفي ، وبما يلزمه من الخب والنبيذ ، والزيت ، والطيور ، والخشب بأكثر ما يستطيع الحصول عليه من ضرورات الحياة

الأخرى . ويحسن به كذلك أن يكون له بيت في المدينة ، حتى يستطيع أبناؤه أن ينتفعوا بما فيها من وسائل التربية والتعليم . ويتعلموا بعض الفنون الصناعية^(٦٧) . لكن من واجب الأسرة أن تقضى أكبر جزء تستطيعه من الوقت في بيتها الريفي :

« ذلك أن لا بيت الريفي مزايا عظيمة شريفة على حين أن كل ما للإنسان من ملك يتطلب من صاحبه العمل ويعرضه للخطر ، والخوف ، وخيبة الأمل . أما البيت الريفي فهو على الدوام صادق شقيق رحيم ففي الربيع تبعث الأشجار الخضراء ، ويبعث تغريد الطيور ، في نفسك الهبة والأمل ، وفي الخريف يعود عمالك الجهد المعتدل بثمرة تعادله مائة مرة ، وأنت طول العام أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة . ذلك أن البيت الريفي هو البقعة التي يحب فيها الرجال الصالحون الأشراف أن يجتمعوا بعضهم ببعض فأسرع إذن إلى هناك ، وطر من كبرياء الأغنياء وخيانة أشرار الرجال^(٦٨) » .

ويرد على هذا كاتب يسمى جيوفاني كمپانو Giovanni Compano بالنيابة عن ملايين الملايين من الفلاحين فيقول : « لو لم أكن من أبناء الريف ، لا بتهجت من فوري بهذا الوصف للسعادة الريفية ؛ أما وأنا الريفي الزارع ، « فإن ما ترونه أنتم سبباً للهبة ، أراه أنا باعثاً للملل والسآمة »^(٦٩) .

الفصل السابع

الأخلاق العامة

لقد كان بئدلفيني محقاً في حكم واحد من أحكامه على الأقل - وهو أن الأخلاق المتصلة بالمعاملات التجارية وعند الجماهير بوجه عام كانت أكثر ما ينفر منه الإنسان في حياة عصر النهضة - ذلك بأن النجاح ، لا الفضيلة ، في ذلك الوقت كان هو الميزان الذي توزن به أقدار الرجال وحتى بئدلفينو . التقى المستقيم نفسه يدعو الله أن يرزقه الثراء لا السمعة الخالدة . لقد كان الناس في ذلك الوقت كما هم الآن يحرون وراء المال ، ولا يؤثبنهم ضميرهم كثيراً بسبب ما يتبعونه من الوسائل لجمعه . فكان الملوك والأمراء يغدرون بخلفائهم ، وينكثون أقوى عهودهم إذا لاح لهم بريق الذهب . ولم يكن رجال الفن ، أحسن حالا من الملوك والأمراء ! فكثيرون منهم تناولوا مقدم أجور عن أعمال عجزوا عن إتمامها أو عند البدء فيها ، ولكنهم احتفظوا مع ذلك بما قبضوا من أجور ، وكان بلاط البابا نفسه مضرب المثل في هذا الجشع المالى . ولنستمع مرة أخرى إلى أعظم مؤرخ للبابوية .

« لقد استشرى الفساد ومد جذوره في جميع مناحى الإدارة البابوية . . . وخرج عدد الهبات التي تنصب فيها صباءاً والقروض التي تغتصبها اغتصاباً عن كل حد . . . يضاف إلى ذلك أن العقود كانت تتداول وتزور بأيدي الموظفين أنفسهم ، فلا عجب والحالة هذه إذا ارتفعت من جميع أنحاء العالم المسيحية أعلى الصيحات بالشكوى من هذا الفساد وذلك الاغتصاب المالى الذى يقوم به موظفو الإدارة البابوية ، حتى لقد قيل إن لكل شيء في رومة ثمنه » (٧٠) .

وكانت الكنيسة لا تزال تحرم أخذ الفائدة على الأموال وتعدّها بجميع

أنواعها من قبيل الربا ، وكان الواعظون ينددون بهذا العمل ، وحرمة
أحياناً بعض المدن - مثل پياتشندسا - وأندرت من يمارسه بالحرمان من
القربان المقدس ومن الدفنة المسيحية عند مماته . ولكن إقراض المال بالفائدة
ظل يجرى في مجراه ، لأن هذه القروض لم يكن منها بد في الأعمال الاقتصادية ،
التجارية والصناعية ، الآخذة في الاتساع . وسنت القوانين تحرم أن يزيد
سعر الفائدة على عشرين في المائة ، ولكننا مع ذلك نسمع عن حالات بلغ
فيها هذا السعر ثلاثين في المائة . وكان المسيحيون ينافسون اليهود في عقد
القروض ، حتى لقد شكوا مجلس فيرونا البلدى من أن المسيحيين يفرضون
على المدنيين شروطاً أقسى مما يفرضه اليهود (٧١) . غير أن غضب الشعب قد
حل أشده على اليهود ، وكثيراً ما أدى إلى أعمال العنف الموجهة إلى الساميين .
وواجه الرهبان الفرنسييس هذه المشكلة وحاولوا تخفيف العبء عن أشد
المدنيين بؤساً بإنشاء أرصدة الإحسان (monti di pieta) ومعناها الحرفي
(أكوام الإحسان) جمعوها من الهبات والوصايا ليقرضوا منها المحتاجين ؛
وكانوا في أول الأمر يقرضونهم بغير فائدة . وكان أول رصيد من هذا
النوع هو الذى أنشئ في أرفينو عام ١٤٦٣ ؛ ولم تلبث كل مدينة كبيرة
أن حذت حذوها ؛ وتطلب ازدياد مقدار هذه الأرصدة تخصيص بعض
المال لإدارتها والإشراف عليها ؛ فما كان من مجلس لاتران الخامس الذى
عقد في عام ١٥١٥ إلا أن منح الرهبان الفرنسييس الحق في أن يفرضوا على
كل قرض ما يكفى من ال لتغطية نفقات الإدارة والإشراف . وسار
بعض رجال الدين في القرن السادس عشر على هذه السنة نفسها فأجازوا
أخذ فائدة معتدلة على القروض (٧٢) . ثم أخذ سعر الفائدة ينخفض انخفاضاً
سريعاً في القرن السادس عشر بفضل منافسة أرصدة الإحسان ، وأكثر من
هذا في أغلب الظن بفضل ازدياد مهارة رجال المصارف المحترفين ومنافستهم
للأفراد المقرضين .

وازداد النظام الصناعي قوة باتساع مداه وباختفاء العلاقة الشخصية بين العامل وصاحب العمل . ذلك أن رقيق الأرض في نظام الإقطاع كان يستمتع ببعض الحقوق في مقابل ما يفرض عليه من الأعباء ، فقد كان ينتظر من سيده أن يعنى به إذا مرض ، أو حلت بالبلاد أزمة اقتصادية ، أو شبت فيها نار حرب ، أو بلغ سن الشيخوخة . وكانت نقابات الحرف في المدن الإيطالية تؤدي بعض هذه الواجبات للطبقة العليا من العمال ، ولكن العامل « الحر » كان في العادة « حرّاً » في أن يموت جوعاً حين لا يجد عملاً يقتات منه ، فإذا وجدته كان لابد له أن يقبله بالشروط التي يفرضها عليه صاحب العمل نفسه ، وما كان أقسى هذه الشروط . وكان كل اختراع وكل تحسين في وسائل الإنتاج وفي الأنظمة المالية يزيد من أرباح صاحب العمل ، وقلما كان يزيد الأجور . وكان رجال الأعمال يقسو بعضهم على بعض بقدر ما يقسون على عمالهم : فنحن نسمع عن كثير من الحيل التي كانوا يلجئون إليها في تنافسهم ، وعن عقودهم الخادعة ، وعن وثائقهم المزورة التي يخططها الحصر (٧٣) . فإذا ما تعاونوا كان تعاونهم يهدف لخراب بيوت منافسيهم في بلد غير بلدهم . بيد أننا نجد أحياناً أمثلة دالة على الإحساس بواجب الشرف بين كثيرين من التجار الإيطاليين ، واشتهر رجال المال في إيطاليا بالأمانة والاستقامة في المعاملة أكثر مما اشتهر بهما أمثالهم في أوروبا (٧٤) .

وكانت الأخلاق الاجتماعية مزيجاً من العنف والعفة . ولما لنجد في الرسائل التي كانت تتبادل بين الأفراد في ذلك الوقت شواهد كثيرة على ما كانوا يتصفون به من الرقة والحنان ، ولم يكن الإيطاليون العاديون يضارعون الأسبان في شراستهم أو الجنود الإيطاليين في إقدامهم على ذبح أعدائهم جماعات . ولكن ما من أمة في أوروبا كان فيها من الاغتياب ونهش الأعراض مثل ما كان يدور حول جميع الرجال البارزين في رومة ، وهل يستطيع أحد غير الإيطاليين في عهد النهضة أن يصف أريتينو بأنه من أولياء

الله الصالحين ؟ . وانتشر العنف بين الأفراد انتشاراً واسع النطاق . وكان من أسباب قوة النزاع بين الأسر زوال العادات القديمة والعقيدة الدينية ، والتراخي في أخذ الناس بالقانون ، ولهذا كان الناس يثأرون لأنفسهم بأنفسهم ، وظلت الأسر يقتل بعضها بعضاً جيلاً بعد جيل ، كما ظل التبارز عادة مألوفة مشروعة في إيطاليا لا يقف حتى يقتل أحد المتبارزين نده ، وحتى الأولاد الصغار كان يسمح لهم بأن يقاتل بعضهم بعضاً بالمدى ، ويعد هذا أيضاً من الأعمال المشروعة (٧٥) . وكان النزاع بين الأحزاب أشد منه في أى مكان آخر في أوروبا ، وكانت الجرائم وأعمال العنف بخطتها الحصر . وكان من المستطاع ابتياع السفاحين بأثمان لا تكاد تزيد على أثمان صكوك الغفران ، وكانت قصور رومة تزدهم بأولئك السفاحين المستعدين لاغتيال أى إنسان بإشارة من سادتهم . وكان كل إنسان يحمل خنجرآ ، وكان عاجزو السموم يجدون كثيرين من طالبي سمومهم ، حتى بلغ الأمر أن أهل رومة قلما كانوا يعتقدون أن إنساناً ذا شخصية بارزة أو مال موفور مات ميتة طبيعية ... وكان كل ذى شخصية يطلب أن يذوق شخص آخر بين يديه كل ما يقدم له من طعام أو شراب . وانتشرت في رومة قصص عن سم بطيء لا يسرى مفعوله إلا بعد فترة طويلة تكفى لستر آثار من يقدمه . وكان على الإنسان أن يكون يقظاً محاذراً في تلك الأيام ، فإذا غادر المنزل في ليلة من الليالى ، فقد ينصب له كمين ويسرق ماله ، ويكون من حسن حظه ألا يلقى حتفه ؛ وحتى في الكنيسة نفسها لم يكن الشخص آمناً على نفسه ، وكان عليه إذا سار في الطرق العامة أن يستعد لمقاومة قطاع الطرق . ولهذا كان من الواجب أن يصير عقل رجل النهضة حاداً كمحذة نصل السفاح .

وكانت القسوة أحياناً قسوة جماعية تسرى عدواها في الأفراد والجماعات . مثال ذلك أن فتنة اندلع لديها في أرتسو عام ١٥٠٢ ضد أحد المندوبين الفلورنسيين ، فقتل فيها مئات من أرتسو في شوارعها محبت فيها أسر

بأكملها ، وجرد أحد الضحايا من ثيابه وشتق ووضع شعلة متقدة بين
عجيزتيه ؛ فما كان من الجماهير المرحمة المبهجة إلا أن أطلقت عليه اسم
الملوط (٧٦) . وانتشرت قصص العنف ، والقسوة ، والشهوات التشار
الخرافات ؛ حتى لقد كان بلاط فيرارو الذي يزدان بالشعر والأدب تروعه
جرائم الأمراء وما يوقعه الملوك من ضروب العقاب . وكان تحلل الحكام
المستبدين أمثال آل فسكني ومالاتسنا أنموذجاً ينسج على منواله ذوو العنف
الهواة من أفراد الشعب ، وحافزاً لهم على تقليده .

وتدهورت المبادئ الأخلاقية الحربية على مر الزمن . فقد كانت المعارك
كلها تقريباً في بواكير عهد النهضة لا تزيد على اشتباكات غير ذات بال
بين جنود مرتزقة يحاربون في غير عنف شديد ، ويعرفون متى يقفون
القتال ، وكان النصر ينال إذا ما سقط في حومة الوغى عدد قليل من الرجال ،
وكان السجين الحي الذي يستطيع فداؤه أعظم قيمة من العدو الميت .
ولما ازدادت قيمة الزعماء المغامرين المأجورين ، وكبرت الجيوش وتطلبت
نفقات ضخمة ، سمح للجنود بأن يهبوا المدن المفتوحة يدل أن تؤدي إليهم
أجور منتظمة ؛ وكانت مقاومة التهب تؤدي إلى المذابح التي يهلك فيها العدد
الجسم من السكان ؛ وكانت وحشية الجنود الفاتحين تزداد حينما يشمون رائحة
الدم المسفوك . ومع هذا كله فقد كانت قسوة الإيطاليين في الحرب أقل من
قسوة الغزاة الأسبان والفرنسيين . مثال ذلك أنه حين استولى الفرنسيون
على كابوا في عام ١٥٠١ أوقعوا بأهلها مذبحاً ، شنيعة سقط كثير من النساء
حتى اللاتي كرسن أنفسهن لعبادة الله . : ضحية لشهواتهم أو شرهم ،
وبيع كثير من أولئك المخلوقات البائسات في رومة بعدئذ بأبخس الأثمان (٧٧)
كما يقول جوتشيارديني . وغير خاف أنهن يعن للمسيحيين . وزاد استرقاق
أسرى الحرب كلما تقدمت أساليبها في عصر النهضة .

ولسنا ننكر أنه كان ثمة أمثلة من الولاء الجليل بين الإنسان والإنسان ،

حويين المواطن والدولة ؛ ولكن ازدياد المقدرة على المكر والدهاء زاد من قدر الغش والخداع . فكان القواد يبيعون أنفسهم لمن يؤدي إليهم أعظم الأثمان ، فإذا ما احتدم القتال أخذوا يفاوضون العدو للحصول على أثمان أكبر من التي اشترروا بها . كذلك كانت الحكومات تبدل موقعها في أثناء الحرب فيصبح الحلفاء أعداء بجرة قلم . وكان الأمراء والبابوات يغدرون بمن آمنوهم على أنفسهم من القادمين إلى بلادهم والخارجين منها (٧٨) ، والحكومات توافق على اغتيال أعدائها سرّاً في الدول الأخرى (٧٩) . وكان الخونة يوجدون في كل مدينة وفي كل معسكر : ومن أمثلة هؤلاء بيرنر دينو دل كورتى Bernardino del Corte الذي باع قلعة لذيكيكو لفرنسا ؛ والسويسريون والإيطاليون الذين غدروا بلدفيكو وباعوه للفرنسيين ؛ وفرانتشيسكو ماريا دلاروفيري الذي منع جنوده من أن ينضموا لتجدة البابا في عام ١٥١٧ ، ومالاتستا بجليوني الذي باع فلورنس في عام ١٥٣٠ ولما ضعفت العقيدة الدينية حلت محل فكرة الحق والباطل في كثير من العقول فكرة النافع وغير النافع من الوجهة العملية ؛ وإذا كانت الحكومات في العادة قصيرة الأجل لا تصبح ذات سلطان شرعي بطول الزمن ، فقد ضعفت عند الناس عادة إطاعة القانون ، وكان لابد من أن تحل القوة في هذا محل العادة ؛ ولم يكن ثمة طريق للخلاص من استبداد الحكومات إلا قتل المستبدين .

وعم الفساد كل فرع من فروع الإدارات الحكومية . ففي سينا مثلاً كان لابد من وضع الإدارة المالية في آخر الأمر في أيدي راهب اشتهر بالتقى والورع لأن كل إنسان آخر قد اختلس مال المدينة . وساءت سمعة المحاكم كلها عدا محاكم البندقية لكثرة ما كان فيها من الفساد والرشوة . وتروى قصة من قصص ساكشتي Sacchetti أن قاضياً ارتشى بثور ولكن ختم الرأشي بعث إلى هذا القاضي نفسه بقرة وعجلاً فحكم

لصالحه (٨٠) . وكان التقاضى كثير النفقة ، ولهذا اضطر الفقراء إلى الاستغناء عنه ، ووجدوا أن قتل الخصم أرخص من مقاضاته . وكان القانون نفسه آخذاً في الرق ولكن رقيه كان مقصوراً على الناحية النظرية . وقد أنجبت بدوا ، ويولونيا ، وبيزا ، وبيروجيا كثيرين من فقهاء القانون أمثال تشينو دا بستويا Cino da Pistoia ، وبرتولوس من أهل ساسوفيراتو Bartolus of Sassoferrato ، وبلدو دجلي أوبلدي Bolto degli Ubalbi الذى طل شرحه للقانون الرومانى أكبر مرجع فى فقه القانون قرنين كاملين . وكان القانون البحرى والتجارى يتسع نطاقه باتساع نطاق التجارة الخارجية ؛ ومهد جيوفنى دا لنيانو السبيل لجروتوس برسالة عن الحرب Tractatus de Bello (١٣٦٠) ، وهى أقدم كتاب معروف عن قوانينها .

لكن تطبيق القانون لم يبلغ من السمو مبلغ نظريته ، ذلك أن نظام الشرطة لم يجارى تقدمه سير الجرائم ، وإن كانت مهمته فى حماية الأنفس والأموال قد أخذت تظهر وتشكل وخاصة فى فلورنس . وكثر المحامون ، وظل التعذيب يستخدم فى استجواب الشهود والمتهمين . وكانت العقوبات قاسية همجية . وفى بولونيا مثلاً كان يمكن تعليق المذنب فى قفص من أحد الأبراج المائلة ، ويترك حتى يتقرح جسده فى الشمس (٨١) ، وفى سينا كان الرجل المحكوم عليه يمزق إرباً على مهل فى شوارع المدينة (٨٢) ؛ وفى ميلان أثناء حكم جيوفنى فسكونتى مضيف بترارك كان المسجونون تبتر أطرافهم طرفاً بعد طرف (٨٣) ؛ وبدأت فى أوائل القرن السادس عشر عاد الحكم على المساجين بجذب المجاذيف الثقيلة التى كانت تزود بها السفن ، مشاهد ذلك أن سفائن يوليوس الثانى كانت تحمل على ظهورها أرقاء شددودين إليها من أرجلهم (٨٤) .

على أننا نستطيع أن نذكر فى مقابل هذه الأعمال الممجية تطور الإحسان المنظم ورقيه ، فقد كان كل من يترك وصية يفرد جزءاً من ماله لبوزع

على الفقراء من أهل الأبرشية التي يعيش فيها . وإذا كان المتسولون لا يحصى لهم عدد ، فإن بعض الكنائس كانت تقيم ما يشبه مطاعم الشعب الحديثة ، وجرياً على هذه السنة كانت كنيسة القديسة مارية (سانتا ماريا) في كامپو سانتو برومة ، تطعم ثلاثة عشر متسولاً في كل يوم وألقى متسول في أيام الإثنين والجمعة^(٨٥) ، وكانت المستشفيات العامة ، ومستشفيات المجنومين ؛ وملاجئ المرضى الميئوس من شفائهم ، والفقراء ، واليتامى ، والحجاج المعدمين ، والعاهرات التائبات ، كانت هذه كلها كثيرة العدد . في إيطاليا إبان عصر النهضة . واشتهرت بستويا وثيربو باتساع نطاق مؤسساتها الخيرية ، وفي مانتوا أنشأ لدوفيكو جندساجا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore للعناية بالفقراء والعجزة ، وخصه بثلاثة آلاف دوقية كل عام من الأموال الحكومية^(٨٦) . وأنشئت في البندقية جمعية عرفت باسم جمعية الپليجريني Pellegrini من أعضائها تيشيان وابنى سانسوفيني Sansovini لتقديم المعونة . المتبادلة لأعضائها والبائعات للبنات الفقيرات ، إلى غير هذه وتلك من أعمال البر . وكان في فلورنس في عام ١٥٠٠ ثلاث وسبعون منظمة مدنية تقوم بأعمال الإحسان . وتأسست في عام ١٢٤٤ جمعية الإخوان البائسين Fraternita della Mesericordia ، ولكنها أهملت حتى ماتت ، ثم أعيدت في عام ١٤٧٥ ؛ وكان أعضاؤها من غير رجال الدين الذين أخذوا على أنفسهم أن يزوروا المرضى ، ويقوموا بأعمال البر الأخرى ، واستمالوا إليهم قلوب الشعب بإقداهم بشجاعة على العناية بضعفا الطاعون ؛ ولا تزال مواكبهم الصامته التي يسرون فيها بأثوابهم السود من أعظم المناظر رهبة وتأثيراً في المشاعر في فلورنس^(٨٧) . وكان في البندقية جماعة من هذا النوع تدعى إخوة سان روكو Confraternita di San Rocco ؛ وأنشئت في رومة جماعة الإخوة المحزونين Sodality of the Doloros

التي تبلغ الآن من العمر خمسمائة عام وأربعة أعوام ، وأسس الكردنال
جوليو ده ميليتشي في عام ١٥١٩ جماعة أخوة الصداقة **Confraternita**
della Carita للعناية بالفقراء الذين هم أعلى من طبقة المتسولين ؛ ولتقوم
بدفن المعلمين دفنة كريمة . هذا إلى أن الصدقات الفردية التي كان يقدمها
ملايين الأفراد ممن لم تعرف أسماءهم كانت تخفف بعض الشيء من كفاح
الإنسان لأخيه الإنسان ، ومن صراعه مع الطبيعة والموت .

الفصل الثامن

العادات العامة ووسائل التسلية

بين العنف وعدم الأمانة ، والحياة الصاخبة التي كان يحياها طلبة الحمامات ، والفكاهة الحشنة والحنان اللذين يتصف بهما الفلاحون والعمال ، وبين هذا كله نشأت الآداب العامة الطيبة كأنها فن آخر من فنون النهضة ، فترعمت إيطاليا وقتئذ أوربا كلها في قواعد الصحة الشخصية والاجتماعية ، والثياب ، وآداب المائدة وطهو الطعام ، وآداب الحديث ، والرياضة البدنية . وكانت فلورنس تدعى أنها هي التي تترعم إيطاليا في هذا كله عدا الملابس . وكانت تدفعها روحها الوطنية لأن تترثي لما في المملدن الأخرى من قذارة ، كما كان الإيطاليون يتخذون لفظ « ألماني » مرادفاً للخشونة في اللغة والحياة (٨٨) . واحتفظت الطبقات المتعلمة في إيطاليا بالعادة الرومانية القديمة عادة الاستحمام الكثير ، وكان أثرياء القوم يتباهون بأثوابهم الجميلة ويؤمنون الأماكن ذات المياه المعدنية ، ويشربون المياه الكبريتية يطهرون بها بطونهم في كل عام مما أفرطوا فيه من الطعام والشراب . ولم تكن ملابس الرجال أقل زينة من ملابس السيدات ولا تنقص عنها إلا الحلي ، وكانت لهم أكمام ضيقة ، وجوارب ملونة ، وقبعات كبيرة كالتي شاهدها رفاثيل على كستجليوني . وكان الجوارب يغطي الساق كلها حتى آخر الفخذ فيجعل الرجال يقفزون في مشيهم قفزاً يدعو إلى السخرية . أما في الجزء الأعلى من الجسم فقد كان في وسع الرجل أن يكون حسن الهندام ، فقد كان يرتدى صدرية من الخمل موشاة بالحرير ومزدانة بالخرمات . (الدنتلا) ، ولم تكن القفازات والأحذية نفسها تنقصها هذه الخرمات . وحدث في مهرجان لارجانس

لورندسو ده ميليتشى أن ارتدى أخوه جوليانو أثواباً كلفته ثمانية آلاف
دوقة (٨٩) .

وحدث في القرن الخامس عشر انقلاب تام في آداب المائدة حين ازداد استعمال الشوكة بدل الأصابع في تناول الطعام ونقله إلى الفم . ولشد ما دهش
تومس كريات Thomas Coryat حين زار إيطاليا حوالى عام ١٦٠٠ من
هذه العادة الجديدة التى لم يتعودها الناس فى أى بلد آخر رأيت فى أسفارى «
على حد قوله ، وقد ساعد بنفسه على إدخال هذه العادة فى إنجلترا (٩٠) .
وكانت السكاكين ، والشوك ، والملاعق تصنع من النحاس الأصفر ، ومن
الفضة فى بعض الأحيان - فإذا كانت من الفضة أعيرت للجيران حين
يقيمون المآدب . أما الطعام فقد كان طعاماً وسطاً إلا فى المناسبات الهامة
أو المآدب التى تقيمها الدولة فى المناسبات الرسمية ، فقد كان التعالى فيها أمراً
واجباً إجبارياً . وكانت التوابل - كالفلفل ، والقرنفل ، وجوزة الطيب ،
والقرفة ، والعرعر والزنجبيل وما إليها - تستخدم بكثرة لزيادة نكهة
الطعام وزيادة الظم إلى الشراب ؛ ولهذا كان كل مضيف يقدم لضيفه
أنواعاً مختلفة من الخمور . وفى وسعنا أن نرجع شيوع الثوم فى إيطاليا إلى
عام ١٥٤٨ ، ولكن الذى لا شك فيه أن استعماله بدأ قبل ذلك بوقت طويل .
وقلما كان يؤخذ على القوم نهم أو شراهة فى الطعام والشراب ؛ ذلك أن
الإيطاليين فى عهد النهضة كانوا كالفرنسيين فى العهود المتأخرة خبيرين
بالأطعمة والأشربة لا نهمين فيها . وإذا ما تناول الرجال طعامهم بمعزل عن
النساء كانوا يدعون معهم بعض المحاظى - واحدة أو اثنتين - كما فعل
أريتينو حين عزم تيشيان . أما من هم أكثر احتشاماً فقد كانوا يجملون
وجبات الطعام بالموسيقى ، وارتجال الشعر ، والحديث المثقف الدال على
حسن التربية .

وقد اخترع فن الحديث - الحديث الجميل - الحديث الذى يتم على

الذكاء ، والأدب ، والتهذيب ، والمتسم بالوضوح ، وروح الفكاهة -
اخترع هذا الفن من جديد في عهد النهضة . وكانت بلاد النوبة القديمة ،
ورومة قد عرفت هذا الفن من قبل ، وظل حياً يتعثر في العصور الوسطى
في أماكن متفرقة من إيطاليا كبلات فرديك الثاني وإنوسنت الثالث مثلاً .
ثم ازدهر الآن مرة أخرى في فلورنس في أيام لورندسو ، وفي أرينو على
عهد الزابا ، وفي رومة أيام ليو : فكان النبلاء وزوجاتهم ، والشعراء
والفلاسفة ، وقواد الجيوش والعلماء ، والفنانون والموسيقيون « يجتمعون في
رفقة العقول ، يتناقلون أقوال أشهر المؤلفين ، ويظهرون في بعض الأحيان
احترامهم وطاعتهم لأوامر الدين ، ويحملون حذلقهم بلمسة خفيفة من
الخيال العجيب ، ويستمتعون بالإصغاء بعضهم إلى بعض . وقد بلغ من
إعجاب القوم بهذه الأحاديث أن صاغوا كثيراً من المقالات والرسائل في
لغة الحوار حتى تستطيع استيعاب هذا الضرب من النظر . لكنهم أفرطوا
في هذا آخر الأمر حتى أضحت اللغة والأفكار مسرفة في الرقة والأناقة ،
وحتى أوهن الولع بهذه الرقة مقتضيات الرجولة ، وأضحت أرينو في إيطاليا
كما كانت رامبوييه Rambouillet في فرنسا ، وحتى قام مولير مهاجم
« الضحك النفيس » في وقت استطاع فيه أن ينجى فن الحديث الطيب
ويحتفظ به لفرنسا .

وقد احتفظ الحديث الإيطالي - رغم التأنق الذي كان طابع القليل منه -
بحرية في موضوعه وألفاظه إلى قدر لا تجزئه الآداب الاجتماعية في هذه الأيام .
وإذ كانت النساء غير المتزوجات ذوات السمعة الطيبة قلما يستمعن إلى الحديث
العام ، فقد كان المفروض أن يناقش الرجال المسائل الجنسية بكثير من
الصراحة . لكن الأمر لم يقتصر على هذا ؛ ففي أرقى مجامع الرجال ، كنت
ترى الفكاهات الجنسية المجردة من الاحتشام ، والتحرر المريح في الشعر ،
والبذاءة المنظمة في التمثيل ، وكل هذه تبدو لنا الآن من المظاهر التي تشمئز

منها النفس في عصر النهضة . ولم يكن الرجال المتعلمون يتورعون عن كتابة الشعر البدىء على التماثيل ، وقد كتب بمبو المذهب الرقيق فيما كتب يثنى على پريابوس Priapus^(٩١) . وكان الشبان يتنافسون في النطق بأفحش الألفاظ وأكثرها بداءة ليبرهنوا بذلك على أنهم بلغوا الحلم : وكان الرجال على اختلاف طبقاتهم يسبون ويلعنون وكثيراً ما يتطرق سبابهم إلى أقدم الأسماء في الدين المسيحي . ورغم هذا كله فإن عبارات المجاملة لم تكن في وقت ما أكثر ازدهاراً مما كانت في تلك الأيام ، كما لم تكن صيغ التخطيب أكثر ظرفاً ورشاقة . وكانت النساء يقبلن يد كل صديق حميم من الذكور حين يقابلنه أو يودعنه ، كما كان الرجال يقبلون أيدي النساء ، ولم تكن الهدايا تنقطع بين الصديق والصديق ، وبلغت الكياسة في الأقوال والأفعال درجة خيل إلى أوروبا الشمالية أنها لا تستطيع الوصول إليها ، وأضحت الكتب الإيطالية التي تعلم تلك الآداب هي النصوص المحببة التي تدرس فيما وراء جبال الألب .

ومثل ذلك يقال عن الكتب الإيطالية في الرقص ، والمثاقفة ، وغيرها من ضروب الرياضة ، فقد كانت إيطاليا تزعم العالم المسيحي في الرياضة كما تزعمه في الحديث والبداءة ، فكانت البنات يرقصن في ليالي الصيف في ميادين فلورنس ، وكانت أرشقهن قواماً وأبرعهن رقصاً تجاز بإكليل من الفضة ، وفي القرى كان الفتيان والفتيات يتراقصون على الحمايل وفي البيوت وفي حفلات الرقص الرسمية : كان النساء يرقصن مع النساء أو الرجال ، كما كان الرجال يراقصون الرجال أو النساء ؛ وكان الهدف في كل حالة من الحالات هو الرشاقة . وانتشر رقص الباليه في عهد النهضة به وأضيف شعر الحركات إلى غيره من الفنون .

وكان لعب الورق أكثر من الرقص انتشاراً ، فقد أضحى في القرن الخامس عشر ولعاً تجن به جميع الطبقات ، حتى لقد أدمنه ليو العاشر نفسه .

وكثيراً ما كان يتضمن المقامرة ؛ وحسبنا شاهداً على هذا أن نعيد ما سبقت الإشارة إليه وهو أن الكردنال رفائلو رياريو *Rafaello Riario* كسب ١٤٠٠٠ دوقة في دورين لعبهما مع ابن إنوسنت الثامن . وكان الرجال يقامرون أيضاً بالنرد ، وكانوا أحياناً يغشون في هذا اللعب بأن يضيفوا إلى النرد أثقالاً تؤثر في وضعه بعد رميه (٩٢) . وأولع القوم أيضاً أشد الولع بهذه اللعبة ؛ ولم تفاح القوانين في تخفيف حدتها ، وكم من أسرة نبيلة خرب الميسر بيتها في البندقية ، حتى لقد حرم مجلس العشرة مرتين بيع ورق اللعب أو الكعوب وأهاب بالخدم أن يبلغوا عن أسيادهم الذين يخالفون أوامر التحريم (٩٣) . وكان نظام القرض الحسن الذي أنشأه سفرولا عام ١٥٤٩ يطلب إلى المقرضين أن يتعهدوا بالامتناع عن الميسر إلى أن يوفوا بالقرض على أقل تقدير (٩٤) .

وكان الذين تعودوا الجلوس وقلة الحركة يقضون الوقت في لعب الشطرنج ويقتنون مجموعات منه غالية الثمن ، مثال ذلك أن جياكومو لورندانا من أشراف البندقية كان له قطع من الشطرنج تقدر قيمتها بخمسة آلاف دوقة .

وكان للشبان ألعابهم الخاصة ، أغلبها في الحلاء . فكان الفتي الإيطالي من أبناء الطبقات العليا يدرّب على ركوب الخيل ، واستخدام السيف والرمح ، والطعن في ألعاب البرجاس ؛ وكانت المدن تستعد لهذه المباريات في بعض أيام الأعياد والعطلات بتسوير مكان فسيح في أحد الميادين يسمى عادة أن تطل عليه النوافذ والشرفات التي تستطيع أن تنظر منها السيدات لتشجيع فرسانهن . ولما لم يكن في هذه المعارك ما يكفي من الجراح والقتل ، فقد أدخل بعض الشبان المهوورين في الكاوسيوم الرومانية عام ١٣٣٢ مصارعة الثيران ، بحيث يصارع الثور رجلاً واقفاً على قدميه وليس معه من السلاح إلا حربة . وقتل في هذه المصارعة الأولى ثمانية عشر فارساً

كلهم من أبناء الأسر العريقة ، ولم يقتل من الثيران إلا أحد عشر ثوراً (٩٥) . وتكررت هذه المباريات في رومة وسينا ، ولكنها لم تستمر الذوق الإيطالي في يوم من الأيام ، وكان سباق الخيل أحب منها إلى الشعب ، وكان يثير حماسة أهل رومة وسينا وفلورنس على السواء . وتنتهي المباريات بصيد الحيوان والطير بالزارة ، وسباق الجري ، وسباق الزوارق ، والملاكمة ، وبها يحتفظ الإيطاليون بشجاعتهم أفراداً ، أما من حيث هم جماعة فقد كانوا يكلون أمر الدفاع عن مدنها إلى الجنود الأجانب المرتزقين .

ويمكن القول بوجه عام إن الحياة كانت ممتعة مبهجة بالرغم مما فيها من كدح وأخطار ، وبما تنسم به من رهبة ومخاوف ، منها ما هو طبيعي ومنها ما هو وهمي وخرافي . وكان سكان المدن يستمتعون بالانتقال إلى الريف رجالاً وركباناً ، وإلى ضفاف الأنهار وشواطئ البحار ، وكانوا يزرعون الأزهار ليزينوا بيوتهم وأنفسهم ، وينشثون إلى جوانب بيوتهم الريفية حدائق غناء ذات أشكال هندسية بدیعة . وكانت الكنيسة سخية على الأهلين بأعيادها ، كما كانت الدولة تضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً مدنية . فكانت أعياد المياه تقام على بحيرات البندقية ومياها الضحلة ، وعلى مياه نهر الأرنو في البندقية ، ونهر منتشيو في مانتوا ، وتشينو في ميلان . وفي بعض الأيام الخاصة كانت مواكب فخمة تسير في شوارع المدن مصحوبة بالمركبات والأعلام ، وضع الفنانون ذوو الشهرة العالمية تصميمها لنقابات الحرف . وكانت الفرق الموسيقية تعزف في هذه المواكب ، والبنات الحسان يغنين ويرقصن ، وأعيان المدينة يسرون فيها ، حتى إذا جن الليل أطلقت الألعاب النارية تشق أجواز الفضاء بأشكالها العجيبة وتختفي في طبقات الجو العليا . وفي يوم سبت النور في فلورنس يوثق بثلاث قطع من الظران جىء بها من الضريح المقدس في بيت المقدس لتوقد شريطاً يضيء شمعة تدفعها فوق سلك يمامة صناعية حتى تصل إلى الصورايخ الموضوعة في عربة اتخذت

رمزاً للدولة في الميدان أمام الكتدرائية فتشعلها . وفي يوم عيد الجسد الطاهر يتمف الاستعراض ليستمع الموكب إلى أنشودة تغنيها جماعة من البنات والأولاد ، أو يشاهد حادثة من الحوادث التاريخية الواردة في الكتاب المقدس أو الأساطير الوثنية ، تمثلها إحدى الهيئات . وإذا ما جاء عظيم في زيارة للمدينة كان يستقبل بموكب تشترك فيه العربات على نمط موكب النصر الروماني القديم الذي كان يستقبل به القائد المنتصر ، مثال ذلك أنه لما زار ليو العاشر فلورنس مابينته المحبوبة في عام ١٥١٣ خرج أهل المدينة على بكرة أبيهم ليشاهدوا مركبة نصره التي زخرفها ورسم صورها بنتورمو Pontormo وهي تمر تحت أقواس عظيمة منصوبة في شارع المدينة الرئيسي ، وسارت سبع عربات أخرى في هذا الموكب يستقلها أفراد يمثلون سبعة أشخاص كبار في التاريخ الروماني ، وفي آخرها غلام عار مغطى بالذهب يرمز إلى حلول العصر الذهبي بمجيء ليو ؛ ولكن الغلام توفي بعد الموكب بقليل من تأثير الطلاء الذهبي (٩٦) .

وكان يحدث أحياناً أن ترمز مواكب العربات في عيد المساخر بفلورنس إلى فكرة معينة مثل الفطنة ، أو الأمل ، أو الخوف ، أو الموت ؛ أو العناصر ، أو الرياح ، أو الفصول ؛ أو كانت تمثل أحياناً بطريقة الإشارات الصامتة قصة كقصص باريس أميرطروادة وهلين اليونانية ؛ أو باخوس وأدرياني ، مصحوبة بالأغاني التي تتناسب مع كل منظر من مناظرها . وقد كتب لورندسو أغنيته الذائعة الصيت الموجهة إلى الشباب والمرح لإحدى هذه « المقنعات » . وكان كل من في المدينة - من الغلمان إلى الكرادلة - يلبس قناعاً ، ويلعب ألعاباً ، ويغازل ويتحرر من كل قيد تحرراً يثار فيه لنفسه مقدماً من الصوم الكبير . وفي عام ١٥١٢ حين بدا أن فلورنس لا تزال تنعم بالرخاء ، ولكن الكوارث التي لم تكن تخطر بالبال تكن بعيدة عنها بأكثر من بضعة شهور ، أعد بيرو دي كوزيمو

Piero di Cosimo موكب « مقنعة لانتصارات الموت » ، سارت فيه عربية ضخمة تجرها بجاموسان سوداوان وعليها غطاء أسود رسمت عليه هياكل عظمية وصلبان بيض . ووقف في العربية تمثال ضخم يمثل الموت يمسك بيده منجلا ، ومن حوله قبور وأشكال حزينة رسمت على أثوابها السود عظام بيض تبرز في الظلام ، ومشت وراء العربية شخص مقلعة تغطي رءوسها قلانس سود رسمت عليها رءوس موتى من الأمام ومن الخلف . وقامت من القبور المصورة على العربية شخص آخرى رسمت بحيث تبدو عظاما لا غير ، وكانت هذه الهياكل العظمية تنشد نشيدا يذكر الناس بأن الموت حق على الجميع . وسارت أمام العربية وخلفها قافلة من الخيل الهرمة الضعيفة تحمل جثث أموات (٩٧) . وهكذا نطق بيرو دي كوزيمو والموكب قائم على قدم وساق بحكمه على إيطاليا المنغمسة في الملذات وتنبا بما كتب لها من سوء المصير ، وكان في حكمه وتنبؤه يردد أقوان سفنرولا .

الفصل التاسع

التمثيل

وترجع بعض أصول المسرحيات الإيطالية إلى هذه المقنعات والاحتفالات الساخرة . ذلك أن منظراً من التاريخ الدينى فى العادة كثيراً ما كان يمثل على إحدى عربات الموكب أو على مسارح مؤقتة فى بعض نقط من طريق الموكب . أما المصدر الأول للمسرحيات الإيطالية فهو ما كانوا يطلقون عليه لفظ « الديثورتيوتى » وهو إحدى حوادث القصص الدينى المسيحى يمثلها أعضاء إحدى نقابات الحرف ، أو ممثلون محترفون فى بعض الأحيان ، ينتمون إلى هيئة تتخذ عرض هذه المناظر عملاً لها . وقد وصات إلينا نصوص بعض هذه التمثيليات من تلك الأيام ، وهى تبدل على عظمة مسرحية مذهشة . فواحدة منها تروى قصة العذراء تعثر على المسيح فى بيت المقدس ، ثم تفقده مرة أخرى ، وتبحث عنه وهى ذاهبة العقل وتصبح : « أى بنى العزيز المحبوب ! أى بنى ، أين ذهبت ؟ أى بنى اللطيف ، من أى باب خرجت ؟ أى بنى القدسى ، لقد كنت حزينا كاسف البال حين غادرتنى ! خبرونى بالله أين ، أين ذهب ولدى ؟ » (٩٨) .

وفى القرن الخامس عشر نشأ فى إيطاليا عامة ، وفى فلورنس خاصة نوع من المسرحيات أرقى من هبذه يعرف بالتمثيليات المقدسة sacra rappresentazione يمثل فى مصلى إحدى نقابات الحرف ، أو فى مطعم أحد الأديرة ، أو فى حقل من الحقول ، أو فى أحد الميادين العامة ؛ وكثيراً ما كانت المناظر المعدة لتلك التمثيليات معقدة تنم عن كثير من الذكاء

والفطنة : فكانت السماء تمثل بستر ضخمة رسمت عليها النجوم ، والسحب تمثل بأكداس من الصوف معلقة في الهواء تمايل مع الريح ؛ والملائكة يمثلهم غلمان مرفوعون على قوائم من المعدن مخفية في أقمشة متماوجة هههافة . وكانت القصة نفسها شعراً في العادة ، تصحبها الموسيقى تعزف على الكمان أو العود ؛ وكان لورندسوده ميديتشي ، وپلتشي Pulci من بين الشعراء الذين كتبوا ألفاظ بعض هذه التمثيليات الدينية ؛ وجاء بوليتيان في مسرحية أورفيو Orfeo فكيف صيغة التمثيلية المقدسة كى تتفق مع الموضوعات الوثنية .

وكانت عناصر أخرى من الحياة الإيطالية تسهم في هذه الأثناء في مولد المسرحية الإيطالية . منها المسرحيات الهزلية farse التى كان يمثلها من زمن بعيد أفراد متنفلون في مدائن العصور الوسطى ، والتي تحتوى أصول المسلاة الإيطالية . وقد برع بعض ممثلها في ارتجال الحوار لمناظر القصص وحبكاتهما . وكان هذا الحوار وسيلة محببة لإظهار قدرة الإيطاليين على الهجاء والمجون . ومن هذه المهازل ظهرت الشخصيات الهازلة الساخرة في المسالى الشعبية واتخذت صورها وأسماءها المعروفة بها في تلك اللغة - الپنتالوني ، والأرلكينو ، والپلكنيلا أو الپنكىنلو(*)

وكان للكتاب الإنسانيين نصيبهم في العوامل المعقدة التى أدت إلى نشأة المسرحية ، وذلك بإعادة نصوص المسالى الرومانية القديمة والإعداد للتمثيل . وقد كشف هؤلاء اثنتى عشرة مسرحية لپلوتوس في عام ١٤٢٧ وكان اكتشافها حافزاً جديداً ، فمثلت في البندقية ، وفيرارا ، ومانتوا ، وأربينو ، وسينا ، ورومة مسالى لپلوتوس ، وترنس ، وانتقلت التقاليد الأدبية القديمة على مر القرون لتكون من جديد المسرحيات الدبوية . وفي عام ١٤٨٦

(١) Punchinello, Pu'chinella, Arlecchino, Pantalone. وتعنى كلها ضروباً

من المهرجين .

عرضت مسرحية ميناكمي Menaechmi تأليف پلوتوس للمرة الأولى في إيطاليا ، وبذلك مهد السبيل لمسرحية النهضة أتم التمهيد . ولما آذن القرن الخامس عشر بالرحيل فقدت المسرحية الدينية ما كان لها من سلطان على النظارة المتعلمين في إيطاليا ، وأخذت الموضوعات الوثنية تحل بالتدريج المطرد الزيادة محل الموضوعات الوثنية ؛ ولما أن ألف الكتاب الإيطاليون أمثال بيبينا Bibbiena ومكيفلي ، وأريستو ، وأريتينو مسرحياتهم ، كتبوها بأسلوب پلوتوس البدئي بعيدة كل البعد عن قصص مريم والمسيح التي كانت من قبل محبة للإيطاليين ؛ وعادت إلى الظهور في هذه المسالى الإيطالية جميع مناظر المسلاة الرومانية ، وجميع الحركات المصطنعة السطحية التي تدور حول الأخطاء الجنسية ، أو الخطأ في تمييز الأشخاص بعضهم من بعض ، أو في المراتب والطبقات . وظهرت في المسلاة كذلك جميع أنواع الشخصيات ، ومنها القوادون والعاهرات ، التي كان پلوتوس يَسُرُّ بها الطبقات الدنيا من النظارة ، وخشونة الطبقات السفلى القديمة واستهتارها .

ولم يكن للمأساة مكان ما فوق مسرح النهضة رغم احتفاظ هذا العصر بمسرحيات سنكا ، ورغم استكشاف المسرحيات اليونانية من جديد . ذلك أن أهل ذلك الوقت كانوا يفضلون المتعة والتسلية على الدرس العميق ، ولهذا كانوا ينظرون شزراً إلى مسرحية سوفونسبا Sophonisba (١٥١٥) لحيان ترسينو Gian Trissino ومسرحية روزا مندا Rosamunda لحيوفاي روتشلاي . وقد مثلت هذه المسرحية الأخيرة أمام ليو العاشر في فلورنس في ذلك العام نفسه .

وكان من سوء حظ المسلاة الإيطالية أنها تشكلت حين كانت أخلاق الإيطاليين في الحضيض . وإن قدرة مسرحية مثل كالندا Calanda تأليف بيبينا ، ومندراجولا Mandragola لمكيفلي ، على إشباع رغبات الطبقات

العليا من الإبطالين ، وملاءمتها لأذواقهم حتى في أربينوا المعروفة بركة أهلها ،
وإن تمثيلها أمام البابوات دون أن تثير أى احتجاج ، إن هذا وذاك ليدلنا
كيف تجتمع الحرية العقلية مع الانحطاط الخلقى . ولما قامت حركة الإصلاح
المعارضة بعد انعقاد مجلس ترنت Trent (١٥٤٥ وما بعدها) ، وجه أشد
النقد إلى أخلاق رجال الدين والدنيا على السواء ، ومحيت مسلاة النهضة .
فلم يعد لها مكان في تسلية المجتمع الإيطالى :

الفصل العاشر

الموسيقى

لقد كان من المظاهر التي أنقذت المسلاة الإيطالية أن الرقص التمثيلي ،
والمسرحيات الصامتة ، والعزف الموسيقى الجماعي كانت تعرض كلها بين الفصول ،
ذلك أن الموسيقى كانت عند الإيطاليين — بعد العشق — أهم أنواع التسلية
والساوى عند كل طبقة من طبقات المجتمع في إيطاليا . يدلنا على ذلك أن
مونتاني وهو مسافر في تسكانيا عام ١٥٨١ قد « أدهشه أن يرى الفلاحين وفي
أيديهم الأعواد وإلى جانبهم الرعاة ينشدون قصائد أريستو عن ظهر قلب » ،
ولكن هذا ، كما يقول بعدئذ ، « هو الذي نستطيع أن نشاهده في جميع أنحاء
إيطاليا » (٩٦) . وقد حفظ لنا فن التصوير في عهد النهضة ألف صورة
بصورة لأشخاص يعزفون على الآلات الموسيقية من الملائكة العازفين على
العود عند قدمي العذراء في كثير من الصور التي تمثل منظر التتويج ، إلى الملائكة
الصغار المنشدين في صور ميلتسو Melzzo ، إلى نشوة الرجل العازف على
لقيثارة في صورة الحفلة الموسيقية . وما أروع صورة الغلام — الذي يصعب
علينا أن نعتقد أنه هو المصور نفسه — في وسط صورة أممار الإنسان الثلاثة
لسيباستيانو دل بيومبو Sebastiano del Piombo ، كذلك تنقل لنا الكتب
التي ألقت في ذلك العصر صورة لشعب يغنى أو يعزف على الآلات الموسيقية
في منزله ، وفي أثناء عمله ، وفي الشارع ، وفي المجامع الموسيقية ، وأديرة
الرجال والنساء ، والكنائس ، والمواكب ، والمقنعات ، ومواكب النصر ،
والاستعراض ، والمسرحيات الدينية والدنيوية ، وفي الفقرات الغنائية ، وفيما بين
الفصول في المسرحيات ، وفي الرحلات الخلوية كالتى تصورها بوكاتشيو

في كتابه ديكامرون Decameron ، وكان الأثرياء يحتفظون في بيوتهم بطائفة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنواع ، وكانوا ينظمون فيها حفلات موسيقية خاصة . أما النساء فكان ينشئن النوادي لدراسة الموسيقى ولممارستها ، وتصارى القول أن إيطاليا كانت — ولا تزال — تجن جنونا بالموسيقى .

وازدهرت الأغاني الشعبية في كل وقت من الأوقات ، ومن هذا المعين الذي لا ينضب كانت الموسيقى العلمية تستمد من آن إلى آن ما ينعشها ويبعث الحياة فيها . فكانت النغمات الشعبية تكيف حتى تتفق مع القصائد الغزلية المعقدة ، ومع الترانيم ، وحتى مع القطع الموسيقية التي تعزف في الكنائس في ساعات القداس . وفي « فلورنس » ، كما يقول تشيليني ، « كان من عادة الأهلين أن يلتقوا في الشوارع العامة في ليالي الصيف » ليغنوا ويرقصوا^(١٠٠) . وكان مغنو الشوارع أو الميادين — Cantori di Piazza — يوقعون ألحانهم الحزينة أو المرححة على أعواد جميلة ، كما كان السكان يجتمعون ليغنوا أناشيد المديح للعدراء عند أضرحتها المقامة في الشوارع أو على جوانب الطرق ؛ وفي مدينة البندقية كانت أغاني العرس تصعد إلى قمر السماء من مئات قوارب الزهرة ، أو ترتفع من حناجر العشاق الذين يتغزلون في حبيباتهم في ظلمات الليل على ضفاف القنوات الملتوية . ويكاد كل إيطالي في ذلك الوقت يستطيع الغناء ، كما يكاد كل إيطالي يستطيع التغنى بعبارات بسيطة متوافقة . وقد وصلتنا مئات من هذه الأغاني الشعبية المسماة بذلك الاسم الجميل فروتولي Frottole أى الفاكهة الصغيرة ؛ وهي في العادة قصيدة غزلية ، أهم أصواتها السبران (أعلى الأصوات) وإلى جانبه العران ، والرخيم ، والصور^(*) . وبينما كان الصوت الرخيم في القرون الحالية هو المسيطر على النغم ولذلك وصف به ، فقد أصبحت للسبران — أعلى الأصوات — السيطرة عليه في القرن الخامس عشر ، وقد سمي بهذا

(*) أصوات موسيقية مختلفة .

الاسم Soprano لأن علاماته الموسيقية كانت تكتب فوق سائر العلامات ، ولم يكن هذا الجزء من الغناء في حاجة إلى صوت النساء ، فقد كان كثيراً ما يغنيه غلام أو كان هو الصوت النشاز falsetto من رجل كهمل (ولم يظهر الغلمان المخصيون بين المذنبين لدى البابوات قبل عام ١٥٦٢) (١٠١) .

وكان قدر كبير من العلم بالموسيقى يطلب إلى أفراد الطبقة المتعلمة ، فكان كستجليوني مثلاً يتطلب إلى رسوله أو رجله المذهب أن يكون من هواة الموسيقى وأن يبرع فيها إلى حد ما لأنها « لا تجعل عقول الرجال حاوة فحسب ، بل إنها في كثير من الأحيان تبذل الوحوش إلى حيوانات مستأنسة . أليفة » (١٠٢) . وكان ينتظر من كل شخص مثقف أن يقرأ الموسيقى البسيطة بمجرد النظر إليها ، وأن يعزف على آلة ما وهو يغنى ، وأن يشترك في أية حفلة موسيقية دون سابق استعداد (١٠٣) . وكان الأهالي في بعض الأحيان يقيمون حفلات تجمع بين الغناء ، والرقص ، والعزف على الآلات الموسيقية . وكانت الجامعات بعد عام ١٤٠٠ تقدم للطلاب برامج موسيقية وتمنح فيها درجات علمية ؛ وكان في إيطاليا مئات من الجامعات الموسيقية ؛ وأسس فثورينو دافلترى بحوالى عام ١٤٢٥ مدرسة لتعليم الموسيقى في مانتوا ؛ ولفظ كنسيرفتورى Conservatory الذى يطلق على المعاهد الموسيقية في هذه الأيام يرجع في الأصل إلى لفظ كنسيرفتورى (Conservatori) أى الملاجئ ، لأن الملاجئ في نابلى كانت تتخذ أيضاً مدارس لتعليم الموسيقى (١٠٤) . وكان مما ساعد على انتشار الموسيقى غير ما سبق استخدام فن الطباعة في طبع العلامات الموسيقية ؛ فقد حدث بحوالى عام ١٤٧٦ أن طبع أريخ هاهن Ulrich Hahn في رومة كتاباً كاملاً للصلاوات بالعلامات الموسيقية المتنقلة والسطور ؛ وفي عام ١٥٠١ بدأ أتافيانو دى بيتروتشى Ottaviano Petrucci في البندقية أعمال الطباعة التجارية للأناشيد الدينية « والفأكة الصغيرة » .

وفي بلاط الملك والأمراء كانت الموسيقى أبرز الفنون عدا فنون الزينة

الشخصية والأناقة . فقد كان الحاكم يختار عادة كنيسة محبة له ، ويجعل
المرنمين فيها موضع عنايته ، ويتفق المال بسخاء ليجذب إليها أجمل الأصوات
وأحسن الآلات من إيطاليا ، وفرنسا ، وبرغندية ، فكان يدرّب المغنين
الجدد منذ طفولتهم كما فعل فيدريجو في أرينو ، وكان ينتظر من أفراد
المرنمين أن يقيموا للدولة حفلات غنائية ولبلاطه أعياداً من حين إلى حين .
وقد ظل جويوم دوفاي Guillaume Dufay من أهل برغندية يشرف
على الموسيقى في قصور آل مالانستا في ريمينى وبيزارو وفي معبد البابا في
رومة نحو ربع قرن (١٤١٩ - ١٤٤٤) . ونظم جالياتسو ماريا اسفوردسا
Galeazzo Maria Sforzo حوالى عام ١٤٦٠ جماعة من المرنمين الدينيين ، وجاء
إليهم من فرنسا بچوسكان دبريه Josquin Deprès الذى كان وقتئذ أشهر
المؤلفين جميعاً في أوربا الغربية . ولما احتفى لودفيكو اسفوردسا بليوناردو في
ميلان كان احتفاؤه به بوصفه موسيقياً ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن
ليوناردو اصطحب معه في سفره من فلورنس إلى ميلان أطلانطى مجليورتي
Allante Migliorotti وهو موسيقى ذائع الصيت وصانع آلات موسيقية .
وأشهر من أطلانطى هذا نى صناعة القيثارة ، والعود ، والأرغن ،
والبيان البدائى ، لورندسو جوسناسكو Lorenzo Gussasco من أهل
پافيا الذى اتخذ ميلان كغيرها من المدن موطناً له . وكان بلاط لودفيكو
يموج بالمغنين نذكر منهم نارتشسو Narcisso وتبستاجرسا Testagrossa
وكودير Cordier من أهل فلاندرز ، وكوستوفورو رومانو Cristoforo
Romano الذى أحبته بيتريس حباً طاهراً عفيفاً . وكان بدرو ماريا
Pedro Maria الأسباني يقود الحفلات الموسيقية في القصر وحفلات الجماهير ،
وأنشأ فرنكشيتو جافورى Franchino Gaffuri مدرسة خاصة ذائعة الصيت
في ميلان واشتغل فيها بتعليم الموسيقى . وكانت إزبلا دست مرلعة أشد الولع
بالموسيقى ؛ واتخذتها أهم موضوع لزخرفة حجرتها الداخلية الخاصة ،

وكانت هي نفسها تعزف على عدة آلات . ولما أن أمرت بإحضار بيان بدائي من لورندسو جوسناسكو اشترطت أن تستجيب لوحة المفاتيح للمس الخفيف ، « لأن يديها رقيقتان إلى حد لا تستطيع معه أن تجيد العزف إذا كانت المفاتيح جامدة » (١٠٥) . وكان يعيش في بلاطها أشهر عازف على العود في زمانه ، وهو ماركتو كارا Marchetto Cara ، كما كان يعيش فيه بارتوليميو ترميبونتشينو Bartolomeo Tromboncino الذي ألف أغاني غزلية بلغ من روعتها وإعجاب الناس بها وبه أنه حين قتل زوجته الحائلة ، لم يوقع عليه عقاب ما ومرت المسألة كأنها خلاف لا يلبث أن يزول .

وآخر ما نذكره من هذا التبيل أن الموسيقى كانت تتردد أصداؤها في الكندراثيات والكنائس وفي أديرة الرجال والنساء ، وكانت الراهبات في البندقية ، وبولونيا ، ونابلي ، وميلان يتشدن في صلوات المساء ترانيم يبلغ من تأثيرها أن الجموع كانت تهرع من كافة الأنحاء لسماعها . وقد نظم سكستس الرابع جوقة المرنمين في معبد سستيني ، وأضاف يوليوس الثاني إلى المرنمين في كنيسة القديس بطرس جوقة خاصة منهم تدرب المغنين وتعدهم للانضمام لمرنمي معبد سستيني . وكان هذا ذروة الموسيقى في العالم اللاتيني في عهد النهضة . وأقبل على هذه الجماعة أعظم المغنين من جميع البلاد التي تدين بالمدح الكاثوليكي الروماني . وكان الغناء البسيط لا يزال هو الذي يفرضه القانون

على الموسيقى الكنسية ، ولكن النهم الجديد Ars nova الفرنسي - وهو فن معتمد معارض له - كان يتسلل إلى جماعات المرنمين في الكنائس الرومانية ويمهد السبيل لپالسترينا Palestrina وفيكنتوريا . وكان الاعتقاد السائد في وقت من الأوقات أن ليس من الكرامة أن يصحب الترنيم في الكنيسة من الآلات الموسيقية إلا الأرغن ، ولكن عدداً من الآلات المختلفة أدخل إلى الكنائس في القرن السادس عشر لكي تخلع على الموسيقى الكنسية بعض الروعة والجمال اللذين تمتاز بهما الموسيقى غير الدينية . وظل الأستاذ الفلمنكي أدريان

ولا إيرت Adrian Willaert من أهل بروج Bruges . يرأس فرقة
المرنمين في كنيسة القديس مرقص بالبندقية خمسة وثلاثين عاماً درب أفرادها
فيها تدريباً حسنتهم عليه رومة . وفي فلونس نظم أنطونيو اسكوارتشيا بولي
مدرسة موسيقية كان لورندسو عضواً فيها . وظل أنطونيو جيلا كاملا
يسيطر على فرقة المرنمين في الكتدرائية العظيمة تردد النغمات التي أسكتت
صوت كل شك فلسفي . يدلنا على ذلك أن ليون بانستا ألبرتي Leon Battista
Alberti كان من المتشككين حتى إذا غنت الفرقة صدق وآمن وقال :

« إن جميع أنواع الغناء الأخرى تمل بالتكرار ، أما الموسيقى الدينية
وحدها فلا تمل . ولست أعلم مبلغ تأثير غيرى بهذه النغمات ، أما أنا فإن
هذه الترانيم والمزامير التي أستمع إليها في الكنيسة تحدث في ذلك الأثر الذي
وضعت من أجله ، فتهدي من جميع اضطرابات النفس ، وتبعث في شيئاً
من الفتور الذي تعجز الألفاظ عن وضعه ، وتملأ قلبي إجلالا للمخالق
جل وعلا . وأي قلب قد بلغ من القسوة درجة لا يلبس معها إذا سمع ذلك
الارتفاع والانخفاض المتزن المتناسق في الأصوات الكاملة الحقبة بتلك النغمات
العذبة اللينة ؟ وأؤكد لكم أنني ما استمعت فقط . . . إلى النغمين اليونانيين
كبرى إيسوره (ارحمنا يارب) اللذين يدعوان الله إلى أن يقينا شر بوئسنا
البشرى إلا انهجر الدمع من عيني . . وفي تلك اللحظة أفكر كذلك في مبلغ ما
للموسيقى من قدرة على تهدئتنا والترفيه عنا » (١٠٦) .

بيد أن الموسيقى ، رغم هذا الانتشار الواسع ، كانت هي الفن الوحيد
الذي تأخرت فيه إيطاليا عن فرنسا في الجزء الأكبر من عهد النهضة .
ذلك أن إيطاليا قد أثر فيها انتقال البابوات إلى أفنيون فحرمها من الموارد
المالية البابوية ، ولم يكن بلاط الأمراء المستبدين في القرن الرابع عشر قد بلغ
درجة كبيرة من النضوج الثقافي ، ومن أجل هذا كان يعوزها المال والروح
اللذان لا غنى عنهما للدرجات العليا من الموسيقى . نعم إنها أخرجت أغاني

غزلية جميلة (يسمونها مدرجال Madrigal وهي كلمة لا يعرف اشتقاقها على وجه التحقيق) ، ولكن هذه الأغاني التي صيغت على غرار أغاني شعراء الفروسية الغزلين البروفنساليين كانت تلحن تلحيناً جامداً منتظماً متعدد النغمات فلم تلبث أن قضى عليها جمودها .

وكان فخر الموسيقى في القرن الرابع عشر في إيطاليا هو فرانتشيسكو لانديني Francesco Landini ، العازف على الأرغن ولسان لورندسو في فلورنس . وقد فقد هذا الفنان بصره منذ طفولته ، ولكنه أصبح رغم ذلك أظرف الموسيقيين وأحبهم إلى الشعب في زمنه ، وقد برع في العزف على الأرغن ، والعود ، وفي تأليف الأغاني ، وقول الشعر ، وفي الفلسفة . ولكن هذا الرجل نفسه أخذ الفن أولاً عن فرنسا ، فقد طبق في قطعه الموسيقية المديونية التي ألفها ، والبالغ عددها مائتي قطعة ، الفن الحديد الذي استهوى فرنسا قبل تلك الأيام بجيل من الزمان . وكان هذا « الفن الحديد » جديداً جادة مزدوجة : فقد قبل الإيقاع الثنائي كما قبل التوقيت الثلاثي الذي كانت تنطابه من قبل موسيقى الكنائس . وابتكرت له علامات موسيقية كثيرة التعقيد والمرونة . ووجه البابا يوحنا الثاني والعشرون الذي كان يصب صواعقه في جميع الاتجاهات ، وجه هذا البابا إحدى تلك الصواعق على الفن الجديد ورماه بأنه خيال ووهم ومنحط ، وكان لتحريره إياه بعض الأثر في الحيلولة دون تقدم الموسيقى في إيطاليا . على أن يوحنا الثاني والعشرين لم يكن مخلاً ، وإن كان قد بدا للناس في بعض الأوقات أن هذا قد يكون ؛ فلما قضى نحبه في سن التسعين (١٣٣٤) ، انتصر الفن الحديد في موسيقى فرنسا ، وأعقب هذا انتصاره أيضاً في إيطاليا .

وكان المغنون والمؤلفون الفرنسيون والفلمنكيون يولفون فرق المرمين البابوية في أفنيوزة . فلما أن عادت البابوية إلى رومة جاءت معها بعدد كبير من المؤلفين والمغنين الفرنسيين ، والفلمنكيين ، والهولنديين ، وظل هؤلاء

الموسيقيون الأجانب وخلفاؤهم قرناً من الزمان المسيطرين على الموسيقى الإيطالية : وظل المغنون في الفرق البابوية حتى زمن سكستس الرابع يفدون إلى إيطاليا من وراء جبال الألب ، كذلك سيطرت الأصوات الأجنبية على موسيقى البلاط في القرن الخامس عشر . من ذلك أنه لما مات اسكوارتشياوني Squarcialuni (حوالى عام ١٤٧٥) اختار لورندسو رجلا هولندياً هو هنريخ اسحق Henrich Ysaac ليخلفه في العزف على الأرغن بكتدرائية فلورنس . وكان هنريخ هو الذى وضع الألحان الموسيقية لبعض أغاني المساخر ، ولبعض أغاني بولتيان ، وهو الذى علم الرجل الذى أصبح فيما بعد ليو العاشر أن يحب الأغاني الفرنسية — بل أن يؤلف بعضها (١٠٧) . وظلت الأغاني الفرنسية وقتاً ما تغنى في إيطاليا ، كما كانت تصائد شعراء الفروسية : الغزولين تغنى فيها وقتاً ما .

وأثمر غزو الموسيقيين الفرنسيين في إيطاليا ، وهو الذى سبق غزو الجيوش الفرنسية إياها بقرن من الزمان ، أثمر حوالى عام ١٥٢٠ انقلاباً تاماً في الموسيقى الإيطالية . ذاك أن أولئك الرجال القادمين من الشمال — والإيطاليين الذين دربوا على أيديهم — قد انغمروا في فيض الفن الجديد واستخدموه في تلحين الشعر الغنائى الإيطالى . وقد وجد هؤلاء عند پترارك ، وأريستو ، وستادسارو ، وبمبو — كما وجدوا بعدئذ في تاسو وجواريني — شعراً مطرباً يتحرق شوقاً للموسيقى . ألم يكن الشعر في الواقع يتطلب على الدوام أن ينلى إذا لم يكن يتطلب أن يغنى ؟ وكانت مقطوعات پترارك قد أغوت من قبل الموسيقيين ، أما الآن فقد لحن كل بيت منها ، ولحن بعض مقطوعاتها اثنتى عشرة مرة أو أكثر ، حتى لقد أصبح پترارك أكثر من لُحِّن له من الشعراء في الأدب العالمى . ولقد كانت هناك أغان صغيرة لا يعرف مؤلفوها ، ولكنها تعبر عن عواطف ساذجة ذات حيوية تمس شغاف كل قلب ، وتنادى أوتار كل آلة . انظر مثلاً إلى هذه الأغنية :

أبصرت فتيات حسناً يتفیان ظلال أشجار الصيف ،
ينسجن تيجاناً براءة وهن ينشدن أغاني الحب بصوت خفيض ،
وتستعير كل واحدة منهن من أختها أوراق الأشجار وأزهارها ؛
وفي خلال هذه الأخوة العذبة حولت
أجملهن عينها الناعستين نحوى وهمست قائلة : « خذ ! »
ووقفت مشدوها حائراً في الحب لم أنبس ببنت شفة ،
لكنها قرأت ما تنطوى عليه جوانحي وناولتني تاجها الجميل ؛
فأصبحت من أجل ذلك خادماً حتى الممات (١٠٨) .

وطبق المؤلفون على هذه الأشعار الموسيقى الدينية الكاملة المعقدة الكثيرة
الأنغام ذات الأربعة الأصوات - التي يغنيها أربعة أو ثمانية - المتساوية
القيمة التي تخضع فيها ثلاثة أصوات لصوت واحد . وجميع هذه النغمات
المعقدة الدقيقة المتسلسلة تجمع الأصوات الأربعة المستقلة في نغم متوافق
متألف . . وهكذا نشأت أغنية الحب في القرن السادس عشر فكانت من
أيتع أزهير الفن الإيطالي ، وبينما كانت الموسيقى في أيام دانتى خادمة للشعر ،
أضحت الآن بعد أن اكتمل نموها شريكة له على قدم المساواة ، لا تخفى
فيها الألفاظ ، ولا تخفى فيها العواطف بل تجمع بين هذه وتلك في ألحان
تزيد من قدرتها على استثارة النفس ، في الوقت الذي تبث بمهارتها الفنية
أسباب البهجة في عقول المتعلمين .

ووجه المؤلفون العظام في إيطاليا أثناء القرن التاسع عشر ، بما فهمهم
بالإسترينا نفسه ، وجهوا كلهم تقريباً فهم من آن إلى آن إلى القصائد
الغزلية . ويتنازع فيليب فيرديلو Philippe Verdelot ، وهو رجل فرنسى .
عاش في إيطاليا ، وقسطنديسا فيستا Quatanza Festa الإيطالي الموطن ، شرف
الأسبقية في تنمية هذه الصور الجديدة من صور الشعر بين عامي ١٥٢٠
و ١٥٣٠ . ثم جاء بعدهم بزمن قليل أركادلت Arcadelt وهو رجل فلمنكى

كان يعيش في رومة ، وذكره ربله في كتاباته (١٠٩) . وفي البندقية أعفى
أدريان ولايرت Adrian Willaert من واجباته بوصفه رئيس فرقة المرنمين
في كنيسة سان ماركو لكي يؤلف أجمل قصائد الغزل في أيامه .

وكانت القصيدة الغزلية تغنى عادة دون أن يصحبها عزف موسيقى على
الآلات . نعم إن الآلات الموسيقية كان يخطئها الحصر ، ولكن ما من
واحدة منها ، سوى الأرغن وحده ، كانت تجرؤ على أن تنافس الصوت
الآدمي . ولقد نشأت موسيقى الآلات نشأة بطيئة في أوائل القرن السادس
عشر ، وكانت نشأتها من صيغ موسيقية وضعت أولاً للرقص أو الغناء الجماعي ؛
وشكلاً نشأ البوان والسلطاريل والسرنييد^(٥) نشأة تدريجية من الرقص المصاحب
للغناء مع الآلات مفردة أو مجمعة ، وأضحت موسيقى الغزل التي تعزف
دون غناء هي الكانزوني التي نشأت منها السوناتة بعد زمن طويل (١١٠) ،
ومن ثم كانت هي منشأ السمفونية .

وكان الأرغن في القرن الرابع عشر قد وصل في تطوره ورقبه الدرجة
التي هو عليها الآن تقريباً ، فقد ظهرت لوحته الدواسة في ألمانيا والبلاد
الوطيئة في ذلك العهد ، وسرعان ما أدخلت في فرنسا وأسبانيا ، أما إيطاليا
فقد تأخرت في قبولها حتى القرن السادس عشر . وكانت الكثرة الغالبة من
الأراغن قد أصبح لها قبل ذلك الوقت لوحتان أو ثلاث لوحات من المفاتيح
وعدد مختلف من الوقفات والأجهزة التي يمكن بها استخدام عدة مفاتيح
في وقت واحد . وكانت الأراغن الكبرى في الكنائس نحفاً فنية في حد ذاتها
يقوم الأساتذة العظام بتصميمها ، وحفرها ، ونقشها . كذلك سرى حب
الجمال في الشكل إلى غير الأرغن من الآلات الموسيقية ، فالعود مثلاً
— وهو آلة البيت المحببة — كان يصنع من الخشب والعاج ، ويتخذ شكل
الكمثرى ، وتخرق فيه ثقب الصوت في نظام جميل . وكانت لوحة الأصابع
فيه تقسم بتقوش من الفضة أو الشبه ، وتنتهي بصندوق للأوتاد يصنع زاوية

(١) كلها مروب من الرقص وموسيقاه .

سخادة مع عنقه . وكانت فتاة جميلة تجذب أوتار العود الذى تحنو عليه فى حجرها فتتكون منه ومنها صورة جميلة يهوى إليها قلب كل إيطالى حساس . وكان الكثير من الآلات الموسيقية التى يعزف عليها بالأصابع هى الأخرى محبة جميلة .

أما الذين يفضلون العزف بالوتر على العزف بالأصابع فكان لهم أنواع مختلفة من الكمان الذى يمسك على الذراع والذى يتكىء على الساق . وقد تطور النوع الثانى حتى أصبح هو الكمان الجهير وأصبح الأول فى عام ١٥٤٠ هو الكمان الصغير . وكانت آلات النفخ أقل انتشاراً من الآلات الوترية ، ذلك أن عصر النهضة كان ييغض الموسيقى التى تحدث بانتفاخ الخلود . كما كان ييغضها القييادس اليونانى ؛ ومع هذا فقد وجد الناي ، والفيف ، والقربة ، والبوق ، والقرن ، والصفارة ، والشون ، والمزمار . وأضافت آلات الطرقي - الطبل ، والدف ، والصنوج ، والطنبور والصنوج الصغيرة التى تستعملها الراقصات - أضافت هذه الآلات ضجيجها إلى العازفين والسامعين . وكانت جميع الآلات الموسيقية فى عصر النهضة شرقية الأصل مما عدا لوحة المفاتيح التى أضيفت إلى غير الأرغن من الآلات للددق على الأوتار أو جذها بطريقة غير مباشرة . وأقدم هذه الآلات ذات لوحات المفاتيح هو البيان البدائى المسمى كلافيكورد Clavirchord (ومعنى كلافس هو المفتاح) ؛ وقد ظهرت هذه الآلة فى القرن الثانى عشر ، وكان للعاطفة شأن فى بعثها من جديد فى أيام باخ Bach ؛ وكانت أوتارها تدق بملامس نحاسية صغيرة تحركها المفاتيح . ثم حلت محلها فى القرن السادس عشر آلة الكلافيشمبالو Clavicembalo التى كانت أوتارها تجذب بريشة أو قطعة من الجلد متصلة برافعات خشبية ترتفع إذا ما ضغط على المفاتيح . وقد اتخذت هذه الآلة فى إنجلترا وإيطاليا صورتين مختلفتين سميت فى الأولى قيرجنال Virginal وفى الثانية الاسبينت Spinet .

وكانت هذه الآلات كلها حتى ذلك الوقت أقل شأنًا من الصوت

الآدمى ، ولذلك كان جميع الفنانين الفارمين فى عصر النهضة مغنين . لكننا نسمع فى وقت تعميد ألفنسو صاحب فيرارا فى عام ١٤٧٦ عن حفل فى قصر اسكفانيو Schifanio كانت فيه حفلة موسيقية اشترك فيها مائة من النافخين فى الأبواق والزمارين والضاربين على الطنبور . وفى القرن السادس استخدم مجلس السيادة فى فلورنس فرقة منتظمة من الموسيقيين كان منها تشلىنى . وكانت عدة آلات يعزف عليها فى ذلك العهد مجتمعة ، ولكن هذا النوع من الحفلات قد اختصت به القلة الأرستقراطية . أما العزف المفرد على الآلات فقد كان شائعاً إلى حد يشبه الحنون ، فلم يكن الناس يؤمنون الكنائس للصلاة على الدوام ، بل كانوا يؤمنونها فى كثير من الأحيان ليستمعوا إلى عازف شهير على الأرغن مثل اسكوارتشيا لوبى أو أوركانيا Orcagna . ولما أن عزف بيتر بونو Pietro Bono على العود فى بلاط يورسو بفيرازا طارت أرواح المستمعين ، على حد قولهم ، من هذه الدار إلى الدار الآخرة (١١٠) . وكان كبار العازفين من أسعد الناس وأحبهم إلى القلوب فى تلك الأيام ، ولم يكونوا يطلبون لأنفسهم حسن السمعة ممن يخلفونهم بل كانوا يحصلون على كل ما يطمعون فيه من الشهرة قبل مماتهم .

أما النظريات فى الموسيقى فقد تأخرت عن الأعمال بنحو جيل : ذلك أن العازفين كانوا يحددون ، أما الأساتذة فكانوا يرفضون ، ثم يجادلون ، ثم يوافقون . وفى هذه الأثناء صيغت مبادئ الكرصته (*) ، والنغمات المتعددة المشتركة ، والتسلسل الموسيقى ، لكى يسهل تعليم الموسيقى وانتقالها . لهذا لم تكن أعظم السمات الموسيقية فى عصر النهضة هى النظريات ، بل لم تكن التقدم الفنى للموسيقى ، بل كانت استجالاتها من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ، ولهذا لم تعد الموسيقى الدينية فى القرن السادس عشر هى التى تقدمت ، وأجريت عليها التجارب ، بل كان الذى تقدم وجرب هو موسيقى القصائد

(*) كثرت الأصوات وهو لفظ منحوت Polyphone . (المترجم)

الغزلية وموسيقى البلاط . ذلك أن الموسيقى الإيطالية في القرن السادس عشر خرجت من سيطرة الكنيسة كما خرج الأدب والفلسفة من هذه السيطرة ، وانعكست عليها السمات الوثنية لفن النهضة وما كان فيها من انحلال خالق ، وأحدثت الموسيقى تبحث عن إلهام لها في شعر الحب وانتهى النزاع القديم بين الدين والجنس إلى وقتاً بانتصار الحب . وذلك انقضى عصر العذراء وبدأ سلطان المرأة ، ولكن الموسيقى في كليهما كانت خادمة الملكة والمؤتمرة بأمرها .

الفصل الحادي عشر

نظرة شاملة

تُرى هل كانت أخلاق إيطاليا في عصر النهضة أسوأ من أخلاق غيرها من البلاد أو العصور؟ إن المقارنة بين الأمور العسيرة ، لأن الشواهد كلها محض اختيار . فعصر القبياس في أثينا مثلاً يكشف عن كثير مما في عصر النهضة من فساد في العلاقات الجنسية والمماحكات السياسية ، ففيه أيضاً كان يحدث الإجهاض على نطاق واسع ، وفيه اتسع المجال للعاهرات المثقفات المتأدبات ؛ وفيه أيضاً تحررت العقول والفرائض في وقت واحد ، وفيه استبق السوفسطائيون أمثال سقراط وبولوس في جمهورية أفلاطون مكيفلي إلى مهاجمة الفضائل ووصفوها بأنها من سمات الضعف ، ولربما كان العنف الفردي في بلاد اليونان القديمة أقل منه في إيطاليا على عهد النهضة ، كما كان الفساد في الدين والسياسة عند اليونان أقل بعض الشيء منه في إيطاليا (ونقول ربما حامدين لأننا في هذه المسائل إنما نعتمد على ما ينطبع في عقولنا لا على ما نجزم به واثقين) . وكذلك الحال في أيام الرومان الأقدمين ؛ ففي قرن كامل في تاريخ الرومان - من عهد قيصر إلى عهد نيرون - نجد الفساد في الحكم ، والانحلال في عقدة الزواج أكثر منهما في عهد النهضة ؛ ولكن كثيراً من الفضائل الرواقية قد بقيت في أخلاق الرومان حتى في ذلك العصر الفاسد نفسه ، فقد كان قيصر ، رغم ما يتصف به من قدرة على الجمع بين الضدين في الرشوة والحب ، أعظم القواد في أمة كل رجالها قواد عظام .

وكانت النزعة الانفرادية في عصر النهضة ناحية أخرى من نواحي حيويتها ونشاطها ، ولكنها لا تضارع في الناحيتين الخلقية والسياسية ما كانت عليه النزعة الاستقلالية في مدن العصور الوسطى ، وأكبر الظن أن الخداع والغدر

والجريمة لم تكن في فرنسا ، وألمانيا وإنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أقل مما كانت في إيطاليا ؛ ولكن هذه الأقطار قد أوتيت من الحكمة والحصافة ما حال بينها وبين إخراج رجل مثل مكيفلي لينشر مبادئها السياسية ويعرضه على الأنظار . لقد كانت العادات والآداب العامة لا المبادئ الأخلاقية أكثر فظاظة وغلظة في شمال جبال الألب منها في جنوبها ، إذا استثنينا من هذا الحكم طبقة صغيرة في فرنسا - يمثلها الفارس الشهيم بايار Bayard وجاستن ده فوا Gaston de Foix - كانت لا تزال تحتفظ بالناحية الطيبة من نظام الفروسية . لكن الفرنسيين إذا ما أتاحت لهم الفرص التي أتاحت للإيطاليين لم يكونوا أقل منهم انهماكاً في الزنا ؛ وما على القارئ إلا أن يتذكر كيف انتشر داء الزهري بينهم انتشاراً سريعاً ، أو أن يلاحظ الاختلاط الجنسي التي تصفه لنا الأساطير الشعرية ، أو يحصى العاشقات الأربع والعشرين اللاتي كان يستمتع بهن فليب دوق برغندية ، ويتذكر أنييه سورل Agnel Sorels وديان ده بواتيه Dienes de Poitiers من حاشية ملوك فرنسا ؛ أو فليقرأ ما كتبه في ذلك برانتوم Brantome ..

وإذا كانت ألمانيا وإنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تضارعا إيطاليا في الفساد الخلقي فقد كان منشأ ذلك فقر هذين البلدين . ولهذا فإن من جاءوا منهما إلى إيطاليا قد ذهبا مما شاهدوا في الحياة الإيطالية من انحلال في الأخلاق . ولما زار لوثر إيطاليا في عام ١٥١١ قال من فوره إنه « إذا كان هناك جحيم ، فإن رومة قد بنيت من فوقه ؛ وهذا ما سمعته في رومة نفسها » (١١) . وليس منا من لم يعرف الحكم الصارم الذي نطق به في ذهوله روجر آسكم Roger Ascham العالم الإنجليزي الذي زار إيطاليا حوالي عام ١٥٥٠ :

« لقد كنت يوماً ما في إيطاليا نفسها ، ولكنني أحمد الله إذ لم أقم فيها إلا تسعة أيام ؛ ومع هذا فإنني شاهدت في هذا الزمن القصير ، وفي مدينة

واحدة ، من الانغماس في الذنوب والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته يقال في تسعة أيام عن بلدتنا النبيلة لندن . لقد رأيت هناك أن في مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ودون أن يهتم بخطايا أي إنسان ، وقد أوتي من الحرية في ارتكابها بقدر ما أوتي ساكن لندن من حرية في أن يختار دون لوم أن يلبس حذاء أو خفاً (١١٢) .

وهو يورد من الأمثال السائرة قولهم « إن الإنجليزى المتطلين هو الشيطان المجسد » .

ولما نعرف عن فساد إيطاليا أكثر مما نعرفه عن فساد ما وراء الألب لأننا نعرف عن الأولى أكثر مما نعرف عن الثانية ، ولأن غير رجال الدين من الإيطاليين لم يحاولوا قط أن يخفوا فسادهم ، بل إنهم في بعض الأحيان ألفوا الكتب للدفاع عن هذا الفساد . على أننا نعود فنقول إن مكيفلى الذى ألف كتاباً من هذا النوع كان يرى أن إيطاليا « أكثر فساد من كل ما عداها من الأقطار ، ثم يليها في ذلك الفرنسيون ثم الأسبان » (١١٣) . وكان يعجب بالألمان والسويسريين ويقول إنهم لا يزالون يتصفون بكثير من فضائل الرجولة التى كانت لأهل رومة القديمة . وفي وسعنا أن نقول بشيء من الحذر والتردد إن إيطاليا كانت أكثر من غيرها فساداً لأنها كانت أكثر ثراء ، وأضعف حكماً ، وأقل خضوعاً لسلطان القانون ، وإنها كانت أكثر رقياً في ذلك التطور الذهني الذى يؤدى في العادة إلى التحلل من القيود الأخلاقية .

ولقد بذل الإيطاليون جهوداً مشكورة في مقاومة ذلك الانحلال . وكانت أقل هذه الجهود ثمرة هي قواعد النفقات التى وضعت في الدول الإيطالية كلها تقريباً والتي كانت تحرم الإسراف في الإنفاق على الملابس المتبرجة ، غير ما كان يتصف به الرجال والنساء من زهو وخيلاء كان أقوى من قوة القانون . وكان البابوات ينددون بالفساد الخلقي ، ولكن

التيار القوي كان يجرفهم معه في بعض الأحيان ، وكانت المحاولات التي يبذلونها لإصلاح مفاسد الكنيسة يحول دون نجاحها عدم رغبة الكهنة في الإقلاع عن عاداتهم السيئة أو محافظتهم على مصالحهم المكتسبة . على أنهم هم أنفسهم لم يبلغوا من الفساد المبلغ الذي يصورهم به المؤرخون المغالون ، غير أنهم كانوا أكثر اهتماماً بإعادة سلطان البابوية السياسي منهم بإعادة صلاح الكنيسة الأخلاقي . وفي ذلك يقول جوتشيارديني : « إن الحبر الأعظم ليوصف بالصالح ويمتدح إذا لم يكن أكثر شراً من غيره من الناس » (١١٤) . ولقد بذل وعاظ ذلك العصر العظام جهوداً جبارة لإصلاح ذلك الفساد ، ونذكر منهم على سبيل المثال القديس برناردينو السينائي ، وروبرتو دا ليشو Roberto da Lecce ، وسان جيوفاني دا كاستراتوا ، وسفرولا . ولقد كانت عظاتهم ، وكان مستمعوهم ، جزءاً من لون ذلك العصر وطبيعته . فقد كانوا ينددون بالرديلة بأقوال مفصلة واضحة ، أذاعت بين الناس شهرتهم وجذبت إليهم القلوب ؛ وقد أقنعوا رجال الإقطاع بالتخلي عن عادة الأخذ بالثأر ، وبالعيش في وئام وسلام ، وحلوا الحكومات على أن تطلق سراح المدينين المقلسين ، وتسمح للمنفقين بأن يعودوا إلى أوطانهم آمنين ؛ وعادوا بالآثمين الذين قست قلوبهم من الذنوب إلى ما أهملوه من الصلاة ومن مراعاة لقواعد الدين .

غير أن هؤلاء الوعاظ الأقوياء أنفسهم قد أخفقوا فيما كانوا يبتغون ؛ فقد عادت إلى الظهور تلك الغرائز التي تكونت خلال مائة ألف عام قضاها الإنسان صياداً متوحشاً ، حين خرجت من قشرة الأخلاق التي تشققت بعد أن فقدت تأييد العقيدة الدينية واحترام السلطة العليا والقانون الثابت المقرر . ولم يعد في مقدور الكنيسة التي كانت من قبل تحكم الملوك أن تحكم أو تطهر نفسها . وكان انهيار الحرية السياسية في دولة إثر دولة قد ثلم حدة الشعور الوطني الذي بث روح الحرية والنبل في حكومات مدن العصور الوسطى

المستقلة ؛ فلم نعد نرى إلا أفراداً بعد أن كنا نرى مواطنين . ووجد أولئك الأفراد أنفسهم محرومين من الاشتراك في حكم بلادهم ، وبأيديهم ثروة ضخمة ، فاتجهوا إلى طلب اللذات ، حتى إذا دهمهم الغزو الأجنبي وجدهم في أحضان العاهرات . وقد ظلت دول المدن قرنين من الزمان توجه قواتها ، وحذقها ، ودهاءها ، وغدرها ، بعضها نحو بعض ، حتى أصبح مستحيلاً عليها أن تضم شملها للوقوف أمام عدوها مشترك . ولما أخفق الوعاظ أمثال سفرولا في كل ما لجأوا إليه من وسائل لإصلاح الحال ، أخذوا يدعون الله ليصب جام غضبه على إيطاليا ، وتنبأوا بأن رومة سيحرق بها الخراب ، وأن الكنيسة ستتحطم وتنبدد (١١٥) . وملت فرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا إرسال الحراج لسد نفقات الحروب التي تشنها الولايات البابوية . وتحمكين الإيطاليين من أن يحيا حياتهم المترفة ، وأخذوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى شبه الجزيرة التي فقدت إرادتها وجردت من سلطانها ، والتي تستهوى القلوب بجمالها وثراتها . وتجمعت الطيور الجارحة وأخذت تحلق في سماء إيطاليا توشك أنه تنقض عليها لتشيع منها نهمها .

الباب الحادى والعشرون

الانهيار السياسى

١٤٩٤ - ١٥٣٤

الفصل الأول

فرنسا تكشف إيطاليا ١٤٩٤ - ١٤٩٥

نعود بالقارئ إلى الموقف فى إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . لقد نشأت قبل ذلك العام دول المدن بفضل قيام طبقة وسطى من السكان أثرت من اشتغالها بأعمال التجارة والصناعة التى اتسع نطاقها . وكانت هذه المدن قد فقدت استقلالها الذاتى وحريتها لعجز حكوماتها شبه الديمقراطية عن حفظ النظام بسبب التقاتل بين الأسر والنزاع بين الطبقات . وبقيت اقتصادياتها عملية فى تكوينها حتى فى الوقت الذى وصلت فيه أساطيلها وغلاتها إلى الثغور النائية . وكان بعضها ينافس البعض الآخر أشد مما ينافس الدول الأجنبية ، ولم تضم فى يوم ما صفوفها لتقاوم مجتمعة توسع الفرنسيين ، والألمان ، والأسبان التجارى فى الأقاليم التى كانت تسيطر عليها المدن الإيطالية من قبل . ومع أن إيطاليا هى التى أنجبت الرجل الذى أعاد كشف أمريكا ، فإن أسبانيا هى التى أمدته بالمال ؛ واقتفت التجارة خطاه ، وصحب الذهب عودته ، وازدهرت الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى ، ولم يعد البحر المتوسط الموطن المحب لحياة الرجل الأبيض الاقتصادية ؛ وأخذت البرتغال تسير السفن إلى

الهند والصين حول قارة إفريقية ، وتتجنب العراقيل التي توضع في طريقها في بلاد الشرق الأدنى والأوسط ؛ وحتى الألمان أخذوا يسفرون سفنهم من مصاب نهر الرين بدل أن ينقلوا متاجرهم فوق جبال الألب في إيطاليا . وأخذت الأقطار التي ظلت قرناً من الزمان تبتاع منسوجات إيطاليا الصوفية تنسج هي أصوافها ، كما أخذت الأمم التي تؤدي أرباح الأموال إلى المصارف الإيطالية تنمي هي مواردها المالية ، وأضحت الزكاة ، والمرتببات الأولى للمناصب الكنسية التي من حق الكنيسة ، وبنسات بطرس(*) وأثمان صكوك الغفران ، ونقود الحجاج ، أصبحت هذه أهم ما تؤديه إلى إيطاليا البلدان الأوربية الواقعة وراء الألب ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى حول ثلث أوربا مجرى هذا المال ؛ ولهذا حدث في ذلك الجيل الذي رفعت فيه الثروة المخزنة في إيطاليا مدنها إلى ذروة مجدها وعلا فيها شأن فنونها ، نقول إنه في هذا الجيل نفسه قضى فيه على مركز إيطاليا الاقتصادي

ونختم في ذلك الوقت عينه على مصيرها السياسي ، فبينما كانت هي منقسمة إلى نظم اقتصادية متعادلة ودول سياسية متخاربة ، كان تطور الاقتصاد القومي في غيرها من المجتمعات الأوربية برغم هذه المجتمعات على الانتقال من عهد الإمارات الإقطاعية إلى عهد الدول الملكية ، ويقدم المال اللازم لهذا الانتقال . ففي ذلك الوقت توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادي عشر ، وأخضعت باروناتها فجعلتهم حاشية للملوك ، وجعلت من سكان مدنها رجالاً عامرة قلوبهم بالروح الوطنية . واتحدت أسبانيا بزواج فرديناند صاحب أرغونة من إزبلا ملكة قشتالة ، وفتحت غرناطة ، ومكنت بدماء أهلها وحدتها الدينية . كذلك توحدت إنجلترا تحت حكم هنري السابع ،

(*) ضريبة قديمة مقدارها بنس كان يؤديها كل صاحب بيت في إنجلترا إلى الكرسي البابوي ثم أصبحت بعد عام ١٨٦٠ ضريبة اختيارية يؤديها أتباع المذهب الكاثوليكي الروماني إلى هذا الكرسي . (المترجم)

ومع أن ألمانيا لم تكن أقل تشتتاً وانقساماً من إيطاليا ، فإنها كانت تعترف بالسيادة للملك واحد وإمبراطور ، وتمده أحياناً بالمال والجند ليحارب بهما هذه الدولة الإيطالية أو تلك . ثم إن إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا أنشأت جيوشاً قومية من أهلها ، وأمدتها أشرافها بالفرسان والقادة . أما المدن الإيطالية فلم تكن لها إلا قوات صغيرة من الجنود المرتزقة لا هم لها إلا السلب والنهب ، يتولى قيادتها زعماء مغامرون أبغض الأشياء إليهم أن يصابوا بجروح قاتلة . وكانت معركة واحدة كافية لأن تكشف لأوروبا ضعف إيطاليا وعجزها عن الدفاع عن نفسها .

وكان نصف بيوت المالكين في أوروبا يزخر وقتئذ بالدسائس الدبلوماسية يريد كل واحد منها أن يحرز قصب السبق في الاستيلاء على الغنيمة . ونادت فرنسا بأنها صاحبة الحق الأول ، لأسباب كثيرة ، منها أن جيان جاليدسو نسكونتي قد زوج ابنته فالنتينا (١٣٨٧) من لويس أول دوق لأورليان ، وكان ثمن هذه الصلة الطيبة المريحة بأسرة مالكة هو اعترافه بحقها وبحق الذكور من أبنائها في أن يرثوا دوقية ميلان إذا لم يكن له وريث ذكر من صلبه ؛ وتم ذلك فعلاً حين توفي فيليبو ماريا فسكونتي (١٤٤٧) . فاستولى صهره فرانتشيسكو اسفوردسا حينئذ على ميلان بدعوى أنها من حق زوجته ببيانكا ابنة فيليبو ماريا ؛ ولكن شارل دوق أورليان طالب بعرش ميلان بوصفه ابن فالنتينا ، ونادى بأن آل اسفوردسا مغتصبون ، وأعلن تصميمه على الاستيلاء على الإمارة الإيطالية إذا ما حانت له الفرصة .

وفضلاً عن هذا فإن شارل دوق أنجو كان قد حصل كما يقول الفرنسيون على مملكة ناپلي من البابا إربان الرابع (١٢٦٦) ، مكافأة له على حماية البابوية من ملوك آل هوهنشتاوفن ؛ ثم أوصت جوانا Joanna الثانية ملكة ناپلي بهذه المملكة إلى رينيه René دوق أنجو (١٤٣٥) ؛ وكان ألفنسو صاحب أرغونة قد طالب بها بدعوى أن جوانا قد تبنته إلى وقت ما ،

أقام بالقوة بيت أرغونة على عرش نابلي : وحاول وينيه أن ينتزع المملكة منه ولكنه لم يفلح ؛ وانتقل حقه القانوني فيها بعد موته إلى لويس التاسع ملك فرنسا ؛ وفي عام ١٤٨٢ دعا سكستس الرابع — وكان على خلاف مع نابلي — لويس للاستيلاء على ميلان وقال « إنها ملك له » . وحدث في ذلك الوقت أن شن حلف من الدول الإيطالية الحرب على البندقية فلجأت في يأسها إلى لويس تطلب إليه أن يهاجم نابلي أو ميلان ، وقالت إنها تفضل أن يهاجم الاثنين : وكان لويس وقتئذ مشغولاً بتوحيد فرنسا ، ولكن ابنه شارل الثامن ورث حقه في نابلي واستمع إلى المنفيين من أهلها وإلى أنصار أسرة أنجو في بلاطه ، وأدرك أن تاج نابلي كان منضماً إلى تاج صقلية ، وأن هذا مرتبط بتاج بيت المقدس . لهذا خطرت بباله تلك الفكرة الكبيرة ، أو لعل أحداً أوعز إليه بها ، وهي الاستيلاء على نابلي وصقلية ، على أن يتوج بعدئذ ملكاً على بيت المقدس . ثم يقود حملة صليبية لقتال الأتراك . وحدث في عام ١٤٨٩ أن قام النزاع بين إنوسنت الثامن وبين نابلي ، فعرض إنوسنت المملكة على شارل إذا قدم للاستيلاء عليها . لكن الإسكندر الثالث (١٤٩٤) حذر الملك من عبور الألب وإلا كان نصيبه الحرمان ؛ غير أن الكردينال جوليانو دلا روفيري عدو الإسكندر — الذي حارب فيما بعد حين أصبح هو البابا يوليوس الثاني ليظرد الفرنسيين من إيطاليا — قدم إلى شارل في ليون Lyons وحرّضه على غزو إيطاليا وخلع الإسكندر . ووجه سفرواً دعوة أخرى إلى شارل يرجو من ورائها أن يخلع هذا الملك بيرو ده لاميديتشي عن عرش فلورنس والإسكندر عن عرش البابوية في رومة ، وقبل كثير من أهل فلورنس أن يتولى الراهب زعامتهم . وأخيراً عرض لدوفيكو صاحب ميلان على شارل أن يسمح له باختراق أملاك ميلان إذا ما اعزم أن يوجه حملة إلى نابلي ، وكان الباعث على هذا خوفاً من أن تهاجمه نابلي نفسها .

ووجد شارل أن نصف إيطاليا يشجعه فأخذ يستعد لغزو نابلي . وأراد أن يحمي جناحيه أثناء الغزو فنزل عن أرتوا Artois وفرانش كتيه Francho Compte إلى مكسميليان إمبراطور الدولة الرومانية ، كما نزل عن رسيون Rousillon وسرداني Cerdagen إلى فرديناند ملك أسبانيا ، ونفخ هنري السابع بمبلغ كبير من المال نظير تخليه عن المطالبة بمقاطعة بريطانيا الفرنسية . وفي شهر مارس من عام ١٤٩٤ حشد جيشه في ليون ، وكان مؤلفاً من ١٨٠٠٠ من الفرسان ، و ٢٢٠٠٠ من المشاة ، وسير أسطولا ليضمين ولاء جنوى لفرنسا ، فاسترد في الثامن من سبتمبر بلدة رابلو Rapallo من قوة نابليه كانت قد نزلت بها ؛ وروعت أنباء المذبحة الرهيبة التي أعقبت هذه المعركة الأولى إيطاليا كلها التي لم تعود إلا المذابح المعقولة . وفي ذلك الشهر عينه عبر شارل وجيشه جبال الألب ووقف عند أستي Asti . وسار لدوفيكو صاحب ميلان ، وإركولي صاحب فيرارا لمقابلته . وأقرضه لدوفيكو مالا ؛ وعاقبت إصابة شارل بالجدرى تنفيذ خطة الغزو الموضوعة ، فلما شفى قاد جيشه مخترقاً أراضي ميلان إلى تسكانيا ؛ وكان في وسع القلاع المقامة على حدود فلورنس أن تقاومه ، ولكن بيرو ده ميديتشي جاء بنفسه ليسلمها إليه ومعها بيزا وليفورنو Livorno . وفي السابع عشر من نوفمبر اجتاز شارل ونصف جيشه مدينة فلورنس ؛ وأعجبت جماهير الشعب بمنظر الفرسان الذي لم تشاهد مثله من قبل ، وساءهم ما ارتكبه الجند من السرقات الصغيرة ، ولكنهم ذهب عنهم الروع حين رأوهم يمتنعون عن السلب والنهب . وفي شهر ديسمبر تقدم شارل نحو رومة .

لقد سبق أن نظرنا إلى لقاء الملك والبابا من وجهة نظر الإسكندر ، وبقي أن نقول إن شارل سلك مسلكاً معتدلاً ، فلم يطلب إلا أن يسمح لجيشه بحرية المرور في لاتيوم ، وأن يتولى هو الوصاية على الأمير جم التركي

السجين البابوي (وكان يمكن استخدامه مطالباً بالسلطنة وخلققة إذا ما سير
حملة ضد الأتراك) ، وأن يصحبه سيزارى بورچيا ليكون رهينة لديه .
ووافق الإسكندر على هذه الشروط ، وزحف الجيش نحو الجنوب (٢٥
يناير سنة ١٤٩٥) ، لكن بورچيا لم يلبث أن فر ، وكان فى وسع الإسكندر
بعد فراره أن يعدل خططه الدبلوماسية .

وفى الثامن والعشرين من فبراير دخل شارل نابلى دخول الظافرين
دون أن يلقى مقاومة . وسار فى المدينة ومن فوقه مظلة من القماش الموشى
بخيوط الذهب يحملها أربعة من أعيان نابلى . ويتلقى تحيات الجماهير .
وأظهر رضاءه وتقديره بأن خفض الضرائب وعفا عن قاوموا مجيئه ؛ وأقر
نظام الاسترقاق بناء على طلب الأعيان الذين كانوا يحكمون الأرض
الواقعة وراء المدينة . وظن أن الأمر قد استتب له فأصبح آمناً مطمئناً ،
فتوانى وعمد إلى الراحة والاستمتاع بجو البلدة ومناظرها الجميلة ، وكتب
بلهجة حماسية إلى دوق بوربون يصف الحذاق التى كان يعيش فى وسطها ،
والتي لا ينقصها إلا حواء كى تصبح جنة النعيم ؛ وأبدى دهشته مما فى المدينة
عن عمائر ، وتماثيل ، وصور زيتية ، واعتزم أن يأخذ معه إلى فرنسا
طائفة ممتازة من الفنانين الإيطاليين ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت بعث إلى
فرنسا بسفينة محملة بالتحف الفنية المسروقة من المدينة . وسحرته نابلى
بجمالها فأنسته كل شىء عن بيت المقدس وعن حربه الصليبية .

وبينا هو يلهو ويضيع الوقت سدى فى نابلى ، وبينما كان جيشه يستمتع
بنساء الشوارع والمواخير ، فيصاب « بالمرض الفرنسى » أو ينشر هذا الداء
الوبيل بين الأهلىن ، كانت المتاعب تتجمع من خلفه . ذلك أن أعيان
نابلى حرموا فى كثير من الحالات من ضياعهم التى انتزعت منهم لترد إلى
ملكها من أسرة أنجول أو للوفاء بما على شارل من ديون لخدمه ، وذلك
بدلاً من أن يكافأ هؤلاء الأعيان على ما قدموا من معونة لخلع ملكهم

السابق ؛ يضاف إلى هذا أن جميع مناصب الدولة قد أعطيت للفرنسيين ، ولم يكن شيء يستطيع الحصول عليه منهم إلا إذا قدم لهم من الرشاوى . ما أغضب الأهلين لتجاوزه القدر الذى اعتادوا تقديمه . ثم إن جيش الاحتلال أضاف الإهانة إلى الأذى بما كان يظهره من احتقاره للشعب الإيطالى ، فلم تمض إلا أشهر قليلة حتى خسر الفرنسيون ما قوبلوا به من ترحيب واستبدلوا به كرها يتربص بهم الدوائر ، ويتربص الفرصة التى تتاح له لطرد الغزاة .

فلما كان اليوم الحادى والثلاثون من شهر مارس انضم الإسكندر الرجل المرن الذى لا يكاد يتلقى الطعنة حتى يفيق منها ، ولدوفيكو التائب النادم . على ما فعل ، وفرديناند الغضوب ، ومكسميليان الغيور الحسود ، ومجلس شيوخ البندقية الحذر ، انضم هؤلاء فى حلف للدفاع المشترك عن إيطاليا . ومضى شهر على الملك شارل وهو يحوس خلال نابلى يمسك الصوبلجان بإحدى يديه ويمسك بيده الأخرى كرة - نظنها تمثل الكرة الأرضية - قبل أن يدرك أن الحلف الجديد يعد جيشاً لقتاله . وفى الحادى والعشرين من مايو عهد أمر نابلى إلى ابن عمه كونت مونپنسييه Montpensier وزحف على رأس نصف جيشه نحو الشمال ، فلما وصل ذلك الجيش البالغ عدده عشرة آلاف مقاتل إلى فورنوفو Fornovo القائمة على نهر تارو من أملاك پارما وجد أن جيشاً عدته أربعون ألف رجل بقيادة جيان فرانثيسكو جندساجا مركيز مانتوا يسد عليه الطريق . وفى الخامس من يولييه سنة ١٤٩٥ امتحنت قوة الجيوش الإيطالية والفرنسية وخططهما العسكرية لأول مرة . وأساء جندساجا إدارة المعركة وإن كان قد حارب ببسالة . فلم يشترك فى القتال إلا نصف جنده ؛ لم يكن الإيطاليون مستعدين من الناحية العقلية لقتال محاربين لا يرحمون من يقع فى أيديهم ، فولى الكثيرون منهم الأدبار ؛ وضرب فارسن بايار وهو صبي فى العشرين من عمره أروع المثل لرجالهم

بشجاعته ومجازفته في القتال ، وحتى الملك نفسه قاتل قتال الأبطال ، وكانت المعركة غير حاسمة ادعى فيها كلا الطرفين أنه هو الظافر ، وخسر الفرنسيون قافلة مؤنهم ولكنهم ظلوا المسيطرين على الميدان ، ولمساجن الليل تقدموا نحو أستي دون أن يلقوا مقاومة ، وفيها كان ينتظرهم لويس دوق أورليان الثالث ومعه المدد ، وفي شهر أكتوبر عاد شارل إلى فرنسا بعد أن خسر الكثير من سمعته ولكنه لم يصب بأذى شديد :

وكانت النتائج الإقليمية لهذه المعركة تافهة : أهمها أن جندسالو Gonzalo « القائد العظيم » طرد الفرنسيين من نابلي وكلبريا ، وأعاد أسيرة أرغونة إلى عرشها في شخص فيديريجو Federigo الثالث (١٤٩٦) . أما النتائج البعيدة لهذا الغزو فقد تجاوزت كل حد : فقد أثبت تفوق الجيش القومي على الجنود المرتزقة المأجورة ، ويستثنى من هذا الحكم العسام الجنود السويسريون المرتزقون وإن يكن هذا الاستثناء مؤقتاً قصير الأجل . ذلك أن أولئك الجنود السويسريون المسلحين بالحرايب البالغ طولها ثمانى عشرة قدماً والمنظمين في فرق متراصة متلاصقة كانت سداً منيعاً شاكاً أمام الفرسان الزاحفين . ولهذا قدر لأولئك الجنود أن يكسبوا كثيراً من الوقائع . ولكن هذه القوة الهائلة التي أعادت إلى الذاكرة صفوف المقدونيين المتراصة في حروب الإسكندر الأكبر لم تلبث أن أضحت عديمة الجدوى أمام تقدم المدفعية . ولعل هذه الحرب هي التي حدث فيها لأول مرة أن وضعت المدافع على العربات فأمكن بذلك توجيهها بسهولة في الاتجاهات المختلفة وتغيير مدى مرماتها . وكانت هذه العربات تجرها الخيول لا الثيران (كما كانت العادة في إيطاليا حتى ذلك الوقت) . وقد جاء الفرنسيون إلى الميدان — كما يقول جوتشبارديني — بعدد كبير من « مدافع الميدان والمدافع المدمرة التي لم تر إيطاليا مثيلاً لها من قبل » (٣) . وقاتل الفرسان الفرنسيون أحفاد أبطال فرواسار ، قتال الأبطال في فورنو فو ، ولكن الفرسان أيضاً ما لبثوا أن خضعوا للمدافع ،

وهكذا تبدلت الحال عما كانت في العصور الوسطى ؛ فقد كانت فنون الدفاع في تلك الأيام متقدمة على وسائل الهجوم ، وكان هذا سبباً في عدم تشجيع الحروب . أما الآن فقد أخذت أساليب الهجوم تتقدم على أساليب الدفاع ، وأصبحت الحرب من ثم أكثر سفكاً للدماء . وثمة نقطة أخرى عظيمة الخطر : تلك هي أن حروب إيطاليا قلما كانت حتى ذلك الوقت تشغل أهلها أنفسهم ، وكانت تلحق الأذى بحقولهم أكثر مما تلحقه بأرواحهم ؛ أما الآن فقد قدر لهم أن يروا إيطاليا تكلها يحل بها الدمار وتخضب أرضها بالدماء ؛ وعرف السويسريون في تلك الحرب التي دامت طوال العام ما تنطوي عليه هول لمباردى من نصب ونماء ، وطالما غزوها بعدئذ المرة بعد المرة . وأدرك الفرنسيون أن إيطاليا منقسمة ومشتتة وأنها تنظر المغير الفاتح . نعم إن شارل الثامن قد ألقى بنفسه في أحضان العاشقات ، وكاد يمتنع عن التفكير في نابلي ، ولكن ابن عمه ووريثه كان أصاب منه عوداً ، وما لبث لويس الثاني عشر أن عاود الكرة .

الفصل الثاني

تجدد الهجوم : ١٤٩٦ - ١٥٠٥

وأضاف مكسمليان « ملك الرومان » - أي الألمان - فصلاً آخر إلى هذه المسرحية ، فلقد كان يوئله ويقض مضجعه أن يفكر في أن مدونه الكبرى ، أي فرنسا ، تعظم وتقوى ، وتطوقه باستيلائها على إيطاليا . وكانت قد ترامت إليه أخبار غنى هذه البلاد وجمالها وضعفها ، ولم تكن قد أصبحت بعد دولة ، بل كانت شبه جزيرة . وكانت له هو أيضاً ادعاءات ومطالب في إيطاليا ، فقد كانت مدن لمباردى لا تزال من الوجهة القانونية إقطاعيات تابعة للإمبراطورية ، وكان من محقه قانوناً بوصفه رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن يعطيها لمن يشاء ، ألم يرشّه الدوق فيكو بالفلورينات وبييانكا أخرى لكي يمنحه دوقية ميلان ؟ يضاف إلى هذا أن كثيرين من الإيطاليين دعوه إلى المجيء : فلدوفيكو والبندقية قد طلبا إليه (١٤٩٦) أن يدخل إيطاليا ويساعدهما على صد هجوم فرنسي آخر يهدد البلاد ، ولبي مكسمليان الدعوة ومعه عدد قليل من الجنود ، واستطاعت البندقية بدعائها أن تقنعه بالهجوم على ليفورنو ، فرضة فلورنس الأخيرة على البحر المتوسط ، وبذلك يضعف هذه المدينة التي لا تزال متحاذية مع فرنسا ومنافسة على الدوام للبندقية ، وأخفقت حملة مكسمليان لأنها كانت يعوزها التنسيق والتأييد الكافي ، فعاد إلى ألمانيا دون أن يستفيد من هذا الدرس إلا الشيء القليل (ديسمبر سنة ١٤٩٦) .

وفي عام ١٤٩٨ أصبح دوق أورليان هو لويس الثاني عشر . وإذا كان هو حفيد فالنتينا فسكونتي فإنه لم يندس قط ما كانت أسرته تدعيه من

حقوق لها في ميلان ؛ وإذ كان هو ابن عم شارل الثامن ، فقد ورث مطالب آل أنجو في نابلي . ومن أجل هذا فإنه في يوم تتويجه اتخذ فيما اتخذ من ألقاب : دوق ميلان ، وملك نابلي وصقلية ، وإمبراطور بيت المقدس . وأراد أن يمهّد السبيل لنفسه فجدد معاهدة سلام مع إنجلترا وعقد معاهدة مثلها مع أسبانيا ؛ ثم أغرى البندقية فوقعت معه شروط حلف « للاشتراك في حرب ضد دوق ميلان لدوفيكو اسفوردسا وضد أي إنسان آخر عدا الحبر الأكبر بابا رومة لكي يرد إلى صاحب الجلالة الملك المسيحي . . . دوقية ميلان ملكه الشرعي القديم » ، ووعدّها في نظير ذلك بكريمونا ، والأراضي الواقعة شرق أدا . ثم عقد بعد شهر من ذلك التاريخ (مارس ١٤٩٩) اتفاقاً مع المقاطعات السويسرية لكي تمدّه بالجنود نظير إعانة مالية قدرها عشرون ألف فلورين . وفي شهر مايو استدرج الإسكندر إلى محالفته بأن أعطى سيزاري بورجيا زوجة فرنسية يجري في عروقها الدم الملكي ، ودوقية فالنتينوا Valentinis وقطع له عهداً بأن يساعده على استرداد الولايات البابوية . وشعر لدوفيكو بالضعف أمام هذه الأحلاف ؛ ففر إلى النمسا ، ولم تمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اختفت دوقيته بعد أن اقتسمتها البندقية وفرنسا ، وفي السادس من شهر أكتوبر سنة ١٤٩٩ دخل لويس ميلان ظافراً ورحبت به إيطاليا كلها تقريباً عدا نابلي .

والواقع أن إيطاليا بأجمعها عدا البندقية ونابلي أضحت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا أو نفوذها ؛ فقد أسرع مانتوا ، وفيرارا ، وبولونيا وأعلنت خضوعها واستسلامها ؛ وتمسكت فلورنس بخلفها مع فرنسا لأنها رأت فيه الوسيلة الوحيدة لحمايتها من سيزاري بورجيا . وحتى فرديناند ملك أسبانيا ، رغم ما بينه وبين الأسرة الأرجونية من وشائج القرى ، عقد في غرناطة (١١ نوفمبر سنة ١٥٠٠) ميثاقاً سرياً مع ممثلي لويس يتضمن الاشتراك معه في فتح جميع إيطاليا الواقعة جنوب الولايات البابوية .

وعاونهما الإسكندر السادس الذي كان بحاجة إلى معونة فرنسا لاسترداد هذه الولايات ، بأن أصدر مرسوماً بابوياً خلع به فيديريجو الثالث ملك نابلي وأيد تقسيم مملكته بين فرنسا وإسبانيا .

وفي شهر يولييه عام ١٥٠١ زحف جيش فرنسي بقيادة استيورت دوبني Stuart Daubigny الاسكتلندي ، وسيزاري بورچيا ، وفرانتشيسكو دي سان سفرينو الذي غدر بلدوفيكو بعد أن كان من المقربين إليه ، زحف هذا الجيش مخترقاً إيطاليا إلى كاپوا واستولى عليها ونهبها ، وتقدم صوب نابلي ، ورأى فيديريجو أن أنصاره جميعاً قد انفضوا من حوله فسلم المدينة إلى الفرنسيين نظير قبوله لاجئاً آمناً في فرنسا ومعاشاً سنوياً . وفي هذه الأثناء استولى القائد الأكبر جندسالو القرطبي Gonzalo de Cordoba على كالبريا وأبوليا باسم فرديناند وإزبلا . وأرسل فيرانتى بن فيديريجو سجيناً إلى إسبانيا بناء على طلب فرديناند ، وذلك بعد أن سلم تارنتو Taranto ووعده جندسالو بأنه سبطلق سراحه . ولما أن اتصل الجيش الأسباني بالجيش الفرنسي على الحدود الواقعة بين أبوليا وأبروتسي ، قام النزاع بينهما على الحد الفاصل بين ما استولى عليه كل منهما ؛ وقامت الحرب بين أسبانيا وفرنسا على تقسيم الأسلاب . واعتبط بذلك الإسكندر أيما اغتباط (يولييه سنة ١٥٠٢) ، وقال البابا لسفير البندقية : « لو أن الله لم يثر الخلاف بين فرنسا وإسبانيا ، لما عرفنا الآن أين نكون ؟ » .

وابتسم الحظ للفرنسيين في هذه الحرب الجديدة إلى حين ، فقد اجتاحت قوات دوبني جنوبي إيطاليا كله تقريباً : وحبس جندسالو جنوده في مدينة بارلينا الحصينة . وهنا وقعت حادثة من حوادث العصور الوسطى الطريفة ألقت شيئاً من البهجة على هذه الحرب المشثومة (١٣ فبراير سنة ١٥٠٣) . ذلك أن ضابطاً فرنسياً وصف الإيطاليين بأنهم شعب مخنث جبان دنيء ، فثار قائد إحدى الفرق الإيطالية في الجيش الأسباني لهذه الإهانة

وطلب أن يقاتل ثلاثة عشر من الفرنسيين مثلهم من الإيطاليين . واتفق على هذا ، وأرجئ القتال ، ووقف الجيشان المتحاربان يشاهدان النزال ، بينما كان المحاربون الستة والعشرون يقتتلون حتى أثنى الفرنسيون الثلاثة عشر بالجراح التي أعجزتهم عن مواصلة البراز ووقعوا أسرى في أيدي الإيطاليين ، وأخذت جندسالو الشهامة الأسبانية التي لا تقل في بعض الأحيان عن القوة الأسبانية ، فافتدى الأسرى من ماله الخاص وردهم إلى جيشهم (٦) .

وأعادت هذه الحادثة الروح المعنوية لجنود القائد الأكبر ، فخرجوا من بارليتا ، وهزموا المحاصرين وبددوا مثلهم ، ثم هزموا الفرنسيين مرة أخرى عند تشيرنيولو Cerignolo . وفي السادس عشر من شهر مايو سنة ١٥٠٣ دخل جندسالو نابلي دون أن يلقى مقاومة ، ورحب به أهلها ، وهم الذين يستطيع كل منتصر أن يعتمد دائماً على ترحيبهم ، وسير لويس الثاني عشر جيشاً آخر لقتال جندسالو ، فالتقى ذلك القائد به على شاطئ كارجليانو ، وأوقع به هزيمة منكرة (٢٩ ديسمبر سنة ١٥٠٣) ، وغرق بيروده ميديتشي الذي كان يفر مع الفرنسيين في أثناء الفوضى التي أعقبت هذه الهزيمة ، ثم ضرب جندسالو الحصار على جيتا Gaeta آخر معاقل الفرنسيين في جنوبي إيطاليا ، وعرض على من فيها شروطاً سخية سرعان ما قبلوها (أول يناير سنة ١٥٠٤) ، وأظهر من الوفاء في المحافظة على هذه الشروط بعد أن جرد الفرنسيين من سلاحهم ما جعلهم يلقبونه بالقائد الظريف لأنه خرج عن جميع السوابق أشد الخروج (٧) . وعقد لويس مع الأسبان معاهدة بلوا Blois (١٥٠٥) ، التي أنقذ فيها شرفه ظاهرياً بأن نزل عن حقوقه في نابلي إلى قريبته جيرمين ده فوا Germaine de Foix التي تزوجت بعدئذ فرديناند الأرملة وجاءت له بنابلي بائنة لها ، وبذلك أضيف تاج نابلي وتاج صقلية إلى تيجان فرديناند الهم ، وبقيت بعدئذ مملكة نابلي تابعة لآسبانيا حتى عام ١٧٠٧ .

الفصل الثالث

حلف كمبريه : ١٥٠٨ - ١٥١٦

أضحى نصف إيطاليا الآن في أيدي الأجانب : فقد كان جزؤها الجنوبي ملكاً لأسبانيا ، وجزؤها الشمالى الغربى الممتد من جنوى مجتازاً ميلان إلى حدود كريمونا في يدي فرنسا ، وكانت الإمارات الصغرى خاضعة لنفوذ فرنسا ، ولم يكن فيها بلد مستقل استقلالاً نسبياً سوى البندقية والولايات البابوية ، ولطالما اشتبكنا في حرب متقطعة للاستيلاء على مدن رومانيا . ذلك أن البندقية كانت تتوق إلى المزيد من الأسواق وإلى موارد الثروة في شبه الجزيرة لتعوض ما استولى عليه الترك من أسواقها ومواردها أو هددته طرق الملاحة البحرية إلى الهند عن طريق المحيط الأطلنطي . ولهذا اغتنمت فرصة موت الإسكندر ومرض سيزارى بورجيا للاستيلاء على فائزرا ، ورافنا ، وريميني ؛ وأخذ يوليوس الثانى يضع الخطط لاستعادتها لنفسه ؛ فأقنع لويس ومكسمليان فى عام ١٥٠٤ بأن يضعوا حداً لنزاعهما الذى يخالف تعاليم الدين المسيحى ؛ وأن ينضموا إليه فى مهاجمة البندقية ، وأن يقاتلوا فيما بينهما أملاكها فى شبه الجزيرة (٨) . ولم يجد مكسمليان فى نفسه ما يمنعه من قبول هذا العرض ؛ لكن خزائنه كانت خاوية ، ولم تحقق هذه المؤامرة نتيجة ما . غير أن الفكرة ظلت تراود يوليوس وظل هو يحاول إخراجها إلى حيز الوجود :

فى العاشر من ديسمبر دبرت مؤامرة كمبرى فى كمبريه ضد البندقية ، انضم إليها الإمبراطور مكسمليان لأن البندقية كانت قد انتزعت جوريتسا Goriza ، وتريست ، وبردينونى ، وفيومى من سيطرة الإمبراطور ، وتجاهلت حقوقه الإمبراطورية فى فيرونا وبدوا ؛ وأبت عليه وعلى جيشه

الصغير حرية المرور إلى رومة لتحقيق الهدف الذي طالما تمناه وهو أن يتوجه البابا إمبراطوراً . وانضم لويس الثاني عشر إلى هذا الحلف لأن النزاع شجر بين فرنسا والبندقية حول اقتسام شمالي إيطاليا . وانضم إليه كذلك فرديناند ملك أسبانيا لأن البندقية أصرت على الاحتفاظ بـ برنديزي ، وأترانتو Otranto وغيرهما من ثغور أبوليا التي ظلت عدة قرون جزءاً من مملكة نابلي ، ولكن البندقية استولت عليها أثناء المتاعب التي لاقها البندقية في عام ١٤٩٥ . وانضم يوليوس للحلف (١٥٠٩) لأن البندقية لم تكن برفض الجلاء عن رومانيا ، بل لأنها فضلاً عن ذلك لم تتردد في الجهر برغبتها في الاستيلاء على فيرارا — التي تقر بأنها إقطاعية بابوية . وكانت الخطة التي وضعتها الدول الأوروبية وقتئذ هي أن تستولى فيما بينها على جميع أملاك البندقية في أرض إيطاليا ، فتسترد أسبانيا ما كان لها من المدن على شاطئ البحر الأدرياتي ، ويسترد البابا إقليم رومانيا ، ويحصل مكسميليان على بلدوا ، وفيتشندسا وتريفيزو ، وفريولي ، وفيررنا ، ويستولى لويس على بيرجامو وبريشيا ، وكريما ، وكريمونا ، ووادي نهر أدا . ولو قدر النجاح لهذه الخطة لانمحت إيطاليا من الوجود ، ولوصلت فرنسا وألمانيا إلى نهر الرو ، وكادت أسبانيا تصل إلى التiber ، ولأحاطت أملاك الأجانب بالولايات البابوية وضيق عليها الخناق ولحطمت البندقية التي كانت وقتئذ خط الدفاع ضد زحف الأتراك . ولم تتقدم دولة إيطالية لمعونة البندقية في هذه الأزمة الطاحنة ، ذلك أنها كانت قد أغضبتها كلها تقريباً بجشعها ، حتى أن فيرارا نفسها التي كانت ترتاب فيها بحق خذلتها وانضمت إلى الحلف ، وعرض جندسالو النبيل ، الذي أقاله فرديناند من منصبه بغلظة وجفاء ، خذمافه على البندقية ليكون قائداً لجيوشها ، ولكن مجلس شيوخها لم يجرؤ على قبول هذا العرض ، لأن أملة الوحيد في البقاء هو أن يفصل من الحلف أعضائه واحداً بعد واحد .

ولم تكن البندقية تستحق العطف وقتئذ إلا لأنها وقفت بمفردها أمام قوات ضخمة لا قبل لها بها ، ولأن أغنياءها الأوفياء وفقراءها المجندين كافحوا جنباً إلى جنب بإصرار وعزم لا يكاد يتصور ، فانتصروا في الميدان نضرا كلفهم ما لا يطيقون . وعرض مجلس الشيوخ أن يرد فائزاً وريمبى للبابوية ، ولكن يوليوس الغاضب الثائر رد على هذا العرض بقرار الحرمان وأرسل جنوده ليستولوا من جديد على مدن إقليم رومانيا ، بينما كان زحف الفرنسيين يرغم البندقية على تركيز قواتها في لمباردى . وهزم الفرنسيون البنادقة عند أنيادلوف في معركة من أشد المعارك هولاً وأكثرها إراقة للدماء في أيام النهضة (١٤ مايو سنة ١٥٠٩) ، قتل فيها ستة آلاف رجل في يوم واحد . واستدعى مجلس السيادة في ساعة محنته ويأسه بقية جنوده إلى البندقية وتركوا الفرنسيين يحتلون جميع أراضي لمباردى ، وجلوا عن أبوليا ورومانيا ، واعترفت فيرونا وفيتشنسا ، وبدوا بأنها لم يعد في وسعها أن تحمها ، وأطلقت لها كامل حريتها في أن تسلم للإمبراطور أو تقاومه حسبما تختار . وانقض مكسمليان بأكبر جيش شهدته تلك البلاد حتى ذلك الوقت - فقبله كانت عدته نحو ٣٦,٠٠٠ مقاتل - وضرب الحصار على بدوا . وسبب الفلاحون المحيطون بالمدينة لجيش الإمبراطور أكثر ما يستطيعون من المتاعب ، وحارب أهل بدوا نفسها ببسالة تشهد بصلاح الحكم الذي كانوا يستمتعون به تحت راية البندقية . ونفذ صبر مكسمليان ، وكان على الدوام شديد الحاجة إلى المال ، فغادر الميدان وهو غاضب مشمئز إلى التيرول ، وأصدر يوليوس أمراً فجأة إلى جنوده أن ينسحبوا من الحصار ، وعادت بدوا وفيتشنسا مختارتين إلى سيطرة البندقية ، وسرح لويس الثاني عشر جيشه بعد أن حصل على نصيبه من الأسلاب .

وكان يوليوس قد أدرك قبل ذلك الوقت أن انتصار الحلف انتصاراً كاملاً إذا تم كان هزيمة للبابوية ، لأنه يترك البابوات تحت رحمة دولتين

من دول الشمال ، وبدأت حركة الإصلاح الديني فيهما تفصح عن نفسها . ولهذا فإنه عندما عرضت عليه البندقية أن تجيبه إلى كل ما يطلب « قبل ما عرضته عليه وكان قد أقسم أنه لن يقبل » (١٥١٠) . وبعد أن استرد كل ما يوى أنه ملك حق مشروع للكنيسة ، أصبح حرّاً في أن يوجه غضبه نحو الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يسيطرون على لمباردى وتسكانيا ، فكانوا بذلك جيراناً للولايات البابوية غير مرغوب فيهم . وأقسم وهو في ميرندولا ألا يخلق لحيته حتى يطرد الفرنسيين من إيطاليا . وهكذا طالت الاحية الفخمة الجلييلة التي تظهر في صورة رفائيل . ونادى البابا وقتئذ في إيطاليا بذلك الشعار المشير : « ليخرج البرابرة ! » *Fuori i barbari* ، ولكنه نداء جاء بعد فوات الأوان . واعتزم أن ينفذ خطته فألف في ١١ أكتوبر سنة ١٥١١ « حلف الوحدة المقدسة » منه ومن البندقية وأسبانيا ، ثم ما لبث أن ضم إليه سويسرة وإنجلترا . ولم ينته شهر يناير سنة ١٥١٢ حتى استردت البندقية مدينتي بريشيا وبرجامو بمعاونة الأهليين الفرحين المستبشرين . واستبقت فرنسا معظم جنودها في بلادها للدفاع عنها إذا ما هاجمها إنجلترا وأسبانيا .

غير أن قوة فرنسية واحدة بقيت في إيطاليا بقيادة شاب جرىء في الثانية والعشرين من عمره من رجال البلاط يدعى جاستون ده فوا *Gaston de Foix* . ومل هذا الشاب الحمول والحمود ، فسار على رأس جيشه وفك الحصار أولاً عن بولونيا ثم هزم البنادقة في إيزولا دلا اسكالا *Isoal della scala* ثم استعاد بريشيا ، وأحرز أخيراً نصراً مؤزراً ولكنه غالى الثمن عند رافنا (١١ أبريل سنة ١٥١٢) . ونخضبت ميدان القتال دماء نحو عشرين ألف قتيل ، وأصيب جاستون نفسه ، وهو يحارب في الصفوف الأمامية ، بجراح مميتة .

ونال يوليوس بالمفاوضة ما كان قد خسره في ميدان القتال ؛ فقد أقنع

مكسميليان أن يوقع هدنة مع البندقية ، وأن ينضم إلى الاتحاد الذي تألف لقتال فرنسا ، وأن يستدعى الأربعة الآلاف من الجنود الألمان الذين كانوا جزءاً من الجيش الفرنسي . ثم زحف السويسريون يتحريضه على لمباردى بقوة تبلغ عشرين ألفاً : وتقهقرت القوات الفرنسية ، التي أفقدتها الانتصارات عدداً كبيراً من أفرادها ، وتخلت عنها الفرقة الألمانية ، أمام جمحافل السويسريين والبنادقة والأسبان المحدثين بها ، وارتدت إلى جبال الألب ، بعد أن تركت حاميات قليلة في بريشيان ، وكريمونا ، وميلان ، وچنوى . وهكذا استطاع الاتحاد المقدس بعد شهرين من الهزيمة التي كانت تبدو ماحقة في رافنا أن يطرد الفرنسيين من أرض إيطاليا بفضل الدبلوماسية البابوية ، وسماه الإيطاليون محرر إيطاليا .

وعقد المنتصرون مؤتمر مانتوا (في أغسطس سنة ١٥١٢) لتوزيع الأسلاب ، وفيه أصر يوليوس على أن تعطى ميلان إلى مسيميليانو اسفوردسا Masaimiliano Sforza ابن لدوفيكو ، ونالت سويسرا لوجانو Lugano والإقليم الواقع عند رأس بحيرة مجيورى ؛ وأرغمت فلورنس على أن يسترد عرشها آل ميديتشي واستعاد البابا كل الولايات البابوية التي استولى عليها آل بورچيا ، ثم حصل فضلاً عن هذا على پارما ، وپياتشند ، ومودينا ، ورجيو ، ولم ينج من قبضة الحبر الأكبر إلا فيرارا . ولكن يوليوس أورث خلته مشاكل كثيرة . أولها أنه لم يطرد الأجانب حقيقة من إيطاليا : فقد كان السويسريون لا يزالون مستولين على ميلان بوصفهم حراساً لاسفوردسا ؛ ولا يزال الإمبراطور يطالب بفيتشندسا وفيرونا مكافأة له ، وأما فرديناند الكاثوليكي أكثر المساومين دهاء فقد دعم قوة أسبانيا في جنوبي إيطاليا . وكانت قوة فرنسا وحدها هي التي قضى عليها في إيطاليا . فقد سير لويس الثاني عشر جيشاً آخر للاستيلاء على ميلان ، ولكن السويسريين بددوا شمله عند نوفارا Novara وقتلوا من رجاله ثمانية آلاف

(٦ يونيو سنة ١٥١٣) . ولم يكن باقياً للويس عند وفاته من أملاكه الإيطالية التي كانت من قبل رجة لاموطيني قدم مزعزع في جنوى .
ولكن فرانسيس الأول أراد أن يسترد هذه الأملاك جميعها . وكان إلى هذا قد سمع (كما يؤكد لنا برانتوم Brantôme) أن سنيورا كليريتشي الميلانية Signora Clerice of Milan أجمل نساء إيطاليا ، وتحرق شوقاً إليها^(٩) . ولهذا زحف في شهر أغسطس من عام ١٥١٥ على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف رجل وتسليح بهم عمراً جديداً في جبال الألب ؛ وكان ذلك أكبر جيش شهدته هذه المعارك . وتقدم السويسريون لملاقاته ؛ ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة في مارنيانو على مبعدة أميال قليلة من ميلان ، ودامت يومين كاملين (١٣ - ١٤ ديسمبر سنة ١٥١٥) ؛ وحارب فيها فرانسيس نفسه حرب الأبطال ومنحه الفارس بابار في ميدان المعركة نفسه لقب فارس تكريماً له واعترافاً ببسالته . وترك السويسريون وراءهم في أرض المعركة ١٣٠٠٠ قتيل ؛ وتخلوا هم واسفورديسا عن ميلان ، ووقعت المدينة مرة أخرى غنيمة في أيدي الفرنسيين .

وظلب مستشارو ليو العاشر في تقلبهم وترددهم نصيحة مكيفلي . فحذروهم من أن يقفوا موقف الحياد بين الملك والإمبراطور بحجة أن البابوية ستكون حقيقة لا حول لها أمام المنتصر ، كما لو كانت قد اشتركت في القتال ؛ وأشار بعقد اتفاق مع فرنسا بوصفها أهون الشرين^(١٠) ، وأمر ليو بالعمل بهذه النصيحة ؛ وفي الحادي عشر من ديسمبر عام ١٥١٥ اجتمع فرانسيس والبابا في بولونيا ليضعوا شروط الاتفاق . ووقع السويسريون صلحاً شبيهاً بهذا مع فرنسا ؛ وانسحب الأسبان إلى ناپلي ؛ وحاصرت الحبيبة مرة أخرى بالإمبراطور ، فسلم فيرونا للبندقية . وهكذا انتهت (١٥١٦) حروب جلف كبريه الذي بدل فيه المشتركون مواقفهم كأنهم في مرقص ؛ وعادت الأحوال في آخر الأمر في جوهرها كما كانت في أوله ، ولم يفصل قط في

شيء إلا في أن تكون إيطاليا هي الميدان الذي تتطاحن فيه الدول الكبرى وتنشب فيه بينها معركة في إثر معركة أملا في السيادة على أوروبا . وسلمت البابوية بارما وبياتشندسا لفرنسا ، واستردت البندقية أملاكها في شمالي إيطاليا ، ولكنها حل بها الخراب ماليا ، ونحربت إيطاليا ولكن الفنون والآداب ظلت فيها مزدهرة ، سواء كان ذلك بدافع الحادثات المفجعة أو بقوة الماضي الرضوي الهنيء . لكن المستقبل كان يخفي لها أفدح الكوارث .

الفصل الرابع

ليو وأوروبا: ١٥١٣ - ١٥٢١

ووضع مؤتمر بولونيا الهيبة الدبلوماسية في كفة ، راجرة السطوة في كفة أخرى ، وبقى أن تُعرف أية الكفتين هي الراجحة . وأقبل الملك الشاب الوسيم يزهو في معطفه الموشى بالذهب وفراء السمور ، والنصر معقود لألويته ، وجيشه من ورائه ؛ يتوق إلى أن يلتهم إيطاليا عن آخرها ، ولا يبقى فيها إلا البابا حارساً له حتى أملاكه ؛ وليس لليو في مقابل هذا إلا سحر منصبه ودهاء آل ميديتشي . ومن ثم فإذا كان ليو قد أثار الملك على الإمبراطور ، وانتقل من جانب إلى جانب بالحيلة والمراوغة ، ووقع مع كل منهما المعاهدات ضد الآخر ، إذا كان قد فعل هذا بحكم الظروف فليس لنا أن نغالي في وزن أعماله هذه بميزان العدالة الصارمة . ذلك أنه لم يكن لديه من السلاح ما يستخدمه لنيل أغراضه غير هذه الوسيلة ، ولقد كان عليه أن يدافع عن تراث الكنيسة الذي وكل أمره إليه ؛ ثم إن أعداءه كانوا هم أيضاً يستخدمون هذا السلاح نفسه بالإضافة إلى جيوشهم ومدافعهم .

ولقد بقيت الاتفاقات السرية التي عقدت في ذلك الاجتماع في طيات الخفاء إلى يومنا هذا . ويلوح أن فرانسس حاول أن يستدرج ليو إلى محالفته ضد أسبانيا ؛ فطلب إليه ليو أن يمهل حتى يفكر في الأمر — وتلك هي الطريقة الدبلوماسية في الرفض ؛ وسبب ذلك أن سياسة الكنيسة التقليدية التي طال عليها الأمد لا تسمح بأن تطوق دولة واحدة أملاكها من الشمال والجنوب (١١) . وكانت النتيجة الواضحة الوحيدة لاتفاق عام ١٥١٦ هي

إلغاء قرار يورچ التنظيمي The Pragmalie Sanction of Bourges . وكان هذا القرار المعقود في عام ١٤٣٨ قد أقام مجلساً عاماً له السلطة العليا على البابوات ومنح ملك فرنسا حق تعيين ذوى المناصب الكنيسة الكبرى في فرنسا . ووافق فرانسيس على إلغاء هذا القرار ، بشرط أن يبقى للملك حق الترشيح لهذه المناصب ؛ وقبل ليو هذا الشرط . وقد يبدو أن هذا كان هزيمة للبابا ، ولكن ليو حين قبله إنما كان يجرى على سنة جرى بها العمل في فرنسا من عدة قرون ؛ وكان يفعله هذا يوفق دون قصد بين الكنيسة والدولة في فرنسا توفيقاً لا يبقى للملكية الفرنسية أسباباً مالية لتأييد حركة الإصلاح الديني . ثم إنه بهذا العمل قد وضع حداً للنزاع الذي طال عليه الأمد بين فرنسا والبابوية على سلطة المجالس والبابوات وحدود هذه السلطة .

واختتم المؤتمر بأن طلب الزعماء الفرنسيون إلى ليو أن يغفر لهم أنهم شنوا الحرب على سلفه ؛ ووجه إليه فرانسيس بهذه المناسبة الخطاب قائلا : « أيها الأب المقدس ! ليس لك أن تعجب من أننا كنا أعداء ليولويس الثاني فقد كان هو على الدوام أعدى أعدائنا ، ولم تبق في أيامنا خصماً أقوى منه ، ذلك بأنه كان في واقع الأمر قائداً بارعاً ممتازاً ، ولو أنه كان قائداً للجنود ، لكان أعظم منه باباً » (١٢) . وغفر ليو ذنوب أولئك التائبين الأشداء حتى بكرة أبيهم ، وباركهم ، وكادوا في آخر الاجتماع أن يقطعوا قدميه تقييلاً (١٣) .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا تعلو هامته حالة من المجد ، واستسلم زمناً ما للعشق واللهو . ولما مات فرديناند الثاني (١٥١٦) ، فكر ملك فرنسا مرة أخرى في غزو نابلي ، ولعله أراد أن يتخذ هذا العمل وسيلة مجيدة للتخلص من زيادة السكان في فرنسا . ولكنه مع ذلك عقد معاهدة للصالح مع شارل الأول حفيد فرديناند الذي أصبح الآن ملكاً على أرغونة ، وقشتالة ، ونابلي ، وصقلية . فلما مات مكسميليان (١٥١٩) ، ورشح حفيده شارل ليخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ظن فرانسيس

أنه أجدر بتاج الإمبراطورية من ملك أسبانيا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، وأخذ يسعى بنشاط لأن يفوز بالانتخاب لهذا المقام الرفيع . ووجد ليو نفسه مرة أخرى في أخطر المواقف . لقد كان يفضل أن يوئيه فرانسيس ، لأنه رأى أن اتحاد نابلي ، وأسبانيا ، وألمانيا ، والنمسا ، والأراضي الوطيفة ، تحت سلطان مليك واحد ، يوسع رقعة ملكه ، ويزيد ثروته وعدد رجاله زيادة تخل بتوازن القوى ، ذلك التوازن الذى كان فيه حتى ذلك الوقت وقاية للولايات البابوية . لكن اختيار شارل رغم معارضة البابا سينفر منه الإمبراطور الجديد فى الوقت الذى يحتاج فيه أشد الاحتياج إلى معونته للقضاء على الفتنة البروتستنتية . وتردد ليو أطول مما يجب فى أن يشعر الناضجين بنفوذه ، واختير شارل الأول إمبراطوراً وأصبح هو شارل الخامس . وواصل البابا سياسة توازن القوى فعرض على فرانسيس أن يحالفه ، ولما تردد الملك كما تردد هو من قبل وقع ليو على حين غفلة اتفاقاً مع شارل (٨ مايو سنة ١٥٢١) ، عرض عليه الإمبراطور الشاب فيه كل شيء تقريباً : عودة بارما وبياتشندسا ، ومعونته ضد فيرارا ولوثر ، وإعادة فتح ميلان وإعطائها إلى آل اسفوردسا ، وحماية الولايات البابوية وفلونس إذا هوجمت .

وتجدد القتال فى شهر سبتمبر من عام ١٥٢١ ، وقال الإمبراطور فى ذلك : « إني أنا وابن عمى فرانسيس على تمام الوفاق ، فهو يريد ميلان وأنا أريدها » (١٤) . وتولى قيادة القوات الفرنسية فى إيطاليا أوديه ده فوا Odet de Foix فيكونت لوتريه Vicomte de Lautrec . وكان فرانسيس قد ولاه هذه القيادة بناء على رجاء أخته التى كانت فى ذلك الوقت عشيقة الملك . وغضبت لويز أميرة سافوى Louise of Savoy أم الملك من هذا التعيين وحولت فى الخفاء المال الذى أعده فرانسيس لجيش لوتريه إلى أغراض أخرى (١٥) ؛ وامتنع من كان فى ذلك الجيش من السويسريين عن القتال لمنع مرتباتهم عنهم . ولما اقترب من ميلان جيش بابوى قوى بقيادة القائد

المحتك برسيرو كزلنا ماركيز يسكارا والمؤرخ جوتشيارديتي ، آثار انتصار
الإمبراطورية من حزب الجبلين فتنة ناجحة بين الأهلين الذين كانوا يرزحون
تحت أعباء الضرائب الفادحة ، انسحب على أثرها لوقريه من المدينة إلى
أملاك البندقية ؛ واستولى جنود شارل وليو على المدينة وكادوا لا يريقون في
سبيل ذلك قطرة دماء ؛ وأصبح فرانكشيسكو ماريا لسفورديسا وهو ابن آخر
من أبناء لدوفيكو دوقاً لميلان تابعاً للإمبراطور ، وكان في مقدور ليو أن
يواجه الموت وهو في نشوة الانتصار .

الفصل الخامس

أدريان السادس : ١٥٢٢ - ١٥٢٣

وكان البابا الذي خلفه غير ما كان عليه البابوات في رومة إبان عصر النهضة : كان بابا عاقداً العزم على أن يكون رجلاً مسيحياً مهما كلفه ذلك من جهد . وكان مولده من أسرة وضيعة في أوترخت Utrecht (١٤٥٩) ، وأشرب حب العلم والتقى من طائفة « إخوان الحياة المشتركة » في ديفنتر ، Deventer والفلسفة المدرسية واللاهوت في لوفان Louvain ؛ وأختبر في الرابعة والثلاثين من عمره مديراً لتلك الجامعة ، ثم عين في سن السابعة والأربعين مربيّاً لشارل الخامس ، وفي عام ١٥١٥ أرسل في بعثة إلى أسبانيا ، وفيها أعجب فرديناند بمقدرته الإدارية ، وباستقامته الخلقية إعجاباً حمله على تعيينه أسقفاً لطرطوشة . ولما توفي فرديناند ساعد أدريان الكردينال اكسمينس Ximenes على أن يحكم أسبانيا أثناء غيبة شارل ؛ وفي عام ١٥٢٠ أصبح نائباً للإمبراطور على قشتالة . وظل وهو يتدرج في معارج الرقي متواضعاً معتدلاً في كل شيء عدا قوة العقيدة ، بسيطاً في معيشته ، يتعقب الملحدين بحماسة جمعت قلوب الشعب على حبه . ووصلت أنباء فضيلته إلى رومة فاختاره ليو كردنالا ، ولما انعقد المجلس المقدس بعد وفاة ليو رشح أدريان للجلوس على كرسي البابوية ، وكان ذلك فيما يظهر على غير علم منه ، وأكبر الظن أنه كان بتأثير شارل الخامس . وفي الثاني من شهر يناير سنة ١٥٢٢ اختبر للجلوس على كرسي البابوية رجل من غير الإيطاليين لأول مرة منذ عام ١٣٧٨ ، ومن التوتون لأول مرة منذ عام ١١٦١ .

ترى كيف يستطيع أهل رومة وهم الذين لا يكادون يسمعون شيئاً عن أدريان يصفحون عن هذه الإهانة التي لحقت بهم باختياره بابا ؟ لقد اتهم

الشعب الكرادلة بأنهم طاشت أحلامهم ، : وأنهم « خانوا دم المسيح » وأذيعت على الشعب منشورات يطلب فيها أصحابها أن يعرفوا كيف « استسلمت الفاتيكان لغضب الألمان » (١٦) . وكتب أريتينو قصة كانت آية في الطعن والهجاء سمي فيها الكرادلة « غوغاء مدنسين » ، ودعا الله أن يواروا الثرى أحياء (١٧) . وغطى تمثال يسكوينو بالمطاعن والهجاء ، وتوارى الكرادلة لأنهم كانوا يخشون أن يظهرُوا أمام الجماهير ، وعزوا هذا الاختيار إلى الروح القدس الذي أوحى به إليهم على حد قولهم (١٨) . وغادر كثير منهم مدينة رومة فراراً من وقاحة الشعب وبطش الإصلاح الكنسي . أما أدريان فقد بقي هادئاً في أسبانيا ينجز فيها عمله الذي لم يكن قد تم بعد . وأبلغ الحكومة البابوية أنه لا يستطيع القدوم إلى رومة قبل أن يحل شهر أغسطس . ولم يكن يعلم بفخامة الفاتيكان ، فكتب إلى صديق له من أهل رومة يطلب إليه أن يستأجر له بيتاً متواضعاً ذا حديقة ليقم فيه . ولما قدم إلى المدينة آخر الأمر (ولم تكن عيناه قد وقعتا عليها من قبل) ؛ روع وجهه الأصفر الزاهد وجسمه النحيل من شاهده ، وبعثا في قلوبهم إجلاله ومهابته ؛ ولكنه حين نطق وظهر الإيطاليين أنه لا يعرف اللغة الإيطالية ، وأنه حين يتكلم اللاتينية يخرج الحروف من حلقه ، فكان بذلك بعيداً كل البعد عن النغم الإيطالي الغذب والرشاقة الإيطالية ، لما فعل هذا امتلأت قلوب أهل رومة غضباً وبأساً .

وأحس أدريان أنه سجين في الفاتيكان وأعلن أن ذلك القصر أرق بقسطنطين منه بالقديس بطرس ، وأمر بوقف جميع أعمال الزخرفة في حجره ، وأقال جميع أتباع رفائيل الذين كانوا يقومون بهذا العمل ، وأبعد جميع السائسين الأربعة الذين كان ليو يستعملهم في اسطبلاته هذا أربعة منهم ولم يبق من خدمه الخصوصيين إلا اثنين لا أكثر — كلاهما من الهولنديين — وأمرهما أن يخفضا نفقات بيته إلى دوقه واحدة (اثني عشر دولاراً ونصف

دولار) في اليوم . واشتمأزت نفسه مما شاهده في رومة من الفساد الجنسي ومن بذيء القول والكتابة ، وقال ما قاله لورندسو ولوثر من أن عاصمة المسيحية بؤرة أقدار ومظالم . ولم يكن يعنى أقل عناية بما عرضه عليه الكرادلة من روائح الفن القديم ، وندد بالتماثيل ووصفها بأنها من بقايا الوثنية ، وسور قصر بلقدير الذي كان يحتوي على أحسن مجموعة في أوروبا من التماثيل الرومانية القديمة (١٩) . وكان يفكر فوق ذلك أن يضيق الخناق على الكتاب الإنسانيين والشعراء ، فقد خيل إليه أنهم يعيشون ويكتبون كما يعيش ويكتب الوثنيون الذين نفوا للمسيح . ولما أن هجاه فرانتشيسكو بيرني بأفدع الألفاظ ووصفه بأنه هولندي همجي عاجز عن فهم ما ينطوي عليه الفن الإيطالي والآداب والحياة الإيطالية من ظرف ورقة ، أئذره أدريان هو وأمثاله بأن سوف يغرق جميع المهجائين في نهر التيبر (٢٠) .

وكان هم أدريان الأول ومظهر عاطفته الدينية وتقواه في أثناء ولايته أن يعود بالكنيسة من حالها في أيام ليو إلى ما كانت عليه في عهد المسيح . ولهذا اتخذ أقصر الطرق دون مجاملة أو مداواة لإصلاح ما استطاع أن يصل إليه من المفاسد الكنسية ؛ فالغى ما لا ضرورة له من المناصب ، واستخدم في ذلك من العنف ما كان في بعض الأحيان طيشاً منه وعدم بصيرة ؛ والغى العقود التي ارتبط بها ليو بأن يدفع معاشاً سنوياً لمن ابتاعوا مناصب في الكنيسة ؛ وبذلك خسر ٢٥٥٠ ممن ابتاعوا هذه المناصب واستثمروا فيها أموالهم ، خسروا رأس المال والفائدة إذا صح هذا التعبير ، وترددت أصدااء صرخاتهم في أرجاء رومة ونادوا بأنهم قد خدعوا ونهبت أموالهم ، وحاول أحد الضحايا أن يغتال البابا ، وقال البابا لأقاربه الذين جاءوه يطلبون أن يعينهم في مناصب دينية ذات مرتبات مرغدة لا يقابلها عمل يقومون به — قال لهم ارجعوا واكسبوا العيش بالعمل الشريف ، وقطع دابر الرشا ومسح لمناصب للأقارب ، وتعقب ما في الحكومة البابوية من فساد ، وفرض

عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الأموال العامة ، وعافب الكرادلة المذنبين بنفس العتوبات التي كان يوقعها على أصغر رجال الدين . وأمر الأساقفة والكرادلة أن يعودوا إلى مقر مناصبهم ، وألقى عليهم دروساً في الأخلاق التي يريد منهم أن يتصفوا بها ، وكان مما قاله لهم إن سمعة رومة السيئة أصبحت تلوكها الألسنة في جميع أنحاء أوربا . ولم يشأ أن يتهم الكرادلة أنفسهم بالرديلة ، ولكنه اتهمهم بأنهم يتركون الرديلة تتفشى في قصورهم دون أن تلقى عقاباً . وطالبهم بأن يضعوا مجداً لترفهم ، وأن يقتنعوا بإيراد أقصاه ٦٠٠٠ دوقه (٧٥,٠٠٠ دولار) في العام . وكتب سفير البندقية في الفاتيكان وقتئذ يقول : « إن جميع رجال الكنيسة في رومة قد ذهبت عقولهم من شدة الرعب ، حين رأوا ما استطاع البابا أن يفعله في خلال ثمانية أيام » (٢١) .

لكن الأيام الثمانية لم تكف لقطع دابر الفساد كما لم تكف لقطع دابر الثلاثة عشر شهراً من ولاية أدريان النشيطة . لقد أخفت الرديلة رأسها إلى حين ، ولكنها لم يقض عليها القضاء المبرم ، ذلك أن الإصلاح قد ضايق العدد الجهم من الموظفين ، ولقى مقاومة مكبوتة ، وأثار أملا في أن يعجل الله منية أدريان . وأحزن البابا وأقضى مضجعه عجز الإنسان عن أن يصلح الناس ، وكثيراً ما جهر بتموله : « ما أكثر ما تعتمد مقدرة الإنسان وكفايته على العصر الذي يقوم فيه بأعماله ! » - وقال لصديقه القديم هيز Heeze وهو قلق مضطرب الخاطر : « ما أكبر الفرق بين هذه الحياة وما كنا نتم به من هدوء في لوفان ! » (٢٢) .

وكان وهو في هذه المتاعب الداخلية يواجه بأقصى ما يستطيعه من شرف مشاكل السياسة الخارجية الخطيرة . فقد أعاد أربينو إلى فراقتشيسكو ماريا دلا روفيري . وترك ألفنسو في فيرارا لايزعجه شيء . ولما أن انتهز الطغاة المطرودون من بلادهم فرصة سياسة البابا السلمية فاستولوا على

زمام السلطة في بيروجيا ، وريميني وغيرهما من الولايات البابوية ، أهاب أدريان بالإمبراطور شارل وبالمملك فرانسس أن يتصالحا أو في القليل أن يتهادنا ، ويشتركا في صد الأتراك الذين كانوا يستعدون لغزو رودس . ولكن شارل فضل أن يوقع مع هنري الثامن ملك إنجلترا معاهدة ونزر Windsor (١٩ يونية سنة ١٥٢٢) التي تعهدا فيها بالاشتراك في الهجوم على فرنسا ، وفي الحادى والعشرين من ديسمبر استولى الأتراك على رودس آخر معاقل المسيحية في شرقى البحر المتوسط ، وترددت الإشاعات بأنهم يضعون الخطط للنزول بأبوليا والاستيلاء على إيطاليا المضطربة المختلة النظام . ولما اعتقل بعض الجواسيس الأتراك في رومة بلغ الهلع بين السكان حداً أذكر الناس بالخوف الذى انتشر فيها حين توقعت أن يغزوها هنيبال بعد انتصاره في كاني عام ٢١٦ ق . م . وكان مما أترع الكأس ألما لأدريان أن الكردنال فرانتشيسكو سُدِرِينى كبير وزرائه وموضع ثقته ، ونائبة الأول في المفاوضات التى كانت تهدف إلى عقد صلح أورنى ، أخذ يدبر في السر مع فرانسس هجوماً فرنسياً على صقلية . ولما أن كشف أدريان المؤامرة ، وتراعى إليه أن فرانسس يحشد الجند على حدود إيطاليا ، خرج عن الحياد وعقد حلفاً بين البابوية وشارل الخامس . وبعد أن تحطم جسمه وروحه على هذا النحو أصابه المرض ومات في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٦٢٣ . وأوصى بتوزيع أملاكه كلها على الفقراء ، وكان آخر ما أصدره من التعليمات أن تكون جنازته هادئة قليلة النفقة .

وحيت رومة موته بهجة أعظم مما كانت تحي بها المدينة نجاتها من الترك لو أنهم جاءوها فاتحين . وقال بعضهم إنه قد سُمِّ لمعاداته الفنون ، وألصق أحد الماجنين على باب طبيب البابا رقعة كتب عليها بالإيطالية Liberratori Patriae تليها الحروف الآتية S P Q R يعبر بها عن شكر مجلس الشيوخ وشعب رومة « لمحرر الوطن » . وكتب عدد لا يحصى له من عبارات المهجاء

لتسوئة سمعة الخير المتوفى ، فاتهم بالنهم ، والسكر ، وأفطع أنواع الفساد الخلقى ، وبديل الحقد والسخرية كل عمل قام به فى حياته فأصبح شراً ونخبثاً ، واحتفرت « صحافة » رومة بما كان باقياً لها من حرية بمقالاتها فى الطعن على البابا قبراها بنفسها : لقد كان مما يؤسف له أن أدريان لم يستطع أن يفهم النهضة على حقيقتها ، ولكن عجز النهضة عن أن تسمح بوجود بابا مسيحي فى عهدا كان أكثر من ذلك جرمأ وأشد حماقة :

الفصل السادس

كلمنت السابع

الفترة الأولى من حياته

ظل المجمع المقدس الذي اجتمع في أول اكتوبر سنة ١٥٢٢ سبعة أسابيع في نزاع دائم حول اختيار من يخلف أدريان ، ثم انتهى أخيراً بترشيح رجل كان بإجماع الآراء خيراً من يصلح لهذا المنصب . كان جويليو ده ميديتشى ابناً غير شرعى للرجل الظريف جوليانو الذي خر ضحية مؤامرة باتسى من عشيقته له تدعى فيورنا ما لبثت أن اختفت من صفحات التاريخ . وأخذ لورندسو الغلام إلى بيته بين أسرته ورباء مع أبنائه ؛ وكان منهم ليو الذي أعفى وهو بابا جوليو من العقبة القانونية القائمة في سبيله ، وهى أنه ابن غير شرعى ، ثم عينه كبير الأساقفة في فلورنس ، ثم رقيه كوردنالا ، ثم كان المدير الحازم لمدينة رومة ، وكبير وزراء حكومته البابوية . ولما بلغ كلمنت الخامسة والأربعين كان طويل القامة ، وسيم الخلق ، عظيم الثراء غزير العلم ، حسن الآداب ، طيب السيرة ، يعجب بالآداب ، والعلوم ، والموسيقى ، والفن ، ويناصرها . ورحبت رومة بارتقائه الكرسي البابوى بالفرح والابتهاج ورأت فيه دعوة إلى عهد ليو الذهبى ، وتنبأ بمبوه بأن كلمنت السابع سيكون خيراً من عرفتهم الكنيسة من حكامها وأعظمهم حكمة (٣٣) .

وبدأ عهده أحسن بداية ، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التى كانت له ، والتى كانت تدر عليه دخلاً سنوياً مقداره ٦٠,٠٠٠ دوقية . وقد

جمع حوله قلوب العلماء والنسّاحين باجتذابهم إلى خدمته ، أو نفحهم بالهبات ، ووزع العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم ، واستمع إلى كل من له شكاية ، ومنح الصدقات بسخاء ، إذا كان أقل من سخاء ليو فإنه كان أكثر منه حكمة ، وسحر جميع القلوب بمجاملته كل إنسان وكل طبقة . وقصارى القول أن بابا من البابوات لم يبدأ حكمه بداية طيبة مثل بدايته ولم يختتمه بأسوأ من خاتمته .

وكان العمل الذى يواجهه كلمنت وهو قيادة سفينة البابوية السياسية الطريق المأمون بين فرانسس وشارل فى حرب تكاد تكون حرب حياة أو موت ، فى الوقت الذى كان الأتراك يحتاجون فيه بلاد الحجر ، وكانت الثورة تشتعل نارها فى ثلث أوروبا ضد الكنيسة ، كان هذا العمل أكثر مما تستطيعه مقدرة كلمنت كما كان أكثر مما تستطيعه مقدرة ليو . ونخلق بنا أن نقول إن الصفات التى تبرزها الصورة الفخمة التى رسمها سبستيانو دل بيومبولو لكلمنت فى بداية حكمه صورة خادعة . ذلك أنه لم يظهر فى أعماله تلك العزيمة الماضية التى تبدو واضحة فى ملامح وجهه ، وحتى فى هذه الصورة يبدو شىء من الملل والضعف فى الجفون المتعبة المنسدلة فوق العينين الضجرتين . والحق أن كلمنت قد اتخذ ضعف العزيمة خطوة له وسياسة مرسومة . وكان يسرف فى التفكير ويظنه خطأ بديلا من العمل ، بدل أن يكون هاديا له ومرشداً . ولقد كان فى وسعه أن يجد مائة سبب وسبب لاتخاذ قرار بإبرام أمر من الأمور ، ومائة سبب وسبب مثلها تبرر عدم إبرامه ، وكأنما كان أغبي الخلوقات طرّاً يجلس على عرش البابوية . وقد هجاه بيرنى فى أبيات مريرة تلتبأ بحكم الخلف عليه فقال :

بابوية تتألف من التحيات ،

والمناقشات ، والاعتبارات ، والمجاملات

ومن عبارات أكثر من هذا ، ومن ثم ، ونعم ، وحسن ، وربما ،

وقد يكون ، وما إليها من الألفاظ المتناقضة . . .

ومن قدمين ثقيلتين كالرصا ص ، وحياد بارد خامل . . .

وإن شئت الحق الصريح ، فإنك ستعيش ترى .

البابا أدريان وقد نودى به قديساً بفضل هذه البابوية (٢٤) .

واتخذ له من المستشارين جيان ماتيو جبرتي Gianmatteo Giberti الذى كان يميل إلى فرنسا ، ونيقولوس فن اسكونبرج Nikolaus von Segönberg الذى كان يميل إلى الإمبراطورية ، وترك عقله مشتتاً بين الرجلين ، ولما أن قرر الانحياز إلى فرنسا — قبل أسابيع قليلة من الكارثة التى حلت بها فى بادافيا — استنزل على رأسه وعلى بلده كل ما يتصف به شارل من مكر ودهاء ، وكل ما له من قوة ، وكل ما يشور فى قلوب الجيش البروتستنتى من غضب دفين صبه على رومة .

وكانت الحجة التى يهر بها كلمنت موقفه أنه يخشى قوة الإمبراطور وفى يده لمباردى وناپلى ؛ ويرجو بانحيازه إلى فرنسا أن يحصل على صوتها حين يعرض شارل فكرته التى تراوده وتقلق خاطره وهى تأليف مجلس عام يفصل فى أمور الكنيسة . ولما عبر فرانسس جبال الألب بجيش جديد قوامه ٢٦,٠٠٠ من الفرنسيين ، والإيطاليين ، والسويسريين ، والألمان ، واستولى على ميلان ، وحاصر بادافيا ، وقع كلمنت سراً شروط حلف مع فرانسس (١٢ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى الوقت الذى كان يؤكد فيه لشارل وفاءه ومودته ؛ ثم ضم فلورنس والبندقية إلى هذا الحلف ، وأجاز لفرانسس المنتصر على كره منه أن يجمع الجند من الولايات البابوية ، وأن يرسل جيشاً ليحارب ناپلى مخترقاً أراضى البابا . ولم يغفر له شارل قط هذه الخديعة ، وأقسم قائلاً : « لأذهبن إلى إيطاليا ، وأثأرن لنفسى ممن أساءوا إلى ، وعلى رأسهم البابا الجبان النذل . ولعل مارتن لوثر سيصبح رجلاً ذا شأن فى يوم من الأيام » (٢٥) . وفكر بعض الناس وقتئذ فى اختيار لوثر

بابا ، وأشار عدد ممن يحيطون بالإمبراطور أن يطعن في اختيار كلمنت بحجة أنه ابن غير شرعي (٢٦) .

وسير شارل جيشاً ألمانيا بقيادة جورج فون فرندسبرج Georg von Frundsberg وماركيز بيسكارا Marquis of Pescara ليهاجم الفرنسيين خارج بافيا . وعطلت الحركات العسكرية الضعيفة عمل المدفعية الفرنسية ، في الوقت الذي كانت فيه نيران البنادق الأسبانية تهز أبرماح السويسريين ؛ وكاد الجيش الفرنسي أن يفنى عن آخره في موقعة من أشد المواقع الحاسمة في التاريخ (٢٤ - ٢٥ من فبراير سنة ١٥٢٥) . وسلك فرانسيس في هذه المحنة مسلك الشهامة والكرامة : فبينما كان جيشه يتقهقر إذا هو يقفز في وسط صفوف العدو ويقتل بيده منهم مقتلة عظيمة ؛ ولما قتل جواده من تحته لم ينقطع عن القتال ، حتى إذا نحات قواه آخر الأمر ، ولم يعد يقوى على المقاومة ، وقع في الأسر مع عدد من ضباطه . وكتب من خيمة بين المنتصرين إلى أمه رسالة كثيراً ما يقتبس نصف عباراتها المقتبسون ، قال فيها « لقد خسرنا كل شيء إلا الشرف - وإلا بدني فهو سليم » . وأمر شارل موكان وقتئذ في أسبانيا أن يرسل الملك ليسجن في قلعة قرب مدريد .

وانحازت ميلان إلى الإمبراطور ، وشعرت إيطاليا كلها أنها أصبحت تحت رحمته ، وتفتحته دولة إيطالية في إثر دولة بالرشا المختلفة لكي يسمح لها بالبقاء . وخشى كلمنت أن يغزو جيش الإمبراطور بلاده ، وأن يثور الشعب في فلورنس على آل ميديتشي ، فخرج من حلفه مع فرنسا وأمضى (في أول أبريل سنة ١٥٢٥) معاهدة مع شارل ده لانوي Charles de Lannoy عامل شارل على نابلي ، تعهد فيها البابا والإمبراطور بأن يتعاونوا فيما بينهما ؛ فيحمي الإمبراطور آل ميديتشي في فلورنس ويرضى أن يقيم فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا نائباً عنه في ميلان ؛ على أن يدفع البابا لشارل مقابل إهاناته السابقة له ، وضمناً لخدمات الإمبراطور المستقبلية ، مائة ألف دوقية

(١,٢٥٠,٠٠٠ دولار)^(٢٧) ، كانت الجيوش الإمبراطورية في أشد الحاجة إليها . ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أغض كلمنت البصر عن مؤامرة دبرها جيرو لومو موروني Girolomo Morone لتحرير ميلان من سيطرة الإمبراطور . وكشف مركز إينسكارا سر هذه المؤامرة لشارل ، وزج موروني في السجن . وعامل شارل فرانسس الأسير بالماملة التي يعامل بها السنور الفار الواقع في قبضته ، ذلك أنه بعد أن خدر أعصابه بسجنه ومجاملته أحد عشر شهراً ، وافق على أن يطلق سراحه مشروطاً عليه ذلك الشرط المستحيل التنفيذ ، وهو أن يسلم الملك كل ما لفرنسا من الحقوق ، ثابتة كانت أو مزعومة ، على جنوى ، وميلان ، وناپلي ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وتورناي ، وبرغندي ، ونبره (ناغار) ؛ وأن يمد فرانسس شارل بما يحتاجه من السفن والرجال لتسيير حملة على رومة أو على الأتراك ، وأن يتزوج فرانسس إليانورا أخت شارل ، وأن يسلم الملك أكبر ابنيه وهما فرانسس البالغ من العمر عشر سنين ، وهنري البالغ تسعاً إلى شارل ليكونا رهنين عنده ضماناً للوفاء بهذه الشروط . ووافق فرانسس على هذه الشروط كلها بمقتضى معاهدة مدريد (١٤ يناير سنة ١٥٢٦) . وأكد هذه الموافقة بأغلظ الأيمان ، وإن كان ضميره يداجي ويوارب . وسمح له بعدئذ في السابع عشر من مارس أن يعود إلى فرنسا تاركاً ولديه سجينين في مكانه . فلما وصل إليها أعلن أنه لا ينوي الاستمساك بالوعود التي بذلها تحت الضغط والإرهاب ؛ وأعماه كلمنت مستعيناً بالقانون الكنسي من التمسك بأيمانه ، وفي الثاني والعشرين من مايو وقع فرانسس ، وكلمنت ، والبندقية ، وفلورنس ، وفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا حلف كنيك ، وتعهدوا فيه بإرجاع آستي ، وجنوى إلى فرنسا ، وإعطاء اسفوردسا ميلان إقطاعية فرنسية ، وأن ترد إلى كل ولاية إيطالية كل ما كان لها من أملاك قبل الحرب ، وأن يُفتدى الأسرى الفرنسيون بمليون كرون ، وأن تمنح ناپلي

لأى أمير إيطالى يرضى أن يودى عنها إلى ملك فرنسا جزية سنوية مقدارها ٧٥,٠٠٠ دوقية . ووجهت دعوة رقيقة إلى الإمبراطور لتوقيع هذا الاتفاق ، وقرر الحلف الجديد أنه إذا رفض الإمبراطور توقيع شروطه ، حاربه حتى يطرد هو وجميع قواته من إيطاليا (٢٨) .

وندد شارل بالحلف وأعلن أنه يناقض الأيمان المقدسة التى أقسمها فرانسيس ، كما يناقض شروط المعاهدة التى وقعها كالمنت مع لانوى . وإذا كان هو غير قادر على الذهاب إلى إيطاليا فى ذلك الوقت ، فقد كلف هوجو ده منكادا Hugo de Moncada بأن يجتذب كالمنت إلى صفه بالوسائل الدبلوماسية ، فإذا عجز أثار ثورة على البابا يقوم بها آل كولنا وسكان رومة . وقام منكادا بهذه المهمة أحسن قيام ، وأوثق صلات المودة بين كالمنت وآل كولنا ، وأقنع البابا بأن يسرح الجنود الذين يقومون بحراسته ، وسمح لآل كولنا بأن يمشوا فى تأمرهم للاستيلاء على رومة . وبينما كانت المسيحية ماضية فى الغدر والاقتتال على هذا النحو ، كان الأتراك بقيادة سليمان القانونى يضربون أهل المجر الضربة القاسية فى موهاكس Móhacs (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٦) ، ويستولون على بودابست (١٠ سبتمبر) . وارتاع كالمنت لخوفه من أن لا تصبح أوروبا بروتستنتية فحسب ، بل مسلمة أيضاً ، فأعلن إلى الكرادلة أنه يفكر فى الذهاب إلى برشلونة بنفسه ليطلب إلى شارل أن يعقد الصلح مع فرانسيس ، وأن يضم العاهلان قواتهما لمحاربة الأتراك . وكان شارل فى ذلك الوقت يجهز أسطولا ، يقصد به كما قيل فى رومة ، أن يغزو إيطاليا ويخلع البابا (٢٩) .

وفى العشرين من سبتمبر دخل آل كولنا رومة ومعهم خمسة آلاف جندى ، وتغلبوا على ما لقوا من مقاومة ضعيفة ، ونهبوا قصر الفاتيكان ، وكنيسة القديس بطرس ، وبورجو فتشيو القريبة منها ، وفر كالمنت إلى قلعة سانت أنجيلو . وبجرد قصر البابا من كل ما فيه بما فى ذلك الصور

التي رسمها رفائيل على أقمشة الجدران وسرق تاج البابا نفسه ، والأواني المقدسة ، والمخلفات المدخرة ، والملابس البابوية الثمينة ؛ وخرج جندي استخفه المرح فارتيدي ثوب البابا الأبيض ، وقلنسوته الحمراء ، وأخذ يوزع البركات البابوية بوقار ساخر^(٣٠) . وفي اليوم التالي رد منكادا لكلمنت التاج البابوي ، وأكد له أن الإمبراطور لا يصر للبابوية إلا الخير ، وأرغم البابا المرتاع أن يوقع هدنة مع الإمبراطورية تدوم أربعة أشهر ، وأن يعفو عن آل كولنا .

ولم يكد منكادا ينسحب إلى ناپلي حتى حشد كلمنت قوة بابوية جديدة قوامها سبعة آلاف جندي ، أمرها في آخر شهر أكتوبر بأن ترحف على حصون آل كولنا ، وطلب في الوقت نفسه إلى فرانسيس الأول وهنري الثامن أن يمداه بالعون ؛ فأما فرانسيس فقد بعث إليه يعتذر ويسوف ، وأما هنري فقد كان منهمكا في الواجب الثقيل واجب إنجاب ابن يخلفه ، ولهذا لم يرد بشيء . وكان ثمة جيش بابوي آخر في الجنوب أعجزته عن العمل سياسة التسوية الغادرة في ظاهرها التي جرى عليها فرانتشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أربينو الذي لم ينس أن ليو العاشر أخرجه من دوقيته ، ولم يكن يرى في سماح أدريان وكلمنت له بالعودة إليها والبقاء فيها فضلا لها كبيرا يشكره لها . وكان مع هذا الجيش قائد أعظم منه بسالة هو الشاب جيوفني ده ميديتشي الوسيم الخلق ابن كترينا اسفوردسا الذي ورث عنها روحها العالية والذي سمى جيوفني دلي باندي نيري - جيوفني ذا الرباط الأسود - لأنه هو وجنوده قد لبسوا شرائط سوداً حزناً على موت ليو^(٣١) . وكان جيوفني هذا يتحرق شوقاً إلى قتال ميلان ، ولكن فرانتشيسكو ماريا تغلب عليه .

الفصل السابع

نهب رومة : ١٥٢٧

وكان شارل لايزال مقبلاً في أسبانيا يحرك منها بيادته التي يسيطر عليها سيطرة الساحر من بعيد . ومنها أمر عماله بأن يحشدوا جيشاً جديداً . فاتجبل هؤلاء بـجورج فن فرندسبرج الزعيم الثيولي المغامر ، الذي كانت جنوده الألمانية المرتزقة قد ذاعت شهرتها في الآفاق . ولم يكن في وسع شارل أن يعرض على هذا الزعيم المغامر وجنوده إلا القليل من المال ، ولكن عماله منوهم بالنهب الكثير في إيطاليا . وكان فرندسبرج لايزال كاثوليكية بالاسم ، ولكنه كان شديد العطف على لوثر ، ويكره كلمنت لأنه في رأيه عدو الإمبراطورية اللدود . ورهن هذا الزعيم المغامر قصره وسائر أملاكه ، وحتى حلى زوجته نظير مبلغ ٣٨,٠٠٠ جولدن(*) . واستطاع بهذا المال أن يجمع عشرة آلاف من الرجال الراغبين أشد الرغبة في المغامرة والنهب ، ليس منهم من يتردد في أن يحطم حريته فوق رأس البابا ، ويقال إن منهم من كان يحمل جبلاً معقوداً ليشنقه به (٢٢) . وفي نوفمبر من عام ١٥٢٦ عبر هذا الجيش المرتجل الجبال وزحف على بريشيا ، وجازى ألفونسو دوق فيرارا البابوية على ما بذلته من جهود متكررة لخلعه ، بأن أرسل إلى فراندسبرج أربعة من أقوى مدافعه . وحدثت مع الغزاة مناوشة بالقرب من بريشيا أصيب فيها جيوفني دلي باندي بالرصاص . ومات في مانتوا في ٣٠ نوفمبر وهو في السادسة والعشرين من عمره . ولم يبق بعد وفاته من يمنع دوق أربينو من أن يفعل أي شيء يريد .

(*) عملة ألمانية وهولندية قديمة تعادل الفلورين . أي ما يقرب من نصف جنيه . (المترجم)

وعبر غوغاء فرندسبرج نهر البو كما فعل نجوفى ونهبوا حقول لمباردى الغنية نهباً بالغ من شدته أن السقراء الإنجليز وصفوا أرضه بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بأنها « أشقى أرض وجدت في العالم المسيحي في وقت من الأوقات » (٣٣) . وكان قائد جيش الإمبراطور وقتئذ في ميلان هو شارل دوق بوربون ، الذى عين وقتئذ قائداً أعلى للجيش الفرنسية لما أظهره من البسالة في ماريانو . وكان شارل هذا قد خرج على فرانسيس حين حرمة أم الملك ، حسب اعتقاده ، من أراضي الخاصة ؛ فانحاز إلى الإمبراطور ، وكان له نصيب في هزيمة فرانسيس في بافيا ، وعين دوقاً لميلان . وأراد وقتئذ أن يجند جيشاً لمساعدة شارل ويؤدى له مرتباته ، ففرض من الضرائب على أهل ميلان ما كاد يقتلهم قتلاً ، وكتب إلى الإمبراطور يقول إنه استنزف دماء المدينة ؛ وكان جنوده الذين أسكنهم في بيوت أهلها لا يفتأون يضايقونهم بالسرقة ، والمعاملة الوحشية ، وهتك الأعراض ، مما حمل كثيرين منهم على أن يشنقوا أنفسهم أو ينتحروا بإلقاء أنفسهم من الأماكن العالية في الشوارع (٣٤) . وفى أوائل شهر فبراير من عام ١٥٢٧ خرج بوربون على رأس جيشه من ميلان ، وضمه إلى جيش فرندسبرج بالقرب من بيانشندسا . واتجه هذا الجيش المختلط الذى بلغت عدته الآن ٢٢.٠٠٠ جهة الشرق متبعاً طريق إيميليا ، متجنباً المدن الحصينة ، ولكنه ينهب كل ما يجده في طريقه، ويترك البلاد وراءه قاعاً صفصفاً .

ولما تبين كلمنت أن ليس لديه من الجنود ما يكفي لصد الغزاة ، توسل إلى لانوى أن يعمل لعقد هدنة . وجاء هذا الحاكم من نابلى ووضع شروط هدنة مدتها ثمانية أشهر : وتتضمن أن يقف كلمنت وكولنا الحرب ويتبادلا ما فتحاه من الأرضين . ودفع البابا ستين ألف دوقية يرشونها بها جيش فرندسبرج حتى يبقى خارج الولايات البابوية . ورأى كلمنت أنه أوشك على الإفلاس ، وظن أن فرندسبرج وبوربون سيزعيان شروط الاتفاق الذى

وقعه نائب الإمبراطور بشرف وأمانة ، فخنض جيش رومة إلى ثلثمائة جندي لا أكثر . غير أن جنود بوربون السارقين النهابين ثاروا غضابا حين سمعوا بشروط الهدنة . ذلك أنهم ظلوا أربعة أشهر يقاسون آلاف الصعاب وكل ما يملونه هو نهب رومة ؛ وكانت كثرتهم الغالبة ترتدى الآن أسما لا بالية ، وتمشي حافية الأقدام ؛ وكانوا كلهم جوعاً ولم يتناول منهم أحد مرتبه . ولهذا أبوا أن يشتروا بمبلغ تافه لا يزيد على مئتين ألف دوقية ، يعرفون أنه لن يصل إلى جيوبهم منه إلا جزء قليل . وإذا كانوا يخشون أن يوقع بوربون شروط الهدنة ، فقد حاصروا خيمته ، ورفعوا عقيرتهم قائلين : « الأجور ! الأجور ! » واختفى بوربون في مكان آخر ، ونهب الجند خيمته ، وحاول فرندسبرج أن يهدئ ثورة غضبهم ، ولكنه أصابته نوبة تشنجية في أثناء هذه المحاولة ، ولم يشترك بعدها في الحملة حتى مات بعد عام واحد من ذلك الوقت . وتولى بوربون القيادة العليا على شرط أن يزحف على رومة . وفي التاسع والعشرين من مارس بعث برسالة إلى لانوي وكلمنت يبلغهما أنه لا يستطيع كبح جماح جنوده ، ولهذا فهو مرغم على نقض الهدنة .

وأدركت رومة أخيراً أنها هي الأفريسة الضعيفة المقصودة . وفي يوم خميس الصعود (٨ أبريل) بينا كان كلمنت يمنح بركته لجموع محتشاة تبلغ عشرة آلاف نفس أمام كنيسة القديس بطرس ، إذ صعد شخص متعصب مشهور ، لا يلبس إلا ميدعة من الجلد ، فوق تمثال القديس بولص وصاح في وجه البابا قائلاً : « أيها النغل اللائط ! إن رومة ستدمر بسبب خطاياك ؛ فكفر عن ذنوبك وارجع عن غيك ! وإذا لم تصدقني فستري بعد أربعة أشهر ما يحل بها » . وفي مساء يوم عيد الفصح أخذ هذا الزاهد الناسك — بارتوليميو كاروسي Bartolommeo Carosi الذي يطلق عليه اسم برندانو Brandano — يطوف بالشوارع وهو يصيح : « رومة ، كفرى

عن ذنوبك ! لأنهم سيعاملونك كما عامل الله سدوم وعمورة ، (٣٥) .

وأرسل بوروبون إلى كيمنت يطلب ٢٤٠,٠٠٠ دوق ، ولعله كان يأمل أن يرضى جنوده بهذه الزيادة الكبيرة في ماله ؛ فرد عليه كلمنت بأنه عاجز كل المعجز عن جمع هذه القدية الضخمة . وزحف الجحافل اللجب إلى فلورنس ، ولكن جوتشياردينى دوق أرينو . ومركز سالتسو كانا قد حشدوا من الجنود ما يكفي للدفاع عن حصونها دفاعاً قوياً ؛ ولهذا ارتدت تلك الجحافل خاسرة ، واتخذت طريقها إلى رومة . ووجد كلمنت أن الهدنة غير كفيلة بنجاته ، فانضم إلى حلف كنيك المناوى لشارل ، وطلب المعونة من فرنسا ، ودعا أغنياء رومة أن يسهموا في جمع المال اللازم للدفاع عنها ، فكانوا أشحاء في الاستجابة إلى رغبته ، واقترحوا عليه طريقة أجدى من هذه وهى بيع القلائس الحمر (*) . ولم يكن كلمنت قد باع المناصب بالمال إلى جماعة الكرادلة ، ولكنه أخذ بهذا الاقتراح حين وصل جيش بوروبون إلى فيتربو التى لا تبعد عن رومة بأكثر من اثنين وأربعين ميلاً ، وباع ستة من هذه المناصب . وقبل أن يؤدى المرشحون المال أبصر البابا من نوافذ الفاتيكان الجحافل الجياع تتقدم مجتازة حقول نيرون ، وكان لديه فى ذلك الوقت أربعة آلاف جندى يدفعون عن رومة ضد عشرين ألفاً من المهاجمين .

وفى السادس من مايو اقتربت جموع بوروبون من الأسوار مسترة بالضباب ، ولكنها صدت عنها بوابل من الرصاص ، وأصيب بوروبون نفسه برصاصة قضت عليه لساعته تقريباً . ولكن هذا لم يمنع المهاجمين من أن يعاودوا الهجوم ، لأنهم لم يكن أمامهم غير واحدة من اثنين ، فلما أن يستولوا على رومة ولما أن يموتوا جوعاً . واتفق أن عثروا على موقع ضعيف فى خط الدفاع ، فاخترقوه عنوة ، وتدفقوا إلى داخل المدينة .

(*) قلائس الكرادلة - أى بيع مناصبهم بالمال . (المترجم)

وحارب حرس رومة ، والحرس السويسرى ببسالة ، ولكنهما أبديا عن
آخرهما . وفر كلمنت ، ومعظم الكرادلة المقيمين فى المدينة ومئات من
الموظفين إلى قلعة سانت أنجيلو حيث حاول تشيلبنى وغيره أن يقفوا زحف
الغزاة بنار المدفعية . ولكن الغزاة دخلوا المدينة من اتجاهات مختلفة أوقعت
الارتباك فى صفوف المدافعين ، فمن المهاجمين من سترهم الضباب ، ومنهم
من اختلطوا بالفارين اختلاطاً لم تستطع معه مدافع القاعة أن تضربهم من
غير أن تقتل معهم الجماعير التى فقدت قوتها المعنوية ، وما لبثت المدينة أن
أصبحت تحت رحمة الغزاة .

ولما اندفع هؤلاء فى شوارعها أخذوا يقتلون كل من واجهوه فى
طريقهم دون أن يفرقوا بين الرجال ، والنساء ، والأطفال . واشتد تعطشهم
إلى سفك الدماء ، فدخلوا مستشفى سانتو اسپيرتو (الروح القدس) وملجأ
اليتامى فيه ، وذبحوا كل من فيها من المرضى كلهم تقريباً . ثم انجهوا إلى
كنيسة القديس بطرس ، وذبحوا من لجأوا إلى هذا الحرم المقدس ، ونهبوا
بعدئذ كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الكنائس والأديرة ، وحولوا
بعضها إلى اسطبلات لحيولهم ، وقتلوا مئات من القساوسة ، والرهبان ،
والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان
من أعلاهما إلى أسفلهما من كل ما فيها ، وربطت الخيول فى حجرقة
رفائيل^(٣٦) . ونهب كل بيت فى رومة وحرق الكثير منها عدا اثنين لا أكثر هما
قصر الكانتشيريا Cancellaria الذى كان يشغله الكردينال كولنا ، وقصر
آل كولنا الذى لجأت إليه إزبلادست ، ومعها بعض أغنياء التجار ، ونفح
هؤلاء زعماء الغوغاء بخمسين ألف دوقة لينجولهم من الهجوم ، ثم سمحوا
لألفين من اللاجئين أن يحتموا وراء الأسوار . وأدى كل قصر من القصور
القديمة نظير حمايته ، ولكن هذه القصور نفسها هاجمتها جماعات أخرى
واضطرت أن تفتدى نفسها من جديد . وقد حدث فى معظم البيوت أن

اضطر من فيها جميعاً إلى افتداء أنفسهم بمبلغ محدد ؛ فإذا لم يوفوا به كله تعرضوا لألوان من العذاب ، وقتل منهم آلاف ، وألقي بالأطفال من النوافذ العليا ، لكي يضطر آباؤهم إلى إخراج ما اكتنزوه من المال وأخفوه ، حتى غصت الشوارع بالقتلى . وشهد الثرى دومينيكو صاحب الملايين بعينه أبنائه يقتلون ، وابنته يهتك عرضها ، وبيته يحرق ، ثم انتهى الأمر بقتله هو نفسه . ويقول بعض الواصفين : « ولم تكن في المدينة كلها نفس فوق الثالثة من العمر لم تضطر إلى أن تبتاع سلامتها بالمال » (٣٧) .

وكان نصف الغوغاء المنتصرين من الألمان ، لم يكن يشك معظمهم في أن البابوات والكرادلة اصوص ، وأن ثروة الكنيسة في رومة سرقة ونهب من الأمم ، وفضيحة للعالم . وأرادوا هم أن يخففوا من هذه الفضيحة ، فاستولوا على جميع ما في الكنائس من ثروة منقولة بما فيها من الأواني المقدسة ، والتحف الفنية ، وخرجوا بها ليلبيوها أو يفتدوا بها أنفسهم ، أو يبيعوها . أما المخلفات المقدسة فقد تركوها مبعثرة على الأرض . وارتدى أحد الجنود الأثواب البابوية ، ولبس غيره قلانس الكرادلة ، وقبلوا قدميه ، ونادى جماعة من الغوغاء في الفاتيكان بلوثر بابا . وكان أتباع مذهب لوثر من الغزاة يجدون لذة خاصة في نهب أموال الكرادلة ، وتقاضي فديات عالية منهم نظير تركهم أحياء ، وتعليمهم مراسم دينية جديدة . ويقول جوتشيارديني إن بعض الكرادلة « أركبوا دواب قدرة حقيرة ، وأديررت وجوههم نحو ذيولها وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتها ، وطاف الغوغاء ببعضهم في شوارع المدينة معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار . وعذب بعض من لم يستطيعوا جمع كل ما طالب إليهم من مال الفداء تعذيباً قسى على حياتهم في التواء الساعة أو بعد أيام قلائل » (٣٨) . وأنزل أحد الكرادلة في قبر من القبور وهدد بأنه سيدفن فيه حياً إن لم يأت بالفدية في زمن محدد ؛ وجاء هذا المال في اللحظة الأخيرة (٣٩) . ولم يلق الكرادلة الألمان ، الذين ظنوا

أنفسهم بمنجاة من شر أبناء وطنهم ، خيراً مما لقيه غيرهم . وهتكت أعراض
الراهبات والمحصنات من النساء في بيوتهن أو في الأديرة نفسها ، أو حان
ليشبع فيهن جماعات من الجند شهواتهم بوحشية في أماكنهم^(٤٠) . وهوجمت
النساء على أعين أزواجهن أو آبائهن ؛ واستبد البأس بكثيرات من الفتيات
بعد هتك أعراضهن فأغرقن أنفسهن في نهر التير^(٤١) .

وكان الدمار الذي حاق بالكتب ، والمخطوطات ، ونفائس الفن يجل
عن الوصف . واستطاع فليبرت Philibert ، أمير أورنج Prince of Orange
الذي تولى وقتئذ قيادة هذه الحشود المختلة النظام ، أو ما يشبه قيادتها ،
استطاع هذا الأمير أن ينقذ مكتبة الفاتيكان باتخاذها مقراً لقيادته ، ولكن
كثيراً من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة التهمت بالنيران ، وضاعت بذلك
كثير من المخطوطات القيمة . ونهبت كذلك جامعة رومة وبدد شمل موظفيها .
وشهد العالم كولوتشي بيته يحترق عن آخره هو وما جمعه فيه من المخطوطات
وروائع الفن . وأبصر الأستاذ بالدوسي تعليقاته الجديدة على كتاب بلني تتخذ
لإشعال نار في معسكر الناهبين . وفقد الشاعر ماروني Marone قصائده ،
ولكنه كان أسعد حظاً من غيره ؛ أما الشاعر باولو بمباستي Paolo Bombasti
فقد قتل ؛ وعذب العالم كرسstofور مارتشيلو Cristoforo Marcello بنزع
أظافر يديه ظفراً بعد ظفر ، أما الفنانان بيرينو دل فاجا Perino del Vaga ،
وماركانتوريو ريمندي Marcantorio Raimoudi وكثيرون غيرهما فقد عذبوا
وجردوا من كل ما يمتلكون ، وتفرق شمل مدرسة رفائيل فلم يبق لها وجود .
وليس من المستطاع إحصاء عدد من قتلوا في هذه الكارثة المدممة ؛
وكل ما نستطيع أن نقوله أن ألبي جثة ألقيت في نهر التير من شاطئه الذي
تقع عليه الفاتيكان ؛ وأن ٨٠٠ ر ٩ من الموتي دفنوا ؛ وما من شك في أن
عددًا آخر كبيراً من الناس قد قتل . وتقدر قيمة المنهوبات تقديراً متواضعاً
بأكثر من مليون دوقة ، وقيمة ما دفع من مال الفداء بثلاثة ملايين ، وقدر

كلمنت مجموع الخسائر بعشرة ملايين (١٢٥٠٠٠٠٠٠٠ دولار) (٤٣) .
ودام السلب والنهب ثمانية أيام ، كان كلمنت في خلالها يشاهده بعينه
من أبراج سانت أنجيلو ؛ ويتوسل إلى الله كما توسل إليه أبوب المعذب :
« فلماذا أخرجتني من الرحم ، كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين » (٤٤) !
وامتنع وقتئذ عن خلق لحيته ، فلم يحلقها بعد ذلك أبداً ، وظل سجيناً في
القلعة من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وهو يأمل أن تأتيه النجاة
من جيش دوق أربينو ، أو من فرانسيس ، أو هنري الثامن . وسر شارل ،
وكان لا يزال وقتئذ في أسبانيا ، عند سماعه بسقوط رومة ، ولكنه روع
حين ترامت إليه أنباء وحشية الناهبين ، وتنصل من تبعة هذه المنكرات ،
ولكنه أفاد كل الإفادة من ضعف البابا وخذلانه . وفي السادس من شهر
يونيه أرغم ممثلوه - وقد يكون ذلك على غير علم منه - كلمنت بأن يوقع
شروط سلم مهينة ، وافق البابا بمقتضاها على أن يؤدي لهم وللجيش
الإمبراطوري ٤٠٠ ر ٠٠٠ دوقية ، وأن يسلم إلى شارل مدائن بياتشندسا ،
وبارما ، ومودينا ، وقصور أستيا ، وتشفيتا فيتشيا ، وسانت أنجلو نفسها ؛
وأن يبقى سجيناً في هذه القلعة الأخيرة حتى يسلم المائة والخمسين ألفاً الأولى
من هذا المبلغ ، ثم ينقل بعدئذ إلى جاثيتا Gaeta أو نابلي ، حتى يقرر شارل
نفسه مصيره . وسمح لجميع من كانوا في قلعة سانت أنجيلو بمغادرتها ما عدا
كلمنت وثلاثة عشر من الكرادلة ، الذين صحبوه إليها ، وعهد إلى الجنود
الأسبان والألمان بحراسة الحصن ، وأبقوا البابا على الدوام تقريباً محصوراً
في جناح ضيق منه ، وصفه جوتشياردين في ٢١ يونيو بقوله : « إنهم
لم يتركوا له فيه من المتاع ما يساوي عشرة اسكودوات (*) » . وأسلم كل
ما كان قد أخذه معه في فراره من الفضة والذهب إلى أسريه ليوفي بذلك
مائة ألف دوقية من مال الفداء .

(*) عملة إيطالية كانت موجودة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر في إيطاليا وصقلية
تيمتها أقل قليلاً من الدولار الأمريكي . (المترجم)

وفي هذه الأثناء استولى ألفنسو صاحب فرارا على ريجيو ومودينا اللتين كان لفرارا فيهما حقوق من أقدم الأزمنة ، كما استولت البندقية على رافنا . وطردت فلورنس آل ميديتشى للمرة الثالثة وأعلنت يسوع المسيح ملكا على الجمهورية الجديدة ، وبدأ أن صرح البابوية كله مادياً وروحياً آخذ في الانهيار ، وحركت مأساة هذا الخراب أسى الناس جميعاً حتى الذين كانوا يشعرون بأن خيانات كلمنت ، وآثام البابوية ، وشره حكومتها ، وتترف رجال الدين ، ومظالم رومة ، كانت كلها خليقة ببعض العقاب . وسمع سادوليتو ، وهو آمن مطمئن في كارپنتراس Carpentras بسقوط رومة فروعه النبأ ، وتحسر على مضي تلك الأوقات الحلوة الهادئة التي جعلها يعبو ، وكستجليوني ، وإزبلا ، ومائة من العلماء ، والشعراء ، وأنصار العلم والفن ، موطناً لها حتى بلغا فيها ذروة مجدهما . وكتب إرازمس لسادوليتو يقول : « لم تكن رومة كعبة الدين المسيحي ، ومهد النفوس النبيلة ، وموطن الآداب والعلوم والفنون فحسب ، بل كانت أيضاً أم الأمم . وكم من الناس كانت أعز عليهم وأحلى لهم ، وأعظم قيمة لديهم ، من بلادهم نفسها ! . . . ألا إن هذا الخراب لم يكن في الحقيقة خراب بلدة واحدة ، بل كان خراب العالم أجمع » (٤٦) .

الفصل الثامن

شارل المنتصر : ١٥٢٧ - ١٥٣٠

فشا الطاعون في رومة عام ١٥٢٢ وأنقص عدد سكانها إلى ٥٥,٠٠٠ ،
سوما من شك في أن حوادث القتل ، والانتحار ، والهرب في أثناء الحرب
تقد أنقصتهم أيضاً إلى أقل من ٤٠,٠٠٠ في عام ١٥٢٧ . وفي شهر يوليه من
هذا العام الأخير جاء الطاعون مرة أخرى في أشد شهور العام قيظاً ،
وانضم إلى القحط والجحافل الخربة فأصبحت رومة مدينة الرعب ، والفزع ،
والخراب . وامتلأت الكنائس والشوارع مرة أخرى بجثث الموتى ، ترك
الكثير منها يتعفن في الشمس ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من الرمم
والأقدار قوية إلى حد لم يطقه السجنانون والمسجونون ففروا من أسوار القلعة
إلى حجراتهم ، وحتى في داخل الحصن مات الكثيرون من الوباء ، وكان
من بينهم نخدم البابا . ولم يفرق الطاعون بين الأهلين والغزاة . فمات من
الألمان ٢٥٠٠ في رومة في ٢٢ يوليه سنة ١٥٢٧ ، وأهلك الزهري ، والملاريا ،
وسوء التغذية نصف عدد الجيش .

وشرح أعداء شارل يفكرون جدياً في إنقاذ البابا . وكان هنري الثامن
يخشى ألا يمنحه الخبر السجين إذناً بتطبيق كثيرين الأرغونية ، فأرسل الكردينال
ولزى إلى فرنسا ليفاوض فرانسيس في الوسائل التي تتبع لإطلاق سراح
كلمنت ، وفي أوائل شهر أغسطس عرض الملكان على شارل الصلح
و ٢,٠٠٠,٠٠٠ دوقية على شرط أن يطلق سراح البابا والأمراء الفرنسيين ،
وأن ترد الولايات البابوية إلى الكنيسة . فلما رفض شارل هذا العرض ،
عقد فرنسيس وهنري معاهدة أمين (١٨ أغسطس) التي تعهدا فيها بمحاربة
شارل ، وما لبثت البندقية وفلورنس أن انضمتا إلى الحلف الجديد ،

واستولت القوات الفرنسية على جنوى وباثيا ونهبت المدينة الثانية نهباً يكاد يكون تاماً ، ولا يقل عما أوقعه الجيش الإمبراطوري برومة ؛ ونخشيت مانتوا وفيرارا الفرنسيين القريبين منهما أكثر مما كانتا تخشيان شارل البعيد عنهما ، فانضمتا أيضاً إلى الحلف ؛ غير أن القائد الفرنسي لوترك Lautrec عجز عن دفع رواتب جنده ولم يجرؤ على الزحف بهم على رومة .

وأمل شارل في أن يسترد مكانته في العالم المسيحي الكاثوليكي ، وأن يهدئ من حمس الحلف المطرد الزيادة ، فوافق على إطلاق سراح البابا مشروطاً ألا يقدم كلمنت أية مساعدة إلى الحلف ، وأن يدفع من فوره إلى الجيش الإمبراطوري في رومة ١١٢,٠٠٠ دوقه ، وأن يقدم الرهائن ضماناً لحسن سلوكه . وجمع كلمنت المال اللازم ، يبيع مناصب الكرادلة ، ومنح الإمبراطور عشر إيراد الكنيسة في مملكة نابلي ، وفي السابع من ديسمبر ، غادر كلمنت سانت أنجيلو بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر وتخفى في زي خادم ، واتخذ سبيله وهو ذليل خارج رومة إلى أرفينو ، لا يشاك من يراه في أنه رجل محطم .

وفي أربينو أسكن قصرأ مخرباً خر سقفه ، وتعرت جدرانها وتشققت ، نصفر الريح في جوانبه . ولما قدم عليه السفراء الإنجليز ليحصلوا هنري على طلاق زوجته ، وجدوه مكوماً في الفراش ، وقد اختفى نصف وجهه الممتقع الضامر الناحل تحت لحية طويلة خشنة . وفي هذا القصر قضى البابا الشتاء ، ثم نقل بعده إلى فيتيبو . وفي السابع عشر من يناير جلا الجيش الإمبراطوري عن رومة بعد أن حصل من شارل على كل ما يستطيع الحصول عليه منه ، لأنه كان يخشى فتك الطاعون ، واتخذ هذا الجيش سبيله جنوباً إلى نابلي . وزحف لوترك وقتئذ يحيشه جنوباً ، مؤملاً أن يجاصر نابلي . ولكن الملاريا كانت قد أهلكت عدداً كبيراً من رجاله ، وقضى هو نحيبه ، وتقهقرت جيوشه المختلة النظام نحو الشمال (٢٩ أغسطس .

سنة ١٥٢٨) : وفقد كلمنت كل أمل في معونة الحلف ، فعرض على شارل أن يستسلم له استسلاماً تاماً ؛ وفي السادس من شهر أكتوبر سمح له بالعودة إلى رومة . وروعه أن رأى أربعة أخماس بيوتها قد هجرها أصحابها ، وآلاف المباني قد تخربت ؛ وذهل الناس إذ رأوا ما أحدثه الغزو الذي دام سبعة أشهر في عاصمة العالم المسيحي .

ويبدو أن شارل فكر في وقت ما في خلع كلمنت ، وضم الولايات البابوية إلى مملكة نابلي ، واتخاذ رومة عاصمة لإمبراطوريته ، وأنزل البابا منزله الأساسية وهي أن يكون أسقف رومة وخاضعاً للإمبراطور (٤٧) . ولكن هذا إذا حدث كان من شأنه أن يدفع شارل إلى أحضان اللوثرين في ألمانيا ؛ ويوقد نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، ويثير فرنسا ، وإنجلترا ، وبولندا ، والمجر لمقاومته بجميع قواها المتحدة . ولهذا تخلى عن ذلك المشروع ، واتجه إلى جعل البابوية حليفته التي تعتمد عليه ، وعونه الروحي في تقسيم إيطاليا بينهما . ولهذا عقد مع البابا معاهدة برشونة (٢٩ يونيه سنة ١٥٢٩) التي نزل فيها البابا عن أشياء كثيرة هامة : منها أن يرد للكنيسة الإمارات التي انتزعت منها ، وأن يعيد بالسياسة أو بالقوة أقارب البابا الميديتشين في فلورنس ، وحتى فيرارا نفسها وعد أن يعيدها إلى البابا . ووافق البابا في نظير هذا على أن يمنح شارل مَلِك نابلي بصفة رسمية ، وأن يحجز للجيش البابوية حرية المرور في الولايات البابوية ، وأن يلتقي بالإمبراطور في بولونيا في العام التالي ليثبتا قواعد الصلح وينظما إيطاليا .

وبعد قليل من ذلك الوقت التقت مرجريت عمة شارل ونائبته في حكم الأراضي الوطيئة بلاويزة أميرة سافوي ، وأم فرانسيس . واستعاننا بعدد من السفراء والمندوبين ، ووضعنا صيغة معاهدة كبريه (٣ أغسطس سنة ١٥٢٩) بين الإمبراطور والمَلِك . وبمقتضى هذه المعاهدة أطلق شارل الأمراء الفرنسيين نظير فدية مقدارها ١,٢٠٠,٠٠٠ دوقية ؛ وتخلي فرانسيس باسم

فرنسا عن جميع مطالبه في إيطاليا ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وأراس ، وتورناي^(٤٨) . وبهذا ترك حلفاء فرنسا في إيطاليا تحت رحمة الإمبراطور .

ثم التقى شارل وكلمنت في بولونيا في الخامس من نوفمبر سنة ١٥٢٩ ، وكان كلاهما الآن مقتنعاً بأنه في حاجة إلى الآخر . ومن أغرب الأشياء أن هذه كانت أول زيارة لإيطاليا يقوم بها شارل ؛ ذلك أنه فتح تلك البلاد قبل أن يراها . ولما ركع أمام البابا في بولونيا ، وقبل قدم الرجل الذي مرغه في الثرى ، كان ركوعه هذا هو المرة الأولى التي أبصر فيها كلا الرجلين صاحبه — الرجل الذي يمثل الكنيسة في عهد اضمحلالها ، والرجل الذي يمثل الدولة الحديثة الناشئة المنتصرة — وفارق كلمنت جميع كبريائه ، وغفر جميع ما لحقه من إساءات ؛ ولم يكن من ذلك بد ؛ فلم يكن في وسعه آنذاك أن يتطلع إلى عون فرنسا ؛ وكان لشارل جيش لا يقاوم في جنوبي إيطاليا وشمالها ، ولم يكن يستطيع إعادة فلورنس لآل ميديتشى دون مساعدة الجيوش الإمبراطورية ؛ وكان في حاجة إلى مساعدة الإمبراطور ضد لوثر في ألمانيا ، وضد سليمان القانوني في الشرق . ووقف شارل وقتئذ وقفة الرجل الكريم الحصيف : فقد استمسك بجوهر شروط اتفاق برشلونة الذي عقده حين لم تكن له هذه القوة التي لا تقاوم ، فأرغم البندقية على أن تعيد كل ما استولت عليه من أملاك الولايات البابوية ؛ وسمح لفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا أن يحتفظ بميلان المخربة تحت رقابة الإمبراطور إذا أدى نظير ذلك غرامة حربية كبيرة ؛ وأقنع كلمنت بأن يسمح لفرانتشيسكو ماريا دلا روفيري الجبان أو الغادر بأن يحتفظ بأريدينو . وغفر لألفنسو انضمامه القريب العهد إلى فرنسا ، وكافأه على ما قدم من معونة أثناء الزحف على رومة بأن سمح له بالاحتفاظ بدوقيته على أن تكون إقطاعية بابوية ، وأعطاه مودينا ورجيو إقطاعيتين من قبل الإمبراطورية ؛ وأدى ألفنسو للبابا في نظير ذلك مائة ألف دوقية كان البابا في أشد الحاجة إليها . وأراد شارل أن يوطد دعائم هذه التسويات

كلها فدعا جميع الإمارات إلى الانضمام إلى اتحاد من جميع أجزاء إيطاليا للدفاع المشترك عنها ضد الهجوم الخارجي — ما عدا هجوم شارل نفسه — وهي الوحدة التي سعى إليها دانتي عند الإمبراطور هنري السابع ، وبترايك عند الإمبراطور شارل الرابع ؛ وها هي ذي الآن تتحقق بالخضوع المشترك إلى دولة أجنبية . وبارك كلمنت هذا الاتفاق كله ، وتوج شارل إمبراطوراً بأن وضع على رأسه تاج لمباردي الحديدي ، وتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة الإمبراطوري البابوي (٢٢ — ٢٤ فبراير سنة ١٥٣٠) .

وسجل حلف البابا والإمبراطور بدماء فلورنس . وتفصيل ذلك أن كلمنت اعزم أن يعيد إلى أسرته ما كان لها من سلطان فدفع ٧٠٠٠٠ دوقية إلى فليبرت أمير أورنج (الذي أبقاه سجيناً) ، لينشئ بها جيشاً يجتاح به جمهورية الأثرياء التي أقيمت هناك في عام ١٥٢٧ . وسير فليبرت للقيام بهذه المهمة عشرين ألفاً من الجنود الألمان والأسبانيين ، الذين اشترك الكثيرون منهم في نهب رومة (٤٩) . واحتلت هذه القوة بستويا وبراتو Prato في شهر ديسمبر سنة ١٥٢٩ وضربت الحصار على فلورنس . وأراد أهل المدينة البواسل أن يعرضوا المهاجمين لنيران المدفعية الفلورنسية ، فدمروا كل بيت ، وحديقة ، وجدار ، في مسافة تمتد ميلاً كاملاً حول حصون المدينة ؛ وترك ميكل أنجيلو أعمال الحفر التي كان يقوم بها في قبور آل ميديتشي ليبني الحصون والأسوار أو يعيد بناء ما كان قد تهدم منها . ودام الحصار سبعة أشهر قاست فيها المدينة الأهوال ، فقد شح فيها الطعام حتى بيع القار أو القلط بما يعادل اثني عشر دولاراً ونصف دولار (٥٠) . وسلمت الكنائس آنيها ، وسلم الأهلون صحافهم ، وتبرعت النساء بحليهن ، كي تحول كلها إلى نقود لابتياح المؤن أو الأسلحة . وأخذ الرهبان الملتهبون وطنية أمثال الراهب . بنيديتو دا فويانا Benedetto Da Foiana يرفعون روح الأهلين المعنوية بعظاتهم الدينية . وفر رجل شجاع من أهل المدينة يدعى فرانتشيسكو فيروتشي

إلى خارجها ، ونظم قوة قوامها ثلاث آلاف رجل هاجم بهم المحاصرين .
لكنه هزم وخسر من جنوده ألفي رجل ، وأمر هو نفسه ، وجرىء به أمام
فريديسيو مارمليدي Fadrizio Marmalidi وهو قائد من أهل كلايريا كان
على رأس الحيلة في جيش الإمبراطور . وأمر مارمليدي أن يوثق بفيروتشي
Ferucci مقبوضاً عليه أمامه ، وأخذ يدفع الخنجر في صدره حتى فارق
الحياة (٥١) . وأخذ القائد الذي استأجرته فلورنس ليتولى قيادة المدافعين عنها ،
وهو مالاتستا يجليوتي ، يتفاوض لعقد اتفاق غادر مع المحاصرين ، فأدخلهم
المدينة ، وصوب مدافعه نحو الفلورنسيين . واضطرت المدينة بتأثير الجوع
واختلال النظام إلى التسليم (١٢ أغسطس سنة ١٥٣٠) .

وأصبح ألسندرو ده ميديتشي دوقاً على فلورنس وجلل أسرته العار
بما ارتكبه من أعمال النهب وما أظهره من قسوة ، فعذب مئات من الذين
حاربوا دفاعاً عن الجمهورية ، أو نفوا منها ، أو قتلوا تقتيلاً . وأرسل
الراهب بنيديتو إلى كلمنت ، فأمر هذا بسجنه في قاعة سانت أنجيلوا ،
وفيها سجن الراهب حتى هلك من الجوع كما تقول إحدى الروايات التي
لا يوثق بصحتها (٥٢) . وحل مجلس السيادة الذي كان يتولى حكم المدينة ،
وأطلق من ذلك الوقت اسم بالاتسو فيتشيو Palazzo Vecchio أى قصر
فيتشيو (على بالاتسو دلا سنيوريا Palazzo della Sagnoria أى قصر
السيادة) ؛ وأنزل الناقوس الضخم العظيم الذى يزن أحد عشر طناً والمسمى
بالبقرة La Vacca ، والذى ظل أجيالاً طويلاً يدعو الناس من البرج الجميل
إلى الاجتماع — أنزل هذا الناقوس من موضعه ، وحطم تحطياً ؛ « حتى
لا تستمع بعدئذ إلى صوت الحرية العذب » كما يقول أحد كتاب اليوميات
المعاصرين (٥٣) .

الفصل التاسع

كلمت التاسع والفنون

تو كد الطريقة التي عامل بها البابا فلورنس تدهور أحوال آل ميديتشي ،
أما ما بذله من الجهود لإعادة رومة إلى سابق عهدها فيكشف عن جذوة
من العبقرية الإدارية وعن تقدير للجمال كانا من أسباب عظمة تلك الأسرة .
وقد صورته وقتئذ سياستيانو دل بيومبو ، وكان قد صورته من قبل في عهد
فضوجه ، في صورة شيخ طاعن في السن ، حزين مكتئب ، غائر العينين ،
أبيض شعر اللحية ، يوزع البركات . ويبدو أن الآلام طهرته وأنها قوته
إلى حد ما ، فقد أقدم على بذل جهود قوية لحماية إيطاليا من الأسطول التركي
الذي كان وقتئذ يسيطر على شرق البحر المتوسط ، فحصن أنكونا ،
وأسكولي ، وفانو ، وحصل على نفقات هذا التحصين بأن حمل مجمع
الكرادلة في الحادي والعشرين من يونية سنة ١٥٣٢ على أن يفرض ضريبة
قدرها خمسون في المائة من جميع إيرادات رجال الدين الإيطاليين ومنهم الكرادلة
أنفسهم ، وذلك رغم معارضة الكرادلة (٥٤) . واستعان ببيع المناصب الدينية
وبغيره من الوسائل فجمع المال اللازم لإعادة ما تخرب من الكنائس ،
وجامعة رومة ، والعودة إلى مناصرة العلوم والفنون ، واتخذ الوسائل
الكميلة بضمان وصول الحبوب إلى المدينة على الرغم من غارات قراصنة
البربر على السفن بالقرب من صقلية ، وبذلك لم يضر إلا قليل جداً من
الوقت حتى عادت رومة إلى القيام بواجبها بوصفها عاصمة العالم الغربي .

وكانت المدينة لا تزال غنية بالفنانين ، فقد جاء إليها كرادسا Caradossa
من ميلان ، وتشيليني من فلورنس ، لكي يرفعا فن الصياغة إلى الذروة

التي بلغها في عهد النهضة ، وقد شغل هذان الفنانان وكثيرون غيرهما أوقاتهم في عمل ورود ذهبية ، وسيوف شرف يهديها البابا في المناسبات المختلفة ، وآنية لمذابح الكنائس ، وعصى من فضة لكبار رجال الكنيسة وللمواكب الدينية ، وأختام للكرادلة ، وتيجان ونخواتم للبابوات . وصنع فاليريوبلي من أهل فيتشندسا Vicenza لكلمنت علبة فخمة من البلور الصخري نقشت عليها مناظر من حياة المسيح ؛ وهي الآن من أثنى التحف المحفوظة في قصر بيتي ، وقد أهديت إلى فرانسيس الأول بمناسبة زواج ابنه من كترين الميديتشية .

وبدئ العمل من جديد في زخرفة حجرات الفاتيكان في عام ١٥٢٦ . وكانت أعظم الرسوم التي تمت في عهد ولاية كلمنت هي التي صورت في قاعة قسطنطين ؛ فيها رسم جيوليورومانو سُبح الصليب ، وواقعة جسر ملفي ؛ ورسم فرنثيسكو بني صورة تعميد قسطنطين كما رسم رفايلو دل كلي Raffaello del Colle صورة رومة مهيمنة إلى البابا - ملفتر من قسطنطين .

وكان أعظم المصورين في رومة بعد ميكل أنجيلو ، وبعد أن هاجر جيوليورومانو إلى مانتوا هو سباستيانو لوتشيانو Sebssiano Luciano الذي لقب دل بيومبو حين عين أميناً لأختام البابا ومصمماً لها (١٥٣١) . وكان مولده في البندقية (حوالى عام ١٤٨٥) ، وكان من حسن حظّه أن تتلمذ على جيان بليني ، وجيورجيو ، وتشيا . وكانت من أوائل صورهِ وأجملها صورة أُمّار انيسار الصلوة . وقد صور فيها شاباً أنيقاً بين مؤلفين شهيرين كانا وقتئذ في البندقية : يعقوب أبرخت Jacob Obrecht وفليي فيرديلوت Philippi Veredlot . ورسم لكنيسة سان جيوفاني كرسطومو San Giovanni Cristomo - أو أكمل لجيورجيوني - صورة

حية واضحة المعالم لذلك القديس وهو منهمك في التأليف ؛ ثم هذا في الوقت نفسه (١٥١٠) حذو طريقة جيورجيوني الشهوانية في صورة فينوس وأدريس التي تبدو نساؤها الكريزمات كأنهن من عصر ذهبي وجد قبل أن تولد الخطيئة . وربما . كان سبستيانو قد صور في البندقية أيضاً صورته الذائعة الصيت المعروفة باسم صورة سيرة والتي ظلت زمناً طويلاً تعزى إلى رفائيل وتسمى لافورنارينا La Fornarina .

وفي عام ١٥١١ دعا أجستينو تشيجي Agostino Chigi سبستيانو إلى رومة ليساعد في زخرفة قصر تشيجي الريفى . وهناك قابل الفنان الشاب رفائيل ، وظل وقتاً ما يتلمذ طوازه في الزخارف الوثنية ؛ ويعلم رفائيل في نظير هذا سر الألوان الدفئة (*) الذى اختصت به البندقية . وما لبث سبستيانو أن أصبح صديقاً حميماً لميكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين تلوين البندقية وتصميم طراز ميكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين غرضه حين طلب إليه الكردنال جيوليو ده ميديتشى أن يرسم له صورة . واختار سبستيانو موضوعاً لتلك الصورة بعث العازر ينافس بها عن عمد صورة النجلى التى كان رفائيل يرسمها في ذلك الوقت (١٥١٨) . ولم يجمع النقاد على معارضة حكمه هو بأنه كان فيها نداءً لمحبوب ليو (**).

وكان في مقدوره أن يرقى إلى أكثر مما وصل إليه لو لم يقتنع اقتناعاً عاجلاً بالحد الذى بلغه من الإتقان . غير أن رغبته الشديدة في التمتع بالفراغ قد حالت بينه وبين النبوغ . ذلك أنه كان شخصاً مزحاً لا يستطيع أن

(*) الألوان الدافئة هي التي تشعر الناظر إليها بالدفء ، وأهمها اللون القريب من الأحمر أو الأصفر ، وعكسها الألوان التي تشعر الإنسان بالبرودة ومنها اللون القريب من الأخضر أو الأزرق . (المترجم) .
(**) رفائيل نفسه . (المترجم)

يفهم لم ينهك الإنسان نفسه لينال فوق حاجته من الذهب والشهرة الخادعة الزائلة بعد الموت . ولهذا قصر معظم عمله بعد أن نال في الفاتيكان من نصيره الذى أصبح بابا وظيفة مرغدة لا يقوم فيها بعمل كبير — قصر بعدئذ معظم عمله على رسم الصور التى قلما فاقه فيها غيره من المصورين .

ويختلف عنه بلدا سارى بيروتسى Baldassari Peruzzi . فقد كان شخصاً طموحاً رددت الأجيال اسمه الطنان الرنان وراء جبال الألب الإيطالية . وكان ابن نساج (والفنانون فى أغلب الأحيان من أصل وضع : لأن الطبقات الوسطى يجرى أفرادها أولاً وراء المرافق المادية ، يرجون أن يجدوا الفراغ الذى يمكنهم من الاستمتاع بالجمال إذا ما بلغوا سن الشيخوخة ؛ أما أبناء الطبقة العليا ، فهم وإن كانوا يغنون الفن ويناصرونه ، يؤثرون فن الحياة على حياة الفن . وكان مسقط رأسه فى سينا (١٤٨١) وأخذ فن الرسم عن سدوما وپنتو وتشيو ثم عجل بالذهاب إلى رومة ؛ ويلوح أنه هو الذى رسم الصور التى فى سقف حجرة إليودورو فى الفاتيكان ، التى رأها رفايل من الحسن بحيث ترك معظمها دون أن يدخل عليه شيئاً من التغيير . وفى هذه الأثناء وقع فى حب الآثار القديمة ، كما وقع فى حبها برامنتى ، وأخذ يقيس أرض الطبقات السفلى من الهياكل والقصور القديمة ، ويدرس أشكال الأعمدة وتيجانها ونظام وضعها ، حتى صار خبيراً إخصائياً فى تطبيق فن المنظور على العمارة .

ولما اعتزم أجوستينو تشيجى أن يشيد قصر تشيجى الريفى دعا بيروتسى لتصميمه (١٥٠٨) ؛ وسر الرجل المصر فى من التصميم — سر مما توجت به الواجهة التى على طراز النهضة من قوالب وشرفات ؛ ولما وجد أن بيروتسى لا يستطيع التصوير بالألوان ، ترك للفنان الشاب الحرية فى زخرفة عدد من الحجرات فى داخل القصر بالاشتراك مع سباستيانو دل بيومبو ورفائيل . ورسم بلداسارى فى الردهة التى فى مدخل القصر ، وفى الشرفة

المكشوفة صورة فينوس تمشط شعرها ؛ وليدا ويجمعتها ، وأوروبا Europa
وئورها ؛ ودانتى وشاشه الذهبي ، وجنيمدى ونسره ، وغيرها من المناظر
التي تهدف إلى رفع روح ذلك المالى من عمل يومه الرتيب إلى شعر أحلامه ،
وأحاط بيروتسى مظللاته بخطوط تحددها وراعى حيل فن المنظور مراعاة
لم يسع تيشيان معها إلا أن يظن أنها نحت حقيقى بارز فى الحجر (٥٥) : وفى
ردهة الطابق الأعلى رسم بلداسارى مبانى خادعة بالفرشاة : شرفات
مرفوعة على صور عمد ، وأطنافاً مستندة على صور عمد مربوعة ، وأشباه
مؤافدة مطلة على صور حقول . وجملة القول أن بيروتسى قد عشق فن العمارة ،
واتخذ التصوير خادماً له ، يطيع جميع قواعد البناء ، ولكنه يخلو من
روحه . غير أننا نستثنى من هذا التعميم المناظر المأخوذة من الكتاب المقدس
والتي رسمها فى شبه قبة لسانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace
(١٥١٧) ، التي صور فيها رفائيل سبييلات قبل ذلك بثلاث سنين : ولم
تكن صور بلداسارى تقل عن صور رفائيل روعة ، لأن هذه كانت
أحسن ما صور بلداسارى ، أما صور رفائيل فلم تكن خير صورته .

وما من شك فى أن ليو العاشر قد تأثر بما شاهده من تعدد كفايات
بيروتسى ، لأنه عينه خلفاً لرفائيل كبيراً لمهندسيه فى كنيسة القديس بطرس
(١٥٢٠) ، ثم عهد إليه أن يرسم مناظر مسلاة كالاندرا (La Calandra)
لبينا (١٥٢١) . غير أن كل ما بقى من أعمال بيروتسى فى سان بيتر هو
رسم قاعدة البناء ، التي وصفها سيمندس Symonds بأنها « تفوق فى الجمال
والطرافة ما رسم من مثله لكنيسة القديس بطرس » (٥٦) . وكان موت
ليو ، وجلوس بابا بيغض الفن على كرمى البابوية ، سبباً فى عودة بيروتسى
إلى سينا ، ومنها إلى بولونيا . وفى هذه المدينة الثانية صمم قصر أيرجاني
Aebergath الجميل ، وعمل نموذجاً لواجهة كنيسة سان بيتر ونيو التي لم تتم
أليداً . لكنه عجل بالعودة إلى رومة حين أعاد كلمنت السابع فتح بنة
(١٤ - ج ٤ - مجلد ٥)

الفنون ، وواصل عمله في كنيسة القديس بطرس ؛ وكان لا يزال فيها حين نهبت غوغاء الإمبراطور مدينة رومة . وقاسى محنة شديدة لأنه « كان وقوراً نبيلاً في مظهره ، حتى ظنه الغوغاء كبيراً من رجال الدين متخفياً » كما يقول فاسارى . واحتفظوا به حتى يفتدى بالمال الكثير ، فلما برهن على أصله الوضع برسم صورة ملونة رائعة ، قنعوا بالاستيلاء على كل ما يملكه عدا القميص الذى على ظهره ، وأطلقوا سراحه . واتخذ سبيله إلى سينا فوصل إليها لا يكاد يستر جسمه شيء . وسر حكومة سينا أن تستحوذ من جديد على ابنها [الفاره المتلاف ، فعهدت إليه تصميم حصونها ، كما عهدت إليه كنيسة فنيجيسا رسم صور جدارية أجمع النقاد على أنها أروع آياته الفنية — وكانت هذه الصورة الجدارية سبيلة تعلن إلى أغسطس المرتاع نبأ مولد المسيح المرتقب .

ولكن أعظم ما نبخ فيه بيروتسى هو تصميم قصر مسمى دلى كولنى Palazzo Massimi delle Colonne الذى وضعه بعد عودته إلى رومة (١٥٣٠). وكان آل مسمى يدعون الانتساب إلى فابيوس مكسيموس ويقولون إن اسمهم مشتق من اسمه . وفابيوس هذا هو الذى خلد اسمه بالتعطل وتضييع الوقت (*) . أما لقبه فمشتق من المدخل ذى العمود Columned لمسكنهم السابق الذى ضرب أثناء نهب رومة . وكان من حسن حظ بيروتسى أن استدارة مكان القصر وعدم انتظامه حالا بينه وبين اتخاذ الشكل المستطيل الكثيب ؛ ولهذا اختار له الشكل البيضى ، كما اختار له واجهة على طراز مباني النهضة ومدخلا على الطراز الدورى ، وكان البناء بسيطاً من

(*) إن فى وصفه بالتعطل وإضاعة الوقت بعض المغالاة لأن ما فعله هذا القائد هو أنه لم يلتحم مع هنيبال فى واقعة فاصلة حين هجم هذا على إيطاليا ؛ بل تركه يضعف على مهل ويفقد مؤنه ثم ينقض هو على من يتخلف وزاءه من جنوده ، وكانت خطته هى التى أنقذت إيطاليا من القائد القرطاجى . (المترجم)

الخارج ، ولكنه أفاء على داخله من الزخرف والروعة ما جعله يضارع القصور الرومانية أيام الإمبراطورية مضافاً إليها ما يتسم به الفن اليوناني من رقة في التناسب والزخرف .

ومات بيروتسي فقيراً رغم ما كان له من كفايات متعددة ، لأنه لم تطاوعه نفسه على مساومة البابوات ، والكرادلة ، ورجال المال على أجور تتناسب مع حذقه . ولما سمع البابا بولس الثالث أنه يحتضر ، ظن أنه لم يبق من الفنانين الذين يستطيعون رفع كنيسة القديس بطرس من جدران إلى قبة إلا بيروتسي وميكل أنجيلو . ولهذا بعث إلى الفنان بمائة كرون (١٢٥٠ دولاراً ؟) . فشكر له بلداسارى عمله ، ولكنه مات رغم ذلك في سنه الرابعة والخمسين (١٥٣٥) . ويقول فاسارى بعد أن يلمح بأن منافساً له قد سمى إن « المصورين ، والمثالين ، والمهندسين المعماريين في رومة شيعوا جنازته إلى قبره » .

الفصل العاشر

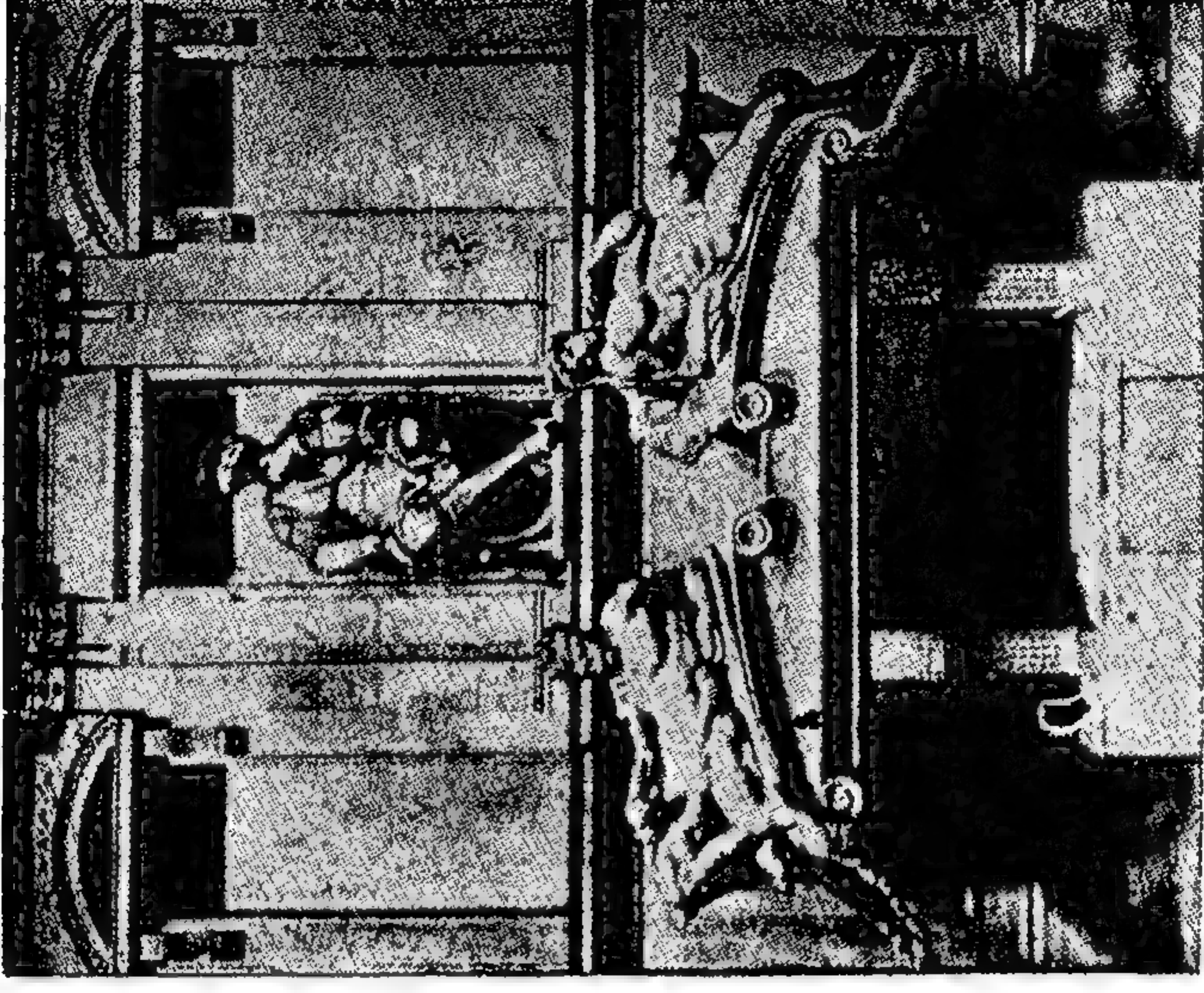
ميكل أنجيلو وكلمنت السابع : ١٥٢٠ - ١٥٣٤

كما يذكر في صحيفة الحسنات لكلمنت أنه ظل طوال أيام كوارثه يتحمل صابراً جميع نزوات ميكل أنجيلو وثوراته ، ويعهد إليه بالمهمة تلو المهمة ، يمنحه من المزايا كل ما يليق بالعباقرة . ويقول في هذا : « إذا جاء بونارتي أمسكت بيدي على الدوام مقعداً وأمرته بالجلوس ، لأنني لا أشك في أنه سيجلس من تلقاء نفسه دون أن يستأذني » (٥٧) . وحتى قبل أن يصبح بابا تقدم باقتراح تبين أنه أكبر عمل من أعمال النحت عهد به إلى ذلك الفنان ، وهو أن يضيف إلى كنيسة سان لورندسو بفلورنس « غرفة مقدسات جديدة » لتكون قبراً لأشهر أفراد آل ميديتشي ، وتصميم مقابر لهم ، وتزيينها بما يليق بها من الصور . وكان كلمنت واثقاً كل الثقة من كفايات هذا الفنان الجبار المتعددة ، ولهذا طلب إليه أن يضع عدداً من التصميمات الهندسية للمكتبة اللورنتية ، تبلغ من السعة والمثانة ما تستطيع أن تقي كل المجموعات الأدبية للأسرة الميديتشي . وتم إنشاء السلم الفخم والدلهيز ذي العمدة في هذه المكتبة اللورنتية (١٥٢٦ - ١٥٢٧) ، بإشراف أنجيلو ، أما بقية البناء فقد أقامها فيما بعد فاساري وغيره على أساس رسوم بونارتي .

أما بناء نوفا ساجريستيا Nuova Sagristia فلا يمكن أن يعد من روائع الفن المعماري . فقد وضع تصميمها على أن تكون مربوعة الجوانب تقسمها عمدة مربوعة وتعلوها قبة متواضعة ؛ وكان الغرض الأول من بنائها أن توضع التماثيل . الحجرات المتروكة في الجدران . وقد تم بناء « معبد آل ميديتشي » هذا في عام ١٥٢٤ ؛ وفي عام ١٥٢٥ بدأ أنجيلو العمل



(الصورة رقم ٣) أريتينو - من عمل تيشيان
معرض فرك بنهويورك . انظر ص ٢٤٠



(الصورة رقم ٢) مدين لورندسو ده ميديتي - من عمل
بيكل انجلو - غرفة المقدسات الجديدة : بان لورندسو بفلورنس

في القبور ، وقد كتب إليه كلمنت في هذا العام الثاني خطاباً يستحثه في رفق يقول :

« إنك تعرف أن البابوات قصار الأجل ، ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى أن نرى المعبد وفيه قبور أقاربنا ، أو أن نسمع في القليل أنه قد تم ، ولا يقل عن هذا شوقنا إلى إتمام المكتبة ولهذا نعهد بهما جميعاً إلى همتك ونشاطك . وسنتدفع في هذه الأثناء (بناء على توصيتك) بالصبر الجميل ، داعين الله أن يعينك على أن تدفع المشروع كله إلى الأمام . ولا نخش قط أن سوف تعوزك الأعمال أو الجزاء ما دمنا على قيد الحياة . وداعاً على بركة الله وبركتنا - جيوليو » (٥٨) .

وكان المشروع يتضمن إنشاء ستة قبور : واحد لكل من لورندسو الأعظم ، وأخيه جيوليانو الذي اغتيل ، وليو العاشر ، وكلمنت السابع ، وجوليانو الأصغر الذي كان « أطيّب من أن يستطيع حكم دولة » (والتوفي عام ١٥١٦) ، ولورندسو الأصغر دوق أربينو (التوفي عام ١٥١٩) : ولم يتم من هذه إلا قبر الأخيرين ، ولكنهما مع ذلك أرقى ما وصل إليه فن النحت في عهد النهضة ، كما أن معبد سستيني هو ذروة ما وصل إليه التصوير في ذلك العهد . ويظهر القبران شكل من يحتويان من الموتى كما كانا في عنقوان الشباب ، ولم يحاول المثال إظهار شكلهما الصحيح أو ملاحظتهما الحقيقية : فقد أظهر جيوليانو في ثياب قائد روماني ، ولورندسو في صورة الرجل المفكر il Penseroso . ولما أن لاحظ ملاحظ غير حذر هذا البعد عن الواقعية ، رد عليه ميكل أنجيلو بالفاظ كشفت عن ثقته السامية الأكيدة بخلوده الفني فقال : « منذ الذي يعني بعد ألفي عام هل هذه ملاحظهم وليست هي ؟ » (٥٩) . ويتكئ على تابوت جيوليانو شخصان عاريان : عن اليمين رجل يفترض فيه أنه يرمز إلى النهار ، وعن اليسار امرأة يفترض أنها ترمز إلى الليل . ومثلهما صورثا شخصين متكئين على قبر لورندسو

أطلق عليهما اسما الشفق والفجر . وهذه التسميات مجرد فروض ولعل للخيال فيها أكبر نصيب . وأغلب الظن أن هدف المثال هو أن ينحت مرة أخرى معبوده الخفى ، أعنى الجسم البشرى ، بكل ما فيه من روعة قوة الرجولة ، والمحيط الخارجى الجميل لجسم المرأة بأكمله . ولقد كان نجاحه فى تصوير جسم الرجل أعظم من نجاحه فى تصوير جسم المرأة كما هى العادة ، وإن صورة الشفق الناقصة التى تسلم اليوم النشيط المضى إلى الليل على مهل ، لتضارع أنبل صور الآلهة فى اليونان .

وقامت الحرب فعطلت أعمال الفن إلى حين . ولما سقطت رومة فى أيدي الجيوش الإمبراطورية (١٥٢٧) ، لم يعد فى وسع كلمنت أن يناصر الفنون ، وانقطع معاش ميكل أنجيلو الذى كان يتقاضاه من البابا ومقداره خمسون كروناً (٦٢٥ دولاراً) فى الشهر واستمتعت فلورنس فى هذه الأيام بعامين من الحرية فى ظل الحكم الجمهورى . ولما أن تصالح كلمنت مع شارل ، وأرسل جيش ألماني - أسباني للقضاء على الجمهورية وإعادة آل ميديتشى إلى الحكم ، عينت فلورنس أنجيلو (٦ إبريل سنة ١٥٢٩) عضواً فى لجنة العشرة للدفاع عن المدينة ، وبذلك أصبح فنان الميديتشيين بحكم الظروف مهندساً يعمل ضد الميديتشيين ، وشرع يشتغل كالمحموم فى تخطيط الحصون والأسوار وتشيدها .

وبينا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق كان ميكل أنجيلو يزداد كل يوم اقتناعاً بأن المدينة لا يمكن الدفاع عنها دفاعاً ناجحاً . وهل تستطيع مدينة بمفردها منقسمة على نفسها فى روحها وفى ولائها ، أن تقاوم مدفعية الإمبراطورية والحرمان الدينى البابوى مجتمعين ؟ ومن أجل هذا حدث فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، أثناء حالة عارضة من الذعر ، أن فر الفنان من المدينة ، وهو يأمل أن يهرب منها إلى فرنسا ويلجأ إلى ملكها الظريف الوديع . ولما وجد طريقه مسدوداً بأرض يحتلها الألمان

جاء مؤقتاً إلى فيرارا وكانت يؤمّنذ تابعة للبندقية ، ومنها بعث برسالة إلى صديقه. باتستا دلا پلا Battista della Palla العامل الفنان لفرانسيس في فلورنس يسأله : هل ينضم إليه في الحرب إلى فرنسا (٦٠) ؟ ورفض باتستا أن يتخلى عن المنصب الذى عهد إليه في الدفاع عن المدينة ؛ وكتب إلى أنجيلو بدلا من ذلك يدعو دعوة حارة إلى العودة لواجبه ، وينذره إذا لم يعد بأن الحكومة ستصادر أملاكه ، وتترك أقاربه المعدمين في فقر مدقع . وبذلك عاد الفنان إلى عمله في حصون فلورنس حوالى اليوم العشرين من نوفمبر .

ويقول فاسارى إنه حتى في هذه الشهور المضطربة وجد متسعاً من الوقت لإكمال العمل سرّاً في قبور آل ميديتشى ، وليرسم لألفنسو دوق فيرارا صورة لا تعتبر قط عن طبائعه وهى صورة ليدا والجمع ، وكانت في الحق صورة عجيبة يرسمها رجل قليل الميول الجنسية ، متمزمت إلى حد كبير . ولعلها كانت ثمرة اختلال/مؤقت في عقله . ويظهر فيها الجمع يضاجع ليدا ، ويلوح أن ألفنسو لم يكن هو الذى اختار موضوعها وإن كان معروفاً بأنه كان رجلاً شهوانياً في الفترات التى بين الحروب . وأظهر الرسول الذى بعثه لإحضار الصورة الموعودة شدة امتعاضه منها حين رآها ، ولم يزد على أن قال « إن هذا عبث » ولم يحاول أخذها للدوق ، فما كان من أنجيلو إلا أن أعطى الصورة لخادمه أنطونيو مينى Antonio Mene الذى حملها إلى فرنسا حيث انتقلت إلى مجموعة فرانسيس الأول النهم الذى لم يكن يفرق بين الطبيب منها والخبيث . وبقيت تلك الصورة في فنتينبلو إلى زمن لويس الثالث عشر حين أمر أحد كبار الموظفين بإتلافها لقبح موضوعها . ولسنا نعرف هل نفذ هذا الأمر أو لم ينفذ . وما هو تاريخ الصورة الأصلية بعد ذلك الوقت ؛ ولكننا نعرف أن نسخة منها باقية في سراديب المعرض الأهلئ بلندن (٦١) .

ولما أن سقطت فلورنس في أيدي الميديتشيين العائدين إليها أعدم

باتستا دلا بالا وغيره من الزعماء الجمهوريين ، وأخفى ميكل أنجيلو نفسه مدة شهرين في بيت صديق له ، كان في كل لحظة منهما يتوقع أن يلقى نفس المصير ، ولكن كلمنت كان يظن أنه وهو حي أعظم قيمة منه وهو ميت ، فكتب البابا إلى أقاربه الحاكمين في فلورنس يأمرهم بالبحث عن الفنان ، ومعاملته بالحسنى ، وبأن يعرضوا عليه معاشه السابق إذا ما عاد إلى العمل في القبور. ووافق ميكل على هذا العرض ؛ ولكن الصورة التي كانت في عقل الخبر والفنان كانت أكبر مما تستطيع اليد تنفيذه ، كما حدث في قبر يوليوس ؛ ولم تطل حياة البابا حتى يشهد تمام المشروع . فلما توفي كلمنت في عام ١٥٣٤ خشي ميكل أنجيلو أن يصيبه ألسندرو ده ميديتشى بأذى بعد أن مات حاميه ونصيره ، فاغتم أول فرصة للهرب إلى رومة .

وتبدو على القبور مسحة من الحزن المكتئب العميق كما تبدو على صورة **فرداء ده ميديتشى** التي نحتها أنجيلو لحجرة الخلفات المقدسة . ولقد افترض المؤرخون المولعون بالديمقراطية (والمغالون فيما كانت عليه من مدى في فلورنس) أن الصور المضطجعة ترمز إلى مدينة تندب استسلامها للاستبداد والظلم على الرغم منها . ولكن أكبر الظن أن هذا التفسير وهم خيال : فقد صممت هذه الصورة بينا كان الميديتشيون يحكمون فلورنس حكماً صالحاً إلى حد معقول ؛ وقد نحتت لبابا من آل ميديتشى كان على الدوام رءوفاً بميكل أنجيلو ، ونحتها فنان مدين لآل ميديتشى منذ شبابه . ولما نعرف أنه كان يبغى الإساءة إلى الأسرة التي كان يعد لها قبورها ، وليس في تصويره لحيوليانو ولورندسو ما يدل على تحقيره إياهما . والحق أن هذه الرسوم تعبر عن شيء أعمق من حب لأن تستمتع الأقلية الثرية بحرية حكم الطبقات الفقيرة ، دون أن تقف في سبيلها أسرة ميديتشى التي كانت في العادة محبوبة من الشعب عامة . إنها تعبر عن ملل ميكل أنجيلو من الحياة ، وعن التعب الذي حل برجل كله أعصاب وأحلام هائلة لا يستطيع تحقيقها .

وجد نفسه يصطدم بمثلث المحن ، ويعوق كل مشروع من مشروعاته تقريباً
صلابة المادة التي يعمل بها وإبائها عليه ، وكلال قوته وضيق وقته . ولم يكن
أنجيلو قد استمتع إلا بالقليل من مباحج الحياة ، ولم يكن له أصدقاء لهم
ما له من عقلية ، أما النساء فكان في رأيه أجساماً ناعمة تهدد السلام ، وحتى
أعظم انعصاراته كانت نتيجة الكد المنهك والألم ، واثتلاف التفكير المحزن
والهزيمة التي لا مفر منها .

ولما سقطت فلورنس في أيدي أسوأ المستبدين بها ، وساد الرعب حيث
كان لورندسو يحكم حكماً موقفاً سعيداً ، أحس الفنان ، الذي كان قد نحت
في رخام أضرحة آل ميديتشي نقداً للحياة لا مجرد نظرية في الحكم ، أن هذه
الأشكال المكتتبة الحزينة تعبر ، فيما تعبر عنه ، عن المجد الغابر للمدينة التي كانت
مهد النهضة . ولما رفع الستار عن تمثال الليل كتب الشاعر جيان باتستا
استروتسي رباعية تعرض موضوعه عرضاً أدبياً قال فيها ما معناه :

أن الليلة التي تراها هنا واقفة في رشاقة
يأخذ الكرى بمعاقده أجفانها ، قد صاغها مملكتك
من الحجر الصلب ، وسنانة ، تسرى فيها الحياة ،
فأيقظها أيها المخلوق الذي لا تصدق ، فإنها ستتحدث إليك .
وقد غفر ميكل للكاتب ما في العبارة من تورية(*) هي في الوقت عينه .
تمجيد له ، ولكنه لم يرض عن تفسير الكاتب لخصائص التمثال ، وكتب
هو تفسيراً لها في أربعة أسطر هي أكثر ما في شعره وضوحاً وإبانة عن
مقصده قال :-

ما أحسب نومي ، ولكن يزيده محبة أن يكون مجرد حجر
ما دام الخراب والقدر سائدين .
إن أشد ما يؤلمني ألا أرى شيئاً وألا أشعر بشيء ،
إذن فلا توقظني ، وتحدث في همس (٦٢)

(*) يقصد بالتورية عجز اسم ميكل أنجيلو وكلمة Angel أي ملك .

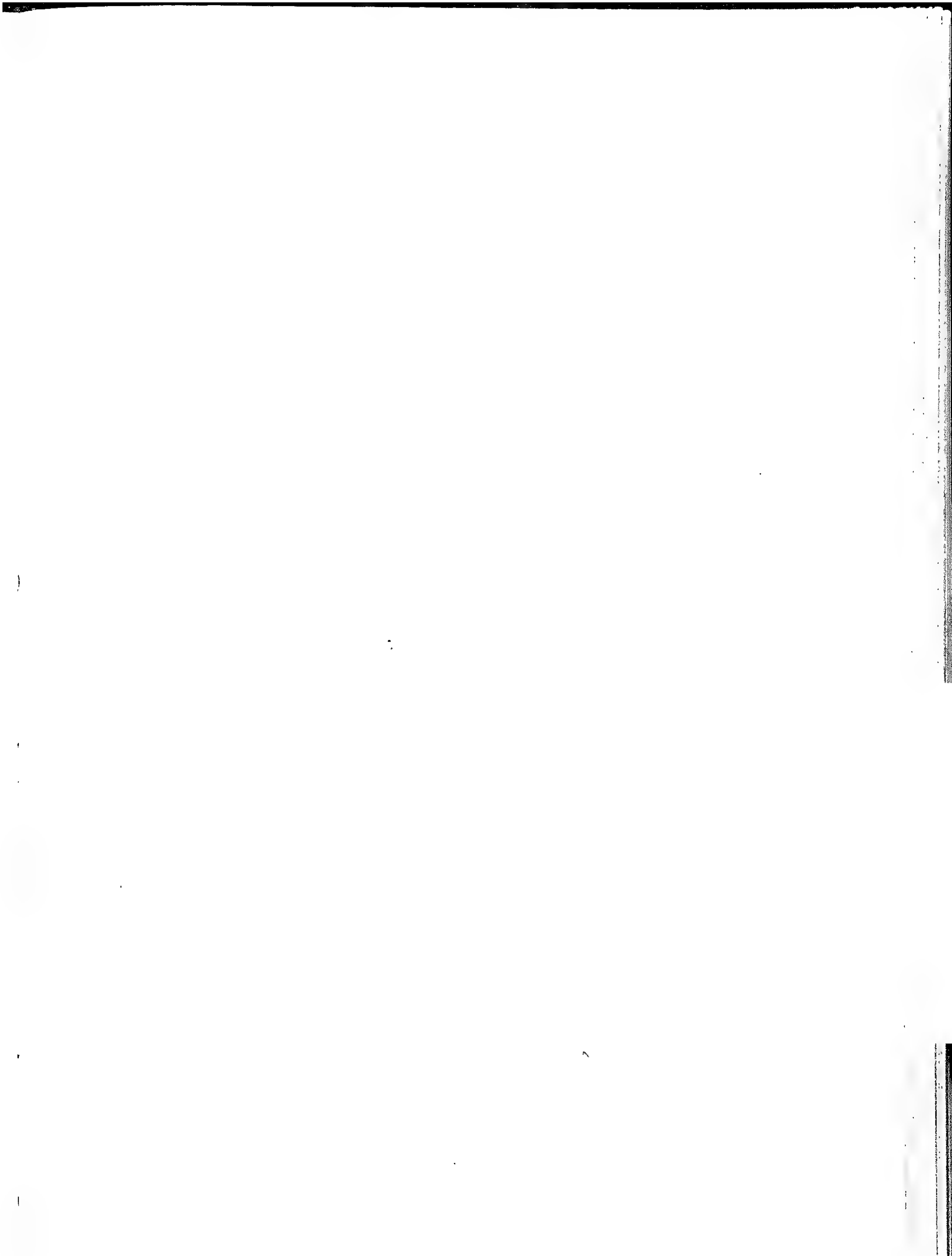
الفصل الحادي عشر

خاتمة عصر : ١٥٢٨ - ١٥٣٤

لم يمت كلمنت إلا بعد أن بدل سياسته مرة أخرى ، وبعد أن نتوج ما أصابه من كوارث بخروج إنجلترا من قبضة الكنيسة (١٥٣١) . ذلك أن انتشار ثورة لوثر في ألمانيا قد خلق لشارل الخامس متاعب وأخطاراً ، كان يرجو أن تخف وطأتها بعقد مجلس عام : وألح على البابا بعقد هذا المجلس ، وأغضبه ما كان ينتحله البابا المرة بعد المرة من أعذار وتسويق : كذلك ساء كلمنت أن الإمبراطور قد منح فيرارا لمدينة ريجيو ومودينا ، فولى وجهه مرة أخرى شطر فرانسيس ، وقبل عرضاً تقدم به فرانسيس وهو أن تزوج كترينا ده ميديتشي من هنري ثاني أبناء الملك ، ووقع مع الملك مواد سرية ارتبط فيها بمساعدة فرانسيس على استعادة ميلان وجنوى (١٥٣١) (٦٣) ؛ وعرض شارل مرة أخرى في مؤتمر ثان عقد في بولونيا (١٥٣٢) بين البابا والإمبراطور أن يجتمع مجلس عام يلتقي فيه الكاثوليك والبروتستانت لعلهم يجدون صيغة يوفقون بها بين المذهبين . ورفض هذا الاقتراح أيضاً . ثم عرض أن تزوج كترين من فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا نائب الإمبراطور في ميلان ، لكنه تبين أن اقتراحه هذا جاء بعد فوات الوقت ؛ فقد كانت كترين قد بيعت من قبل لغيره . وفي الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٥٣٣ التقى كلمنت بفرانسيس في مرسيليا ، وزوج ابنة أخيه من هنري دوق أورليان . وكان من أكبر العيوب التي يتصف بها آل ميديتشي بوصفهم بابوات أنهم كانوا يرون أنفسهم أسرة مالكة ، وأنهم كانوا في بعض الأحيان يضعون مجد أسرهم فوق مصير إيطاليا أو الكنيسة .

وحاول كلمنت أن يقنع شارل بأن يصطلح مع فرانسس ؛ ولكن فرانسس رفض أن يجيبه إلى ما طلب ، وبلغ من الصفات أن طلب إلى البابا أن يوافق على عقد حلف مؤقت بين فرنسا ، والبروتستنت ، والترك ، ضد الإمبراطور (٦٤) . ولكن كلمنت ظن أن هذه خطوة جريئة لا يستطيع أن يخطوها .

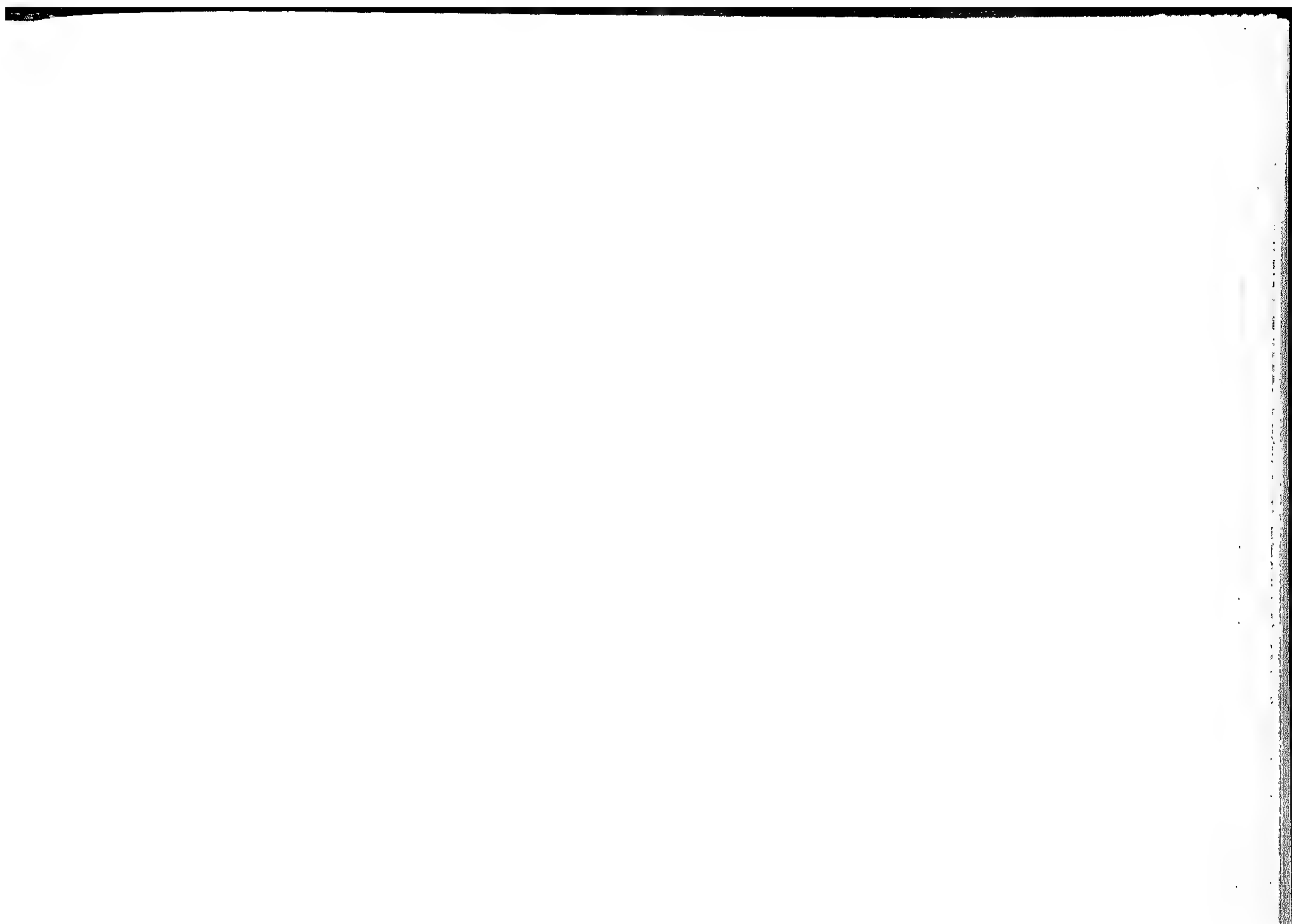
« وفي هذه الظروف » ، كما يقول باستور Pastor ، « لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن من حسن حظ الكنيسة أن كانت منية البابا قريبة » (٦٥) ، فقد بلغ الرجل أُرذل العمر ؛ لقد كان هنري الثامن ، وقت تنويع البابا ، لا يزال حامى حمى الدين الصحيح ضد لوثر ؛ ولم تكن الثورة البروتستنتية قد اقترحت حتى ذلك الوقت تغييراً أساسياً في العقائد ، بل كان كل ما طلبته هو إصلاحات في شئون الكنيسة شرعها مجلس ترنت Trent نفسه لها في الجيل التالي ؛ تلك هي الحال وقت تنويجه ، أما عند وفاته (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٣٤) ، فقد كانت إنجلترا ، والدمعقة ، والسويد ، ونصف ألمانيا ، وجزء من سويسرا ، كانت هذه كلها قد انفصلت انفصالاً تاماً عن الكنيسة ، وكانت إيطاليا قد خضعت لسلطان أسبانيا خضوعاً شديداً انخطر على التفكير الحر والحياة الحرة اللذين تمتاز بهما النهضة خيراً كانا أو شراً . وما من شك في أن عهده كان شرّاً للعهد كلها في تاريخ الكنيسة . لقد ابتهج كل إنسان حين جلس كلمنت على كرسي البابوية ، كما ابتهج كل إنسان عند موته ، وكم من مرة دنس غوغاء رومة قبره (٦٦) .



الكتاب السادس

الخاتمة

١٥٧٦ - ١٥٣٤



الباب الثاني والثلاثون

أقول نجم البندقية

الفصل الأول

بعث البندقية

من الأمور العجيبة التي لا نجد لها تفسيراً أن هذا العصر — عصر الاستعباد والاضمحلال لسائر إيطاليا ، كان عصرًا ذهبيًا بالنسبة للبندقية . لقد قاست هذه الدولة الأمرين من حروب حلف كبريه ، واستولى الترك على كثير من أملاكها الشرقية ، وكم من مرة اضطربت تجارتها مع بلاد شرق البحر المتوسط من جراء الحرب والقرصنة ، وكانت تجارتها مع الهند تنتقل من يدها إلى يد البرتغال . فكيف استطاعت إذن أن تعين في تلك الفترة من الزمان مهندسين معماريين مثل سانسوفينو Sansovino وبلاديو Palladio ، وكتاباً مثل أريتينو ، ومصورين مثل تيشيان ، وتنتورتو ، وفيرونيز ؟ وفي هذا العصر نفسه كان أندريا جبريلي Andrea Gabrieli يعزف على الأرغن ويرأس جوقة المرنمين في كنيسة سان ماركو (القديس مرقس) ، ويكتب قصائد غزل يتردد صداها في جميع أنحاء إيطاليا . وكانت الموسيقى مما يولع به الأغنياء والفقراء على السواء ؛ ولم يكن يضارع القصور القائمة على القناة العظمى في ترفها وفنها من الداخل إلا قصور رجال المصارف والكرادلة في رومة ، وكان مائة من الشعراء ينشدون أشعارهم في الخيام ، والحانات ، والميادين العامة ؛ وعشر فرق تمثل المسالي ؛ وأنشئت دور التمثيل الدائمة ، وكانت فيثوريا

بيسيني Vittoria Püsseni « ساحرة الحب الجميلة la bella maga d'Amore » محبوبة المدينة في التمثيل ، والغناء ، والرقص ، حين حلت النساء محل الغلمان في تمثيل أدوار النساء ، وبدأ من ذلك الوقت عهد المهرجانات .

وسنحاول هنا تفسير هذه الظاهرة الخفية تفسيراً أعرج هو كل ما نستطيعه في الوقت الحاضر . وأول ما نقوله في ذلك أن البندقية نفسها لم تُغزِ قط وإن كانت قد أوذيت أشد الأذى من جراء الحرب . ولهذا بقيت منازلها وحوالياتها قائمة سليمة . وكانت البندقية قد استردت ما لها من أملاك في شبه جزيرة إيطاليا ، وكانت تضم مدناً عامرة بالسكان أمثال بدوا ، وفيتشنديسا ، وفيرونا ، بين روافدها التي تمدها بالعباقر من رجال التعليم ، والاقتصاد ، والفنانين (أمثال كولمبو وكرنارو Cornaro في بدوا ، وبلاديو في فيتشنديسا ، وفيرونيز من فيرونا) . وكانت لا تزال تسيطر على مساحات واسعة للتجارة في البحر الأدرياتي وبالقرب منه . ولا يزال عند أسرها الشهيرة كنوز لم تفن بعد من الثروة المكتسبة الموروثة ؛ وظلت التجارة القديمة مزدهرة ووجدت لها أسواقاً جديدة في العالم المسيحي ؛ مثال ذلك أن زجاج البندقية قد وصل في ذلك العصر إلى حد الكمال في التبلور ؛ واحتفظت البندقية بما كان لها من زعامة في منتجات الترف ، وكان هذا العصر هو الذي اشتهرت فيه منتجاتها من المخمرات . وظلت البندقية ، رغم ما فرض عليها من الرقابة الدينية ، تأوي اللاجئين من السياسيين والمفكرين أمثال أريتينو والذي كان يتخلل فحشه وطربه من حين إلى حين كتابات أدبية تفيض تنقي وصلاًحاً .

وبرهنت البندقية في أواخر هذه الفترة مرتين على ما لها من نشاط مدني وقدره على الانتعاش ، ففي عام ١٥٧١ قامت بدور رئيسي مع أسبانيا والبابوية في تجهيز عمارة بحرية مؤلفة من مائتي سفينة حطمت أسطولا تركيا

مكوناً من ٢٢٤ مركباً بالقرب من ليبانتو Lepanto في خليج كورنث،
واحتفلت البندقية بهذا النصر الذي كان من شأنه أن يحتفظ بأوروبا الغربية
مسيحية. احتفالا دام ثلاثة أيام بلغ فيها المرح حد الجنون : فقد علقت في
ساحل الجزيرة بالبندقية أعلام مرصعة بالفيروز والذهب، ورفعت في النوافذ
كلها أعلام أو طناقس ازدهت بها القناة الكبرى في المدينة ، وأقيم قوس
تصرف فوق جسر الجزيرة ، وعرضت في الشوارع صور من صنع بليفي ،
وچيورچوني ، وتيشيان ، وميكل أنجيلو . وكانت حفلات التنكر التي أعقبت
هذا النصر أكثر الحفلات التي عرفتها البندقية صخباً وضجيجاً ، وكانت
سميلاً احتذته حفلات تنكرية كثيرة فيما بعد ، فقد تنكر كل امرئ في المدينة
وأطلق العنان لمرحه وعيئه ، وأطرح إلى حين كل قوانين الأخلاق ،
وانتقلت إلى أكثر من عشر لغات أسماء المهرجين أمثال پنتالوني Pantalone
ودساني Zonni (أي جوهاني Johanny) (*) .

ثم شبت حرائق مروعة في قصر الدوق في عامي ١٥٧٤ و ١٥٧٧ دمرت
كثيراً من حجراته. وأتلفت كل فيها ، فاحترقت صور من أعمال چنتيلي
دا فرياتو Gentile da Fabriano ، وأسرة بليفي ، وأسرة فيشاريني Vivarini
وتيشيان ، وپردينوني ، وتنتورتو ، وفيرونيزي ، واختفى في يومين كل
ما أخرجه الفن والجهد البشري من روائع . وتجلت روح الجمهورية بأجلى
مظاهرها في السرعة والعزيمة اللتين أصلح بهما داخل القصر وأعيد إلى سابق
عهده . فقد عهد إلى چيوڤني دا بنتي Giovanni da Bonte أن يعيد بناء
الغرف بالنظام الذي كانت عليه ، وصمم كرسstoforo سورتى Cristoforo
Sorte سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Magior Consiglio العجيب في
تسعة وتسعين قسماً ، ورسم صور الجدران تنتورتو ، وفيرونيزي ، وبالمبا

(*) أصبح هذان اللغتان اسمين عامين يسمى بهما كل مهرج أو ماجن وهما في الأصل
اسمان لشخصين بعينهما عاشا في ذلك الوقت . (المترجم)

جيوثى ، وفرانتشيسكو بسانو . وفي الحجرات الأخرى — كحجرة الاجتماع الخاصة بالدوج ومجلسه (Collegio) ، وحجرة الانتظار (Antecollegio) ، وقاعة اجتماع مجلس الشيوخ Sala de' Pregadi — صمم رسم السقف ، والأبواب ، والنوافذ أعظم مهندسى العمارة — ياقوبو سان سوفينو Jacopo Sansovino ، وپلاديو ، وأنطونيو اسكارپانينو Antonio Scarpagnino ، وألسندرو فتوريا .

وكان ياقوبو د أنطونيو دى ياقوبو تاتى Jacopo d' Antonio di Tatti من مواليد فلورنس (١٤٨٦) . « وأرسل على كره منه شديد إلى المدرسة » كما يقول فاسارى ، ولكنه أولع بالرسم ، وشجعت أمه هذا الميل فيه ، وتغلبت على معارضة أبيه الذى كان يرجو أن يكون ابنه تاجراً . وهكذا ذهب ياقوبو ليتدرب على يد المثال أندريا كنتوتشى دى مونتى سان سافينو Andrea Contucci di monte San Savino الذى أحب الغلام حباً جماً ، وأخلص فى تعليمه إلى حد جعل ياقوبو ينظر إليه نظرتة إلى أبيه — واتخذ Sasovino وهو لقب أندريا لقباً له . وكان من حسن حظ الغلام فوق ذلك أن اتخذ صديقاً له أندريا دل سارتو Andrea del Sarto ، ولعله أخذ عنه أسرار التصميم الرشيق الملىء بالحياة . ونحت المثال الشاب وهو فى فلورنس

تمثال بافوس الذى يوجد الآن فى معرض بارجيلو Bargello والذى اشتهر بتوازنه التام ، وبالمهارة التى أمكنته من أن يقطع من قطعة واحدة من الرخام ذراع التمثال ، ويده ، وإناء الزهر المتزن بخفة فوق أطراف الأصابع . وكان كل إنسان يعطف على أندريا (عدا ميكيل أنجيلو) ، ويساعده على تسنم ذروة التفوق والامتياز . فأخذه جيوليانو دا سانجلو Giuliano da Sangallo إلى رومة ، وهياً له مسكناً فيها ؛ وعهد إليه برامتى أن يصنع ضوارة من الشمع للاوكون Laocoön ، فأجاد المثال صنعها إجادة جعلت الكردنال جرماني Grmani يطلب أن يصب له التمثال من البرنز . ولعل تأثير برامتى هو الذى

جعل أندريا يتحول من فن النحت إلى العمارة ، ولم يلبث أن عهدت إليه أعمال تدر عليه الكثير من المال .

وكان في رومة حين نهبت المدينة ، وفقد في أثناء النهب جميع ما يملك مثله في ذلك كمثل جميع الفنانين . واستطاع أن يتخذ طريقه للبندقية يرجو أن يسافر منها إلى فرنسا ؛ ولكن الدوج أندريا جرنى Andrea Gritti رجاء أن يعدل عن هذا السفر وأن يعمل لتقوية عمد كنيسة القديس مرقص وقيامها ، وسر مجلس شيوخ المدينة من عمله سروراً فجعله يعينه مهندس الدولة (١٥٢٩) ؛ وظل ست سنين يكدح في تحسين ميدان سان ماركو ، فأزال حوائط القصابين التي كانت تشوه منظر جوانبه ، وشق شوارع جديدة ، وعمل على جعل ميسدان القديس مرقص ذلك المكان الرحب الذي نشاهده اليوم .

وفي عام ١٥٣٦ أنشأ دار الضرب (Zecca) ثم بدأ أشهر مبانيه كلها . وهو مبنى دار الكتب Libreria Vecchia ، المواجه لقصر الدوج . ووضع تصميمها للواجهة جعل لها فيه رواقين ذوي عمد دورية وأيونية الطراز ، وشرفات وأطناف ، وزينها بالتماثيل . ويقول بعضهم إن هذه المكتبة القديمة « أجمل بناء غير ديني في إيطاليا كلها » (١) ؛ غير أنها يؤخذ عليها الإسراف في العمد ؛ هذا إلى أن بناءها نفسه لا يضارع بناء قصر الدوج . ومهما يكن من شيء فإن ولاية الأمور أحبوها ، ورفعوا من أجلها مرتب سان سوفينو ، وأعفوه من الضرائب . وحدث في عام ١٥٤٤ أن انهارت إحدى البواكي الرئيسية ، ونحرت إحدى القباب ، فألقى سان سوفينو في السجن ، وفرضت عليه غرامة كبيرة ، ولكن أريتينو وتيشيان أقنعا ولاية الأمور بالعفو عنه . ورمت الباكية والقبعة ، وتم البناء بنجاح في عام ١٥٥٣ . وكان سان سوفينو في هذه الأثناء (١٥٤٠) قد وضع تصميم اللوجيتا Logetta الجميلة أو شرفة الشرطة القائمة على الجانب الشرقي من برج الأجراس وزينها بالتماثيل

المصنوعة من البرنز أو القرميد ؛ وصب في كنيسة القديس مرقس أبواباً من البرنز لإحدى حجر الخلفات ، وانتهز هذه الفرصة . فصور بين النقوش البارزة أريتينو وتيشيان ، ولم يكتف بهذا بل صور نفسه أيضاً .

وكان الرجال الثلاثة وقتئذ قد أصبحوا من أحب الأصدقاء ، تحسدهم الدوائر الفنية في البندقية ، وتسميهم : « الحكومة الثلاثية » "Triumvirate" (*) . وكم من سهرة قضوها معاً يمضون الوقت في الثروة أو يحتفلون بإحدى الحسان التي يستطيعون الاحتفال بها وقتاً ما . ولم يكن ياقوبو يقل عن أريتينو اثلاً مع أذواق النساء ، وقد عاش من العمر بقدر ما عاش تيشيان ، فقد ظل قوى الجسم ، سليم البدن ، يستمتع كما يؤكد عارفوه بقوة بصره كاملة حتى بلغ سن الرابعة والثمانين (٢) . وظل خمسين سنة لا يستشير طبيباً ، وكان في فصل الصيف يعيش على الفاكهة لا يكاد يطعم سواها . ولما استدعاه البابا بولس الثالث ليخلف أنطونيو داسينجالو في منصب كبير المهندسين في كنيسة القديس بطرس رفض هذه الدعوة وقال إنه لا يرضى أن يستبدل بحياته في ظل الجمهورية العمل في ظل حاكم مطلق (٣) . وعرض عليه كل من إركولى الثاني صاحب فيرارا ، وكوزيمو دوق فلورنس ، مبالغ طائلة لكي يرضى بالإقامة في بلاطيهما ، ولكنه رفض ما عرضاه عليه . ومات مية هادئة في عام ١٥٧٠ بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر .

وفي ذلك العام ظهر مؤلف في العمارة كان بداية عهد جديد في هذا الفن . واسم هذا الكتاب هو أربعة كتب في العمارة ومؤلفه أندريا بلاديو الذي سمي باسمه طراز من البناء لا يزال باقياً في أماكن متفرقة حتى يومنا هذا . وسافر أندريا إلى رومة كما سافر إليها كثيرون غيره من الفنانين ، وتأثرت مشاعره أشد التأثير بعظمة خرائب السوق العامة ، وشغف حبا بالعمد والتيجان المحطمة ، ورأى فيها أجمل الأفكار التي وصل إليها فن

(*) إشارة إلى الحكومة الثلاثية في رومة القديمة . (المترجم)

العمارة ؛ وكان يحفظ رسالة قثروفيوس عن ظهر قلب ، وقد حاول في كتابه هو أن يرد إلى مباني النهضة جميع تلك المبادئ التي قام عليها ، في رأيه ، مجد رومة القديمة . وقد خيل إليه أن أجمل المباني هي التي تبتعد عن جميع الزخارف التي لا تنبت بنفسها من طراز الإنشاء نفسه ، والتي تستمسك بأدق النسب والصلات ، وبتطابق الأجزاء ومواءمتها بحيث يتكون منها كل عضو، يسمو عظمياً قوياً طاهراً طهارة العذراء العفيفة ، مهيباً كالإمبراطور العظيم .

وكان أول أعماله الكبيرة أحسنها على الإطلاق ، وهو من أبرز المنشآت غير الدينية في إيطاليا . ذلك أنه أقام حول قاعة البلدية Palazzo della Ragione في موطنه فيتشندسا Vicenza في عام ١٥٤٩ وما بعدها أروقة مقنطرة فخمة قوية حول بها مركز البناء القوطي الذي لا يمتاز بشيء عما حوله إلى باسلقا بلاديانا لا تكاد تقل شأنًا عن باسلقا لوليا التي كانت قائمة في الزمن القديم في السوق الرومانية : فهي مؤلفة من صف من الأقواس تعتمد على عمد دورية(*) اسطوانية ومربوعة ، وعارضات لها قوية ضخمة ، وسياج وشرفة منحوتة نحتاً رقيقاً ، ثم صف آخر من العقود فوق عمد أيونية الطراز ، وأطناف وسياج ، وفوق كل بندريل تمثال عال يطل على المدينة ويكسبها عظمة وفخامة . وقد كتب هو نفسه عنها في كتابه بعد واحد وعشرين عاماً من بنائها يقول : « لا شك عندي في أن هذا الصرح لا يقل جلالاً عن الصروح القديمة ، وأنه يمكن أن يعد من أروع وأجمل ما شيد من العمائر منذ أيام الأقدمين » (٤) . ولو أنه قصر هذا التحدي على المباني غير الدينية لما كان عليه فيه تريب :

وأصبح بلاديو بعدئذ بطل فيتشندسا التي أحست بأنه قد تفوق على سانسو فينو ، وأن هذا الصرح أعظم من بناء دار الكتب . وألح عليه أثرياء

(*) أي من الطراز الدوري (Doric) . (المترجم)

المدينة يطلبون أن يقوم لهم ببناء القصور والبيوت الريفية ؛ كما ألح عليه رجال الدين ليشيد الكنائس ؛ وكانت نتيجة ذلك أنه كاد يجعل المدينة قبل وفاته عام ١٥٨٠ قطعة من رومة . وكان مما شاده فيها شرفة مكشوفة تدار منها شئون المدينة ، ومتحف جميل ، ودار تمثيل أطلق عليها اسم Teatro Olimpico . واستدعته البندقية وفيها خطط كنيسة من أجل كنائسها هما كنيسة سان جيورجيو مجورى ، وريدينتورى Redentore ، وأصبح حتى قبل وفاته ذا أثر قوى فى إيطاليا . ونقل إنيجو جونز Inigo Jones فى أوائل القرن السابع عشر الطراز البلاديونى إلى إنجلترا ، وانتشر بعدئذ فى أوروبا الغربية ثم انتقل إلى أمريكا .

وربما كان انتشار هذا الطراز من سوء حظ فن العمارة . ذلك أنه لم يبلغ قط ما بلغه فن العمارة الرومانية من روعة ومهابة ، فقد أرباك واجهات مبانيه بما ملأها به من العمد ، والتيجان ، والطنوف ، والصور ، والتماثيل ، فكانت هذه التفاصيل مما يزرى بما فى الصروح الرومانية الطراز من بساطة فى الخطوط ووضوح فى المنظر العام . ولقد نسي بلاديو وهو يعود متواضعا إلى الطراز القديم أن الفن الحى يجب أن يعبر عن العصر الذى يعيش فيه ومزاجه ، لا عن عصر آخر ومزاج آخر . ومن أجل هذا فإننا حين نفكر فى عصر النهضة ، لا ترسم فى عقولنا مبانيه ، بل ولا تماثيله نفسها ، وإنما ترسم فيها صوره التى لا يتمثل فيها إلا القليل من تقاليد الإسكندرية ورومة ، التى حررت نفسها من القوالب البيزنطية المزدهجة الغير الطبيعية ، فكانت بذلك صوت ذلك العصر ولونه بحت .

الفصل الثاني

أريتينو: ١٤٩٢ - ١٥٥٦ (٥)

وكان الأقدار أرادت أن تخلد ذكرى عام ١٤٩٢ فقدرت أن يولد بييترو أريتينو ، المنكل بالأمراء ، وأمير المبتزين المقتصبين ، كما قدرت أن يخرج إلى العالم في يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام . وكان والده حذاء فقيراً في أرتسو لا نعرف من اسمه إلا لوكا Luca . وسمى بييترو في الوقت المناسب ، كما كان يسمى كثيرون غيره من الإيطاليين ، باسم مسقط رأسه فصار أريتينو . وكان أعداؤه يصرون على أن أمه كانت عاهراً ؛ ولكنه كان ينكر ذلك ويقول إنها كانت فتاة حسنة تدعى تيتا Tita يتخذها المصورون نموذجاً لرسم صورة العذراء ، غير أنها في ساعة من الاستهتار حملت بييترو وهي في أحضان عشيق عارض ولكنه نبيل يدعى لويجي باتشي Luigi Bacci . ولم يكن أريتينو يعياً بأنه نغل ، لأن له زملاء ممتازين من هذا الصنف من الناس ، كذلك لم يكن أبناء لويجي الشرعيون يغضبهم أن يسميهم بييترو ، بعد أن ذاع صيته ، إخوته . لكن أباه كان هو لوكا :

ولما أتم الثانية عشرة من عمره شرع يعمل لكسب عيشه ، فاشتغل مساعداً لمجده كتيب في بيروجيا ؛ وهناك درس الفن دراسة تكفي لأن يجعله فيما بعد نقاداً وخبيراً ممتازاً . ورسم هو بعض الصور الملونة . واتفق أن كانت في أشهر ميادين بيروجيا صورة دينية يعزها أهل المدينة ويحلوونها ، تمثل صورة مجدلين نحاشعة عند قدمي المسيح . فما كان من أريتينو في إحدى الليالي إلا أن رسم عوداً في أحضان مجدلين فحول بذلك دعاءها إلى أغنية . ولما استشاطت المدينة غضباً من هذه الفعلة الطائشة ، تسال بييترو من بيروجيا وأخذ يطوف في إيطاليا ، فعمل خادماً في رومة ، ومغنياً في شوارع

فيتشندسا ، وصاحب نزل في بولونيا . واشتغل فترة من الزمان في مطبخ بعض السفن وعاملاً مأجوراً في دير ، لكنه طرد منه لآتهامه بالدعارة ، فعاد إلى رومة (١٥١٦) ، حيث عمل خادماً عند أجوستينو تشيجي . ولم يكن الرجل المصرفي يقسو في معاملته ، ولكن أريتينو كان قد كشف عما امتاز به من عبقرية ، وتضايق من الاشتغال بالخدمة ؛ فكتب قطعة من الهجاء اللاذع يصف فيها حياة الخادم الحقير الذي يقضي وقته في تنظيف المراحيض ، وتلميع المبال . . . وإشباع شهوات الطباخين ورؤساء الخدم ، ولا يلبث أن يرى جسمه مرقطاً ومزداناً بالزهرى » (٦) . وعرض قصائده على بعض ضيوف تشيجي ، وترامت الأنباء بأن بيتر وأحد الهجائين لساناً وأعظمهم فكاهة . وبدأت قصائده تنتشر ، وسر منها البابا ليو ، وبعث في طلب مؤلفها ، وضحك من فكاهته الخشنة الصريحة ، وضمه إلى الموظفين البابويين ليكون في مركز وسط بين الشاعر والمهرج ، وظل بيتر ثلاث سنين في خدمة البابا يستمتع بلذيل المأكول والمشرب .

ثم مات ليو فجاءة ، وبدأ أريتينو حياة التجوال مرة أخرى . ولما أبطأ مجمع الكرادلة في اختيار من يخلفه ، كتب عدة قصائد يهجو فيها الناضحين والمرشحين ، ولصقها على تمثال بسكوينو Pasquino وأخذ يكيل السخرية لكثيرين من الكبار حتى لم يكذبى له في المدينة كلها صديق . ولما انتخب أدريان السادس ، وبدأ حملة للإصلاح نفّرت منه أهل المدينة ، فر بيتر إلى فلورنس ، ثم إلى مانتوا (١٥٢٣) ، حيث عينه فيديريجو شاعر بلاطه بمرتب غير كبير . ولما استجيب دعاء رومة ومات أدريان ، وجاس ثرى من آل ميديتشي مرة أخرى على عرش العروش ، بادر بيتر بالذهاب إلى العاصمة كما بادر بالذهاب إليها آلاف غيره من الشعراء ، والفنانين ، والأوغاد ، والرقعاء .

وما كان يصل إليها حتى قضى بنفسه على ما لقيه فيها من ترحيب .

ذلك أن جيوليو رومانو كان قد رسم عشرين صورة ، تصف عدة مواقف غرامية مختلفة . ووضع مركانتونيو نقوشاً محفورة لهذه الصور ، « وكتب بييترو أريتينو » . كما يقول فاسارى « أغنية بلغت من الفحش درجة لا أستطيع معها أن أقول أيهما شر من الأخرى : الرسوم أو الألفاظ » (٧) . وتداول المفكرون الصور والأغاني حتى وصلت إلى جبيرتى Giberti وهو الموظف المنوط ببحث حالات موظفى الحكومة البابوية ولياقتهم لوظائفهم ، وكان هذا الموظف معروفاً بعدائه لأريتينو . وسمع بذلك بييترو فخرج من المدينة هائماً على وجهه مرة أخرى . ولما وصل إلى بافيا افتتن به فرانسيس الأول الذى أوشك أن يفقد كل شيء عدا الشرف . وفى ذلك الوقت بدل أريتينو موضوعه وانتقل من النقيض إلى النقيض ، ودهشت لذلك رومة وحبست أنفاسها من فرط الدهول ؛ فقد كتب ثلاثة قصائد فى المديح ، واحدة منها عن كلمنت ، وثانية عن جبيرتى ، وثالثة عن فيديريجو . وشفع له المركيز لدى البابا ، ورق له قلب جبيرتى ، وأرسل كلمنت فى طلب أريتينو وعينه فارساً فى رودس ورتب له معاشاً . وقد وصفه فرانتشيسكو بيرتى منافسه الوحيد بين المهجائين وقتئذ بقوله :

إنه يسير فى شوارع رومة فى زى الأدواق ، ويشترك فى جميع مغامرات الأشراف ، ويشق لنفسه الطريق بالإهانات المتخفية فى الألفاظ الماكرة الخادعة . وهو يجيد الحديث ، ويعرف كل قصة من قصص الطعن والتشهير فى المدينة . ويسير متأبطاً أذرع أفراد أسرة أوست وجندساجا ، ويستمتع هؤلاء إلى ثرثرته . وهو يحترمهم ولكنه يشمخ بأنفه على كل واحد سواهم ، ويعيش من هباتهم . والناس يخشونه لما له من قدرة على الهجاء ، ويسره أن يستمع الناس يصفونه بأنه سياخر تمام وقح . وكل ما كان يحتاجه أن يظفر بمعاش ، وقد حصل عليه من البابا بعد أن وجه له قصيدة من الدرجة الثانية (٨) .

ولم يكن أريتينو يشك في أنه سيحصل على هذا كله . وكأنا أراد أن يثبت هذا فطلب إلى سفير مانتوا أن يرجو فيديريجو أن يهبه « قيصين مطرزين بالذهب . . . وآخرين مشغولين بالحرير ، ومعها قلنسوتان من الذهب » . فلما أبطأت عليه هذه المطالب أنذر بأنه سوف يهجو المركز هجوا يقضى عليه من فوره . وحذر السفير فيديريجو من هذا بقوله : « إن سموك لتعلم قوة لسانه ؛ ولن أقول لك شيئاً غير هذا » . وسرعان ما وصلت أربعة قمصان مطرزة بالذهب ، وأربعة مطرزة بالحرير ، وقلنسوتان من الذهب ، وقبعتان من الحرير ، وكتب السفير يقول : « إن أريتينو راض قانع » . وكان في وسع بيتر أن يرتدى وقتئذ رداء الأدواق .

وقضى على فترة الرخاء الثانية في رومة حادث روائي أدى إلى إصابته بخفية بطعنات خنجر . وتفصيل ذلك أن أريتينو قال ألياناً أهان بها فتاة تعمل في مطبخ جبيرتي ، فهاجمه خادم آخر من خدم جبيرتي يدعى أنشيلي دلا فولتا Achille della Volta في أحد شوارع المدينة في الساعة الثانية صباحاً (١٥٢٥) ، وطعنه بخنجر في صدره طعنتين ، كما طعنه طعنة شديدة في يده اليمنى أدت إلى بتر إصبعين من أصابعها . ولم تكن الجراح مميتة ، وسرعان ما شفى منها أريتينو ، وطالب باعتقال أنشيلي ، ولكن كلمنت وجبرتي لم يتدخلوا في الأمر . وظن بيتر أن جبيرتي يعمل لقتله ، فاستقر رأيه على أن الوقت قد آن للطواف مرة أخرى بإيطاليا ، فانتقل إلى مانتوا والتحق مرة أخرى بخدمة فيديريجو (١٥٢٥) . ولما سمع بعد عام من ذلك الوقت أن جيوفاني دلي باندی يرى يجهز جيشاً يقصد به غزو فرنديسبرج ، ثارت في نفسه ذرة خفية من النبل والكرامة ، فسافر راكباً نحو مائة ميل لينضم إلى جيوفاني في لودي Lodi . وغلى كل ما في عروقه من الدم حين فكر في أنه وهو الشاعر المسكين قد يصبح رجل جد وعمل ، وأنه قد يبلغ من أمره أن ينشئ لنفسه إمارة يتولى هو رياستها ، بدل أن يكون مجرد خادم مهين لأمير .

والحتى أن القائد الشاب كان كريماً معه كرم دون كيشوت ، فوعده بأن يجعله مركزاً إن لم يكن أعظم من مركز . ولكن جيوفني الباسل قتل ، وخلع أريتينو الخوذة التي أعطاها وعاد إلى مانتوا وإلى قلمه .

وَأَلْفَ وَفَتْهُدَ تَقْوِيماً هَزَلِيّاً لَعَامَ ١٥٢٧ تَبْأُ فِيهِ بَنبُوءَاتُ سَخِيْفَةٍ أَوْسِيْئَةٍ لَمَنْ كَانَ يَبْغِضُهُمْ ، وَضَمَّ إِلَى ضَحَايَا قَلَمِهِ الْبَابَا كَلَمْتَ لَغْضَبِهِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ضَعْفِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا إِلَى جِيُوفَنِي دَلِي بَانْدِي نِيرِي وَتَرَدَّدَةٍ فِي تَقْدِيمِهَا . وَأَظْهَرَ كَلَمْتَ دَهْشَتِهِ مِنْ أَنَّ يَأْوِي فِيدِيرِيْجُو مِثْلَ هَذَا الْعَدُوِّ لِلْبَابُوِيَّةِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ لَهَا شَيْئاً مِنَ الْإِجْلَالِ ، فَمَا كَانَ مِنْ فِيدِيرِيْجُو إِلَّا أَنْ نَفَحَ أَرِيْتِينُو بِمَائَةٍ كَرُونٍ وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَبْتَعدَ عَنْ مَتَنَاوَلِ يَدِ الْبَابَا . فَرَعَلِيهِ پِيْتَرُو يَقُولُهُ : « سَأَذْهَبُ إِلَى الْبِنْدُقِيَّةِ ، فِي الْبِنْدُقِيَّةِ وَحْدَهَا تَمْسُكُ الْعَدَالَةَ بِكَفْتَيْنِ مِثْرَتَيْنِ » . وَوَصَلَ إِلَيْهَا فِي شَهْرِ مَارْسِ عَامَ ١٥٢٧ ، وَاتَّخَذَ لَهُ بَيْتاً عَلَى الْقَنَاةِ الْكُبْرَى . وَافْتَنَ بِالْمَنَازِلِ الَّتِي كَانَ يَرَاهَا مِنْ وَرَاءِ الْأَمْوَاهِ الضَّحَلَةِ ، وَبِحَرَكَةِ الْمُرُورِ الَّتِي كَانَ يَشَاهِدُهَا فِيهَا أَسْمَاءُ « أَجْمَلُ طَرِيقٍ كَبِيرٍ فِي الْعَالَمِ كَاهُ » ، وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ : « لَقَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيِي عَلَى أَنَّ أُعِيشَ فِي الْبِنْدُقِيَّةِ طَوْلَ حَيَاتِي » . وَبَعَثَ بِخُطَابٍ يَهْدِي فِيهِ تَحِيَّاتَهُ وَثَنَاءَهُ الْعَظِيمَ إِلَى الدُّوْجِ أَنْدَرِيَا جِيُورْتِي ، وَيَمْتَدِّحُ فِيهِ جَمَالَ الْبِنْدُقِيَّةِ وَجَلَالَهَا وَعَدَالَةَ شَرَائِعِهَا ، وَمَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ أَهْلُهَا مِنْ أَمْنٍ وَطَمَآنِينَةٍ ، وَإِبْوَاءِهَا اللَّاجِئِينَ السِّيَاسِيِّينَ وَالْمُفَكِّرِينَ ، وَأَضَافَ إِلَى ذَلِكَ فِي عَظَمَةِ وَجَلَالِ : « أَنَا ، الَّذِي قَذَفْتُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُلُوكِ . . . أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكُمْ يَا آبَاءَ شَعْبِكُمْ » (٩) . وَقَدَّرَهُ الدُّوْجُ التَّقْدِيرَ الَّذِي قَدَّرَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ سَيَبْسُطُ عَلَيْهِ حِمَايَتَهُ ، وَوَضَفَ لَهُ مَعَاشاً ، وَشَفَعَ لَهُ عِنْدَ الْبَابَا ، وَبَقِيَ أَرِيْتِينُو مُقِمّاً فِي الْبِنْدُقِيَّةِ وَفِيَّاءً لَهَا طَوَالَ السَّنِينَ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ الْبَاقِيَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ جَاءَتْهُ الرِّسَالُ تَدْعُوهُ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي بِلَاطِ الْكَثِيرِينَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ .

وَيَشْهَدُ مَا جَمَعَهُ فِي بَيْتِهِ الْجَدِيدِ مِنْ أَثَاثٍ وَتَحَفٍ فَنِيَّةٍ بِمَا كَانَ لِقَلَمِهِ مِنْ

قوة. ، لأن هذا كله إنما صنع أو جمع نتيجة لكرم أنصاره أو خوفهم منه . من ذلك أن نتورتو نفسه هو الذى نقش سقف حجرات بيترو الخاصة ، وسرعان ما ازدانت جدرانها بصور من عمل تيشيان ، وسباستيانو دل بيومبو ، وجيولبورومانو ، وبرندسينو ، وفاسارى ؛ وكان فى الدار تماثيل من صنع ياقوبو سانسو فينو ، وألسندرو فتوريا . وكانت فيها علبة من خشب الأبنوس تحوى الرسائل التى تلقاها أريتينو من الأمراء ، والأخبار ، وقواد الجيوش ، والفنانين ، والشعراء ، والموسيقين ، وكرايم السيدات ؛ وقد نشر هذه الرسائل فيما بعد فى مجلدين يحتويان على ٨٧٥ صفحة كثيرة السطور . وكان فى الدار فوق ذلك صناديق وكراسى محفورة ، وسرير من خشب الجوز يليق بجسم بيترو الذى كان قد تضخم . وكان أريتينو يعيش وسط هذا الترف وهذه التحف الفنية ، يرتدى ثياب الأمراء ، ويوزع الصدقات على الفقراء من الجيران ، ويولم الولائم لعدد لا يحصى من الأصدقاء وللعشيقات اللاتى اتخذهن واحدة بعد واحدة .

ترى من أين جاء بالمال الذى يحيا به هذه الحياة المترفة ؟ لقد جاء ببعضه من بيع كتاباته للناسخين ، وبعضه من الهدايا والمزبذبات التى كان يبعث بها إليه من يخشى سخريته أو يلتمس مديحه من الرجال والنساء . وكان أكثر الناس يقظة وشأناً فى إيطاليا يسارعون إلى ابتياع ما يخطه قلمه من هجاء ، وقصائد ؛ ورسائل ، ومسرحيات ، وكلهم حريص على أن يعرف ما يقوله عن الأشخاص والحوادث ، ويسر من هجائه على ما هو منتشر فى تلك الأيام من فساد ، ونفاق ، وظلم ، وسوء خلق . وقد أضاف أريستو إلى الطبعة التى أصدرها فى عام ١٥٣٢ من *أرلندو فيورioso* بيتين من الشعر أضافا لقبين إلى اسم بيترو وإذ قال : « انظر وا إلى المنكل بالأمراء ، بيترو أريتينو القدسى » ؛ وسرعان ما أصبح الطراز المألوف أن يتحدث الناس عن أكبر كاتب فظ بئىء فى ذلك الوقت بأنه « قدسى » .

وذاغت شهرته في أنحاء القارة الأوربية ، وسرعان ما ترجم هجاؤه إلى اللغة الفرنسية ، وجمع أحد باعة الكتب في شارع سان چاك في باريس ثروة طائلة من بيعها مفردة (١١) ، ورحب بها سكان إنجلترا ، وبولنדה ، والمجر ، وقال في ذلك أحد معاصريه إن أريتينو ومكيغلي هما دون غيرهما المؤلفان اللذان تقرأ مؤلفاتهما في ألمانيا ، وفي رومة حيث يقيم ضحايا قلمه المحبون كانت كتاباته تنفذ في يوم نشرها ، وإذا جاز لنا أن نأخذ بتقديره هو فإن إيراده من مؤلفاته المختلفة بلغ ألف كرون (١٢,٥٠٠ دولار ؟) في العام الواحد . وفضلا عن هذا فإن « كيمياء قلبي قد جاءت إلى بأكثر من ٢٥,٠٠٠ كرون ذهبي من أحشاء مختلف الأمراء » . وكان الملوك ، والباطرة ، والأدواق ، والبابوات ، والكرادلة ، والسلاطين ، والقراصنة ، ممن يعطونه الجزية . عن يد وهم صاغرون . وها هو ذا شارل الخامس يعطيه طوقاً يقدر بثلاثمائة كرون ، وفليب الثاني يعطيه طوقاً آخر يقدر بأربعمائة ، وفرانسيس الأول يهبه سلسلة أعظم منهما قيمة (١٢) . وكان فرانسيس وشارل يتنافسان في كسب مودته بما يعدانه به من معاش ضخم ، وقد وعده فرانسيس بأكثر مما وهبه ، وقال عنه أريتينو : « لقد كنت أجله أعظم إجلال ، ولكن عجزى عن استثارة سخائه والحصول من هذه الاستثارة على المال ليكني لأن يرد أفران مورانو (الضاحية التي تركز فيها صناعة الزجاج بالبندقية) » (١٣) . وعرض عليه لقب « فارس » من غير أن يصحب اللقب إيراد ما ، فرفضه وقال « إن القروسية بلا دخل كالجدار الذي لا يحمل علامة ممنوع » . فعنده يرتكب كل إنسان ما يشاء من المضايقات » (١٤) . وهكذا سخر أريتينو قلمه للثناء على شارل وخدمه بإخلاص لم يألفه قط . ودعى مرة لمقابلة الإمبراطور في بدوا ، فلما أقبل على المدينة خرجت جموع كبيرة تحبيه كما تحيي أعظم العظماء المشهورين ، وآثر شارل أريتينو على جميع الحاضرين فاختره للركوب إلى جانبه وهو يطوف بالمدينة ، وقال له :

« إن كل سميندع في أسبانيا يعرف كتاباتك ، ويقرأ كل ما يصدر منها فور طبعه » . . وجلس ابن الخداء في تلك الليلة عن عيني الإمبراطور ، الذي دعاه لزيارة أسبانيا ، فرفض بيتر وبعده أن عرف ما هي البندقية . وكان أريتينو وهو جالس إلى جانب فاتح إيطاليا أول مثل لما أسماه الناس بعدئذ قوة القلم ، فما من نفوذ شبيه بنفوذه ظهر بعدئذ في الأدب حتى جاء فلتير .

وقلما يسترعى هجاؤه انتباهنا في هذه الأيام ، ذلك أن قوته تعتمد في الغالب على الإشارات اللاذعة لحوادث محلية ، وثيقة الصلة بظروف ذلك الوقت إلى حد يحرمها من أن يكون لها أثر دائم . وكان سبب انتشار ذلك الهجاء وشهرته أنه يصعب على الإنسان ألا يستمتع بكشف عورات غيره من الناس ، ولأن قائله يعرض بالمساوي الحقة ، ويهاجم بشجاعة العظماء والأقوياء ، ولأنه حشد جميع ما في لغة الشوارع من قوة لخدمة الأدب وللتجريح الأدبي النافع . وقد استغل أريتينو اهتمام الناس الفطري بالشئون الجنسية وبالخطايا ، فكتب في ذلك أهاريم Ragionamente بين العاهرات عن أسرار الراهبات ، والزوجات ، والعشيقات وأعمالهن . وكانت الصفحة الأولى من الكتاب تعلن أنه محاورات نانا وأنطونيو ... ألفه أريتينو القدسي لقرده المدلل كبريتشيو Capriccio ، ولإصلاح شأن طبقات النساء الثلاث . قدم للطابع في هذا اليوم من شهر إبريل سنة ١٥٢٣ بمدينة البندقية المذاعة الصيت (١٥) . وفي هذا الكتاب يستبق أريتينو ما نتسم به كتابات ربلية Rabelais من فحش ، وسخرية ، وولع بالأوصاف يصل إلى حد الجنون ، وهو يهيم حباً بالعبارات التي لا تزيد على أربعة أسطر ، ويؤلف منها أحياناً عبارات فذة مذهشة كقوله : (« أراهن بروحي نظير حبة فستق ») ، وأوصافاً رائعة كوصفه الزوجة الحسنة التي في سن السابعة عشرة والتي هي « أجمل قطعة من اللحم أظن أني لقيتها في حياتي » — والتي تزوجت بـرجل في سن الستين ، واعتادت المشي وهي نائمة تتخذة وسيلة للمقارعة جراب

الليل» (١٦) . والنتيجة التي تستخلص من المحاورات هي أن المومسات أجدر طبقات النساء الثلاث بالمديح ، لأن الزوجات والراهبات ينكثن بأيمانهن ، أما المومسات فيعشن كما تحتمه عليهن حرفتهن ، ويقضين الليلة في أداء ما تناولن عنه أجرهن . ولم ترزع أقواله لإيطاليا ، بل تلقى بالضحك والابتهاج .

وَألف أريتينو في ذلك الوقت نفسه أكثر مسرحياته كلها انتشاراً وهي مسرحية المومس . وقد سلك فيها النهج الذي سارت عليه معظم المسالى الإيطالية في عهد النهضة ، فقد جرت على التقاليد البلوتينية ، التي تجعل الخدم يسخرون من أسيادهم ، ويحيكون لهم ما يريدون من الدسائس ، ويعملون لهم قوادين ، ويتولون عنهم التفكير . غير أن أريتينو أضاف إلى ذلك شيئاً خاصاً به : هو سخريته وفكاهته الفاجرة الفاحشة ، وعلاقته الوثيقة بالعاجرات ، وكراهيته لخاشية الملوك والأمراء ، — وخاصة حاشية البابا — ووصفه الصادق الطليق للحياة كما شاهدها في المواخير وفي قصور رومة . وقد أزاح الستار عن حاجة رجل البلاط إلى النفاق ، والتذبذب ، والتذلل ، والملك ، وغرف النجاسة في سطر مشهور بأنها « قول الحق » ، وكان ذلك أقوى وأحكم دفاع عن حياته وتبرير لها . وكتب أريتينو مسلاة أخرى هي أطلنطا جعل فيها الشخصية الهامة عاجراً أيضاً ، وجعل محور القصة ما تحتال به من الخيل على محبيها ، والطرق التي تبتز بها المال منهم بعد أن تهيجهم . وله مسرحية أخرى تدعى Ipocrita شبيهة كل الشبه بمسرحية طرطوف لمليير ، بل الحق أن مسالى مليير ليست إلا حلقات فرنسية من مسالى أريتينو أصلحت وطهرت من رائحتها الخبيثة .

وَألف أريتينو في نفس العام الذي أخرج فيه أناشيد المواخير طائفة كبيرة من المؤلفات الدينية منها إنسانية النسيج ، وعزائم النوبة السبعة ، وعياة سرنيم العذراء ، وعياة كترين العذراء ، وعياة القديس تومس ،

سيراكوسا وغيرها . . . ومعظم هذه المسرحيات قصص لا تاريخ ، وقد أقر بييترو بأنها « أكاذيب شعرية » ، ولكنها أكسبته ثناء الرجال الصالحين ، وحتى ثناء فتوريا كولنا الصالحة الفاضلة . وكانت بعض الجهات ترى أنه دعامة كبرى للكنيسة ، وراجت في وقت ما إشاعة بأنه سيغين كردنالا .

وأكبر الظن أن رسائله هي التي أبقت على شهرته كما أبقت على ثروته . وكانت الكثرة الغالبة منها مدائح بعث بها إلى الممدوحين أو إلى أشخاص متصلين بهم . وكان يقصد بها صراحة أن ينال رفدهم ، أو معاشاً منهم ، أو غير هذا وذاك من المساعدات ؛ وكان في بعض الأحيان يعين ما يريد أن يناله والوقت الذي يناله فيه . وكان أريتينو لا يكاد يكتب هذه الرسائل حتى يطبعها ، وكان هذا أمراً تستلزمه قوانين الإيجائية . وكانت إيطاليا تتخاطبها لأنها تديح لها بطريق غير مباشر أن تكون وثيقة الصلة بالمشهورين من الرجال وبشهرات النساء ، ولأنها كتبت بطريقة مبتكرة مليئة بالحياة ، والبهجة ، والقوة ، لا يسمو إليها أي كاتب آخر في ذلك الوقت . وكان أريتينو من ذوي الأسلوب الممتع وإن لم يسع هو إلى أن يكون له هذا الأسلوب . وكان يسخر من آل بمبو الذين كانوا يعملون لصقل كتاباتهم صقلاً كاملاً ينقدها الحياة كلها ، وقد قضى على عبادة الكتاب الإنسانيين للغة اللاتينية ، والدقة المتناهية في مراعاة قواعد اللغة ورشاقة اللفظ . وكان يتظاهر بأنه يجهل الأدب ، ولهذا كان يشعر بالتمحور من النماذج الموضوعية المعقدة الملتبسة ، ولم يكن يتقيد في كتابته إلا بقاعدة واحدة تسيطر عليه دون غيرها وهي أن تكون كتابته تلقائية في لغة بسيطة خالية من اللف والدوران ، معبرة عن تجاربه في الحياة ونقده لها ، وعن حاجاتها البسيطة المألوفة من طعام وكساء . وفي وسعنا أن نجد بين أكذاس السخافات التي تحتويها هذه الرسائل ماسات متألثة : رسائل رقيقة لعاهر محبوبة في مرضها ، وقصصاً منظرية من التاريخ المحلي ، ومغرب الشمس يصفه في رسالة إلى

نيشيان لا تكاد تقل جمالا عن صورة من صنع تيشيان أو ترنر Turner ؛
ورسالة ليكل أنجيلو يشير عليه فيها بوضع تصميم لصورة العشاء الأخير
ألقى بها من التصميم الذى وضعه الفنان .

وكان إدراك أريتينو للفن ، وتقديره إياه من بين الصفات الطيبة في
خلقه وكان أقرب أصدقائه الذكور إليه وأوثقهم صلة به تيشيان
وسانسوفينو . وكثيراً ما اجتمعا في ولائم تزدان في العادة بصحبة النساء ،
وكن من الساقطات ؛ فإذا ما دار الحديث فيها حول الفن لم يكن أريتينو
تعوزه القدرة على مجازاة الفنان الكبير . وكان يتغنى في رسائله بمديح تيشيان
لعدد كبير ممن يتوسم فيهم مناصرة الفن ؛ وقد استطاع أن يحصل له على
عدد من الأعمال ربما كان له هو نصيب في إنجازها . وكان أريتينو هو الذى
أقنع الدوج ، والإمبراطور ، والبابا ، بأن يجلسوا أمام تيشيان ليصورهم ،
كذلك صور تيشيان أريتينو مرتين . وادعى سانسوفينو أنه ينحت صورة
لأحد القديسين ، ووضع رأس الشهواني العجوز فوق باب غرفة من غرف
المقدمات في كنيسة القديس مرقس ، وربما كان ميكل أنجيلو قد صور
هو على أنه القديس بارثولميو في صورة العشاء الأخير .

وكان أحسن وأسوأ من الصورة التى رسمت له ؛ وقد اجتمعت فيه
الذائل كلها تقريباً ، وكان اللواط من التهم التى رمت بها . وكان نفاقه مما جعل
صورة إيوكريتا (النفاق) تبدو صورة صادقة إذا قورنت بأخلاقه هو نفسه .
وكان يستطيع إذا شاء أن يجعل لغته ستاراً لحماة من الأقدار . وكان في وسعه
أن يكون وحشياً مجرداً من صفات الرجولة ، يشهد بذلك ما أظهره
من الشماته في سقوط كلمنت ؛ ولكنه أوتى من الكرم ما جعله يكتب
نما بعد : « إني لأستحي من أنى حين ذمته قد فعلت ذلك وهو في أفدح
الخطوب » (١٧) . وكان جباناً لا يستحي من جبنه ؛ ولكنه أوتى من الشجاعة
ما يستطيع به أن يشنع على الأقوياء ، ويندد بالمساويى التى يعز بها بعضهم

أعظم اعتزاز . وكان السخاء أبرز فضائله . فقد كان يعطي أصدقائه ويهب الفقراء جزءاً كبيراً مما يحصل عليه من المعاش ، والمكاسب ، والهدايا ، والرشا . ونزل عن حقه في أرباح رسائله حتى يستطيع بيعها رخيصة ، وحتى يذبح صيته ويعلو قدره . وكان يصل إلى حافة الإفلاس في كل عام قرابة عيد الميلاد لكثرة ما يهبه من الأموال ، وفي ذلك يقول جيوفاني دلي باندي . نرى بلخوتشارديني : « لست أقل سخاء من أحد من الناس إلا إذا قورنت بييترو إن أوتي المال الذي يسخو به » (١٨) . وكان يساعد أصدقائه على بيع رسومهم ، وعلى أن يطلق سراحهم من السجون (كما فعل مع سانسوفينو) . وقد كتب مرة يقول : « ما من أحد إلا يأتي إلى كائي مخازن بيت مال الملوك ، فإذا اعتقلت بنت فقيرة ، وفي بيتي بما تطلبه من نفقات ، وإذا سجن إنسان ما تحملت أنا نفقة إخراجة ، والجنود الذين ينقصهم العتاد ، والغرباء الذين خانهم الحظ ، والفرسان الجائلون الذين لا يحصى لهم عد ، يأتون إلى بيتي ليجهزوا بما يحتاجون » (١٩) . وإذا كان قد آوى في بيته في وقت من الأوقات اثنتين وعشرين امرأة ، فإن هاته النسوة لم يكن كلهن حريمه ، فمنهن من كن يربين أطفالاً غير شرعيين ، وقد وجدن لمن ما جأ في بيته ، ومما هو جدير بالملاحظة أن أسقفاً بعث بجذاعين إلى إحدى هاته النسوة . وكانت كثيرات من النساء اللاتي يستخدمنهن أو يعرهن يحببنه ويجللنه ، وقد تسمت ست من عشيقاته المحبيات باسم أريتيني Aretine وكان يفتخرن بهذه التسمية .

وكان له ما يمكن أن تتضمنه الروح الحيوانية القوية من فضيلة ، فكان في حياته الخاصة حيواناً طيب القلب لم يعرف قط للقانون الأخلاقي معنى . وكان يظن — وكان لظنه هذا بعض ما يبرره في ذلك الوقت — أنه ما من رجل ذي مكانة يتقيد حقاً بالقانون الأخلاقي . وقد قال مرة لفاساري إنه لم يرقط عذراء لا تتم معارفها عن مسحة شهوانية (٢٠) . وكانت شهوانيته

هو عارمة أفضيعة ، ولكنها لم تكن تبدو لأصدقائه أكثر من نشاط تلقائي للحياة ، وكان مئات من الناس يجدون فيه ما يدعو إلى حبه ؛ وكان الأمراء والقساوسة يسرون من حديثه ؛ ولم يوث حظاً من التعليم ، ولكن يبدو أنه كان يعرف كل إنسان وكل شيء . وكان إنساناً في حبه لحيوئى دلى باندى نيرى ، ولكترينا والطفلين اللذين ولدتهما له ، ولپيرينا رتشيا Pierina Riccia الضعيفة ، المسلولة ، الرشيقة ، الخائنة .

وقصة رتشيا هذه أنها جاءت إلى بيته وهى زوجة لأمينه فى الرابعة عشرة من عمرها . وكانت هى وزجها تعيشان معه ، وجعل نفسه أباً لها ، وسرعان ما شعر نحوها بحب أبوى عارم ملك عليه قلبه . فأصبح أخلاقه ولم يحتفظ فى داره من عشيقاته إلا بكترينا وإثنين أدريا Adria . ثم حدث فى الوقت الذى كان فيه يتطلع إلى أن يكون رجلاً محترماً ، أن اتهمه نبيل من أهل البندقية ، كان قد خدع زوجته ، أمام المحكمة بالتجديف واللواط . فأنكر التهمتين ، ولكنه لم يجرؤ على أن يعرض نفسه للفضائح والمحاكمة ، لأن إدانته كان معناها الحكم عايه بالسجن مدة طويلة أو بالإعدام . ففر من بيته واختفى عدة أسابيع عند بعض أصدقائه . وأقنع هؤلاء المحكمة برفض الاتهام ، وعاد أريتينو إلى بيته منتصراً ، وحيته الجماهير المصطفة على جانبي القناة الكبرى . ولكن قلبه تحطم حين توسم فى عبنى پيرينا أنها نطنه مذنباً . ثم هجر پيرينا زوجها . فلما جاءت تطلب إليه أن يواسيها اتخذها عشيقة له : وأصابها السل وظلت ثلاثة عشر شهراً بين الحياة والموت ، فعنى بتمريرها عناية الرجل الرحيم بها المشفق عليها ، القلق على حياتها ، حتى رد إليها الحياة . وبينما كان حبه وإخلاصه فى ذروتها هجرته واتخذت لها عشيقاً أصغر منه سناً ، وحاول أن يقنع نفسه أن ذلك خير له ، ولكن روحه تحطمت من ذلك اليوم ، وأسرعت إليه الشيخوخة وغلبته على أمره .

وترهل جسمه ، ولكنه ما فتئ يزدهى بقواه الجنسية ؛ فكان يتردد على

المواخير ، وإن كان قد أخذ يزداد تديناً ؛ وهو الذى كان فى صباه يسخر من فكرة البعث ويصفها بأنها « هراء » ، لا يحملها على محمل الجد غير الغوغاء » (٢١) . وسافر فى عام ١٥٥٤ إلى رومة يرجو أن يتوج رأسه بقلنسوة الكرادلة الحمراء ، ولكن يوليوس الثالث لم يزد على أن ضمه إلى فرسان القديس بطرس . وفى ذلك العام طرد من بيته (Casa Aretino) لعجزه عن الوفاء بديونه ، واتخذ له مسكناً أقل كلفة بعيداً عن القناة الكبرى ، ثم مات بالسكتة بعد عامين ، وهو فى الرابعة والستين من العمر . وكان قد اعترف بجزء قليل من نخطيئاته ، وتلقى القربان المقدس والمسحة الأخيرة ، ودفن فى كنيسة سان لوكا كأنه لم يكن أكبر داعية للفجور ، وأكثر الناس اقترافاً له . وقد ألف أحد الظرفاء أبياتاً يصح أن تكتب على شاهد قبره فقال :

هنا يرقد الشاعر النسكانى أريتينو

الذى لم يترك أحداً لم يتحدث عنه بالسوء إلا الله ،
وقال معتذراً عن تركه إياه « لأننى لم أعرفه قط » .

الفصل الثالث

تيشيان والملوك : ١٥٣٠ - ١٥٧٦

في عام ١٥٣٠ وفي مدينة بولونيا عرّف أريتينو شارل الخامس بتيشيان ، وكان الإمبراطور وقتئذ منهمكاً في إعادة تنظيم إيطاليا فجلس إلى تيشيان ليصوره وهو قلق نافذ الصبر ، ودهش الفنان حين لم يعطه إلا دوقاً واحدة (دولاراً ونصف دولار) . فما كان من فيديريجو دوق مانتوا إلا أن نفح الفنان من جيبه الخاص هبة سخية قدرها ١٥٠ دوقاً تكلمة لأجره . وما لبث الدوق أن أثر في شارل فأقنعه برأيه هو في تيشيان . ثم التقى الفنان والإمبراطور مرة أخرى في عام ١٥٣٢ ، وفي خلال الأعوام الستة عشر التالية رسم تيشيان طائفة مذهشة من الصور للإمبراطور : رسم شارل في عذته الحربية الكاملة (١٥٣٢) وقد ضاعت ؛ ورسمه في ستره موشاة بالقصب ، وصدارة مطرزة ، وسروال قصير أبيض ، وجورب وحذاء ، وقلنسوة سوداء ، تعلوها ريشة بيضاء غير ملائمة لها (١٥٣٣ ؟) ؛ ورسمه مع الإمبراطورة إزبلا (١٥٣٨) ؛ ورسمه في حلة من الزرد براقعة على جواد واثب ، في واقعة موهلبرج Muhlberg (١٥٤٨) - بلغت الذروة في جمال اللون والافتخار ؛ ورسمه في ثياب سود ، جالساً جلسة المفكر في إحدى الشرفات (١٥٤٨) . ومما يذكر بالفضل للمصور والمليّك على السواء أن هذه الصور لا تحاول قط أن تجعل من موضوعها مثلاً أعلى إلا من حيث الملبس ؛ فهي تكشف عن ملامح شارل غير الجذابة ، وعن إهابه غير الحسن ، وعن روحه المكتئبة ، وعن بعض المقدرة على القسوة ؛ ومع هذا فإنها تظهر الإمبراطور رجلاً ثقیلاً الأعباء ، عظيم الساطان ، ذا عقل بارد جامد ، أخضع نصف أوربا لسلطانه . لكنه رغم ذلك يستطيع أن يكون رحماً ، وأن يكفر

بسخاء عن شحه الأول . من ذلك أنه بعث إلى تيشيان في عام ١٥٣٣ ببراءة يعينه بها أميراً في قصره ، وفارساً من طبقة المهماز الذهبي ، وأصبح تيشيان من ذلك الحين مصور البلاط الرسمي لأقوى ملك في العالم المسيحي .

وكان تيشيان في هذه الأثناء قد بدأ يرسل فرانشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أربينو الذي تزوج اليونور جندسا ، أخت فديريجو وابنة إزبلا . ولما كان فرانشيسكو وقتئذ القائد الأعلى لجيوش البندقية ، فكثيراً ما كان هو والدوقة زوجته يأتيان إلى البندقية ؛ وفيها رسم تيشيان صورهما : رسم فرانشيسكو رجلاً تسعة أعشاره مغطاة بالزرد (لأن تيشيان كان يحب بريقه) ورسم الدوقة امرأة شاحبة اللون مستسلمة لقدرها بعد أن انتابتها الأمراض . ورسم لهما تيشيان على الخشب صورة مجرلين ليس فيها ما يجعلها جذابة إلا اختلاف الضوء واللون اللذين أضفاهما الفنان على شعرها الأصفر ؛ ثم رسم لهما صورة أخرى جميلة ؛ باللونين الأخضر والأسمر تعرف باسم La Bella « الجميلة » لا أكثر ، وتوجد الآن في معرض بتي . ورسم تيشيان للدوق جويدوبلندو الثاني الذي خلف فيديريجو صورة من أعظم الصور العارية هي صورة فينوس أربينو (حوالي ١٥٣٨) . ويقال إن تيشيان كان له بعض اللمسات النهائية في صورة فينوس النائمة لأربينو ؛ وما هو ذا يقلد هذه الآية الفنية في كل شيء عدا ملامحها ومصاحباتها . وفيها ترى الوجه يعوزه الهدوء البرئ الذي نشاهده في صورة جيورجيوني ؛ ونشهد بدل المنظر الطبيعي الهادئ منظراً داخلياً من ستار أخضر ، وجوخ بني ، وأريكة حمراء ، كما ترى فتاتين تبحثان عن ردائين يبلغان من العظمة درجة تليق بإهاب السيدة الذهبي .

وانتقل تيشيان من رسم الدوق والإمبراطور إلى رسم البابا . ولم يكن البابا پول الثالث يقل في العظمة عن الإمبراطور : كان رجلاً قوى الخلق ،

عظيم الدهاء ، ذا وجه طبع عليه جيلان من التاريخ . وقد وجد فيه تيشيان فرصة خيراً مما وجدته في ملامح الإمبراطور الخفية التي لا تفصح عن شيء من نفسيته . وواجه بولس في بولونيا عام ١٥٣٥ في شجاعة ما وجدته في صورة تيشيان له من واقعية . وكان البابا وقتئذ في السابعة والستين من عمره ، متعباً ولكن الأحداث لم تنل من قواه . وقد جلس أمام المصور في ثياب البابوية الفضفاضة ، وأحنى رأسه الطويل ، ولحيته العريضة ، فوق جسمه الذي كان من قبل قوياً ، وظهر نخاتم السلطان واضحاً في يده الأرستقراطية . وهذه الصورة وصورة يوليوس الثاني تتنازعان تلك الميزة الكبرى وهي : أيهما أجمل وأعمق صورة في النهضة الإيطالية . وفي عام ١٥٤٥ دعا البابا نيشيان وكان وقتئذ في الثامنة والستين من عمره إلى رومة . وهي للفنان مسكن في بلقدير ، وقدمت له المدينة جميع مظاهر التكريم ، وعمل فاساري مرشداً له فأطلعه على عجائب رومة في عهدها القديم وفي عصر النهضة ، وحتى ميكل أنجيلو نفسه رحب به ، وأخفى عنه في ساعة من ساعات المجاملة رأياً له عبر عنه لأصدقائه وهو أن تيشان كان يصبح مصوراً أعظم مما هو لو أنه تعلم الرسم (٢٢) . وهناك صور تيشيان البابا بولس مرة أخرى فأظهره أكبر سناً ، وأكثر انحناء ، وأشد قلقاً وضجراً مما كان قبل ، بين اثنين من أحفاده الخانعين لم يلبثا أن خرجا على البابا بعد قليل . وهذه الصورة أيضاً من أعمق الصور التي أخرجتها يد تيشيان . وقد رسم كذلك لأحد هذين الحفيدين وهو أتاڤيو فارنيزي Ottavio Farnese صورة دانائي Danaë الشهوانية المحفوظة في متحف نابلي . وأقام تيشيان ثمانية أشهر في رومة سافر بعدها عائداً على مهل إلى البندقية عن طريق فلورنس (١٥٤٦) ، وهو يرجو أن يقضى فيها الأيام الباقية من حياته في راحة وسلام .

ولكنه لم يكدر يتم العام حتى أرسل إليه الإمبراطور دعوة عاجلة يطلب إليه فيها عبور جبال الألب إلى أوجزبرج Augsburg . وأقام في هذه المدينة

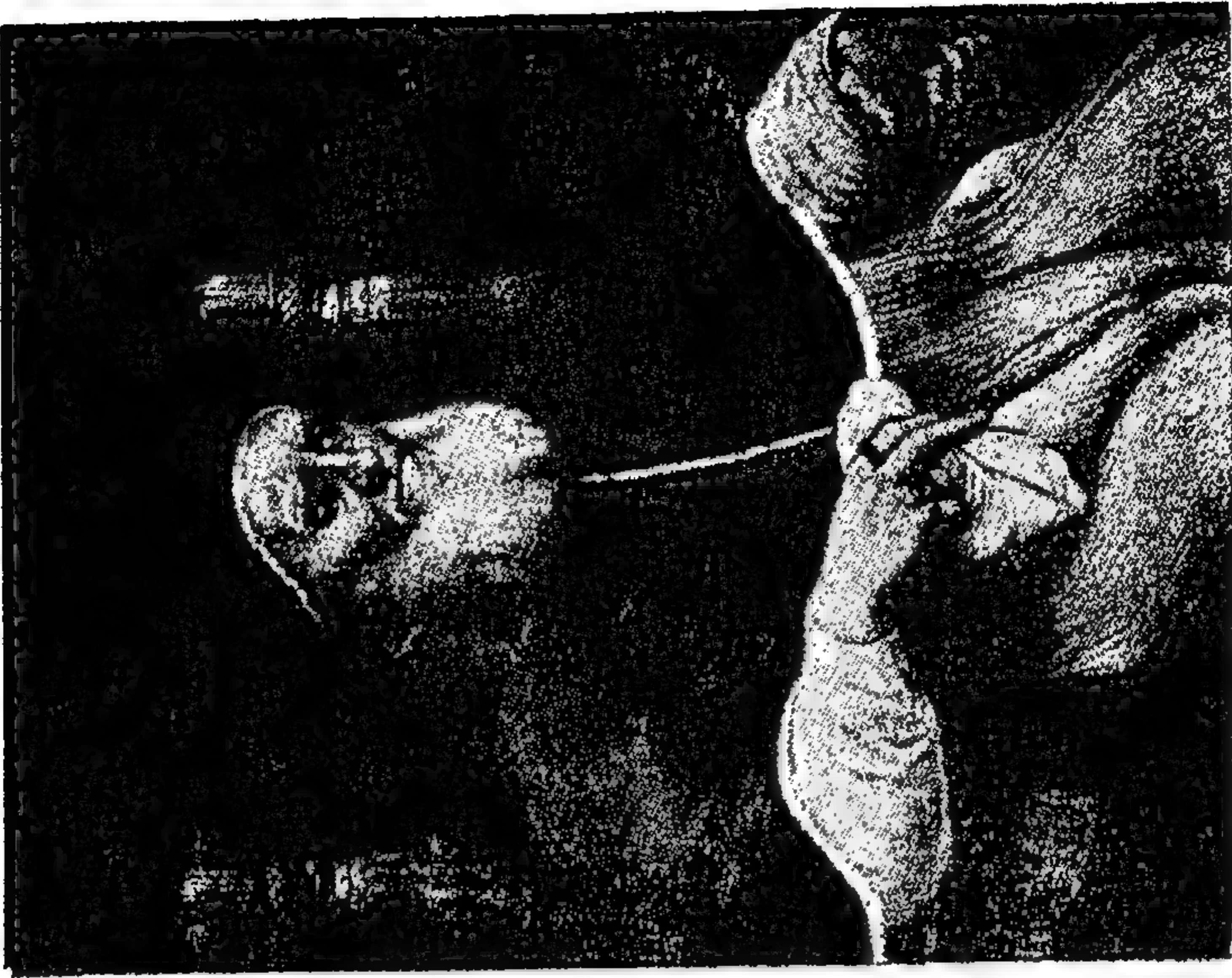
تسعة أشهر رسم فيها للإمبراطور صررتين من الصور التي ذكرناها قبل ، وتخلد فيهما عظماء الأسبان والتوتون أبناء الجبال مثل المنتخب جوهان فريدريخ السكسوني Elector Johann Eriedrich والتقى تيشيان في زيارة أخرى لأوجزبرج (١٥٥٠) بالأمير الذي أصبح فيما بعد فليب الثاني ملك أسبانيا ، ورسم له عدة صور ، منها واحدة في البرادو Prado تعد من آيات التصوير في عصر النهضة . وأجل من هذه على جمالها الصورة التي مثل فيها الإمبراطورة وإليزابلا زوجة شارل البرتغالية . وكانت هذه الزوجة قد توفيت في عام ١٥٣٩ ، ولكن الإمبراطور أعطى تيشيان بعد أربع سنين من وفاتها صورة لها وهي نصف رسمها لها مصور مغمور ، وطلب إليه أن يحيلها تحفة فنية رائعة . وربما كانت الصورة النهائية غير شبيهة بالإمبراطورة ، ولكنها حتى إذا كانت إلهة البرتغالية صورة خيالية فإنها يجب أن تكون في أسمى مرتبة من مراتب صور تيشيان : فهي ذات وجه رقيق حزين ، وثياب ملكية فخمة ، وفي يدها كتاب صلوات يسرى عنها ما تتوقعه من موت قريب ، وفي الصورة منظر طبيعي بعيد يضئف إليها منظرًا يجمع بين الخضرة ، والسمرة ، والزرقة .

وشعر تيشيان بعد عودته من أجزبرج (١٥٥٢) أنه قد نال كفايته من الأسفار . فقد كان وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره ، وما من شك في أنه كان يظن أنه لم يبق له من الحياة الشيء الكثير . ولعل عمله كان من شأنه أن يطيل الحياة ، فقد أنساه انهماكه في الصورة بعد الصورة أن يموت . وقد صور في سلسلة طويلة من الصور الدينية (١٥٢٢ - ١٥٧٠) فكرته الواضحة الرائعة عن العقيدة المسيحية وقصة الخلق من آدم إلى المسيح (*) . وقد نخلد في صور قوية حياه الرسل والقديسين ، وأحسن هذه

(*) مثال ذلك : سقوط الإنسان (حوالي عام ١٥٧٠ موجودة في برادو Prado) - وهي تأليه صريح للجسم البشري ؛ والبشارة (حوالي ١٥٤٥ ، في اسكولو دي سان ركو Scuolo di San Rocco ، بالبندقية) وأخرى مثلها في سان سلفاتورى San Salvatore ، =



(الصورة رقم ٥) صورة شارل الخامس
من عمل تيشيان . مجموعة آلى بينا كوثك بميونخ



(الصورة رقم ٤) البابا بولس الثالث
من عمل تيشيان بمتحف نابلي

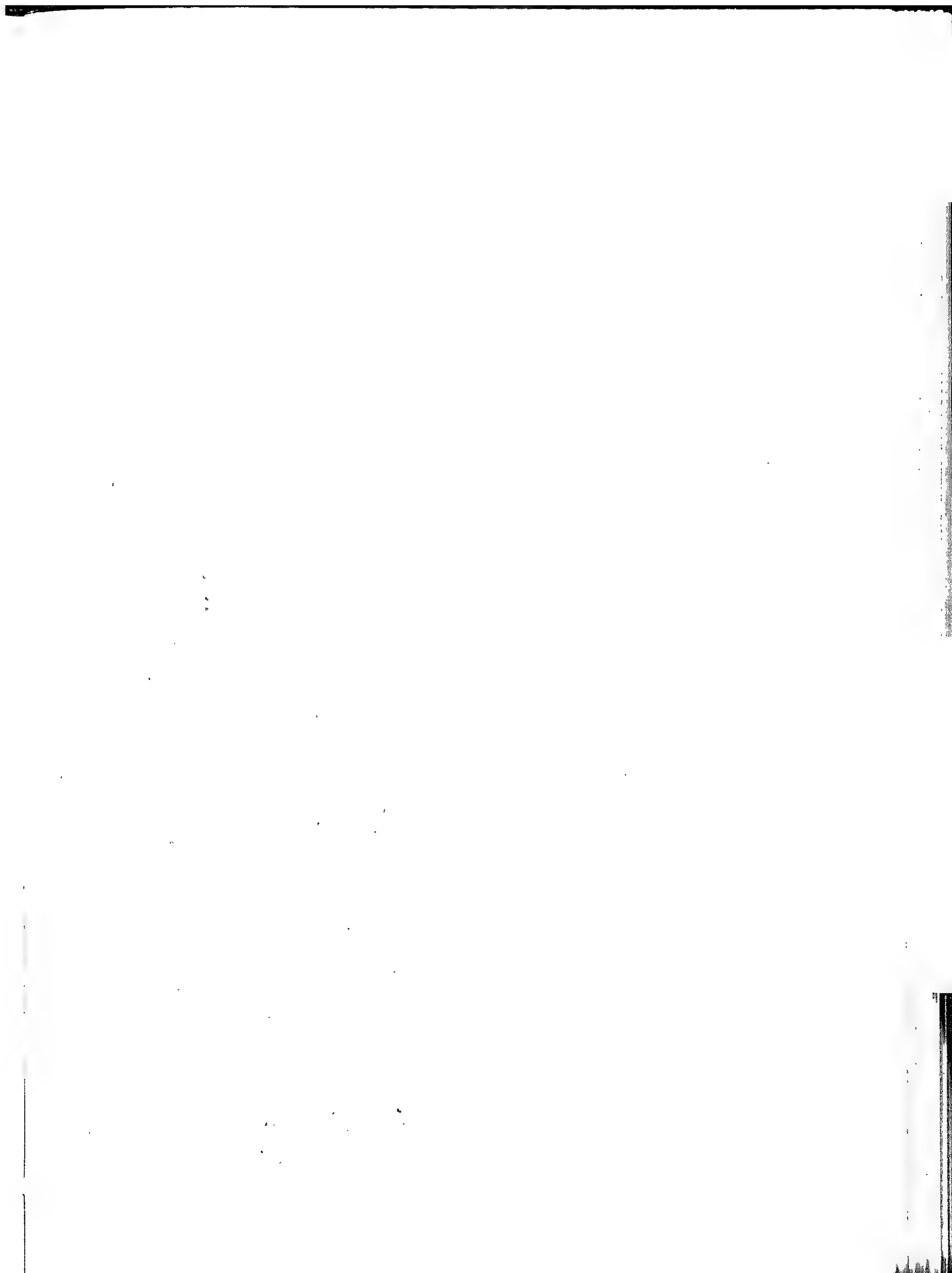
= بالبندقية) ؛ والعذراء النجارية (١٥١٠ في فيينا) ؛ الأم الحزينة mater Dolorosa (١٥٥٤ في برادو) ؛ والترشيح لإحدى الوظائف الدينية - وهي منظر كامل كبير (طوله ٢٦ قدماً وعرضه إحدى عشرة قدماً ونصف قدم) يحتوى على مناظر جبال ، ومبان فخمة ، وأشخاص في ألران زاهية ، وصورة مريم العذراء تمثلها فتاة حية تصعد درجات سلم المعبد ، وفي أسفل السلم صورتان لامرأتين من أجل ما صور تيشيان ، وإلى جوار الحائط امرأة عجوز أكثر واقعية من الحياة نفسها ، تبيع البيض . وهذه الصورة من أجل صور تيشيان الدينية ، وصورة مريم مرة أخرى في صورة « العذراء والأرنب » (حوالى ١٥٣٠ وهي الآن في متحف اللوفر) . وصورة التجلي (حوالى ١٥٦٠ في متحف سان سلفاتورى ، بالبندقية) وقد صورها وهو في الثالثة والثمانين من عمره ، وهي فكرة قوية تمثل الحواريين في شدة الدهشة ، وصورة متلاثة وضامة للمسيح نفسه . ويرى كل شكل في صورة « العشاء الأخير » (١٥٦٤ في الإسكوريال) متقناً غاية الإتقان عدا صورة المسيح - التي عجز ليوناردو أيضاً عن إتقانها في مثل هذه الصورة ؛ ويرى المسيح في صورة « المسيح المتوج بالشوك » (١٥٤٢ في متحف اللوفر) وكأنه مجالد في حلبة لا قديس وتشبه صورته هنا الصورة التي رسمها له ميكيل أنجيلو . وصورة اتشى دومو Ecce Homo المعروضة في معرض التصوير بفينا تجعل هي الأخرى المسيح إلها ضخماً قوى العضلات يعرضه بيلاطى النبطى (وهو صورة مضحكة لأريتينو نفسه) على جمع حشد لا يتألف من غوغاء أورشليم بل من شخصيات ممتازة مثل شارل الخامس ، وسليمان القانونى ، ولافينيا Lavinia ابنة تيشيان ، وتيشيان نفسه . وفي أنكونا Ancona صورة للصلب (حوالى ١٥٦٠) يصغر فيها جسم المسيح المصلوب فيصبح ذا حجم يقبله العقل ؛ وفي الإسكوريال صورة أخرى (١٥٦٥) تصور الظلام في الساعة الأخيرة تصويراً متقناً ، يلف التلال ، والجو ، والصليب ، والمُشاهدين عند قدمه . وصورة تيشيان دفن المسيح في صورتين - إحداهما في عام ١٥٢٩ (في متحف اللوفر) والأخرى بعد ثلاثين عاماً (في متحف برادو) - وقد رسم نفسه في الصورة الثانية ، ولعله فعل ذلك أيضاً في الصورة الأولى فصور نفسه فيها بشكل جوزف « الذى مل الرامة » . ورسم في تاريخ غير معروف على وجه التحقيق صورة « العشاى في عموس » (متحف اللوفر) ، وهي صورة بديعة ولكنها مفرطة في الرقة . وقد كان رمبرانت Rembrandt أكثر منه نجاحاً في إظهار مبلغ الروح الذى أحس به الحاضرون في ساعة التعارف الذى لم يكن أحد يحلم به . ورسم تيشيان لشارل الخامس (١٥٥٤) صورة سميت تارة « الثالث » وتارة أخرى « يوم الحساب » ، وتسمى في متحف برادو تسييعة المجد : وهي خليط مهوش من الـ دوس ، والسيقان ، ثم يظهر في سحابة الأقنوم الثانى من الثالث ومعه الروح القدس يتخذ شكل النور الأول . وتبدو هذه الصورة سخيقة بعض السخف ، ولكن الإمبراطور حملها معه حين لجأ إلى أحد الأديرة في عام ١٥٥٧ ، وأمر أن توضع فوق المذبح العالى بعد وفاته .

الصور وأكثر ما تعافه النفس منها صورة استشهاد القديس اورنس (١٥٥٨)
وهي الصورة رقم ١ في متحف جزويتى Gesuiti ، بالبندقية) : وفيها
يرى القديس يشويه على السفود جنود وعبيد رومان يزيدون آلامه بكبه
بالحديد المحمى وجالده بالسياط . وهذه الصور الدينية لا تؤثر في النفس
كما تؤثر فيها أمثالها من صور الفنانين الفلورنسيين . نعم إنها تسمو عليها من
حيث التشريح ، ولكنها لا تشعر الإنسان بالتقى ، فنظرة واحدة إلى أجسام
المسيح والحواريين الرياضية توحى بوضوح أن تيشيان لم يكن يهتم إلا بالفن ،
وأنه كان يفكر في الأجسام الرائعة ، لا في أجسام القديسين النساك . ذلك
أن المسيحية في الفترة الواقعة بين آل بلينى وتيشيان ، فقد فقدت سيطرتها
الروحية على فن البندقية ، وإن كانت لا تزال توحى إلى الفنانين
بالموضوعات (٢٣) .

وبقى العنصر الجنسي الذى هو من مستلزمات فن التصوير بالألوان
أو بالمواد اللينة ، قوياً عند تيشيان مدة تكاد تصل إلى قرن من الزمان .
وقد كرر صورة دانائى Danaë الفرنيزية في عدة أشكال مختلفة ، ورسم
عدة صور لفينوس طلبها إليه حماة الدين . وكان فيلب الثانى ملك أسبانيا
خير عميل له في إبتياح هذه « الأساطير » ؛ فقد زينت مساكن الملك فى مدريد
بصور لدانائى ، وفينوس وأدونيس ، وبرسيوس وأندرمدا ، وجيسن وميلديا
Jassa & Medea ، وأكتاثيون وديانا Actaeon & Diana ، واغتصاب
أوربا The Rape of Europa ، وتاركون ولكريشيا Tarquin & Lucretia ،
وجوهر وأنتيوى Jupiter & Antiope (وتعرف أيضاً بصورة فينوس
الباردوئية Venus of Pardo . وكل هذه الصور عدا الأخيرة منها
قد صورها تيشيان بعد عام ١٥٥٣ ، وهو فى سن السادسة والسبعين أو بعدها .
ومما يزيدنا تقديرآ للفنان العظيم أن نرى خياله خلاقاً مبدعاً فى سن الثمانين وما
بعدها فيصور نساء عاريات لا تقل كمالاً عن الصور التى رسمها فى عنفوان شبابه ،



(الصورة رقم ٦) شينوس أريينو بتصريتي بفلورنس
من عمل تيشيان . انظر ص ٢٤٨



فصور ديانا بشعرها الأصم المرفوع إلى أعلى من الطراز الذى كان فيرونيز يصوره ، فهي فينوس الشقراء تكاد تكون أجمل من صور أفروديتي اليونانية . ولعل صورة فينوس والمرأة (حوالى ١٥٥٥) وتوجد الآن في واشنطن (وهي صورة لهذه السيدة نفسها بعد أن امتلأ جسمها ؛ وهي بعينها أيضاً فينوس التى تتعلق بأرنيس فى الصورة الموجودة فى برادو ، والتى تحاول أن تتودد إليه وتبعده عن كلابه . ولسنا نجد مثل هذه الشهوانية الصريحة واضحة فى جسم أنثى حتى صور كرجيوني . وتوجد صور أخرى لفينوس منتشرة فى معارض الصور فى أنحاء العالم ولكنها كانت فى يوم ما تحتل مكانها فى رأس تيشيان : منها صورة فينوس أنادىوميني Venus Anadyomene (حوالى ١٥٢٠) الموجودة فى بردجوتر هوس Bridgewater House ، وتمثلها الصورة واقفة فى الحمام ومغطاة من تحت الركبتين فى حياء ؛ وصورة فينوس وكبوير (حوالى ١٥٤٥) ، الموجودة فى معرض أفيزى — وهى ذات شقرة ألمانية ويدين ناصعتين ، وفينوس المكتسية فى صورة تعليم كبوير (حوالى ١٥٦٥) ، وفى معرض بورغير ، وفينوس والعازف على الأرغن (حوالى ١٥٤٥) المحفوظة فى برادو . والتى يظهر فيها العازف عاجزاً عن تركيز عقله على الموسيقى ؛ وفينوس والعازف على العود (١٥٦٠) المحفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك . على أننا يجب أن نقول إن النساء فى هذه الصور لسن إلا جزءاً مما فيها من سحر وفتنة ، ذلك أن تيشيان يهتم بالطبيعة اهتمامه بالنساء ، ويصور فى عدد من هذه اللوحات مناظر طبيعية رائعة لا تقل جمالا فى بعض الأحيان عن الإلهة فينوس نفسها .

وأعظم من هذه الصور الأسطورية وأكثر عمقا صور الآدميين ، فإذا كانت صور فينوس تكشف عن الإحساس بجمال الصورة ولا تفقد قط (١٧ - ج ٤ - مجلد ٥)

روعتها ، فإن صور الآدميين تكشف في تيشيان عن مقدرة على الإلمام
بالأخلاق البشرية ونقلها بقوة فنية لاتضارعتها في معارضها جميعاً صور غيره
من الفنانين مجتمعة . وهل ثمة ما هو أرق من صورة الرجل ذي القفاز
(حوالى ١٥٢٠ والمحفوظة في متحف اللوفر) وهى صورة لا يعرف شخصية
من تمثله - وفيها ترى اليد اليسرى المقفزة ، والفصل الأبيض الرقيق الملفف
بالعنق يوائمان أحسن مواءمة الروح الحساسة التى تم عليها العينان . وصورة
الكردى نال إبوليتوده مبدئى (١٥٣٣ فى متحف بتي) أقل من السابقة
عمقاً ، ولكننا مع ذلك نرى فى الوجه ما يتسم به آل مبدئى من دهاء ،
وإحساس فى ، وحب للسلطان . وصورة فرانس الأول (حوالى ١٥٣٨
المحفوظة فى اللوفر) أذاعت شهرة ملامح ملك فرنسا ، فقد بعثت فى أنحاء
العالم فى مائة ألف نسخة منقولة عنها القبة المراشدة ، والعينين المرحبتين ،
والأنف الألقى ، واللحية الجنيمة ، والقميص القرمزى يرتديه الرجل الذى
خسر إيطاليا ولكنه كسب ليوناردو وتشلينى ومائة امرأة . وقد تطاب منصب
تيشيان الرسمى منه أن يرسم صوراً لعدد من أدواج البندقية ، ولكن هذه
كلها تقريباً قد ضاعت . وبقيت ثلاث صور عظيمة لأشخاص حقيقيين :
صورة نيكولو مارسلو Niccolo Marcello (الذى مات قبل أن يولد تيشيان)
- وهى ذات وجه قبيح ورداء فخم - ؛ وصورة أنطونيو جرماني (التى تظهر
فى صورة الإيمانه فى قصر الدوج) ، وصاحبها ذو وجه كوجه النساءك وثرثب
فخم ؛ وصورة أنريكو جرنى ، ويرتدى صاحبها ثوباً أقل من الثوبين
السابقين فخامة ولكنه ذووجه قوى يتركز فيه كل ما فى البندقية من جلال
وصدق عزيزة . وتختلف عن هذه فى طرازها صورة كاريمن استروتسى
الرقبة التى أثنى عليها أريتينو ثناء جماً مستطاباً . وليست الصور التى تمثل
أريتينو والمحفوظة فى معرض بتي بفلورنس وفى مجموعة فريك Frick فى

تيويورك إلا صراخاً مجرداً من الرحمة صادراً من وغد فائن ساحر رسمه
أعز أصدقائه . وأرق من هذه الصورة التي خلدها تيشيان ذكرى بمبو
حُب الشعراء الذي صار وقتئذ كردنالا (١٥٤٢) . ومن أروع الصور التي
يضمها معرض تيشيان صورة المشرع إبوليتور منالدي (١٥٤٢) ، والتي
كانت تعرف في يوم من الأيام بأنها صورة دوق نورفوك وهي ذات
شعر منفوش أغبش ، وجبهة عالية ، وشاربين ولحية قليلة الشعر ، وشفتين
قويتين ، وأنف رقيق ، ونظرات نفاذة . ولنا لبدا في أن نفهم إيطاليا
والبنديقية أحسن فهم حين نرى أنهما أنجبنا أمثال أولئك الرجال ، وهم رجال
ليست أجسامهم وأثوابهم الجميلة إلا الصورة الظاهرة للإرادة القوية المتأهبة
للقاء كل تحد ، وللعقل النافذ المتيقظ لكل صور التجارب والفن .
وأكثر ما يثير اهتمامنا من رسوم تيشيان الصور التي رسمها لنفسه .
وهي كثيرة متنوعة آخرها صورة له في التاسعة والثمانين من عمره . وإذا
ما وقفنا أمام صورته الذاتية في معرض برادو رأينا وجهاً قد غصنه مر الأيام
التي لا تحصى ولكنه زاده صفاء ، ورأينا فوق حجمته قلنسوة لا تغطي شعره
الأبيض كله ، ولحية صهباء تكاد تغطي وجهه كله ، وأنفاً كبيراً ينفث
القوة ، وعينين زرقاوين ، تغشاها كآبة قليلة ، تريان الموت أقرب إليه
مما كان في الواقع ، ويداً تمسك بفرشاة — لأن شغفه العظيم بالفن لم تكن
ناره قد خبت بعد . لقد كان هذا الرجل — لا الأدواج ، ولا الشيوخ ،
ولا التجار — هو سيد البنديقية نصف قرن من الزمان ، يهب الخلود للأشراف
والملوك العابرين القصار الآجال ، ويسمو بالبلد الذي اتخذ موطناً له ويضعه
إلى جانب فلونس ورومة في تاريخ النهضة .

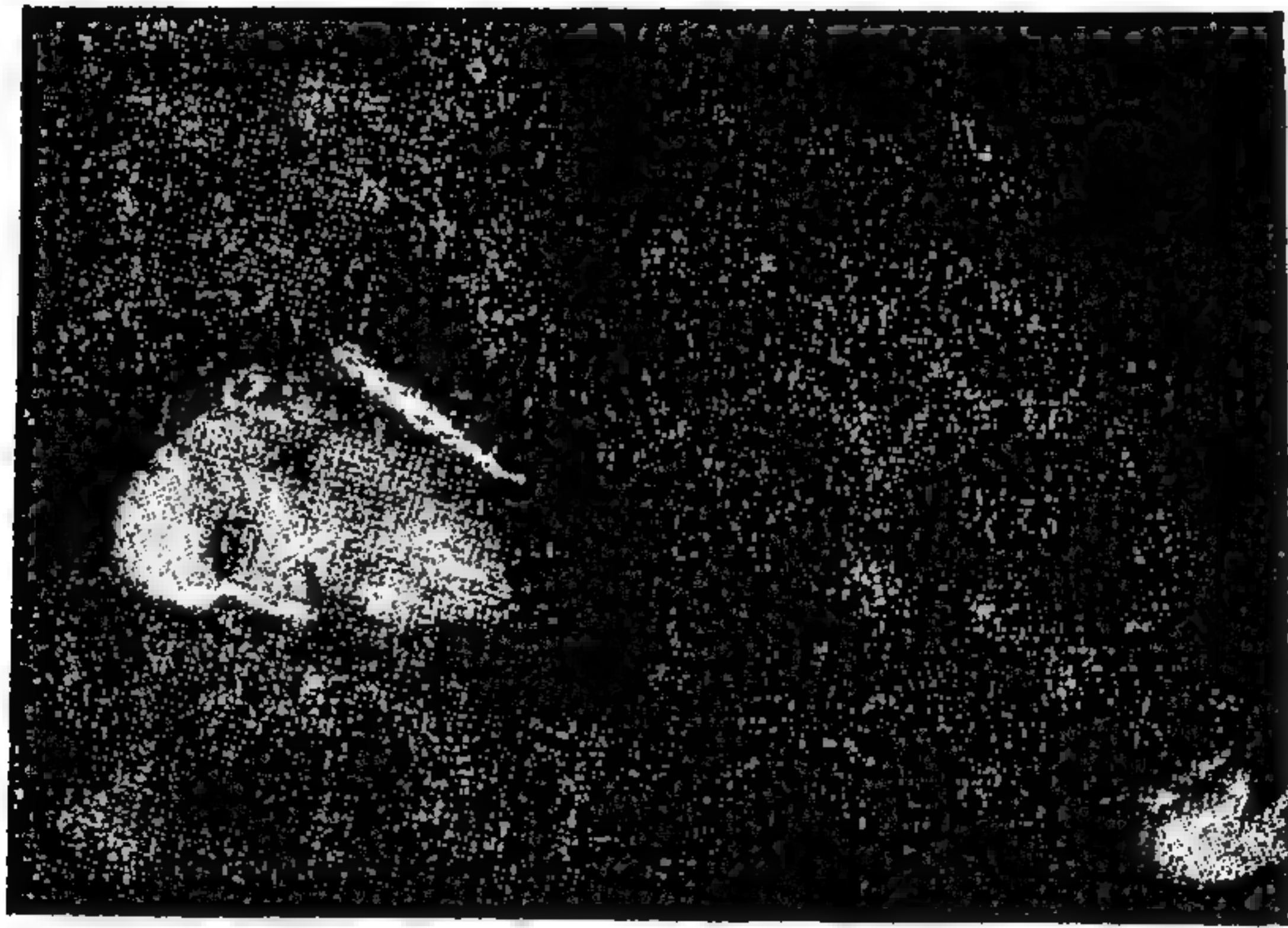
وكان في الوقت الذي نتحدث عنه رجلاً ثرياً ، وإن كانت ذكرى
حاجته الأولى وعدم طمأنينته قد جعلته جماعاً للمال إلى آخر حياته . وقد
أعفته مدينة البنديقية من بعض الغرائب « تقديرًا لموهبته الممتازة النادرة » (٣٤)

وكان يرتدى لباساً ظريفاً رقيقاً ، ويسكن بيتاً مريحاً ذا حديقة واسعة تطل على مياه البندقية الضحلة . وإنا لتصوره ونحن نكتب هذه السطور يستضيف الشعراء والفنانين ، والأشراف أبناء الأسر العريقة ، والكرادلة ، والملوك . ولما ماتت في عام ١٥٣٠ عشيقته التي تزوجها في عام ١٥٢٥ بعد أن ولدت له ولدين قبل الزواج ؛ عاد إلى حريته التي كانت له وهو أعزب والتي استمتع بها ما يقرب من نصف قرن . وكانت ابنته لافينا مصدر بهجة وفخر له ؛ وقد رسم لها صوراً تدل على محبته لها حتى بعد أن كبرت وتزوجت . ولكنها هي أيضاً توفيت بعد سنين قلائل من زواجها . وأصبح أحد ولديه وهو Pomponio مهملاً فاسداً ، أحزن قلب الرجل في شيخوخته ورسم الثاني في بعض الصور التي ضاعت ، وأكبر الظن أنه اشترك في بعض الصور التي تعزى لأبيه في سنيه الأخيرة . وربما ساعده في ذلك الوقت أيضاً تلميذ آخر من تلاميذ تيشيان يدعى دومينيكو ثوتوكوپولوس Domenico Theotocopulos ، المسمى بالحريكو El Greco (الإغريقي) ولكنها لا نجد دليلاً على هذه المساعدة في صور أشخاص تيشيان المرحين ولا في مناظره المبهجة .

وظل حتى بعد أن تقدمت به السن كثيراً لا يكاد ينقطع عن الرسم يوماً واحداً من أيامه ، وكان يجد في الفن سعادته الباقية الوحيدة . ففيه كان يعرف أنه السيد الذي لا يبارى ، وأن العالم كله يثنى عليه ، وأن يائه لم تفقد قدرتها على الإبداع ، كما أن عينه لم تفقد حدتها ونفاذها ؛ وحتى عقله ، وخیاله ظلاً ، فيما يبدو ، يحتفظان بقوتهما إلى آخر أيامه . وقد شكك بعض من ابتاعوا صورهِ الأخيرة بأن هذه الصور أرسلت إليهم قبل أن تتم . وحتى إذا كان هذا صحيحاً فإنها كانت معجزات بحق . وأكبر الظن أنه ما من فنان غيره — إذا استثنينا رفايل — كان له ما لتيشيان من يسر في أصول فنه ، وسيطرة على اللون والتركيب ، والضوء الساحر المبرقش . أما أخطاؤه



(الصورة رقم ٧) صورة رجل إنجليزي - من عمل تيشيان
في قصر بلي بغلورنس . انظر ص ٢٥٤



(الصورة رقم ٨) صورة تيشيان - من عمله
في متحف برادو مدريد . انظر ص ٢٥٤

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200

فمهي الأخطاء الناتجة من السرعة في التنفيذ ، ومن الإهمال في الرسم أحياناً وقد كانت الكثرة الغالبة من رسومه التخطيطية الأولى تجريبية ؛ ولكنه كان إذا عني بالتأني والتؤدة ، يستطيع أن يخرج عجائب مثل صورة *ميرورو وأنجيلو* التي رسمها بالقلم والمحفوطة في متحف بنات *Bonnat* في *Bayonne* . أما في الصور الملونة فقد كان لا بد له أن يعمل مسرعاً . ذلك بأن من يجلسون أمامه ليصورهم كانوا منهمكين في العمل لا يصبرون على الجلسات الطويلة أو الكثيرة التي لا بد منها لإتقان الصور ؛ ومن أجل هذا كان يرسم رسماً تخطيطياً سريعاً ، ثم يرسم منه الصورة الملونة ، ولعله كان يضع في رأس نموذج ووجهه أكثر مما فيه حقيقة . أما في الصور التي كان يرسمها لغير الأحياء فكان يبرز الملامح أكثر مما ينبغي ، وقلما كان يتعمق إلى الجوهر الروحي ، ولهذا فإنه لم يصل في عمق النظرة النافذة ولا في الشعور إلى مثل ما وصل إليه *ليوناردو* أو *ميكل أنجيلو* ، ولكن ما أصبح وأسلم فنه إذا قورن بفنهما ! فلسنا نرى فيه انهماكاً في التفكير الداخلي بفسده ، كما لا نرى فيه ثورة عارمة على طبيعة العالم والإنسان . لقد قبل تيشيان العالم بالصورة التي رآه عليها ، وأخذ الرجال كما وجدهم ، والنساء كما وجدهن ، واستمتع بكل أولئك . وكان وثيقاً صريحاً ، يتأمل بابتهاج بناء جسم المرأة طوال سنه التسعين ؛ وحتى عذاراه صحيفات الأجسام سعيدات صالحات للزواج ؛ وقلما كان لمسا في الحياة من فقر ، وحزن ، واضطراب مكان في فن تيشيان ، بل كل ما فيه جمال وبهجة إذا استثنينا قليلاً من صور الشهداء والمسيح المصلوب .

وتقدمت به السن وهو يواصل عمله في الرسم ، وعاش ربع قرن بعد أجل الناس المعتاد ؛ وسافر إلى *بريشيا* وهو في الثامنة والثمانين من عمره ، وقبل فيها مهمة شاقة هي نقش سقف قصر البلدية . ولما زاره *فاساري* وهو في سن التسعين وجدده يعمل وفرشاته في يده . ورسم وهو في الواحدة والتسعين

من عمره صورة لياقوبو دا استرادا Iacopo da Strada (توجد الآن في فيينا) متلاثلة الألوان قوية تكشف عن خناق الرجل . ولكن يده أخذت في آخر الأمر ترتعش ، وضغمت عيناه ، وأحس أن قد آن أوان التقى والصلاح . ورضى في عام ١٥٧٦ وهو في التاسعة والتسعين من العمر أن يرسم صورة وفن المسيح لتوضع في كنيسة فرارى Frari بدلاً من مدفنها ، كانت له فيه صورتان من أعظم صورته . غير أنه لم يتم الصورة وتوفى وقد نقصت سنه سنة واحدة عن قرن كامل . وانتشر في ذلك العام وباء الطاعون في البندقية ، وكان يودى كل يوم بحياة مائتين من أهلها ، وهلك به ربع سكان المدينة ، ومات تيشيان نفسه في أثناء الوباء ، وأكبر الظن أنه لم يمت به ، بل مات بضعف الشيخوخة (٢٦ أغسطس سنة ١٥٧٦) . وألغت الحكومة أوامرها التي تحرم الاجتماعات العامة لكي تكون له جنازة رسمية ، ودفن في كنيسة سانتا ماريا جلوريوزا ده فرارى Santa Maria Gloriosa de' Frari عنفيذاً لرغبته . وكان موته خاتمة حياة عظيمة وعصر عجيب .

الفصل الرابع

تنتورتو : ١٥١٨ - ١٥٩٤

لا ، لم يكن موته خاتمة كل شيء ، لأن قوة وروحاً تكادان تقلان
عظمة عن قوته وروحه قد عاشتا بعد موته ثمانية عشر عاماً ، ورسمتا
صورة الجنة .

كان ياقوبو روبستى Jacopo Robusti ابن صباغ ، وهذا هو أصل
هذا اللفظ المصغر الذى سماه به من قبيل السخرية الإيطاليون الهوائيون والذى
انحدر إلينا من خلال أحقاب التاريخ . والحق أنه أصبح صانعاً إذا فهمنا
من هذا اللفظ أنه كان ملونا عظيماً . غير أن اسم أسرته كان أليق به من
غزوه من الأسماء لأن روحه القوية(*) وحدها هى التى أمكنت ياقوبو من
أن يخرج ظافراً من الكفاح الطويل الذى خاض غماره حتى اعترف
الناس بفضله .

ويكاد يكون أول ما عرفناه عنه إنه أرسل ليتدرب عند تيشيان فى
سن غيز معروفة ، ثم فصل من العمل بعد أيام قليلة . وقد كتب ريدلفى
Ridolfi بعد مائة عام من ذلك الوقت يصف الحادث كما ينظر إليه ابنا
تنتورتو قال :

لما عاد تيشيان إلى بيته ودخل المكان الذى يعمل فيه تلاميذه رأى
أوراقاً بارزة من أحد الأدراج ، وعليها بعض رسوم ، فسأل عن رسمها ،
فأجاب ياقويو فى خوف إنها من صنع يده . وأدرك تيشيان من هذه

(*) robust الكاتب يشير إلى روبستى اسم أسرته . (المترجم)

البدعات أن هذا التلميذ سيصبح رجلاً عظيماً ، وأنه سيسبب له بعض المتاعب من ناحية الفن ، فلم يكذب يصعد الدرج إلى حجراته ويخلع مبدعته حتى أمر كبير تلاميذه جيرولامو دانتى ، وهو نافذ الصبر ، أن يمنع ياقوپو من دخول البيت من تلك اللحظة . وهكذا تحدث الغيرة ، مهما تكن ضئيلة ، أثرها في القلوب البشرية (٢٥) .

ونحن نميل إلى تكذيب هذه القصة ، ولكن أريتينو صديق تيشيان الحميم ، يشير إلى هذه الحادثة في رسالة له كتبها عام ١٥٤٩ . فأما فصل ياقوپو من عمله فحقيقة مؤكدة ، أما أسباب هذا الفصل فموضع للأخذ والرد ؛ ذلك أن من أصعب الأمور أن نعتقد أن تيشيان ، الذى كان وقتئذ منصوراً للملوك حين لم يكن ياقوپو إلا صبياً في الثانية عشرة من عمره ، يعار من هذا المنافس المفترض ، أو أنه يستطيع أن يرى مستقبل تئورتو من اطلاعه على رسوم طالب قبل ثوا في مدرسته . ولعل الرسوم قد أغضبت تيشيان لما بدا فيها من إهمال لا بما كانت عليه من الجودة والإتقان ، ولقد بقي الإهمال في الرسم من عيوب تئورتو كثيراً من السنين . وظل ياقوپو نفسه طوال حياته يعجب بتيشيان أشد الإعجاب ، ويعتز بصورة أهداها إليه تيشيان ، ويضع على جدار مرسمه ما يذكره على الدوام بما كان يطمح إلى أن يبلغه برسومه مبلغ « ميكل أنجيلو في التصميم وتيشيان في التلوين » (٢٦) .

ويقول تيشان ، وتقول الرواية المتواترة ، إن ياقوپو لم يتلق تعليماً منظماً بعد أن افترق عن تيشيان ، ولكنه علم نفسه بمداومته على التجربة والتقليد . وكان يشرح الأجسام ليتعلم التشريح ، ولا يكاد يفتر عن ملاحظة كل ما يعترض سبيله في تجاربه بحرص يبلغ حد الشراهة والنهم ، ويصمم على ألا تفوته منه كبيرة أو صغيرة في هذا الرسم من رسومه أو ذاك . وكان يصنع نماذج من الشمع ، أو الخشب ، أو الورق المقوى ، ويلبسها

الأثواب ، ويرسمها من كل زاوية كي يجد طريقة يستطيع بها أن يصور أبعاداً ثلاثة في بعدين اثنين : وكانت تصنع له صور منقولة عن اللوحات الرخامية القديمة في فلورنس ورومة وعن تماثيل ميكل أنجيلو وترسل له حيث يقيم ؛ وكان يضع هذه النسخ في مرسمه ، وينقل عنها صوراً ملونة ذات ظلال وأضواء مختلفة . وقد افتن بما شاهد من الاختلاف الناشئ في مظهر الأشياء نتيجة لتغير كمية الضوء ، وطبيعته ، وطريقة سقوطه ؛ ورسم مائة صورة وصورة في ضوء المصابيح أو الشموع ؛ وأسرف في حبه للخلفيات القائمة ، والظلال الثقيلة ، وأصبح إخصائياً خبيراً في تمثيل أثر الضوء والظل على اليدين ، والوجه ، والثياب ، والمباني ، والمناظر الطبيعية ، والسحب ، ولم يترك وسيلة يستعين بها في كفاحه للتفوق والامتياز إلا سلكها ؛

غير أنه مع ذلك كان متسرعاً في عمله نافد الصبر ، ينقصه الصقل — ولعل هذا كان جزاء له على أنه علم نفسه بنفسه — وتلك عيوب أخرت اعتراف الجمهور بفننه . وقد ظل كثيراً من السنين ، بعد أن بلغ دور الرجولة ، يتحين الفرص ويسعى إليها . وكان يرسم الأثاث ، وينشئ المظلمات في واجهات البيوت ، ويرجو البنائين أن يحصوا له على أعمال بأجور قليلة ، ويحاول أن يبيع صوره بعرضها في ميدان القديس مرقس (٢٧) . لكن الناس كلهم كانوا يريدون تيشيان ؛ وكان تيشيان وأريتينو يعملان على ألا يعامل أي إنسان ذي مال يمكن الحصول عليه منه غير تيشيان ، فإذا كان هذا الفنان مشغولاً فلن يلجأ واحد منهم إلى غير بنيفادسيو فيرونيري Bonifazio Veronese . وما من شك في أن ياقوپو قد ساءت له طريقة أريتينو في التصوير ؛ ولكن حدث أنه حين جاء الحلال الكبير إلى ياقوپو ليصوره ، أخرج الفنان مسدساً رهيباً من جيبه ، وتظاهر بأنه يصوبه على كل جزء من جسم أريتينو الضخم ، وسر أيما سرور مما شاهده من مظاهر الخوف على

وجه ذلك المبتز لأموال الناس (٢٨) . ولم يسع أريتينو بعد هذه الحادثة إلا أن يراعى الأدب فيما يكتبه عن تنتورتو . ولما أن رأى ياقوبو الجدران الواسعة الطويلة التي يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً في مرئمة كنيسة مادنا دل أورतो Madonna dell Orio ، عرض أن يغطيها كلها بالرسوم الحصية نظير أجر إجمالي قدره مائة دوقه (١٢٥٠ ؟ دولاراً) ، فما كان من المصورين البنادقة إلا أن شكوا من أنه « قد أضر بالحرفة » إذ قدر الفن هذا التقدير الضئيل : ولكن تنتورتو صمم على أن يقوم بالعمل .

وقد بلغ الثلاثين من العمر قبل أن يحرز أول نصر له . ذلك أن مدرسة القديس مرقص Scuola di San Marco أجرت مباراة لرسم قديسها ينقذ عبداً من العذاب والقتل . وقد وردت هذه القصة في كتاب القصة الذهبية لياقوبو ده فوراجيني Liacopo de Voragine : وخلصتها أن خادماً من بروفسال قد نذر أن يحج إلى قبر القديس مرقص في الإسكندرية ، ولكن سيده لم يأذن له بالسفر ، غير أنه سافر على الرغم من هذا التحريم ، فلما عاد أمر سيده يشمل عينيه ، ولكن أطراف الحديد انثنت فلم تنفذ فيها : فما كان من سيده إلا أن أمر بتحطيم أطرافه ، ولكن القضبان الحديدية لم تحدث أى أثر فيها . وأدرك السيد ما للقديس مرقص من أثر في هذا فعفا عن العبد : وروت صورة تنتورتو هذه القصة في ألوان فخمة ، وواقعية مقنعة ، وقوة مسرحية عظيمة : صورت الرسول المبشر ممسكاً بالإنجيل ، هابطاً من السماء لينقذ الرجل المتعبد ، الذي يوشك أن يخر صريعاً بضربة يوجهها إليه مغربي ، ومن حوله نحو عشرين من مختلف الأشخاص ينظرون إليه وقد بلغ اهتمامهم غايته . وانتهر ياقوبو كل ما أتاحت له القصة من فرص : فصور رجالاً أقوياء ونساء ظريقات رشقات ، وحرص على دراسة أثر الضوء على المخملات والحرير والعمائم الشرقية ، وعمل على غمر المنظر بالألوان التي تعلمها من جيورجيو

وتيشيان . وساور مديرو المدرسة بعض الخوف حين شاهدوا ما في التصوير من واقعية مجسمة ، وأخذوا يتناقشون في هل يليق بهم أن يعلقوا الصورة على جدرانهم ، فما كان من تنورتو إلا أن اختطف الصورة من أيديهم في عنف وكبرياء ، وأخذوها إلى منزله . فجاءوه وتوسلوا إليه أن يعيدها لهم ، فتركهم قليلاً من الوقت تأديباً لهم ، ثم أعادها إليهم ، وبعث إليه أربيتنو كلمة ثناء ، ومن ذلك الوقت تفتحت الأبواب أمام مواهبه .

وانهالت عليه الطلبات مجتمعة ، فطلبت إليه نحو ست كنائس ودعاه نحو اثني عشر من الأعيان ، وستة من الأمراء ، ومثل هذا العدد من الدول للقيام بأعمال فنية . وقص لهؤلاء مرة أخرى في مائة من الصور الملحمة المسيحية الكبرى ملحمة خلق العالم ، والدين ، وفلسفة الموت والبعث والدار الآخرة ، من بدء الخليقة إلى يوم الحساب . . ولم يكن تنورتو مسيحياً متديناً ، — ولما كان من الفنانين في هذا القرن السادس عشر في البندقية من هو متدين — فقد أثرت في نفوسهم وعقيدتهم المبادئ المنتشرة في بلاد الشرق والإسلام . وكان دينه هو الفن ، يقرب له القرابين بالليل والنهار ، ولكن أى موضوعات يستطيع المصور أن يتخيلها أرق وأظرف من قصص آدم وحواء ، وقصة مريم وطفلها ، مأساة الصلب ، وتعذيب القديسين وأعمالهم العجيبة ، ثم تلك الغاية التاريخية الرهيبة وهي جمع الأحياء والأموات في صعيد واحد أمام قضاء المسيح؟ (*) ونخير ما في هذه المجموعة كلها هي صورة

(*) — وها هي ذى طائفة مختارة من صور تنورتو الدينية ليس فيها صور اسكولا دى سان ركو (وجميع الكنائس المذكورة هنا في مدينة البندقية) :

١ — مناظر من العهد القديم : خلق الحيوانات (البندقية) ؛ آدم وحواء (البندقية) — وتمثل منظرًا طبيعيًا يسقط عليه الضوء بطريقة فذة ؛ قابيل وهايل (البندقية) ؛ تفصيح إبراهيم (أفيدسى) ؛ يوسف وزوجته فوطيقار (برادو) ؛ العثور على موسى (الاسكوريال) ؛ المعجل الذهبي (مادنا دل أورثو) ؛ جمع المن (سان جيورجيو مجيورى) — وهي مزيج بديع من المناظر الطبيعية ، والرجال ، والنساء ، والحيوان .

التصويب (حوالي عام ١٥٥٦) ، التي رسمها تئورتو لكنيسة مادنا دل أورتو : وفيها يرى هيكل بيت المقدس وقد صور في بهائه القديم ؛ ومريم الضئيلة الجسم الواجفة يرحب بها القس الأكبر وهو مبسوط الذراعين ملح ؛

ب - صور العذراء : مولد العذراء (مانتوا) وهي لا تكاد تقل رشاقة عن صورة كريجيو ؛ البشارة (برلين) ؛ الزيارة (بولونيا) ؛ العذراء والطفل (كليفلند) ؛ العذراء والقديسون (فيرارا) - وهي صورة رائعة غير أن القديسين يبدون كأنهم مصارعون تجاوزوا سن الثمانين وقد صوروا على طريقة ميكل أنجيلو ؛ صعود العذراء (١ - جزويتى) ، وتبدو ضعيفة شاحبة اللون إذا قورنت بالصورة التي رسمها تيشيان الموجودة في فيرارا والتي تعد آية من آيات الفن .

ج - من حياة المسيح : الختان (سانتا ماريا دل كارميني ؛ التعميد (سان سلفيستر) ، وتوجد نسخة منها في برادو) ؛ يسوع في بيت مرثا (ميونخ) - وهي ذات جمال منقطع النظير ؛ الزواج في قانا الجليل (مادنا دل سالوتى) ؛ المسيح في بحر الجليل (واشنطن) - وهي تكاد تكون دراسة انطباعية في اللونين الأزرق والأخضر ؛ المرأة يقبض عليها وهي تزني (رومة ، المعرض الأهل Galleri Nazionale) - وتصور زانية جميلة في صورة مسرقة في مسرحيتها ؛ المسيح يغسل أقدام الرسل (الإسكوريال) ؛ بعث لعازر (ليپزج) ؛ معجزة الخبز والسمك (نيويورك) ؛ المسيح والمرأة السامرية (أفيسى) ؛ العشاء الأخير (سان تروفازو ، والأخرى في سان استيفانو ، وثالثة في سان جيورجيو مجيوري ، ورسم بديع في معرض أفيسى) ؛ للصاب (سان كاسيانو) ، الخلع (البندقية ، وبارما ، وميلان ، ومعرض بتي) ؛ دفن المسيح (سان جيورجيو مجيوري) ؛ الهبوط إلى الأعراف (سان كاسيانو) ؛ البعث (مجموعة فارر) ؛ يوم الحساب (مادنا دل أورقو) - وهي محاولة مخففة لزيادة ما أحدثه ميكل أنجيلو من اضطراب وسخافات في مظلمات معبد سستينى .

د - القديسون : القديس أوغسطين يشفى ضحايا الطاعون (نيويورك) ؛ معجزة القديس أجنيس (مادنا دل أورتو) ؛ القديس جورج والتنين (لندن) وهي دراسة في الضوء والظل كأنها حرب في ظلام الليل ؛ زواج القديسة كترين (قصر البوق) ؛ استشهاد القديسة كترين (البندقية) - وفي كلتا الصورتين نرى امرأة جميلة لا يريد قتلها إلا ذو جنة ؛ نقل جسم القديس مرقس (البندقية) ، والعثور على جسم القديس مرقس (ميلان) ، والثانية آية من آيات فن المنظور تمثل نيفاً مظلماً في كنيسة ، ورجلا من الأشراف راكعاً في وجل وخشوع قدسى ، وصبياً وسيماً فائناً يمسك بركبتيه صبياً يتظاهر بالهف ، وصورة رائعة للقديس مرقس يقف منتصباً فوق جثته .



(الصورة رقم ٩) التلاميذ في كنيسة سانتا ماريا دل أورتو بالبندقية
من عمل تينتوريتو . انظر ص ٢٦٢

1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee. The names are listed in alphabetical order, and the addresses are given below each name. The list includes the names of the members of the committee, the names of the members of the sub-committee, and the names of the members of the advisory committee. The addresses are given in the form of street names and city names. The list is as follows:

Name	Address
Mr. A. B. C.	123 Main St., New York, N. Y.
Mr. D. E. F.	456 Main St., New York, N. Y.
Mr. G. H. I.	789 Main St., New York, N. Y.
Mr. J. K. L.	101 Main St., New York, N. Y.
Mr. M. N. O.	202 Main St., New York, N. Y.
Mr. P. Q. R.	303 Main St., New York, N. Y.
Mr. S. T. U.	404 Main St., New York, N. Y.
Mr. V. W. X.	505 Main St., New York, N. Y.
Mr. Y. Z. A.	606 Main St., New York, N. Y.
Mr. B. C. D.	707 Main St., New York, N. Y.
Mr. E. F. G.	808 Main St., New York, N. Y.
Mr. H. I. J.	909 Main St., New York, N. Y.
Mr. K. L. M.	1010 Main St., New York, N. Y.
Mr. N. O. P.	1111 Main St., New York, N. Y.
Mr. Q. R. S.	1212 Main St., New York, N. Y.
Mr. T. U. V.	1313 Main St., New York, N. Y.
Mr. W. X. Y.	1414 Main St., New York, N. Y.
Mr. Z. A. B.	1515 Main St., New York, N. Y.
Mr. C. D. E.	1616 Main St., New York, N. Y.
Mr. F. G. H.	1717 Main St., New York, N. Y.
Mr. I. J. K.	1818 Main St., New York, N. Y.
Mr. L. M. N.	1919 Main St., New York, N. Y.
Mr. O. P. Q.	2020 Main St., New York, N. Y.
Mr. R. S. T.	2121 Main St., New York, N. Y.
Mr. U. V. W.	2222 Main St., New York, N. Y.
Mr. X. Y. Z.	2323 Main St., New York, N. Y.
Mr. A. B. C.	2424 Main St., New York, N. Y.
Mr. D. E. F.	2525 Main St., New York, N. Y.
Mr. G. H. I.	2626 Main St., New York, N. Y.
Mr. J. K. L.	2727 Main St., New York, N. Y.
Mr. M. N. O.	2828 Main St., New York, N. Y.
Mr. P. Q. R.	2929 Main St., New York, N. Y.
Mr. S. T. U.	3030 Main St., New York, N. Y.
Mr. V. W. X.	3131 Main St., New York, N. Y.
Mr. Y. Z. A.	3232 Main St., New York, N. Y.
Mr. B. C. D.	3333 Main St., New York, N. Y.
Mr. E. F. G.	3434 Main St., New York, N. Y.
Mr. H. I. J.	3535 Main St., New York, N. Y.
Mr. K. L. M.	3636 Main St., New York, N. Y.
Mr. N. O. P.	3737 Main St., New York, N. Y.
Mr. Q. R. S.	3838 Main St., New York, N. Y.
Mr. T. U. V.	3939 Main St., New York, N. Y.
Mr. W. X. Y.	4040 Main St., New York, N. Y.
Mr. Z. A. B.	4141 Main St., New York, N. Y.
Mr. C. D. E.	4242 Main St., New York, N. Y.
Mr. F. G. H.	4343 Main St., New York, N. Y.
Mr. I. J. K.	4444 Main St., New York, N. Y.
Mr. L. M. N.	4545 Main St., New York, N. Y.
Mr. O. P. Q.	4646 Main St., New York, N. Y.
Mr. R. S. T.	4747 Main St., New York, N. Y.
Mr. U. V. W.	4848 Main St., New York, N. Y.
Mr. X. Y. Z.	4949 Main St., New York, N. Y.
Mr. A. B. C.	5050 Main St., New York, N. Y.
Mr. D. E. F.	5151 Main St., New York, N. Y.
Mr. G. H. I.	5252 Main St., New York, N. Y.
Mr. J. K. L.	5353 Main St., New York, N. Y.
Mr. M. N. O.	5454 Main St., New York, N. Y.
Mr. P. Q. R.	5555 Main St., New York, N. Y.
Mr. S. T. U.	5656 Main St., New York, N. Y.
Mr. V. W. X.	5757 Main St., New York, N. Y.
Mr. Y. Z. A.	5858 Main St., New York, N. Y.
Mr. B. C. D.	5959 Main St., New York, N. Y.
Mr. E. F. G.	6060 Main St., New York, N. Y.
Mr. H. I. J.	6161 Main St., New York, N. Y.
Mr. K. L. M.	6262 Main St., New York, N. Y.
Mr. N. O. P.	6363 Main St., New York, N. Y.
Mr. Q. R. S.	6464 Main St., New York, N. Y.
Mr. T. U. V.	6565 Main St., New York, N. Y.
Mr. W. X. Y.	6666 Main St., New York, N. Y.
Mr. Z. A. B.	6767 Main St., New York, N. Y.
Mr. C. D. E.	6868 Main St., New York, N. Y.
Mr. F. G. H.	6969 Main St., New York, N. Y.
Mr. I. J. K.	7070 Main St., New York, N. Y.
Mr. L. M. N.	7171 Main St., New York, N. Y.
Mr. O. P. Q.	7272 Main St., New York, N. Y.
Mr. R. S. T.	7373 Main St., New York, N. Y.
Mr. U. V. W.	7474 Main St., New York, N. Y.
Mr. X. Y. Z.	7575 Main St., New York, N. Y.
Mr. A. B. C.	7676 Main St., New York, N. Y.
Mr. D. E. F.	7777 Main St., New York, N. Y.
Mr. G. H. I.	7878 Main St., New York, N. Y.
Mr. J. K. L.	7979 Main St., New York, N. Y.
Mr. M. N. O.	8080 Main St., New York, N. Y.
Mr. P. Q. R.	8181 Main St., New York, N. Y.
Mr. S. T. U.	8282 Main St., New York, N. Y.
Mr. V. W. X.	8383 Main St., New York, N. Y.
Mr. Y. Z. A.	8484 Main St., New York, N. Y.
Mr. B. C. D.	8585 Main St., New York, N. Y.
Mr. E. F. G.	8686 Main St., New York, N. Y.
Mr. H. I. J.	8787 Main St., New York, N. Y.
Mr. K. L. M.	8888 Main St., New York, N. Y.
Mr. N. O. P.	8989 Main St., New York, N. Y.
Mr. Q. R. S.	9090 Main St., New York, N. Y.
Mr. T. U. V.	9191 Main St., New York, N. Y.
Mr. W. X. Y.	9292 Main St., New York, N. Y.
Mr. Z. A. B.	9393 Main St., New York, N. Y.
Mr. C. D. E.	9494 Main St., New York, N. Y.
Mr. F. G. H.	9595 Main St., New York, N. Y.
Mr. I. J. K.	9696 Main St., New York, N. Y.
Mr. L. M. N.	9797 Main St., New York, N. Y.
Mr. O. P. Q.	9898 Main St., New York, N. Y.
Mr. R. S. T.	9999 Main St., New York, N. Y.

وامرأة فخمة الصورة لا تقل في ذلك عن فخامة صور فيدياس تعرف ابتها
بحريم ؛ وإلى جانبها صور نساء غيرها ومعهن أطفالهن واضحة واقعية ،
ومتنبئ يلقى نبوءات غامضة ، ومتسولون ومقعدون نصف عرايا راقدون على
درج المعبد . تلك صورة تضارع أحسن ما صورته تيشيان وهي من أعظم
ما صور في عهد النهضة .

وتأكد نجاح تنتورتو حين رشحته الاسكولا دي سانت ركو Scuola
di San Rocco أو إخوة القديس رك لزخرفة قاعات اجتماعها (الأبرجو
Albergo) : وتفصيل ذلك أن المشرفين على هذه الطائفة أرادوا أن يختاروا
مصوراً لنقش سطح الجدران الواسع ، فدعوا الفنانين لتقديم رسوم لصورة
تلتزم مع سقف بيضى الشكل تظهر القديس روك في مجده ، فتقدم باولو
فرونيز ، وأندريا شيافوني Andrea Shiovone وغيرهما برسوم تخطيطية ،
أما تنتورتو فرسم صورة نهائية زاهية الألوان حية بالحركات والأعمال ،
وعمل سراً على أن يلصق قماش الصورة في مكانها المعين وأن يغطى . ولما أقبل
اليوم الذى تقدم فيه الفنانون الآخرون برسومهم ، أمر بكشف هذه
الصورة النهائية ، وروع القضاة والمتنافسون . وقد برر هو هذا التدبير
غير السليم بقوله إنه يستطيع العمل بهذه الطريقة السريعة الحاسمة بدلاً
من طريقة الرسوم الأولية . ولكن الفنانين الآخرين نددوا بها ،
وانسحب تنتورتو من المباراة ، ولكنه ترك الرسوم هدية إلى الجماعة ؛
فقبلته آخر الأمر ، وعينت تنتورتو عضواً بها ، وخصصت له مرتباً قدره
مائة دوقية في العام مدى الحياة ، وطلبت إليه في نظير ذلك أن يرسم لها ثلاث
صور كل سنة .

وبذلك استطاع أن يضع على حجرات قاعات الاجتماع ستة وخمسين منظراً
في السنين الثمان عشرة التالية (١٥٦٤ - ١٥٨١) . وكانت الحجرات التى
يعمل فيها قليلة الضوء ، واضطر تنتورتو أن يشتغل فيما يشبه الظلام ، وكان

يعمل بسرعة ، ويضع الألوان في غير إتقان كأنها تشاهد من تحتها بعشرين قدماً ، وكانت هذه الصور أشهر ما صوره رجل بمفرده في تاريخ البندقية كله ، وجاء الفنانون فيما بعد ليدرسوها كما ذهب الطلاب إلى فلورنس ليدرسوا رسوم ماساتشيو . وأثر المطر والرطوبة في الصور على مر السنين . ولكنها لا تزال تبعث في النفس الروعة بحجمها وقوتها ؛ وقد كتب عنها رسكن قبل وقتنا هذا بمائة عام يقول : « وقد أنزلت هذه الصور منذ عشرين أو ثلاثين عاماً لإصلاحها وإعادةها إلى ما كانت عليه ، ولكن الرجل الذي عهد هذا العمل إليه مات لحسن الحظ ولم تتلف إلا واحدة منها » (٢٩) .

وقد روى تنتورتو في هذا المتحف المدهش القصة المسيحية مرة أخرى ؛ ولكنها لم تكن قد رسمت من قبل بهذه الواقعية الجريئة التي انتزعت الحوادث من عالم العواطف المثالية ووضعتها في هذه البيئة الطبيعية ، ولهذا بدا أن هذه القصة قد استحالت تاريخاً من أعظم التواريخ صدقاً وأبعدها عن الشك . وكان الشرر الذي أوقد النار في قلب تنتورتو هو قدرته على النظر ، وأن يلاحظ كل دقائق المنظر ، وأن يحس بأن هذه الدقائق تهب الحياة ، وأن يبادر بوضعها على الجدار بضربة أو ضربتين من الفرشاة — كالماء الذي يراه الناظر من خلال جذور الغار في صورة مجولين . وخصص تنتورتو الطابق الأسفل من الحجرات لصور مريم العذراء : فصور فيها دهشتها الدليلة من البشارة ، ورشاقاتها المتواضعة عند الزيارة ، ورهبتها الساذجة عندما قدمت لها الهداية الشرقية في عبادة المجوس ، وسيرها البطيء على ظهر حمار مجتازة منظرًا هادئًا في صور الهروب إلى مصر فراراً من « مذبحه البريئين » ، وهي أقوى صورة في هذه المجموعة . وروى تنتورتو على جدران الحجرة العليا الكبرى حوادث في تاريخ المسيح نفسه : تعميده بيد يوحنا ، ومحاولة الشيطان لإغوائه ، والمعجزات والعشاء الأخير . وكانت هذه الصورة الأخيرة واقعية بعيدة كل البعد عن العرف المألوف إلى حد جعل رسكن يصفها بأنها « أسوأ

ما عرف عن تثنورتو «(٣٠)». وقد رسم المسيح في الطرف البعيد ، والقديسين منهمكين في الأكل أو الحديث ، والخدم راثنين بالطعام وغادين ، وكلباً يسأل متى يتناول هو أيضاً الطعام . ورسم تثنورتو في حجرة داخلية في الطابق

الأعلى صورتين من أعظم صوره . إحداهما صورة المسيح أمام بيلاطس ويظهر فيها شخص لا يمكن أن ينساه الإنسان قط يرتدى ثوباً أبيض كأنه كفن ، ويقف متعباً ، مستسلماً ، ولكنه يقف مهيباً كريماً أمام بيلاطس الذي يحاول التكفير عن خطيئة الخضوع إلى تعطش الغوغاء للدماء . وآخر ما نذكره من هذه الصور صورة يرى تثنورتو أنها خير صوره على

الإطلاق - صورة الصلب ، التي تتحدى صورة يوم الحساب ليكل أنجيلو وتسمو عليها في قوتها واتساع مدى تكوينها ، وتنفيذها الفني ، فها هي ذى أربعون قدماً من الجدار تغطيها ثمانون صورة لأشخاص ، وخيول ، وجبال ، وأبراج ، وأشجار ، روعيت فيها الأمانة في رسم التفاصيل ، مراعاة لا يكاد يتصورها العقل ، ويرى فيها المسيح يعضه الألم الجثثاني والنفساني ، ولص من اللصوص يلتقي فوق صليب مطروح على الأرض ، وهو يقاوم إلى آخر لحظة ، ولص آخر جبار في قوته وتهوره ، ثم يرفعه للقتل جنود غلاظ شداد يحول غضبهم من ثقله دون أن تأخذهم به رافة ، وترى النساء وقد انكمشن جماعات من شدة الرعب ، والنظارة يتزاحون في حرصهم على أن يروا الرجال يعذبون ويموتون . ويرى من بعيد جو مكفهر لا يستجيب إلى المأساة البشرية ، ولكن فيه رعداً وبرقاً ومطرأ لا تبعأ بها . وفي هذه الصورة بلغ تثنورتو الذروة وضارع أحسن المصورين .

وأضاف تثنورتو إلى كل هذه الآيات الفنية التي رسمها في قاعات الاجتماع ثمانى صور أخرى رسمها لكنيسة هذه الجماعة نفسها معظمها خاص بالقديس روك نفسه . وأظهر ما في هذه المجموعة كلها صورة بركة بيت حسدا وذلك لما تبعثه في النفس من رهبة إن لم يكن لشيء سواها .

ويستمد الفنان موضوعه من الأصحاح الخامس من الإنجيل الرابع : « في هند كان مضطجماً جمهور كثير من مرضى ، وعمى ، وعسم (*) ، ينتظرون أن تتاح لهم الفرصة للاستحمام في بركة ذات الماء الشافي . وتنتورتو لا ينظر إلى معجزة شفاء المرضى ، بل يرى الجواهر المصابة بمختلف الأمراض ، ويصورها كما يراها وهو ساكن هادئ بأجسامها المشوهة وأسمائها البالية ، وأقدارها ، وآمالها ، وبأسها . إن هذا المنظر كأنه أخذ من منظر الحجم لدانتي أو الأتقال لزولا .

وهذا الرجل الذي يستطيع أن يحدث بفنه هذه السورة العارمة ضد الشرور التي يتعرض لها الجسم الإنساني بفطرته ؛ هذا للرجل نفسه قد استجاب بحماسة بالغة لمباهج الجسم الإنساني في صحته وجماله ، وكاد يضارع تيشيان وكريچيو في رسم العرايا . ونحن وإن كان يحق لنا أن نتوقع من روحه القلقة وفرشاته السريعة أن تعجزا عن نقل الإحساس القديم بالجمال أثناء راحته ؛ لنجد مع ذلك في أماكن كثيرة في أوروبا أشكالا أنيقة أمثال صورة دانائي المحفوظة في متحف ليون بفرنسا ، والمزدانة بالجواهر ، وصورة ليدوا والجمع الموجودة في معرض أفيدسي ؛ وفيوس وفلطان المحفوظة في متحف ميونخ وصورة إلفاز أرسينوي ، المحفوظة في متحف درسدن ، وغطارد وربات الجمال وبافوس وأدرياني المحفوظتين في قصر الدوج بالبندقية ويظن سيمندس أن هذه الصورة الأخيرة هي أجمل صورة بالزيت موجودة في هذه الأيام ، إن لم تكن أعظم الصور كلها » (٣١) . على أن أكمل منها صورة أصل المجرة الموجودة في معرض لندن الفني التي تعزو هذا الأصل إلى ضغط

(*) هذا هو نص الآية ، وقد ورد في المحيط العسم محرقة ، يبس في مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم . (المترجم)

كيوبد على ثديي Juno — وهو تفسير لا يقل في صدقه عن أى تفسير آخر تقدم به العلماء . وفي متاحف اللوفر ، والبرادو وثينا ، ومعرض واشنطن الغنى أربع صور مختلفة من رسم تنتورتو تمثل سوزنا والكبرياء . وفي معرض برادو حجرة مملئة بصور تمثل جمال النساء « منها صورة فتاة بندقية تزيج رداءها لتكشف عن صدرها ، وحتى في صورة معركة الترك والمسيحيين نرى ثدئين ناهدين يستلفتان الأنظار بين بريق الأسنة والرماح : وفي متحف فيرونا صورة تمثل جوقة مكونة من تسع نساء موسيقيات ثلاث منهن عاريات إلى أوساطهن — كأن الأذان تحسن السمع إذا كان في وسع العيون أن ترى هذا القدر الكبير من الجمال : وليست هذه الصور أحسن ما أبدعه تنتورتو ، بل إن قدرته لتظهر أعظم ما تظهر في تمثيل الرجولة في الحياة ، والبطولة في الموت على أوسع نطاق ؛ ولكن هذه الصور تدل هي الأخرى على أنه يستطيع كما يستطيع جيورجيونى وتيشيان أن يرسم الانحناءات الخطرة بيد ثابتة ؛ ولسنا نرى فيما رسمه من صور للنساء العاريات شيئاً من فساد الخلق ، بل نجد فيها المتعة الحسية السليمة . فهو لاء الآلهة وهذه الإلاهات يرون العرى من طبيعة الأشياء ، وهم لا يشعرون به ؛ ويرون أن من صفاتهم الإلاهية أن يحيوا الشمس « وكل أجسامهم وجوه » ، يحيونها بأجسامهم كلها غير مضيق عليها بالأزرار ، والأشرطة والأربطة .

وظل تنتورتو ممتنعاً عن الزواج ما يقرب من أربعين عاماً تزوج بعدها فوستينا ده فيسكوفا Faustina de Vescovi ، ولكنها وجدته مضطرباً مسكيناً إلى حد لم يسمعها معه إلا أن تجد السعادة في أن تكون له أمّاً . وولدت له ثمانية أبناء أصبح ثلاثة منهم مصورين لا بأس بأعمالهم . وكانوا يسكنون بيتاً متواضعاً غير بعيد من كنيسة مادنا دل أورتنو (عذراء أورتنو) ، وقلم كان الفنان الكبير يبتعد عما حول البيت إلا إذا ذهب ليصور في كنيسة بالبندقية ، أو في القصر ، أو في مقر الإخوان . ولهذا فإننا لانستطيع تقدير

قوته وتنوع صورته إلا في نطاق المدينة التي ولد فيها : وقد عرض عليه دوق مانتوا منصباً في بلاطه ، ولكنه رفضه ؛ ذلك أنه لم يكن سعيداً إلا في رسمه ، حيث لم يكن ينقطع عن العمل لآليلاً ولا نهاراً ، وكان زوجاً وأباً طيباً ، ولكنه لم يكن يعنى أقل عناية بالمتع الاجتماعية . وكاد يبلغ في عزله ، واستقلاله ، ونكده ، واكتثابه ، وتوتر أعصابه ، وعنفه ، وكبريائه ، كاد يبلغ في هذا كله مبلغ ميكيل أنجيلو الذي ظل طول حياته يعبد ، ويحاول أن يتفوق عليه . ولسنا نجد عنده السلام لا في روحه ولا في أعماله ، وكان ميكيل أنجيلو يعظم قوة الجسم ، والعقل ، والروح ، أكثر مما يعظم الجمال الظاهر ، ولهذا نرى صور العذراء التي رسمها منفردة كصورة عذراء دوني Doni . وقد ترك لنا صورة له (نوجد الآن في متحف اللوفر) ، رسمها وهو في الثانية والعشرين من عمره . ولا نكاد نرى فيها فرقاً بين رأسه ووجهه وبين وجه أنجيلو ووجهه نفسه . — فالوجه قوى مكتئب ، عميق مندهش حائر ، ترتسم عليه علامات مائة عاصفة .

والصور التي رسمها لنفسه خير صورته جميعاً ، ولكنه رسم صوراً أخرى تشهد بعميق نظراته النافذة ووحدة فنه . ذلك أنه في هذه الناحية أيضاً ظل واقعياً ، لا يجرؤ امرؤ على أن يجلس أمامه ليصوره إذا كان يرجو أن ينجح الخلف . وكم من عظيم من أهل البندقية قد انتقل إلينا من خلال القرون بفضل فرشاة تينتورتو : أدواج ، وأعضاء في مجالس الشيوخ ، ووكلاء دعاو ، وثلاثة من مديري دار سك النقود ، وستة من أصحاب بيت المال ؛ وخير من هؤلاء كلهم في هذه المجموعة صورة ياقويو سوراندسو — وهي من أعظم الصور التي أخرجها فن البندقية . ومن هذه الصور أيضاً صورة سان سوفينو المهندس المعماري وكرنارو Cornaro المعمر . ولتنتورتو صور لا يفوقها إلا صورة السوراندسو Soranzo ولا يعرف من تمثله وهي صورة الرجل لا بس الرد

(في برادو) وصورة الشيخ (في بريستشيسا) و صورة رجل (في الخلاوة ؛ بليينجراد) ؛ وصورة مغربي في مكتبة مورجان بنيويورك . وحدث في عام ١٥٧٤ أن تخفى تفتورتو في ثياب خادم من خدم الدوق ألفيزي متشينيجو Doge Alvise Mocenigo واستطاع الوصول إلى البارجة بوتشنتور Bucentaurs بارجة أمير الأسطول ، ورسم نخلصة بالبسطل(*) صورة تقريبيه لهنري الثالث ملك فرنسا . ثم استطاع فيما بعد أن يتخذ له مكاناً في ركن حجرة كان هنري مجتمعاً فيها مع أعيان البلاد ومن هذا المكان أتم المصورة . وبلغ من حب هنري لها أن عرض على الفنان لقب فارس ، ولكنه رجاه أن يقبل اعتذاره .

وكانت معرفته بأعيان البندقية قد بدأت في عام ١٥٥٦ حين عهد إليه هو و فيرونيزي أن يرسم صوراً على القماش في قصر الدوق . رسم في قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglio صورتين هما تويج فرديريك بربرسا وهرمانه الإسكندر الثالث لبربرسا . وفي القاعة المعروفة باسم صالا دل اسكروتنيو Saladel Scrutinio (قاعة البحث والتحقيق) غطي جداراً كاملاً بصورة يوم الحساب . وسر مجلس الشيوخ من الصورتين سروراً حمله على أن يختاره في عام ١٥٧٢ لتخليد ذكرى الانتصار العظيم في ليبانتو . غير أن هذه الصور الأربع قد دمرتها النار التي شبت في عام ١٥٧٧ . وفي عام ١٥٧٤ عهد مجلس الشيوخ إلى تفتورتو أن يصور حجرة الانتظار (الانتيكاليچيو Anticollegio) . وهنا رسم للمشرعين الكبار صورة عطار وريبات الجمال وأندريا باغوس . وكبرفلمطيه ومبيرقا تظاره المربح . . وفي قاعة مجلس الشيوخ Sata de Predadi رسم تفتورتو (١٥٧٤)

(*) Pastel معربة هو صرب من أقلام الرصاص شائع الاستعمال بين أطفال المدارس . (المترجم)

- ١٥٨٥ طائفة من اللوحات الكبيرة يطرى بها أدواج أيامه ، فصورهم ومن خلفهم الميدان الفخم العظيم : كنيسة القديس مرقس بقبابها البراقة ، أوبرج الساعة ، أوبرج الأجراس ، أو الواجهة الفخمة لمكتبة فيتشيا ، أو بواكى قصر الدوبرج البراقة ، أو مناظر القناة الكبرى تحجبها الغيوم أو تسطع عليها أشعة الشمس . ثم توج هذه الرسوم بصور توائم ذوق الحكومة الفخورة المزهوة فرسم على السقف صورة رائعة فاقت كل ما عداها وهى صورة البندقية ملكة البحار ، ترتدى أثواباً ذات روعة وجلال تحيط بها دوائر من الأرباب المعجبين بها ، وتتلقى من آلهة البحر وجورياته هدايا الماء - المرجان والأصداف ، والآتى .

ولم يثن الحريق الكبير من عزم مجلس الشيوخ فطلب إلى تنتورتو أن يعوضه عن الخسارة بصور تمحو من ذاكرة الناس كل شيء عنها . فنفس في « قاعة البحث » منظر معركة كبرى هى الاستيلاء على زارا ، وصور على جدار إحدى حجرات المجلس الكبير الإمبراطور فردريك بربرسا يستقبل الوفود من عند البابا والدوج ، كما رسم على السقف آية فنية رائعة هى الدوج تقولوا ربنتى بتلقى خضوع المردم المغلوبية .

ولما قرر مجلس الشيوخ (١٥٨٦) أن يغطى المظلم القديم الذى صوره جوارينتو Guariento على الجدار الشرقى من حجرة المجلس ، اعتقد أن تنتورتو ، وكان وقتئذ فى الثامنة والستين من عمره ، قد بلغ من الكبر حداً لا يستطيع معه أن يقوم بهذه المهمة . ولهذا قسم العمل كما قسم الجدار بين فاولو فيرونيزى ، وكان وقتئذ فى الثامنة والخمسين ، وفرانتشيسو بسانو ، البالغ وقتئذ سبعة وثلاثين سنة . لكن فيرونيزى توفى عام ١٥٨٨ قبل أن يبدأ العمل فعلاً ، وعرض تنتورتو أن يحل محله ، وأن يغطى الجدار كله بصورة واحدة هى مجد الجنة ، ووافق مجلس الشيوخ على هذا العرض ،

ووضع الشيخ الطاعن في السن ، بمساعدة ابنه دومينيكو وابنته مارييتا Marietta ، في الاسكولا دلا ميزيريكورديا Scuola della Misericordia قطع القماش التي ستألف منها الصورة الأخيرة . ورسمت كثير من الرسوم التخطيطية الأولية ؛ منها رسم ، يعد في حد ذاته آية فنية ، يوجد الآن في متحف اللوفر . ولما وضعت هذه الأجزاء كلها في مكانها (١٥٩٠) ، وبعد أن لون دومينيكو مواضع الاتصال بين الأجزاء وأنقضاها ، كانت الصورة أكبر صورة بالزيت وقعت عليها العين حتى ذلك الوقت — فقد كان طولها اثنتين وسبعين قدماً وارتفاعها ثلاثاً وعشرين . وأجمعت الجواهر التي احتشدت لرؤيتها على أنها أعظم أعمال التصوير التي تمت في مدينة البندقية — وأنها « أعجب قطعة في العالم كله من الصور الزيتية النقية ، السامية التي تمثل الرجولة الحقة » (٢٣) . وعرض مجلس الشيوخ على تذكورتو أجراً بلغ من الارتفاع جداً لم يسعه معه إلا أن يرد إليه جزءاً منه واستاء من ذلك زملاؤه الفنانون .

وعدا الزمان على هذه الحجة ، واليوم إذا ما دخل الإنسان قاعة المجلس الكبير ، والتفت إلى الجدار القائم خلف عرش الدوج ، لم يجد الصورة التي تركها تذكورتو هناك ، بل وجد صورة سودها الدخان والرطوبة اللذين تناوبا عليها مئات السنين ، حتى لا يستطيع أن يتبين من الأشكال الخسائية التي كانت تملأها إلا أقلية صغرى واضحة للعين . أما فما عدا هذا فدوائر داخل أدوائر تهتز وترتجف — وتتكون من السذج المباركين ، والعداري ، والمؤمنين بالدين ، والشهداء ، والمبشرين بالإنجيل ، والحواريين ، والملائكة ، وكبار الملائكة — كلهم محتشدون حول مريم وابنها ، كأن هؤلاء جميعاً قد أصبحوا هم الآلهة الحقيقيين للعالم المسيحي اللاتيني ، وقد جاءوا يعترفون بجلال قدرة المرأة والرجل اعترافاً جديراً بهم . ويشعرنا تذكورتو بما وراء الأشكال المائة التي تستطيع أن تراها بالعين من مئات أخرى يخططها الحصر .

والحق أنه حتى إذا لم يكن الذين يدخلون الجنة إلا قلة تختار من الذين يدعون إليها ، فإن من دخلوها فعلا في ستة عشر قرناً من التاريخ المسيحى ليبلغون عدداً كبيراً من الجواهر السعيدة ، وقد أخذ تنتورتو على نفسه أن يصور لنا هذا العدد الكبير ، ويمثل لنا سعادتهم . وهو لم يُمَيِّت الجنة فيصفها مكاناً مكتئباً كما وصفها دانتى ؛ بل تصورها مكاناً مليئاً بالمرح والطرب ، لا يقبل فيه إلا السعداء المبتهجون . وكأن هذا العمل كان هو الرقية التى أخرجت الفنان من سابق كراهيته للمجتمع .

لكن تلك الأيام من حياة الفنان لم تكن خالية من أسباب الحزن ؛ ففي السنة التى أزيح فيها الستار عن الصورة العظيمة ماتت ابنته المحبوبة ماريتا ، وكان حذقها التصوير والموسيقى من أكبر مباهجه وأسباب سلواه في شيخوخته . فلما أن فارقت لاج كأنه لا يفكر إلا في أن يراها تجمعا حياة أخرى . فكان يتردد أكثر من ذى قبل على مادنا دل أورتو - سيدة الحديقة - حيث يقضى الساعات الطوال في التفكير والدعاء بعد أن أصبح آخر الأمر رجلاً ذليلاً . وكان لا يزال يصور ، وأخرج في هذه السنين الختامية طائفة من الصور تمثل القديسة كثرين لتوضع في الكنيسة المسماة باسمها . لكنه أصيب في السابعة والسبعين من عمره بمرض في معدته سبب له آلاماً ممضة حرمت النوم على عينيه . فكتب وصيته ، وودع زوجته ، وأطفاله ، وأصدقائه ؛ ومات في الحادى والثلاثين من شهر مايو سنة ١٥٩٤ ، وأودعت جثته في مادنا دل أورتو .

وإذا ما حاول الإنسان أن يتبين فن هذا المصور الكبير بعد أن يطوف بقاربه في مياه البندقية الضحلة ويقف أمام كل صورة من فنانها الذى لا يقل قدراً عن ميكال أنجيلو ، إذا ما فعل هذا فإن أول ما ينطبع في ذهنه هو طابع الكثرة والضحامة ، إذ يرى الجدران الكبيرة مغطاة بصور الآدميين والحيوانات على درجات متفاوتة من الجمال والقبح لا تقل عن



(الصورة رقم ١١) صورة پالو فيروني
من عمله - معرض أفندي بفلورنس . انظر ص ٢٨٠



(الصورة رقم ١٠) صورة دافلي و بارا - من عمل
پالو فيروني في قصر بي بفلورنس . انظر ص ٢٧٨

الآلف عدا ، تختلط فيها الأجسام وتضطرب اضطراباً لا نجد له ما يبرره إلا قولنا إنه هو الحياة ؛ ذلك أن هذا الرجل الذى كان يبتعد عن الجماهير ويبغضها ، يواجهها فى كل مكان ، ويصورها تصويراً صادقاً دقيقاً غاية فى الصرامة ؛ ويبدو أنه كان قليل الاهتمام بالأفراد ؛ وإنه إذا رسم صورة لهم فإنما كان يقصد بذلك كسب العيش صراحة ؛ وكان يرى الإنسانية جملة ، ويفسر الحياة والتايخ على أنهما كتل من الخلائق البشرية تكافح ، وتنافس ، وتحب ، وتستمتع ، وتعذب ، طابعها الرجولة والجمال ، مريضة ومعقدة ، ناجية أو معذبة ، وكان يغطى بصوره قطعاً من قماش الرسم ذات حجم مروع فى كبره ، لأن هذه السعة وجدوها هى التى كانت تفسح له المجال ليصور ما يشهده . ومع أنه لم يكن يتقن أصول فن التصوير ، كما يتقنها تيشيان ، فإنه قد استخلص لنفسه الطريقة التى رسم بها هذه الصور الضخمة ، وإليه يرجع أكبر الفضل فى روعة الحجرات التى فى قصر الأدواج ، لهذا لا ينبغي لنا أن نطلب إليه رقة الصقل أيا كان نوعها ، فهو فى فنه خشن ، فج ، سريع ، يخلق أحياناً منظراً بضربة واحدة من فرشاته ، على أن خطأه الحقيقى ليس هو خشونة السطح — لأن السطح الخشن ذاته قد ينبر ما ينطوى عليه الرسم من معنى — ، أما هذا الخطأ فهو العنف المسرحى لما يختاره من الأحداث ، وثوران أهوائه ونزواته ثوراناً سقيماً ، والكآبة التى يغرق فيها الحياة كما يصورها ، وتكرار صور الجماهير تكراراً متعباً مملاً ؛ لقد كان تنتورتو مفتتناً بكثرة العدد ، كما كان ميكل أنجيلو مفتتناً بالأشكال ، وروبنز Rubens ، مفتتناً بالأجسام . ولكن ما أكثر ما نجده فى هذه الكثرة نفسها من دقائق وتفاصيل عظيمة الدلالة ، وما أعظم ما نجده من دقة ونفاذ فى الملاحظة ، ومن تنوع وانفرادية فى الأجزاء لا ينضب لها معين ، وواقعية جريئة حيث لم نكن نجد قبل إلا خيالا وعاطفة !

وآخر ما نشعر به ونحن نقف أمام هذه الصور هو الاستجابة لها

استجابة صريحة أكيدة قائلين : هذا هو الفن في أعظم طراز له : لقد صور
غيره من الفنانين الجمال كما فعل رفائيل ، أو القوة كما فعل ميكيل أنجيلو ،
أو عمق النفس كما فعل رمبرانت ؛ أما هنا في هذه الرسوم العالمية — سواء
كانت تمثل صخب مدينة ، أو لجاهير صامته تؤدي الصلاة ، أو دنخائل
ألف بيت وبيت وما تضمنه من متاعب أو محبة وولاء — نقول أما هنا فلنا
نجد الحياة الإنسانية نفسها . وقد نحس أحياناً ونحن وقوف صامتون أمام
هذه الجدران الحائلة في قصر أدواج البندقية ، أو في حجرات إخوان القديس
روك ، أن صور غير من الفنانين الأرقى منه درجة تمنحى من ذاكرتنا ،
وأنه لو استطاع الصباغ الصغير (*) أن يضقل صوره صقل الجوهري بعد
أن فكر فيها تفكير الجبارة ، لكان أعظم المصورين أجمعين .

(*) يريد تنويرتو وهذا هو المعنى الحرفي لاسمه . (المترجم)

الفصل الخامس

فيرونيزي : ١٥٢٨ - ١٥٨٨

ولسنا نحب أن يفوتنا ، قبل أن نطوى صحيفة هذا الباب ، أن نكرم بعض نجومه اللامعة وإن كانت من الطبقة الثانية بعد الفنانين السابقين ؛ فقد كان هؤلاء أيضاً ممن تلاً ضياؤهم في البندقية : من هؤلاء أندريا ميلولدا Andrea Meloldi وهو من إقليم سلافونيا وسمى شيافوني Shiovone . وقد تلقى الفن مع تيشيان ، ورسم صورة من العاج لسيدة على صندوق في قلعة ميلان . ثم حاول أن يرسم صورتين أكبر من هذه وهما هوبتر وأنتيوري (المحفوظة في لينينجراد) وعطية العذراء (البندقية) ، وكانتا صورتين بديعتي اللون . وأثنى عليه الفنانون ، وأعرض عنه المناصرون ؛ واضطر أندريا أن يسير بلحيته الوقورة في أسمال بالية .

وكان باريس بوردوني Paris Bordone ابن سراج وحفيد حذاء ، ولكنه استطاع بفضل ديمقراطية العبقريّة ، التي تظهر في جميع الطبقات أن يشق طريقه إلى الذروة في مدينة البندقية الممتلئة بذوى المواهب والكفايات . وقد جاء بوردوني من تريفيزو ليلتقي أصول الفن على تيشيان ، ونضج نضوجاً بلغ من سرعته أن دعاه فرانس الأول إلى باريس وهو في سن الثامنة والثلاثين . وفيها أخرج بعض الصور الدينية الممتازة مثل الأسرة المقدسة (ميلان) ، وبلغ أعلى مكانة له في صورة الصائم يهري غاتم القديس مرقس إلى الدوج (البندقية) ؛ ولكن الصورة التي خلدت اسمه على مر السنين هي صورة فينوس وإيروس (أفيدسي) وهي تمثل فتاة بضعة

شعراء ترتدى ثوباً أبيض لتكشف به عن نهديها ، بينما يصبح كيوبد ليلقتها إليه(*) .

ونال ياقوبو دا پنتي Jacopo da Ponte ، المسمى البسانو Il Bassano نسبة إلى مسقط رأسه ، شهرة وسطى وثروة غير كبيرة حين اشترى تيشيان صورته المجهولة ذاهبة إلى سفينة نوح واستطاع أن يعيش حتى بلغ الثانية والثمانين دون أن يترك وراءه أية صورة لآدميين لا تغطيهم الأثواب من رعوسهم إلى أقدامهم .

وجاء من فيرونا إلى البندقية في عام ١٥٥٣ شاب في الخامسة والعشرين من العمر يدعى باولو كالياري Paolo Caliari ، وهو طراز من الشبان يختلف كثيراً عن طراز تينتورتيو : فهو هادئ ، ودود محب للألفة ، ينتقد عيوب نفسه ، لا يتفعل إلا نادراً . وكان يحب الموسيقى ويمارسها ، مثله في ذلك كمثل تينتورتيو وجميع الإيطاليين المتعلمين تقريباً . وكان سخياً كريم الخلق ، لم يسيء قط إلى منافس له ، ولم يغضب نصيراً له أبداً . وسمته البندقية إيل فيرونيزي Il Veronese وهو الاسم الذي يعرفه به العالم ، وإن كان قد أحب البندقية فيما أحب من المدن واتخذها موطناً له . وكان له في فيرونا عدد من المعلمين ، منهم عمه أنطونيو باديلي Antonio Badile الذي زوجه فيما بعد بابنته ؛ وقد تأثر فيها بجيوفاني كاروتو Giovanni Caroto وبرساسورسي Brusasorc ، ولكن هذه العوامل التي كانت ذات أثر في نشأة أسلوبه سرعان ما زالت في لآلاء فن البندقية وحياتها القويين . فقد كان تغير منظر السماء ولألوانها فوق القناة الكبرى مصدر دهشته على الدوام ؛ وكان يعجب بقصور المدينة وانعكاس خيالها واهتزازها في ماء البحر ؛ وكان يحسد عالم الأشراف على دخولهم الثابت ، وصدقاتهم للفقراء ، وآدابهم

(*) كانت هذه إحدى الصور الكثيرة التي أخذها جورنج Goering من إيطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية ، والتي استردتها إيطاليا بعد انتصار الحلفاء .

العالية ، وأثوابهم المنسوجة من الحرير والمخمل التي تكاد تكون أكثر إغراء للمس من النساء الحسان اللاتي يلبسهن . وكان يتمنى أن لو كان من أولئك الأشراف ؛ وكان فعلا يرتدى أثواباً شبيهة بأثوابهم محلاة بالخرمات والنفراء ، ويقلد مراسم التكريم التي كان يعزوها إلى الطبقات العليا من أهل البندقية . ولا نكاد نجد له صورة للفقراء من الناس ، أو للفقير ذاته ، أو للمأسي ، لأن الغرض الذي كان يسعى إليه هو أن يخلد بصوره هذا العالم المتلألئ المحفوظ من أهل البندقية ، وأن يجعله أرق وأجمل مما يستطيع أن يبالغه الثراء بغير الفن . ولهذا هرع إليه النبلاء والنبيلات ، والأساقفة ورؤساء الأديرة ، والأدواج وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأحبوه ، وسرعان ما كانت لديه أكثر من عشر مهام يقوم بأدائها .

وطلب إليه في ذلك التاريخ المبكر من حياته أي في عام ١٥٥٣ ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره أن ينقش سقف مجلس العشرة في قصر الدوق ؛ وقد شبه في هذا النقش المجلس بجوهر قصور جيويتري بفضي على الرذائل ، وتوجد هذه الصورة الآن في متحف اللوفر . ولم يكن نجاحه في هذه الصورة نجاحاً يستلقت الأنظار ؛ ذلك أن الأشكال الثقيلة تقفز مزعجة في الهواء ، لأن باولو لم يكن قد سرى فيه حتى ذلك الوقت روح البندقية . ثم لم يمض على ذلك الوقت إلا عامان حتى عرف قدر نفسه ، وصار غير بعيد من أساتذة الفن في صورة انتصار موردي التي رسمها على سقف كنيسة سان سباستيانو . وقد أظهر في هذه الصورة وجه البطل اليهودي وشكله واضحاً قوين ، والخيال نفسه تبدو كأنها خيل بحق . وربما كان نيشيان نفسه قد تأثر بهذه الصورة ، وشاهد ذلك أنه لما عهد إليه القائمون على كنيسة القديس مرقس أن يزخرف مكتبة فيتشيا بصورة مدليات مصورة ، عهد إلى فيرونيز بثلاثة من هذه المدليات ، ولم يستبق لنفسه ولكل واحد آخر من الفنانين الذين اشتركوا معه في العمل إلا واحدة . ووجد هؤلاء المشرفون

أن يمنحوا صاحب أحسن مدلاة سلسلة ذهبية ، فكان باولو هو الذى نال هذه المكافأة نظير تمثيله الموسيقى فى صورة ثلاث فتيات — واحدة منهن تعزف على العود ، وواحدة تغنى ، وواحدة منكبة على الكمان الدجمي (*) — ومعهن كيوبد يضرب على معزف من نوع البيان ، وپان Pan (**). ينفخ فى مزاميره . وقد رسم فيرونيز نفسه بعدئذ يتحلى بهذه السلسلة الذهبية .

ولما أن أحرز باولو هذه الشهرة العظيمة فى التصوير الزخرفى عهدت إليه أعمال درت عليه المال الوفير . من ذلك أن أسرة بربارو Barbaro الشريفة الغنية شادت فى عام ١٥٦٠ بيتاً ريفياً فى ماتشير Macer قرب أسولو Asoło حيث كانت تقيم كترينا كرنارو ملكة قبرص السابقة ، وحيث كان بمبو العاشق الأفلاطونى الواله . ولم يختر آل بربارى إلا كبار الفنانين ليجعلوا من هذا البيت : « أجمل بيت للنزهة شيد فى عصر النهضة » (٣٥) . فاختاروا أندريا بلاديو لتصميمه . وألسندرو فتوريا لزنخرفته بالتماثيل الجصية ، وفيرونيزى لعمل المظلات فى السقف والجدران ، والبندريلات والكوات ، مستمدة من مناظر من الأساطير الوثنية والمسيحية . فقد صور على السطح الداخلى من القبة الوسطى أولمبس — الآلهة الذين يستمتعون بجميع مباهج الحياة ولكنهم لا يهرمون ولا يموتون . ورسم صغار الفنانين وسط مناظر سماوية صورة صائد ، وقرد ، وكلب بلغ من دقة شكله ويقظته وحيويته ما يجعله خليقاً بأن يكون من كلاب السماء . ورسم على أحد الجدران خادم يتطلع عن بعد إلى صورة عذراء ، وتتطلع هى الأخرى إليه ، ثم تمضى لحظة يطعمون هم أيضاً فيها طعام الآلهة ، وبهذا بلغ جمال القصر وبهجته درجة لا يمكن أن يعلو عليها إلا الفنانون الصينيون من مواطنى كوبلاى خان

Kublai Khan

(*) آلة موسيقية من نوع الكمال .

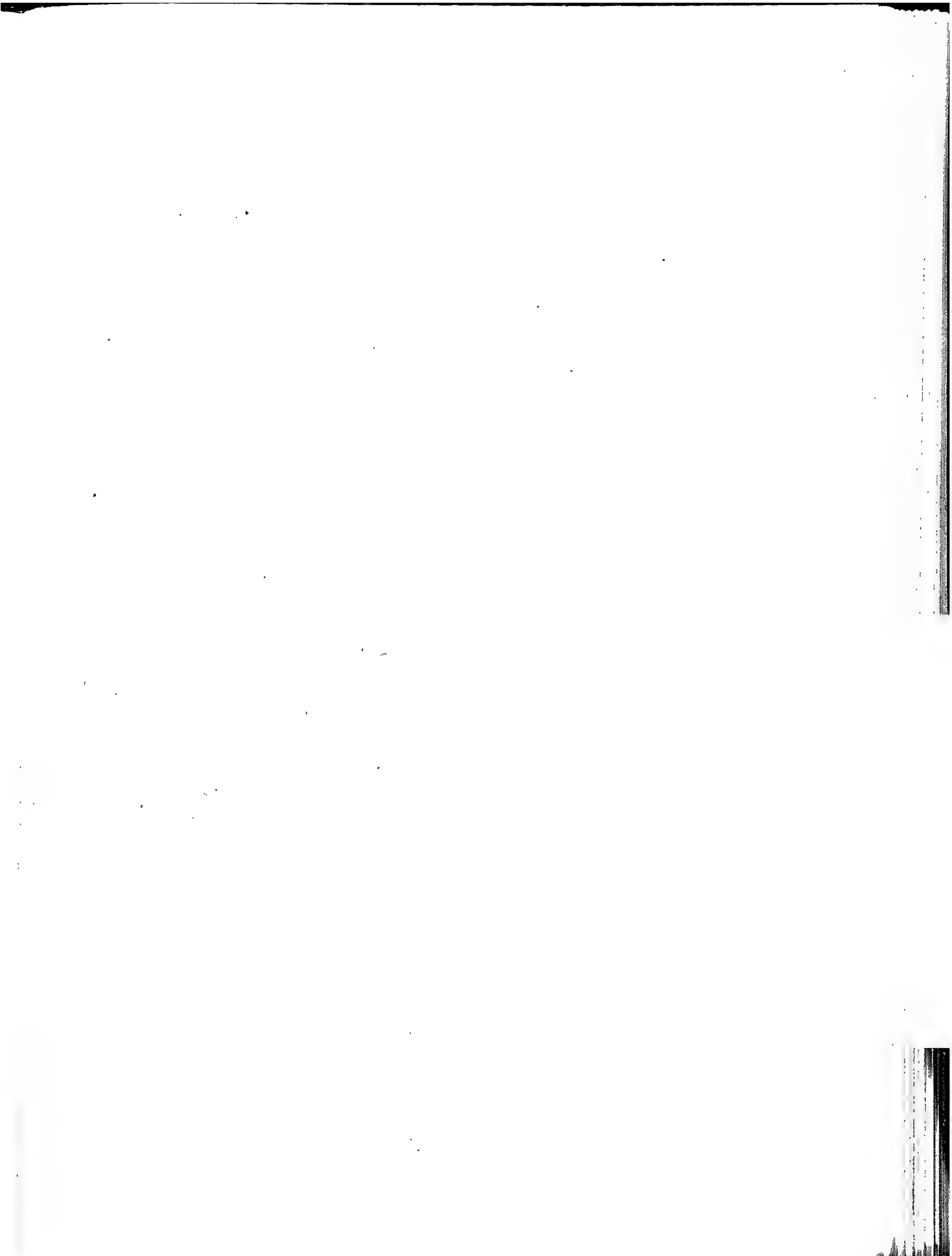
(**) إله الرعاة والقطعان والغابات والحياة البرية ، وشفيع الرعاة ، والصائدين . . الخ (المترجم)



(الصورة رقم ١٣) تمثال نصفي لميكل أنجيلو برناردي - من عمل
دانييل دافلتير - في المتحف القومي بفلورنس (انظر ص ٢٧٩)



(الصورة رقم ١٢) اختطاف أوردبا - من عمل داولوثير ونيزي
في المتحف الفني بنيويورك (انظر ص ٢٧٩)



ولم يكن بد من أن يطلب إلى باولو أن يرسم صورة النساء العرايا في وسط هذا الجمع الحاشد من مناظر الحب . على أن العرى لم يكن الميدان الذي يبرز فيه ؛ فقد كان يفضل عليه الأثواب الثمينة الملساء الناعمة تغطي أجساماً شبيهة بالأجسام التي يصورها روبنز ، تعلوها وجوه ذات جمال عادي يميزها عن غيرها من الوجوه ، ويتوجها شعر ذهبي مسدل مسرح . ويرى الإنسان في صورة المريخ وفينوس المحفوظة في متحف متروبوليتان الفن إلهة بدينة قبيحة المنظور ، ذات ساق لا شكل لها مصابة بداء الاستسقاء . لكن فينوس تبدو جميلة في صورة فينوس وأدونيس الموجودة في برادو لا يفوقها في هذه الصورة إلا شكل الكلب الرابض عند قدميها : وأجل ما في صور فيرونيزي الأسطورية صورة اختطاف أوربا^(*) الموجودة في قصر الأدواج ! وتمثل هذه الصورة منظرأ ذا أشجار قائمة ، والثور المجنح يلقي بالأكاليل . وأوربا (الأميرة الفينيقية) جالسة وهي مبتهجة فوق ظهر الثور العاشق ، الذي يلحق إحدى قدميها الجميلتين ، وتستبين أنه هو بعينه جوبيتر متخف . زى جديد : وقد أظهر هذا الفنان الذي صور مناظر في السماء ذوقاً لطيفاً في تصوير مناظر الآلهة . ذلك أنه صور أوربا وعلى نصف جسمها ثياب ملكية ، وقد أحرز فيرونيزي في هذه الصور أتم نجاح في رسم أجسام النساء ، وبلغ بها حد الكمال في هذا التركيب فجعلها خليقة بأن يترك زيوس من أجلها مقامه في السماء : وتروى خلفية الصورة البعيدة بقية القصة ، فتظهر الثور يحمل أوربا فوق مياه البحر إلى كريت ، ومن هنا أعطت اسمها للقارة الأوربية - كما تقول القصة اللطيفة .

وسار باولو نفسه على مهل قبل أن يستسلم لتصوير النساء . فقد ظل

(*) أوربا في الأساطير اليونانية أميرة فينيقية اختطفها زيوس بعد أن تخفى في صورة ثور أبيض ، وسبح بها في البحر إلى جزيرة كريت حيث أصبحت أم مينوس ، ورها داماندوس ، روسار بيدون . (المترجم)

يجمع النماذج حتى بلغ الثامنة والثلاثين من العمر ، ثم تزوج بعدئذ إيلينا باديلي Elena Badile ، فولدت له ولدين هما كارلو وجبريلي ، علمهما التصوير وتنبأ بنبوءة مبعثها الرغبة والأمل أكثر من بعد النظر ، فقال : « سيفوقني سارلي Carletto me vincera » (٣٦) . وفعل فيزونيزي ما فعله . كريچيو فابتاع مزرعة في سانت أنجياو دي تريفيزو حيث قضى معظم سني زواجه ، يصرف شئونه المالية بحكمة واقتصاد ، وقلما كان يبتعد عن كرمته . ولما بلغ سن الأربعين كان أكثر من يسعى إليه الطالبون بين المصورين في إيطاليا كلها ، بل إنه كان يتلقى دعوات من البلاد الأجنبية نفسها ؛ ولما أن طلب إليه فليپ الثاني زخرفة الإسكوريال ، قدر هذا التكريم حق قدره ولكنه قاوم هذا الإغراء الشديد .

ودعى كما دعى من سبقوه من الفنانين لرسم القصة المقدسة للكنائس والعابدين (*) وإنا لنرى كل شيء جديداً جذاباً في صورة عذراء أسرف

(*) الصور الآتية خليقة بالذكر وهي مما لم يرد ذكره في النص :

أ - من كتاب العهد القديم : خلق حواء (تشكاجو) ؛ موسى ينجو من البحر (برادو) ، إبحراق سدوم (اللوفر) ؛ ملكة سبأ أمام سليمان (تورين) ؛ بشبع (ليون) ؛ بوديت . أمام هولوفرنيس (تور) ؛ سوزان والكبار (اللوفر) وفيها يظهر الكبار أكثر إمتاعاً من سوزان ، وليس هذا شأن الصور المماثلة لها .

ب - صور العذراء : صعود العذراء (البندقية ؛ عبادة المجوس (فينا ، ودرسدن ، ولندن وكلها صور فخمة رائعة) ؛ الأسرة المقدسة (برنستن) ؛ الأسرة المقدسة ومعها القديسة كاترين والقديس يوحنا (أفيدسي) - وهي من أعماله الكبرى ؛ والعذراء والطفل والقديسين - صورة فخمة (البندقية) ؛ الهبة (درسدن) ؛ صعود العذراء وتوبيخها (البندقية) .

ج - من صور يوحنا المعمدان : عظة القديس يوحنا (بورغيزي) .

د - من صور المسيح : التعميد (پتي ، وبربرا ، وواشنجتون) ، المسيح يجادل في المعبد (برادو) يسوع والمعمد (برادو) ؛ المسيح يحيى ابنة بايرون (البندقية) ، العشاء الأخير (بربرا) ، خلع ييلناصر (فيرونا ولينينجراد) الماريات الثلاث عند القبر (پتي) .

كونستينو (الموجودة في درسدن) بعد أن رسمت للعذراء ألف صورة
وصورة ! نرى أصحاب الهبات الوسيمى الوجوه ذوى اللحى السوداء ، ونرى
الأطفال السذج الحيارى ، ونرى شبح الغدر المتشح بلقاعة بيضاء - فى صورة
امرأة ذات جمال رائع قلما يضارعه جمال آخر حتى فى فن البندقية نفسه .
وكانت صورة الزواج فى فلانا (المحفوظة فى متحف اللوفر) هى ذات المنظر
الذى يحب فيرونيزى أن يصوره : وقد جعل خلفية الصورة مباني رومانية ،
وجعل فى مقدمتها كلباً أو كلبين ، ومائة شخص فى نحو مائة موقف مختلف .
وقد رسمهم كلهم كأنه يريد أن يجعل كل واحد منهم صورة كبرى قائمة
بذاتها ، وكان من بينهم صور تيشيان ، وتنتورتو ، وبسانو ، وصورته
هو نفسه . ومع كل منهم آلة موسيقية وترية يعزف عليها . وكان باولو يختلف
عن تنتورتو فى أنه لم يكن يعنى أقل عناية بالواقعة ؛ فهو لم يجعل فى صورته
المحتفلين رجالاً ونساء ممن قد تحتويهم بلدة يهودية صغيرة ، بل جعل المضيف
من أصحاب الملايين البنادقة ، وجعل له قصرأ خليقاً بأن يكون قصر الإمبراطور
أغسطس ، فيه الضيوف والكلاب المعروفة السلالة والنسب ، واحتوت
الموائد ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وإذا جاز للإنسان أن يحكم على
المسيح من صور فيرونيزى ، قال إنه قد استمتع بولائم كثيرة بين محبه ؛
فنحن نشاهده فى اللوفر يتغذى فى بيت سمعان القريسي ، ومجدلين تغسل
قدمه ، ومن حوله نساء حسان يتحركن بين العمدة الكورنثية ؛ وفى توريز
يتعشى فى بيت سمعان الأبرص ؛ وفى معرض البندقية يتغذى فى بيت لاوى .
لكننا نرى المسيح فى معرض صور فيرونيزى يغشى عليه تحت ثقل الصليب
(درسدن) ، ونراه يصلب فى جو مكفهر وأبراج أورشليم قائمة من تحته
عن بعد (اللوفر) . ولا يفصح فيرونيز عن خاتمة المأساة : فنحن نرى فى
أموس حجاجاً سذجاً يتعشون مع المسيح ومعهم أطفال ظراف يدللون كلباً .
يظهر دائماً فى صور الفنان .

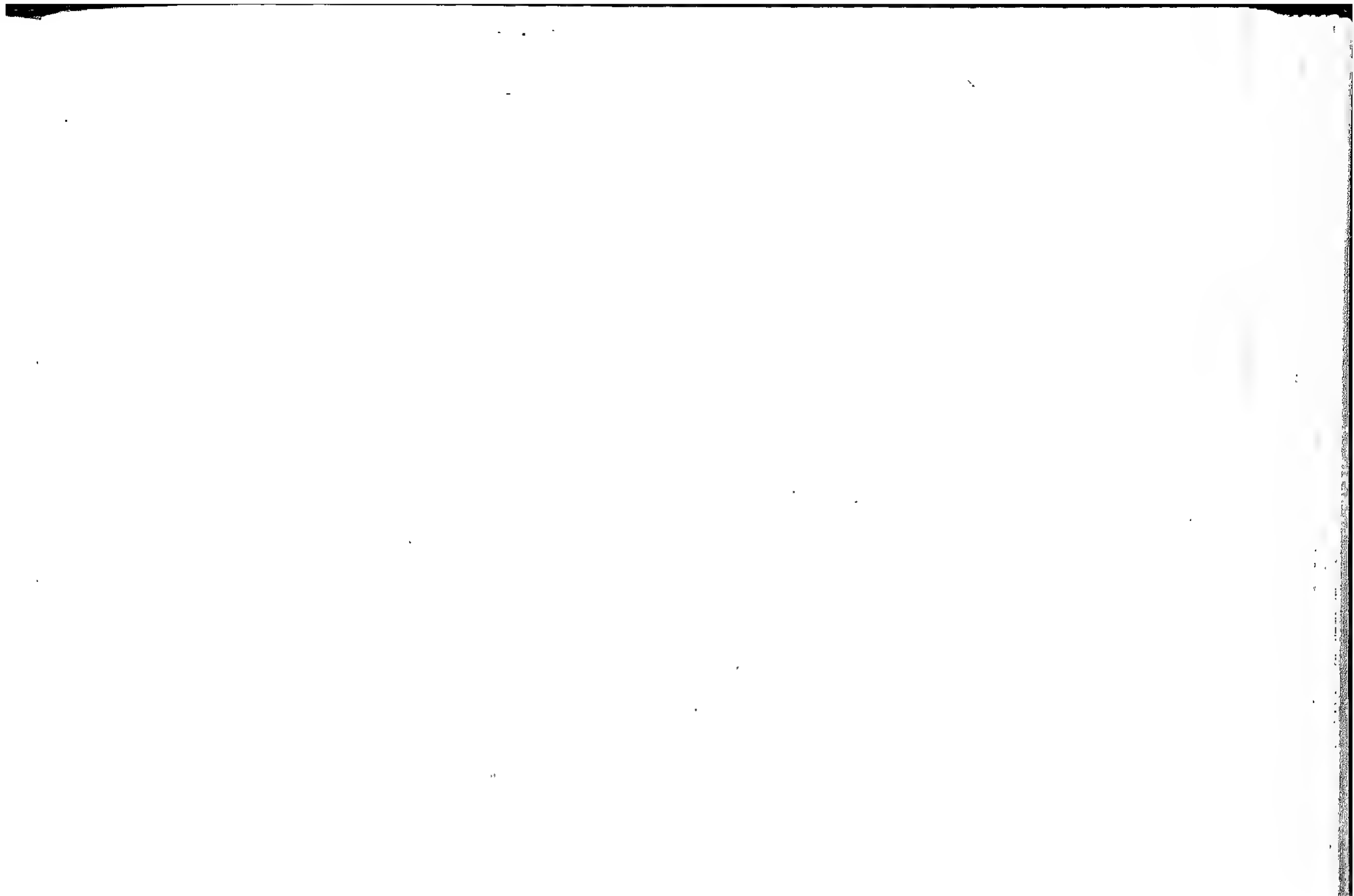
وأعظم من هذه الصور الموضحة للعهد بالحديد صور فيرونيزى المستمدة من حياة القديسين وأقاصيصهم : كصورة القديسة هيلينا يكسوها الجمل الرائع ، وهى تعتقد أنها ترى الملائكة ينقلون الصليب (لندن) ؛ والقديس أنطونيوس يعذبها شاب مفتول العضلات ، وامرأة مملّكية (كائن) ؛ والقديس جيروم فى البرية ؛ تواسيه وتطرد عنه السمّامة كتبه (تشكاجو) ؛ والقديس جورج يرحب فى وجد ونشوة بالاستشهاد (فى كنيسة سان جيوجيو بالبندقية) ؛ والقديس أنطونيوس فى بدوا ؛ والقديس فرانسيس يتلقى الوسمات (*) (البندقية) ؛ والقديس مناس تتلأأ عليه الدرع (مودينا) ويستشهد (برادو) ؛ القديسة كترين الإسكندرية تزوج زواجاً باطنياً بالطفل المسيح (كنيسة القديسة كترينا بالبندقية) ؛ والقديس سباستيان يرفع علم الإيمان والأمل وهويقاد إلى ساحة الاستشهاد (كنيسة سان سباستيان فى البندقية) ؛ والقديسة جوستينا تواجه الاستشهاد وتتعرض للتهلكة المزدوجة فى معرض أفيدسى وفى كنيستها فى بدوا ؛ كل هذه صور لا يمكن موازنتها بأحسن مما صور تيشيان أو تينتورتو ، ولكنها مع ذلك خليقة بأن تعد من الآيات الفنية ، ولعل أجمل منها كلها صورة أسرة دارا أمام الإسكندر (لندن) وهى تمثل ملكة مكتوبة ، وأميرة حسناء ، راکعة أمام قدمى الفاتح الوسم الكريم .

وقد سبق القول إن باولو بدأ حياته فى البندقية بالتصوير فى قصر الدوق ، ونقول الآن إنه ختمه فى هذا القصر نفسه بصور جدارية عظيمة خليقة بأن تستثير شعور كل روح وطنية فى تلك المدينة . ذلك أن زخرفة داخل القصر بعد الحرائق التى شبت فيه فى عامى ١٥٧٤ و ١٥٧٧ عهد أكثرها إلى تينتورتو وفيرونيزى ، وطلب إليهما أن يكون موضوع الزخرفة هو البندقية نفسها ،

(*) علامات تشبه الجراح ظهرت على جسم المسيح المصلوب يعتقد بعض الناس أنها ظهرت من تلقاء نفسها على أجسام بعض الأشخاص أمثال فرانسس . (المترجم)



(الصورة رقم ١٤) المربع وثينوس من عمل پاولو فيرونيزي
في المتحف الفني بنيويورك . انظر ص ٢٧٩



«التي لم ترهبها الحرائق والحروب ؛ ولا الأتراك والبرتغاليون ؛ وقد رسم
 ياولو ومساعدوه في قاعة الاجتماع Sala del Collegio على السقف المحفور
 المذهب إحدى عشرة صورة رمزية غاية في الرشاقة — للوداعة وتحملها ؛ ؛
 والجلد ينظر من خلال نسيج عنكبوت من صنعه . . . والبندقية في صورة
 ملكة مرتدية فرو القاقوم الثمين ، وأسد القديس مرقس راقداً في هدوء عند
 قدميها يتلقى التكريم من العدالة والسلام . وفي إطار بيضى الشكل عظيم الشأن
 في سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglio رسم صورة
 انتصار البندقية مثل فيها المدينة العظيمة التي لا تضارعها مدينة سواها بإلهة
 متربعة على عرشها بين الأرباب الوثنيين ، تتلقى تاج المجد بهبط عليها من
 السماء ؛ وعند قدميها كبار أعيان المدينة وكرائم سيداتها ، وبعض المغاربة
 يؤدون الجزية ؛ ومن تحت هؤلاء كلهم محاربون يقفزون استعداداً للدفاع
 عنها ، وخدم يمسكون بكلاب الصيد من مقودها . تلك أعظم صورة
 صورها فيرونيزي .

واختير في عام ١٥٨٦ لينشئ بذل مظلمات جوارينتو Guariento الحائلة
 اللون صورة تنوير العذراء في قاعة المجلس الكبير نفسها . وقدم الرسم
 التمهيدى وقبل ، وبينما هو يستعد لرسم الصورة على القماش إذ انتابته الحمى ؛
 وروعت البندقية حين ترامى إليها النبال بأن مصور مجدها الذي لا يزال في عنفوان
 الشباب توفي في أبريل من عام ١٥٨٨ . وطلب آباء كنيسة سان سباستيانو
 أن تدفق جثته في كنيستهم ، وفعلاً دفن ياولو في هذه الكنيسة أسفل الصور
 التي جعلت منها موطناً لفنه الديني .

ولقد قلب الدهر حكم معاصريه ووضع في المرتبة الثانية بعد معاصره
 القوي تنتورتو . ونحن إذا نظرنا إليه من حيث أصول الفن وجدناه يفوق
 تنتورتو ؛ فقد بلغ في التنفيذ ، والتأليف ، والتلوين أعلى درجة بلغها فن
 البندقية . ولنا نجد صورته المزدهجة مضطربة مهوشة ، بل نرى حوادثه ومناظره

واضحة ، وخلفيات صورة وضاءة ساطعة . على حين يبدو تنورتو أمين
الظلمة إذا وضع إلى جانب هذا العابد للضوء . كذلك كان فيرونيزى أعظم
مصور زخرفى فى النهضة الإيطالية ، وكان على استعداد دائم لأن يبتكر
بدعة سارية أو مدهشة فى اللون والشكل كصورة الرجل الذى يخرج فجأة
من وراء ستار نصف مزاح ، مخترقاً مدخل قديماً ، والى نشاهدتها فى بيت ماتشر
الريفى . ولكنه كان ينهمك مسروراً فى تصوير السطوح الموثلفة إلى حد
يحول بينه وبين إدراك الدقائق الصغيرة ، والمتناقضات المفجعة ، والتناسق
العميق وهى الخصائص التى بدونها لا يكون التصوير العظيم عظيماً . لقد كان
ضعيف النظر لا يرى كل شىء ، وكان حريصاً فى فنه على أن يصور كل
ما يراه ، وأكثر مما كان يتخيله مجرد تخيل - كصورة الأتراك يشاهدون
تعميد المسيح ، والنيوتون فى بيت لاوى ، والبنادقة عند إرموس ، والكلاب
فى كل مكان . وما من شك فى أنه كان يحب الكلاب ، وإلا لما صور كل
هذا العدد الكبير منها . وكان يرغب فى تصوير أكثر نواحي الحياة بهجة
ولألاء ، وحقق رغبته إلى حد لا يضارعه فيه غيره . وقد صور البندقية
فى رونق شمسها الغاربة ومنتعة الحياة الآخذة فى الزوال . ولسنا نجد فى عالمه
الذى مثله فى صورته إلا نبلاء ذوى جمال ، وزوجات ذوات فخامة وعظمة ،
وأميرات ساحرات ، وفتيات شقراوات شهوانيات ، وإنا لنجد بين كل
صورتين من صورته واحدة تمثل احتفالاً أو عيداً .

وإن عالم الفن كله ليعرف كيف استدعى رجال محكمة التفتيش فيرونيزى
أمامهم (١٥٧٣) تنفيذاً لقرار صادر من مجلس ترنت . يحرم كل تعليم
خاطىء فى الفن ، وطلبوا إليه أن يفصح لهم عن سبب إدخاله كثيراً من
الأمور التى لا تمت قط بصلة إلى الحقيقة فى صورة الحفل المقام فى بيت لوى
(البندقية) ، كالببغاوات ، والأقزام ، والألمان ، والمهرجين ، وحاملى فتوس
الحرب ورد عليهم باولو فى جرأة قائلا إن « مهمتى هى زخرفة

الصورة بما أراه أنا صالحاً ، وإنها كانت كبيرة تتسع لشخص كثير . . . ،
وإذا ما وجدت في صورة ما مكاناً خالياً يحتاج إلى ما يملؤه ، وضعت فيه
من الأشكال ما يوحى به خيالي ، — ليتوازن به تأليف الصورة من جهة ،
وتستمتع به عين المشاهد استمتاعاً لا ريب فيه من جهة أخرى . وأمرت
بحكمة التفتيش أن يصلح الصورة على نفقته الخاصة ، ففعل (٣٧) . وكانت
هذه المحاكمة بداية انتقال فن البندقية من عهد النهضة إلى عهد حركة
الإصلاح المضادة .

ولم يكن لفرونيزي تلاميذ ممتازون ، ولكن تأثيره تخطى عدة أجيال
ليسهم في صياغة الفن في إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا . تيبولو Tiepolo
بجيوله الزخرفية بعد فترة بينهما خلت من هذا التأثير . ودرسه روبنز بعناية ،
وتعلم أسرار ألوانه ، وضعهم نساء فيرونيزي البدن ليوائم بينهن وبين ما يتسم
به الفلمنكيون من سعة ورحابة . كذلك وجد فيه نقولاس بوسن Nicolas
Poussin وكلود لورن Claude Lorrain من يرشدهما لاستخدام الزخارف
المعمارية ، في مناظرهم الطبيعية ، وسار شارل لبرون Charles Lebrun
على سنن فيرونيزي في تصميم الصور الجدارية الكبرى . وكان المصورون
الفرنسيون في القرن الثامن عشر يستمدون الوحي من فيرونيزي وكريچيو
في أناشيد الرعاة أيام الأعياد الريفية ، وأناشيد العشاق الأشراف الذين يلعبون
في أركاديا . ومن هنا نشأ واتو Watteau وفراجونار Fragonard ؛ ومن
هنا أيضاً نشأت العرايا ذوات اللون الوردى اللاتي صورهن بوشيه Boucher ،
والأطفال الظراف الذين تصورهم جريز Grueze ، والنساء الرشيقات اللاتي
أبدع تصويرهن . ولعل تيرنر Turner قد وجد هنا شيئاً من شروق الشمس
الذي أضاء به لندن .

وهكذا اختتم العصر الذهبي للبندقية ملكة البحر الأدياوى بما امتازت
به صور فيرونيز من توهج الألوان . وكان سبب هذا الختام أن الفن كان

عسيراً عليه أن يظل سائراً إلى أبعد مما سار في الاتجاه الذي تبعه من عهد
جيورجيو إلى عهد فيرونيزي . بعد أن وصل إلى حد الكمال في أصوله ،
وتسلق أعلى الدرج . ولهذا بدأ يهبط رويداً رويداً حتى جاء القرن الثامن عشر
فحدثت فيه نوبة أخيرة من الإبداع والفخامة قبل موت الجمهورية ضارع
فيها تيبولو Tiepolo فيرونيزي في الرسم الزخرفي ، وكان جلدوني Goldoni
هو أرسطوفانيز البندقية .

الفصل السادس

نظرة شاملة

إذا ما ألقينا نظرة على فن البندقية إبان مجده ، وحاولنا في حياء أن نقدر ما كان له من شأن في تراثنا الفني ، بحق لنا أن نقول على الفور إن فن فلورنس وفن رومة هما وحدهما اللذان يضارعانه في جودته ، وبهائه ، واتساع مجاله . ولسنا ننكر أن مصوري البندقية ، ومنهم تيشيان نفسه لم يتعمقوا كما تعمق الفنانون الفلورنسيون في أسرار مشاعر الناس ، وأسباب بأسهم ، ومآسهم ، وأنهم كثيراً ما أولعوا باللباس والجسد ولعاً حال بينهم وبين الوصول إلى الروح . ولقد كان يمكن على حق حين قال إن الدين الحق قد ذوى غصنه من أدب البندقية بعد بليبي^(٢٨) . ولم يكن البنادقة هم الملومين إذا ما أخفقت الحروب الصليبية ، وانتصر الإسلام وانتشر في الآفاق ، وانحط شأن البابوية أثناء إقامتها في أفنيون وفي أثناء الانقسام البابوي ، ثم استحالة البابوية إلى سلطة دنيوية في عهد سكستس الرابع واسكندر السادس ، ثم انفصال ألمانيا وإنجلترا آخر الأمر عن الكنيسة الرومانية ، وإذا ما أدى هذا كله إلى إضعاف إيمان الخلق حتى المؤمنين أنفسهم ، فلم يبق لكثير من النفوس القوية فلسفة خير من فلسفة الأكل والشرب والزواج ثم الزوال . غير أننا والحق يقال لم نجد غير البندقية مكاناً عاش فيه الفن المسيحي . والفن الوثني متألفين راضيين . فقد كانت الفرشاة التي صورت العذراء هي نفسها التي صورت بعدئذ فينوس ، ولم يشك من هذه أحد شكوى ذات بال . كذلك لم يكن هذا الفن فناً مخنثاً ولا فن ترف وراحة ، بل كان الفنانون ينهكون في العمل انهماكاً ، وكثيراً ما كان الذين يقوم هؤلاء الفنانون بتصويرهم رجالاً يخوضون المعارك ويحكمون

الدول ، وكانت النساء للآثى يصورونهن نساء يحكن أمثال هؤلاء الرجال .
وكان الفنانون البنادقة مولعين باللون ولما حال بينهم وبين أن يضارعوا
حذق الأساتذة الفلورنسيين ، ولكنهم كانوا رغم ذلك رسامين مجيدين .
وقد قال في هذا المعنى يوماً ما أحد الفرنسيين « إن الصيف ملوّن ، والشتاء
مصمم L'été c'est un coloriste l'hiver c'est un dessinateur (٣٩) »
فالأشجار العارية من الأوراق تكشف عن الخطوط الواضحة في هيكلها ،
ولكن هذه الخطوط تظل موجودة لا تزول تحت خضرة الربيع ، وسمرة
الصيف ، وذهب الخريف . وكذلك نشهد تحت مجد اللون في جيورجيوني ،
وتيشيان ، وتنتورتو خطوطاً ولكنها خطوط يمتصها اللون كما أن شكل
السمفونية التركيبى يخفيه انسيابها .

وكان فن البندقية وأدبها يتغنيان بمجدهما حتى في الوقت الذي
اضمحلت فيه الحياة الاقتصادية وتحطمت في حوض البحر المتوسط بعد أن
سيطر الأتراك على طرف منه ، وهجرته من الطرف الآخر أوربا التي
أخذت تبحث عن الذهب الأمريكى . ولعل الفنانين والشعراء كانوا على
حق . فلم تكن تقلبات التجارة أو الحرب بقادرة على أن تطفى جذوة
الذكرى التي يعتز بها ذلك القرن العجيب ١٤٨٠ — ١٥٨٠ — الذي أقام فيه
موشينيجو Mocenigo وپريولى Priuli ولورنداني Lorendani البندقية
بالإمبراطورية وأنجوها من الدمار ، والذي زينها فيه آل لباردى ، ولپوپاردى
بالتماثيل والأنصاب ، وتوج سانسوڤينو وپلاديو مياها بالكنائس والقصور ،
ورفع فيه بليني ، وچيورجيوني ، وتيشيان ، وتنتورتو ، وفرونيزى ،
مقامها فجعلوها زعيمة الفن في إيطاليا ، والذي غنى فيه بمبو أغاني منزهة
عن العيوب ، وأخرج فيه مانوتيوس Manutius لكل من يعنىهم الأدب ،
تراث اليونان ورومة الأدب ، وجلس فيه الشيطان المنكل بالأمراء ، ذلك
الشخص الذي لا يعوض ، ولا يقهر ، جلس على عرش القناة الكبرى بحكم
للعالم ويعتصره .

الباب الثالث والعشرون

انحطاط عهد النهضة

١٥٣٤ - ١٥٧٦

الفصل الأول

اضمحلال إيطاليا

لم تكن الحروب التي اندلع لها لخير لغزو إيطاليا قد نجت ناراها بعد ولكنها
قد غرت وجه إيطاليا وطبيعة أهلها ؛ فالأقاليم الشمالية قد خربت تخريباً
سجّل مبعوثي هنري الثامن يشيرون عليه بأن يتركها لشارل عقاباً له على
ما فعل بها ؛ ونهب جنوى ، وفرضت على ميلان ضرائب فادحة قاتلة ،
وأخضع جلف كمبريه مدينة البندقية ، كما أضعفها وأذلها فتج الطرق التجارية
الحديدية ، وقاست رومة ، وپراتو ، وپافيا الأمرين من جراء السلب والنهب ؛
وانتشرت المجاعة في فلورنس واستنزفت مواردها المالية ، وكادت يئز تدمير
نفسها في كفاحها لنيل جريتها ، وأما سينا فقد أنهكتها الثورات ، كما أفقرت
خيارا نفسها في نزاعها الطويل مع البابوات ، وأنت بما يغض من كرامتها
بتحريضها على الغزو المستهين لرومة . وحل بمملكة نابلي ما حل بلمباردي
من سلب ونهب وتخريب على أيدي الجيوش الأجنبية ، ونوى غصنها الرطب
زمناً طويلاً كانت فيه خاضعة للأسر الحاكمة الأجنبية ؛ وصقلية ، وما أدراك
ما صقلية ؟ لقد أضحت معشياً لقطاع الطرق ، وكانت السلوى الوحيدة

لإيطاليا هي أن خضوعها لشارل الخامس قد أنجأها في أغاب الظن من اجتياح الأتراك لها وانتهابهم إياها .

وانتقلت السيطرة على إيطاليا إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بولونيا (١٥٣٠) عدا أمرين اثنين : أولهما أن البندقية الحذرة احتفظت باستقلالها ، وثانيهما أن البابوية ، بعد أن حصدت من سلطانها ، قد أبدت سيادتها على ولايات الكنيسة . فأما نابلي ، وصقلية ، وسردينيا ، وميلان ، فقد أصبحت تابعة لآسبانيا يحكمها ولاية من قبلها . وأما ساغوى ومانتوا ، وفيرارا وأربينو وهي التي كانت عادة تؤيد شارل أو تغضى عن فعله فقد سمح لها بأن تحتفظ بأدواقها المحليين على شريطة أن يسلكوا مسلكاً حسناً في علاقاتهم بالإمبراطور . واحتفظت جنوى وسينا بشكليهما الجمهوري ، واكنهما خضعتا للحماية الإسبانية . وأرغمت فلورنس على قبول فرع آخر من آل ميديتشي حكاما لها ، استبقوا لأنهم تعاونوا مع أسبانيا .

وكان فوز شارل مرحلة أخرى من مراحل انتصار الدولة الحديثة على الكنيسة ، لأن ما بدأه فليپ الرابع عام ١٣٠٣ في فرنسا ، قد أتمه شارل ولوتر في ألمانيا ، وفرانسيس الأول في فرنسا ، وهنرى الثامن في إنجلترا ، وقد حدث هذا كله في عهد بابوية كلمنت . ذلك أن دول أوربا الشمالية لم تكتشف ضعف إيطاليا وحسب ، بل إنها فضلا عن ذلك قد زال عنها خوفها من البابوية ، فقد أضعف إذلال كلمنت ما كان يشعر به الناس فيما وراء الألب من احترام للبابوات ، وهياً عقولهم للخروج على سلطان الكنيسة الكاثوليكية .

وكان سلطان الأسبان على إيطاليا نعمة عليها وبركة من بعض الوجوه . فقد قضى هذا السلطان إلى حين على الحروب التي كانت تقوم بين الدويلات الإيطالية بعضها وبعض . كما قضى من عام ١٥٥٩ حتى عام ١٧٩٦ على المعارك التي كانت تدور رحاها بين الدول الأجنبية فوق الأراضي الإيطالية ،

وأتاح للأهلين نظاماً سياسياً متصلاً ببعض الاتصال ، وهذا من حدة الإنفرادية العارمة التي أوجدت النهضة ثم قضت عليها آخر الأمر . فأما الذين كانوا يرجون النظام ويسعون إليه فقد ارتضوا هذا الخضوع الذي أنجاهم من الفوضى ، وأما الذين كانوا يعتزون بالحرية فقد حزنوا لما أصابها بهذا السلطان . ولكن أكلاف السلم مع الخضوع للأجنبي وما فرضته على الإيطاليين من عقوبات ، سرعان ما أضرت باقتصاد إيطاليا وحطمت روحها المعنوية ، ذلك أن الضرائب الفادحة التي فرضها الولاة للاحتفاظ بمظاهر الأبهة لأنفسهم ولأداء رواتب الجند ونفقاتهم ، وصرامة قوانين أولئك الولاة ، واحتكار الدولة للحبوب وغيرها من ضروريات الحياة ، كل هذا أضرب بالصناعة والتجارة ، يضاف إلى هذا أن الأمراء الإيطاليين ساروا هم أيضاً على سنة الولاة الأجانب ففرضوا أفدح الضرائب وأشدّها فتكاً بالنشاط الاقتصادي الذي كان يمدّهم بحاجتهم من المال ، وذلك لكيلا لا يكونوا أقل من الولاة خيلاء وترفاً . واضمحلت شئون النقل البحري إلى حد لم يعد في وسع السفن الإيطالية الكبيرة أن تحمي نفسها من قراصنة البربر الذين كانوا يهاجمون السفن والسواحل ، ويأسرون الإيطاليين ويبيعونهم عبيداً لسراة المسلمين ، ولم يكن الجنود الأجانب الذين يقيمون في بيوت الإيطاليين على الرغم من سكانها ، أقل إضراراً بالإيطاليين من القراصنة أنفسهم ؛ فقد كان هؤلاء يجهرون باحتقارهم لهذا الشعب الذي لم يكن له من قبل نظير وحضارته التي لم تبلغ شأوها حضارة أخرى سابقة ؛ وكان هؤلاء يحظّ وافر فيما اتسم به ذلك العصر من انحلال في الأخلاق الجنسية .

وحلت بإيطاليا كارثة أخرى ، كانت أشد وقعاً عليها من أضرار الحرب . والخضوع إلى الأسبان . تلك هي أن الطواف برأس الرجاء الصالح (١٤٨٨) ، وافتتاح الطريق المائي الكامل إلى الهند (١٤٩٨) ، قد أنقصا نفقات النقل بين الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي وبلاد آسية الوسطى .

والشرق الأقصى عنها في الطريق المتعب فوق جبال الألب إلى جنوى أو البندقية ، ومن ثم إلى الإسكندرية ، ثم بطريق البر إلى البحر الأحمر ، ثم بالبحر مرة أخرى إلى الهند . يضاف إلى هذا أن سيطرة الأتراك على هذا الطريق الثاني قد جعلته غير مأمون ، ومعرضاً لأن تفرض على من يتبعونه الضرائب والرسوم الفادحة ، كما كان معرضاً لهجمات القراصنة ، وللحروب ، وينطبق هذا بعينه وبدرجة أكبر على الطريق المار بالقسطنطينية والبحر الأسود . وكانت نتيجة هذا التحول أن اضمحلت تجارة البندقية وجنوى وحال فلورنس المالية بعد عام ١٤٩٨ ، ولم يحل عام ١٥٠٣ حتى كان البرتغاليون يبتاعون من الفلفل الهند قدرأ لم يجد معه التجار البنادقة والمصريون من هذه السلعة ما يستطيعون إصداره (١) . وكانت نتيجة ذلك أن صعد ثمن الفلفل بمقدار ثلث ثمنه الأصلي في سوق البندقية التجارية ، على حين أنه كان يباع في لشبونة بنصف الثمن الذي يطلبه التجار في البندقية ! ولهذا شرع التجار الألمان يهجرون متاجرهم على ضفة القناة الكبرى ، وينقلون مشترياتهم إلى ألبرتغال . وكاد الحكام البنادقة يحلون هذه المشكلة في عام ١٥٠٤ حين عرضوا على حكومة الممالك القائمة وقتئذ في مصر الاشتراك معها في مشروع يهدف إلى إعادة طريق القناة القديم بين دال النيل والبحر الأحمر ، ولكن استيلاء الأتراك على مصر في عام ١٥١٧ قضى على هذا المشروع .

وفي ذلك العام نفسه علق لوثر مقالاته الثورية على باب كنيسة وتبرج ، وكان الإصلاح الديني سبباً ونتيجة من أسباب اضمحلال إيطاليا الاقتصادية ونتائجها . أما أنه سبب لهذا الاضمحلال ف يرجع إلى قلة وفود الحجاج ونقص إيراد الكنيسة من الأعم الشمانية إلى رومة ، وأما أنه نتيجة فلأنه استبدل بطريق البحر المتوسط ومصر إلى الهند الطريق المائي كله ، ونشأت التجارة الأوربية مع أمريكا التي أغنت بلاد المحيط الأطلنطي وكانت من أسباب فقر إيطاليا . فقد أخذت التجارة الألمانية يزاد انتقالها في نهر الرين إلى مصبه في بحر الشمال ، ويقل

تنقلها فوق الجبال إلى إيطاليا ، وأضحى ألمانيا مستقلة تجارياً عن إيطاليا ، وهكذا كان اتجاه التجارة نحو الشمال والقوة الجاذبة نحو الشمال سبباً في انتزاع ألمانيا من المحيط التجاري والديني الإيطالي ، واكتسابها القوة والإرادة اللتين أمكنها بهما أن تقف على قدميها بمفردها .

وكان لكشف أمريكا آثار في إيطاليا أطول مدى مما كان لطريق الهند الحديد . فقد أخذت أُمم البحر المتوسط تضمحل بعد هذا الكشف وترك راکدة في سیر الרכب الآدمي وانتقال التجارة ؛ وبرزت أُمم المحيط الأطلنطي إلى مكان الصدارة ، بعد أن اغتنت من تجارة أمريكا وذهبها . وأحدث هذا انقلاباً في الطرق التجارية أعظم من أي انقلاب آخر سجله التاريخ منذ فتحت بلاد اليونان القديمة لسفنها طريق البحر الأسود إلى أواسط آسية بعد انتصارها على طروادة . ولم يضارع هذا الانقلاب ويفقه فيما بعد إلا ما حدث من انقلاب في الطرق التجارية على أثر استخدام الطائرات في النصف الثاني من القرن الحالي .

وكان العامل الأخير في اضحلال النهضة هو حركة الإصلاح المضادة . فقد أضافت هذه الحركة إلى اضطراب أحوال إيطاليا السياسية وانحلالها الخلقي ، وإلى خضوعها لسلطان الأمم الأجنبية وما حل بها من الخراب على أيدي هذه الأمم ، وإلى تحول التجارة منها إلى أُمم المحيط الأطلنطي ، وإلى ما خسرت من الموارد بسبب حركة الإصلاح الديني ، نقول إن هذه الحركة أضافت إلى هذا كله تبديلاً قوياً . ولكنه تبدل طبيعي في أحوال الكنيسة وفي مسلكها . ذلك أن حركة الإصلاح الديني الألمانية ، وانفصال إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية ، وزعامة أسبانيا في القارة الأوروبية ، قد قضت على « اتفاق السادة المهبدين » الذي لم تصنع نصوصه أوتدون ، والذي لم يدركه فيما نظن العاملون به ، وهو اتفاق كانت الكنيسة بمقتضاه ، في أثناء ثرائها واطمئنانها على سلطانها ، تسمح بفسط كبير من حرية التفكير للطبقات

المفكرة ، على شريطة ألا تحاول هذه الطبقات إضعاف إيمان الناس أو خلق الاضطراب فيه ، لأن هذا الإيمان هو الخيال الذى لا غنى عنه لحياتهم ، وهو مصدر نظامها وسلوتها . فلما شرع الناس أنفسهم يذبذبون عقائد الكنيسة وسلطانها عليهم ، ولما كسب الإصلاح الدينى أنصاراً له معتنقين مبادئه فى إيطاليا نفسها ، أوشك صرح الكاثوليكية كله أن يتصدع من أساسه ؛ وأجابت الكنيسة على هذا — وكانت ترى نفسها دولة ، فسلكت كما تسلك كل دولة يتعرض كيانها للخطر ، فبدلت خططها من التسامح والحرية إلى تحفظ الخائف المرتاع وفرضت قيوداً شديدة على التفكير ، والبحث ، والنشر ، والقول . وكانت السيطرة الأسبانية تفرض الآراء الدينية والسياسية مجتمعة ؛ وكان لها نصيب فى تحويل كاثوليكية عصر النهضة اللينة إلى تزمّت الكنيسة الصارم الذى التزمته بعد مجلس ترنت (١٥٤٥ — ١٥٦٣) . وجرى البابوات للمدين وجاءوا بعد كلمنت السابع على السنة التى سار عليها الأسبان وهى توحيد الكنيسة والدولة واستخدام القوة الناشئة من هذا التوحيد فى السيطرة الصارمة على الحياة الدينية والعقلية .

وكما أن رجلاً أسبانياً هو الذى كان سبباً فى إنشاء محكمة التفتيش حين هددت ثورة الألبجنسيين الدينية فى القرن السادس عشر سلطان الكنيسة فى جنوبي فرنسا ، وكان من نتائج هذا التهديد أن قامت طوائف دينية جديدة لخدمة الكنيسة وتجديد حماسة المسيحيين الدينية ؛ حدث أيضاً فى القرن السادس عشر أن جاءت إلى إيطاليا صرامة محكمة التفتيش الأسبانية ، وكان رجل أسباني هو الذى أنشأ نظام اليسوعيين — الجزويت (١٥٣٤) — تلك الجمعية العجيبة ، التى لم تكتف بقبول الإيمان التقليديّة القديمة ، إيمان الفقر ، والعفة ، والطاعة ، بل تجاوزت ذلك إلى الخروج إلى العالم لتنشر الدين الصحيح ، ولتكافح فى كل مكان من العالم المسيحى الإلحاد أو الخروج على الدين . وكانت حدة الجدل الدينى فى عهد الإصلاح ، وكان تزمّت المبادئ الكلفنية

وعدم تسامحها ، واضطهاد المذهبين المتعادين أحدهما للآخر في إنجلترا ، كان هذا كله مشجعاً على وجود تعسف مقابل له في إيطاليا (٢) ، وحلت مبادئ إجناتشوس ليولا Ignatius Loyala وجهاده الديني محل مبادئ إرزمس الحرة المتحضرة ؛ ذلك أن الحرية ترف لا يكون إلا مع الأمن والسلام .

واتسع نطاق الرقابة على المطبوعات التي بدأت أيام البابا سكستس الرابع فوضعت في عام ١٥٥٩ قوائم بالكتب المحرمة لخطرها على الدين أو الأخلاق ، وأنشئ مجلس لوضع قوائم التحريم في عام ١٥٧١ . ويسر استعمال الطباعة أعمال الرقابة ، ذلك أن مراقبة الطابعين العموميين كانت أيسر من مراقبة الأفراد النساخين . وحدث في البندقية التي كانت تكرم وفادة اللاجئين المفكرين والسياسيين أن شعرت الدولة نفسها بما في الانقسام الديني من ضرر على الوحدة الاجتماعية والنظام ، فقرضت (١٥٢٧) رقابة على المطبوعات ، وانضمت إلى الكنيسة في منع نشر المطبوعات البروتستنتية . وقاوم الإيطاليون هذه الخطط في أماكن متفرقة ؛ وبلغ من حقنهم على واضعها أن الجماهير من أهل رومة ألقت بتمثال البابا بولس الرابع بعد موته (١٥٥٩) في نهر التيبر ، وأحرقت المقر الرئيسي لمحكمة التفتيش ، وظلت النار مشتعلة فيه حتى دمرته عن آخره (٤) . لكن هذه المقاومة لم تكن منظمة بل كانت مفردة منقطعة ، وغير ذات أثر فعال ، وبذلك انتصر الطغيان ، واستحوذت على روح الإيطاليين التي كانت من قبل مرحة ، مبهجة ، متدفقة ، نزعة من الاكتئاب ، والتشاؤم ، والاستسلام ، حتى لقد صارت عادة لبس الثياب السود - القلنسوة السوداء ، والصدارة السوداء ، والجورب الأسود ، والحداء الأسود - صارت هذه العادة طراز إيطاليا التي كانت في سالف الأيام مولعة بالألوان الزاهية ، كأن الشعب قد اتشح بالسواد حداداً على المجد الذي زال والحرية التي ماتت (٥) .

وصحب هذا الارتكاس الذهني بعض التقدم الخلقى . فقد تحسن سلوك

رجال الدين بعد أن بعثت فيهم المذاهب المتنافسة روح الحمية ، فقام البابواب ومجلس ترنت بإصلاح كثير من مساوئ الكنيسة . وليس من السهل أن نقول هل حدث تحسين مثل هذا في أخلاق غير رجال الدين ؛ ويبدو أن من السهل جمع بعض الشواهد الدالة على الشذوذ الجنسي ، وعلى وجود أبناء غير شرعيين ، وعلى مضاجعة المحارم ، وعلى ظهور الآداب البذيئة ، والفساد السياسى ، والسرقه ، والجرائم الوحشية فى إيطاليا بين عامى ١٥٣٤ - ٧٦ كما كانت تحدث فيها من قبل^(٦) . وتدل سيرة بينفينوتو تشاليني Beyenuto Cellini الذاتية على أن الفسق ، والزنا ، والسطو ، والاغتيال كانت تمتزج بعقائد ذلك العصر . وبقي القانون الجنائى على ما كان من قسوة فى سابق العهد : فالتعذيب كثيراً ما كان من الوسائل التى يلجأ إليها فى استخلاص الشهادة من الشهود ضد البريئين ، كما كان يلجأ إليه لانتزاع الاعتراف من المتهمين ، وكان لحم القتاتلين لا يزال ينتزع بالكلابات المحمية . الحمراء قبل أن يشنقوا^(٧) . وكانت عودة الاسترقاق بوصفه نظاماً من النظم الاقتصادية الكبرى من أعمال ذلك العهد ، وشاهد ذلك أن البابا بولس الثالث حين أعلن الحرب على إنجلترا فى عام ١٥٣٥ قرر فى هذا الإعلان أن أى جندى بريطانى يوشرف فى هذه الحرب يصح أن يتخذ رقيقاً بحكم القانون^(٨) ، ونشأت حوالى عام ١٥٥٠ عادة استخدام العبيد والمذنبين لبحر سفن التجارة والحرب .

على أن بابوات ذلك العهد كانوا مع ذلك رجالاً ذوى أخلاق عالية نسبياً فى حياتهم الخاصة . وكان أعظمهم جميعاً بولس الثالث - وكان بولس هذا هو بعينه ألسندرو فارينيزى الذى نال منصب الكردنال لما كان لشعر أخته الذهبى من أثر فى نفس الإسكندر السادس . ولما ننكر أن بولس هذا كان له ابنان غير شرعيين^(٩) ، ولكن هذه كانت عادة مقبولة فى أيام شبابه ، وكان فى وسع جوتشياردينى على الرغم منها أن يصفه بأن « رجل يزينه العلم والأخلاق الفاضلة المرأة من كل عيب »^(١٠) . وكان ميمونيوس

ليتوس Pomponius Laetus قد نشأه على أن يكون من الكتاب الإنسانيين ، ومن أجل ذلك كانت رسائله تضارع رسائل إرزمس في ظرف لغتها اللاتينية الفصحى ، وكان محدثاً مهذباً يحيط نفسه برجال قادرين ممتازين . على أن السبب في اختياره للكرسي البابوي لم يكن لمواهبه وفضائله بقدر ما كان لكبر سنه وضعفه ؛ فقد كان في سن السادسة والستين ، وكان في وسع الكرادلة أن يثقوا بأنه سيموت بعد قليل ، ويتيح لهم فرصة أخرى للمساومة ونيل المناصب الكنسية التي تدر عليهم المال الوفير (١١) ، ولكنه ظل يقاوم رغباتهم خمسة عشر عاماً كاملاً .

أما من حيث رومة ، فقد كانت مدة توليته البابوية من أسعد الأيام في تاريخها . ففي أيامه كلف لاتينو مانتى Latino Manetto المشرف على المباني في أيامه أن يحفف الأرض ، ويسويها ، ويوسع الشوارع ويشق كثيراً من الميادين العامة الجديدة ، وأن يستبدل بالأحياء القديمة مباني فخمة جميلة ، وحسن بهذه الطريقة أحد الشوارع الكبرى — المعروف باسم شارع بولس Paul's Codso — حتى أصبح يضارع شامب إليزيه Champs Elysées في باريس . وكان أعظم أعمال بولس الدبلوماسية أنه أقنع شارل الخامس وفرانسيس الأول بأنه يعقدا هدنة تدوم عشر سنين (١٥٣٨) . وكاد يصل إلى غرض عظيم نبيل — هو التوفيق بين الكنيسة وبين البروتستانتية الألمانية — لولا أن جهوده قد جاءت بعد الأوان . وقد أوتى من الشجاعة — التي يعوزها كلمنت السابع — ما جعله يدعو إلى عقد مجلس عام للكنيسة . ونشر مجلس ترنت المنعقد تحت رياسته بموافقة العقيدة الدينية الصحيحة ، وأصلح كثيراً من مساوئ رجال الدين ، وأعاد النظام والأخلاق الفاضلة بين القسيسين ، واشترك مع اليسوعيين في منع الأمم اللاتينية من الانشقاق على الكنيسة الرومانية .

وكانت نقطة الضعف المفجعة في بولس هي تحيزه لأقاربه ، فقد وهب

كميرينو Comerino لحفيده أتاڤيو ، وحبا ابنه پيرلويجي Pierluigi بپياتشيندسا
، وپارما . فأما پيرلويجي فقد اغتاله الأهلون الحانقون ، وأما أتاڤيو فقد انضم
إلى مؤامرة دبرت ضد جده : ومل بولس بعد ذلك الحياة ، ومات بعد
عامين من ذلك الوقت بسكتة قلبية في سن الثالثة والثمانين (١٥٤٩) :
، وحزن الرومان على موته كما لم يحزنوا على موت بابا آخر منذ أيام پيوس
الثاني الذي جلس على كرسي البابوية قبل مائة عام من ذلك الوقت :

الفصل الثاني

العلم والفلسفة

ظلت إيطاليا تتقدم في العلوم غير ذات الأثر في اللاهوت تقدماً معتدلاً إلى الحد الذي يمكن أن تتقدمه أمة يغلب عليها الميل إلى الفن والأدب ، وتنفرد من النزعة العقلية التي قطعت الصلة بالضمير . وتزدان تلك الفترة القصيرة بأسماء فارولي Varoli ، ويوستاشيو Eustachio ، وفالويو Fallopio الذين برزوا في علم التشريح الحديث . وكشف نقولو تارتاجليا Niccolo Tartaglia طريقة حل معادلات الدرجة الثالثة ؛ وأسر بطريقته إلى جيروم كاردان Jerome Cardan (جيرومينو كاردانو Geromino Cardano) الذي نشرها على أنها طريقته هو (١٥٤٥) . وتحداه تارتاجليا أن يدخل معه في مباراة جبرية ، يعرض فيها كلاهما إحدى وثلاثين مسألة يحلها الآخر . وأخفق التلميذ ونجح تارتاجليا ، ولكن كاردان كتب سيرة لنفسه عجيبة . فأتتة خلعت اسمه على مر الأيام .

وتبدأ السيرة بالصراحة العجيبة التي تسرى فيها من أولها إلى آخرها :

ولدت في الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠١ مع أن أدوية لإجهاض أمي قد جربت ولم تفجح كما سمعت ومع أن المشتري كان في الأوج والزهراء كانت تسيطر على طالغي ، فإني لم أصب بعاهة تمنعني من العمل الدائم ، إلا في أعضائي التناسلية ، ولهذا فإني ظلت من سن الحادية والعشرين إلى الحادية والثلاثين عاجزاً عن مضاجعة النساء ، وكثيراً ما رثيت لمصيري . وحسدت كل من عداى علي حسن حظه ؟!

ولم تكن هذه عاهته الوحيدة ؛ فقد كان يتهته في كلامه ، وظل طول

حياته يشكو بحة الصوت والرشح في الحلق ، وكثيراً ما كان يصاب بعسر الهضم ، وخفقان القلب ، والفتق ، والمغص ، وزحار البطن ، والبواسير ، والنقرس ، والحكة في الجلد ، وسرطان في حلمة الثدي اليسرى ، وأصيب بالطاعون ، والحمى الثلاثية ، وكانت تنتابه « فترة سنوية من الأرق تدوم نحو ثمانين يوماً » . « وفي عام ١٥٣٦ أصابني انطلاق البول بدرجة مدهشة كبيرة ، ومع أني قد مضى على نحو أربعين عاماً أقاسى شر هذا الداء ، فأفرز من البول ما بين ستين ومائة أوقية في اليوم ، فلمني أعيش سليماً فيما عدا ذلك » (١٣) .

ولاذ كان قد وهب كل هذه التعجبات الطبية ، فقد صار طبيباً ناجحاً ، ذاوى نفسه من كل داء تقريباً إلا داء الغرور ، واشتهر بأنه أكثر من يسعى إليه من الأطباء في إيطاليا ، وكان يطلب من بلاد بعيدة مثل اسكتلندة ليداوى رئيس أساقفة عجز عن مداواته نطس الأطباء ، فشفاه هو من مرضه . وألقى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره محاضرات عامة في العلوم الرياضية بميلان ، كما ألقى محاضرات في الطب وهو في سن الخامسة والثلاثين . وفي عام ١٥٤٥ نشر كتاباً يدعى *الفنونه الكبرى* Ars Magna استعار عنوانه من ريموند للى Raymond Lully ، أضاف فيه معلومات قيمة إلى علم الجبر الذى لا يزال يتحدث عن « قاعدة كاردان » لحل المعادلات التكعيبية . ويبدو أنه هو أول من قال إن معادلات الدرجة الثانية قد تكون لها جذور سالبة . وقد بحث هو مع تارتاجليا وقبل ديكارت بزمان طويل في إمكان استخدام الجبر في الهندسة (١٤) . وبحث في كتابه De Subtilitate Rerum (١٥٥١) في موضوع التصوير بالألوان ، ولخص في De Rerum Varietate (١٥٥٧) المعلومات الطبيعية المعروفة في أيامه ، وهو مدين في هذين الكتابين بالشيء الكثير لمخطوطات ليوناردو التى لم تكن قد نشرت وقتئذ (١٥) . وقد ألف وسط أمراضه ، وأسفاره ، ومتاعبه الشديدة المرهقة ٢٣٠ كتاباً ، طبع منها

حتى الآن ١٣٨ كتاباً ، وقد أوتي من الشجاعة ما يكفي لإحراق بعضها ،
وعلم الطب في جامعتي پافيا وبولونيا ، ولكنه كان يخلط علمه بالمعلومات
السحرية الخفية ، وبالزهو الصارخ الذي أفقده احترام زملائه . وقد خصص
مجلداً كبيراً لبحث العلاقات القائمة بين الكواكب ووجه الإنسان ؛ وبلغ
من الخيرة والسخف في تفسير الأحلام ما بلغه فرويد Freud . كما بلغ من
قوة الإيمان بالملائكة الحافظين ما بلغه الراهب أنجيلكو . ولكنه مع ذلك
ذكر أسماء عشرة رجال قال إنهم أصحاب أكبر العقول في التاريخ ولم تكن
كثرتهم الغالبة من المسيحيين : أرخميدس ، وأرسطو ، وإقليدس ،
وأبولونيوس البرجاوى ، وارثيتاس التارنتومى Archytas of Tarentum
والخوارزمي ، والكندى ، وابن جبر ، ودنراسكوتس ، ورتشرداسوينزهد
Richard Swineshead — وكلهم من العلماء ما عدا دنراسكوتس .
وخلق كاردان لنفسه مائة عدو ، وجلب على نفسه ألف تهمة مزورة ،
وكان تعيساً غير موفق في زواجه ، وحاول عبثاً أن ينقذ ابنه الأكبر من
الإعدام لأنه سم زوجته خائنة . ثم انتقل إلى رومة في عام ١٥٧٠ ، واعتقل
فيها إما لأنه مدين ، وإما لأنه ملحد ، أو لكلتا التهمتين معاً ، ولكن جريجورى
الثالث عشر أطلق سراحه ورتب له معاشاً سنوياً .

كتب وهو في سن الرابعة والسبعين كتاب سرهياي De vita propria
liber — وهو إحدى ثلاث سير ذاتية ألقت في تلك الفترة من الزمن في
إيطاليا . وقد حلل نفسه في هذا الكتاب بثررة وأمانة قريبتين كل القرب
من ثرثرة منتاني وأمانته — حلل جسمه ، وعقله وخلقه ، وعاداته ، وميوله ،
ما يحب وما يكره ، فضائله ، وردائله ، وأسباب شرفه وعدم شرفه ،
وخطأه ، ونبوءاته ، وأمراضه ، وتقلباته ، وأحلامه . هو يتهم نفسه ،
بالعناد ، والحقد ، وعدم الألفة مع بني جنسه ، والتسرع في أحكامه ،
والخصام ، والغش في لعب الميسر ، والميل إلى الانتقام ، ويذكر : « تبدل

الحياة الفاجرة التي كنت أحيها في العام الذي كنت فيه مديراً لجامعة
پدوا» (١٦) . ويذكر قوائم : « بالأشياء التي أشعر أنني أخفقت فيها » وخاصة
حسن تربية أبنائه ، ولكنه أيضاً يورد أسماء ثلاثة وسبعين كتاباً ذكر فيها
اسمه ، ويحدثنا عما كان له من كثير من ضروب العلاج الناجحة والتنبؤات
الصادقة ، وعن مقدرته الفائقة في المناقشات . وهو يأسف لما أصابه من
ضروب الاضطهاد ، وللأخطار « التي أحاطت بي بسبب أرائي التي لا تتفق
مع السنن المألوفة » (١٧) ، ويسأل نفسه ، « أي حيوان أراه أشد غدراً ،
ونخسة ، وخبداً من الإنسان ؟ » ثم لا يجيب عن هذا السؤال ، ولكنه
يسجل أشياء كثيرة توفر له السعادة ، منها التغير ، والطعام ، والشراب ،
وركوب البحر ، والموسيقى ، ومناظر الدمى المتحركة ، والققط ، والعفة ،
والنوم ، ويقول : « إذا نظرت إلى جميع الأغراض التي قد يبلغها الإنسان ،
نحيل إلى أن أعظم ما يسبب لي السرور منها هو الاعتراف بالحقيقة » (١٨) .
وكان مطلبه المحبب إليه هو دراسة الطب ، الذي ابتكر فيه كثيراً من أنواع
العلاج المدهشة .

ذلك أن الطب كان هو العالم الوحيد الذي تقدم تقدماً ملحوظاً في هذه الفترة
من فترات الانحلال في إيطاليا . وقد قضى أعظم علماء ذلك العصر كثيراً
من السنين في إيطاليا يتعلمون ويعلمون — كوبرنيك من ١٤٩٦ إلى ١٥٠٦ ،
وفيساليوس Vesalius من ١٥٣٧ إلى ١٥٤٦ ، ولكننا ليس من حقنا أن نختلسهما
من بولندة وفلاندرز لنزيد بذلك من تكريم إيطاليا . وقد شرح ريبالدو كولبو
Realdo Colombo الذي خلف فيساليوس في منصب أستاذ التشريح في
جامعة پدوا دروة الدم في الرئتين في كتابه ده ره أناتومكا Dere Anatomica
(في التشريح) ، وأكبر الظن أنه لم يكن يعلم أن سيفيرتوس Severtus
قد وضع هذه النظرية نفسها قبله بأثنتي عشرة سنة . وكان كولبو يشرح
بحث الموتى من الآدميين في پدوا ورومة ، دون معارضة من رجال الدين

كما يلوج^(١٩) . ويبدو كذلك أنه كان يشرح الكلاب : وكشف جبريلي فالپيو ، أحد تلاميذ فيساليوس القنوات النصف الدائرية والعصب السمعي للأذن ، والقناتين اللتين تسميان باسمه^(*) واللتين تنقلان البيض من المبيض إلى الرحم . كذلك كشف بارتوليو أوستاكيو القناة الأوستاكية في الأذن والصمام الأوستاكي في القلب ، ونحن مدينون له أيضاً باكتشاف العصب المستبعد ، والأجسام الفوكلية (التي فوق الكليتين) ، والقناة النحرية . ودرس قسطندسو فارولي Costanzo Varoli قنطرة فارولي — وهي كتلة من الأعصاب عند السطح السفلي للمخ .

وليس لدينا أرقام نعرف منها ما كان لاكتشاف الطبية من أثر في إطالة العمر في عصر النهضة . ولكننا نعرف أن فارولي توفي في الثانية والثلاثين من عمره ، وأن فالپيو مات في سن الأربعين ، وكولبو في الثالثة والأربعين ، وأوستاكيو في سن الخمسين . ثم نعرف بعكس هذا أن ميكل أنجيو عاش حتى بلغ التاسعة والثمانين ، وأن تيشيان عاش إلى التاسعة والتسعين ، ولويجي كرنازو كاد يبلغ مائة عام . وقد ولد لويجي هذا في البندقية عام ١٤٦٧ ، وكان يملك من المال ما يكفي لأن يجعله يستمتع بجميع أنواع الملاذ من طعام ، وشراب ، وحب . « وكان من نتائج هذا الإفراط أن وقع فريسة لعدة أمراض ، كالآلام المعدة ، والآلام الكثيرة في الجنب ، وأعراض داء الرثية . . . والحمى غير الشديدة التي لا تكاد تفارقني . . . والظمأ الذي لا يرتوي أبداً . ولم تترك لي هذه الحال السيئة أملاً أرتجيه إلا أن يقضى الموت على متاعبي » . ولما بلغ سن الأربعين ترك الأطباء جميع الأدوية وأشاروا عليه بأن أمله الوحيد في الشفاء هو « الاعتدال والحياة المنظمة . . . فلا أتناول من الطعام الصلب أو السائل إلا ما يصفونه للمرضى ، وحتى هذا يجب ألا أتناول منه إلا مقادير قليلة » . وكان يسمح له بتناول اللحم وشرب النبيذ ، على شرط أن يعتدل .

(*) يقصد تناق فلوب وهما قناتان في إناث الثدييات . (المترجم)

فهما ، وما لبث أن أنقص مقادير طعامه وشرابه إلى اثنتي عشرة أوقية من الطعام وأربع عشرة من النبيذ . ويقول لنا إنه لم تمض على ذلك سنة واحدة حتى « وجدت أنني قد شفيت شفاء تاماً من جميع أمراضى . . . وتحسنت صحتي تحسناً تاماً ، وبقيت كذلك من ذلك الوقت إلى الآن » (٢٠) . أى إلى سن الثالثة والثمانين . وقد وجد كذلك أن هذا النظام وذاك الاعتدال في العادات الجسمية يخلقان نظائر لهما في الصفات والصحة العقلية ، « فقد بقي مخي صافياً على الدوام ، . . . » وفارقت « الكتابة ، والكراهية ، وغيرهما من الانفعالات » . وحتى حاسة الجمال نفسها قد قويت لديه ، وبدأت له جميع الأشياء الجميلة أبدع مما كانت في أى وقت من الأوقات الماضية .

وقضى في بلدوا شيخوخة هادئة ناعمة ، قام فيها بأعمال عامة وأغدق عليها المال ، وكتب وهو في سن الثالثة والثمانين سيرته الذاتية المسماة *Discorsi della vita sobria* . وقد صورته لنا تنتورتو في صورة لطيفة : نراه فيها أصلع الرأس ولكنه متورد الوجه ، صافى العينين نفاذهما ، ذا تجاعيد في وجهه ثم عن جب الخير ، ولحية بيضاء قلل من شعرها مر السنين ، ويدين لا تزالان تكشفان عن شباب أرسقراطى ، وإن كان قد قرب من الموت . وإن تجاوزه سن الثمانين ليعث فينا الشجاعة حين تراه يسخر من الذين يظنون أن الحياة بعد السبعين ليست إلا تأجيلاً للموت وأنها حياة سقم تافهة لا معنى لها :

ألا فليأتوا وينظروا ، إلى صحتي الجيدة ، ويعجبوا كيف أمتطى صهوة الجواد دون مساعدة ، وكيف أصعد الدرج مهرولاً والتل مسرعاً ، وليروا ابتهاجى ، ومرحى ، ورضائى ، وتحررى من الهم والأفكار غير السارة ، إن الطمأنينة والبهجة لا تفارقتي أبداً . . . وكل حواسى (بحمد الله !) على أحسن حال بما فيها حاسة الذوق ؛ ذلك أنى أستمتع بالطعام البسيط الذى أتناوله باعتدال أكثر من استمتاعى بشهى الطعام الذى كنت أطعمه فى

سنى حياتى المضطربة . . . : وإذا ما عدت إلى بيتى فإنى لا أرى أمامى حفيداً
أو حفيدين بل أبصر أحد عشر من الأحفاد الصغار . . . وأبتهج حين
أسمعهم يغنون ويعزفون على آلات موسيقية مختلفة . وأنا نفسى أغنى
وأدرك أن صوتى أحسن ، وأكثر صفاء ، وأعلى نغمة مما كان فى أى وقت
مضى . . . فحياتى إذن حية لا ميتة ، ولست أرغب فى أن أستبدل
بشيخونحتى شباب الذين يعيشون عبيداً لشهواتهم (٢١) .

وكتب فى السادسة والثمانين وهو «ممتلئ عافية وقوة» بحثاً ثانياً ، يعبر
فيه عن سروره لأن عدداً من أصدقائه سلكوا سبيله فى الحياة ، وأخرج فى
الحادية والتسعين من عمره بحثاً ثالثاً حدثنا فيه كيف «أكتب على الدوام ،
وبيدى ، ثماني ساعات فى اليوم ، . . . وأنا فضلاً عن هذا أرتاض ،
وأغنى ساعات أخرى كثيرة . . . لأنى أحس حين أغادر المائدة أن لا بد لى
أن أغنى . . . ألا ما أحلى ما صار إليه صوتى وما أقواه !» : وألف
وهو فى الثانية والتسعين نصيحة مبعثها الحب . . : إلى جميع بنى الإنسان يحضهم
فيها على انتهاج سبيل الحياة المنتظمة المعتدلة (٢٢) . وكان يتطلع إلى أن يتم
مائة عام ، وأن يموت ميتة سهلة ، بعد أن تنقص فيها قوة حواسه ومشاعره ،
ونشاطه الحيوى نقصاً تدريجياً . ومات ميتة هادئة فى عام ١٥٦٦ ، فى التاسعة
والتسعين كما يقول البعض ، وفى الثالثة أو الرابعة بعد المائة كما يقول غيرهم .
وعملت زوجته ، كما يقال بنصائحهم ، وعاشت حتى كادت تبلغ المائة وماتت
فى أتم ما يطلبه المرء من راحة الجسم وطمأنينة النفس (٢٣)

ولسنا نتوقع أن نجد فيلسوفاً كبيراً فى هذا الحيز الصغير من المكان
والزمان . لكننا نجد فيهما مع ذلك عدداً من الفلاسفة نذكر منهم ياقوبو
أكندسيو Jacopo Aconzio وهو بروتستنتى إيطالى كتب رسالة سماها
De Methoda (١٥٥٨) مهد فيها بعض السبيل إلى ديكارت ، ثم كتب
رسالة أخرى سماها De Stralagimatibus Satanae (١٥٦٥) أوتى فيها

من الجراءة ما جعله يسير إلى أن جميع المسيحيين يمكن أن يجمعوا على عدد قليل من العقائد يعتنقونها كلهم لا تدخل فيها فكرة التثليث^(٢٤). وشق ماريو نيتسولي Mario Nizzoli الطريق إلى فرانسيس بيكن يقدحه في سيطرة أرسطو على الفلسفة ، وأخذ يطالب بالملاحظة المباشرة واطراح الاستدلال العقلي ، ويندد بعلم المنطق ريسميته الفن الذي يثبت أن الخطأ صواب^(٢٥) ، وانضم برناردينو تيليزيو Bernardino Telesio من أهل كوسيندا Cosenza في كتابه De rerum natura (١٥٦٥ - ١٥٨٦) إلى نيتسولي Nizzoli وبيير لاراميه Pierre la Rameé في نشر الثورة على سلطان أرسطو ، والدعوة إلى العلوم التجريبية ، وقال إن الطبيعة يجب أن تفسر نفسها بنفسها طن طريق التجارب التي تتلقاها حواسنا : ويقول تيليزيو إن ما نراه هو المادة تعمل فيها قوتان ، الحرارة الآتية من الجو ، والبرودة الخارجة من الأرض ؛ فالحرارة تنتج التمدد والحركة ، والبرودة تؤدي إلى الانكماش والسكون . وفي اصطراع هذين المبدئين يكمن الجوهر الداخلى لكل الظواهر الطبيعية وتسير هذه الظواهر وفق علل طبيعية ، وقوانين متأصلة فيها ، دون أن تتدخل في ذلك قوة إلهية : على أن الطبيعة نفسها ليست راكدة هاملة ، بل إن للجادات نفسا كما للإنسان . وقد استمد تومسو كمپانيلا Thomasso Campanes ، وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وفرانسيس بيكن شيئا من هذه الأفكار فيما بعد . وما من شك في أن قسطا من الحرية والتسامح قد بقي في الكنيسة جعلها تسمح بأن يموت تيليزيو ميتة طبيعية (١٥٨٨) ، أما بعد موته باثنتي عشرة سنة فإن محكمة التفتيش قد أحرقت برونو فوق المحرقة .

الفصل الثالث

الأدب

انتهى في ذلك الوقت عهد العلم ودراسته في إيطاليا : وأمسكت فرنسا بشعلة العلوم حين هاجر يوليوس قيصر اسكالجير من فيرونا إلى أجن Agen في عام ١٥٢٦ . وخلق بنا لانسى أثر الحرب في تجارة الكتب ، وفي وسعنا أن نتبين هذا الأثر من الإحصاء التالى : نشرت فلورنس في العقد الأخير من القرن الخامس عشر ١٧٩ كتابا ، ونشرت ميلان ٢٢٨ ، ونشرت رومة ٤٦٠ ، والبندقية ١٤٩١ . أما في العقد الأول من القرن السادس عشر فقد نشرت فلورنس ٤٧ كتابا ، وميلان ٩٩ ، ورومة ٤١ ، والبندقية ٥٣٦ (٢٦) . وقضى في ذلك العهد على المجامع العلمية التى أنشئت للدراسات القديمة - المجمع الأفلاطونى في فلورنس ، والمجمع الرومانى الذى أنشأه بمبيونيوس ليتوس ، والمجمع الحديد فى البندقية ، ومجمع نابلى الذى أنشأه بنتانوس Pontanus . وأضحى دراسة الفلسفة الوثنية مغضوباً عليها إذا استثنينا دراسة فلسفة أرسطو بعد أن استحوالت فلسفة كلامية (مدرسية) ؛ وحلت اللغة الإيطالية محل اللاتينية بوصفها لغة الأدب . ونشأت في ذلك الوقت مجامع علمية جديدة ، وأكثر ما تخصصت فيه النقد الأدبى واللغوى ، وكانت مراكز لتبادل المستمعين إلى شعراء المدينة : ففي فلورنس وجد مجمع دلا كرسكا Della Crusca (١٥٧٢) وأوميدى Umidi ، وفى البندقية أنشئ مجمع بيليجريني Pellegrini ، وفى بدوا وجد مجمع إيريتى Eretei ، واتخذ كل مجمع لنفسه اسماً أكثر من هذه سخفاً : وكانت هذه المجامع تشجع القراءة وتخلق العبقرية ، فقد كان الشعراء يبذلون غاية جهدهم لإطاعة القواعد التى يضعها الذين يهتمون بانتقاء الألفاظ ، ولهذا فر الإلهام إلى ملاجئ أرحب

وأكثر حرية : ولم يكن ميكل أنجيلو من المنتمين إلى أى مجمع أدبي ، ومع أنه كان يفعل ما يفعله غيره فيطلق لخياله العنان في الإتيان بالثر البالى من الأفكار ، وحشر لهيب حماسته في قوالب من الأدب فائرة شبيهة بقوالب بترارك الأدبية ، فإن أغنياته الفجة الخشنة في شكلها القوية في شعورها وتفكيرها هي خير ما كتب من الأدب الإيطالى في ذلك العهد . وفر لويجي ألامانى Luigi Alamanni من فلورنس إلى فرنسا ، وأنشأ قصيدة في الزراعة — La Coltivazione (*) — لا تنقص كثيراً عن قصائد فرجيل المعروفة بالزواحيات Georgics في جمعها بين الحرث والشعر . وكرّر برناردو تيسو في ذكره لماسى حياته ما حل من محن بولده الشهيد توركوواتو Torquato ، وإن أغانيه الشعرية لمن أكثر الأغاني تكلفاً في ذلك العصر . وقد كتب ملحمة تدعى أماديجي Amadigi روى فيها بالشعر الثقيل الممل قصة الفروسية المسماة أماديس الغالى Amadis de Gaul . لكن الجمهور الإيطالى لم يجد فيها ما يجده في ملحمة أريستو من فكاهة عالية منعشة للنفس فتركها تموت موتاً هادئاً ،

أما القصة القصيرة novella فقد بقيت واسعة الانتشار محببة للشعب منذ وهبتها قصص ديكمرن صورتها التي كانت لها عند اليونان والرومان الأقدمين . وكانت تكتب في لغة سهلة ، وتصف عادة أحداثاً مسرحية أو مناظر داخلية في الحياة الإيطالية . وكانت جميع طبقات الشعب ترحب بهذه القصص ، وكثيراً ما كانت تقرأ بصوت عال للمستمعين الملهفين على سماعها ، وكان أكثرهم لهفة على الاستماع لها هم العامة الجاهل ، ولهذا كان المستمعون لها هم جميع الإيطاليين . ولا يسعنا في هذه الأيام إلا أن نعجب من تسامح النساء في عصر النهضة اللاتي كن يستمعن إلى هذه القصص

(*) شارك ألامانى ترسينو Trissino وچيوفنى رتشيلاى Rucellai فيما امتازا به من أنهما من أوائل من كتبوا بالشعر (المرسل) في إيطاليا .

دون أن تعرفن فيما نعرف حمرة الحجل . فقد كان الحب ، وإغواء النساء ، والاعتصاب ، والمغامرات ، والفكاهة ، والعاطفة ، ووصف المناظر الطبيعية - كانت هذه هي مادة القصص ، وكانت كل طبقة من طبقات المجتمع تملأها بالشخصيات وأنماط الحياة .

وكادت كل مدينة تحتوى على كاتب ماهر في الصورة التي يختارها لقصصه . ففي سالرنو نشر توماسو ده جوارداتي Tomasso de Guardati المعروف باسم ماسوتشيو Masuccio في عام ١٤٧٦ خمسين قصة من هذا النوع سماها Novellino ، يشيد فيها بكرم الأمراء ، وتبذل النساء ، ورذائل الرهبان ، ونفاق جميع بني الإنسان . وهي أقل صقلا من قصص بوكاتشيو القصيرة ، ولكنها كثيراً ما تفوقها إخلاصاً ، وقوة ، وفصاحة . وفي سينا اتخذت القصة القصيرة صيغة شهوانية ، فامتألت صفحاتها بقصص وثنية عن الحب المبتذل . وأنجبت فلورنس أربعة من كتاب القصص الدائعي الصيت Novellieri ، هم فرانكو ساكتي Franco Sacchetti صديق بوكاتشيو ومقلده ، الذي فاقه بأن كتب ثلثمائة قصة قصيرة ، كان انحطاطها وبذاءتها سبباً في أن يقرأها كل إنسان تقريباً . وخصص أنجولو فيرنندسولو Angelo Firenzulo كثيراً من قصصه للتنديد بآثام رجال الدين ، فوصف فيها ما يحدث في أحد الأديرة ذات السمعة السيئة ؛ وفصح الأساليب التي يلجأ إليها من يتلقون الاعتراف فيغرون الصالحات من النساء بأن يوصين بمالهن إلى الأديرة ، وانخرط هو بعدئذ في سلك للرهبان من طائفة قلمبروز Vallombrosan order . وبرع أنطون فرانتشيسكو جراتسيني Anton Francesco Grazzini ، المعروف في إيطاليا باسم ال لاسكا Il Lasca أي الروش(*) ، في كتابة القصص الفكاهية ، ويشبه في هذا الماغن بيلوكا Pilucca ولكنه يستطيع أيضاً أن يضيف إلى فكاهاته الأمور

(*) سمك أوربي يعيش في الماء العذب ففى اللون . (المترجم)

الجنسية وسفك الدماء . فقد روى مثلاً قصة زوج فاجأ زوجته وهي تزني مع ولده ، فقطع أيديهما وأقدامهما ، وسمل أعينهما ، وقطع لسانهما وترك الدم ينزف منهما حتى ماتا على فراش الحب . وطرده أنطون فرانتشيسكو دوني Anton Francesco Doni وهو راهب وقس سرفيني من دير البشارة (١٥٤٠) متهما ، فيما يبدو بالواط ؛ وانضم في بياتشندسا إلى ناد من الفجار عبدة الشهوات ، ثم قدم إلى البندقية وكان فيها عدو أريتينو الألد ، وكتب في الطعن عليه كتباً سمي بذلك الاسم المنذر بسوء عقابه ، وهو « زلزال دوني الفلورنسي ، وتدمير الصنم الكبير عدو المسيح الوحشي في عصرنا » ؛ وكان في هذه الأثناء يكتب قصصاً تشتهر بفكاهتها اللاذعة وأسلوبها القوي .

وكان أحسن كتاب القصص في ذلك الوقت هو ماتيو بانديلو Matteo Bandello الذي طاف في حياته بنصف قارة وعاش نصف قرن (١٤٨٠ - ١٥٦٢) ، وكان مولده بالقرب من تورتونا Totona ؛ ولهذا لم يلبث أن انضم إلى طائفة الرهبان الدمنيك الذين كان عمه زعيمهم . ونشأ في دير سانتا ماريا دلي جرادسي بميلان ؛ ويبدو أنه كان في ذلك الدير حين رسم ليوناردو صورة العشاء الأخير في مطعمه ، وحين دفنت بيترس دست في الكنيسة المجاورة له . وقضى في مانتوا ست سنين من حياته مربياً لأبناء الأسرة المالكة ، وغازل فيها لكريدسيا جندساجا ، وأبصر إزبلا وهي تقاوم بكل ما كان لديها من فنون أثر الشيخوخة . ولما عاد إلى ميلان عاون الفرنسيين معاونة جديدة ضد القوات الألمانية - الأسبانية في إيطاليا ؛ ولما حلت الكارثة بالفرنسيين في پاڤيا حرق بيته ، ودمرت مكتبته تدميراً لا يكاد يبق لها أثراً ، وكان من بين ما فيها معجم لاتيني أو شك أن يتمه . وفر وقتئذ إلى فرنسا ، والتحق بخدمة سيزاري فريجوسو Cesare Fregoso ، زعيم طائفة الرهبان الدمنيك ، وأخلص له ، وعين أسقف آجن (١٤٥٠) .

وقد جمع في ساعات فراغه ٢١٤ قصة كتبها في حياته السابقة ، وصقلها
"الصقل الأدبي الأخير وغشى ما فيها من فحش قليل بالمغفرة التي نالها
من الأساقفة ، ثم طبعها في لوكا في ثلاثة مجلدات (١٥٥٤) ، اتبعها
بمجلد رابع في ليون (١٥٧٣) .

وتدور حبكة القصص عند بانديلو في الأعم الأغلب ، كما تدور عند
غيره من كتاب القصة على الحب أو العنف ، أو على أخلاق طوائف
الإخوان والرهبان ، والقسيسين . ففيها فتاة حلوة تثار لنفسها من محب
خائن فتمزقه إرباً بكماشات ؛ وزوج يرغم زوجته الزانية على أن تخنق
عاشقها بيديها ؛ وفيها دير ترك للدعارة يوصف بفكاهة حلوة لا يمجها
الدوق . واستمدت من قصص بانديلو مادة للمسرحيات المثيرة ، من ذلك
أن وبستر Webster استمد من واحدة منها حبكة مسرحية دوفقة مالفى .
ويروى بانديلو بشعور فياض وحلق عظيم قصة روميو منتيشيو Romeo
Montecchio ، وجيوليتا كاپييتي Giulietta Capeletti ، وينقل في
وضوح قوة حبهما . وها نحن أولاء نقنطف مثلاً من خير ما كتبه
في الحب :

ولم يجد روميو في نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يسأل من هي
الفتاة ، فأخذ يمتع عينيه بمنظرها الجميل ، ويتأمل بدقة حركاتها وسكناتها ،
وتجرع سم الحب الحلو الشهى ، وأخذ يثنى ثناء عجيبة على كل جزء من
أجزاء جسمها ، وكل حركة من حركاتها . وكان يجلس في ركن مر فيه
من أمامه جميع من في الحفل حين اقترب موعد الرقص . وكانت جيوليتا
(وهذا هو اسم الفتاة) ابنة رب الدار الذي أقام الحفل . وسرت هي
أيضاً أيما سرور بمنظر روميو ، وإن لم تكن تعرفه ، ولكنها رآته مع ذلك
أجل الشبان وأكثرهم مرحاً في الخلق كلهم ، وقفت لحظة قصيرة تحتلس
إليه النظرات الرقيقة من طرف عينيها ، وأحست في قلبها بحلاوة أفاضت

عليها من البهجة ما لاحد له . وتمتد وقتئذ أن يشترك في الرقص ، كي تستطيع أن تراه وتستمتع إلى حديثه خيراً من ذي قبل ، فقد خيل إليها أن كلامه يستفيض منه البهجة ، التي تتلقاها من عينيه وهي تنظر إليه ؛ ولكنه كان وقتئذ يجلس وحيداً لا يبدو عليه أى ميل للرقص ؛ وكل ما كان يفعله هو أن يغازل الفتاة الحسنة وكل ما كانت تفكر فيه هي أن تتطالع إليه . وهكذا أخذ كلاهما ينظر إلى الآخر نظرات تلتقي خلالها أعينهما وتمزج أشعة نظراتهما بعضها ببعض ، أدركا معها في خفة أن الحب قد سرى في روجيهما ، وكالما التقت أعينهما ، امتلأ الهواء بزفير حبهما ، وخيل إليهما أن كل ما يرغبان فيه وقتئذ هو أن يكشف كلاهما للآخر عما دب في قلبه من هيب (٢٧) .

وخاتمة القصة عند بنديلو أدق منها عند شيكسبير . فرميو عنده لا يموت قبل أن تقوم جوليت من سباتها ، وهي تستيقظ قبل أن يشعر روميو بأثر السم الذي شربه حين استولى عليه اليأس بعد أن رآها ميتة في الظاهر . ويبلغ منه السرور من شفائها مبلغاً ينسى معه السم ، ويستمتع العاشقان بلحظات من الحب العارم . وحين يفعل السم فعله القوي ، ويموت روميو ، تقتل جوليت نفسها بطعنة من سيفه (*) .

(*) أخذ شيكسبير القصة من التاريخ المفجع لروميوس وجوليت *Tragical History of Romeus and Juliet* تأليف آرثر بروك *Arthur Broke* (١٥٦٢) ، ولكن بروك نقلها عن ماسوتشيو أوبنديلو . كذلك عرف شيكسبير القصة من « قصر الفرحة » *Palace of Pleasure* لوليم بينتر *William Painter* (١٥٦٦) ، الذي أخذها من بنديلو .

الفصل الرابع

صحوة السحر في فلورنس : ١٥٣٤-١٥٧٤

إن حكم الدولة في أثناء اضمحلالها أسهل من حكمها في إبان شبابها ، ذلك أن نقص الحيوية يكاد يجعل أهلها يرحبون بالخضوع . وهذا صدقاً لذلك نرى فلورنس بعد أن أخضعها آل ميديتشي مرة أخرى لسلطانهم (١٥٣٠) تخضع منهوكة القوى لسيطرة كلمنت السابع ؛ نعم إنها انتهجت حين قُتِل ألسندرو ده ميديتشي بيد لورندسينو Logenzino أحد أقاربه البعيدين (١٥٣٧) ؛ ولكنها لم تنهز هذه الفرصة لإعادة الجمهورية ، بل قبلت حاكماً آخر من آل ده ميديتشي راجية أن يظهر مثل ما أظهره أول رجال الأسرة من حكمة وحسن سياسة . ويجلس هذا الحاكم انتهى من الوجهة القانونية فرع الحكام المنحدرين مباشرة من كوزيمو ألي الوطن ، لأن الحاكم الجديد من أبناء أخ لكوزيمو وهذا أكبر منه يسمى أيضاً لورندسو (١٣٩٣ - ١٤٤٠) . وكان جوتشياردينى هو الذى رفع هذا الحاكم الجديد إلى العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره راجياً أن يكون هو القوة المحركة من خلفه . غير أنه نسى أن الميديتشى الشاب هو ابن جيوفنى دل باندى نرى وحفيد كترينا اسفوردسا ، وأن دماء جيلين على الأقل من ذوى البأس الشديد تجرى فى عروقه وأمسك كوزيمو بيديه أزمة الأمور وظل قابضاً عليها بقوة سبعة وعشرين عاماً .

وكان فى خاتمة كما كان فى حكمه يجمع بين الشر والخير . فكان صارماً قاسياً إلى الحد الذى نمليه عليه السياسة غير العاطفية ؛ فلم يكن يشغل نفسه كما كان غيره من آل ميديتشى الأولين يشغلون أنفسهم بالمحافظة على مظاهر

الحكم الجمهورى وأشكاله ؛ وقد وضع نظاماً للتجسس تغلغل فى داخل كل أسرة ، واتخذ من قساوسة الأبرشيات أنفسهم عيوناً له (٢٩) ؛ وأرغم الناس على الجهر بعتقائده الدينية واحدة . وتعاون مع محكمة التفتيش ؛ وكان شرها فى طلب الثروة وللسلطان . ، استغل احتكار الدولة للحبوب ، وفرض على رعاياه أفدح الضرائب ، وقضى على حكومة سينا شبه الجمهورية ، لكى يجعل هذه المدينة جزءاً من أملاكه كما كانت أرتسوروبزا جزءاً منها ، وأقنع البابا بيوس الخامس بأن يمنحه لقب كبير أدواق تسكانيا (١٥٦٩) .

وعوض البلاد بعض التعويض عن استبداده وانفراده بالحكم بأن نظم لها إدارة حكومية حازمة صالحة ، وجعل لها جيشاً وشرطة تعتمد عليهما ، ونظاماً قضائياً قديراً لا يتطرق إليه الفساد . وكان بسيطاً فى معيشته ، يتجنب الاحتفالات والمظاهر الكثيرة النفقة ، وراعى فى إدارته المالية الاقتصاد بل الشح ، وترك لابنه من بعده خزانة عامرة بالأموال . وكان النظام والأمن السائدان فى الشوارع والطرق العامة سبباً فى انتعاش التجارة والصناعة بعد أن أصابتهما ضربات القاصمة من جراء الثورات المتتالية . وأدخل كوزيمو صناعات جديدة ، كصناعى المرجان والزجاج ، واستقدم اليهود من البرتغال وبسط عليهم حمايته لينشط بذلك نمو البلاد الصناعى ، ووسع رقعة ليغورنو (Leghorn) وجعل منها ثغراً نشيطاً دائم الحركة . وجفف مستنقعات مارما Maremma ليظهر هذا الإقليم ومدينة سينا المجاورة له من أهالريا . واستمتعت سينا ، كما استمتعت فلورنس ، أثناء حكمه الاستبدادى الصالح بالرخاء أكثر من ذى قبل . واستعان بجزء من الأموال التى جمعها على مناصرة الأدب والفن فى غير إسراف ، وكان يميز فى ذلك بين الغث والسمين ، ورفع الأكاديمية دجلى أوميدى Accademia degli Umdi إلى مكانة رسمية فجعلها مجمع فلورنس العلمى ، وعهد إليها أن تضع القواعد التى يجب مراعاتها فى اللغة التस्कانية الفصيحة . واتخذ فاسارى وتشلىنى صديقين له .

وبذل جهداً كبيراً ليقنع ميكل أنجيلو بالعودة إلى فلورنس ، وأنشأ مجمعا للتخطيط Arte del Designo كان هو رئيس شرف له . وأقام في بيتر (١٥٤٤) مدرسة لعلم النبات لا يفوقها في قدم عهدا وفي مكانتها إلا مدرسة بدوا . وما من شك في أن في وسع كوزيمو أن يقول إنه لم يكن يستطيع فعل هذا الخير كله لو لم يبدأ بقليل من الشر ولم يقبض على الحكم بيد من حديد .

ولم يبلغ هذا الدوق صاحب اليد الحديدية الرابعة والخمسين من عمره حتى كان عبء السلطة والمآسى العائلية قد أنهكه وهدقواه ، فأما المآسى العائلية فنذكر منها أن زوجته واثنين من أبنائه ماتوا في خلال بضعة أشهر في عام ١٥٦٢ ، وكان سبب موتهم حمى الملاريا التي أصيبوا بها أثناء اشتغاله بتجفيف مناقع مارما . ثم ماتت ابنة له بعهد عام من ذلك الوقت . وفي عام ١٥٦٤ عهد بحكم البلاد الفعلي إلى ابنه فرانتشيسكو ، وحاول أن يواسي نفسه بالحب والغرام ، ولكنه وجد في التنقل بين العشيات من الملل أكثر مما وجد منه في الزواج . ومات في عام ١٥٧٤ في الخامسة والخمسين من عمره ، وقد جمع من الصفات أحسن ما كان لأسلافه وشر ما كان لهم .

ولسنا ننكر أن فلورنس لم تنتج في ذلك الوقت رجالا من طراز ليوناردو أو ميكل أنجيلو ، ولم يكن فيها في ذلك العهد فنانون يضارعون تيشيان الرجل المتحضر العالمي الصيد أو تيتورتو الثائر أو فيرونيز الفرع الطروب ؛ ولكنها مع ذلك قد حدثت فيها في عهد كوزيمو الثاني نهضة بلغت من القوة الحد الذي يمكن أن يتوقعه الإنسان من جيل نشأ بين الثورات المخففة ، والهزائم العسكرية . لكن تشيليني رغم هذا يحكم على الفنانين الذين استخدمهم كوزيمو بأنهم « عصابة لا يوجد لها الآن مثيل في العالم كله » (٣٠) . وذلك تعبیر جرى عليه الفلورنسيون في بنحس فن البندقية . وكان بينيقتوتو يرى أن الدوق نصير للفن تذوقه له أكبر من سخائه عليه ؛ ولكن لعل هذا الحاكم القدير كان يرى أن التعمير الاقتصادي والتنظيم السياسي أكثر أهمية

من الزخرفة الفنية في بلاطه . ويصف فاسارى كوزيمو بأنه « يحب جميع الفنانين ويقربهم ، بل أنه في واقع الأمر يحب ويقرب جميع العباقرة » . وكان كوزيمو هو الذي قدم المال اللازم لأعمال الحفر في كيزي Chusi وأرتسو وغيرهما والتي كشفت عن حضارة تسكانية رائعة ، وأظهرت التماثيل التسكانية الذائعة الصيت تماثيل الخيميرا (*) ، والخطيب ، ومنيرفا . وقد ابتاع كل ما استطاع أن يعثر عليه من الكنوز الفنية التي نهبت من قصر آل ميديتشي في عامي ١٤٩٤ ، ١٥٢٧ ؛ وأضاف مجموعاته الخاصة إلى ما ابتاعه ، ووضع كل ما جمعه في القصر الحصين الذي بدأ لوكا پتي بتشيدده قبل ذلك الوقت بمائة عام . وقد كلف كوزيمو المهندس بارتوليو أماناتي بتوسيع هذا الصرح الرهيب واتخذ مسكنه الرسمي (١٥٥٣) .

وكان أماناتي وفاسارى في فلورنس زعيمى فن العمارة في ذلك العصر . وكان أماناتي هو الذى وضع لكوزيمو تصميم حدائق بوبولى Boboli خلف قصر پتي ، وأقام فوق نهر الآرنو جسر سانتاترينيتا (الشالوث المقدس) الجميل (١٥٦٧ - ١٥٧٠) - الذى دمر أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ وكان إلى ذلك مصورا ومثالا جليل القدر ؛ فاز في مسابقة للزحمت على تشيليني وچيوفنى دابولونيا ونحت تمثال يونو الذى يزدان به هوبارجلو . وقد اعتذر في شيخوخته عن كثرة ما نحت من الأشكال الوثنية ؛ ذلك أن النهضة الوثنية كانت قد وصلت الآن إلى آخر الشوط ، وأخذت المسيحية تستعيد سيطرتها على عقول الإيطاليين .

واتخذ كوزيمو باتشى باندينيللى Bacci Bandinelli مثاله الأثر لديه ، وأغضب بذلك تشيليني أشد الغضب ؛ وكان من ضروب التسلية التى يستمتع بها كوزيمو أن يستمع إلى تشيليني وهو ينهر باندينيللى ؛ وكان باتشىو معجباً

(*) الخيميرا Chimera كائن خرافى فى الأساطير اليونانية يقذف من بطنه بالهيب ، له رأس أسد وجسم ماعز ، وذنب أفعى . (المترجم)

بنفسه . وقد أعلن عن عزمه على أن يتفوق على ميكل أنجيليو ، وبلغ من قسوته في نقد غيره من الفنانين أن واحداً من أشدهم ظرفاً حاول أن يقتله . وكان كل إنسان تقريباً يبغضه ، ولكن كثرة ما عهد إليه من الأعمال في فلورنس ورومة توحى بأن مواهبه كانت خيراً من أخلاقه . ولما أن أراد ليو العاشر أن يحصل على صورة أخرى من مجموعة اللوقون التي في قصر بلفيدير يهاتها إلى فرانسيس الأول ، طلب الكردينال بيتا إلى بندينيلي أن يقوم بهذه المهمة ، فما كان من باتشيو إلا أن وعد بأن يعمل صورة تفوق الأصل ، ورؤّع الناسُ جميعاً أنه كاد ينجز ما وعد . وسر كلمنت السابع من نتيجة عمله سروراً حمله على أن يرسل بعض الأصول القديمة الأصيلة إلى فرانسيس ويحتفظ هو بالنسخة التي نقلها عنها باتشيو . ليضعها في قصر آل ميديتشي بفلورنس ، ومن هذا القصر انتقلت إلى معرض أفيتسي . ونحت باندينيلي لكلمنت وألسندرو ده ميديتشي مجموعة ضخمة هي مجموعة هرقل ولبا كوس التي وضعت فوق مدخل قصر فتشيو إلى جوار تمثال داود لميكل أنجيليو . ولم يحز هذا التمثال رضاء تشيليني ، وقال لبندينيلي في حضرة كوزيمو : « لو أن هرقل في مجموعتك قد قُص شعره لما كان له من الجمجمة ما يتسع لحنه » . . . وإن كتفيه الثقيلتين لتذكران الإنسان بالسلتين الموضوعتين على يرذعة حمار . وصدره وعضلاته ليست منقولة عن الطبيعة بل هي منقولة عن كيس من الشمام التالف (٣١) . أما كلمنت نفسه فكان يرى أن تمثال هرقل من أروع الآيات الفنية ، وأجاز عليه المثل بقدر كبير من المال فضلاً عن الأجر الذي وعده ؛ ورد باتشيو على هذه التحية بأن أطلق اسم كلمنت على ابن غير شرعي رزقه بعد موت البابا بزمن قليل . وكان آخر ما قام به من الأعمال قبر أعمه هو لنفسه ولأبيه . وما كاد يتم حتى شغله (١٥٦٠) . وأكبر الظن أنه كان ينال اليوم أكثر مما ناله من انتشار الصيت لو أنه لم يتعرض للتشنيع من فنانين يستطيعان أن يكتبوا وأن يصورا معاً هما

فاسارى وتشيليني : فقد شئنا عليه تشييعاً لم يمحه مر القرون ؛
وكان جيوفاني ده بولونيا منافسا لبندنيلي . ولكنه كان أظرف منه وآلطف
خلقاً . وقد ولد في دويه Doui ولكنه انتقل وهو شاب إلى رومة (١٥٦١) ،
معترفاً أن يكون مثالا . وبعد أن قضى فيها عاما في الدراسة قدم نموذجا
لعمله من الصلصال إلى ميكل أنجيلو وكان وقتئذ شيخا طاعنا في السن ؛
فأمسك به المثال الشيخ وضغط عليه بأصابعه : بإبهامى يديه وسبابتهما في مواضع
متفرقة منه ، ولم تمض إلا بضعة لحظات حتى سواه أحسن مما كان ، ولم
ينس جيوفاني قط هذه الزيارة ، وظل طوال الأعوام الأربعة والثمانين
الباقية من حياته يعمل لكي يبلغ ما بلغه الفنان العظيم . ثم غادر رومة عائدا
إلى فلاندرز ، ولكن شريفا من أهل فلورنس أشار عليه بأن يدرس
النحف الفنية المجموعة في فلورنس ، واستبقاه في قصره لهذا الغرض ثلاث
سنين . وكان في المدينة أو فيما حولها كثيرون من الفنانين الإيطاليين النابهين ،
ولذلك لم يستطيع الفنان الفلمنكي أن يستلقت الأنظار لعمله إلا بعد خمس
سنين حين ابتاع فرانتشيسكو ابن الدوق كوزيمو صورة له تمثل فينوس .
ثم اشترك في مباراة لتصميم فسقية لقصر السيادة Piazza della Signoria ؛
ورأى كوزيمو أنه أصغر سنا من أن يقوم بهذه المهمة ، ولكن كثيرين
حكموا بأن النموذج الذى صنعه هو كان خير النماذج كلها ؛ وأكبر الظن
أنه هو الذى دعى بتشجيعه إلى أن يقيم فسقية أكبر منها في بولونيا .
واستدعى جيوفاني بعدئذ مرة أخرى إلى فلورنس ليكون المثال الرسمي
لآل ميديتشى ، وتوالت عليه المهام من ذلك الحين فلم ينقطع عن العمل
في يوم من الأيام ؛ ولما عاد مرة ثانية إلى رومة ، قدمه فاسارى إلى البابا
على أنه « أمير المثاليين في فلورنس » (٣٢) . وهنا وضع نموذجا لمجموعة من
التمائيل توجد الآن في شرفة لاندسى Loggia dei Lanzi ، وسميت فيما
بعد اغتصاب السابينيين وتتكون من بطل قوى مفتول العضلات يمسك

بيده امرأة بارعة الجمال ضغطت يده وهو يرفعها على جسمها اللين ، وبعد
ظهرها أجمل ما صور من البرنز في عصر النهضة كله .
وكان المثالون متفوقين على المصورين في الحشد المتألق الذي يحفـ
بكوزيمو وفي تقدير كوزيمو نفسه . ولقد حاول ريدافو جرنلدايو
Ridolfo Ghirlandaio أن يحتفظ بالمستوى الرفيع الممتاز الذي بلغه والده ،
ولكنه عجز عن الاحتفاظ به ؛ وفي وسعنا أن نقدره بالنظر إلى صورته
التي رسمها للكريدسيا سماريا Lucrezia Summaria والموجودة الآن في
واشنطن : وكان فرانتشيسكو أوبرتيني Francesco Ubertini ، الملقب
سخرية البكيكا il Bachiacca ، يحب أن يرسم المناظر التاريخية وأن يدخل
فيها كثيراً من الدقائق وفي حجم صغير : وتجمعت في ياقوبو كارتوتشي
Jacopo Carrucci ، المسمى بنتورمو نسبة إلى مسقط رأسه ، كل الميزات
وبدأ حياته بداية طيبة . وأخذ الفن على أيدي ليوناردو ، وبيرودى
كوزيمو ، وأندريا دل سارتو ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره (١٥١٣)
هز مشاعر عالم الفن بصورة ضاعته الآن استثارت إعجاب ميكل أنجيلو ،
ووصفها فاسارى بأنها « أجمل مظلم شوهد حتى ذلك الوقت » (٣٣) . ولكن
بنتورمو Pontormo لم يلبث أن عشق نقوش دورر Dürer ، فتخلى
عما في الطراز الإيطالى من نعومة في الخطوط وتألف في التأليف ،
مما أثار عليه ثائرة الإيطاليين ، وفضل عليهما الأساليب الجرمانية الفجة
الثقيلة ، وصور رجالا ونساء في أوضاع من الاضطراب الجسمى أو العقلى ،
وصور بنتورمو في مظلمات في تشيروتوزا بهذا الطراز التيوتونى مناظر
مستمدة من آلام المسيح . ولم يرض فاسارى عن هذا التقليد وقال فيه :
« ألم يعلم بنتورمو أن الفلمنكيين والألمان يأتون ليأخذوا عنا الطراز الإيطالى
الذى بذل ما بذل من الجهد للتخلى عنه كأنه طراز غث لا قيمة له ؟ » .
ولكن فاسارى رغم غضبه هذا يقر بروعة هذه المظلمات : وزاد

ينتورمو فنه تعقيدا على تعقيده حين أصيب بداء الخوف ، فلم يكن يسمح بأن يذكر الموت في مجلسه ، وأخذ يتجنب الحفلات والزحام ، خشية أن يحشر فيها فيقضى عليه ؛ وكان يرتاب في جميع الناس عدا تلميذه المحبوب برندينو Bronzino ، وإن كان هو نفسه شقيقا دمث الأخلاق . وأخذ ينشد الوحدة ويزداد حباً لها على مر الأيام ، واعتاد أن ينام في حجرة في طابق علوى لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم يرفعه من ورائه بعد أن يصعد إليها . وظل يعمل وحيدا أحد عشر عاما في آخر مهمة كلف بها - وهي رسم مظالمات في معبد سان لورندسو ؛ فكان يأتي إلى المعبد ولا يسمح لأحد غيره بدخوله ؛ ومات (١٥٥٦) قبل أن يتم العمل فيه ؛ ولما أن أزيح الستار عن الصور تبين أنها غير محكمة النسب ، وأن الوجوه ثائرة أو محزونة . وخبر لنا أن نذكره بعمل من الأعمال التي قام بها وهو ناضج سلم العقل ، وهو صورة جميلة لإجولينو مارتيلي Ugolino Martelli توجد الآن في واشنطن - ويرتدى صاحبها قبعة لينة مراشة ، وله عينان ساهمتان مفكرتان ، وأثواب براقية ، ويدان نقيتان .

وارتفع شأن أنيولو دي كوزيمو دي ماريانو Agnolo di Cosimo di Mariano ، الملقب برندينو Bronzino بعد أن رسم طائفة من الصور معظمها يمثل آل ميديتشي . ويحتوى قصر هذه الأسرة على عدد كبير منها تبدأ من كوزيمو الأكبر أبى الوطن وتنتهى بالدوق كوزيمو ، وإذا جاز لنا أن نحكم عليها من وجه ليو العاشر المنتفخ قلنا إنها في كثير من الأحيان صور صادقة . وخبرها كلها صورة جيوفاني دلي باندي نيري (المحفوظة في أفيدسى) - وكأنها صورة لنابليون نفسه قبل أن يكون بوناپرت - ويظهر فيها وسم الخلق ، متكبرا ، ينفث النار .

وأكبر الظن أن أحب الفنانين للدوق كوزيمو هو الرجل الذى يدين له هذا السفر - كما يدين له كل كتاب عن النهضة الإيطالية - بنصف

حياته ؛ ونعني به جيورجيو فاسارى ، وقد نبغ قبله من بين أبناء الأسرة التى ينتمى إليها فى أرتسو عدد من الفنانين ؛ وكان يمت بصلة بعيدة إلى لوكا سنيورلى Luca Signorelli ، ولقد حدثنا هو أن المصور الشيخ حين رأى رسوم جيورجيو وهو لا يزال بعد غلاما شجعه على أن يدرس الرسم . وحدثت فى لحظة من لحظات النبل والشهامة التى لا يحصى عديدها ، وبالتى لا يصح أن نغفل عنها حين نحكم على أخلاق النهضة ، نقول إنه حدث فى لحظة من تلك اللحظات أن أخذ الكردنال پسيرينى Passerini ، وكان قد عين وصيا على إپوليتو وألسندرو ده ميديتشى ، جيورجيو إلى فلورنس ، حيث اشترك الشاب البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة مع الفنانين يوريشى الثراء والسلطان ، وأصبح من تلاميذ أندريا دل سارتو وميكل أنجيلو ، وظل إلى آخر أيام حياته يحل بونارنى ويعبده عبادة رغم أنفه المحطم .

وعاد جيورجيو إلى أرتسو بعد أن طرد الميديتشيون من فلورنس عام ١٥٢٧ . ومات والده بالطاعون ولما يتجاوز هو الثامنة عشرة من العمر ، فأتى نفسه العائل الأكبر لأخواته الثلاث ولأخويه الصغيرين . ووجد مرة أخرى من يرحمه وينقذه من ورطته : ذلك أن زميله القديم فى التلمذة إپوليتو ده ميديتشى دعاه إلى رومة ، حيث أكب فاسارى على دراسة الفن القديم وفن النهضة ؛ فلما كان عام ١٥٣٠ دعاه ألسندرو صاحب فلورنس ، بعد أن عادت الأسرة إلى حكمها مرة أخرى ، إلى الإقامة فى قصر آل ميديتشى ونقشه . وفيه رسم صورا لهذه الأسرة من بينها صورة للورندسو الأفخم ، نراه فيها قانطا مكتئبا ، وأخرى لكترينا الشابة المرححة - واقفة فى نزوة من نزوات الخيال ، كأنها كانت تدرك فى ذلك الوقت أنها ستكون ملكة فرنسا . ولما اغتيل ألسندرو قضى فاسارى ببعض الوقت يحول حائراً بلا نصير : ويقسو النقد على صوره ، ولكن (٢٢ - ج ٤ - مجلد ٥)

الذى لاشك فيه أنه نال بسببها بعض الشهرة ، لأننا نجد جيوليو رومانو يأويه في داره في مانتوا كما نجد أريتينو البدين في البندقية يصاحبه ويحميه . وكان أينما ذهب يدرس فن البيئة التي يقيم فيها ، ويتحدث إلى الفنانين أو إلى أبنائهم وأحفادهم ، ويجمع الرسوم ويدون المذكرات . ولما عاد إلى رومة رسم لبندو التوفيتي Bindo Altoviti صورة الخلع من الصليب ، وهي الصورة التي يقول عنها إنه « كان من حسن حظها أنها لم تغضب أعظم مثال ، ومصور ، ومهندس عاش في أيامنا » .

وكان ميكل أنجيلو نفسه هو الذي عرفه بالكردنال ألسندرو فرنيزي الثاني ، وهذا الحبر المثقف هو الذي أشار على فاساري في عام ١٥٤٦ بأن يؤلف لهداية الخلف كتاباً في سيرة الفنانين الذين رفعوا اسم إيطاليا في القرنين السالفين . وبينما كان فاساري يعمل بجهد في التصوير وهندسة العمارة في رومة ، ورعيني ، ورافنا ، وأرتسو ، وفلونس ، كان يقطع جزءاً من وقته لذلك العمل المجهد الذي لا ينال من ورائه جزاء يذكر وهو كتابه السير « مدفوعاً إلى ذلك بحب فنانينا هؤلاء » . وفي عام ١٥٥٠ نشر الطبعة الأولى من حياة كبار المصورين ، والمثاليين ، والمهندسين الإيطاليين الممتازين ومعه إهداء بليخ للدوق كوزيمو .

وكان فيما بين عامي ١٥٥٥ و ١٥٧٢ أكبر الفنانين عند كوزيمو . فأعاد تنظيم قصر فيتشيو من الداخل ، ونقش كثيراً من جدرانها بصور تنزع إلى الضحامة أكثر مما تنزع إلى الفخامة ، وشاد مبنى الإدارة الرحب المعروف باسم الأفيتسي اوجود المكاتب الحكومية به ، والذي أصبح الآن من أكبر المعارض الفنية في العالم . وكان هو المشرف على إتمام بناء المكتبة اللورنسية ، والذي شاد الدهليز المغطى الذي استطاع كوزيمو بفضلله أن يمر سراً من قصر فيتشيو ومن الأفيتسي إلى جسر فيتشيو ثم إلى مسكن الأدواق الجديد في قصر بتي . وفي عام ١٥٦٧ قضى عدة أشهر في الترحال والبحث ،

ثم أخرج بعد عام من ذلك الوقت طبعة جديدة من العبر أكبر كثيراً من الطبعة الأولى . ومات في فلورنس في عام ١٥٧٤ ودفن مع أسلافه في أرتسوه وبعد فإن فاسارى لم يكن فناناً عظيماً ، ولكنه كان رجلاً عظيماً ، وباحثاً مجداً ، وناقداً كريماً ذكياً (إذا استثنينا بعض لمزات قليلة وجهها لبندينيلي) ، وقد ألف لنا كتاباً من أمتع ما كتب في جميع العصور استمدت منه آلاف مؤلفة من الكتب ، وكتبه باللغة البسكانية السهلة الأصلية التي تكاد تكون هامة ، وتبلغ أحياناً من الوضوح ما تبلغه لغة القصص : والكتاب غني بالأخطاء التي تدل على عدم الدقة ، وبالمناقضات في الأزمنة التاريخية ، ولكنه أغنى من ذلك بالمعلومات الفاتنة الساحرة ، وبالشروح الحكيمة الصادقة . وقد فعل للفنانين الإيطاليين في عهد النهضة ما فعله أفلوطنخس لأبطال اليونان والرومان العسكريين والمدنيين ، وسيظل قروناً طوالاً في المستقبل من أكبر المنحائر في عالم الأدب .

الفصل الخامس

بينثينوتو تشيليني : ١٥٠٠ - ١٥٧١

كان يعيش في بلاط كوزيمو في ذلك الوقت رجل يجمع في أخلاقه بين العنف ورقة الشعور ، وبين كل المطالب الجنونية للجمال في الحياة والفن ، وبين الهجة التي تبعثها صحة الجسم ، والحذق ، والسلطان ، التي امتاز بها عهد النهضة . وكان إلى هذا كله مالكا لتلك الموهبة التلقائية التي تمكنه من أن يعبر عن أفكاره ومشاعره ، وتقلبات حظه ، ومزاياه في سيرته الذاتية التي تعد من أكثر السير متعة وأبقاها على الأيام . ولم يكن بينثينوتو المثل الكامل لعبقرية النهضة - وفي الحق إنا لا نستطيع أن نجد رجلا واحداً يمثل تلك العبقرية أكمل تمثيل ؛ ذلك أنه ينقصه تقوى أنجيلكو ، ودهاء مكيفلي ، وتواضع كستجليوني ، وجذل رفائيل ودمائة خلقه ؛ وما من شك في أن الفنانين الإيطاليين في ذلك العهد لم يتحكموا كلهم في القانون كما يشاءون وكما كان بينثينوتو يتحكم فيه ؛ ولكننا حين نقرأ قصته المضطربة القلقة ، نحس بأن كتابه يرجع بنا إلى ما وراء مظاهر النهضة ، إلى قلبها نفسه ، أكثر مما يرجع بنا أي كتاب سواه .

وهو يبدأ كتابه بهذه العبارة التي تجرد القارئ من كل سلاح يريد أن يوجهه إليه :

« يجب على جميع الرجال ، أيا كانت صفتهم ، إذا كانوا قد قاموا بعمل ممتاز ، أو شبيهه شهاً حقاً بالعمل الممتاز ، وإذا كانوا ممن يتصفون بالصدق والأمانة ، يجب على هؤلاء جميعاً أن يكتبوا حياتهم بأيديهم ، ولكن عليهم ألا يبدءوا هذه المغامرة الظرفية الجميلة حتى يصلوا إلى ما بعد سن الأربعين . وقد خطر لي أنا نفسي أن أقوم بهذا الواجب ، بعد أن تجاوزت سن

الثامنة والخمسين ، وبعد أن جثت لأقيم في فلورنس مستقط رأسى :

ويفخر بأنه « ولد وضيعاً » ، وأنه أذاع شهرة أسرته ، ويؤكد لنا في الوقت نفسه أنه من نسل ضابط من ضباط يوليوس قيصر ، ويحذرننا بقوله « إنه لا بد أن يوجد في عمل كهذا ما يدعو بطبيعة الحال إلى التفاخر الذي هو من طبيعة الإنسان » (٣٥) . وقد سمي بينفينوتو - مَرَحَباً - لأن أبويه كانا ينتظران أن تولد لهما بنت ، فلما جاءهما ولد دهشا دهشة الفرح . وقد عمر جده مائة عام (وأكبر الظن أنه خالف حكم كرنارو بأجمعها) وورث تشيليني حيويته ، وأتى في إحدى وسبعين سنة قدر ما أتاه هذا الجد في مائة السنين . وكان والده مهندساً ، وحافراً للعاج ، ومولعاً بالنائى ، وكان أمله المرتجى أن يكون بينفينوتو نافخاً في النائى محترفاً في فرقة موسيقية ببلاط آل ميديتشي . ويبدو أنه قد وجد في سنيه الأخيرة من السرور حين سمع أن ابنه قد أصبح نافخاً في النائى في فرقة البابا كلمنت الخامسة ، أكثر مما وجد في الصباغة التي كان الشاب يكسب منها المال والشهرة .

ولكن بينفينوتو كان مولعاً بالأشكال الجميلة أكثر من ولعه بالأصوات المتناغمة . وقد رأى بعض أعمال ميكل أنجيلو ، واستثار الفن كامن شعوره ؛ ودرس الرسوم التمهيدية لصورة واقعة بيزا ، وبلغ من تأثره بها أن بدا له سقف معبد مسستيني نفسه أقل روعة منها . وذهب ليتمرن عند صانع مخالفاً في ذلك إلحاح أبيه ، ولكنه أراد أن يسترضى أباه فواصل المران على النائى البغيض ، وعثر في بيت فليبينولي على كتاب ذى صور تمثل آثار رومة الفنية القديمة . وكان يتحرق شوقاً ليرى بعيني رأسه تلك النماذج الدائعة الصيت ، وكثيراً ما تحدث إلى أصدقائه عن رغبته في الذهاب إلى العاصمة . وبينما كان هو وشاب آخر ممن يحرقون الخشب يدعى جيامباتستا تاسو Ciambattista Tasso يسيران إلى غير مكان مقصود ويتحدثان بعواطف ثائرة ، إذ وجدنا نفسيهما عند باب سان پيرو جتولينى San Piero Gatolini ؛ وقال بينفينوتو إنه يحس

بأنه قد قطع نصف المسافة من فلورنس إلى رومة . وازداد الصديقان جرأة فظلا سائرين ، ميلا بعد ميل ، حتى بلغا سينا التي تبعد عن فلورنس ثلاثة وثلاثين ميلا . وهنا آلمت جيان قدماء وعجز عن مواصلة السفر من فرط الألم . وكان مع تشيليني من المال ما يكفي لاستئجار حصان ، ركبته الشابان « وقطعنا الطريق كله إلى رومة ونحن نغنى ونضحك . وكنت وقتئذ في التاسعة عشرة من عمري . وكانت هذه هي السنين التي انقضت من ذلك القرن » (٣٦) .

ووجد في رومة عملا في الصياغة ، ودرس الآثار القديمة ، وكسب من المال ما يكفي لأن يرسل منه إلى أبيه مبالغ واسعة خففت عنه آلام الفرقة . ولكن الأب الشيخ الواله ألح عليه بالعودة إلحاحا لم يسع بينفينوتو معه إلا أن يعود إلى فلورنس ؛ ولم يكده يستقر فيها حتى طعن شابا في أثناء شجار ؛ وظن أنه قتل الشاب ، ففر مرة أخرى إلى رومة (١٥٢١) ، وانكب على دراسة صور ميكل أنجيلو في معبد سستيني ، وصور رفائيل في بيت آل تشيجي الريني والفاتيكان ، ولاحظ جميع الأشكال والخطوط الطريفة في الرجال والنساء ، والمعادن ، وأوراق الشجر ، وسرعان ما أصبح أبرع المصائغين في رومة . وأعجب كلمنت ببراءته في النفخ في الناي ، ثم كشف قدرته الممتازة على التصوير . وصنع له تشيليني قطعا من النقود بلغت من الجمال درجة لم يسع البابا معها إلا أن يعينه « رئيس الدمع في دار السلوك » ، أي مصمم النقود للولايات البابوية . وكان لكل كردنال في ذلك الوقت خاتم ، قد يصل حجمه في بعض الأحيان « إلى حجم رأس طفل في الثانية عشرة من عمره » ، يستعمله في بصم الشمع الذي يختم به رسائله ؛ وكانت قيمة بعض هذه الأختام تبلغ مائة كرون (١٢٥٠ ؟ دولاراً) . وأخذ تشيليني يحفر الأختام وقطع النقود ، ويقطع الجواهر ويركبها ، ويضع نماذج للمذليات ، وينقش الأحجار الكريمة ، ويصنع مئات التحف من الفضة والذهب ،

وكتب في ذلك يقول إن هذه « النواحي الفنية المختلفة يختلف بعضها عن بعض
أتم اختلاف ، ولهذا فإن الذي يبرع في واحدة منها ، إذا انتقل إلى أخرى ،
يصعب عليه أن يبلغ في الثانية ما بلغه من النجاح في الأولى ؛ ولذلك بذلت
كل ما أوتيت من جهد لكي أتمكن جميعاً ؛ وسأثبت في المكان المناسب أنني
أصبت هدفي » (٣٧) .

ولا تكاد تخلو صحيفة من صحف بينفيوتو من فخر وزهو ، ولكن في زهوه
من الحماسة والإصرار ما يحملنا آخر الأمر على تصديقه . وهو يحدثنا عن
« جمال وجهه ، وتناسب أجزاء جسمه » ، ولا نستطيع أن ننكر عليه هذا
الحديث ، ويقول : « لقد وهبني الطبيعة مزاجاً سعيداً ، ومعارف ممتازة ،
استعطت بفضلها أن أتمكن كل ما شئت أن أتولاه من الأعمال » . وكان من
بين من اتصلت بهم « فتاة بارعة الجمال ، غاية في الرشاقة ، اعتدت أن
أأخذها نموذجاً لي . . . وكثيراً ما قضيت الليل معها . . . وإنني لأستغرق
أحياناً في النوم العميق بعد الاستمتاع باللذة الجنسية » (٣٨) . وقد استيقظ مرة
من نوم كهذا ليجد نفسه مصاباً « بالمرض الفرنسي » . لكنه شفى منه بعد
خمس يوماً واتخذ لنفسه عشيقه أخرى .

وفي وسعنا أن نلمح ما كانت عليه حياة المدن في القرن السادس عشر
من خروج على القوانين الأخلاقية والمدنية حين ندرك السهولة التي كان تشيليني
يعصى بها أوامر الكنيسة والدولة دون حياء ولا وخز ضمير . ويبدو أن رومة
لم يكن فيها وقتئذ شرطة قوية تعمل باستمرار ، فكان في وسع الرجل
ذي الغرائز أن يكون هو قانون نفسه ، بل إنه كان يضطر إلى ذلك اضطراراً
في بعض الأحيان . . . وكان بينفيوتو إذا استشر « بحس بحمي لو أنه كتبها
في نفسه لقضت عليه لا محالة » (٣٩) ، وإذا أساء إلى إنسان « ظننت أن من
واجبي أن أعمل ، وأن ألحن آلامي » (٤٠) . وقد تورط في مثات من
المشاحنات ، ويؤكد لنا أنه كان على حق فيها جميعاً عدا واحدة منها . وقد

طعن رجلاً أساء إليه بخنجر في عنقه وكانت الطعنة في دقة طعنات المصارعين في ميادين الجلالد قضت على حياة غريمة من فوره (٤١) : وفي مرة أخرى « طعنت رجلاً تحت أذنه بالضبط ، ولم أوجه إليه أكثر من ضربتين لأنه خر ميتاً لساعته : على أنني لم أكن أقصد قتله ، ولكن الضربات لاتكالم للغريم بقدر ، كما يقول المثل » (٤٢) .

وكان مستقلاً في أمور دينه كما كان مستقلاً في أخلاقه : وإذا كان دائماً على حق - إلا في مرة واحدة - فقد كان يحس أن الله لا شك في جانبهِ ، يقوى ذراعه ؛ وكان يد الله تعينه على من يقتل من أعدائه ، ويحمده : حمداً كثيراً على نجاحه . على أنه لما لم يستجب الله لدعائه ، ولم يعنه على أن يجد حبيته المفقودة أنجيلكا Angelica ، اتجه نحو الشياطين يستمد منها ما ينقصه من معونة : فقد أخذه ساحر صقلي أثناء الليل إلى الكلوسيوم : المهجورة ، ورسم على الأرض دائرة سحرية ، وأشعل النار ، وألقى بعض البخور على اللهب ، وتلا عدة رقى عبرية ، ويونانية ، ولاتينية ، استدعى بها الجن واعتقد بينفيشوتو بحق أن مئات الأشباح ظهرت أمامه ، وتنبأت له بقرب اجتماعه بأنجيلكا ، فعاد إلى بيته ، وقضى بقية الليل يرى الشياطين (٤٣) .

ولما أن نهب جيش الإمبراطور رومة فر تشيليني إلى قلعة سانت أنجيلو ، وانخرط في سلك جنود المدفعية . ويعترف بأن إحدى طلقاته هي التي قتلت دوق بوربون ، وأن دقة رمايته هي التي أبقت المحاصرين على مبعدة من القلعة ، فكان هذا سبباً في نجاة البابا ، والكرادلة وبينفيشوتو نفسه . ولستنا نعرف ما في هذا القول من صدق ، ولكنه هو نفسه يحدثنا أيضاً بأنه لما عاد كلمنت إلى رومة ، عين تشيليني حامل صولجانه ورتب له مائتي كرون في الشهر (٢٥٠٠ ؟ دولار) وقال : « لو أنني كنت إمبراطوراً غنياً لوهبت بينفيشوتو من الأرض بقدر ما تستطيع عيناي أن تقعا عليه ؛ أما وأنا الآن

مفلس محتاج ، فلا أقل من أن أهبه من الخير « ما ينبغي بحاجته » (٤٤) ؛
واستمر پولس الثالث يرفع كلمنت ؛ وينقل لنا تشيليني عن پولس :
ولعله يبالغ في هذا النقل مبالغة يدخل بها السرور على قلبه ، أنه قال لشخص
يلومه على لينه مع الفنان وعدم أخذه بالشدة « اعلم إذن أن أمثال بينفينوتو
من الرجال الأفذاذ في عملهم أناس فوق القانون ، فما بالك إذن بشخص
استشير إلى الحد الذي سمعت به » (٤٥) . ولكن بيرلويجي Pierluigi بن لول ،
وهو رجل لا يقل سفالة أو استهتاراً عن بينفينوتو نفسه ، أوغر صدر البابا
على الفنان ؛ ولم تكف فنون تشيليني نفسها للتغلب على نفوذ بيرلويجي
هذا ، فما كان من الفنان إلا أن غادر مرسمة في رومة وولى وجهة نحو
فرنسا ؛ لكن بمبو اعترضه في طريقه عند بدوا وأكرمه ، فرسم له صورة
صغيرة أجازة عليها بثلاثة جياذ له ولزميلين كانا معه ، فامتطيا صهوتها ،
ونزلا من فوق الجريزون Grison واجتازا زيورخ ، ولوزان ، وچنيفا .
وليون حتى وصلا باريس ؛ وفيها أيضاً وجد بينفينوتو له أعداء . ذلك أن
چيوفاني ده رسي ، أحد الرسامين الفلورنسيين ، لم يكن يريد أن يزيد
عدد من ينافسونه في الحصول على رفق الملك ، فأثار الصعاب في وجه
القادم الجديد ؛ ولما أن اتصل بتشيليني آخر الأمر وجده قد تورط في
حرب يصعب عليه الخلاص منها . وانتابه المرض واشتد به الحنين إلى
بلده ، فتسلق جبال الألب مرة أخرى . وحج إلى لوريتو Loreto ، وعبر
جبال الأبنين إلى رومة ؛ وما كان أشد غضبه حين وجد أن بيرلويجي
يتهمه بسرقة جواهر البابا ، فألقى به في نفس الحصن الذي ساعد هو على إنقاذه ،
وعانى فيه مرارة السجن عدة أشهر . ثم استطاع الفرار منه ، ولكن ساقه
كسرت في أثناء هذه المحاولة ؛ فقبض عليه ، وألقى في جب تحت
الأرض قضى فيه عامين ، ثم أطلق سراحه بناء على طلب فرانسيس ؛
وألح عليه الملك بأن يسافر إلى فرنسا ليقوم فيها ببعض المهام ، فتسلق
جبال الألب مرة أخرى (١٥٤٠) .

ووجد الملك والحاشية في فنتانا بيليو Fontana Belio أى فنتين بلو Fontainebleau ، ورحب به فيها أعظم ترحيب ، وخصص له قصر حصين في باريس يسكنه ويتعبد فيه ؛ ولما أبى من فيه أن يغادروه طردهم منه قوة واقتداراً . ولم يرتج الفرنسيون لآدابه أو لغته ، وأغضب ما دام ديتامپ Mme d'Etampes عشيقه الملك بقلة محاملته لحضرتها العلية . ولما سمعت بأنه ألقى من نافذة القصر أثاث السكان الذين أخرجهم منه حذرته منه بقولها : « ذلك الشيطان سينهب باريس يوماً من الأيام » (٤٦) . وسر الملك المرح من القصة ، وعفا عن عنف تشيليني إكراماً لفنه ، وخصص له مرتباً سنوياً قدره ٧٠٠ كرون (٨٧٥٠ ؟ دولاراً) . ووهبه ٥٠٠ كرون أخرى نفقة رحلته من رومة ، ووعدته بمبلغ إضافي عن كل عمل فني يقوم له به ، ولشد ما ازدهى بنيثينوتو حين علم أن هذه هي نفس العروض التي قدمت لليوناردو قبل ذلك بعشرين عاماً (٤٧) .

وتقدم أحد السكان الذين طردوا من القصر إلى القضاء يتهمه بسرقة بعض ممتلكاته ، وأدانت المحكمة تشيليني ، ولكنه قلب الحكم بطريقة المدهشة وفي ذلك يقول :

فلما رأيت أنني خسرت القضية ظلما وعدوانا ، بلحأت في الدفاع عن نفسي إلى خنجر كبير كنت أحمله معي ، لأنني كنت على الدوام أجد لذة في حمل الأسلحة اللطيفة . وكان أول شخص هاجمته به هو المدعى الذي قاضاني ، وجرحته ذات ليلة في ساقيه بجراحا شديدة ، وحرصت مع ذلك على ألا أقتله ، ولكنني حرمته من استخدام ساقيه كليهما .

ويلوح أن المدعى لم يسر في القضية إلى أكثر من هذا ، واستطاع تشيليني أن يوجه جهوده إلى نواح أخرى . وكان معه في مرسمه بباريس « فتاة فقيرة تدعى كترينا ، وكان أهم غرض أستبقيا لدى من أجله هو طلقن ، لأنني لا أستطيع الاستغناء عن نموذج ؛ ولكنني وأنا أيضا رجل

كنت أستخدمها في ذلك» (٤٩) . على أن كثيرينا كانت أيضاً خاضعة متساهلة تضاجع مساعده باجولو متشيري Pagolo Micceri . فلما عرف بنيفينوتو هذا أخذ يضربها حتى خارت قواه ؛ ولأمله خادمه روبرتا Roberta على قسوته الشديدة في عقاب الفتاة على هذا الحادث العادى . وقال له : « ألا تعرف أنه ليس في فرنسا زوج واحد بلا قرنين ؟ » وفي اليوم التالى اتخذ كثيرينا مرة أخرى نموذجاً له « وحدثت في هذه الأثناء بعض المتع الجنسية ؛ وضايقتني في آخر الأمر كما ضايقتني من قبل إلى حد لم أجده معه مناصها من ضربها . ودامت الحال على هذا المنوال عدة أيام وأتممت في أثناءها عملي بطريقة عادت على بأعظم الفضل » (٥٠) وكانت لديه فتاة أخرى تدعى جين Jeanne كان يتخذها أيضاً نموذجاً له ، وولدت له بنتا ، فخص الوالدة بمبلغ من المال « ولم تعد لي بها علاقة فيما بعد » (٥١) . ثم قتلت المربية الطفلة بكم أنفاسها .

وصبر فرانسيس على هذه الأفعال الخارجة على القانون صبر الكرام ؛ ولكن بنيفينوتو خلق له آخر الأمر أعداء في باريس بلغوا من الكثرة درجة لم يسعه معها إلا أن يرجو الملك أن يأذن له بزيارة إيطاليا . ولما لم يجبه الملك إلى طلبه سافر بغير إذن ، وبعد أن لقي أكبر المشاق في الطريق . ووجد نفسه في بلدته فلورنس (١٥٤٥) . وهناك استقام أمره وأمد أخته وبناته الست بمعونة طيبة ، ووجد كوزيمو أقل سخاء من فرانسيس ، وخلق لنفسه أعداء كما فعل من قبل ، ولكنه صب للدوق تمثالاً نصفياً . (يوجد الآن في بارجلو) ، وأخرج له أعظم أعماله شهرة ، نعى بذلك تمثال ميرسيوس الذى لا يزال قائماً في شرفه لاندسى Loggia dei Lanzi ، ويروى لنا هو نفسه قصة رائعة عن صب هذا التمثال فيقول إن ما انتابه من القلق ، وما غناه من المشقة في العمل ، وتعرضه للحر والبرد ، أصابه في آخر الأمر بحمى شديدة أرغمته على ملازمة الفراش في الوقت الذى

كان فيه القرن الذي أعده لهذا العمل خاصة يذيب المعدن . وقد تبين أنه لا يكفي ملء القالب ، وأوشك التلف أن يحل بما ظل يكدح فيه الشهور الطوال . فما كان من تشيليني إلا أن نهض من فراشه ، وألقى في القرن كتلة من القصدير ومائتي إناء من كلس القصدير . وكان فيها الكفاية ، ونجح صب التمثال أتم نجاح ؛ ولما عرض على الجماهير (١٥٥٤) ، لقي من الثناء بقدر ما لقي أى تمثال أقيم في فلورنس منذ صب ميكل أنجيلو تمثال داود ، وحتى بنديتلي نفسه لم يسعه إلا أن يقول كلمة طيبة فيه .

ثم تبدأ القصة تنحدر من هذه الذروة فتستحيل إلى صفحات من المساومة مع الدوق على أجر تمثال بيرسبوس . وطال انتظار بنيفينوتو ، ولكن كوزيمو كان ينقصه المال . وتنتهى القصة نهاية مفاجئة في عام ١٥٦٢ ، ولسنا نجد فيها ذكراً لتلك الحقيقة التى يكاد يؤيدها الدليل القاطع . وهى أن بنيفينوتو سجن مرتين في عام ١٥٥٦ ، متهما فيما يبدو بجرائم أخلاقية (٥٢) . وألف تشيليني في هذه السنين الأخيرة رسالة فى فن الصياغة . . . Trattato dell Orificeria وبعد أن ظل يعربد نصف قرن من الزمان تزوج فى عام ١٥٦٤ ، وكان له ولدان شرعيان بالإضافة إلى طفل غير شرعى ولد له فى فرنسا ، وخمسة فى فلورنس ولدوا له بعد عودته إليها .

ولسنا نستطيع أن نعثر إلا على عدد قليل من أعماله ونتأكد أنها له ، وذلك لأنها كانت فى العادة تحفا فنية صغيرة يسهل نقلها من مكان إلى مكان ، وفى كنوز كنيسة القديس بطرس ثرية قضية مزخرفة تعزى إلى تشيليني ، وفى برجلو تمثالان له هما تمثال ناريسس وتمثال هابيميدى ، وكلاهما تمثال ممتاز من الرخام . وفى بيتى صينية وإبريق من الفضة ؛ وفى اللوفر مدلاة عليها صورة بمبو ؛ ونقش من البرنز بارز جميل يسمى هوربة فنيقية . وفى فينا - كما تدعى تلك المدينة - المملحة التى صنعها لفرانسيس الأول . وتضم

مجموعة جاردنر في بسطن بأمريكا تمثاله النصفي لألتوفيتي Altoviti ، وتمثاله الكبير لصلب المسيح يوجد في الإسكوريال . على أن هذه النماذج المتفرقة من التحف لا تمدنا بما تقوم عليه شهرته الواسعة . وحتى تمثال بيرسيوس تبدو عليه مظاهر العنف والإفراط في الزخرف ، وأقرب إلى أن يكون صورة مشوهة لصاحبه . ولكن كلمنت السابع (كما يقول بنيفينوتو نفسه) كان يعدّه « أعظم من ولد من الرجال في فنه الخاص » (٥٣) ، وإنا لنجد في رسالة باقية حتى الآن وجهها ميكل أنجيلو إلى تشيليني قوله : « لقد عرفتك كل هذه السنين الطوال فوجدتك أعظم صانع سمع به العالم » (٥٤) . وفي وسعنا أن نختم هذا الفصل بقولنا إن تشيليني كان رجلاً عبقرياً ، منحط الأخلاق ، صانعاً مجيداً ، سفاحاً ، سيرته الذاتية المرححة أكثر بهجة من ذهبه ، وفضته ، ونقوشه على الأحجار الكريمة ، وترضينا عن المبادئ الأخلاقية السائدة في ذلك العصر .

الفصل السادس

أضواء صغرى

كان عهد الاضمحلال فى إيطاليا عهد البعث فى سافوى . وليس ببعيد أن يكون عمانويل فليبيرت Emmanuel Philibert وهو صبى فى الثامنة من عمره قد رأى الفرنسيين يستولون على الدوقية (١٥٣٦) ، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ورث تاجها وإن لم يرث أرضها وديارها ؛ وفى التاسعة والعشرين اضطلع بدور رئيسى فى انتصار الأسبان والإنجليز على الفرنسيين فى سان كنتين St. Quentin (١٥٥٧) ، ولم يمحض على هذا النصر إلا عامان حتى سلمت له فرنسا بلاده الخربة وعرشه المفلس . وكان بعث سافوى وبيدمنت على يديه من أعظم الأعمال التى قام بها رجال الحكم والسياسة فى التاريخ . ذلك أن منحدرات جبال الألب فى دوقيته كانت معششا لمراطقة الفودوا Vaudois الذين أخذوا يحيلون الكنائس الكاثوليكية إلى مجامع للعبادة الكلفتية . وعرض عليه البابا بيوس الرابع إيراد الكنائس فى عام كامل ليستعين به على قمع هذه الشيعة . واتخذ عمانويل لهذا الغرض إجراءات شديدة حاسمة ، فلما أن أدت هذه الإجراءات إلى هجرة أفرادها جملة لجأ إلى خطة التسامح والمسالمة ، وكبح جماح محكمة التفتيش ، وآوى فى بلاده اللاجئين من الهيوجينوت . ثم أنشأ جامعة جديدة فى تورين وتبرع بالمال اللازم لتأليف دائرة معارف عامة فى جميع العلوم . وكان على الدوام مجاملا لطيف المعشر ، كما تكررت خيائنه لزوجته مرجريت أميرة قالوا Margaret of Valois التى كانت تمده بالنصح السديد والمعونة الدبلوماسية ، والتى كانت واسطة العقد فى الحياة الاجتماعية والذهنية الساطعة

في تورين . ولما مات عمانويل (١٥٨٠) ، كانت دوقيته من أحسن بلاد أوروبا حكماً . ومن نسله كان ملوك إيطاليا الموحدة في القرن التاسع عشر . وفي ذلك الوقت كان أندريا دوريا ، الذي غدر بالفرنسيين في أنسب الأوقات فانتقل من صفوفهم إلى صفوف الأسبان ، كان أندريا هذا يحتفظ بزعامته في جنوى : وكان رجال المصارف في تلك المدينة قد قدموا المال اللازم لحروب شارل الخامس ، فكافأهم شارل على ذلك بأن أبقى لهم سيادتهم على المدينة . لم يمسه بسوء : ولم تنكب جنوى بقدر ما نكبت البندقية بسبب تحول التجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطي ، فعادت مرة أخرى ثغراً عظيماً وحصناً ذا موقع حربي عزيز المثال . وشاد فيها جاليتسو أليسي البيروجي Galeazzo Alessi of Perugia ، تلميذ ميكل أنجيلو ، كنائس فخمة وقصوراً شاهقة ، ووصف فاساري طريق بالبي Via Balbi بأنه أفخم شوارع إيطاليا بأجمعها (*) .

حسبنا هذا عن جنوى : أما ميلان فقد عين شارل الخامس فيها نائباً عنه ليحكمها بعد أن توفي فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا آخر حكامها من هذه الأسرة في عام ١٥٣٥ . وكان خضوعها لشارل إيذاناً بعودة السلم إلى ربوعها ، فازدهرت المدينة وعمها الرخاء من جديد : وشاد أليسي فيها قصر مارينو Marino الجميل ؛ وكان ليوني ليوني Leone Leoni الحفار في دار السك بميلان ينافس تشيليني في فنون النقش الصغرى على اللدائن ، ولكنه لم يجد رجلاً مثل تشيليني ينشر له ربائع فنه . وكان أعظم من امتاز من أهل ميلان في ذلك الوقت هو سان كارلو بوروميو San Carlo Borromeo الذي قام في أواخر عصر النهضة بمثل ما قام به القديس أمبروز أيام الاضمحلال في العصر القديم . وكان ينتمي إلى أسرة شريفة غنية ؛ وقد عينه عمه بيوس الرابع كاردنالا وهو في سن الحادية والعشرين ، وكبيراً لأساقفة ميلان في الثانية والعشرين (١٥٦٠) ، وأكبر الظن أنه كان وقتئذ

(*) لقد دمر هذا الشارع في أثناء الحرب العالمية الثانية .

أغنى رجال الدين في العالم المسيحي كله . لكنه تخلى عن جميع إيراد مناصبه الدينية عدا منصب كبير الأساقفة ، وتبرع بما تدره من المال للأعمال الخيرية ، وانقطع لخدمة الكنيسة وأجهد نفسه في هذه الخدمة لإجهادا كاد يقضى على حياته . وهو الذى أنشأ طائفة « ناذرى القديس أمبروز » Oblates of St. Ambrose ، واستقدم اليسوعيين إلى ميلان ، وأيد بقوة جميع الحركات التى تهدف إلى إصلاح الكنيسة ، التى ظلت على ولائها للمذهب الكاثوليكي . وإذا كان قد اعتاد الثراء والسلطان ، فقد أصر على الاحتفاظ بكل ما كان لمحاكمة أسقفية في العصور الوسطى من اختصاصات ، وتولى بنفسه المحافظة على القانون والنظام ، وملأ سجون الأسقفية بالمجرمين والملاحدين ، وظل أربعة وعشرين عاما الحاكم الحقيقى للمدينة . وضعف شأن الأدب والفن بسبب حرصه الشديد على الوحدة الدينية والخلق القويم ؛ ولكن بليجرينو تيلدى Peliegrino Tibaldi المهندس المعماري والمصور علا نجمه بفضل رعايته ، وكان هو الذى وضع تصميم المرممة الفخمة في الكندراثة الكبرى ، وقد غفر أهل المدينة للكردنال قسوته حين ظل في أثناء وباء الطاعون الذى انتشر في المدينة عام ١٥٧٦ يؤدى واجبات منصبه ، وبرامى المرضى والناكلين بزياراته التى لا تعرف الملل ، ويقظته الشديدة وصالواته مع أن كثيرين من الأعيان قد فروا من المدينة .

وشاد الكردنال تولوميو جاليو Tolomeo Gallio في تشرنوبيو Cernobio على بحيرة كومو قصر دسنت الريفى (١٥٦٥) ؛ ولعله لم يكن واثقا من أن ثمة جنة غيره . وفي بريستشيا رسم جيامبتستا مورنى Giambattista Moroni ، تلميذ مورتو Moretto صورا خلية بأن توضع إلى بجانب معظم صور تيشيان (*) . وواصل فنشيدنسوكامبي Vincenzo Campi في كريمونا

(*) أهمها « صورة سيد طاعن في السن » (في برجامو) و « أنطونيو نافاجيرو » (ميلان) وبارتولوميو بنجا (نيويورك) ، وشيخ وغللام (بسطن) ، ومعلم تيشيان (واشنطن) ، وروفيكي مادرانسو (تشكاجو) .

تقاليد أسرته في رسم صور تقرب من أن تكون خالدة . وفي فيرارا سوى إركولى الثاني Ercole II نزاع دولته الطويل مع البابوية بأن أدى إلى بولس الثالث ١٨٠٠ ر ١٨٠٠ دوقه ووعد به بأداء سبعة آلاف أخرى جزية سنوية . ووهب الفنسون الثاني المدينة فترة أخرى من الرخاء (١٥٥٨ - ١٥٩٧) أثرت صورة أورسليم المحررة لأنوناسو وصورة الراعى الأمين لحيوفنى جوارينى Giovanni Guarini . وأخذ جيرولامو دا كاربي Girolamo da Carpi فن التصوير عن جاروفولو Garofolo ، ولكنه ، كما يقول فاسارى ، أضاع كثيراً من وقته في الحب والعزف على العود ، وعجل بالزواج ، فلم يتسع وقته للاهتمام بمطالب العبقرية .

وازدهرت پياتشندسا وپارما وقويت فيهما الحركة الفنية في ذلك العهد . وكان البابا بولس الثالث يطالب بالمدينتين على أنهما من أملاكه الإقطاعية . وخلعهما على ابنه پيپرلويجي فارنيزى في عام ١٥٤٥ وإن كانا قد ظلتا عدة قرون من أملاك ميلان ، وكانت هذه الدوقية نفسها وقتئذ تابعة لشارل الخامس . وقبل أن يمضى عامان بعد ذلك الوقت اغتيل الدوق الجديد في پياتشندسا على أثر فتنة قام بها أشرف المدينة ، الذين رضوا عن فسقه وفجوره ولكنهم لم يرضوا عن احتكاره المال والسلطان . وقال بولس بحق إن ناسج برد المؤامرة لخمته وسداه هو فيرانتى جندساجا ، الذى كان وقتئذ بحكم ميلان من قبل الإمبراطور شارل ، ولاحظ أن جيوش الإمبراطور ، وكانت معدة من قبل بالقرب من المدينة ، استولت من فورها على پياتشندسا . وأضحت من أملاك الإمبراطور (١٥٤٧) . ولم يمض على وفاة بولس إلا قليل من الوقت حتى عين يوليوس الثالث أتاقيو ابن پيپرلويجي دوقاً على پارما ، وبما أن أتاقيو هذا كان فضلاً عن ذلك زوجاً لابنة شارل ، فقد سمح له أن يحكم پارما إلى يوم وفاته (١٥٨٦) .

ولم تظهر أعراض الاضمحلال على بولونيا . وفيها وضع فنيولا Vignola

تصميم باب بانكى Porto de' Banchi إجابة لطلب جماعة من التجار ،
وأضاف أنطونيو مورندى إلى جامعة المدينة ملعباً ذائع الصيت ضم إلى فنانها
العظيم ؛ وكتب سباستيانو سيرليو sebastiano serlio رسالة في العمارة تضارع
رسالة بلادينوفيا كان لها من تأثير. وفي عام ١٥٦٣ عهد البابا بيوس الرابع
إلى توماسو لوريثي Tommaso Laureti من أهل بالرم أن ينشئ نافورة
في ميدان سان پترونيو Piazza di san Petronio . وعهد أعمال النحت
في هذا المشروع إلى فنان فلمنكى شاب جاء وقتئذ من فلورنس ، ولعل
اسمه قد اشتق من اسم المدينة التي قام فيها بأعظم عمل له . ووضع جيوفاني
دا بولونيا أوجيان بولونيا نماذج لتسعة تماثيل تقام حول فسقية نيتون
Fontana di Nettuna الضخمة . وأقام على قمة هذه المجموعة تمثالا ضخماً
لرب البحار عارى الجسم قوى البنية . وصب من البرنز في أركان الفسقية
تماثيل لأربعة أطفال سعداء يلعبون مع دلفين يقفز في الماء ؛ ثم وضع بين
قدمي نيتون أربع عذارى رشيقات القوام يعصرن الماء من أثدائهن . وأعادت
بولونيا جيان إلى فلورنس مثقلاً بالمال والثناء ، ولم تأسف على السبعين ألف
فلورين (٨٧٥٠٠٠ ؟ دولار) التي أنفقتها على النافورة الفخمة ، ذلك أنه
روح الفن المدني كانت لا تزال حية في إيطاليا .

وإنا لتدهشنا ، ونحن نلقى نظرة الوداع على رومة في عصر النهضة ، سرعة
إفاتها من كبوتها بعد ما حل بها من الدمار عام ١٥٢٧ . لقد أظهر كلمنت
السابع من المهارة في مداواة العلة أكثر مما أظهره في منعها . لقد أنقذ
الولايات البابوية من الدمار باستسلامه إلى شارل ، واستمدت البابوية من
مواردها ما تحتاجه من المال لإعادة النظام إلى الكنيسة وتعمير بعض ما تخرب
من رومة . ولم تكن خزائن البابا قد أحست بعد بنقص الموارد من جراء
حركة الإصلاح الديني ؛ ولاح في عهد بولس الثالث أن روح النهضة
وروعها قد عادت إليهما الحياة إلى وقت ما .

لقد كان بعض الفنون يحتضر وبعضها الآخر يولد أو يبدل صورته . ويكاد
جيووليو كليوفيو Giulio Clovio ، وهو رجل كرواقي يقيم في منزل الكردينال
فانيزي ، يكون آخر المزهرفين للمخطوطات . لكن حدث في عام ١٥٧٦
أن ولد كلوديو منتي فيردي Claudio Monteverdi في كريمونا ، وسرعان
ما أضيفت المسرحيات الغنائية والموشحات الدينية إلى الفنون الجميلة ،
وأخذت أناشيد القديس المتعددة الألحان في باليسترينا تترنم بعودة
القوة والحياة إلى الكنيسة ، وكان عصر التصوير الإيطالي العظيم يؤذن
بالزوال ، غير أن بيرينو دل فاجا Perino del Vaga وجيوفاني دا يوديني
Giovanni da Udine اللذين جاءا بعد رفائيل ، قد وجها هذا الفن إلى
ناحية الزخرفة ، أما النحت فكان يستحيل إلى أشكال مشوهة ، فقد أخذ
رفائلو دا منتي لوبو Raffaello de Montelupo وجيوفاني دا منترسولي
Giovanni da Montorsoli يبالغان فيما بالغ فيه أستاذهما ميكل أنجيلو ،
فأخرجوا تماثيل ملتوية الأطراف التواء يؤدي إلى مواقف مبتكرة ولكنها
غريبة قبيحة منفرة .

وكانت العمارة وقتئذ أعظم الفنون ازدهاراً ، فقد أصلح ميكل أنجيلو
قصر فانيزي وحدائقه المقام على تل بلاتين (١٥٤٧) ، وأتم هذا الإصلاح
جيوفاي دلا بورتا (١٥٨٠) . ووضع أنطونيو دا سنجالو Antonio da
Sangallo الأصغر معبد القديس بولس في قصر الفاتيكان (١٥٤٠) .
وفي القاعة الملكية المؤدية من معبد بولس ومعابد سستيني أمر البابا بولس .
الثالث أن يضع سنجالو هذا تصميم الأرضية الرخامية واللوحات الزخرفية ،
وأن يقوم فاساري وابنا زكاري Zuccari بعمل مظلمات الجدران ، وأن
يقوم دانييلي فلتيرا Daniele da Volterra ومعه بيرينو دل فاچا بحفر
النقوش في الحصص . وازدانت حجرات البابا في سانت أنجيلو بمظلمات من
صنع بيرينو ، وجيووليو رومانو ، وجيوفاني دا يوديني وحفرهم . وشاد

الكردنال إبوليتو دست الثاني بالقرب من تريغولي (١٥٤٩) أول قصرين ريفيين لأسرة دست ، وأعد بروبيجوريو Pirro Ligorio الرسوم اللازمة للملهي وزخرفه أبناء زكاري ، ولا تزال الحدائق المدرجة تشهد بما كان لكرادلة النهضة من ذوق رقيق ينفقونه دون مبالاة .

وكان أحب المعماريين إلى الشعب في رومة أو حولها في ذلك العهد هو جياكومو باروتسي دا فنيولا Giacomo Barozzi da Vignola . وقد جاء هذا المهندس من بولونيا للدراسة الخرائب الرومانية القديمة ، وكون طرازه الخاص بالجمع بين باثيون أجريا وباسلقا يوليوس قيصر ، وسعى لأن يجمع بين السقف المقبب والعقود ، والعمد والقواصر ، وكتب كما كتب بالاديو كتابا لنشر مبادئ فنه ، وأحرز أول نصر له في كبرارالو Caprarale القريبة من فيتر بوجين صمم للكردنال فارفيزي قصراً لأن فارنيزي غير قصرهم الأول واسمها مترفا (١٥٤٧ - ١٥٤٩) ، ثم شاد بعد عشر سنين من إتمامه قصراً ثالثاً لهم في بياتشندسا . ولكن أعظم أعماله أثراً هي التي أقامها في رومة وهي بيت البابا جيوليو الريني الذي أقامه للبابا يوليوس الثالث وبورتا دل بوبولو Porta del Popolo ، وكنيسة جيسو Gesu (١٥٦٨ - ١٥٧٥) . وفي هذا الصرح الذائع الصيت الذي بناه لطائفة الجزويت الناهضة خطط فنيولا نيفاً ذا عرض وارتفاع عظيمين وحول أجنحة الكنيسة إلى معابد ، وكان المهندسون الذين جاءوا من بعده يرون أن هذه الكنيسة أعظم مظهر للطراز المشوّه - ففيها أشكال كثيرة منحنية أو ملتوية بالزخرف ، وخلف فنيولا عام ١٥٦٤ ميكل أنجيلو في منصب كبير المهندسين لكنيسة القديس بطرس ، وكان له نصيب من الشرف في رفع التبة الكبرى التي صممها أنجيلو من قبل .

الفصل السابع

ميكل أنجيلو : آخر المطاف

١٥٣٤ - ١٥٦٤

وعاش ميكل أنجيلو طوال تلك السنين كأنه شبح مشاكس قدم من عصر غير العصر الذي كان فيه ، وكان في التاسعة والخمسين من عمره حين مات كلمنت ، ولكن يبدو أن أحداً لم يكن يظن أن من حقه أن يستريح . فها هو ذا پول الثالث وفرنتشيسكو ماريا دوق أربينو يتنازعان جسمه الحي . فأما الدوق ، بوصفه منفذاً لأعمال يوليوس الثاني ، فقد أخذ يطالب بإتمام قبر عمه ، معتمداً على عقد وقعه أنجيلو من زمن بعيد . ولكن البابا المتغطرس لم يعر هذا الطالب التفاتاً ، وأخذ يقول لبوناروتي : « لقد ظلت ثلاثين عاماً ألح في أن تدخل في خدمتي ، والآن وقد جلست على كرسي البابوية هل يليق بك ألا تلي ندائي ؟ أما هذا العقد فسيمزق ، وستعمل أنت لي ، وليكن بعد ذلك ما يكون » (٥٥) . واحتج البابا على هذا ، ولكنه ارتضى أخيراً أن يقام ضريح أصغر كثيراً من الذي كان يحلم به يوليوس . وكان علم الفنان الجبار بأن الضريح بناء ناقص مشوه سبباً في نكده عيشه في سنيه الأخيرة .

وفي عام ١٥٣٥ كتب البابا المنتصر خطاباً يعين به ميكل أنجيلو كبير المهندسين ، والمثاليين ، والمصورين في الفاتيكان ، ويشيد بتفوقه في كل ميدان من هذه الميادين . وجعل الفنان فوق ذلك عضواً في بيت البابا ونخصص له معاشاً قدره ١٢٠٠ كرون (١٥٠٠٠ ؟ دولار) كل عام مدى الحياة . وكان كلمنت السابع قد طلب إليه قبل وفاته بزمان قليل

أن يرسم مظلماً بصور عليه يوم الحساب خلف مذبح معبد سستيني .
واقترح پولس وقتئذ أن يقوم الفنان بهذا العمل . وتردد ميكلا لأنه يريد
أن يواصل أعمال النحت لأعمال التصوير ؛ فقد كان أسعد حالا وهو يعمل
بالمطرقة والمنحت مما يكون وهو يعمل بفرشاة الرسم . وكانت سعة الجدار
الذى يراد تصويره — ٦٦ قدما في ٣٦ — خليقة بأن تكرر هذا التردد ،
غير أنه بدأ هذه الصورة التى هى أعظم صوره كلها في شهر سبتمبر من
عام ١٥٣٥ وكان وقتئذ في سن الستين .

ولعل ما لاقاه المرة بعد المرة من العنت في حياته — كضريح يوليوس
الأبتر ، وتدمير التمثال الذى أقامه لهذا البابا في بولونيا ، وعدم إتمامه واجهة
سان لورندسو وقبور آل ميديتشى — قد جمعت في صدره حقداً دفيناً فاض
حتى صبه غضباً في هذه الصورة القدسية . ولعله قد عادت إليه من خلال
أربعين عاماً ذكريات سفنبرولا — منها تلك النبوءات المفجعة المندرة بسوء
المنقلب ، وذلك التشنيع الشديد على نبى الإنسان ولوئمه ، وفساد
رجال الدين ، واستبداد آل ميديتشى ، والخطيئة العقلية ، والمباهج
الوثنية ، ولهب نار الجحيم التى تشوى روح فلورنس . وكأنما كان الشهيد
الميت يتحدث إليه مرة أخرى ، من مذبح العالم المسيحى الوثيق الصلة به .
وهكذا شرع الفنان المكتئب الذى لقبه دانتى بالعالم يغوص من جديد

في أجاج الجحيم ويصور أهوالها على الجدار لكى تظل تلك الأحكام الإلهية
التي لا مفر منها ماثلة في المستقبل أمام البابوات أجيالا بعد أجيال وهم
يقرءون المقداس . وفي هذا الحصن الحصين الحامى للذى ، الذى كان
إلى عهد غير بعيد يزدرى بالجسم الآدمى ويصب عليه اللعنات ، يشرع
هذا الفنان بفرشاته فيصور — وكأنما هو مثال ينحت تمثائيل مجسمة لا مصور
يرسم صوراً ملونة — ذلك الجسم في مائة من الحالات والمواقف ، تارة
يتلوى ويتجهم من شدة الألم ، وتارة في غفوة ، ثم في نشوة حين يبعث

الموتى أحياء ، أو يصور الملائكة وقد انتفخت أجسامهم وهم ينفخون
النفخة المشهورة في الصور ، أو المسيح يكشف عن جراحه ؛ وقد أوتى
مع ذلك منكبين عريضين وذراعين قويتين يستطيع بها أن يقذف في الجحيم
من كانوا يظنون أنهم أكبر من أن يطيعوا أوامر الله .

غير أن ما فيه من ميل إلى النحت قد أفسد عليه قدرته على التصوير ؛
ذلك أن هذا التزمّت المتشدد أخذ يزداد كل يوم استمساكا بدينه ، ويصر
على أن يمثل باللون أجساما متخمة قوية ذات عضلات مفتولة ، حتى أصبح
الملائكة الذين يمثلهم الفن والشعر أطفالا سعداء ، أو شبابا ظرفاء ،
أو فتيات رشقات ، أصبح هؤلاء في يديه خلائق ذوى أجسام رياضية
يتسابقون في الفضاء ، ويستحقون النجاة ، سواء كانوا أنخيلا أو شرارا
لأنهم خلقوا في صورة الله أو فيما يشبه صورة الله إن لم يكن لغير هذا
من الأسباب . وحتى المسيح نفسه ، في جلال غضبه ، أصبح صورة
مردم المرسوم على سقف بسستيني ، أى لها في صورة إنسان أو فيما يشبه
صورة الإنسان . إن في الصورة لحما أكثر مما يجب أن يكون ، وفيها
أذرعاً ، وسيقاناً ، وعضلات في الأجسام وفي باطن السيقان أكثر مما
يلزم منها لأن يسمو بالروح إلى التفكير في عقاب الذنوب . وحتى أريتينو
الفاجر المستهتر كان يرى أن هذه الأجسام العارية الكثيرة العدد قد وضعت
في غير المكان اللائق بها . وما من أحد يجهل أن بياجيرو دا تشيزينا
Biagio de Cesena رئيس التشريفات عند بولس الثالث قد شكّا من أن
هذه الحفاوة الزائدة بالجسم البشري أليق بأن تزين مشربا للخمر منها
بمصلى للبابوات ، وأن ميكل أنجيلو قد ثار لنفسه منه بأن صورته بين
الملعونين المعذبين ، وأن بولس نفسه حين طلب إليه بياجو أن يمحو
الصورة رد عليه ردا فيه ما فيه من الفكاهة القوية والتقى العظيم ، فقال إن البابا
نفسه لا يستطيع أن ينجى الروح من نار الجحيم^(٥٦) . واستجاب بولس

الرابع لاحتجاج رجال من طراز بياچيو فأمر دانييلي دا قلثيرا Daniele de Voterra بأن يصور سراويل للأجزاء التي لا يليق ظهورها من الصور ، فما كان من رومة إلا أن لقبت الفنان المسكين « بخياط السراويل ، il Braghettone . على أن أجل صورة في هذا المتظر الشامل القاتم ترتدى أثواباً سابغة تغطي كل جسمها . تلك هي صورة مريم العذراء التي تعد أثوابها آخر انتصار أحرزه الفنانون في تصوير الثياب . والحق أننا لا نجد في هذه الصورة التي تمجد الوحشية الآدمية عنصراً ينقذها من هذه الوهدة إلا نظرة الارتياح والشفقة البادية على وجه العذراء .

وأزيح الستار عن هذه الصورة يوم الاحتفال بعيد الميلاد في عام ١٥٤١ بعد كدح دام ست ستين . وكانت رومة وقتئذ توشك أن تدخل في عهد من الرجعية الدينية ضد أساليب النهضة ، فارتقت صورة يوم الحساب على أنها مما يتفق مع الدين ومع الفن العظيم . ووصفها فاسارى بأنها أروع للصور كلها على الإطلاق ، وأعجب الفنانون بما فيها من دقة التشريح ، ولم يروا عيباً في المغالاة في حجم العضلات ، ولا في المواقف الغريبة الشاذة ، ولا في كثرة الأجسام البشرية ؛ بل حدث تقيض هذا فأخذ كثيرون من المصورين يقلدون أساليب هذا الفنان المعلم وشذوذه ، وأوجدوا المدرسة النمطية التي بدأ بها اضمحلال الفن الإيطالي . وحتى غير الفنانين قد أدهشهم المراعاة والتناسب في الأحجام مما أظهر بعض أجزاء الصورة وكأنها نقش بارز ، كما أدهشهم المراعاة الدقيقة لفن المنظور التي جعلت طول الأجسام السفلى مترين ، والوسطى ثلاثة أمتار ، والعليا أربعة . وإذا نظرنا إلى هذا المظلم اليوم فإننا لا نستطيع أن نحكم عليه حكماً عادلاً صحيحاً . فلقد أضربه دانييلي حين ألبسه السراويل ، كما أضرت به الأثواب التي ألبسها بعض أشكاله بعدئذ في عام ١٧٦٢ ، وآذاه التراب والدخان ، وما علاه من قتام مدى أربعة قرون .

وبعد أن استراح ميكل أنجيلو أربعة أشهر بدأ (١٥٤٢) يعمل في مظلمين في المعبد الذي بناه أنطونيو دا سنجولبولس الثالث في قصر الفاتيكان : وكان واحد منهما يمثل استشهاد القديس بطرس ، والثاني تنصر القديس بولس . وهنا أيضاً أطلق الفنان العجوز لنفسه العنان في المغالاة في تصوير الأجسام البشرية . ولما أتم الصورتين كان قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، وقال لفاسارى إنه صورهما رغم أنه ، وإنه بذل في تصويرهما جهداً شديداً ولا في عناء كبيراً (٥٢) .

غير أنه لم يحس بأنه قد بلغ من العمر ما يحول بينه وبين الاشتغال بالنحت ، بل إنه كان يقول إن المطرقة والنحت يساعده على الاحتفاظ بصحته . ولقد كان ، وهو يرسم صورة العشاء الأخير يجد من حين إلى حين ملجأ وسلوى في الرخام الذي في مرسمه . ففي عام ١٥٣٩ نحت تمثال برونس الصارم القوى (المحفوظ في بارجلو) الخليق بأن يضم إلى أعظم التماثيل الرومانية الملونة . ولعله قد نحت ليؤيد به ما حدث منذ قليل من قتل الطاغية أليساندرو ده ميديتشى في فلورنس ، وليكون نذيراً للطغاة في المستقبل . وبعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت نحت وهو في فترة من المزاج الرقيق تمثال العذراء تبكي أمام المسيح الميت ، والذي يقوم الآن خلف مذبح كتلرائية فلورنس . وكان يرجو أن يوضع هذا التمثال فوق ضريحه ، ولذلك أخذ يعمل فيه كالمحموم ، وكثيراً ما كان يواصل العمل ليلاً في ضوء شمعة مثبتة في قلنسوته . ولكن ضربة شديدة من مطرقة أضرت بالتمثال ضرراً لم يسعه إلا أن يتركه معتقداً أنه قد حاق به من الأذى ما لا يمكن إصلاحه : غير أن خادمه أنطونيو ميني استهده إياه ، وأخذ ، وباعه إلى رجل من فلورنس . والتمثال ثمرة مدهشة لجهود رجل في السابعة والخمسين من العمر . فجسم المسيح الميت ممثل دون مبالغة ، وتمثال مريم الذي لم يتم هو الرقة بعينها ممثلة في الحجر ، ووجه نيقوديموس Nicodemus المقنع الرائع يمكن أن يمثل ،

كما يظن البعض ، وجه ميكل أنجيلو نفسه ، وكثيرا ما كان الفنان في تلك المرحلة من العمر يفكر في آلام المسيح .

وكان دينه في جوهره هو دين أهل العصور الوسطى ، يخلع عليه التصوف كثيرا من الكتابة والقتام ، والتنبؤ بالمستقبل ، والتفكير في الموت وعذاب النار . ولم يكن يشارك ليوناردو في تشككه ، أو رفائيل المرح في استهتاره وعدم مبالاته . وكانت أحب الكتب إليه الكتاب المقدس وكتاب دانتى ، وقد أخذ شعره في أخريات حياته يدور أكثر فأكثر حول الأمور الدينية :

الآن وصلت حياتى مختارة بحرا عاصفاً
كأنها زورق هش ضعيف ، إلى المرفأ الواسع
الذى يؤمر الناس جميعاً بالدخول فيه قبل أن يحل يوم الحساب الأخير
فينحاسب الناس على ما كسبت أيديهم من خير وشر ويجزون عليه
الجزاء الأوفى .

ولقد عرفت الآن حق المعرفة أن ذلك الوهم
الذى استحوذ على قلبي وجعلنى عبداً خاشعاً للفن الأرضى
إنما هو هو وعيب باطل . ألا ما أشد إثم
ذلك الشيء الذى يطلبه الناس جميعاً ويتلهفون عليه !
وأفكار الحب التى صورت فى ثياب لاتكاد تستر الجسم
ما قيمها حين يقترب منا الموت المزدوج
فهو موتان موت أعلمه عن يقين وآخر أربهه .
فلا التصوير ولا النحت بقادر الآن على أن يريح نفسى
التي تتوجه إلى حبه العظيم فى عليائه
ذلك الذى يبسط ذراعيه على الصليب ليضمنا إليه (٥٨) .

وأخذ الشاعر الشيخ يلوم نفسه على ما كتب فى السنين الخوالى من أغان
فى العشق . ولكن يلوح أن هذه الأغانى لم تكن تنفيساً عن شهوة جسمية

يلى كانت رياضة شعرية . وأعظم أغاني ميكل أنجيليو إخلاصاً في مجموعته المعروفة باسم « القوافي » هي التي يوجهها إلى نبيل روماني كان يدرس التصوير . وقد جاء هذا الشاب إلى أنجيليو (في عام ١٥٣٢ على ما نظن) ليأخذ عليه الفن ، وسحر أستاذه بجمال وجهه واعتدال قامته ، وحسن هيئته وأدبه الجم . وأحبه ميكل وكتب فيه أغاني ملؤها الإعجاب الصريح به حتى لقد وضعه الناس مع ليوناردو بين المشهورين من ذوى الشذوذ الجنسي في التاريخ (١٨٥) . غير أن هذه التعبيرات الغرامية بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة كانت شائعة في عهد النهضة حتى بين الرجال الذين يعشقون النساء والنساء اللاتي يعشقن الرجال ؛ وكانت عباراتها القوية المتطرفة جزءاً من الأساليب الشعرية وكتابات الرسائل في ذلك العهد ؛ ولذلك فلنا لا نستطيع أن نستخلص منها أحكاماً معينة . لكننا نلاحظ مع ذلك أن ميكل أنجيليو - إذا صرفنا النظر عن شعره - ظل فيما يلوح لا يعبأ بالنساء حتى التقى بفتوريا كولنا . وبدأت صداقته معها حوالي عام ١٥٤٢ حين كانت في سن الخمسين وكان هو في السابعة والستين . وإنه ليسهل على امرأة في سن الخمسين أن تثير لواهج الحب في قلب ابن الستين ؛ ولكن فتوريا لم تكن تريد ذلك أو تفكر فيه ، فقد كانت تحس بأنها لا تزال مرتبطة بمركز بيسكارا الذي مات منذ سبعة عشر عاماً ؛ ولهذا كتبت إلى ميكل أنجيليو تقول : « إن صداقتنا صداقة ثابتة ، وحبنا قوى أكيد ؛ تربطه عقدة مسيحية وثيقة » (٥٧) وبعثت إليه بأغان بلغ عددها ١٤٣ أغنية كلها طيبة ولكن الإهمال ياذ فيها ؛ ورد عليها بأغان تفيض إعجاباً وإخلاصاً ولكن الغرور الأدبي يفسدها ويشوهها . وكانا إذا التقيا يتحدثان عن الفن والدين ، ولعلها كانت تعترف له بعظفها على الرجال الذين كانوا يحاولون إصلاح الكنيسة . وكان تأثيرها فيه قوياً عميقاً ، فقد بدا له أن أجمل ما في الحياة من عناصر روحية قد اجتمعت كلها في تقواها ، وحنانها ، وإخلاصها . وكان بعض

ما يتصف به من تشاؤم يزول عنه إذا مشى معه وتحدثت إليه ، وكان يدعو الله ألا يعود مرة أخرى الرجل الذي كانه قبل أن يلتقى بها . وكان إلى جانبها حين حضرتها الوفاة (١٥٤٧) ؛ وظل بعد وفاتها زمناً طويلاً يحطم القلب حزناً كأن يعقله خبالاً » ، يلوم نفسه لأنه لم يقبل وجهها كما قبل يدها في تلك اللحظات الأخيرة (١٠) ، وأقدم بعد وفاتها بقليل على أعظم أعماله الفنية وأكبرها تبعة ؛ ذلك أنه لما مات أنطونيو سنجالو (١٥٤٦) ، طلب بولس الثالث إلى ميكل أنجيلو أن يتم كنيسة القديس بطرس . واحتج الفنان المتعب مرة أخرى بأنه مثال لا مهندس . ولعله لم يكن قد نسى بعد عجزه عن إتمام واجهة سان لورندسو . ولكن البابا أصر ، وامثل ميكل أنجيلو لأمره « وهو آسف كل الأسف » ؛ وأضاف ؛ كما يقول فاسارى إلى هذا قوله : « إنى لأعتقد أن البابا قد أوحى إليه بذلك من عند الله » . وأبى الفنان أن يتقاضى عن ذلك العمل ، وهو آخر أعمال حياته ، مكافأة إضافية . وإن كان البابا قد ألح عليه في هذا المرة تلو المرة . وبدأ العمل يجد لا يتوقعه الإنسان من رجل في الثانية والسبعين من العمر .

وكأنما كان العمل في كنيسة القديس بطرس لا يكفيه ؛ فقد تعهد في ذلك العام نفسه بالقيام بمشروعين كبيرين : أولهما أنه أضاف إلى قصر فارنيزى طابقاً ثالثاً ، وشرفة يمتدح كل من رآها جمالها البارع ، كما أضاف طابقين علويين إلى بهو يرى فاسارى أنه أجمل أبهاء أوروبا بأجمعها ؛ ووضع تصميمًا لمجموعتين من الدرج يرقى بهما إلى تل الكپتول ، وأقام فوق قفته تمثال ماركس أورليوس القديم الممتطى صهوة جواد . ثم شرع بعدئذ وهو في الثامنة والثمانين من عمره يشيد فوق الطرف الثانى من الهضبة قصر مجلس الشيوخ بسلامه المزدوج العالى الفخم ؛ ووضع خططاً لقصر المعهد الموسيقى على أحد جانبي قاعة مجلس الشيوخ ومتحف الكپتول على

الجانب الآخر منها : على أنه حتى هو نفسه ، لم يمتد به أجله حتى ينفذ هذه المشروعات كلها ، ولكن الأبنية تمت كلها وفقاً لتصميمه على أيدي توماسو كفاليري ، وفنيولا ، وجياكومو دلا پورتا .

ولما توفي بولس الثالث (١٥٤٩) لم يعرف الناس هل يحتفظ بخلفه يوليوس الثالث بميكال أنجيلو كبيراً للمهندسين في كنيسة القديس بطرس . وكان ميكال قد رفض التصميم الذي وضعه أنطونيودا سنجالو لأن يجعل الكنيسة مظلمة إلى حد يخشى منه على الآداب العامة (٦١) ، ولكن أصدقاء المتوفى أقنعوا اثنين من الكرادلة بأن يحذرا البابا بأن بونارتي يعمل على إفساد الصرح . وأيد يوليوس أنجيلو ، ولكن لما جلس البابا بولس الرابع على كرسي البابوية (وقد كان البابوات يتعاقبون تعاقباً سريعاً في أيام ميكال أنجيلو) عاد حزب أنجيلو إلى الهجوم وادعى أن الفنان الذي كان وقتئذ في الحادية والثمانين من عمره ، قد باع من العمر أرذله وكان في عهد طفولته الثانية ، وأنه كان يهدم أكثر مما يبني ، وأنه يضع في سان پيترو تصميمات مستحيلة التنفيذ . وكثيراً ما فكر ميكال في الاستقالة من عمله وقبول الدعوات المتكررة التي كان يبعث بها إليه الدوق كوزيمو كي يعود إلى الإقامة في فلورنس ؛ ولكنه كان قد وضع خطة القبة ، ولم يشأ أن يتخلى عن منصبه حتى يرى فكرته في طريق التحقيق ، وقضى عدة سنين يفكر في هذه المشكلة ، حتى إذا كان عام ١٥٥٧ عمل من الصلصال نموذجاً صغيراً للقبة الضخمة التي كان عرضها وثقلها أكثر ما في المشروع خطورة . وقضى عاماً آخر في صنع نموذج من الخشب أكبر من النموذج السابق ووضع الخطة اللازمة للبناء والمساند . وكان المشروع يقضى بأن يكون قطر القبة ١٣٨ قدماً ، وارتفاعها هي نفسها ١٥١ ، وأن تكون قمتها على ارتفاع ٣٣٤ قدماً فوق سطح الأرض ، وأن ترتكز على قاعدة ذات أطراف تعتمد على عتود ضخمة في الليوان الذي يخترق الكنيسة . وكان المشروع يقضى أيضاً

بأن يشاد « فانوس » (أى قبة صغرى ذات واجهة مفتوحة) يعلو تسعة وستين قدماً فوق القبة الرئيسية وأن ينشأ فوقها صليب يعلو عن هذا الفانوس اثنتين وثلاثين قدماً يكون ذروة ذلك الصرح الفخم العظيم الذى يصل بأجمعه إلى ارتفاع ٤٣٥ قدماً . ذلك هو مشروع القبة : أما القبة التى يمكن أن نقارنها بها والتى شادها برونيسكو فوق كنيسة فلورنس الكبرى ، والنى وصف ميكل أنجيلو جمالها بأنه جمال لا يفوقه سواه ، فقد كانت تبلغ ١٣٨ قدماً ونصف قدم فى العرض و ١٣٣ قدماً فى ارتفاعها هى نفسها و ٣٠٠ قدم من سطح الأرض إلى قمة البناء و ٣٥١ قدماً بما فيها الفانوس . وكانت هاتان القبتان أعظم ما شيد من الصروح جرأة فى تاريخ عمارة النهضة :

وجاء بيوس الرابع فى عام ١٥٦٩ بعد بولس الرابع ، وسعى أعداء الفنان الجبار مرة أخرى لكى يحلوا محله . وكان قد أنهكه النزاع وتبادل التهم ، فقدم استقالته من منصبه (١٥٦٠) ، ولكن البابا رفض قبولها ، وظل ميكل أنجيلو كبير المهندسين فى كنيسة القديس بطرس إلى يوم وفاته . وتبين بعدئذ أن ناقديه لم يكونوا مخطئين فى كل ما وجهوه إليه من نقد . ذلك أنه فى فن العمارة قلما كان يعنى بوضع خططه على الورق ، وقلما كان يفضى بها إلى أصدقائه ، بل كل ما كان يفعله أن يضع تصميم كل جزء من أجزاء البناء كلما قرب وقت إقامته : وكان شأنه فى هذا شأنه فيما كان يقوم به من أعمال النحت . فكثيراً ما كان يهاجم كتلة الرخام دون أى استعداد سابق . أكثر من وجود فكرة فى رأسه . ولما مات لم يخلف وراءه خططاً أو نماذج محددة لأى جزء من البناء غير القبة وحدها ، ولهذا كان من خلفوه أحراراً فى اتباع أفكارهم هم أنفسهم ، فبدلوا فكرته وفكرة برامنتى الأساسية — فكرة الصليب اليونانى — وأحلوا محلها فكرة الصليب اللاتينى بأن زادوا فى طول جناح الكنيسة الشرقى وأقاموا واجهة عالية أمامه حجبت السقف المقبب عن الأنظار

من هذه الناحية إلا إذا نظر إليها من بعد ربع ميل . وكان جزء البناء الوحيد الذى اتبعت فيه خطة أنجيلو هو هذا السقف المقبب نفسه ، فقد نفذه جياكومو دلا پورتا عام ١٥٨٨ كما وضعه أنجيلو دون تغيير هام . وما من شك فى أن هذا البناء أفخم الأبنية فى رومة وأنها منظرآ . فهو يعلو فى منحنيات رائعة من أسفل قاعدته على التل إلى الفانوس القائم أعلاه ، ويتوج فى جلال الربعة التى فى أسفله ، ويضئ على العمدة ذات الطراز القديم ، والعمدة المربعة ، وطيلات العمدة ، والقواصر وحدة شاملة تضارع فى هائها أى صرح معروف فى العالم القديم . وفيها أيضا حاولت المسيحية أن توفق بينها وبين العالم القديم . فقد وضع بيت عبادة المسيح قبة البانشيون (التى يبلغ اتساعها ١٤٢ قدماً وارتفاعها بأكمله ١٤٢) فوق باسليقا قسطنطين كما أقسم برامنتى أن يفعل ، ولم يجبن عن أن يعلو بالعمدة القديمة ذلك العلو الشامخ الذى لا نظير له فى سجلات التاريخ القديم .

ولم ينقطع ميكل أنجيلو عن العمل حتى بلغ التاسعة والثمانين من عمره . من ذلك أنه حول جزءا من حمامات دقلديانوس فى عام ١٥٦٣ إلى كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلي وذيرها استجابة لطلب پيوس الرابع ، ثم وضع تصميم پورتا بيا Porta pia أحد أبواب المدينة . ووضع للفلورنسيين المقيمين فى رومة نموذجا لكنيسة ، قال عنه فاسارى ، ولعله كان مدفوعاً فى ذلك بتحمسه الشديد إلى أستاذه وصديقه الشيخ ، إنه « أجمل ما وقعت عليه عين إنسان »^(١٢) . لكن أموال الفلورنسيين فى رومة نفذت فلم يقيم البناء .

وخارت قوة الفنان الجبار فى آخر الأمر ، وكانت قوة لا يكاد يصدق الإنسان وجودها فيه . وكان وهو فى الثالثة والسبعين من عمره قد بدأ يشكو من داء الحصوة ، ويلوح أنه قد وجد ما يخفف عنته فى بعض الأدوية . أو المياه المعدنية ، ولكنه قال : « إني أوثمن بالصلاة والدعاء أكثر مما أوثمن بالدواء » ، وكتب بعد اثني عشر عاماً إلى ابن أخ له يقول : « أما إذا سألتنى

عن حالى فإنى أعانى جميع الأمراض التى تصيب الطاعنين فى السن ، فالحصوة تمنعنى من التبول ، وحتوى وظهري متصلبان تصلباً يمنعنى فى كثير من الأحيان عن صعود الدرج» (٦٣) ، ومع ذلك فقد ظل حتى سن التسعين يخرج إلى الخلاء مهما تكن حالة الجو .

وكان يترقب منيته باستسلام المؤمن وانشراح الفيلسوف . وقد قال لقاسارى يوماً ما : « لقد بلغت من الكبر درجة ينجى إلى معها أن الموت يجذبني من ردائي ويدعوني إلى السير معه » (٦٤) . ويمثله نقش برنزي بارز ذائع الصيت من صنع دانييلي دافلتيرا ذا وجه مغضن من فرط الألم ، شاحب من كبر السن . وأخذ في شهر فبراير من عام ١٥٦٤ يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، ويقضى معظم وقته نائماً في كرسیه الساند . ولم يترك وصية بل كل ما فعله أنه « أسلم روحه لله ، وجسمه للأرض ، ومتاعه لأقرب أقربائه » (٦٥) . وأسلم الروح في ١٨ فبراير من عام ١٥٦٤ وهو في التاسعة والثمانين من العمر ، ونقلت جثته إلى فلورنس ، حيث دفن في كنيسة سانتا كروس (الصليب المقدس) باحتفالات دامت عدة أيام . ووضع قاسارى له تصميم قبر فخيم أظهر فيه منتهى التقى والورع ،

وقد حكم معاصروه ، وأيد حكمهم مر العصور ، على أنه أعظم من ظهر على وجه الأرض من الفنانين ، رغم ما يتصف به من عيوب لا حصر لها . وهو ينطبق عليه أتم انطباق تعريف « أعظم الفنانين » الذى وضعه رسكن ، لأنه « أظهر في مجموعة أعماله أكبر عدد مستطاع من أعظم الأفكار » - أى الأفكار « التى تحرك أعظم مواهب العقل وتسمو بها » (٦٦) . فقد كان أولاً رساماً ممتازاً ، كانت رسومه من الكنوز التى يعتز بها أصدقاؤه الذين أهداها إليهم أو اختلسوها منه . وفي وسعنا أن نرى هذه الرسوم اليوم في كاسا بونارتي Casa Buonariti بفلورنس ، أو في خزانة الرسوم بمتحف اللوفر . وهى تضم رسوماً تخطيطية لواجهة كنيسة سان لورندسو ، ورسوم

يوم الحساب ودراسة جميلة لسبيله ، وصورة تخطيطية للقديسة آن ، لا تكاد تقل في دقة فكرتها عن صورة ليوناردو نفسه ، والصورة الغربية التي رسمها لثوريا كولنا الميئة ، وهي ذات وجه لا تستبان معارفه وتدين ذابلين . وقد رجع في حديث له نقله عنه فرانثييسكو ده هولندا Francisco de Hollanda بجميع الفنون إلى فن التصميم فقال :

إن فن التصميم أو الرسم الدقيق . . . هو أساس فنون التصوير الملون ، والحفر ، والعمارة ، وكل شكل من أشكال التمثيل وجوهرها ، كما هو الأساس والجوهر للعلوم بأجمعها . ومن استطاع أن يتقن هذا الفن ويبرع فيه حصل على كنز عظيم . . . ذلك أن جميع أعمال العقل البشرى واليد البشرية إما أن تكون هي التصميم نفسه وإما أن تكون فرعاً من ذلك الفن (١٧) .

وظل وهو يصور بالألوان رساماً أقل اهتماماً باللون منه بالخطوط ، يسعى قبل كل شيء لرسم صورة معبرة مفصحة ، أو التعبير بالفن عن موقف آدمي ، أو نقل فلسفة للحياة عن طريق الرسم والتخطيط . وكانت يده هي يد فيدياس أو أبلز ، وضوته صوت أرميا أو دانتى . ولسنا نشك في أنه في أحد تنقلاته بين فلورنس ورومة قد وقف عند أرفيتو ودرس صور العرايا التي رسمها سنيوريلي في تلك البلدة . وقد أوحى إليه هذه الصور مضافة إلى مظلمات جيتو ومساتشيو بطراز لا يماثله مع ذلك طراز آخر احتفظ به التاريخ . وقد أدخل في فنه ، وأظهر فيه من النبيل أكثر مما أدخله في الفن وأظهره فيه غيره من الفنانين لا نستثنى منهم ليوناردو ، أو رفايل ، أو تيشيان ؛ ولم يكن يلهو بالزخرف أو السفساف ؛ ولم يعبأ بالصغائر ، أو بالمناظر الطبيعية ، أو بالخلفيات المعمارية لصوره أو بالنقوش العربية الطراز ؛ بل كان يترك موضوعه يقف وحده غير مزدان حولا مزخرف . ذلك أن عقله قد استحوذت عليه رؤى سامية ، خلج عليها شكلا بقدر ما تستطيع اليد أن تخلع على الرؤى أشكالا ، تصورها عرافات ،

ومتمنشين وقد بسين ، وأبطلا ، وأربابا . وقد استخدم فنه الجسم الآدمي وسيلة له وواسطة ، ولكن هذه الأشكال البشرية ، كانت عنده هي التجسيم المعذب لآماله ، ومخاوفه ، وفلسفته المضطربة ، وعقيدته الدينية التي نخبها لهما .

وكان النحت فنه الخاص المحبب المميز له عن غيره من الفنانين ، لأنه هو أعظم الفنون التشكيلية . ولم يلون تماثيله في يوم من الأيام لأنه كان يشعر بأن شكلها كفايتها ، بل إن البرنز نفسه كان فيه من اللون أكثر مما يطبق ، ولهذا قصر نحته على الرخام^(٦٨) ، وكانت كل صورته ومبانيه وثيقة الارتباط بالنحت حتى قبة كنيسة القديس بطرس نفسها : وقد أخفق في أن يكون مهندس عمارة (إذا استثنينا من قولنا هذا تلك القبة الفخمة) ، لأنه كان يصعب عليه أن يتصور بناء إذا لم يكن في صورة الجسم الآدمي ونسبه ، ولم يكن يطبق أن يراه إلا من حيث هو مستودع للتماثيل ؛ وكان يريد أن يغطي بتماثيله السطوح كلها بدل أن يجعل السطوح عنصراً من عناصر الشكل . وكان النحت أشبه بحمى تنشبه ولا تفارقه ، وكان الرخام في ظنه يخفي في طياته سرّاً يصير على كتمانها ، ويعتزم هو أن ينتزعه منه ، غير أن هذا السر كامن في نفسه هو ، وهو أدق من أن يكشف عنه جملة وتفصيلاً . وقد ساعده دوناتلو بعض المساعدة على إعطاء الروى الباطنية صورة ظاهرة ، وقدم له دلا كورشيا معونة أكثر من دوناتلو في هذه الناحية ، أما اليونان فكانت معونتهم له أقل من الاثنين ، وقد جذا جذو اليونان في تكريس معظم فنه للجسم الآدمي ، وترك تماثيله أكثر تعميماً تكاد تتبع كلها نمطاً خاصاً ، كما يتبين لنا ذلك في تماثيل النساء القائمة على قبور آل ميديتشي . ولكنه لم يستطع قط تمثيل الطمأنينة المجردة من الانفعال التي نراها بادية على وجوه التماثيل اليونانية قبل العصر الهلنستي ، لأن مزاجه لم يكن يحيز له أن يعنى بتمثيلها ، ولأنه لم يكن يجد فائدة في تصوير شكل لا يعبر عن شعور ما ، وكانت تعوزه القدرة

على الكبح والاحتجاز التي كانت عند اليونان والرومان الأقدمين ، كما كان يعوزه الشعور بتناسب الأجزاء ؛ فقد جعل الكتفين أعرض مما يوائم الرأس ، وجعل الجذع أقوى مما يناسب الأطراف ، كما جعل الأطراف نفسها معقدة بالعضلات ، كأن الآدميين والأرباب جميعاً مصارعون متوترة عضلاتهم من شدة الكفاح ، ولا يسعنا إلا أن نعرف أن فن الأسلوبيين أو النمطيين(*) وتشويه الرسوم قد بدءا بهذه المغالاة المسرحية في الجهود العضلية والانفعالات النفسية .

ولم يوجد ميكل أنجيلو مدرسة خاصة كما أوجد رفايل ؛ ولكنه درب طائفة من الفنانين الممتازين ، وكان له عليهم نفوذ قوى شامل ، وكان من تلاميذه ججليمودلا پورتا Guglielmo della Porta الذي صمم لبولس الثالث في كنيسة القديس بطرس تابوتاً لا يكاد يقل روعة عن مقابر آل ميديتشي . غير أن من خلفوا أنجيلو من رجال النحت والتصوير قلده في مغالاته دون أن يعوضوا هذا العيب بعمق التفكير والشعور ، وبالتفوق في أصول الصنعة . والحق أن الفنان العظيم هو في العادة الذروة العليا لتقليد ، وأسلوب ، ونمط ، ومزاج تاريخي ؛ وتفوقه نفسه تنتهي به سلسلة من التطورات لا يبقى بعده شيء منها ؛ ولهذا تأتي من بعده لا محالة فترة من المحاكاة الضعيفة والاضمحلال ، ثم يبدأ مزاج جديد وتقليد جديد . في النماء ، ونرى فكرة جديدة ، ومثلاً أعلى جديداً ، أو أصولاً للفن جديدة . تكافح مستعينة بمائة من التجارب الغريبة كي تصل إلى نظام جديد ، وإلى شكل أصيل يتكشف عن طراز جديد .

وعلينا أن نقول كلمة أخرى تنسم من جانبنا بالخضوع والتواضع . تلك هي أن الأوساط منا نحن الآدميين ، حتى في الوقت الذي يضعون فيه أنفسهم موضع الحكام على الصفوة الممتازين ، يجب ألا تعوزهم فضيلة

(*) التمسك بأسلوب معين أو السير على نمط بعينه . (المترجم)

الاعتراف بفضل أولئك الصفوة الأخيار وعبقريتهم . ويجب ألا نستحي من عبادة الأبطال ، إذا لم نتخل في خارج أضرحتهم عن إحساسنا بالتميز بين مزاياهم وعيوبهم . ونحن نجمل ميكل أنجيلو لأنه ظل طوال حياته الطويلة المعذبة يخاق وينتج آية فنية رائعة في كل ميدان من ميادين الفن الرئيسية . ولنا لئرى هذه الروائع تنزع من لحمه ودمه ، ومن عقله وقلبه ، إذا صح هذا التعبير ، حتى تتركه إلى وقت ما ضعيفاً من كثرة ما أبدع وخلق ، ونرى هذه الروائع تتشكل بمائة ألف ضربة من مطرقة ومنسحته ؛ وقلمه وفرشاته ؛ نراها تتشكل واحدة في إثر واحدة ، كأنها مخلوقات خالدة تأخذ مكانها بين أشكال الجمال أو المعاني الباقية أبد الدهر . إن عقولنا لأضعف من أن تعلم حقيقة الله سبحانه ، وهي عاجزة عن فهم الكون الذي اختلط فيه ما هو في الظاهر خير وشر ، وعذاب وجمال ، ودمار وسمو ؛ ولكننا إذا كنا في حضرة أم تحنو على طفلها ، أو عبقرى يخلق من الفوضى نظاماً ، ويكسب المادة معنى ، والصورة أو الفكرة نبلا وعظمة ، أحسنا بأننا أقرب ما نستطيع أن نكون إلى الحياة ، والعقل ، والقانون ، التي يتكون منها عقل العالم الذي لا يمكن أن تدركه العقول .

حاشية

لقد كان من التجارب الطيبة العميقة التي نحمد الله عليها أن درسنا هذا العدد الجم من الدراسات والشخصيات التي صادفتنا في تلك القرون الغنية المضطربة . ألا ما أعظم ثراء النهضة الذي لا حد له ، وحسبك أنها استطاعت حتى في عهد اضمحلالها أن تنجب رجالا من أمثال تئوتورتو وفيرونيزي ، وأريتينو فاساري ، وبولس الثالث وباليسترينا ، وسان سوفينو وبلاديو ، والدوق كوزيمو وتشيليني ، وأنها أثمرت في الفن أمثال قاعات قصر الأدواق ، وقبة القديس بطرس ! وما أعظم هذه الحيوية المروعة التي كانت تكمن بلاريب في أولئك الإيطاليين من رجال النهضة الذين يحيط بهم من كل جانب العنف والغواية ؛ والحرافات ، والحروب ، ولكنهم مع ذلك كانوا يحسون أقوى إحساس بكل صورة من صور الجمال وبكل آية من آيات الفن ، وينفذون حمم عواطفهم وانفعالاتهم وفهم ، وعمارتهم ، واغتيالاتهم ، وآيات نحتهم ، وصلاتهم الجنسية غير المشروعة ، وصورهم وسطورهم ، وعدادارهم الجميلة وصورهم المشوهة ، وأناشيدهم وأشعارهم المتصنعة ، وبذاءتهم وتقواهم ، وفجورهم وصلواتهم كأن إيطاليا كلها كانت بركانا نائرا يخرج منه هذا كله ! ترى هل وجد في أي مكان آخر على ظهر الأرض مثل هذا العمق وهذه القوة في الاستجابة إلى الحياة ! إنا لا نزال إلى هذا اليوم نشعر بقوة هذا الوحي ، وإن متاحفنا لتفيض بما لا تتسع له من روائع هذا العصر الملهم المحسوس .

وإنا ليصعب علينا أن نصدر عليه حكما هادئا ؛ وإذا ما أعدنا على القارئ ما وجه إليه من التهم فإننا نفعل ذلك كارهين . وأول هذه التهم أن النهضة (ونحن نقصر هذا اللفظ على النهضة في إيطاليا) قامت من الناحية المادية على الاستغلال الاقتصادي للكثرة الساذجة على أيدي القلة البارة .

ذلك أن ثروة رومة البابوية قد جاءت من النقود الصغيرة التي تبعث بها آلاف الآلاف من بيوت الصالحين الأتقياء في أوربا ؛ وإن بهاء فلورنس كان مصدره عرق الدهماء المغمورين الذين كانوا يكدحون الساعات الطوال ، وليس لهم حقوق سياسية ، ولم يكونوا يمتازون عن رقيق الأرض في العصور الوسطى إلا باشتراكهم في زهو وخيلاء في مجد الفن المدني ولآلائه ، وفي حياة المدنية الثائرة وما فيها من دوافع ومغريات . وكانت النهضة من الناحية السياسية هي إحلال الأبحاث التجارية ، والدكتاتوريات العسكرية محل حكومات المدن الجمهورية المستقلة ، كما كانت من الناحية الأخلاقية انتقاضاً وثنياً قوض الدعامة الدينية للقانون الأخلاقي ، وأطلق العنان للغرائز البشرية ، وترك لها حرية فظة لا يتورع أصحابها عن استخدام الثروة الجديدة التي آلت إليهم عن طريق التجارة والصناعة كما يحلو لهم دون وازع من ضمير أو دين . أما الدولة ، بعد أن خرجت من رقابة الكنيسة ، التي أصبحت هي نفسها سلطة زمنية وعسكرية ، فقد نادى بأنها فوق القوانين الأخلاقية في الحكم ، والدبلوماسية ، والحرب .

وكان فن النهضة (ونحن نواصل سرد التهم) جميلاً ، ولكنه قلما كان سامياً رفيعاً . فقد كان يفوق الفن القوطي في تفاصيله ، ولكنه ينقص عنه في العظمة ، والوحدة ، والأثر الكلي فيمن يشاهده ؛ وقلما كان يصل إلى كمال الفن اليوناني أو جلال الفن الروماني ؛ وكان هو صوت أرسقراطية ذات ثروة ، فرقت بين الفنان والصانع الماهر ، وانتزعت من الشعب انتزاعاً ، وجعلته يعتمد على الأمراء وأصحاب الثراء المحدثين . وفقد هذا الفن روحه حين استسلم لعهد ميت قديم ، وأذل العماره والفن وأخضعهما لأشكال قديمة أجنبية عنهما . وهل ثمة ما هو أكثر سخفاً من وضع واجهات يونانية - رومانية للنكائس القوطية كما فعل ألبيرتي في فلورنس وريميني ! وربما كان إحياء الفن القديم من أوله إلى آخره من الأخطاء المفجعة . ذلك أن الطراز إذا مات لا يمكن أن تبعث فيه الحياة بحق إذا عادت الحضارة التي يعبر عنها

إلى الحياة ، لأن قوة الطراز وسلامته تكمنان في اثتلافه مع حياة زمانه وثقافته . ولقد كان في العصر العظيم الذي ترعرع فيه الفن اليوناني والروماني قيوداً رواقية رفعها التفكير اليوناني إلى مقام المثل الأعلى ، وكثيراً ما تحققت في أخلاق الرومان ، ولكن هذه القيود لم تكن تتفق بحال مع ما كان يتسم به عهد النهضة من حرية ، وانفعال ، واضطراب ، وإفراط . وأى شيء يتعارض ومزاج الإيطاليين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر أكثر مما يتعارض معه السقف المستوي ، والواجهة الرباعية المنتظمة ، والصفوف الكثيرة من النوافذ التي لا تختلف واحدة منها عن الأخرى ، والتي كانت وصمة في جبين قصور عصر النهضة ؟ ولما أن ملئت العمارة الإيطالية هذا التكرار المستمر ، وتلك العودة المتكلفة إلى الطراز القديم ، انطلقت انطلاق التاجر البندقي الذي تغتصب أمواله لتعطي إلى تيشيان ، تفرط في الزخرف والبهاء ، وانحدرت من الطراز القديم إلى الطراز المشوه الجديد .

كذلك لم يستطع فن النحت القديم أن يعبر عن روح النهضة . ذلك أن القيود لا بد منها للنحت ، وهذه الوسيلة الباقية على الأيام لا يمكن أن تحسن التعبير عن تلو أو ألم هو بطبيعته قصير الأجل : إن النحت حركة مغلدة ، وانفعال انصرف أو سيطر عليه صاحبه ، وجمال أو شكل احتفظ به من أثر الأيام في المعدن المتجمد أو في الحجر الذي يقاوم فعل الزمن . ولعل هذا هو السبب في أن أعظم ما خلفه حجر النهضة من ثمار النحت هو المقابر أو تماثيل العذراء الباكية التي استطاع بها الإنسان القلق أن ينال الهدوء والطمأنينة في آخر الأمر . ولقد ظل دوناتلو ، رغم ما بذل من الجهود ليقلد المثاليين الأقدمين ، قوطياً يكافح كي يصل إلى هذه الغاية ويأمل في الوصول إليها . وكان ميكل أنجيلو يضع لنفسه قوانينه ، فكان كأنه مارد جبار مجنح في مزاجه ، يكافح عن طريق تصوير العبيد والأسرى كي يصل إلى ساحة السلام والجمال . ولكن إسرافه في الانفعال وعدم التقيد بالقوانين حرمه

الراحة ، ولقد كان التراث اليوناني بعد عودته عبثاً باهظاً كما كان نعمة وبركة ..
فقد أغنى النفس الحديثة بما أبرزه من المثل النبيلة ، ولكنه كاد يخنق تلك
الروح الفتية — التي كانت ترعرعت توا ونهضت — تحت عبء عدد لا يحصى
من العمد ، والتيجان ، والطيلات والقواصر . ولعل هذه العودة إلى القديم ،
وهذه العبادة للنسب (حتى في الحداث) ، قد حالت دون نماء فن إيطالي
موثم لبيئته ، كما عاق بعث اللغة اليونانية على أيدي الكتاب الإنسانيين
نمو الأدب باللغة القومية .

وقد أفلح التصوير في عهد النهضة في التعبير عن لون ذلك العهد
وانفعالاته . ووصل بالفن إلى درجة من الرقة لم يعل عليها قط في وقت
من الأوقات . لكنه هو أيضاً لم يخل من أخطاء وعيوب . فقد كان
أكبر ما يهتم به هو الجمال الشهواني المائل في الأثواب الفخمة والأجسام
الموردة . وحتى صوره الدينية نفسها . كانت تتم عن عواطف شهوانية
تهتم بالأشكال الجسدية أكبر مما تهتم بالمعاني الروحية ، وإن كثيراً من
صور الصلب في العصور الوسطى لتصل في النفس إلى أعماق أبعد مما
تصل إليها صور العذراء المتحاشمة في فن النهضة . ولقد جرأ الفنانون
الهولنديون والفلمنكيون على تصوير وجوه غير جذابة وأثواب عارية غير
ذات جمال ، وعلى أن يبحثوا وراء هذه الظاهرة البسيطة عن أسرار أخلاق
الناس وعن عناصر الحياة ؛ وما أكثر ما تبدو صور البندقية العارية — حتى
عذارى رفائيل نفسها — بجانب صورة اليفتسار بالحمل لقان إليك
Van Eyck ! وليس ثمة صورة تفوق صورة بوليس الثاني لرفائيل .
والكن هل في مائة الصور الذاتية التي أخرجها الفنانون الإيطاليون ما يضارع
تصوير ميراندت الصادق لنفسه أو التشار فن التصوير في القرن السادس
عشر ليبدل على قيام طبقة الأثرياء المحدثين . وعلى شغفهم بأن يبصروا

بأعينهم ويسمعوا بأذانهم ذبوع شهرتهم ؟ ولقد كان عصر النهضة عصراً براقاً
لماعاً ، ولكن مظاهره كلها يسرى فيها شيء من التظاهر وعدم الإخلاص ،
وازدهاء بالثياب الفاخرة الغالية ، وبناء أجوف من السلطان المزعزع يعتمد
على قوة من داخله ويريد أن ينقض ويصبح كومة من الخرائب إذا ما مسته
أيدى جماعة من الغوغاء قاسية القلب ، أو هزته صرخة من راهب غاضب
لا مقام له .

ترى ماذا نقول في هذا الاتهام الشديد لعصر أحببناه بكل ما في صدور
الشباب من حماسة ؟ لن نحاول دحض هذا الاتهام ؛ فكثير منه صحيح
وإن كان مثقلاً بمقارنات ظالمة . ودحض التهم قلما ينفى نقياً قاطعاً ،
ومعارضة نصف حقيقة بنصف حقيقة مضادة لها عبث لا طائل من ورائه
ما لم يكن في الإمكان مزج النصفين لتتكون منهما نظرة أوسع وأعدل .
وليس من ينكر أن ثقافة النهضة كانت ثقافة أرستقراطية قامت على ظهور
الفقراء الكادحين ، ولكن أية ثقافة لم يكن هذا شأنها مع الأسف الشديد ؟
وما من شك في أن كثيراً من الأدب والفن قلما كان ينشأ دون تركيز الثروة
بعض التركيز ؛ وحتى الكتاب العدول أنفسهم لا بد لهم من كادحين
غير منظورين ، يستخرجون كنوز الأرض ، ويزرعون الطعام ، وينسجون
الثياب ، ويصنعون المداد . ولسنا نريد أن ندافع عن الطغاة المستبدين ، فإن
منهم كآل بورجيا من يستحق الخنق ؛ ومنهم من بدد في مظاهر الترف
الكاذب الأموال المأخوذة من عرق الشعب ودمائه ؛ ولكننا نعذر بشيء
على فعال كوزيمو وحفيده لورندسو اللذين فضلهما أهل فلورنس بلا ريب .
على حكم ذوى المال الذى شاعت فيه الفوضى . أما عن الانحلال الأخلاقى ،
فقد كان هو ثمن التحرر العقلى ؛ ومهما كان هذا الثمن غالياً ، فإن التحرر
هو الحق الطبيعى الذى ورثه العالم الحر ، وهو نسيم الحياة الذى تستنشقه
أرواحنا فى هذه الأيام .

وكانت الدراسات العميقة المخلصة التي أحييت الآداب والفلسفة القديمة من عمل إيطاليا . وفيها نشأت الآداب الحديثة الأولى ، وكان منشؤها هو هذا الإحياء وذاك التحرر ؛ ولسنا ننكر أننا لا نجد بين الكتاب الإيطاليين في ذلك العهد من يضارع إرزمس وشيكسبير ، ولكن إرزمس نفسه كان شديد الحنين إلى هواء إيطالية النهضة الصافي الحر ، كما إن إنجلترا في عصر الملكة إليزابيث كانت مدينة إلى إيطاليا — إلى « الإنجليزي المصطبغين بالطبقة الإيطالية » — ببذور ازدهارها ، فقد كان أريستو Arisoto وسنادسارو Sannazaro النموذجين اللذين نسج اسپنسر وسدني على منوالهما كما كانا أبوين لهذين الكاتبين الإنجليزيين ؛ وكان لمكيثلي وكستجليوني أثر عظيم في إنجلترا في عهد إليزابيث واليعقوبيين . ولسنا واثقين من أن بيكن وديكارت كانا يستطيعان القيام بعملهما إذا لم يكن بمپوناتسي ومكيثلي ، وتيليزيو Telesio وبرونو قد مهدوا لهم الطريق بعرقهم ودمائهم .

وما من أحد ينكر أن عمارة النهضة عمارة أفقية تمتد في السعة أكثر مما تعلو في السماء ، وأنها لهذا تبعث في النفس الغم والاكتئاب ، ونستثنى من هذا على الدوام القباب الفخمة التي تعلو في سماء فلورنس ورومة : أما الطراز للقوطي الذي يرتفع عمودياً ويبعث في النفس النشوة فإنه مظهر لدين يصور حياتنا على هذه الأرض في أنها منى للروح ، ويعقد آمال الإنسان على السماء مسكن الأرباب . وأما العمارة اليونانية — الرومانية القديمة فإنها تعبر عن دين يُسكن أربابه في الأشجار ومجاري المياه ، وفي الأرض ، وقلما يجعل مقارها في أماكن أعلى من جبل في تساليا ؛ ولم تكن تتطلع إلى أعلى لتجد الأرباب . ولم يكن في مقدور هذا الطراز القديم البارد الهادئ أن يعبر عن روح النهضة الشكسية المضطربة ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يسمح له بالغناء ؛ بل حفظ التنافس الكريم العادل آثار هذا الفن ونقل مثله العليا وأنماطه الرئيسية لتكون جزءاً — وشريكاً لا مسيطراً — من فننا المعماري في هذه الأيام . نعم إن

إيطاليا لم تبلغ في العمارة ما بلغت العمارة اليونانية أو القوطية ؛ ولم يصل فن النحت فيها ما وصل إليه في بلاد اليونان القديمة ؛ ولعلها لم تسم في هذا الفن إلى ما سمت إليه آيات الفن القوطي في تشارتر وريمس ؛ ولكنها استطاعت أن تنجب فنانا نحت لآل ميديتشي مقابر لا تقل روعة عن أعمال فيدياس وتمثيل باكية للجنراء خليقة بيراكستيلز Praxiteles .

فإذا انتقلنا إلى فن التصوير في عهد النهضة لم نجد حاجة إلى أن نقول فيه كلمة اعتذار . فهو لا يزال الذروة التي وصل إليها هذا الفن في التاريخ كله . لقد اقتربت أسبانيا من هذه الذروة في أيام الهدوء على أيدي فيلاسكويز Velàsquez ، ومورلو ، Murillo ؛ وريبرا Ribera ، وزربران Zurbaràn وألجريكو Il Greco ؛ واقتربت منها كذلك بدرجة أقل فلاندرز وهولندة على أيدي روبنر ورمبراندت . أما المصورون الصينيون واليابانيون فقد سموا إلى ذرى خاصة بهم ؛ وتبدولنا صورهم أحيانا كأنها ذات عمق خاص شديد ، إن لم يكن لشيء فلاتها تنظر إلى الإنسان نظرة الإكبار . لكن فلسفة هاتين الأمتين الأخيرتين العميقة التفكير ، وما تنسم به زخارفهما من رشاقة وظرف يعلمو عليها كلها ما في فن المصورين الفلورنسيين رفائيل وكريجيو ، والمصورين البنادقة من قوة وتعقيد واسع المدى ، وما في الألوان من حيوية وحماسة . نعم إن فن التصوير في عصر النهضة كان فناً جسدياً شهوانياً ، وإن كان قد أخرج بعض روائع الصور الدينية التي تعد من أرقى ما أخرجها هذا الفن ، كما أخرج طائفة من الصور التي تصل إلى السماء الأعلى في روحانيتها ونبيلها — كالتى نشاهدها في سقف معبد سستيني . غير أن هذه الشهوانية لم تكن أكثر من رد فعل طبيعى سليم ، ذلك أن الجسم البشرى طالما حقر وندد به ، كما أن النساء قد قاسين طوال القرون الظلمة كثيراً من ضروب التشنيع يُوجهها إليهن التنسك الشديد القاسى ، وكان من الخير أن تؤكد الحياة ، وأن يرفع الفن من جديد ، شأن جمال الأجسام البشرية الصحيحة السليمة . لقد ملت النهضة

تريد ذكر نخطيئة الإنسان الأولى ، ودق الصدور حزناً ونلدا ، وما سوف يلقاه الإنسان بعد الموت من أهوال خرافية ؛ ولهذا أدار ظهره نحو الموت ، وولى وجهه نحو الحياة ؛ وغنى قبل شلر Schiller وبيتهوفن Beethoven بزمن طويل للبهجة والمرح تشيد الطرب الذى ليس له نظير .

وقضى عصر النهضة حين أحيا الثقافة اليونانية - الرومانية القديمة ، على سيطرة العقلية الشرقية على أوروبا ، وهى السيطرة التى دامت ألف عام كاملة . وانتقلت أنباء التحرر العظيم من إيطاليا مجتازة مائة من المسالك تتسلق الجبال وتخترق البحار إلى فرنسا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وهولندا ، وإنجلترا . فقد نقل العلماء أمثال اليندرو Aleandro وأسكابجير Scaliger ، والفنانون أمثال ليوناردو ، ودل سارتو ، وبريماتشيو ، وتشيليني ، وباردوني ، نقل هؤلاء النهضة إلى فرنسا ؛ ونقلها المصورون ، والمثالون ، والمهندسون إلى بست Pesth ، وكراكاو ، ووارسو ، ومتشيلزو Michelozzo إلى قبرص ، وغامر بلينى الكافر فسافر بها إلى اسطنبول . وعاد بها كولات Colet وليناكر Linacre من إيطاليا إلى إنجلترا ، كما عاد بها أجريكولا Agricola ورتشلين Reuchlin إلى ألمانيا . وظل تيار الأفكار ، والأخلاق ، والفنون نحو مائة عام يتدفق من إيطاليا نحو الشمال ، فكانت أوروبا الغربية كلها من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ تعترف بأن هذه البلاد أم الحضارة الجديدة فى العلم ، والفن ، والآداب « الإنسانية » ، التى حنت عليها وأرضعتها لبائها ، ونشأتها . وحتى فكرة الرجل الكامل السميع ، والفكرة الأرستقراطية عن الحياة والحكم ، قد جاءت من الجنوب لتصوغ آداب الناس وأشكال الدول فى الشمال . وهكذا كان القرن السادس عشر ، الذى اضمحلت فيه النهضة فى إيطاليا ، عصر نماء ووفرة فى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وأسبانيا .

وطغت على أثر النهضة إلى حين شسدة النزاع بين حركتى الإصلاح والإصلاح المعارض ، والجدل القائم بين المذاهب والحروب الدينية ؛ وظل

الناس قرناً من الزمان يحترقون ويسفكون الدماء لكي يكونوا أحراراً يعتقدون ما يشاءون ويعبدون كما يحبون ، أو كما يشاء ويحب لهم ملوكهم ؛ وبدأ أن صوت العقل قد خفت تحت أسنة الجهاد الديني . لكن هذا الصوت لم يسكن كل السكون ، فإن رجالاً من أمثال إرزمس ، وبيكن ، وديكارت ظلوا في خلال هذا الدمار المفجع يرددون هذا الصوت في شجاعة ، ويرفعون به عقيرتهم من جديد وفي قوة متزايدة ؛ وصاغه إسبنوزا صياغة جديدة فخمة رائعة ، فلما أقبل القرن الثامن عشر ولدت روح النهضة الإيطالية مرة أخرى في عصر الاستنارة الفرنسي . وظل هذا اللحن يردد من فلتير وجن Gibbon إلى جوته وهين Heine ، إلى هوجو وفلوبير ، إلى تين وأناطول فرانس خلال الثورات والثورات المضادة ، والتقدم والرجعية ، يبق بعد الحرب بطريقة ما ، ويرفع في أناة من مكانة السلم وشأنها . ولما لنجد اليوم في كل مكان في أوروبا والأمريكيتين ، أرواحاً متحضرة قوية - متزاملة متألقة في بلد العقل - تتغذى وتعيش على ذلك التراث ، تراث حرية العقل ، والإحساس بالجمال ، والتمائم المتسم بالتواد والتعاطف ، أرواحاً تغفو عن مآسى الحياة ، وتستمتع بمباهج الحواس ، والعقل والروح ، ويستمعون بقلوبهم على الدوام أغاني النهضة العذبة وسط أناشيد الحقد ، وأعلى من جلجلة المدافع .

شكراً لك أيها القارئ الصديق

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجمل في جزء ١٨ ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في الكتاب المقدس .

CHAPTER XIX

1. Poggio, *Facetiae*, in Burckhardt 521.
2. Machiavelli, *Discourses*, i, 56.
3. Burckhardt, 519.
4. Ibid., 520.
5. Thorndike, Lynn. *History of Magic and Experimental Science*, IV, 562.
6. Jusserand. J. J., *English Way. faring Life in the M. A.*, 377.
7. Ibid.,
8. Aretino, *Ragionamenti del Zoppino*, in Burckhardt, 529; Sismondi, 744.
9. Ibid.
10. Pastor, V, 349.
11. Ibid., 349; Exodus, xxii, 18.
12. Pastor, V, 349.
13. Lea, H. C. *History of the Inquisition in the M. A.*, III, 540.
14. Simondi, 745; Burckhardt, 528.
15. Lea, op cit., 547.
16. Ibid.
- 16a. Ibid., 548
- 16b. Burckhardt, 508.
- 16c. Thorndike, IV, 761.
- 16d. Ibid., 435.
- 16e. Guicciardini, *Ricordi* 57, in Burckhardt, 518.
- 16f. Robertson, J.M., *Short History of Freetbought*, I, 369.
- 16g. Roscoe, *Leo X*, II, 253.
- 16h. Lacroix, Paul, *Science and Literature in the Middle Ages*, 290.
- 16i. Burckhardt, 211.
- 16j. Boccaccio, *Decameron*, viii, 9.
17. In Castiglioni, *History of Medicine* 399.
18. Walsh. J. J., *The Popes and Science*, 75.
19. Ibid., 115.
- 19a. Cornaro, L., *Art of Living Long*, 43f.
20. Castiglioni 368.
- 20a. Cornaro, 92, 103.
- 20b. Ibid., Introd., 31.
- 20c. Ibid.
21. Lanciani, *Golden Days*, 87.
22. Molmenti, Part II, Vol. I, 159f.
23. Lanciani, 86.
24. Thorndike, *Science and Thought in the Fifteenth Century*, 221.
24. Sarton, IIIb, 1658.
25. Garrison, 187.
27. Molmenti, Part I Vol. II, 54.
28. Pastor, V, 61.
29. Luther, *Table Talk*, in Pastor, V, 65.
30. Garrison, 191.
31. Ibid.
32. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, II, 1119.
33. Castiglioni, 454.
34. Lanciani, *Golden Days* 84.
35. Sudhoff in Garrison, 191.
36. Castiglioni, 453.
37. Sarton, IIIa, 274.
38. Castiglioni, 465.

39. Ibid., 459, Lacroix, *Prostitution*, II, 951.
40. Molmenti, Part I, Vol. II, 262.
41. Robertson, *Freethought*, I, 359.
42. Ibid.
43. Owen, *Skeptics*, 215.
44. *Cambridge Modern History*, II, 703.
45. Pastor, V, 157.
46. Owen, 208.
47. Ibid.
48. 209.
49. *De incantatione*, ch. iii, in Symonds, *Italian Literature*, II, 476.
50. Ibid., ch. xii, in Symonds, op. cit., 477.
51. Owen, 201.
52. *De immortalitate animae*, ch. xiv.
- 52a. Ibid.
53. In Owen, 204.
54. Ibid.
55. *De fato*, III, 7.
56. In *Cambridge Modern History*, II, 703.
57. Pastor, V, 157.
58. Molmenti, Part I, Vol. II, 1.
59. Burckardt, 453.
60. Ranke, *History of the Popes*, I, 56.
61. Pastor, I, 27.
62. Pastor, X, 422.
63. *Encyclopadia Britannica*, 11th. ed., XXIII, 85a.
64. Symonds, *Italian Lit.*, 479.
65. Ibid.
66. Lea, *Inquisition in the M. A.*, III, 576.
67. Erasmus, Epistle xxvi, 34, in Robertson, J. M., *Freethought*, I, 370.
68. Guicciardini, I, 4.
69. Mather, F. J., *Western European Painting of Renaissance*, 150.
70. In Villari, *Machiavelli*, I, 417.
71. Guicciardini, I, Introd. vvi.
72. Guicciardini, *Ricordi*, xxviii, in Burckhardt, 464, Pastor, VIII, 178, and Villari, *Machiavelli*, II, 86.
73. *Ricordi* civ and ccixvii, in Villari, *Machiavelli*, II, 86.
74. *Opere inedite*, II, 51, in Sismondi, 389.
75. *Ricordi*, ccelvi, in Villari, II, 85; Guicciardini, *History*, III, 104.
76. Villari, II, 156-9.
77. Ibid., 325.
78. In Roeder, 206.
79. Cf. the letters in Villari, I, 469 and II, 48.
80. In Pastor, V, 160.
81. Machiavelli, *Discourses*, II, 10.
82. Ibid., 18.
83. In Villari, 344.
84. *Discourses*, III, 43.
85. Ibid., proem to book II.
86. Machiavelli, *History*, v, 1.
87. Machiavelli, *The Prince*, ch. xxv.
88. *Discourses*, I, 3; *Prince*, III.
89. Robertson, I, 374.
90. *Discourses*, I, II.
91. I, 12.
92. I, 11-12.
93. I, 10.
94. II, 2; III, 1.
95. I, 12.
96. III, 1.
97. III, 41.
98. I, 9.
99. *History*, v, 2.
100. In Villari, II, 143.
101. *Discourses*, I, 9.
102. *Prince*, I.
103. *Discourses*, I, I, 12.
104. In Villari, II, 151.
105. *Prince*, xi-vii; *History*, vi, I.
106. In Pastor, V, 161.
107. *Prince*, xv.
108. *Prince*, xviii.
109. Ibid., xvii.
110. *Discourses*, III, 19.
111. Ibid., I, 10.

112. *Prince*, xxi.
113. *Ibid.*, viii.
114. XVIII.
115. *Ibid.*,
116. VII, xvii.
117. XXVI.
118. Villari, II, 193 ; Treitschke, H. von, *Lectures on Politics*, 29.
119. Bacon, F., *De augmentis scientiarum*, vii, 2.
120. Hegel, *Philosophy of History*, in Symonds, *Despots*, 367.

CHAPTER XX

1. Burckhardt, 485.
2. Coulton, *Medieval Panorama*, 192.
3. Plantina, *Vitae*, in Burckhardt, 501.
4. Sismondi, 468.
5. Pastor, V, 84.
6. *Decameron*, i, 2 and 7.
7. Symonds, *Despots*, 458 n.
8. In Roeder, 512.
9. Pastor, I, 31.
10. Molmenti, Part I, Vol. II, 222.
11. Aretino, *Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerazione on Machiavelli's Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerazione on Machiavelli's Discourses* (i, 12), in Villari, II, 151.
13. St. Catherine of Siena in Coulton, *Five Centuries of Religion*, II, 399.
14. Pastor, P., 171-3.
16. Robertson, I, 369.
17. Burckhardt, 502.
18. Robertson, I, 369.
19. Pastor, VI, 443.
20. Pastor, X, 457-76.
21. Bandello, *Novels*, Vol. I, Story I ; Maulde, 178.
22. *Ibid.*
23. Pastor, V, 113.
24. Lea, *Auricular Confession*, III, 417.
25. Pastor, V, Symonds, *Despots*, 477.
26. Pastor, V., 132.
27. Aretino, *La cortigiana*, Act. III, p. 319 of *Works*.
28. Chubb, T. C., *Aretino*, 216.
29. Pastor, I, 26.
30. Molmenti, Part II, Vol. II, 239.
31. *Ibid.*, 238.
32. Castiglione, 464 ; Burckhardt, 400, who considers the estimate exaggerated.
33. Castiglioni, 464.
34. Molmenti, 260 n.
35. Pastor, VIII, 121.
36. Gregorovius, *Lucpezia*, 96.
37. Symonds, *Italian Lit.*, II, 225.
38. Maulde, 361.
39. Gregorovius, VIII, 306.
40. Lacini, *Golden Days*, 67.
41. *Ibid.*, 64.
42. Maulee, 390, 164.
43. *Ibid.*, 27, 98.
44. Villari, I, 316.
45. Pastor, V, 105, 127.
46. Burckhardt, 416.
47. An example in Cartwright, *Isabella*, II, 288.
48. Maulde, 43.
49. Burckhardt, 456.
50. Maulde, 353 ; Sismondi, 747.
51. *Ibid.*, 459.
52. Coulton, *From St. Francis to Dante*, 41.
53. In Symonds ; *Italian Lit.*, II, 86.
54. Burckhardt, 846.
55. Molmenti, II, II, 92.
56. Burckhardt, 374.
57. Molmenti, 94 ; Taylor, *Leonardo*, 484.
58. *Ibid.*,
59. Sismondi, 452.
60. Addison, Julia, *Development of Arts and Crafts in the Middle Ages*, 192.
61. Cagnolo in Noyes, Milan, 133.
62. Cartwright, *Isabella*, II, 115.
63. Maulde, 131.
64. *Ibid.*, 70-1.

65. Cartwright, *Beatrice*, 177.
66. Pastor, V, 17-9.
67. Symonds, *Despots*, 24 of.
68. In Burckhardt, 404.
69. Ibid.
70. Pastor, VIII, 124.
71. Pastor, V, 107.
72. Ashley, W. J., *Introd. to English Economic History*, 447.
73. Pastor, V, 106.
74. *Cambridge Modern History*, I, 250; Symonds, *Despots*, 474.
75. Taine • *Rome and Naples*, 172.
76. Chubb, 23.
77. Guicciardini, III, 59.
78. Ibid., V I, 69; Machiavelli, *History*, vi. 4.
79. Pastor, V, 184.
80. Sismondi, 456.
81. James, *Bologna* 138.
82. Schevill, *Stena*, 223.
83. Robinson and Rolf, 123.
84. Cartwright. *Isabella*, II, 59.
85. Lanciani, 99.
86. Brinton, *The Gonzaga Lords*, 88.
87. Fattorusgo, 247.
88. Thorndike. *Science and Thought in the Fifteenth Century* 53; Burckhardt, 374.
89. Friedländer, II, 176.
90. Wright, T., *Homes of Other Days*, 462-
91. Molmenti, II, II 162.
92. *Decameron*, i, 1.
93. Molmenti, 231.
94. Villari, *Savonarola*, 246.
95. Gibbon, VI, 562.
96. Symonds, *Italian Lit.*, I, 397-8.
97. Vasari, II, 178-9, *Piero di Cosimo*.
98. Pastor, V, 48.
99. In Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 299.
100. Celli, I, 82.

101. Lang, 302.
102. Castiglione, B., *The Courtier*, p. 76.
103. Ibid., *Oxford History of Music*, Introd. Volume, 215; Lang, 300.
104. *Oxford History*, Introd., 188.
105. In Einstein, Alfred, *The Italian Madrigal*, I, 89.
106. Symonds *Ital. Lit.*, I, 217.
107. Einstein, 7.
108. Tr. Symonds, *Sketches*, II, 332.
109. Rabelias. *Paatagruel*, bk. iv, Prologue.
109. a Grove, *Dictionary of Music*, IV, 809.
110. Einstein, 6, 8.
111. Luther, in Gregorovius, *Villa*, 249.
112. Ascham, *The Schoolmaster*, 87.
113. Machiavelli, *Discourses*, I, 12.
114. Guicciardini, VIII, 354.
155. Pastor, V, 181.

CHAPTER XXI

1. The phrase is from Michelet, *Histoire de France*, III 1, 2. p. 5.
2. Lacroix, Paul. *Arts of the M.A.*, 99.
3. Guicciardini, I, 147.
4. Quizot, *History of France*, II, 554.
5. *Cambridge Modern History*, I, 240.
6. Roscoe, *Leo X*, I, 200-1.
7. Prescott, II, 307.
8. Quizot, II, 511; Sismondi, 676.
9. Lacroix, *Prostitution*, II, 1180.
10. Pastor, VII, 105.
11. Ibid., 141; Roscoe, *Leo X*, II, 39; Guicciardini, VI, 382, however, thought that Leo agreed.
12. De Grasis in Roscoe, *Leo X* II, 40.
13. Pastor, VII, 139.

14. Beuf, 222.
15. Guicciardini, VII, 266.
16. Pastor, IX, 27.
17. Chubb, 76.
18. Symonds, *Despots*, 440.
19. Pastor, IX, 73.
20. Burckhardt, 162.
21. Pastor, IX, 91-113.
22. Ibid., 125.
23. Cartwright, *Isabella*, II, 282.
24. Tr. Symonds, *Ital. Lit.*, II, 368.
25. Pastor, IX, 266.
26. Ibid., 271.
27. Guicciardini, VIII, 23 of.
28. Pastor, IX, 304.
29. Ibid., 328.
30. 331.
31. Sismondi, 687.
32. Young, 330.
33. In Cartwright, II, 272.
34. Guicciardini, IX, 98, 113.
35. Pastor, IX, 362.
36. Ibid., 390-405; Cartwright, II, 260.
37. Pastor, IX, 400, 413.
38. Guicciardini, IX, 305; Lanciani, 108.
39. Ibid., 107.
40. Guicciardini, IX, 307.
41. Pastor, IX, 400.
42. Symonds, *Revival*, 444-5.
43. Guicciardini, IX, 308; Pastor, IX, 413.
44. Symonds, *Despots*, 444, Job, x, 18.
45. Guicciardini, IX, 320-2; Pastor, IX, 424.
46. In Cartwright, *Isabella*, II, 270.
47. Burckhardt, 123; Symonds, *Despots*, 445.
48. In Guicciardini, X, 139.
49. Sismondi, 729; Symonds, *Despots*, 446.
50. Fattorusso, *Florence*, 192.
51. Sismondi, 731.
51. Sismondi, 731.
52. Symonds, *Michelangelo*, 279.
53. Young, 351.
54. Pastor, X, 199.

55. Vasari, II, 295, *Peruzzi*.
56. Symonds, *Michelangelo*, 441.
57. Ibid., 372.
58. 255.
59. Vasari, IV, 119n.
60. Ibid., 202.
61. Ibid., 202.
62. 324.
63. *Cambridge Modern History*, II, 67.
64. Pastor, X, 235.
65. Ibid., 322.
66. Letter. of Gregorio da Casale, Oct., 1534, in Young, 358.

CHAPTER XXII

1. Burckhardt, *Cicerone*, in Vasari, IV, 32on.
2. Vasari, IV, 327.
3. Ibid., 329.
4. In. Anderson, *Architecture of the Renaissance in Italy*, 145.
5. This section is especially indebted to Thomae Caldecott Chubb's *Aretino*.
6. Chubb, 46.
7. Vasari, III, 77, *Marcantonio Bolognese*.
8. In Chubb, 117.
9. Symonds, *Ital. Lit.*, II, 395.
10. Ariosto, *Orlando furioso*, xive, 14.
11. Maulde, 391.
12. Symonds, *Lit.*, II, 399-400.
13. Ibid., 404.
14. Chubb, 205.
15. Aretino, *Dialogues*, p. 55.
16. Artino, 108, 83.
17. Roeder, 498.
18. Ibid., 441.
19. Taine, *Italy: Florence and Venice*, 289.
20. In Gronau, *Titian*, 46.
21. Chubb, 487.
22. Vasari, IV, 286.
23. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 10.

24. Vasari, IV, 298.
25. In Mather, *Venetian Painters*, 340.
26. Soulier, G., *Le Tintoret*, 12.
27. Ibid., 19; Mather, 342.
28. Soulier, 115.
29. Ruskin, *Stones*, III, 285.
30. Ibid., 395.
31. Symonds, *Fine Arts*, 377.
32. Soulier, 75-6.
33. Ruskin, *Stones*, II, 243.
34. Siviero, R., *Catalogue of the Second National Exhibition of the Works of Art Recovered in Germany*, 15.
35. Nather, *Venetian Painters*, 396.
36. Ibid., 168.
37. 416; Venturi and Skira-Venturi, *Italian Painting: The Creators of the Renaissance*, 164.
38. Ruskin, *Stones*, II, 10.
39. Quoted by E. Herriot in a lecture at Cannes, Jan., 1951.

CHAPTER XXIII

1. Thompson, J. W., 376.
2. Adams, Brooks, *The New Empire*, 90.
3. Barmes, H. E., *History of Western Civilization*, I, 867.
4. Robertson, J. M., I, 469.
5. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 33.
6. Ibid., 38, 234-334; Sismondi, 763.
7. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 273.
8. Coulton, *Medieval Panorama*, 679.
9. Ranke, *History of the Popes*, I, 181.
10. Guicciardini, X, 257.
11. Ibid., 258.
12. Cardan, Jerome, *Book of M Life*, ch. ii.
13. Ibid., ch. vi.
14. Hallam, H., *Literature of Europe*, I, 451-2.
15. Duhem, *Leonardo*, I, 229f; Wolf,

- A., *History of Science, Theology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 537.
16. Cardan, ch. xlii.
17. Ch. xiv.
18. Prologue.
19. Walsh, *The Popes and Science*, 116.
20. Cornaro, 43-7.
21. Ibid. 66-72.
22. Ibid., 79, 92, 103.
23. Ibid. Introd., 31. Addison, in No. 195 of *The Spectator* III, 328, makes good use of Cornaro's treatise.
24. Hallam, II, 88.
27. Bandello, III, 128.
28. Holzknrecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 243.
29. *Cambridge Modern History*, III, 400-4.
30. Cellini, II, 99.
31. James, *Bologna*, 317.
33. Vasari, III, 237, *Pontormo*.
34. Ibid., 245.
35. Cellini, I, 2.
36. Ibid., I, 14.
37. I., 26.
38. I, 52.
39. II, 38.
40. II, 60.
41. I, 51.
42. I, 73.
43. I, 64.
44. I, 55.
45. I, 74.
46. I, 26.
47. II, 12.
48. II, 28.
49. Ibid.
50. II, 34-5.
1. II, 57.
52. Notes by Symons, p. 415.
53. I, 58.
54. Symonds, *Michelangelo*, 484.

65. IV, 134, *Michelangelo*.
66. Ibid., 140.
67. 148.
68. Symonds, *Michelangelo*, 601.
69a. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, Vol. II, *Sexual Inversion*, 19.
70. Maude, 182.
71. Symonds, 377; Taine. *Italy : Rome and Naples*, 188.
72. Symonds, 442.
73. Vasari, IV, 198.
74. Symonds, 490.
75. Vasari, IV, 219.
76. Ibid., 203.
77. Ruskin, *Modern Painters*, Part I, ch. ii, end.
78. Symonds, 372.
79. Balcarres, Lord, *Evolution to, Italian Sculpture*, 271; Spengler O., *Decline of the West*, I, 276.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وظيف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة

الدكتور عبد الحميد بونس

الجزء الأول من المجلد السادس



تونس

٢٢



بيروت

الكتاب الأول

من ويكف إلى لوثر

١٣٠٠ - ١٥١٧

Order	Quantity	Unit	Description	Price	Total
1	100	kg	Wheat	1.20	120.00
2	50	kg	Rice	2.50	125.00
3	20	kg	Beans	6.25	125.00
4	10	kg	Apples	12.50	125.00
5	5	kg	Oranges	25.00	125.00
6	10	kg	Bananas	12.50	125.00
7	5	kg	Pineapples	25.00	125.00
8	10	kg	Mangoes	12.50	125.00
9	5	kg	Papayas	25.00	125.00
10	10	kg	Guavas	12.50	125.00
11	5	kg	Limes	25.00	125.00
12	10	kg	Avocados	12.50	125.00
13	5	kg	Peaches	25.00	125.00
14	10	kg	Plums	12.50	125.00
15	5	kg	Cherries	25.00	125.00
16	10	kg	Strawberries	12.50	125.00
17	5	kg	Raspberries	25.00	125.00
18	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
19	5	kg	Blueberries	25.00	125.00
20	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
21	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
22	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
23	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
24	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
25	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
26	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
27	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
28	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
29	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
30	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
31	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
32	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
33	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
34	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
35	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
36	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
37	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
38	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
39	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
40	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
41	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
42	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
43	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
44	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
45	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
46	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
47	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
48	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
49	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
50	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
51	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
52	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
53	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
54	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
55	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
56	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
57	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
58	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
59	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
60	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
61	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
62	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
63	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
64	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
65	5	kg	Blackberries	25.00	125.00
66	10	kg	Blackberries	12.50	125.00
67	5	kg	Blackberries	25.00	12

1. The first step in the process is to identify the problem or issue that needs to be addressed. This involves gathering information and understanding the context of the problem.

2. Once the problem is identified, the next step is to define the objectives and goals of the project. This helps to clarify what needs to be achieved and provides a clear direction for the team.

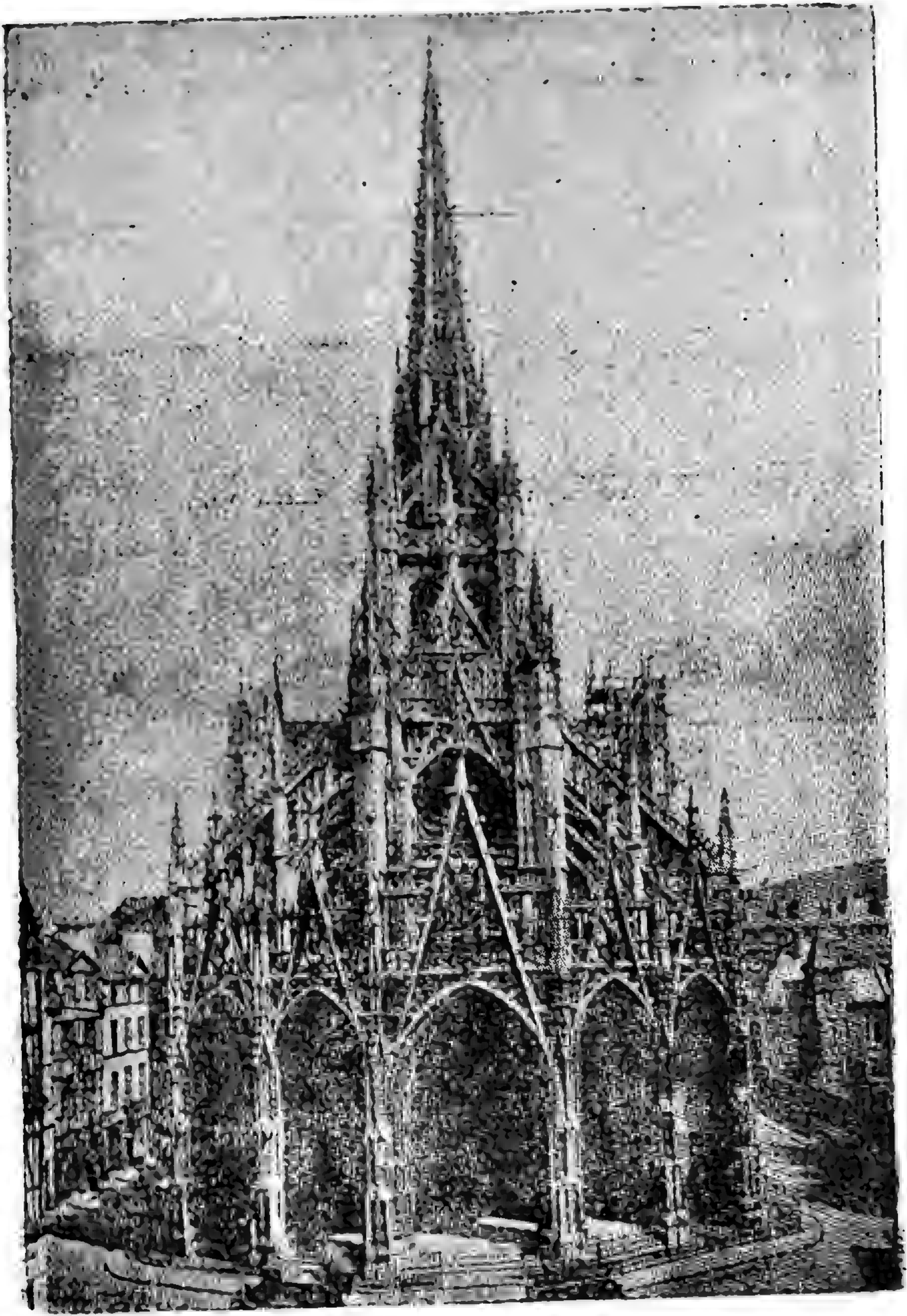
3. The third step is to develop a plan or strategy to address the problem. This involves breaking down the problem into smaller, manageable tasks and determining the resources needed to complete each task.

4. The fourth step is to implement the plan. This involves assigning tasks to team members, setting deadlines, and monitoring progress to ensure that the project is on track.

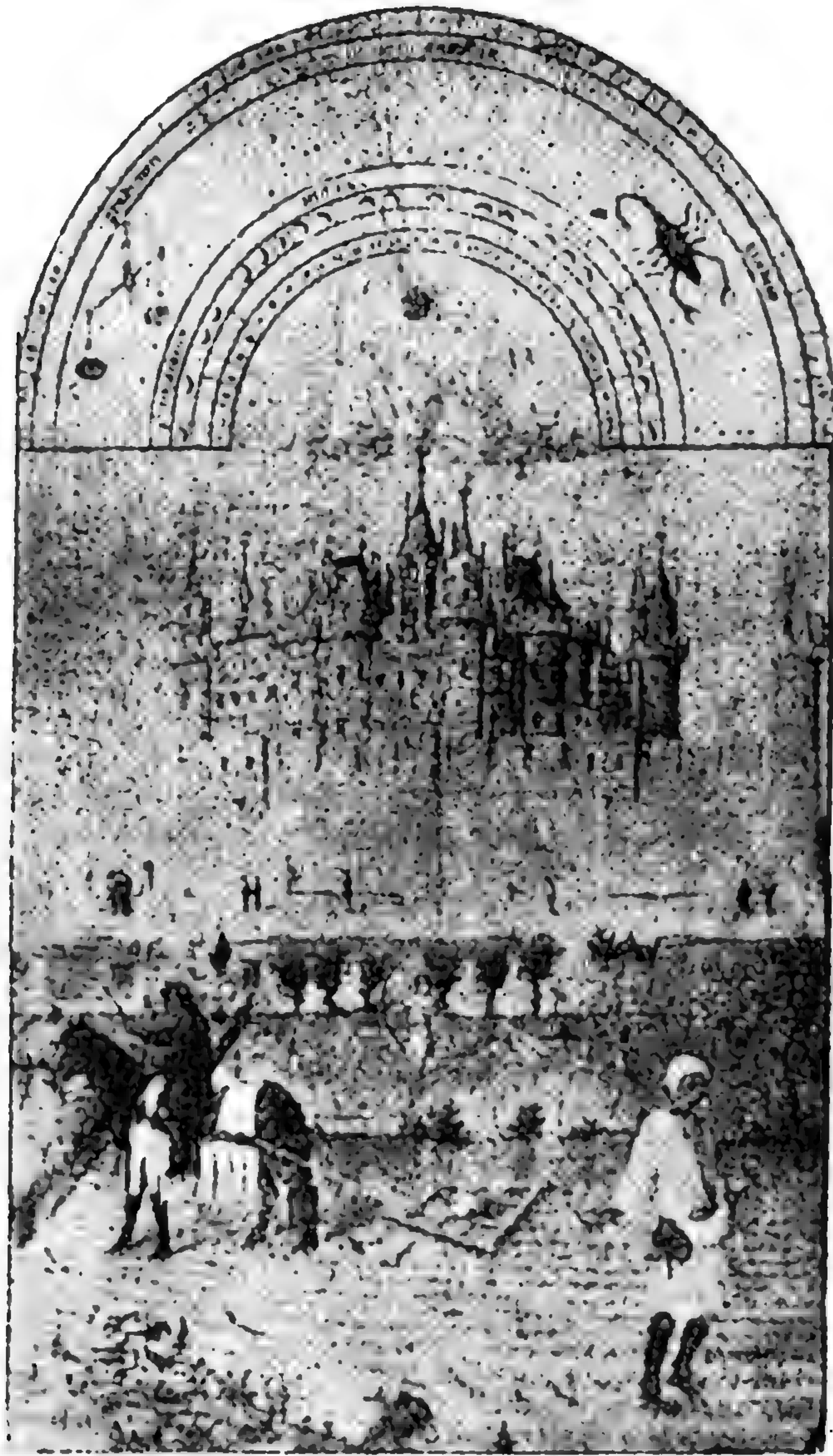
5. The final step is to evaluate the results of the project. This involves comparing the actual outcomes with the objectives and goals to determine the effectiveness of the project and identify areas for improvement.



(شکل ۱)
بیت جالہ کبر - بورج
(ص ۱۴۶)



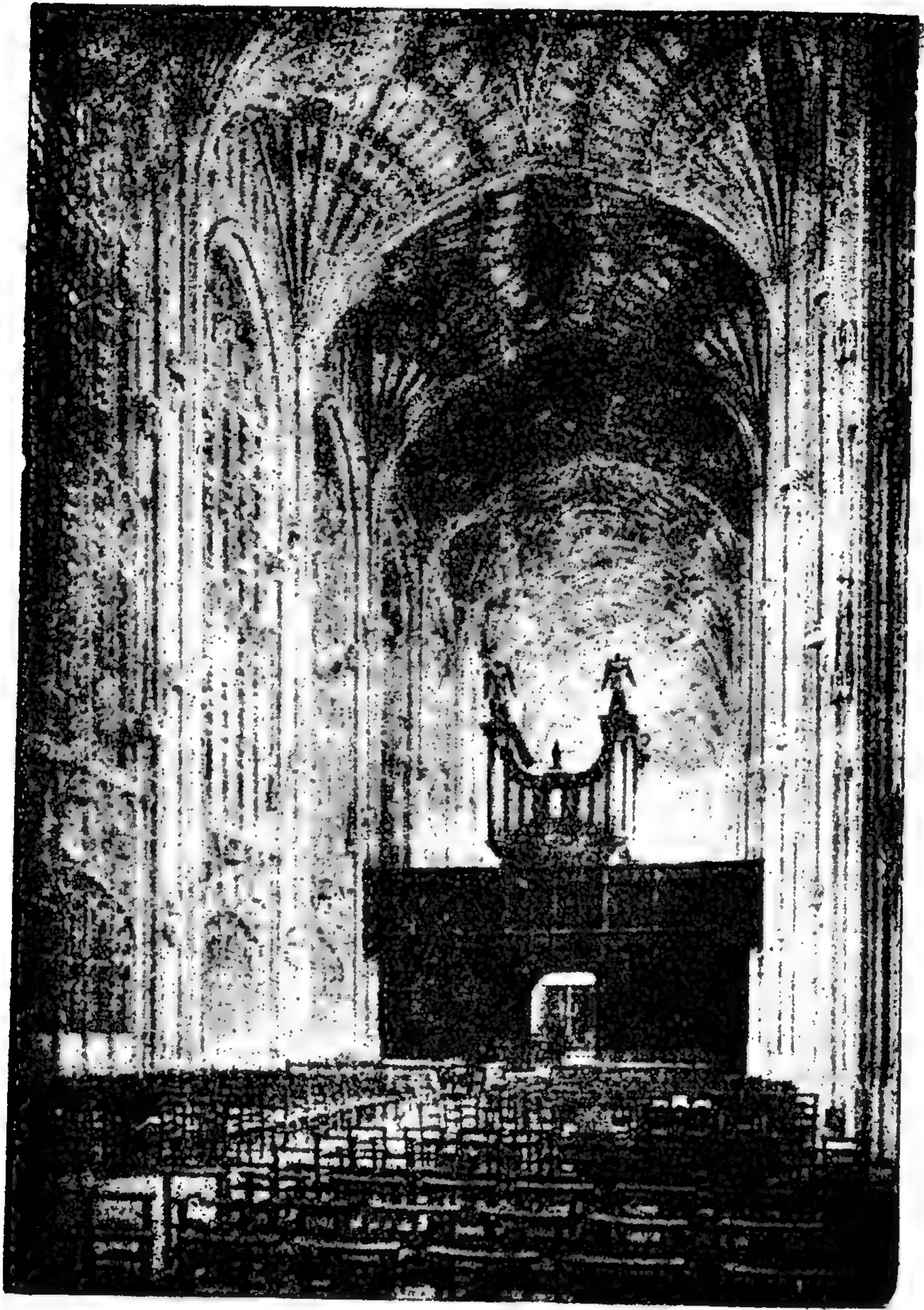
(شكل ٢)
كنيسة سان ماركلو - روين
(ص ١٤٦)



(شکل ۲)
 بول دی ییمبورج : شهر اکتوبر - منمنه من و الساعات الحصية
 لدوق دی بری - متحف کوندیه . شاننیل
 (ص ۱۵۰)



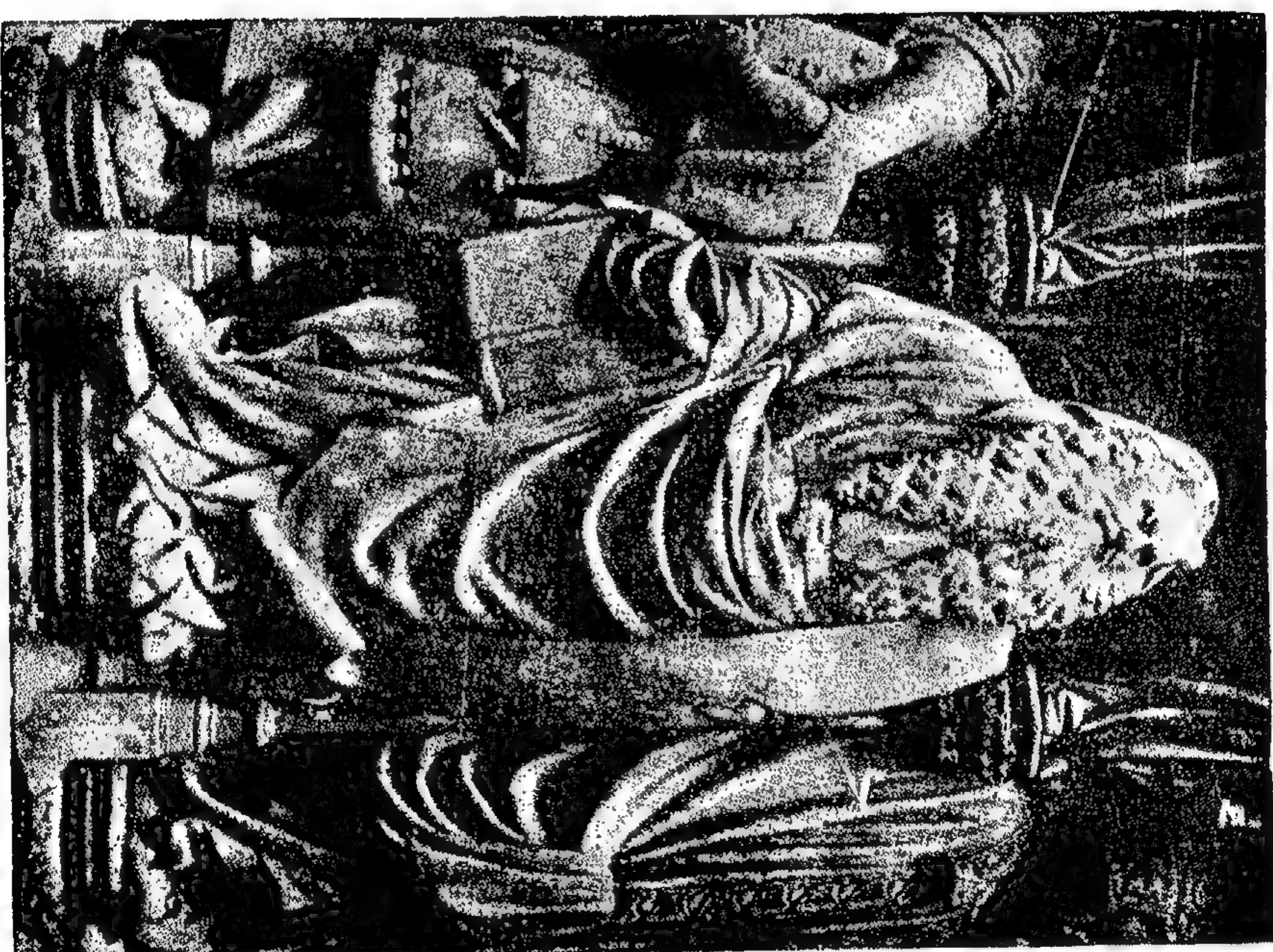
(شكل ٤)
ميشل كولومب
سان جورج والتينين
متحف اللوفر - باريس
(ص ١٨٠)



(شكل •)
كنيسة كنجز كوليج (من الداخل) كامبريدج
(ص ٢١١)



(شكل ٧)
هيوبرت وجان فان أيلك
المذراء . تفصيل من « عبادة الحمل »
كنيسة سان بافون - غنيت



(شكل ٦)
كلاوس سلوتر (موسى)
متحف ديجون



(شكل ٨)
هيوبرت وجان فان أيلك - « عبادة الحمل »
كنيسة سان بافون - غنت
(ص ٢٣٥)



(شكل ٩)

روجيه كان - در - ليدن

صورة شخصية لسيده

(متحف الفن القديم واشتباطون)

- من (مجموعة ميلون)

(ص ٢٣٨)

إلى القياوى

من حق القارئ المرتقب أن ننبهه إلى أن لفظ الإصلاح الدينى ليس عنواناً صادقاً كل الصدق لهذا المجلد ولعل العنوان الأدق منه هو « تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٦٤ أو حوالها بما فى ذلك تاريخ الدين فى إيطاليا مع نظرة عارضة إلى الحضارتين الإسلامية واليهودية فى أوربا وأفريقية وآسية الغربية ». وقد يسأل القارئ عن سبب هذا التحديد المتعرج لمنهج البحث فنقول : إن المجلد الرابع المسمى عصر الإيمان من مجلدات هذه السلسلة « قصة الحضارة » قد وقف بتاريخ أوربا عند عام ١٣٠٠ ، وإن المجلد الخامس « عصر النهضة » قد اقتصر على البحث فى أحوال إيطاليا بين عامى ١٣٠٤ و ١٥٧٦ مرجئاً أضداء الإصلاح الدينى فى بلاد إيطاليا . ومن أجل هذا يجب أن يبدأ هذا المجلد السادس بعام ١٣٠٠ . وهو يفترض أن القارئ سيجد مسلاة فى أن لوثر لا يظهر على مسرح الحوادث إلا بعد أن تنتهى من ثلث هذه القصة . ولكن علينا أن نتفق منذ البداية على أن الإصلاح الدينى قد بدأ فى الواقع بحون ويكلف ولويس البافارى من رجال القرن الرابع عشر ثم واصل سيره إلى جون هوس فى القرن الخامس عشر حتى انتهى فى القرن السادس عشر بالرجة العنيفة التى أحدثها راهب وتبرج . وفى وسع من لا يهتم من القراء بغير الثورة الدينية أن يغفل قراءة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . ثم الفصلين التاسع والعاشر دون أن يخسر بذلك خسارة لا تعوض .

فالإصلاح الدينى إذن هو الموضوع الرئيسى : وإن لم يكن الموضوع الوحيد فى هذا المجلد . وسنبداه بالتحدث عن الدين بوجه عام ، وبما له من أثر فى نفس الفرد وفى الجماعة ، ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى القرنين السابقين على أيام لوثر . ثم نلقى نظرة على أحوال

إنجلترا بين عامي ١٣٧٦ و ١٣٨٢ وأحوال ألمانيا بين ١٣٢٠ و ١٣٤٧ ،
وبوهيميا بين ١٤٠٢ و ١٤٨٥ ونفصل القول في مبادئ إصلاحات لوثر
الدينية وما قام على أثر ذلك من نزاع : وسنلاحظ ونحن نمضي قدماً في البحث
كيف كانت الثورة الاجتماعية وما تتضمنه من آمال شعبية تسيران مع الثورة
الدينية جنباً إلى جنب : وسنردد في غير قوة صدى الفصل الذي ورد
في كتاب جيبون Gibbon عن سقوط القسطنطينية ، ونذكر كيف مكن
زحف الأتراك إلى أبواب فينا رجلاً بمفرده من أن يتحدى البابا والإمبراطور
في وقت واحد . وسننظر بروح العطف إلى ما بذله أرزمس من جهود لحمل
الكنيسة على أن تصلح نفسها في سلام وسندرس أحوال ألمانيا قبيل أيام
لوثر لعلنا نستطيع بهذا الدرس أن نفهم أن مجيئه حين جاء كان أمراً
محتوماً لامندوحة عنه . وسنسلط الأضواء في الكتاب الثاني على الإصلاح
الديني نفسه وعلى رجاله لوثر وملنكتون في ألمانيا ، وزفنجلي وكلفن
في سويسرا ، وهنري الثامن في إنجلترا ، ونكس في اسكتلندا ، وجستافس
فازا في السويد ، ثم نلقى نظرة عابرة على النزاع الطويل الذي شب بين
فرانسيس الأول وشارل الخامس ، لكننا سنؤجل غير هذا من أحوال الحياة
الأوروبية في هذا النصف قرن المضطرب المليء بالأحداث (١٥١٧ -
١٥٦٤) ، وذلك لكي نترك المجال للمسرحية الدينية لتكشف لنا دون
أن يحدث فيها شيء من الاضطراب والارتباك بسبب إرجاء الحديث عنها
من حين إلى حين . أما الكتاب الثالث من هذا المجلد فسيطل على « الغرباء
الواقفين بالباب » . على روسيا وأمراء موسكو والكنيسة الأرثوذكسية ،
وعلى الإسلام وما جاء به من عقيدة ، وثقافة ، وقوة يتحدى بها
غيره من الأديان ، وكفاح اليهودية للعثور على مسيحين في العالم
المسيحي . وسينذهب الكتاب الرابع إلى ما وراء أحداث المسرحية ليدرس
شرائع أوربا وأحوالها الاقتصادية ، وأخلاقها ، وعاداتها ، وفنها ،

وموسيقاها ، وآدابها ، وعلومها ، وفلسفتها في أيام لوثر . وسنحاول في الكتاب الخامس أن نضع أنفسنا في موضع الكنيسة فننظر إلى الإصلاح الديني كما تنظر إليه - هي - وقد جاق بها الخطر ، فلا نجد مناصاً من الإعجاب بالطريقة التي اجتازت بها العاصفة المحيطة بها في جرأة وهدوء . ثم نختم الكتاب بخاتمة موجزة نحاول فيها أن ننظر إلى النهضة والإصلاح الديني ، والمذهب الكاثوليكي ، والاستنارة نظرة شاملة في ضوء التاريخ الحديث والأفكار الحديثة .

ذلك موضوع ممتع رائع ولكنه موضوع شائك ، لأننا لا نكاد نكتب فيه كلمة لا تثير الجدل أو الامتناع . ولقد حاولت أن أقف موقف الكاتب غير المتحيز ، وإن كنت لا أنكر أن ماضي الشخص يلون آراءه على الدوام ، وإن لا شيء يضايق الإنسان أكثر من عدم تحيزه . ومن واجبي أن أنبه القارئ من بداية الأمر أنني قد نشأت نشأة الكاثوليكي المتحمس لمذهبه ، وأنني لا أزال أحتفظ بذكريات طيبة خليقة بالحمد لرجال الدين المخلصين ولليسوعيين العالمين ، وللراهبات المشفقات اللائي يحملنني كثيراً في طيش الشباب ، ولكن على القارئ أيضاً أن يذكر أنني حصلت على جزء كبير من تعليمي خلال محاضراتي التي ألقيتها مدى ثلاثة عشر عاماً في كنيسة مشيخية *Presbyterian church* تحت رعاية رجال من البروتستنت المخلص المتسامحين مثال يوناتان داي ، وولين ادامز براون ، وهنري سلون كفن ، وادم تشارفي ، وإن كثيرين من الرجال المخلصين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراتي في تلك الكنيسة المشيخية كانوا يهوداً أوتوا من التعطش للعلم والفهم ما جعلني أنظر إلى بني ملتهم نظرة نافذة جديدة . ولهذا فإنه إذا كان بين الناس من يجدون مبرراً للتحيز في أحكامهم ، فإنني أنا أقلهم عذراً من هذه الناحية ، وإنني لأشعر نحو جميع الأديان بذلك العطف الصادق الذي يمتليء به قلب من عرف أن الإيمان بالعقل نفسه إنما هو إيمان مزعزع ،

وأنا جميعاً كسف من الظلام الخالك نتحسس الطريق لنور الشمس ، وإنى لا أعرف عما وراء هذه الحياة أكثر مما يعرف أقل طفل في الطرقات .

وانى لأشكر للدكتور أرثر اتهم بوب مؤسس معهد اسية لتصحيحه بعض ما كان فى الفصول الخاصة بالإسلام من أخطاء ، وللدكتور جيرسن كوهين عضو حلقة الدراسات الدينية اليهودية الأمريكية مراجعته الصفحات الخاصة باليهود ، ولصديقى هنرى كوفمان من رجال لوس انجليز قراءته الجزء الخاص بالموسيقى ولزوجتى عظيم مساعدتها الدائمة العظيمة وملاحظاتها القيمة عن كل صفحة طوال كدحنا متعاونين فى تأليف هذا الكتاب .

وإذا ما تجمل القارئ بالصبر فيستخرج له مجلداً آخر نختم به هذه السلسلة وهو المجلد السابع الذى سنسميه عصر العقل ، وسيظهر هذا المجلد بعد نحو خمس سنوات من هذا الوقت ، وسيواصل الحديث عن قصة الحضارة إلى أيام نابليون . فإذا فرغنا من هذا العمل ودعناه وانسحبنا من الميدان شاكرين كل الشكر من حملوا بأيديهم عبء هذه المجلدات وتغاضوا عما لا يحصى من الأغلط فى هذه المحاولة التى نبغى بها تحليل الحاضر إلى عناصره التى يتطوى عليها الماضى . ذلك ان الحاضر ليس إلا الماضى مطوياً ينتظ من يبسطه للعمل كما أن الماضى هو الحاضر مبسوطاً لمن يريد أن يفهم .

لوس انجليز فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ول ديورانت .

كيفية استعمال هذا الكتاب

- ١ - حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم .
- ٢ - الفقرات التي كتبت للقارئ المتعمق لا للقارئ العادي قد كتبت

بالخط الصغير

- ٣ - قد لخصنا في الباب الأول من هذا المجلد بعض الفقرات الواردة في المجلد الخامس الخاص بالنهضة في إيطاليا والتي تبحث في تاريخ الكنيسة قبل الإصلاح

- ٤ - مستقدر في هذا المجلد قيمة الكرون والليرة والفلورين والدوقية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر بخمسة وعشرين دولاراً من نقود الولايات المتحدة في عام ١٩٥٤ ومستقدر قيمة الفرنك والشلن بخمسة دولارات والأيكو بخمسة عشر دولاراً والمارك بـ ٦٦,٦٧ دولاراً والجنيه الاسترليني بمائة دولار على أن هذه القيم كلها تقريبية تقوم على الحدس والتخمين كما أن ما حدث لهذه النقود من تخفيض مراراً عدة يزيد من جعل هذه القيم معرضة للتفاوت الكثير وتلاحظ هنا أن : الطالب في عام ١٣٩٠ كان يستطيع أن يعيش في اكسفورد على : شلن في الأسبوع ، وأن جواد جان دارك كان يساوي في عام ١٤٢٤ ستة عشر فرنكاً ، وأن أجر خادمة عند والد ليوناردو دافنشي في عام ١٤٦٠ لم يكن يزيد على ثمانية فلورينات في العام .

مؤلف الكتاب

ولد ول ديورانت مؤلف هذا الكتاب في تورث ادمز بولاية ماساشوسيتس بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٨٥ وتلقى تعليمه الأول في مدارس الابروشية الكاثوليكية في تلك الولاية في كرنى بولاية النيوجرس ثم انتقل بعدئذ إلى كلية القديس بطرس الحزويتية في مدينة جرسى ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك واشتغل أثناء صيف عام ١٩٠٧ مراسلاً لجريدة ولكنه وجد العمل مثيراً لأعصابه ففنع بتدريس اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هي وموضوعات أخرى في كلية سيتون هول بمقاطعة ثوث أورنج بولاية نيوجرس (١٩٠٧ - ١٩١١) حيث التحق بحلقة الدراسات في عام ١٩٠٩ ولكنه غادرها في عام ١٩١١ لأسباب ذكرها في كتابه « الانتقال ». ثم انتقل من حلقة الدراسات إلى دوائر الرديكالية في نيويورك وعمل مدرسا في مدرسة فرو (١٩١١ - ١٩١٣) وكانت هذه تجربة في التفكير الحر في عالم التربية . وفي عام ١٩١٢ طاف بأوربا على نفقة الدن فريمان وهو صديق له أخذ على عاتقه أن يساعده على توسيع أفاق تفكيره . وفي عام ١٩١٣ عاد إلى الدراسة في جامعة كولومبيا وتخصص في عالم الأحياء يتلقاه على مرجان وكالكنز . وفي الفلسفة على يد دود بريدج وديوى .

ونال درجة دكتور في الفلسفة من هذه الجامعة في عام ١٩١٧ ومكث يعلم الفلسفة في تلك الجامعة وفي عام ١٩١٤ بدأ يلقي في إحدى الكنائس المشيخية في الشارع رقم ١٤ والشارع الثاني في نيويورك محاضرات في تاريخ الفلسفة والأدب مهدت له السبيل لكتابة « قصة الفلسفة وقصة الحضارة » . ذلك أن معظم مستمعيه كانوا من العمال والنساء الذين يتطلبون أن تكون المادة التاريخية الخليقة بالدراسة واضحة كل الوضوح ذات أثر في العصر الذي يعيشون فيه وفي عام ١٩٢١ أنشأ مدرسة لير تمبل التي

أصبحت من أكثر التجارب نجاحاً في تعليم الكبار ولكنه غادرها في سنة ١٩٢٧ ليتفرغ لكتابة قصة الحضارة فطاف بأوروبا مرة أخرى في عام ١٩٢٧ وسافر حول العالم لدراسة أحوال مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان في عام ١٩٣٠ طاف حول العالم مرة ثالثة في عام ١٩٣٢ زار في خلالها بلاد اليابان ومنشوريا وسيبيريا والروسيا . وأثمرت هذه الأسفار المجلد الأول من قصة الحضارة وهو تراث الشرق وقضى ديوارنت قبل أن يبدأ في تأليف المجلد الثاني من قصة الحضارة وهو حياة اليونان صيفاً طويلاً في بلاد اليونان نفسها زار في خلاله أشهر مراكز الحضارة الهيلينية ودرس آثارها وكان طوافه ببلاد البحر المتوسط عوناً له على كتابة المجلد الثالث « قيصر والمسيح » في عام ١٩٤٤ وقضى ستة أشهر من عام ١٩٤٨ في تركيا والعراق وإيران ومصر وأوروبا الغربية ليستعد فيها لكتابة المجلد الرابع . عصر الإيمان (١٩٥٠) ثم عاد إلى إيطاليا في علم ١٩٥١ ليعد العدة للمجلد الخامس من قصة الحضارة وهو عصر النهضة (١٩٥٣) وسافر بعدئذ إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا في عام ١٩٥٤ لكي يدرس الأماكن المتصلة بالإصلاح الديني وما فيها من آثار استعداداً لكتابة هذا المجلد السادس . ويرجو الدكتور ديوارنت أن يفرغ من تاريخ الحضارة في عام ١٩٦٢ بعد إصدار المجلد السابع من هذه السلسلة وهو عصر العقل الذي يروي قصة الحضارة إلى أيام نابليون وإلى عام ١٨٠٠ وسيلغ عندئذ السابعة والسبعين من عمره ويكون من حقه بعدئذ أن يستريح .

الباب الاول

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ - ١٥١٧

الفضل الأول

فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه . ولربما كنا في أيام شبابنا قد برمنا في تعال وكبرياء بما فيه من أمور محبة وان لم تقبلها العقول ، وفي السنين التي نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزدهراً في عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شئون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدي أبيقور أو لوكر بشيوس أو لوشيان أو ما كيا في أوغيوم أو فولتير . ترى ما هو السر الذي من وراء هذه المرونة التي تبعث فيه الحياة من آن إلى آن ؟

ان أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية . ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى في الأيام التي يبلغ فيها العلم ذروة مجده يخيل إليه أنها تعز على الفهم ولا يستطيع تحليلها بالعلل الطبيعية أو يقيسها أو يعرف نتائجها المحتومة . فأسرار العقل مثلاً لاتزال تخفى على قوانين علم النفس وفي علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش العجيب الذي يجعل العلم ميسراً مستطاعاً قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الديني القائل بوجود عقل كوني مدبر لهذا العالم . وان معارفنا لأشبه بسراب بقيعة كلما اقتربنا منه زاد

بعداً عنا . وقل من الناس من إذا مثل عن أمر قال لا أدري ، فإذا واجهته ظاهرة له لا يعرف من قبل حقيقة أمرها عزاها إلى أسباب طبيعية أو خارقة للطبيعة وتصرف بما يتفق مع تعليله هذا أو ذاك ، ولست تجد إلا قلة ضئيلة من العقول تستطيع أن تثريث في حكمها إذا وقفت أمام الشواهد المتناقضة ، أما الكثرة الغالبة من بني الإنسان فتحس بأن لا بد لها أن تغزو ما ترى من الموجودات أو الحوادث إلى كائنات علوية لا تتقيد بالقوانين الطبيعية ، ولقد كانت الأديان (الأولى) هي عبادة خوارق الطبيعة من الكائنات - بامترضاها ، والتوسل إليها ، أو تمجيدها . وما أكثر من يضجرون من الحياة ويألمون منها ، فيطلبون العون من الكائنات الخارقة للطبيعة إذا لم يجدوا هذا العون في القوى الطبيعية ، فتراهم يعتنقون وهم شاكرون مغتبطون أدياناً تبعث في حياتهم الكرامة والأمل ، وتضفي على العالم نظاماً ومعنى لا وجود لها بغير هذه الأديان ، وإن من الصعب على نفوسهم أن تغض الطرف صابرة عما في الطبيعة من قسوة ووحشية تصيب الناس خبط عشواء ، وما يحدث في تاريخ العالم من منازعات ومن إراقة للدماء ، وما يصيبهم هم أنفسهم من محن وبلايا وحرمان إذا لم يؤمنوا بأن هذه كلها جزء من خطة إلهية مرسومة بعز عليهم فهمها وإدراك سرها ، ان العالم إذا لم يكن له سبب أو مصير يعرف حقاً أشبه بسجن للعقول ، فنحن نتوق إلى الاعتقاد بأن للمسرحية الكبرى منشأ عادلاً وغاية سامية .

هذا إلى أننا نعرض على البقاء ، ويصعب علينا أن نعتقد أن الطبيعة قد كدت وأجهدت نفسها حتى أوجدت الإنسان ، والعقل ، والحب والإخلاص لا شيء إلا لتلقى بها ظهيراً متى نصجحت وكل نماؤها . والعلم يجب الإنسان في كل يوم مزيداً من القدرة ، ولكنه ينقص من شأنه على مر الأيام ، فهو يرقى بآلاته وأدواته ولكنه لا يعنى بأهدافه وأغراضه ، ولا يكشف له عن الأصول والقيم والأهداف النهائية ، ولا يضفي على الحياة

والتاريخ معنى أو قيمة لا يقضى عليها الموت أو الزمن المهلك المبيد لكل شيء . ومن أجل هذا يؤثر الناس العقيدة غير القائمة على العقل والبحث الصحيح على الإحجام والتوكل العقلي ، ذلك أنهم يملون التفكير الجير ، والحكم غير القاطع ، فيرحبون بقيادة دين ذي سلطان على نفوسهم ، وبأن يتطهروا من الخطايا بالاعتراف بذنوبهم ، وبالإيمان بدين ثابت قديم . وهم حين يستحون من الاخفاق ، ويشكلون من يحبون ، وتظلم نفوسهم لما اقترفوا من ذنوب ، ويرهبون الموت يحسون بأنهم إذا لقوا العون من الله تطهروا من الذنب والجريمة ، وفارقهم الرعب ، واطمأنوا وامتألت قلوبهم بالأمل ، وسموا إلى أسمى المنازل وكان مألهم الخلود .

والدين في أثناء هذا يهب المجتمع والدولة هبات مستورة تسرى في جميع أجزائهما ، فطقوسه تهدي النفس وتوثق الرابطة بين الأجيال ، فالكنيسة الابرشية تصبح بمثابة بيت عام تؤلف من الأفراد جماعة ، وترفع الكتدرائية رأسها تعلز في فخر وازدهاء أنها من عمل البلدة موحدة ، وتزدان الحياة بالفنون المقدسة وتصب الموسيقى الدينية نغماتها المهدئة في نفس الفرد والجماعة . ويعرض الدين رضائه وتأنيده السماوى للقانون الأخلاقى الذى تنفر منه فطرتنا ولكنه مع ذلك لا غنى عنه للحضارة . ويعرض على عقول البشر ربا سميعاً بصيراً ويهددهم بالعقاب السرمدى ويعدهم بالنعيم الدائم . ويصدر إليهم أوامر ليست من سلطة بشرية مزعزعة بل صادرة عن قوة الهية لا سبيل إلى عصيانها وإذا كانت غرائزنا قد تكونت خلال ألف قرن من الزمان وكان الأمن فيها مزعزعاً مضطرباً يطارد فيها الإنسان الحيوان ويطارده ، فإنها قد جعلتنا صائدين أشداء وديدننا العنف وطبيعتنا تعدد الأزواج بدل أن تجعلنا مواطنين مسالمين . وإذا كان ذلك العنف القديم الذى استلزمته حياتنا الأولى يزيد على ما تحتاجه حياتنا الاجتماعية الحاضرة فإن غرائزنا يجب أن تفرض عليها مثات من القيود كل يوم على علم منا أو غير علم

حتى يمكن قيام المجتمع والحضارة . لهذا استعانت الأسر والدول قبل التاريخ بأجيال طوال بقوة الدين لكي تخفف من غرائز الإنسان الهمجية ووجد الآباء في الدين عوناً لهم على كبح جماح أبنائهم المعاندين وإبعادهم عن الشطط وتعويدهم ضبط النفس ، واستعان المربون بالدين فكان لهم وسيلة ذات أثر عظيم في تهذيب الشباب وتعويده النظام والرقّة واتخذته الحكومات من أقدم الأزمنة عوناً لها على إقامة صرح النظام الاجتماعي وتخليصه من الأنانية المقطعة لأوصال المجتمع مما طبع عليه الناس من فوضى . ولو أن الدين لم يوجد لابتدعه كبار المشترعين أمثال حمورابي وموسى وليقورج ونوما بمبليوس . لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى ابتداعه لأنه ينشأ من تلقاء نفسه ويتجدد للوفاء بحاجات الناس وآمالهم .

وقد ظل الدين المسيحي خلال ألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتى يهب الأفراد والدول ما ينطوى عليه من مزايا ويقدمها لهم هبة خالصة ، وكان هو نفسه في هذه الأعوام ينمو ويتكون ، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة يغرى بها الهمجية على اصطناع الحضارة وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءاً من مسرحية عالمية سامية وإن تكن متواضعة ، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه الذي تحدث إليه في كتبه المنزلة ووضع له فيها قانوناً أخلاقياً وجعل الكنيسة مستقراً لتعاليمه وممثلاً لسلطانه على هذه الأرض . وأخذت هذه المسرحية الفخمة تنمو عاماً بعد عام ، وأخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم في سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الأمثال لمن يأتي بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم ، وأنشأ الفنانون مئات الصور ومئات الآلاف من التحف الفنية يفسرون بها هذه المسرحية ويظهرونها بوضوح لعقول الناس حتى الساذجة منها غير المتعلمة فأضحت مريم العذراء أم المسيح « أينع زهرة في الشعر كله » وكانت هي نموذج الرقة النسوية التي تنسج النساء على منوالها وحنان

الأمومة توجه إليها أرق الترانيم وأعظمها خشوعاً وإخلاصاً ، وهى التى أوحى بالصروح الفخمة والتماثيل الرائعة والصور الجميلة والشعر العذب والموسيقى الحلوة وهى التى بعثت المراكب ذات الروعة التى تقوم كل يوم حول ملايين من مذابح الكنائس ومن أجلها يقوم القداس بطقوسه الغامضة الرهيبة التى تسمو بالنفس وترفعها إلى السموات العلى . والاعتراف والتوبة يطهران نفس المذنب التائب الخاشع والصلاة تطمئننه وتقويه والعشاء الربانى تقربه من المسيح قرباناً يبعث فى نفسه الرهبة والقداس الأخير يطهره ويعده لدخول الجنة وقلما أخرج دين فى رسالته للانسانية مثل هذه الروعة الفنية .

ولقد كانت الكنيسة فى أجمل صورها حين حلت بعقائدها المواسية وطقوسها الساحرة ومبادئ اتباعها الخلقية النبيلة وشجاعة أساقفتها وغيرتهم واستقامتهم ، وعدالة محاكم أسقفياتها وطهارتها ، حين حلت بهذه كلها فى المكان الذى تخلت عنه ، حكومة الامبراطورية فكانت هى الحارس الأكبر للعالم المسيحى للنظام والسلم فى العصور المظلمة (حوالى ٥٢٤ - ١٠٧٩ م) . وأوروبا مدينة يبعث الحضارة فى الغرب بعد أن أغار البرابرة على إيطاليا وغالة وبريطانيا وأسبانيا إلى الكنيسة أكثر مما هى مدينة بها إلى أية هيئة أخرى مهما كان شأنها . فقد كان رهبانها هم الذين أصلحوا الأرض البور وكانت الأديرة هى التى تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوى للمسافرين ، وكانت مستشفياتها هى التى تعنى بالمرضى والمعوزين . وكانت أديرة النساء هى التى تلجأ إليها الأراامل ومن لا أزواج لهن فتوجه فيهن عواطف الأمومة إلى أغراض اجتماعية سامية ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وخدمن بتربية البنات . وإذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والامية ، فما ذلك إلا لأن الرهبان قد نسخوا آلاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين

اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وإن كانوا قد تركوا كثيراً من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية في سانت جول ، وفولدا ومونتي كسينو وغيرها هي التي وجد فيها الكتاب الإنسانيون في عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التي لم تسمع قط باسم المسيح . ولقد ظلت الكنيسة ألف عام من أيام امبروز إلى ولزي تدرب في غرب أوروبا المعلمين والعلماء والقضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة ، وكانت الكنيسة في العصور الوسطى هي عماد الدولة وسندها . ولما انقضى عهد العصور المظلمة - ولنفترض أن ذلك كان عند مولد ابلار - كانت الكنيسة هي التي أنشأت الجامعات وشيدت الكتدرائيات القوطية فأوجدت بذلك بيوتاً لعقول الناس وتقواهم ، وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسون ما حاولوه قديماً من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الإنساني . ولقد ظل الفن الأوربي كله تقريباً طوال تسعة قرون يتلقى الإلهام والمال من الكنيسة ، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثني ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى في أسمى صورها ابنة الكنيسة .

وأكثر من هذا كله أن الكنيسة في عنفوان مجدها هي التي أمدت دول أوروبا بالقانون الأخلاقي العام الذي كان متبعاً فيها كلها كما أمدتها بنظام حكمها . وكما أن اللغة اللاتينية التي تعلمها الكنيسة في الكنائس كانت هي الأداة التي وحدث أساليب التعليم والأدب والعلم والفلسفة في الأمم المختلفة ، وكما أن طقوس المذهب الكاثوليكي - أي العالمي - وعقيدته هي التي وهبت أوروبا الوحدة الدينية قبل أن تنقسم إلى قوميات مستقلة ذات سيادة ، فإن الكنيسة الرومانية التي تغزو نشأتها وزعامتها الروحية إلى الله سبحانه وتعالى قد طلبت أن تكون هي محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الأخلاقية . وقد صاغ البابا جريجوري السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الأوروبية هذا الصياغة القانونية واعترف به الامبراطور هنري الرابع حين

نخضع لجريجورى فى كانوسا (سنة ١٠٧٧) ، وبعد قرن من ذلك الوقت
أذل امبراطور أعظم منه قوة هو فردريك ببروسيا نفسه أمام بابا أضعف
من جريجورى هو اسكندر الثالث بعد عناد طويل ومقاومة لم تجده نفعاً ،
وفى عام ١٠٩٨ رفع البابا إنوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها إلى درجة
بدا معها أن المثل الأعلى الذى كان يطمح فيه جريجورى وهو أن تكون
الكنيسة صاحبة السلطان الأعلى على الدول من الناحية الحلقية — بدا أن هذا
المثل قد تحقق إلى حين ٥

لكن هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية . ذلك أن
المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طينة البشر وأنهم
متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب كانوا
أيضاً بشرأ مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمثهم . وبعثت ثورة
فرنسا المضطردة النماء فى قلوب بنىها الكبرياء والحرص على السيادة القومية ،
فقام فليب الرابع يتحدى سلطان البابا بونى فاس الثامن على أملاك الكنيسة
وكلل هذا التحدى بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن فى السجن
فى اتبان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) .
وهنا وفى تلك الساعة بدأ الإصلاح الدينى من إحدى نواحيه الأساسية —
وهى خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

الفصل الثاني

الكنيسة في الخضيض

١٣٠٧ : ١٤١٧

كانت الكنيسة في القرن الرابع عشر تعاني للذل السياسي والانهيار الخلقى . لقد بدأت أول عهدا يحدوها الإخلاص العميق والولاء الذى اتصف به بطرس وبولس ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلاً يعمل على تهذيب الأسرة والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره وينشر حسن النظام وكريم الأخلاق . أما الآن فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها هم إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة وكل ما تعنى به هو المحافظة على بقائها وأموالها . وقد استطاع فليب الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسى للبابوية ، وأقنعه بأن ينقل الكرسي البابوى إلى مدينة اثنيون على نهر الرون . وظل البابوات بعدئذ ثمانية وستين عاماً يبادق وسجناء فى أيدي فرنسا وسرعان ما أخذ الاحترام الذى كانوا يلقونه من تلك الأمم ينقص تدريجاً ، كما أخذت مواردهم ينضب : معيها : وشرع البابوات من ضيقهم يملأون خزائهم بالمال يحصلون عليه يفرض الضرائب التى لا عداد لها على رجال الدين وعلى الأديرة والأبرشيات . وكانوا يطلبون إلى كل رجل يعينونه فى مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه فى العام الأول ثم عشر ما يحصل عليه منه فى الأعوام التالية . وكان على كل كبير أساقفة أن يودى إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال نظير الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يلبسه كبير الأساقفة ويعد رمزاً لسلطانه وتوكيداً له . وإذا مات كردنال أو كبير أساقفة أو أسقف أورئيس دير عادت أملاكه إلى البابوية ، وفى خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا

يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين حتى ينالوا من المال أكثر ما يستطيعون .
وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) أو كل نفع
يسديه ينتظر أن يودى إليه عطية قيمة اعترافاً من صاحبه بما نال من نفع ،
وكان الحكم فى بعض الأحيان يتوقف على قيمة العطية .

على أن كثيراً من هذه الضرائب البابوية لم يكن إلا وسيلة مشروعة تحصل
بها على المال ، الإدارة المركزية للكنيسة التى كان لها على المجتمع الأوروبى سلطان
أدبى أخذ يتناقص على مدى الأيام . غير أن بعض هذا المال كان يذهب
ليتختم بطون رجال الدين ، بل إن منه ما كان يذهب إلى جيوب الحظايات
اللاتى كانت تزدهم بهن حجرات بيوت البابوات فى افنيون . وليس أدل
على ذلك من هذه الرسالة التى قدمها وليام ديوراند أسقف مند إلى مجلس فينا
(١٣١١) وقد جاء فيها :

يستطاع إصلاح الكنيسة كلها إذا ما بدأت كنيسة روما بالإقلاع عن
المثل السيئة التى تضربها بنفسها لغيرها من الكنائس . وهى التى تسىء
إلى سمعة الناس وتكون بمثابة الوباء الذى تسرى عدواه إلى جميع الناس ...
ذلك أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار حتى أصبح الناس
يعلنون فى خارج روما أن جميع من تضمهم من الرجال من أكبرهم مقاماً
إلى أصغرهم شأناً قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع . . . وأن رجال الدين
يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء
فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماساً فى الترف ...
من الأمراء والملوك .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايو عقيرته بقوله : « إن الدثاب
تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى » . وقد ذكر إدوارد
الثالث ملك إنجلترا ، وهو الحبير المتفنن فى فرض الضرائب ، كلمنت السادس
بأن « خليفة الخواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجر

صوفها » . وفي ألمانيا كان جباة الضرائب البابوية يطاردون ، ويسجنون ، وتقطع أطرافهم ، ويخنقون . وفي عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين في كولوني وبون ، واكسنتن ومانز ألا يدفعوا مال الصدقات الذي فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى عام ١٣٢٤ أن كتب اجستينو ترينفو المشمول برعاية يوحنا الثانى بعد العشرين رسالة فى الدفاع عن رجال الدين رداً على الهجمات التى وجهها إلى البابوية مرسلوس من أهل بدوا ووليم أوكهام . ويقول اجرستينو فى هذه الرسالة إن سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وإن طاعته واجبة وإن أثم أشد الإثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره وإلحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وإن عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بديساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاماً من الملائكة وهو خالق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون . وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقد به الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذا المبدأ بإصرار لا يتحول عنه أبداً .

على أن فرار البابوات من رومة وخضوعهم لفرنسا قد قوض سلطانهم وحط منزلتهم ، وكأنما أراد بابوات افنيون أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا فاختاروا من بين ١٢٤ كرادنالا ١١٣ فرنسياً .

واستشاطت الحكومة الإنجليزية غضباً من كثرة القروض التى منحها

البابوات ملوك فرنسا أثناء حرب مائة العام ، ومن أجل ذلك تغاضت عن مطاعن ويكلف على البابوية ؟ ورفض المنتخبون الألمان الذين كانوا يختارون الإمبراطور أى تدخل من جانب البابوات في المستقبل في اختيار الملوك والأباطرة . وفي عام ١٣٧٢ اتفق رؤساء الأديرة في كوموني وأعلنوا على الملأ أن « الكرسي الرسولي قد انحط إلى درجة من الاحتقار تجعل المذهب الكاثوليكي يبدو معرضاً لأشد الأخطار » . وفي إيطاليا استولى على الولايات البابوية - لا يتوم رامبريا ، وولايات الحدود ، ورومانيا - رؤساء جنده مغامرون يظهرون الطاعة بالاسم للبابوات ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بإيراد هذه الولايات كله . ولما بعث اريان الخامس مندوبين من قبله إلى ميلان ليعلموا الفيسكنتي العاصي بقرار الحرمان ، اضطرها برنابو أن يأكلا هذا القرار - بما فيه من ورق وخيوط من الحرير وأختام من الرصاص (١٣٦٢) . وعمدت فلورنس في عام ١٣٧٦ حين قام النزاع بينها وبين البابا جريجوري الحادي عشر إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك في أراضيها ، وأغفلت محاكم الأبروشيات وهدمت أبنية محاكم التفتيش وزجت من قاومها من القساوسة في السجن أوقلتهم شتقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لكل سلطان الكنيسة الزماني .

واتضح من ذلك الوقت أن بابوات افينيون أخذوا يخسرون أوروبا كلها مقابل خضوعهم لفرنسا وإخلاصهم لها . فلما كان عام ١٣٧٧ أعاد جريجوري الحادي عشر البابوية إلى روما .

ولما مات جريجوري في عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة وكانت أغلييته الساحقة من الفرنسيين ولكنه كان يخشى غضبة عامة روما - اختار بابا إيطاليا هو اريان السادس وتبين أن اريان اسم على غير مسمى (١) ؟ فقد كان حاد الطبع عنيفاً في تصرفاته مصراً على الإصلاحات التي لا يرتضيها

رجال الكنيسة ، وبلغ هذا الإصرار حداً أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونياً لأنه تم تحت الضغط والإرهاب ، ونادوا ببروت من أهل جنيف بابا . وتولى بروت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ أفينيون مقراً له ولكن أربان أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وكان الذى مهد السبيل إلى الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ - ١٤١٧) الذى بدأ على هذا النحو ، والذى مهد السبيل لكثير من القوى التى هيات العقول للإصلاح الدينى هو قيام الدول القومية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد إنجلترا . وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى وأسبانيا واسكتلندة . ولكن إنجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندا ، وبوهيميا ، وبلاد المجر ، وإيطاليا ، والبرتغال اعترفت بأربان ، وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحاً فى أيدي المعسكرين المتنازعين وضحية لهما . ونادى نصف العالم المسيحى بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وأن الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين أثمين ، مآلهم الجحيم — أو المطهر على أقل تقدير . وكان الإسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى .

ولم يخف هذا العداء بموت أربان (١٣٨٩) . ذلك أن الكرادلة الأربعة عشر الذين يؤلفون معسكره اختاروا بنيفاس التاسع خلفاً له ثم اختاروا من بعده انوسنت السابع ثم جريجورى الثانى عشر ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية . ولما توفى كلمنت السابع (١٣٩٤)

رشح كرادلة افنيون أحد الأساقفة الأسبان لكرسى البابوية فجلس عليه باسم بندكت الثالث عشر . وعرض هذا البابا أن يستقيل من منصبه إذا حذا جريجورى حذوه ، ولكن أقارب جريجورى الذين حلوا فى مناصبهم الدينية ، أصموا آذانهم عن هذا الطلب . وتخلى بعض كرادلة جريجورى عنه ودعوا إلى انعقاد مجلس عام من رجال الدين . وألح ملك فرنسا على بندكت أن ينسحب ، ولكن بندكت أبى أن يصغى إلى الحاحه ، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت خروجها عن طاعته ووقفت من النزاع موقف الحياد . فلما فر بندكت إلى أسبانيا انضم كرادلته إلى زملائهم الذين تخلوا من قبل عن جريجورى ، وأصدروا مجتمعين دعوة إلى مجلس يجتمع فى بيزا ليختار بابا يرتضيه الجميع .

وكان الفلاسفة المتمردون قبل ذلك الوقت بقرن أو نحوه قد وضعوا الأسس النظرية « لحركة المجالس » . فقد كان ولیم أوكهام يعارض الفكرة القائلة أن الكنيسة هى رجال الدين ، ويقول أن الكنيسة هى جماعة المؤمنين ، وأن الكل هو صاحب السلطان الأعلى على كل جزء من أجزائه ، وأن من حق هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس أعلى مؤلف من جميع أساقفة الكنيسة ورؤساء أديرتها ، وأن من حق المجلس المؤلف على هذا النحو أن يختار البابا ويزجره ، ويعاقبه ، ويخلعه . كذلك قال مرسلينوس من أهل بدو أن المجلس العام يمثل حكمة العالم المسيحى مجتمعاً فكيف يحق لإذن لرجل واحد أبياً كان شأنه أن يضع عقله فى منزلة أعلى من عقل العالم المسيحى كله ؟ وكان يرى أن هذا المجلس يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم بل يجب أن ينضم إليهم من غير رجال الدين من يختارهم الشعب . وطبق هينريخ فن لانجنشتاين أحد رجال اللاهوت الألمانى جامعة باريس ، (١٣٨١) هذه الأفكار على الانقسام البابوى وقال أنه مهما يكن ما يدعيه البابوات لأنفسهم من سلطان أعلى ، فقد حدثت فى الموقف أزمة لا يجد المنطق

وسيلة إلى الخروج منها سوى سبيل واحد . ولا يستطيع إنقاذ الكنيسة من الفوضى التي تقوض دعائمها إلا سلطة خارجة عن البابوية تفوق سلطة الكرادلة ، ولا يمكن أن تكون هذه السلطة إلا سلطة مجلس عام .

واجتمع مجلس بيزا في ٢٥ مارس ١٤٠٩ ، ودعى بندكت وجريجورى إلى المثل أمامه فلما تجاهلا هذه الدعوة أعلن خلعهما واختار بابا جديداً هو إسكندر الخامس وأمره أن يدعو مجلساً آخر إلى الانعقاد قبل أن يحل شهر مايو سنة ١٤١٢ ثم أجل جلساته . وبذلك وجد ثلاثة بابوات بعد أن لم يكن منهما إلا اثنان . ولم يخفف موت الإسكندر (١٤١٠) من حدة النزاع ، لأن كرادلته اختاروا خليفة له يوحنا الثالث والعشرين . لم يكن في البابوات بعد سميته الثاني والعشرين من هو أكثر منه عناداً وصلابة رأى . وكان هذا الزعيم المغامر وهو يحكم بولونيا نائباً عن البابا باسم بلد سارى كوسا حكم زعماء العصابات المغامرين يفرض الضرائب على كل شيء في الولاية ويحيز لغيره من رجال الحكم فرضها . كان يفرضها على العاهرات والمغامرين والمرابين ، ويقول أمين سره أنه أغوى مائتي عذراء ، وزوجة ، وأرملة وراهبة .

ولكنه كان ذا مال وكان له جيش ، ولعله كان يستطيع انتزاع الولايات البابوية من يدى جريجورى فيضطره بذلك إلى النزول عن عرشه بعد إفلاسه . وأرجأ يوحنا الثالث والعشرون دعوة المجلس الذي أمر بانعقاده مجلس بيزا أطول ما يستطيع ، ولما افتتحه في مدينة كنستانس في الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ لم يحضره إلا عدد قليل ممن دعوا إليه من البطارقة الثلاثة ، والكرادلة التسع والعشرين ، ورؤساء الأساقفة الثلاث والثلاثين ، والأساقفة الخمسين ، وعلماء اللاهوت الثلاثمائة ومندوبى الجامعات الأربعين ، والأمراء الست والعشرين ، والنبلاء المائة والأربعين والقساوسة الأربعة الآلاف . ولو أن هؤلاء جميعاً قد حضروا لكان هذا المجلس أكبر مجلس في تاريخ

المسيحية وأهم ما عقد من مجالسها منذ مجلس نيقية (٣٢٥) الذي أقر عقيدة التثليث في الدين المسيحي ، وأصدر المجتمعون في السادس من أبريل عام ١٤١٥ قراراً ثورياً يدل على الزهو والكبرياء جاء فيه :

إن هذا المجمع المقدس المنعقد في كنستانس ، بوصفه مجلساً عاماً ، مجتمعاً اجتماعاً قانونياً يرفرف عليه الروح القدس كي يحمد الله ويقضى على الانقسام القائم في الكنيسة ويعمل على جمع شملها وإصلاح شأنها في رؤسائها وأعضائها . . يأمر ، ويعلن ، ويقرر ما يأتي : أولاً : يعلن أن هذا المجمع المقدس . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد سلطانه من المسيح مباشرة ، ومن ثم يجب على كل إنسان مهما كانت مرتبته ومنزلته بما في ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس في كل ما له مساس بالدين كي يقضى على هذا الانقسام القائم وتصلح الكنيسة إصلاحاً عاماً في رأسها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن كل إنسان . . . بما في ذلك البابا أيضاً يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس المقدس وقوانينه وقراراته . . . التي تهدف إلى القضاء على الانقسام أو إلى إصلاح الكنيسة ، يعرض نفسه لطائلة العقاب الذي يتناسب مع جرمه . . . وسيلجأ المجلس ، إذا لزم الأمر إلى غير ذلك من أساليب العدالة (١١) .

وطالب المجلس بخلع جريجورى . الثانى عشر وبندكت الثالث عشر ويوحنا الثالث والعشرين . ولم يتلق من يوحنا جواباً على طلبه فقبل ما عرض عليه من التهم الأربع والخمسين التي تهم يوحنا هذا بأنه كافر مستبد ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الدينية ، خائن ، شهوانى ، لص ، وامتنع المجلس عن قبول ست عشرة تهمة أخرى رآها أقسى مما يليق (١٢) فلما كان اليوم التاسع بعد العشرين من شهر مايو سنة ١٤١٥ قرر خلعه — أما جريجورى فكان أكثر منه مرونة ودهاء ، فقد وافق على أن يعتزل منصبه لكنه اشترط لذلك أن يسمح له بأن يدعو أولاً المجلس إلى الانعقاد

التالى بما له من حق فى هذه الدعوة . فلما عاد المجلس إلى الانعقاد على هذا النحو قبل استقالته (٤ يولية) . وأراد أن يثبت تمسكه بالدين وبسلطانه الشرعى فأمر بإحراق المصلح البوهيمى جون هوس (٦ يولية) . وفى اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر أعلن خلع بندكت الثالث عشر ، فذهب هذا البابا المخلوع إلى بلنسية حيث توفى فى سن التسعين وهو لا يزال يدعى أنه هو البابا — وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٤١٧ اختارت لجنة الناخبين الكردنال اتونى كولنا بابا وتسمى باسم مارتن الخامس . واعترفت المسيحية كلها بهذا البابا الجديد وبذلك انتهى الصدع البابوى .

غير أن انتصار المجلس فى هذه الناحية قد أعجزه عن تحقيق غرضه الآخر ونعنى به إصلاح الكنيسة . ذلك أن مارتن الخامس لم يكد يجلس على الكرسي البابوى حتى استحوذ من فوره على جميع ما كان للبابوية من حقوق وسلطات مختلفة ، فأخذ يغرى كل جماعة من المندوبين من كل دولة بغيرها من الجماعات وأقنعها بقبول أقل قدر من الإصلاح الغامض القليل الأذى وخضع المجلس له لأنه كان قد سئم ومل العمل فلما كان اليوم الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٤١٨ أعلن انفضاض جلساته .

البابوية المنتصرة

١٤١٧ — ١٥١٣

نظم مارتن الإدارة البابوية تنظيماً يمكنها من أداء عملها خير أداء ، ولكنه لم يجد سبيلاً للحصول على حاجتها من المال إلا باتباع أساليب الحكومات الدنيوية القائمة فى ذلك العهد وبيع المناصب والخدمات . وإذا كان فى وسع الكنيسة أن تبقى مائة عام من غير إصلاح ، وإن كان يصعب عليها أن تبقى أسبوعاً واحداً من غير مال ، فقد استقر رأيه على أنها أشد حاجة إلى المال منها إلى الإصلاح . وكانت نتيجة هذا أن بعث مندوب ألماني فى روما

في عام ١٤٣٠ أى قبل موت مارتن بعام واحد ، إلى أميره رسالة تكاد تضرب على نغمة الإصلاح الدينى وتندر به قال :

إن الشره يسود دوائر الحكومة فى روما ، وهى تبتدع فى كل يوم أساليب جديدة . . لابتزاز المال من ألمانيا ... وهذا هو منشأ ما نراه من الضجيج والأحقاد الكثيرة . . ومن أجل هذا ستثار أسئلة كثيرة عن أحوال البابوية ، والافسينذ الناس آخر الأمر طاعتها لكى ينجوا من هذا الابتزاز المرهق الذى يعمد إليه الإيطاليون ، وانا أرى أن هذا المسلك الأخير هو الذى سترتضيه معظم البلدان .

وخلف مارتن على كرسى البابوية راهب فرانشسكانى صالح تقى غير أهل لتصريف الأمور فوجد أمامه المشاكل التى تجمعت حول الكرسى الرسولى . لقد كان على البابوية أن تحكم ولايات دنيوية وان تحكم الكنيسة الدينية ، وكان على البابوات أن يكونوا رجال سياسة ملمين بشئون الدنيا ولم يكونوا قديسين فحسب . ولسنا ننكر أن يوجينوس الرابع كان يستطيع أن يكون قديساً لو أن متاعبه لم تملأ قلبه حقداً . فقد حدث فى السنة الأولى من ولايته أن عاد مجلس بازل فأكد من جديد سيادة المجالس العامة على البابوات واستحوذ على ما كان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها إليه واحدة بعد واحدة . من ذلك أنه أخذ يصدر صكوك الغفران ويعين من يشغلون المناصب العامة ويطلب أن ترسل بواكير المرتبات الدينية إلى المجلس لا إلى البابا . فما كان من يوجينوس إلا أن أمر المجلس بالانفضاض ، فرد عليه المجلس بأن خلعه وعين أماديوس الثامن دوق سافوى بابا معارضاً باسم فلкс الخامس (١٤٣٩) . وهكذا تجدد الانقسام البابوى .

وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم ما خيل إليه أنه هزيمة للبابوية فدعا إلى الانعقاد جمعية مؤلفة من الأساقفة الفرنسيين والنبلاء والمحامين

أعلنت أن للمجالس العامة السلطة العليا وأصدرت قرار بوج التنظيمي (١٤٣٨) الذي ينص على أن الوظائف الدينية ستشغل من ذلك الوقت بمن يختاره لها رجال الدين المحليون ، على أنه يجوز للملك أن « يوصي » في ذلك بما يراه ، وأن يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابوية إلا إذا استنفذت جميع الطرق القضائية في فرنسا نفسها ، ولا ترسل بعدئذ بواكير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا . وكان معنى هذا في الواقع أن القرار التنظيمي قد أنشأ كنيسة فرنسية مستقلة وجعل ملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام من ذلك الوقت اتخذت جميعة منبر قرارات تهدف إلى إقامة كنيسة قومية في ألمانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية . وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية ولاح أن الكنيسة الرومانية توشك أن تنهار .

وأنقذ الأتراك يوجينيوس من هذا الموقف الحرج . ذلك أنه لما قرب العثمانيون من القسطنطينية قررت الحكومة البيزنطية أن عاصمة الدولة خليفة بقداس روماني ، وأن عودة المذهبين اليوناني واللاتيني إلى الاتحاد ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية أو المالية من أوروبا الغربية . ولهذا جاء الأساقفة والنبلاء اليونان في مواكب فخمة إلى فيرارا ثم انتقلوا إلى فلورنس ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم البابا لهذا الغرض (١٤٣٨) . وقضى الطرفان في الأخذ والرد عاماً كاملاً وصلاً بعده إلى اتفاق اعترفت فيه بسلطة الرئيس الديني في روما على جميع العالم المسيحي ، ولما حل اليوم السادس من شهر يوليو عام ١٤٣٩ ركع جميع أعضاء المؤتمر وعلى رأسهم إمبراطور الروم نفسه أمام يوجينيوس الذي خيل إلى العالم منذ وقت قريب أنه الرجل الذي نبذته المسيحية واحتقرته أشد الاحتقار ، على أن هذا الاتفاق لم يطل عهده لأن رجال الدين اليونان وغير رجال الدين في تلك البلاد نكثوا عهدهم ، لكنه مع هذا أعاد إلى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوي الجديد وعلى مجلس بازل :

وتلا ذلك قيام طائفة من البابوات الأقوياء خلف بعضهم بعضاً أغنتهم ورفعت من مقامهم النهضة الإيطالية ، فرفعوا البابوية إلى درجة من الفخامة لم تشهد مثلها من قبل حتى في أيام أنوسنت الثالث ذلك البابا الفخور . ونال نقولاس الخامس إعجاب الكتاب الإنسانيين بأن وجه إيراد الكنيسة إلى مناصرة العلم والفن ، وبدأ كلوكستس الثالث تلك العادة الظريفة عادة منح الوظائف الدينية للأقارب ، وهي التي كانت مصدراً خصباً للفساد في الكنيسة . وكافح بيوس الثاني ، الذي كان مؤلفاً نابهاً وباباً عظيماً ، لإصلاح الإدارة البابوية والأديرة ، وألف لجنة من كبار رجال الدين المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لدراسة معائب الكنيسة واعترف لهذه اللجنة في صراحة بأن :

أمرين هما أقرب الأمور إلى قلبه ، حرب البرك وإصلاح البلاط الروماني ، وأن إصلاح الأمور الكنسية كلها ، وهو ما اعتزم المضي فيه ، ليتوقف كله على إصلاح أحوال البلاط البابوي الذي أريد أن يكون مثلاً يحتذى . وفي عزمي أن أبدأ بإصلاح أخلاق رجال الدين في هذا البلد وان أقضى على كل ما فيه من بيع الوظائف الدينية وغير ذلك من المساوئ^(١) .

وأصدرت اللجنة توصيات محمد عليها وصاغ بيوس هذه التوصيات في مرسوم بابوي . لكن روما لم يكن فيها إلا القليل ممن يريدون الإصلاح لأن نصف من كان فيها من الموظفين والكبراء كان يستفيد من هذا العيب أو ذاك ، ولهذا أحبط الحقد وأحببت المقاومة السلبية أعمال بيوس بينما كانت الحرب الصليبية العقيم التي شنها على الأتراك ثمة تشغل باله وتستنفذ قواه وماله . وقد وجه قبيل آخر ولايته نداء أخيراً إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس أننا نسعى في حياتنا وراء اللذة ونكدرس الثروة ، ونتصرف بالكبرياء والخطيئة ، ونمتطي صهوة البغال الثمينة والحياد المظلمة . . ، ونربي الكلاب للصيد ، وننفق المال الكثير على الممثلين والطفيليين ، ولاننفق

شيئاً منه للدفاع عن الدين . وإن فيما يقولون لبعض الحق ، ذلك أن كثيرين من الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا يعيشون هذه المعيشة أونحوها : وإذا أردتم الحق فإن ما في بلاطنا من ترف وتباه ليزيد على الحد الواجب . ومن أجل هذا ترى الناس يبغضوننا ويحقدون علينا فيمنعهم ذلك من الاستماع إلينا وإن قلنا ما هو عدل يرتضيه العقل . فماذا ترون أن نفعل في هذه الأمور التي تجلنا بالعار ؟ . . ان علينا أن نبحث عن الوسائل التي اتبعها أسلافنا فنالوا للكنيسة السلطة — والاحترام وعلينا بعدئذ أن نحفظ بهذه السلطة بتلك الوسائل نفسها . وما من شك في أن الذي رفع من شأن الكنيسة الرومانية وجعل لها السيادة على العالم أجمع إنما هو الاعتداد ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . واحتقار الدنيا ، والرغبة في الاستشهاد^(١٥) .

وأخذت ردائل البلاط البابوي تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته على الرغم من الجهود التي بذلها بابوات من أمثال نقولاس الخامس وبيوس الثاني وما بذله الصالحون من رجال الدين أمثال الكردينالين جوليانو سيزاريتي ونقولاس الكوزائي^(١٦) فكان بولس الثاني يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر عظيم ، وجعل سكتس الرابع ابن أخيه من أصحاب الملايين ، وأقحم نفسه في ميدان السياسة ، وبارك المدفع الذي يحارب به وقائعه ، وحصل على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية إلى من يؤدي فيها أكبر الأثمان ، واحتفل أنوسنت الثامن بزواج أبنائه في قصر الفاتيكان . وكان إسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه كما كان يراه لوثر وكلفن ، وكان له خمسة أبناء أو أكثر قبل أن يلتزم العفة وهو بابا ، ولم ير رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس ، ذلك بأن الناس لم يكونوا يرون فيما يلجأ إليه رجال الدين سرّاً من علاقات غرامية أمراً غير مألوف ، كان كل ما تأخذه أوربا على إسكندر السادس هو سياسته الخارجية التي

لا يرمى فيها إلا ولاذمة وما تأخذه على سيزارى بارجيا هو قسوته فى حروبه وأنه استرد للبابوية ولايتها وزاد الكرسي الرسولى قوة وأمدّه بالكثير من المال الذى يحتاجه . وقد اتبع آل بارجيا فى هذه الخطط السياسية والمعارك الحربية جميع الخطط الحربية وأساليب الغدر وسفك الدماء التى صاغها مكيا فى بعد قليل من ذلك الوقت فى كتاب الأمير (١٥١٣) وقال أنها لا غنى عنها لتأسيس دولة قوية أو لتوحيد إيطاليا . وفاق البابا يوليوس الثانى سيزارى بارجيا فيما شنه من الحروب على البندقية النعمة الحشعة وعلى الفرنسيين الغزاة ، وكان يفر كلما استطاع من سجن الفاتيكان ، ويقود جيشه بنفسه ويحب الحياة الصعبة والحديث الحشن فى المعسكرات الحربية . وهال أوربا أن ترى أن البابوية لا تكتفى بأن تصبح سلطة زمنية فحسب ، بل أن تصبح فوق ذلك قوة عسكرية ، غير أنها مع ذلك لم يكن يسعها إلا أن تعجب بعض الإعجاب بقوة ذلك المحارب الذى أخطأت المقادير فجعلته بابا ، وترامت الأنباء وراء جبال الألب عما كان يقدمه يوليوس من معونة للفن ومناصرة للممتازين من الفنانين أمثال رفائيل وميكل انجلو وكان يوليوس هو الذى بدأ بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة ، وأول من منح صكوك الغفران للذين أسهموا فى نفقات بنائها . وفى أيام ولايته قدم لوثر إلى رومة وأبصر بعينه المظالم . ذلك الاسم الذى أطلقه لورنزو ده ميديتشى على عاصمة العالم المسيحى . لم يعد فى أوربا حاكم يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات كلها تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة ، وذلك لأن البابوية نفسها بعد أن صارت دولة دنيوية قد اضطبغت بالصبغة القومية . وتقطعت أوصال أوربا ، كما تتطلب ذلك العقيدة الجديدة إلى أقسام صغيرة قومية لا تعترف بقانون أخلاقى منزل أودولى وتردت فى الحروب بين مختلف أقسام المسيحية ودامت خمسة قرون .

وإذا أردنا أن نصدر حكماً عادلاً على بابوات النهضة هؤلاء فإن علينا

أن ننظر إليهم في ضوء الظروف المحيطة بهم في أيامهم ، لقد كان في وسع شمالي أوروبا أن تحس بأخطائهم لأنها كانت تمدهم بالمال ولكن الذين عرفوا ما كانت تفيض به إيطاليا بين عهدي نقولاس الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) - ولو العاشر (١٥١٣) (١٥٢١) هم وحدهم الذين كانوا ينظرون إليها بعين التسامح ذلك أن أكثرهم قد ارتضوا عقيدة النهضة القائلة ان العالم وان كان مسرحاً للدموع والمغويات الشيطانية يمكن أن يكون أيضاً منظراً ذا جمال وحياة قوية عارمة وسعادة سريعة الزوال عابرة وان كان بعضهم صالحين أتقياء . ولم يكونوا يرون عيباً في أن يستمتعوا بنعيم الحياة والبابوية مجتمعين .

ولم تكن تنقصهم الفضائل . فقد بذلوا جهدهم كي يخلصوا رومة من القبح والأقذار التي تردت إليها أثناء غياب البابوات في أفنيون . لقد جففوا المستنقعات (لا بأيديهم هم بل بأيدي غيرهم وهم مستريحون) ورصفوا الشوارع ، وأعادوا بناء الجسور ومهدوا الطرق ، وأصلحوا موارد مياه الشرب وأنشأوا مكتبة الفاتيكان ومتحف الكابيتول ، ووسعوا المستشفيات ، ووزعوا الصدقات وبنوا الكنائس أورموها ، وجملوا المدينة بالقصور والحدائق ، وأعادوا تنظيم جامعة رومة ، وأعانوا الكتاب الإنسانيين على إحياء الآداب والفلسفة والفنون الوثنية القديمة وهياً والأعمال للمصورين والمثالين والمهندسين المعماريين الذين خلفوا وراءهم من الأعمال ما هو تراث خالد ثمين لجميع بني الإنسان . وإذا كانوا قد بددوا الملايين ، فإنهم قد أنفقوا ملايين مثلها في أعمال البناء والتعمير . ولنا ننكر أنهم أنفقوا في بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة أكثر مما كانت تطيقه موارد البلاد ولكن ما أنفقوه عليها ليس أكثر نسبياً مما أنفقه ملوك فرنسا فيما بعد على قصور فونتيه بلووفرساي واللوار ، ولعلمهم كانوا يظنون وقتئذ أنهم لا يفعلون

أكثر من تحويل فئات الأموال السريعة الزوال إلى مجد خالد للشعوب ولربهم.
وكان معظم أولئك البابوات في حياتهم الخاصة يعيشون عيشة البساطة ومنهم
مثل (الإسكندر السادس) من كان يعيش زاهداً متقشفاً ولا يظهر بمظهر
الترف والاضخامة إلا لأن ذلك يتطلبه ذوق الشعب وعاداته وبذلك رفعوا
البابوية إلى ذروة الجلال والسلطان بعد أن أضحت معدمة معرضة للسخرية
والازدراء.

الفصل الرابع

البيئة المتغيرة

وبينما كانت الكنيسة يبدو عليها أنها آخذة في استعادة مجدها وسلطانها ، كان يحدث في أوروبا تغيير اقتصادي وسياسي وعقلي يعمل بالتدريج على تقويض صرح المسيحية اللاتينية .

ذلك أن الدين يزدهر عادة في ظل النظام الزراعي على حين أن العلم يزدهر في ظل الاقتصاد الصناعي فكل حصاد معجزة من المعجزات في الأرض ونزوة من نزوات الجو ، والفلاح الحقير الخاضع لسلطان الجو والذي ينهكه الكدح ، يرى من حوله قوات خارقة للعادة في كل مكان ، ويوجه الدعوات والصلوات إلى السماء يسترضيها ويستميلها إليه ، ويرتضى الخضوع لنظام ديني إقطاعي يتدرج ولاؤه فيه من السيد المالك إلى الملك إلى الله . أما الصانع في المدينة والتاجر وصاحب المصنع وذو المال فيعيشون في عالم من الأرقام يحسبون فيه العمليات والكميات والأسباب المادية والنتائج المرتقية العادية . وتتهيأ الآلة ومنضدة العد والحساب عقولهم لأن يروا حكم (القانون الطبيعي) ييسط سلطانه على أرجاء آخذة في الاتساع . وكان نمو الصناعة والتجارة وتكدس الأموال أثناء القرن الخامس عشر وانتقال العمال من الريف إلى المدن وقيام طبقة التجار واتساع دائرة الاقتصاد من البيئة الصنفية المحلية حتى أصبح اقتصاداً قومياً ثم دولياً - كل هذا كان نذير شؤم للدين الذي كان يوائم أشد المواءمة نظام الإقطاع وما يطرأ على الحقول من تقلبات تبعث في النفس الكآبة والقنوط . وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التي يفرضها عليهم رجال الدين كما نيدوا من قبل الضرائب التي يفرضها

سادة الإقطاع ، وكان لابد للكنيسة أن ترضى بشيء من الشعوذة اللاهوتية المكشوفة إلى ما تحتمه ضرورة الأيام من فرض فوائده على القروض إذا كان لابد لرؤوس الأموال أن تستخدم في توسيع دائرة الصناعة والمروعات المالية ، وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم «الربا» . ثم حل المحامون ورجال الأعمال شيئاً فشيئاً محل رجال الدين والأعمال في إدارة أعمال الحكومة ، وأخذ القانون نفسه ، بعد أن ظفر باسترداد تقاليد ومكانته اللتين كانتا له في عصر الإمبراطورية الرومانية ، يسبق النظم الأخرى في الانتقال من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ويعتدى يوماً بعد يوم على نظم الحياة الكنسية التي كانت تخضع من قبل للقوانين الدينية وزادت سلطة المحاكم الزمنية واضمحلت سلطة محاكم الإبرشيات .

وأخذت الدول الملكية الناشئة بعد أن بلغت طور الشباب وازداد ثراؤها بفضل ما تجمع لها من المال من التجارة والصناعة ، أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة وأخذ الملوك يعارضون في وجود المندوب البابوي أو القاصد الرسولي في بلادهم لأنه لم يكن يعترف بسلطان غير سلطان البابا وبذلك جعل كنيسة كل أمة دولة داخل دولة . من أجل ذلك ضيقت القوانين التي صدرت في إنجلترا عام ١٣٥١ و١٣٥٣ أشد التضييق سلطات رجال الدين في شئون الاقتصاد والقضاء . وفي فرنسا احتفظ الملوك بعد إلغاء قرار بوج التنظيم من الوجهة النظرية في عام ١٥١٦ بحقه في ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار رهبانها (١٧) وأصرت دولة البندقية على أن تعين هي من يشغلون المناصب الكنسية العالية في الأقاليم التابعة لها . وغلب فرديناند وإيزابيلا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة في أسبانيا وفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث استمسك جريجورى السابع بحق البابوات في تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ، سلم سكستس

الرابع إلى الأباطرة بحقهم في تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية وتعيين سبعة أساقفة وكثيراً ما كان الملوك يسيئون استخدام هذه السلطات. فكانوا يعينون في مناصب الكنيسة من يميلون إليهم من رجال السياسة وكان هؤلاء يستحوذون على إيراد الأديرة وأملاك الكنيسة ولكنهم كانوا يتجاهلون ما عليهم من التبعات^(١٨) وإن كثيراً من المفساد الكنسية ليعزى أصلها إلى من كانوا يشغلون هذه المناصب الكنسية من غير رجال الدين . وكانت البيئة العقلية في الكنيسة نفسها في هذه الأثناء آخذة في التغير تغيراً يندر لها بأشد الأخطار . نعم إنها كانت لاتزال تخرج علماء مجدين ذوى ضمائر حية ، ولكن المدارس والجامعات التى أنشأتها هى من قبل كانت قد أخرجت أقلية من الرجال المتعلمين لم تكن آراؤهم مما يرضى على الدوام القديسين . فها هو ذا القديس برناردينو يقول حوالى عام ١٤٢٠ :

إن كثيراً من الناس إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ولا يرون أن ما ورد في الكتب عن الدين صادق صحيح بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين وليس وحياً من عند الله . . فهم يحتقرون القربان المقدس ولا يؤمنون بوجود الروح ولا يخشون عذاب النار ولا يرغبون في نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم^(١٩)

وأكبر الظن أن طبقة رجال الأعمال كانت أقل الطبقات صلاحاً واستمسكاً بالدين ، ذلك أن الدين يضمحل على الدوام كلما زاد الثراء . فجوور (١٣٢٥ - ١٤٠٨) يقول ان تجار انجلترا قلما يعنون بالحياة الآخرة ويقولون إن من يستطيع الحصول على نعم هذه الحياة ثم يتركها تفلت من يده فهو إنسان أبله فما من أحد يعرف أين يذهب بعد الموت أو من أى طريق

نذهب (٢٠) ، يضاف إلى هذا أن إخفاق الحروب الصليبية قد خلف في النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول أصحابها كيف شمع رب المسيحية بأن ينتصر الإسلام وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك ، وكانت كتابات نقولاس الكوزائي ١٤٣٢ ولورند سوفلا ١٤٣٩ التي قالا فيها إن « هيبة قسطنطين » زيف وزور ، مما حط من مكانة الكنيسة وأضعف ما تدعيه لنفسها من سلطان زمني . وفوق هذا كله فإن اكتشاف الكتب اليونانية والرومانية القديمة ونشرها كان سبباً في تقوية الشكوك لأنه كشف عن عالم من العلوم والفنون ازدهرت قبل مولد الكنيسة المسيحية وهي التي أنكرت في مجلس لاتيران الخامس ١٥١٢ - ١٥١٧ إن النجاة غير مستطاعة خارج حظيرتها (٢١) كذلك أزاح كشف أمريكا وارتياح بلاد الشرق ارتياداً آخذاً في الاتساع ، أزاح هذا وذاك الستار عن مائة أمة كانت ترفض الإيمان بالمسيح أو تتجاهله وكانت لها أديان أخرى لا تقل عن المسيحية إيجابية أو تأثيراً من الناحية الخلقية وجاء الرحالة العائدون من بلاد « الكفرة » ببعض العقائد والطقوس التي أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية فأخذت هذه العقائد المتنافسة تصطرع في الأسواق وفي الثغور.

ثم إن الفلسفة نفسها التي كانت في القرن السادس عشر خاضعة لسلطان الدين وخادمة طيعة له همها كله أن تجد أسباباً يقبلها العقل لمبادئ الدين القويم ، قد حررت نفسها في القرن الرابع عشر على أيدي وليام الأوكهامي ومرسلوس من أهل بدوا وأصبحت في القرن السادس عشر فلسفة زمنية جريئة تجهر بتشككها بقيادة بمبومنشي ومكيافلي وجوتشياردين . وقد أذاع مكيافلي قبل أن يكتب ليوثر رسالته بأربع سنين نبوءة فزع منها القوم قال : لو أن الدين المسيحي قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه لكانت دول العالم المسيحي أكثر اتحاداً وأعظم سعادة مما هي الآن وليس أدل على ضعفه

من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التي هي صاحبة السلطة العليا في هذا الدين هم أقل الناس تديناً . وإن من ينعم النظر في المبادئ التي يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعباداتها من فرق كبير ليحكم من فوره بأن انهيارها أو يوم القصاص منها لآت عن قريب .

الفصل الخامس

ما يؤخذ على الكنيسة

هل لنا أن نعيد هنا ذكرى التهم التي يوجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؟ إن أول هذه التهم وأشدّها هي أنها كانت تحب المال وأنه كان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها(*) الخير وقد وجه مجلس نورنبرج في عام ١٥٢٢ مائة تهمة منها أنها تمتلك نصف ثروة ألمانيا(٢٣) وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلاث أموال ألمانيا وخمس أموال فرنسا(٢٤) ولكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها(٢٥) على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليه في هذه التقديرات أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكاً للكنيسة ونعني به الولايات البابوية ، هذا فضلاً عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات(**).

وكان لتجمع الثروة في يد الكنيسة ستة أسباب . أولها أن معظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم كانوا يتركون لها بعض المال وقاية لهم من نار جهنم ، وإذا كانت الكنيسة هي التي تشرف على عمل الوصايا وإثباتها فإن

(*) يقول باستور في كتابه تاريخ البابوات الجزء السابع ص ٢٩٣ ما يأتي :
ان من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذي كانت زيادته غير المشروعة
ما أثار حسد غير رجال الدين وبغضهم كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم .
(**) ان معظم الكفايات في أي مجتمع تنحصر في عدد قليل من الرجال ولهذا فإن معظم
الطيبات والامتيازات والسلطات تستحوذ عليها ان عاجلاً أو آجلاً أقلية من الرجال . ولقد تجمعت
الثروة في يد الكنيسة في العصور الوسطى لأنها كانت تقوم بأعمال خطيرة . وكان يقوم على خدمتها
أقرب الرجال . وكان الإصلاح الديني من بعض نواحيه عبارة عن إعادة توزيع هذه الثروة التي
تركزت بطبيعة الحال وذلك باستيلاء غير رجال الدين على ثروة الكنيسة وإيراداتها .

رجالها كانوا في وضع يمكنهم من تشجيع أمثال هذه الوصايا . وثانيها ان أملاك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عداها من انتهاب اللصوص والجنود والحكومات ، ولهذا فإن بعض الناس كانوا ينزلون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب ثم يملكونها هم منها بوصفهم عمالا للكنيسة عليها على أن يؤول كل ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم . ومنهم من كان يوصى ببعض أمواله أو بها كلها للكنيسة مشروطين ان تمدهم بما يلزمهم في حالي المرض والشيخوخة فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر في حالة العجز عن الكسب . وثالث هذه الأسباب أن الذين اشتركوا في الحروب الصليبية قد باعوا إلى الهيئات الدينية أراضيهم أورهنوها لها أو نزلوا لها عنها كى يحصلوا على ما يلزمهم من المال في مغامرتهم . ورابع هذه الأسباب ان مئات الآلاف من الأفدنة قد آلت إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هي التي أصلحتها . وخامسها ان ما تمتلكه الكنيسة من الأرض لا يمكن ان ينتقل إلى غيرها — فلا يمكن أن يبيعه أو ينزل عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية في التعقيد تجعل هذا في حكم المستحيل . وآخر هذه الأسباب ان أملاك الكنيسة كانت في العادة مغفاة من الضرائب التي تفرضها الدولة على سائر الأملاك وإن كان بعض الملوك يرغبون رجال الدين على أداء بعض الاتاوات أو يجدون ذرائع قانونية لمصادرة أجزاء من ثروة الكنيسة غير مباين بما يصبه عليهم رجال الدين من اللعنات ، ولو أن أملاك الكنيسة أو الإيراد الناتج منها أو التبرعات التي لا حصر لها والتي كانت ترد إليها من المؤمنين برسالتها قد بقيت داخل حدود البلاد التي ينتمى إليها المتبرعون أو التي توجد فيها هذه الأملاك لكان تدميرالحكام في أوربا الشمالية أقل شدة مما شاهدناه ، أما وان هذه الثروة لم تبقى داخل تلك الحدود فإن منظر الذهب الذي كان ينساب بآلاف الطرق من أوربا الشمالية إلى رومة كان مما يثير حق هؤلاء الحكام .

أما الكنيسة فقد كانت تحسب أنها العامل الأكبر في المحافظة على الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والتربية والأدب ، والعلم ، والفن ، وكانت الدولة تعتمد عليها في القيام بهذه المهام ، وكان القيام بها يتطلب نظاماً واسعاً كثير النفقة ، وكان لابد لها في الحصول على هذا المال من أن تفرض الضرائب وتجبى الرسوم ، ذلك أن الكنيسة هي الأخرى لا يمكن أن تحكم بالصلوات والأدعية . وكان كثير من الأساقفة حكاماً مدنيين وكنسيين في أقاليمهم ، وكانت السلطات غير الدينية هي التي تعين معظم أولئك الأساقفة تختارهم من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق ، فكانوا يفرضون الضرائب وينفقون مواردها كما يفعل الأمراء وكانوا أحياناً يجاللون بالعار ذكرى القديسين بارتداء الدروع وقيادة الجند في الحروب . وقلما كان الكرادلة يختارون لتدبيرهم وتقواهم بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلاتهم السياسية أولكفائتهم الإدارية ، ولم يكونوا يرون أنفسهم رهباناً مقيدين بأيمان أقسموها وإنما كانوا يرون أنفسهم شيوخاً ورجال سياسة في دولة غنية قوية ، ولم يكونوا في كثير من الأحيان قساوسة ، ولم يكونوا يسمحون لقلانسهم الحمراء أن تحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة^(٢٦) وقصارى القول أن الكنيسة قد أنست حاجات السلطة وما يلزمها من المال ما كان عليه الرسل الأولون من زهد وفقر .

وإذا كان خدام الكنيسة رجال دنيا لا رجال دين فإنهم لم يكونوا في كثير من الأحيان يقلون جشعاً عن موظفى الحكومات في أيامهم . فقد كان الفساد قانون ذلك العصر وطبيعة أهله ، وكانت المحاكم المدنية تشتري بالمال ولسنا نجد في انتخاب البابوات كلهم ما يضارع في الرشوة ما حدث في انتخاب شارل الخامس امبراطوراً . وإذا ما استثنينا هذا الانتخاب وحده فإن أضخم الرشاوى في أوربا هي التي كانت تقدم إلى محاكم رومة^(٢٧) لقد كانت رسوم معقولة محددة تفرض نظر الخدمات التي تقوم بها المحكمة

البابوية العليا ، ولكن جشع موظفيها رفع هذه الرسوم إلى أكثر من قيمتها القانونية عشرين ضعفاً^(٢٨) وكان من المستطاع التحلل من الأوامر الدينية كلها تقريباً وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن غفرانها إذا كان الثمن الذي يؤدي لذلك مغرياً . وليس أدل على ذلك من أن اينياس سلفيوس كتب قبل أن يجلس على كرسي البابوية يقول إن كل شيء في رومة يباع بالمال وإن لا شيء فيها يمكن الحصول عليه بغير المال^(٢٩) وأشد من هذا ما قاله سفرولا بعد جيل من ذلك الوقت بشيء من المبالغة التي تصحب الغضب على الدوام ، وهو وصف كنيسة رومة بأنها عاهر تباع نفسها بالمال^(٣٠) ومثل هذا ما قاله ارزمس بعد جيل آخر وهو « أن العار الذي يجلب المحكمة البابوية العليا قد وصل إلى ذروته^(٣١) » . ثم انظر إلى ما كتبه بستور ، إن الفساد المتأصل قد استحوذ على جميع موظفي الإدارة البابوية كلهم تقريباً... فالهبات التي لا يحصى عددها واغتصاب الأموال بمختلف الأساليب قد فاق كل ما يتصوره العقل يضاف إلى هذا أن الموظفين أنفسهم كانوا يزورون العقود ويتبادلونها . فلا عجب والحالة هذه إذا علت الشكوى من جميع أجزاء العالم المسيحي مما كان يرتكبه الموظفون البابويون من رشوة وفساد واغتصاب للأموال^(٣٢) .

ولم يكن مألوفاً أن يرقى ذوو الكفايات المعدمون في مناصب الكنيسة في القرن الخامس عشر ، فقد كان كل منصب تقريباً يتطلب رشوة الموظفين الأعلين فيها رشاوى تختلف بين المبالغ الصغيرة لتتلى منصب القساوسة ، والرشاوى الضخمة التي يؤديها كثير من الكرادلة لكن يرقوا إلى هذا المنصب لما يتطلب التملق الخفي للأعلاء . وكان من الأساليب المحببة للبابوات لجمع المال بيعهم مناصب الكنيسة ، وكان هذا في عرف البابوات هو تعيين أشخاص يرجى أن يسهموا بالكثير من المال فيما تحتاجه الكنيسة من نفقات بمنحهم ألقاب شرف فخرية قد تصل إلى لقب الكردنال نفسه : من ذلك

ان اسكندر السادس أنشأ ثمانين منصباً جديداً وقبض ٧٦٠ دوقه (١٩٠٠٠ دولار) من كل شخص عين في منصب من هذه المناصب . وأنشأ يوليوس الثاني (مجمعاً ، أو مكتباً مؤلفاً من ١٠١ أمين أدوا له مجتمعين ٢٤٠٠٠ دوقه ثمناً لهذه المناصب ، ورشح ليو العاشر ٦٠ من الحجاب و ١٤١ من الأتباع في القصر البابوي واستحوذ منهم على ٢٠٢٠٠٠ (٣٣) دوقه وكان معطى هذا المال وآخذه يرون أن الأموال التي تبتاع بها هذه المناصب ليست إلا أقساطاً ثانوية في عقود تأمين ، أما لوثر فلم يكن يرى فيها إلا أنها بيع من أدناً البيوع للمناصب الكنسية .

وكان صاحب المنصب في آلاف من الأحوال يعيش بعيداً عن مقر منصبه — الابرشية أو الدير أو الأسقفية — التي كان إيرادها ثمناً لكدحه أو وسيلة لترفه وكان يحدث في بعض الأحيان أن يكون شخص واحد هو القائم بالعمل في كثير من هذه المناصب . من ذلك مثلاً ان الكردينال روريجو بورجيا النشيط (الذي صار فيما بعد اسكندر السادس) قد وهب عدة مناصب مختلفة كانت تدبر عليه ٧٠٠٠٠ دوقه (١,٧٥٠,٠٠٠ دولار) في العام وأن عدوه الألد الكردينال دلاروفيري (الذي صار فيما بعد يوليوس الثاني) قد كان في وقت واحد كبير أساقفة افنيون واسقفا لبولونيا ولوزان وكوتانس ، وقفير ، ومندى واستيا ونيليتوري ورئيساً لديرى نونان تولا وجبروتا فراتا (٣٤) . كان في وسع الكنيسة بالجمع بين هذه المناصب أن تؤدى مرتبات كبار موظفيها التنفيذيين وان تنفج بالهبات السخية في كثير من الأحيان الشعراء والعلماء وطلاب العلم . وها هو ذا بترارك الناقد الشديد لبابوات افنيون كان يعيش من مرتبات المناصب الهيئة المحزية التي منحه إياها أولئك البابوات ، وها هو ذا ارازمس الذي سخر من ماث السخافات الكنسية وهجاها الهجو اللاذع كان يقبض معاشاً منتظماً من الكنيسة ، وكوبر نيكاس الذي أصاب كنيسة البيرالوسطم بأعظم الأضرار قد ظل سنين

طوالا يعيش من أموال الكنيسة التي لم تكن تتطلب منه إلا القليل من الأعمال التي تحول بينه وبين أعماله العلمية^(٣٥) .

ولم يكن هذا التعدد في المناصب أخطر التهم التي وجهت للكنيسة بل كان أخطر منه ما اتهم به رجال الدين من فساد في الأخلاق . وها هو ذا واحد منهم هو أسقف تورشيلو (١٤٥٨) يقول : ان أخلاق رجال الدين فاسدة يشمئز منها العلمانيون^(٣٦) . وأصبح المنتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التي أسست في القرن الثالث عشر — وهي طوائف الفرانسيسكان والدمنيك ورهبان الكرمل ، والاوغسطينيين أصبح المنتمون إلى هذه الطوائف كلها ما عدا الأخيرة منها مستهترين في أخلاقهم شديدي الاستخفاف بما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام . وقد تبين أن قواعد الأديرة التي وضعها منشئوها الأولون المتحمسون أشد مما تطيقه الطبيعة البشرية التي أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من مخاوف ما وراء الطبيعة . وإذا كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوى بفضل ما تجمع لهم من المال الكثير ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمر في الحانات ويتخذون لهم عشيقات . وها هو ذا راهب من الدمنيك يدعى جون بروميارد من رهبان القرن الرابع عشر يقول عن إخوانه الرهبان :

إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء . . . يشتهون ألد الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى . . . ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس . . . وتراهم منهمكين في الطعام والشراب إذا لم نقل في الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار ومجتمعات من مهرجين^(٣٧) .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت فقال : « ان كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة^(٣٨) » .

ولسنا ننكر أن بترارك قد رسم صورة طيبة لما كان يسود دير الكرثوذيين الذى كان أخوه يعيش فيه من حسن نظام وتقى وأن كثيراً من الأديرة فى هولندا وغربى ألمانيا قد احتفظت بروح الدرس والصلاح التى تألفت على أساسها « طائفة إخوان الحياة العامة » وصدر منها كتاب التشبه بالمسيح ، ولكن نيوهانز تريتموس ، ينس وايرسينجيم (حوالى ١٤٩٠) قد ندد برهبان هذا الجزء من ألمانيا المحيط بنهر الراين تنديداً عنيفاً أشد العنف فقال :

إن هؤلاء الرجال لا يبالون بالآيمان الدينية التى أقسموها . . فإنهم لم يعدوا قط بأن يبروا بها . . . فهم يقضون النهار كله فى الحديث القدر ويقضون وقتهم كله فى اللعب والتهام الطعام . . وإذا كانوا يمتلكون ثروة خاصة طائلة . . فإن كل واحد منهم يعيش فى مسكن خاص به . . وليس فيهم من يهاب الله قط أو يخبه . ولا يفكرون قط فى الحياة الآخرة ويؤثرون شهواتهم البدنية على مطالب الروح . . ويحتقرون ما أقسموا عليه من التزام الفقر ويجهلون يمين العفة وينتقصون يمين الطاعة . . وإن رائحة أقدارهم لتحيط بهم من كل الجوانب (١) ،

ولما أرسل جاي جوينو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين فى فرنسا كتب بعد عودته تقريراً يبعث الغم والاكتئاب فى النفوس (١٥٠٣) قال فيه إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ويكثرون من السباب ، ويترددون على الحانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال « ويحيون حياة السكيرين » ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم . . ولو أننى أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناي لمأت بذلك صحفاً طوالاً (٢) . وقد كانت نتيجة الفوضى المضطردة النماء فى الأديرة أن أهمل الكثير أعمال الصناعات والخدمة فى المستشفيات والقيام بشئون التعليم وهى الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب التى استحقوا من أجلها ثقة الناس وتأييدهم (٣) . ويقول البابا ليو العاشر (١٥١٦) « لقد وصل اضطراب الأمور فى أديرة

فرنسا وحياة الاستهتار التي يحياها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أو الأمراء أو المتدينين من الناس^(٤٤) وقد أجمل مؤرخ كاثوليكي وصف هذه المفاصد كلها كما رآها في عام ١٤٩٠ ، ولعله كان مبالغاً بعض الشيء في قسوته فقال :

اقرأ ما يفيض به ذلك العهد من أدلة وشواهد - طرائف تاريخية وتعنيف ينطق به رجال الأخلاق ، وهجاء يكتبه العلماء والشعراء ، ومراسيم بابوية ومجامع دينية مقدسة - ماذا تجد في هذه كلها ؟ انك لتجد فيها نفس الحقائق ونفس الشكاوى . . التحرر من حياة الأديرة ومن النظام والأخلاق الكريمة وما أكثر ما تجد في الأديرة من لصوص وفسقة ، وإذا شئت أن تدرك ما في هذه الأديرة من فوضى فعليك أن تقرأ ما كشفت عنه البحوث القضائية من تفاصيل الحالة الداخلية للكثرة الغالبة من الأديرة الكبيرة . . . ولقد بلغت المساوئ المنتشرة في أديرة الكرثوزيين درجة أصبحت معها هذه الأديرة مضرب المثل في سوء السمعة في كل مكان تقريباً . . أما أديرة الراهبات فقد اختفت فيها حياة الرهبنة عن آخرها . . . فاستجالت دور العبادة بسبب هذه المساوئ كلها بؤراً للفساد وسوء النظام^(٤٥) .

أما رجال الدين غير المنتمين إلى طوائف الرهبان ، فكانوا خيراً من الرهبان والإخوان ، إذا تساهلنا في عادة التسرى التي كانت شائعة بينهم ، وكانت أكبر آثام قسيس الأبرشية هي جهله^(٤٦) ولكنه لم يكن يتقاضى إلا القليل الذي لا غناء فيه من الأجر وكان يرهق بالعمل ومن أجل هذا لم يكن يجد من الوقت أو المال ما يعينه على الدرس . وتدل التقوى الشائعة بين عامة الشعب على أنه كثيراً ما كان محبوباً مبجلاً . وكثيراً ما كان هؤلاء القساوسة يحنثون بقسمهم الكهنوتي على أن يلتزموا العفة والطهارة . ففي نورفولك بإنجلترا مثلاً نظرت المحاكم في ثلاث وسبعين تهمة خاصة بعدم العفة في عام ١٤٩٩ ، وكان منها ثلث عشرة تهمة موجهة إلى رجال الدين ،

وفي ريبون كانت أربع وعشرون تهمة من ١٢٦ موجهة إلى رجال الدين ،
وفي لامبث كانت تسع تهم من ثمان وخمسين موجهة إلى رجال الدين ،
ومعنى هذا ان ثلاثاً وعشرين في المائة من مجموع هذه التهم موجهة إليهم
مع أن رجال الدين كلهم كانوا في أغلب الظن أقل من اثنين في المائة من
مجموع السكان^(٤٧) . ومن رجال الدين من كانت لهم صلات جنسية
بالتائبات من النساء^(٤٨) . وكان للآلاف من القساوسة حظايا ، وفي ألمانيا
كان لهم كلهم تقريباً^(٤٩) وفي رومة كان هذا هو الأمر المتبع المألوف ،
وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين
لم يكونوا يزيدون على مائة ألف^(٥٠) . وها هو ذا مؤرخ كاثوليكي يقول :

لا غرابة وتلك حال أعلى طبقات رجال الدين أن تنتشر الرذيلة وينتشر
الشدوذ باختلاف أنواعه بين طوائف الرهبان المنتظمة وبين القساوسة من غير
الرهبان وان يزداد هذا الانتشار يوماً بعد يوم . قصارى القول أن الفضيلة
قد فقدت معناها على وجه الأرض . . ولكن من الخطأ أن نظن أن فساد
رجال الدين كان أسوأ في رومة منه في غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا
أدلة تثبتها الوثائق على فساد أخلاق القساوسة في كل بلد تقريباً من بلدان
شبه الجزيرة الإيطالية . . فلا عجب ، كما يقول كاتب معاصر والحزن
يملاً قلبه إذا كان نفوذ رجال الدين قد أخذ ينقص تدريجاً وإذا كان الناس
لا يكادون يظهرون أى احترام مهمال لرجال الدين في كثير من الأقطار
ذلك ان الفساد قد انتشر بينهم إلى حد أصبحنا نسمع معه اقتراحات يبدىها
البعض بالسماح للقساوسة بالزواج^(٥١) .

ويحذر بنا أن نقول انصافاً لهؤلاء القساوسة غير المتعفين أن التسرى
الشائع بينهم لم يكن يعد دعارة بل إنه يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون
العزوبة التي فرضها البابا جريجوري السابع (١٠٧٤) على رجال الدين
وأرغمهم عليها إرغاماً . ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن

يسمح للقساوسة بالزواج شأنهم في ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوسها بالزواج بعد الانشقاق الذي حدث في عام ١٠٥٤ ، وإذ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التسرى . وها هو ذا هاردون أسقف انجير يقول في تقرير له (١٤٢٨) ان رجال الدين في ابرشيته لم يكونوا يرون في اتخاذ الحظايا إثماً . وأنهم لم يحاولوا قط أن يخفوا ذلك عن أعين الناس (٥٢) . وكان في بومرانزا ١٥٠٠ حالة من هذا النوع يعترف الأهلون بأنها لا غبار عليها ، بل كانوا يشجعونها ، لأنهم يرونها وقاية لبناتهم وزوجاتهم ، وكان المؤلف المتواضع عليه في الاحتفالات العامة أن يعطى مكان الشرف للقساوسة وحظاياهم (٥٣) ، وحدث في شلزويع ان طرد أسقف من كرسيه لأنه حاول أن يحرم هذه العادة (٥٤) (١٤٩٩) . ولما عقد مجلس كنتستانس اقترح الكردينال زيرلا ان تعود الكنيسة فتسمح لرجال الدين بالزواج إذا لم يكن مستطاعاً منعهم من اتخاذ الحظايا ، وقال الإمبراطور سيجسمند في رسالة له إلى مجلس بازل (١٤٣١) ان زواج رجال الدين سيصلح من أخلاق الناس بوجه عام (٥٥) ، ونقل المؤرخ بلاتينا أمين مكتبة الفاتيكان عن اينياس سلفيوس قوله ان هناك أسباباً قوية في صالح بقاء رجال الدين عزاباً ، ولكن هنا أسباباً أقوى منها في صالح زواجهم (٥٦) ، وجملة القول ان السجل الأخلاقي لرجال الدين قبل الإصلاح الديني يبدو خيراً مما هو إذا نظرنا إلى عادة اتخاذ الحظايا على أنها تمرد يغتفر لهم ، على سنة مرهقة لا تطبقها الطبيعة البشرية ، ولم تكن عند الحواريين الأولين ، ولا تجرى عليها الكنيسة الشرقية .

أما الشكوى التي أشعلت نار الإصلاح الديني في آخر الأمر فقد كانت هي بيع صكوك الغفران . وتفصيلها ان من حق رجال الدين ، السلطات التي خولها المسيح فيما يبدو لبطرس (انجيل متى ١٦ ، ١٩) والتي انحدرت

من بطرس إلى رجال الدين بمقتضى هذه السلطات أن يغفروا للتائب
المعترف بذنوب خطاياهم وما يترتب عليها من عقاب في نار جهنم ، ولكنهم
لا يعفون أولئك المذنبين من التكفير عن خطاياهم أثناء حياتهم على ظهر
الأرض . على أن الذين يستطيعون أن يثقوا بأنهم يموتون بعد أن يكفروا
التكفير الواجب عن ذنوبهم كلها ليسوا إلا قلة صغيرة من الناس مهما
اعترفوا بذنوبهم وطهرهم هذا الاعتراف ، إن الذين يستطيعون أن يثقوا
بذلك هم قلة صغيرة من الناس ، أما الباقون فلا بد أن يكفروا عما بقي من
ذنوبهم بأن يقدموا عدداً من السنين في المطهر ، الذى أوجده الإله الرحيم
ليكون جحياً مؤقتاً لهؤلاء المذنبين . لكن ثمة طائفة كبيرة من الأولياء
الصالحين قد كسبوا بفضل خشوعهم وتقواهم واستشهادهم في سبيل الدين
من الفضائل ما نرى في أكبر الظن زيادته على ما كفروا به عن ذنوبهم .
وقد خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يحصى من الفضائل ، وهذه الفضائل
كما تقول الكنيسة ، يمكن أن تعد بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء لمحو
جزءاً من الآثام التي ارتكبها الناس في الدنيا . ولم يكفروا عنها كل التكفير .
وكانت الكفارة التي تضعها الكنيسة تتخذ في العادة صورة تكرار بعض
الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدسة ، أو
الاشتراك في حرب صليبية ضد الأتراك أو غيرهم من « الكفرة » . أو التبرع
بالمال أو العمل لبعض المشروعات الاجتماعية كتجفيف مستنقع ، أو إنشاء
طريق ، أو بناء قنطرة ، أو مستشفى ، أو كنيسة . وكان استبدال غرامة
مالية (فدية) بالعقاب البدني سنة مألوفة من عهد بعيد في المحاكم المدنية ،
ومن ثم فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يغضب الناس في
بادئ الأمر . وكان التائب المعترف ، إذا أدى هذه الفدية أى إذا خرج
عن بعض المال — لنفقات الكنيسة تسلم صك غفران جزئي أو كلي ، ولم يكن
هذا الصك ليحيز له أن يرتكب ذنباً جديدة ، بل يمكنه من أن ينجو « ما » ،

أو شهراً ، أو عاماً من عذاب المطهر ، أو أن يعنى من جميع المدة التي كان لابد له أن يقضيها في عذاب المطهر عقاباً له على ذنوبه لولا هذا الصك ، ولم يكن الصك ليعنى من جريمة الإثم ، أما هذه الجريمة فقد كانت تعنى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الاعتراف قبل الموت . فصك الغفران ، والحالة هذه ، معناه أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية (أى غير الأبدية) التي يتعرض لها صاحب الخطايا التي غفر أثمها أثناء عملية الكفارة .

وسرعان ما تبدل شأن هذه النظرية البارعة المعقدة بفضل سداجة الناس أو شراة الغافرين الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادعوا لأنفسهم حق توزيعها . وإذا كان يسمح لهؤلاء الموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تدره من المال ، فقد أغفل بعضهم الإصرار على توبة من يبتاعون الصكوك ، أو اعترفهم بذنوبهم ، أو صلواتهم ، وتركوا لهم حريرتهم الكاملة في أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة ، ومن الاعتراف ، ومن الغفران على يد القساوسة ، وبأنهم يستطيعون الاعتماد كل الاعتماد تقريباً على ما يقدمون من المال . وقد وصل الأمر حدا جعل تومس جسكونى مدير جامعة اكسفورد يجار بالشكوى ويقول :

يقول المذنبون في هذه الأيام : « لست أبالى كم ارتكب من الذنوب أمام الله لأن من السهل على أن أتخلص من كل ذنوبى وما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحنى إياها البابا الذى ابتاعها منه مستورة نظير أربع بنسات أو ست كاني اكسبها في لعبة تنس مع من في مقدرة أن يمنح هذا الغفران » . ذلك أن بائعى هذه الصكوك يطوفون بالبلاد ويفرقون خطابات بالمغفرة نظير بنسين تارة ونظير جرعة من الخمر أو الجعة تارة أخرى . . . بل إنهم يعطونها نظير استئجار عاهر أو نظير الحب الدنس (٧٥) ، لقد ندد البابوات - بونيفاس التاسع في عام ١٣٩٢ ،

ومارتن الخامس في عام ١٤٢٠ وسكستس الرابع في عام ١٤٧٨ - أكثر من مرة بهذه المساوئ وهذا الخطأ في التفكير ولكن حاجتهم إلى المال كانت أشد من أن يستطيعوا معها السيطرة المجدية على هذه العادات السيئة . وكثيراً ما أصدروا القرارات لأسباب عدة يتحير الفكر فيها مع إيمان رجال العلم بهذه النظرية واتهموا الكنيسة بأنها تستغل سذاجة الناس وآمالهم استغلالاً يجللها بالعار^(٥٨) وكانت اللغة الرسمية في بعض هذه الحالات كالصكوك التي عرضها يوليوس الثاني في عام ١٥١٠ أوليو العاشر في عام (١٥١٣) تحمل من المعاني ما يمكن تفسيره تفسيراً مالياً خالصاً^(٥٩) . وقد وصف أحد الرهبان الفرنسيين من ذوى المراتب العليا وهو غاضب أشد الغضب كيف كانت الصناديق توضع في كنائس ألمانيا كلها لتتلقى الأموال من الذين لم تمكنهم ظروفهم من الذهاب إلى رومة ليشهدوا الاحتفال الذي أقيم فيها عام ١٤٥٠ فاستطاعوا الآن أن تغفر لهم جميع ذنوبهم بالمال يلقونه في الصناديق ثم حذر الألمان قبل أن يحذرهم لوثر بنصف قرن فقال لهم ان صكوك الغفران وغيرها من الوسائل تستنزف مواردكم وتنقلها إلى رومة^(٦٠) وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يشكون من أن صكوك الغفران كانت تقتنص الأموال إلى خزائن البابوات وكان خليقاً بهذه الأموال أن تستخدم في الأغراض الكنسية المحلية^(٦١) ويلخص مؤرخ كاثوليكي هذا الموضوع كله بصراحة خليقة بالإعجاب فيقول :

ان المساوئ ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو أن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير وهي الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يطلب إليهم أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم وبذلك أصبح المال الذي يؤدي للأعمال الخيرية وهو الذي يجب أن يكون من الأعمال النافلة التي لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال في بعض الحالات هو الشرط الأساسي لغفران الذنوب . . . وكثيراً ما أصبح

المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران ولسنا ننكر أن العبارات التي صيغت فيها قرارات البابوية بخيل إلى الإنسان معها أنها لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة وإن الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها في هذه العقائد هي الشرط الأساسي لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالى كان يبدو واضحاً في جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول في هذا الأمر كله مما يسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة في الأفواه . اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى كثير من النزاع بين السلطات الزمنية التي كانت تتطلب على الدوام حفظها من هذه الموارد (٦٢)

ولا يقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أو الهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التي يقولون إنها تقصر المدة التي تقضيها روح الميت في المطهر لتعاقب عن ذنوبها وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة هم أنفسهم في المطهر بعد موتهم أو يلغوها إلغاء تاماً . ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياح صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفاً حين امتدح المال لأن « من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة » كما قال (٦٣) .

وازدادت الشكاوى من الكنيسة فبلغت ألفاً أو تزيد فقد غضب غير رجال الدين من إعفاء الكهنوت من الخضوع لقوانين الدولة ومن معاملة المحاكم الكنسية للمدنيين من رجال الدين بالدين الذي يعرض الدولة لأشد الأخطار . وها هو ذا مجلس نورنبرج يعلن في عام ١٥٢٢ أن المدعى من غير رجال الدين لا يمكن أن ينال العدالة إذا كان المدعى عليه من رجال

الكنيسة وكان التقاضى أمام محكمة كنسية وقال منذراً إنه إذا لم يخضع رجال الدين للمحاكم الزمنية فسيثور الناس على الكنيسة فى ألمانيا ثورة عاصفة^(٦٤) ، وجدير بنا أن نقول إن هذه الثورة كانت قد قامت بالفعل قبل ذلك الوقت . وكان من الشكاوى الأخرى ابتعاد الدين عن الأخلاق الكريمة وتوكيد العقيدة والإيمان بدلا من توكيد المسلك الطيب ، (وان كان المصلحون من هذه الناحية أشد إثمًا من الكنيسة نفسها) وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس ، والتعطيل العديم النفع والعقم المظنون بين الرهبان ، واستغلال سذاجة الشعب بعرض المخلفات الزائفة والمعجزات الكاذبة وسوء استخدام الحرمان الدينى واللجنة الدينية والرقابة التى يفرضها الكهنة على المطبوعات والتجاء محكمة التفتيش إلى أشد ضروب القسوة والتجسس على الناس وسوء استخدام الأموال التى جمعت لإعداد الحملات الصليبية على الأتراك وتوجيهها إلى أغراض أخرى ، ومطالبة الكهنة المنحطين إلى هذا الدرك الأسفل بأن يكون لهم وحدهم حق القيام بجميع المراسم الدينية وتقديم القرابين ما عدا عملية التعميد .

وقد تجمعت كل هذه العوامل السالفة الذكر فكانت سبباً فى ابتعاد أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى بداية القرن السادس . ويقول باستور فى ذلك « ان احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين^(٦٥) » وشكا أحد أساقفة لندن فى عام ١٥١٥ من أن الناس يميلون إلى الإلحاد ميلا بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حدًا جعلهم . . ينددون بكل رجل من رجال الدين وان لم يكن يقل طهرًا وبراءة عن هابيل^(٦٦) وها هو ذا ارازمس نفسه يقول ان لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات^(٦٧) وفى مدينة فيينا أصبح منصب القس فى العشرين سنة السابقة على الإصلاح لا يجد من يشغله مع أنه كان قبل ذلك الوقت خير ما يرغب فيه الأهلون^(٦٨) .

ولهذا كله رفع الناس عقيرتهم في جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني، مطالبين بإصلاح « الكنيسة إصلاحاً يشمل رأسها وأعضاءها جميعاً ». وكان الإيطاليون المتحمسون الثائرون أمثال ارنلد البريشياني ويواقيم الفلورى ، وسفرولا الفلورنسى قد هاجموا مساوئ الكنيسة دون أن يخرجوا على المذهب الكاثوليكي ولكن اثنين منهم مع ذلك قد حرقوا وهم على قيد الحياة ، غير أن الكاثوليك الصالحين ظلوا يأملون أن يتم الإصلاح على يد أبناء الكنيسة المخلصين الموالين لها وكان الكتاب الإنسانيون أمثال أرازمس ، وكوليت ، ومور ، وبوديه يخشون ما يحدثه الهجوم العلني على الكنيسة من اضطراب أمورها واختلال نظامها ، فقد كفاهها ضعفاً أن ظلت الكنيسة اليونانية بعيدة عن الكنيسة الرومانية مصممة على هذا البعد كل التصميم ، وكان كل تمزق في « ثوب المسيح الذي لا درز فيه يهدد كيان العالم المسيحي نفسه بالفناء وكم من مرة حاولت الكنيسة مخلصاً في معظم الأحوال أن تظهر صفوفها ومحاكمها وأن تسلك في شئونها المالية مسلكاً يتفق مع الخلق الطيب ويسمو على أخلاق غير رجال الدين في تلك الأيام . ولطالما حاولت الأديرة أن تعود إلى قواعد نسكها القديم ولكن طبيعة الإنسان كانت تنقض كل ما يوضع من الدساتير وحاولت المجالس إصلاح الكنيسة ولكن البابوات عارضوها فأخفقت في أغراضها ، وحاول البابوات أنفسهم أن يقوموا بذلك الإصلاح ولكن الكرادلة ورجال الإدارة البابوية هزموا أولئك البابوات ولقد شكوا ليو العاشر نفسه في عام ١٥١٦ والحسرة تملأ قلبه من إخفاق هذه المحاولات ولسنا ننكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة أمثال نقولاس الكوزائي قد حققوا بعض الإصلاحات المحلية ، ولكن هذه الإصلاحات نفسها كانت قصيرة الأجل . وأثار التنديد بمعايب الكنيسة والتشجيع عليها من أعدائها ومحبيها على السواء ، أثارة المدارس واضطربت له المنابر وفاضت به كتب

الأدب ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ويستقر في ذاكرة
الناس ويستثير غضبهم حتى قضى على ما كان للكنيسة في قلوب الناس
من احترام وما كان باقياً من تقاليد واكتسحت أوروبا ثورة دينية عارمة
كانت أوسع مدى وأعمل أثراً من جميع الانقلابات السياسية التي حدثت
في أيامنا الحاضرة .

الباب الثاني

انجلترا: ويكلف، وتشوسر، والعصيان الكبير

١٣٠٨ - ١٤٠٠

الفصل الأول

الحكومة

أقسم ادوارد الثاني الملك السادس من آل بلانتجت في الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٨ أثناء تنويجه الرائع أمام رجال الدين والنبلاء المجتمعين في دير وست منستر ، القسم الذي تطلبه إنجلترا في كبرياء من جميع ملوكها . كبير أساقفة كنتربري : سيدي هل تمنح أهل إنجلترا وتحتفظ لهم وتؤكد لهم بقسمك القوانين والعادات التي منحها إياهم ملوك إنجلترا الأقدمون أسلافك الصالحون المتدينون وخاصة القوانين والعادات والامتيازات التي منحها لرجال الدين وللشعب سلفك الملك العظيم القديس ادوارد ؟ الملك : إني أمنحهم إياها وأعدهم بها .

كبير الأساقفة : سيدي هل تؤيد أمام الله وأمام الكنيسة المقدسة لرجال الدين وللشعب السلم والوثام في سبيل الله بكل مالك من قوة . الملك : نعم سأؤيدها .

كبير الأساقفة : سيدي هل تعمل على أن تكون جميع أحكامك متصفة بالعدالة الحققة والمساواة والحزم والرحمة والصدق وتسعى لها بجميع قواك . الملك : سأفعل ذلك .

كبير الأساقفة : هل تعد بأن تستمسك بالقوانين والعادات الصالحة

الى قد تختارها بلادك وأن تحافظ عليها وهل تدافع عنها وتقويها تكريماً لله وتعظيماً له بأقصى ما لديك من قوة ؟ .
الملك : أوافق على ذلك وأعدبه^(١) .

وبعد أن أقسم الملك على ذلك ومسح بالزيت المقدس وكرس حسب الأصول المرعية عهد بالحكم إلى موظفين مرتشين عاجزين وصرف حياته في اللهو مع بيرزجافستون الغلام الذي كان يعشقه . لهذا ثار عليه أعيان البلاد وقبضوا على جافستون وذبحوه (١٣١٢) وأخضعوا ادوارد وانجلترا لحكم الأقلية الثرية والإقطاعية . ولما عاد ادوارد بجملته الخزي والعار بعد أن هزم على أيدي الاسكتلنديين في بنوكيرن (١٣١٤) أخذ يواسي نفسه بحب جديد هو حب هيو المبذر الثالث . وتآمرت زوجته ازابلا الأميرة الفرنسية التي أهملها مع عشيقها روجردى مورتمر على خلعه عن العرش (١٣٢٦) . ثم اغتاله أحد رجال مورتمر في قلعه بركلي (١٣٢٧) ، وتوج ابنه ادوارد الثالث ملكاً على انجلترا وهو في الخامسة عشرة من عمره .

وكانت أهم الحوادث في تاريخ انجلترا في ذلك العهد وأعلاها قدراً هو أن تقرر في عام ١٣٢٢ سابقة تحم موافقة جمعية وطنية على كل قانون تسمته الحكومة كي يصبح نافذاً مشروعاً . فقد جرت سنة الملوك الإنجليز منذ زمن طويل إذا ألزمهم الحاجة أن يدعوا للاجتماع « مجلس الملك » المؤلف من كبار الأعيان ورجال الدين . فلما كان عام ١٢٩٥ كان ادوارد الأول يخارب فرنسا واستكلنده وويلز فاشتدت حاجته إلى المال والرجال فأمر « كل مدينة ، وكل بلدة كبيرة أن تبعث باثنين من مواطنيها الأحرار وكل إقليم أو مقاطعة بأن ترسل فارسين (أقل درجة من النبلاء) إلى جمعية وطنية يتألف منها هي ومجلس الملك أول برلمان إنجليزي . وكان الباعث على هذه الدعوة أن المدن على اختلاف أنواعها كان لديها المال وقد يكون مستطاعاً أن يوافق مندوبوها على إعطائه للملك ، أما المقاطعات والأقاليم

فكان فيها الملاك المزارعون الذين يصبحون رماة بالسهام والحراب أقوياء ، وكان الوقت قد حان لإنشاء هاتين القوتين وجعلهما جزءاً من هيكل الحكومة البريطانية . ولم يكن يدعى للديمقراطية الكاملة . ذلك أن المدن كانت — أو أنها ستكون قبل عام ١٤٠٠ — قد رفعت عن كاهلها سيادة رجال الاقطاع ، فقد قصر حق الاقتراع فيها على أقلية صغيرة من الملاك الذكور . ومعنى هذا أن الأشراف ورجال الدين ظلوا كما كانوا حكام إنجلترا ، فقد كانوا يملكون معظم الأرض الزراعية ويستخدمون فيها الكثرة الغالبة من السكان إما مستأجرين لها أو أرقاء أرض فيها . وكانوا هم الذين ينظمون قوى البلاد المسلحة ويوجهونها .

واجتمع البرلمان (وهو الاسم الذي سُمي به أيام ادوارد الثالث) في القصر الملكي بوست منستر المقابل للدير التاريخي المسمى بهذا الاسم . وجلس فيه عن يمين الملك كبير أساقفة كنتربري ويورك ، والأساقفة الثمانية عشر ، وروساء الأديرة الكبيرة ، وجلس عن يساره مائة ممن يحملون ألقاب دوق ، ومركيز ، وايرل ، وفيكونت ، وبارون ، وتجمع ولى العهد ومجلس الملك قرب العرش ، وجلس قضاة المملكة على أكياس من الصوف يذكرهم بأهمية تجارة الصوف لإنجلترا ، وقد جاءوا ليدلوا برأيهم في النقط القانونية . ولما افتتحت الجلسة وقف نواب المدن والفرسان — الذين عرفوا فيما بعد بالعموم — عراة الرؤوس أمام حاجز يفصلهم عن رجال الدين والأعيان ، وأصبحت الجمعية الوطنية وقتئذ (١٢٩٥) لأول مرة مكونة من مجلس أعلى ومجلس أسفل . واستمع القسمان مجتمعين إلى الملك أونائبه وهو يلقي خطاباً (سُمي فيما بعد خطبة العرش) يشرح فيه الموضوعات التي سيدور فيها البحث والقرارات التي يراد إصدارها . ثم انسحب رجال « العموم » ليجتمعوا في قاعة أخرى — كانت هي عادة قاعة اجتماع القساوسة في ديروست منستر . وهناك تناقشوا في اقتراحات الملك المعروضة عليهم :

فلما انتهت مناقشتهم انتدبوا « متكلما » ليلعب المجلس الأعلى ما وصلوا إليه من نتائج ، وليعرضوا ملتمساتهم على الملك . ولما انتهت دورة الانعقاد اجتمع المجلسان مرة أخرى ليستمعاً إلى رد الملك وليعلن انقضاء الدورة وكان للملك وحده حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع وفض دورة اجتماعاته . وكان كلا المجلسين يطالب لنفسه بحرية المناقشة ويستمتع بها في الأحوال العادية . وكانا في كثير من الأحوال يرفعان إلى الحاكم ما يستقر عليه رأيهما بعبارات قوية منطوقة أو مكتوبة ، غير أن الحاكم في كثير من الأحوال كان يأمر بسجن من يشتط في نقده . وكانت سلطات البرلمان تشمل من الوجهة النظرية شئون التشريع ، أما من الوجهة العملية فكان وزراء الملك هم الذين يعرضون على البرلمان مشروعات القوانين التي يقرها ، غير أن المجلسين كثيراً ما كانا يقدمان توصيات وشكاوى ويؤخرون الاقتراح على الأموال المطلوبة حتى تستجاب رغباتهم كلها أو بعضها . وكانت « قوة المال » هذه هي كل ما في أيدي « العموم » من سلاح ، ولكن سلطتهم هذه زاد شأنها حين زادت نفقات الإدارة وثروة المدن . فلم تكن الملكية والحالة هذه ملكية مطلقة أو دستورية فالملك مثلاً لم يكن يستطيع تغيير سنة البرلمان أو سن قانون جديد بنفسه علناً وبطريقة مباشرة ، ولكنه كان خلال معظم العام يحكم دون أن يقيد به البرلمان ويصدر قرارات تنفيذية لها أثرها في كل ناحية من نواحي الحياة الإنجليزية . ولم يكن يرقى العرش عن طريق الانتخاب بل عن طريق الوراثة . وكانت ذاته تعد ذاتاً مقدسة ترعاها الحرمات الدينية ، وكانت جميع قوى الدين والعادات والقانون والتربية واليمين التي تتلى عند تنويجه تبث في النفوس طاعته والولاء له . فإذا لم يكف هذا كان قانون الحيانة العظمى ينص على أن يقبض عليه متهماً بعصيان الدولة يجر في الشوارع إلى المشنقة وتنزع أحشاؤه وتحرق أمام عينيه ثم يشنق بعدئذ (٢) .

ولما بلغ إدوارد الثالث الثامنة عشرة من عمره في عام ١٣٣٠ تولى

شئون الحكم بنفسه وبدأ عهداً من أكثر العهود حادثات في تاريخ إنجلترا .
وقد كتب مؤرخ معاصر له يقول « كان وسيم الخلق ، وكان وجهه كأنه
وجه إله »^(٣) ، وقد ظل حتى أضعفه الإسراف في المسائل الجنسية ملكاً
في سمته وفي كل جارحة من جوارحه وكاد يهمل شؤون السياسة المحلية
لأنه كان محارباً لا حاكماً ، وقد أسلم السلطات إلى البرلمان وهوراض مغتبط
مادام البرلمان يمدّه بما تحتاجه حروبه من المال . وقد ظل طوال حكمه
الطويل يستنزف دماء فرنسا فيما كان يبذله من محاولات لضمها إلى تاجه ؛
لكنه كان مع ذلك رجلاً ذا مروعة ، وكثيراً ما كان شهماً مقدماً ، وقد عامل
الملك جون الفرنسي حين أسر معاملة يشرف بها بلاط الملك ارثر لو أنها
كانت في أيامه . ولما تم بناء البرج المستدير في وندسور بعد أن سخر في
بنائه ٧٢٢ رجلاً عقد فيه اجتماعاً حول مائدة مستديرة مع المقربين إليه
من الفرسان وأقام حفل مثاقفة رأسه بنفسه . ويرى فرواسار قصة لا نستطيع
تحقيقها يقول فيها أن ادوارد حاول أن يغوى كونتييسة سلزبورى الحسنة ،
فلما صدته في أدب ومجاملة أقام حفل ألعاب فروسية لكي يستمتع خلالها
بمشاهدة جمالها^(٤) ، وتروى قصة أخرى طريفة ان الكونتييسة ألقّت على
الأرض بربطة ساق حين كانت ترقص أثناء حفل في البلاط ، فاختطفها
الملك من فوق الأرض وقال « فليجل العار من تخامره فيه فكرة سوء » .
وأصبحت هذه العبارة من ذلك الوقت شعار نوط ربطة الساق الذي
أنشأه ادوارد في عام ١٣٤٩ .

وأثبتت اليس برز أنها أيسر منالا من الكونتييسة ذلك أنها وإن كانت
متزوجة قد استسلمت للمليك النهم ، ونالت في نظير ذلك الاستسلام
هبات واسعة من الأرض ، وكان لها عليه من النفوذ العظيم ما جعل البرلمان
يسجل احتجاجه على هذا النفوذ . وصبرت الملكة فيلبا (كما يقول فرواسار
تابعها المغرم بها) على هذا كله صبر الكرام ، وسامحته ، ولم تطلب إليه وهي

على فراش الموت ألا أن يوقى بما قطعه على نفسه من عهود خاصة بالصدقات وألا تختار لنفسك ، حين يريد الله أن تفارق هذا العالم قبراً غير أن ترقد إلى جوارى . ووعدها بذلك « والدمع يترقرق في عينيه » ثم عاد إلى إليس وأعطاهما جواهر الملكة .

وخاض غمار حروبه بجد وشجاعة ومهارة ، وكانت الحروب تعد وقتئذ أسمى أعمال الملوك وأنبأها ، وكان من يتقاعدون عن الحروب من الملوك يحقرون ، وقد خلع من ملوك إنجلترا ثلاثة يتصفون بهذه الصفة ، وكان الموت الطبيعي عاراً لا يستطيع معه إنسان ما ان يبتى حياً ، إذا جاز لنا أن نتجاوز بعض الشيء عما في هذا القول من مفارقة تاريخية ، وكان كل فرد من أبناء الأسر الأوروبية الشريفة يدرّب على الحرب ، ولم يكن يستطيع أن ينال السلطان أو الأملاك إلا بالشجاعة في الحروب والحدق في استعمال السلاح . وكان الأهليون يقاسون الأهوال من جراء الحروب ، ولكنهم قلما كانوا هم أنفسهم يخوضون غمارها حتى اعتلى هذا الملك العرش ، ونسى أبنائهم ذكرى آلامها ، وأخذوا يستمعون إلى قصص الفروسية القديمة التي تروى أمجاد الفرسان ، ويتوجون بأحسن الأكاليل رؤوس ملوكهم الذين يريقون من دماء الأجانب أكثر قدر مستطاع .

ولما عرض ادوارد أن يفتح فرنسا لم يكذب يجرؤ أحد من مستشاريه على أن يشير عليه بالتراخي والصلح ، ولم ترتفع صيحة السلام من ضمائر الأمة إلا بعد أن استمرت الحرب جيلاً من الزمان ، وأثقلت كاهل الأهلين حتى الأغنياء منهم بالضرائب الفادحة . وكاد استياء الشعب يبلغ حد الثورة حين تبدلت حملات ادوارد من نصر إلى هزيمة وهددت الاقتصاد القومي بالخراب . وكان ادوارد هذا قد ظل حتى عام ١٣٧٠ يفيد في الحرب والسياسة من حكمة السير جون تشاندوس وولائه وإخلاصه في خدمته . فلما توفي هذا البطل حل محله في مجلس الملك دوق لانكستر ابن الملك وهو الذي كان

يطلق عليه اسم جون جونت وهو الاسم المشتق من غانت أوغنت التي ولد فيها : وأسلم جون بإهماله حكم البلاد إلى القراصنة السياسيين الذين أثروا على حساب الشعب ، ورفع البرلمان عقيرته يطلب الإصلاح ، وأخذ الصالحون من الرجال يدعون الله أن يرد على الأمة سعادتها بالتعجيل بموت الملك ، وكان في مقدور ابن آختر من أبنائه يسمى الأمير الأسود - ولعل هذا الاسم مأخوذ من لون درعه - ان يبعث روح القوة والنشاط في الحكومة ، ولكنه فارق هذا العالم في عام ١١٧٦ على حين ان حياة الملك قد طالت بعد وفاته .

وأصدر « البرلمان الصالح » في ذلك العام قرارات ببعض الإصلاحات ، وزج في السجن باثنين من المجرمين وأمر بطرد أليس بروز من البلاط ، وأخذ على الأساقفة عهداً بأن يحرموها من حظيرة الدين إذا عادت إلى البلاط مرة أخرى . ولما انتهت الدورة البرلمانية أغفل ادوارد قراراته ، وأعاد جون جونت إلى سابق سلطانه وأليس برز إلى فراش الملك ، ولم يجرؤ أحد من الأساقفة على أن يوجه إليها التأييب أو اللوم . ثم رضى الملك العنيد آخر الأمر أن يموت (١٣٧٧) ، ونخلفه على العرش ابن للأمير الأسود وتسمى باسم ريشارد الثاني ، وكان غلاماً في الحادية عشرة من عمره ، وكانت البلاد حين تولى الحكم تضطرب فيها عوامل الفوضى الاقتصادية والسياسية وتختمر فيها أسباب الثورة الدينية .

الفصل الثاني

جون ويكلف

١٣٢٠ - ١٣٨٤

تري ما هي الظروف التي جعلت انجلترا تستجيب لنداء الإصلاح
الديني في خلال القرن الرابع عشر؟

أكبر الظن أن أخلاق رجال الدين لم يكن لها إلا دور ثانوي في هذه
المسرحية . فقد رضى كبارهم وقتئذ بحياة العزوبة ، نعم أننا نسمع أن أسقفاً
يدعى بيرنل كان له خمسة أبناء ذكور ، ولكن حالته كانت في أغلب الظن
حالة شاذة . ويتفق ويكلف ولايخلاند ، وجوور ، وتشوسر فيما لاحظوه
من ميل بعض الرهبان والإخوان إلى الطعام الشهى والنساء الفاسدات ،
ولكن البريطانيين ما كانوا ليستولى عليهم الغيظ وينتشر بين أمتهم بسبب
خروج هؤلاء على هذا الصراط الذي كان الزمن قد مهده لهم من قبل ،
بسبب الراهبات اللاتي كن يأتين إلى الصلاة وفي أيديهن مقاود كلابهن
وعلى أذرعهن طيورهن المدللة ، أو بسبب الرهبان الذين كانوا يسرعون
في صلواتهم المتقطعة غير المتأسكة (وقد خص الإنجليز الفكهون الشيطان
بمعاون خاص يجمع له جميع المقاطع التي «تساقط من أفواه القابضين،
والقافزين ، والمسرعين ، والمتمتين والسابقين في الوثب والجرى » وهم
يقومون بصلواتهم المرخمة ، ثم كان الشيطان يختص هؤلاء الآثمين بعام
في الجحيم جزاء لهم على هذه المقاطع التي يغفلونها أو يطثونها بأقدامهم) .
أما الذي كان يقض مضاجع غير رجال الدين ويفت في عضدهم هم
ورجال الحكم على السواء فهو الزيادة المطردة في ثروة الكنيسة الإنجليزية
وتداولها بين أيدي رجال الدين . نعم ان رجال الدين كانوا يسهمون بأداء

عشر إيرادهم للدولة ، ولكنهم كانوا يصرون على ألا تفرض عليهم ضريبة إلا بموافقة مجامعهم الدينية . ذلك أنهم كانوا يجتمعون بأشخاصهم أو بمن يختارونهم للنيابة عنهم ، في مجامع يرأسها كبير أساقفة كنتربري ويورك ، وذلك فضلاً عن أنهم كان لهم ممثلون في مجلس اللوردات هم أساقفتهم ورؤساء الأديرة ، وكان رجال الدين يقررون في هذه المجالس كل الأمور ذات الصلة بالدين وأبرجاله وقد جرت العادة على أن يختار الملك أكبر موظفي الدولة من بين رجال الدين بوصفهم أعظم الطبقات علماً في إنجلترا . وكانت القضايا التي يقيمها العلمانيون على رجال الدين ، والتي تمس أملاك الكنيسة ، ترفع إلى محاكم الملك ، ولكن محاكم الأساقفة كانت هي المختصة بالنظر في الجرائم التي يرتكبها رجال الدين . وكانت الكنيسة في كثير من المدن تؤجر أملاكها للأفراد ، وتطالب أن يكون لها السلطة القضائية الكاملة على هؤلاء المستأجرين ، حتى إذا ارتكبوا جرائم عادية . وكانت هذه كلها أمور تضايق الأهلين ، ولكن أكثر ما كان يضايقهم هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى البابوات ، أي انتقالها في القرن الرابع عشر إلى أفنيون أي إلى فرنسا نفسها . وقد قدرت الثروة الإنجليزية التي حصل عليها البابا بأكثر من التي حصلت عليها الدولة أو الملك .

وتألف في بلاط الملك حزب مناهض لرجال الدين ، وسنت شرائع تجعل القسط الذي تسهم به الكنيسة في نفقات الدولة أكبر وأعظم ثباتاً مما كان . ولما كان عام ١٣٣٣ أبي ادوارد الثالث أن يستمر في أداء الجزية التي تعهد جون ملك إنجلترا عام ٢١٣ . بأدائها للبابوات ، وفي عام ١٣٥١ حاول البرلمان في « قانون الشروط » أن يضع حداً لسلطان البابوات على موظفي الكنيسة الإنجليزية وإيراد ممتلكاتها . ونص « قانون السجن والمصادرة » (١٣٥٣) على أن يحرم من حماية القانون كل إنجليزي يتقاضى في المحاكم الأجنبية (البابوية) في جميع المسائل التي يرى الملك أنها في دائرة اختصاص

السلطة الدنيوية . وفي عام ١٣٧٦ شكا مجلس العموم رسمياً من أن جباة البابوية في إنجلترا يبعثون إلى البابا بمبالغ طائلة من المال ، وأن الكرادلة الفرنسيين غير المقيمين في إنجلترا يحصلون على إيرادات كبيرة من الكراسى الأسقفية الإنجليزية .

وكان زعيم الحزب المناهض لرجال الدين في بلاط الملك هو جون جونت . وكانت الحماية التي بسطها جون هذا على ويكلف هي التي جعلته يموت ميتة طبيعية .

وكان مولد أول المصلحين البريطانيين في هببول القريبة من قرية ويكلف ، من أعمال مقاطعة يوركشير في حوالى عام ١٣٢٠ ودرس في جامعة اكسفورد ، وصار فيها أستاذاً للاهوت ، وقضى عاماً (١٣٦٠) بعد ذلك رئيساً لكلية بالبول . ورسم قسيساً ، وتلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الأبرشيات ، ولكنه ظل خلال ذلك يدرس في الجامعة . وكان نشاطه الأدبي كبيراً إلى حد روع معاصريه ، فقد كتب رسائل في الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة ، وعن اللاهوت ، والمنطق ، وكتب مجلدين في فن الجدل ، وأربعة مجلدات في المواعظ ، ورسائل كثيرة متنوعة قصيرة ولكنها عظيمة التأثير منها رسالة في السلطة المدنية . وكان معظم ماكتب بلغة لاتينية خالية من الرشاقة عسيرة الفهم من شأنها أن تجعلها قليلة الضرر إلا لعلماء النحو . ولكنه كان يحنى في ثنايا هذا الغموض أفكاراً جد خطيرة ، كانت تفصل بريطانيا عن الكنيسة الرومانية قبل أن يفصلها هنرى الثامن بمائة وخمسة وخمسين عاماً ، وتقذف ببيوهيميا في أتون الحرب الأهلية وتسبق جميع أفكار الإصلاح التي نادى بها جون هوس ومارتن لوثر إلا القليل منها .

وبدأ ويكلف عمله بداية سيئة ، فاستسلم لمنطق أوغسطين وفصاحته ،

وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير ، وهو المبدأ الذى قدر له أن يبق حتى يومنا هذا أشبه بالمغناطيس الذى يجذب إليه المذهب البروتستنتى اللاهوتى وينجى القائلين به من العقاب . وفى ذلك يقول ويكلف إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء ، وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم فى الأزل قبل مولده كتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد . وليست الأعمال الصالحة هى التى تنجى صاحبها ، بل إنها تدل على أن من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وأنه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة وتلك الرحمة ونحن نصدر فى أعمالنا حسبما قسمه الله لنا ، ومصيرنا هو خلقنا وليس خلقنا هو مصيرنا كما قال هرقليطس . وكان آدم وحواء وحدهما هما اللذين استمتعا بحرية الإرادة ، ثم خسرا وأبناؤهما من بعدهما هذه الحرية بمعصيتهما .

والله سيدنا ذو السلطان الكامل علينا ، وولاؤنا له ولاء مباشر أشبه ما يكون باليمين التى يقسمها كل إنجليزى أمام الملك ، وليس هو ولاء غير مباشر عن طريق ولاء لسيد تابع كما هى الحال فى فرنسا الإقطاعية . ومن ثم كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والله علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، ولذلك يجب أن يرفض كل ما تدعيه الكنيسة أو يدعيه أى قس من أن تكون هى أويكون هو واسطة لا بد منها . وبهذا المعنى يكون كل مسيحى قسيساً وليس فى حاجة إلى أن يرسم كذلك والله مالك الأرض وما عليها ، وليس فى مقدور آدمى أن يمتلك شيئاً منه بحق إلا بوصفه تابعاً له طائعاً لأمره . وكل من يحمل وزرا - ويكون بذلك عاصياً للملك القدوس - يفقد بذلك كل حق له فيما يملك لأن الامتلاك الحق يتطلب أن يكون المالك متمتعاً بنعمة الله . وواضح مما جاء فى الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد ألا يكون للحواريين ولمن خلفهم ، ولمن رسموا بعدهم مندوبين عنهم ألا يكون لهؤلاء جميعاً أملاك ما وأذن فكل كنيسة ، وكل قس يمتلك شيئاً يعصيان أوامر الله ، وهما لذلك آثمان ، ومن ثم فهما لا يستطيعان تقديم العشاء الربانى . ومن ثم

فإن أعظم ما تحتاجه الكنيسة ويحتاجه رجال الدين من إصلاح هو أن تتخلص ويتخلص رجالها من الأملاك الدنيوية .

وكأن هذا لم يكن يثير من المتاعب ما فيه الكفاية ، فاستنتج ويكلف من مذهبه الديني مذهباً آخر من مذاهب الشيوعية النظرية والفوضى النظرية ، فقال إن كل شخص تحمل عليه نعمة الله وبركته يشارك الله في امتلاك الطيبات ، أى أن كل شئ من الوجهة النظرية يتملكه جميع الصالحين مجتمعين . أما الملك الخاص والحكومة فهما أثر من آثار خطيئة آدم وخطيئة الإنسان التي ورثها عنه أى أنهما متأصلان في الطبيعة البشرية (كما كان ينادى بذلك بعض الفلاسفة المدرسين . والمجتمع الذي تعمه الفضيلة لا يكون فيه ملك فردى ، ولا قانون يضعه الإنسان وتسنه الكنيسة أو الدولة . ونخشى ويكلف أن يفسر ذلك المتطرفون الذين كانوا يفكرون وقتئذ في الخروج على الحكومة في إنجلترا تفسيراً حرفياً ، فقام يفسر هو شيوعيته على أنها يجب أن تؤخذ بمعناها المثالي ، وأن السلطات التي تقوم بمقتضاها هي التي نادى بها القديس بولس والتي أمر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة . وقد كرر لوثر في عام ١٥٢٥ تكراراً يكاد يكون دقيقاً كل الدقة ما ملح به ويكلف في أقواله عن الثورة . ورأى الحزب المناهض للكنيسة شيئاً من المعنى في تنديد ويكلف بثروة الكنيسة ، ان لم يره في شيوعية ويكلف . ولما رفض البرلمان مرة أخرى ان يؤدى الخراج الذي تعهد الملك جون ان يؤديه للبابا (١٣٦٦) عين ويكلف قساً في خدمة الملك ليعد دفاعاً عن هذا العمل ، وعينه ادوارد الثالث في عام ١٣٧٤ رئيساً لكنيسة ابرشية لوثر وورث ويبدو أنه قصد بذلك أن يكون إيرادها أجراً له يحتفظ به لنفسه . ثم عين ويكلف في عام ١٣٧٦ عضواً في اللجنة المكلفة التي أرسلت إلى بروج لتبحث مع عمال البابا ما تصر عليه إنجلترا من رفض أداء الخراج ، ولما ان اقترح جون جونت أن تصدر الحكومة بعض أملاك الكنيسة ، دعا ويكلف إلى الدفاع عن هذا الاقتراح

في سلسلة من الخطب الدينية يلقيها في لندن . ولبي ويكلف الدعوة (في سبتمبر من عام ١٣٧٦) ، وكان جزاؤه ان وسمه الحزب المناصر لرجال الدين بأنه آلة في يد جوننت . وقرر كورتناى أسقف لندن أن يشن هجوماً غير مباشر على جوننت ، فاتهم ويكلف بأنه رجل مارق خارج على الدين . واستدعى الواعظ للمثول أمام مجلس من الأخبار في كنيسة القديس بولس في شهر فبراير من عام ١٣٧٧ . وأطاع الأمر ، ولكنه جاء ومعه جوننت تتبعهما حاشية مسلحة . وشجر نزاع بين الجنود وبعض النظارة ، قامت على أثره ضوضاء ، فرأى الأسقف أن من الحكمة تأجيل المحاكمة ، وعاد ويكلف إلى اكسفورد دون أن يمسه سوء . وبعث كورتناى إلى رومة اتحافاً مفصلاً نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكلف ، فلما كان شهر مايو أصدر جريجورى الحادى عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من أقوال ويكلف ، معظمها من رسالته « عن الحكم المدنى » ، وأمر سدبرى كبير الأساقفة والأسقف كورتناى أن يبحث الأمر ليعرفا هل لا يزال ويكلف معتقاً لهذه الآراء ، فإذا تبين أنه لا يزال يعتنقها فعليهما أن يلقيا القبض عليه ويحتفظا به في الأغلال حتى تصدر إليهما تعليمات أخرى .

وكان ويكلف في هذه الأثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأى العام فضلاً عن تأييد جوننت ولوردبيرسى لورد نورثمبرلند . وكان البرلمان الذى اجتمع في شهر أكتوبر مناهضاً للكنيسة أشد المناهضة . وكانت حجة القائلين بمصادرة أموال الكنيسة تستهوى كثيرين من الأعضاء ، فقد كان هؤلاء يحسبون أنه إذا ما استولى الملك على الثروة التى يستحوذ عليها الأساقفة ، ورؤساء الأديرة والرهبان ، فإن فى وسعه أن يقيم بها خمسة عشر نبيلاً يحملون لقب ايرل ، وألفاً وخمسمائة فارس ، وستة آلاف ومائتين من أتباع الفرسان ، وأن يتبقى له بعد ذلك عشرون ألف جنيه . وكانت فرنسا

وقتئذ تستعد لغزو إنجلترا ، وكانت الخزانة الإنجليزية تكاد تكون خاوية ، وبدا أن من الحمق أن يسمح لوكلاء البابا بأن يجمعوا الأموال من الابرشيات الإنجليزية لبابا فرنسى وللمجلس من الكرادلة كثرته الغالبة من الفرنسيين . وسأل مستشارو الملك ويكلف « هل يحق لمملكة إنجلترا شرعاً ، إذا كانت الضرورة تحتم عليها أن تعمل لصد ما يهددها من الغزو الفرنسى ، ان تمنع أموال الدولة من الوصول إلى البلاد الأجنبية ، وإن طلبها البابا وهدد من يمنعها بالعقاب معتمداً فى ذلك على وجوب طاعة أوامره ؟ » وأجاب ويكلف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان فى الواقع دعوة لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية وقد جاء فى هذا المنشور : « ان البابا لا يستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة . . ولما كانت أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات ، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية إذا كانت البلاد نفسها فى حاجة إليها ، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة . ورد ويكلف على الدعوة القائلة بأن الكنيسة الإنجليزية جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الإنجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لأوامرها ، رد ويكلف على هذه الدعوى بأن أوصى باستقلال إنجلترا الكنسى وقال : « ان الدولة الإنجليزية ، بنص الكتاب المقدس يجب أن تكون هيئة واحدة ، وان يكون رجال الدين ، واللوردات ، والسكان العاديون أعضاء فى هذه الهيئة » . وقد بلغت هذه الدعوى ، التى استبق بها هنرى الثامن من الجرأة حداً جعل مستشارى الملك يطلبون إلى ويكلف أن يمتنع عن الإدلاء بآراء جديدة فى هذا الموضوع .

وأجل البرلمان جلساته فى يوم ٨ نوفمبر . وفى الثامن عشر من ديسمبر نشر الأساقفة - وكانوا قد أعدوا العدة للقتال - قرارات التنفيذ التى أصدرها البابا ، وأمروا مدير جامعة اكسفورد أن ينفذ أمر البابا القاضى باعتقال ويكلف . وكانت الجامعة وقتئذ فى ذروة استقلالها العقلى ، وكانت

في عام ١٣٢٢ قد اتخذت لنفسها حق خلع أى مدير لها لا ترضى عنه دون أن تأخذ في ذلك رأى أسقف لنكولن رئيسها الرسمى الأعلى ، وكانت في عام ١٣٦٧ قد نبذت كل ما كان للأساقفة من إشراف عليها . وأيد نصف كليات الجامعة حق ويكلف في أن يجهر برأيه على الأقل وأبى مدير الجامعة أن يطيع الأساقفة ، وأنكر كل حق حبر من الأحرار على الجامعة في المسائل الخاصة بالعقائد ، ولكنه أوصى ويكلف في الوقت نفسه بأن يبقى إلى حين في عزلة متواضعاً ، غير أنه قلما يوجد بين المصلحين من يستطيع الصمت ، ظهر ويكلف في شهر مارس من عام ١٣٧٨ أمام مجلس الأساقفة في لامث ليدافع عن آرائه . ولما أوشك النقاش أن يبدأ تلقى كبير الأساقفة رسالة من والده الملك ادوارد الثانى تستنكر فيه أى قرار نهائى بإدانة ويكلف ، وبينما كانت إجراءات المحاكمة تجرى في مجراها شق جمهور من الأهلين طريقه من الشارع إلى قاعة الاجتماع ، وأعلن أن الشعب الإنجليزى لا يسمح بقيام أية محكمة للتفتيش في إنجلترا . وخضع الأساقفة لرأى الشعب المتفق مع رأى الحكومة وتأجل اتخاذ قرار وعاد ويكلف مرة أخرى إلى داره دون أن يصيبه أذى ، بل إنه في الحق عاد ظافراً منتصراً . وتوفي جريجورى الحادى عشر في السابع والعشرين من شهر مارس وحدث الانشقاق البابوى الذى قسم البابوية وأضعف سلطانها كما أضعف سلطان الكنيسة بوجه عام . وعاد ويكلف إلى الهجوم ، وأخذ يصدر المنشور تلو المنشور ، وكان الكثير منها باللغة الإنجليزية ، وكلها تزيد في مخالفته للكنيسة وثورته عليها .

والصورة التى يصور لنا بها في تلك السنين هى صورة الرجل الذى أبهظ الجدل كاهله ، وجعله كبير السن متزمتاً في آرائه الدينية . ولم يكن بالرجل المتصوف ، بل كان إنساناً محارباً ومنظماً ، ولعله قد ذهب بمنطقه إلى أبعد حدود التطرف ، وأخذ وقتئذ يطلق العنان للقدح والطعن بلا حساب ، يطعن على الإخوان الرهبان بسبب دعوتهم إلى التمسك بالتقى ، في حين أنهم

يجمعون المال ويكدسونه ، وكان يرى أن بعض الأديرة ان هي إلا مأوى
للصوص ، وعششاً للأفاعى ، وبيوتاً للأحياء من الشياطين » ، وعارض
النظرية القائلة بأن فضائل القديسين يمكن أن يستعان بها على إنقاذ الأرواح
من المطهر ، وقال إن المسيح والقديسين لم يأتوا إلى الناس بشيء من صكوك
الغفران ، « إن الأحبار يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة أو وثائق
المغفرة . وينهبون بذلك أموالهم لعنة الله عليهم . . وما أشد حماقة من يتناعون
هذه الصكوك بهذه الأثمان الغالية ؟ وإذا كان في مقدور البابا أن ينتزع الأرواح
من المطهر ، فلم لم ينتزعها منه على الفور عملاً بروح الإحسان المسيحية ؟
وذهب ويكلف إلى أبعد من هذا في عنفه فقال إن « كثيرين من رجال
الدين يندسون أعراض الزوجات ، والعذارى ، والأرامل ، والراهبات ،
بكل ضروب الفسق والفجور » ، وطالب بأن يحاكم رجال الدين على
جرائمهم أمام المحاكم المدنية غير الدينية ، وهاجم الكهنة الذين يتملقون
الأغنياء ، ويزدرون الفقراء ، والذين لا يترددون في أن يغفروا ذنوب
الأثرياء ، ولكنهم يحرمون الفقراء المدقعين من حظيرة الدين لأنهم لا يؤدون
العشور للكنيسة ، والذين يقضون أوقاتهم في صيد الحيوان والطيور ولعب
الميسر ، ويقصون على الناس أنباء المعجزات الكاذبة . أما أحبار إنجلترا
فقد اتهمهم بأنهم « ينتزعون من الفقراء أرزاقهم ، ولكنهم لا يقاومون
الظلم » وبأنهم « يقدرون البنس العطن أكثر مما يقدرون دم المسيح الثمين » .
ولا يصلون إلا تظاهراً وادعاءً ويأخذون الأجر عن كل صلاة دينية يقومون بها
ويحيون حياة الترف ، فيمتطون الحياض الثمينة ، ذات السروج المصنوعة
من الفضة والذهب » ، وهم نهابون . . . خبثاء ، ثعالب مأكرة ، . . .
وذئاب ناهشة . . نهمون شرهون . . شياطين . . قردة » . وهو بهذه
الأقوال يستبق لوثر في لغته « والاتجار بالمقدسات منتشر في جميع أقسام
الكنيسة . . وأكثر ما ينتجه هذا الاتجار من الضرر اتجار كنيسة رومة لأنه
أوسع ضروب الاتجار انتشاراً ، تحت ستار ادعاء من القداسة ، ولأنه يحرم

بلادنا من الرجال والمال أكثر مما يحرمها غيره». وان ما هو قائم بين البابوات «في أنقسامهم» من تنازع شائن ، وتبادلهم الحرمان من حظيرة الدين ، واقتتلهم على السلطان اقتتالا يجللهم العار» يجب أن يدفع الناس إلى ألا يؤمنوا بالبابوات إلا بقدر ما يتبع هؤلاء تعاليم المسيح ، ان مقام البابا والقسيس في مقام اللورد بل قل في مقام الملك ، في الشؤون الروحية ، ولكنه إذا ما جمع لنفسه الأملاك الدنيوية ، أو السلطة السياسية ، أصبح غير خليق بمنصبه ، ان المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه أما هذا البابا فيقول عنه الناس إنه يمتلك نصف الإمبراطورية . . . وكان المسيح وديعاً . . . أما البابا فيجلس على عرشه ، ويجعل الأعيان يقبلون قدميه . ثم يشير ويكلف إشارة رقيقة فيقول ان البابا هو عدو المسيح الذي تنبأت به الرسالة الأولى من رسائل الرسول يوحنا ، وأنه الوحش الوارد ذكره في سفر الرؤيا ، والذي ينبيء بعودة المسيح .

ويقول ويكلف ان هذه المشكلة لا تحل إلا بتجريد الكنيسة من كل الأملاك والسلطات المادية ، ويقول ان المسيح وحوارييه قد عاشوا فقراء وان من واجب القسيسين ان يعيشوا هم أيضاً فقراء ، أما الرهبان والإخوان فيجب أن يعودوا إلى ما كانت تحتمه عليهم قوانين طوائفهم ، فيبتعدوا عن كل ملك وترف . والقساوسة «يجب أن يتهجوا حين تنتزع منهم كل أسباب السيادة الزمنية» ، ويجب أن يقنعوا بالطعام والكساء ، وان يعيشوا على الصدقات التي يقدمها الناس إليهم طائعين مختارين . وإذا لم يتخل رجال الدين عن ثروتهم ويعودوا باختيارهم إلى الفقر الذي أمرتهم به الشريعة المسيحية ، وجب أن تتدخل الدولة فتصادر أملاكهم «ألا ليصلح السادة والملوك من شأن رجال الدين ، ويرغموا القساوسة على الاستمساك بالفقر الذي أمرهم به المسيح» . ومن واجب الملك حين يفعل هذا ألا يخشى ما يصبه عليه البابا من اللعنات ، لأن «اللعة الصادرة من الآدمي أيا كان

ليست لها قوة ، إلا إذا كانت اللعنة صادرة من الله نفسه . والملوك مسئولون أمام الله وحده ، وهم يستمدون سلطانهم منه . ويقول ويكلف في هذا إن الدولة يجب أن تعد نفسها ذات السلطان الأعلى في جميع الشئون الزمنية ، وأن عليها أن تستحوذ على جميع أملاك الكنيسة . بدل أن تقبل المبدأ الذي يقول به جريجورى السابع وبونيفاس الثامن وهو أن سلطة الحكومات الدنيوية يجب أن تخضع هي نفسها للكنيسة ، وعلى هذا يجب أن يكون الملك هو الذى يرسم القساوسة .

وكانت سلطة القس تعتمد على حقه فى أن يقدم العشاء الربانى ، ولهذا ولى ويكلف وجهه نحو هذا القربان مستبقاً فى ذلك ما قام به لوثر وكلفن استباقاً فيه كل معانيه ، وأنكر ضرورة الاعتراف الجهرى أمام القس ، ونادى بالعودة إلى الاعتراف الاختيارى العام الذى كان يفضلهُ المسيحيون الأولون ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « لاجبة إلى الاعتراف السرى أمام القساوسة . . فذلك اعتراف أدخله الشيطان أخيراً فى الدين . . ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به ، كما لم يعمل به أحد من الحوارين من بعده . وبه استحال الناس الآن عبيداً لرجال الدين ، وهو يستخدم الآن أسوأ استخدام للأغراض الاقتصادية والسياسية » و« بهذا الاعتراف السرى يستطيع الراهب والراهبة أن يرتكبا الخطيئة معاً » وقد يكون فى وسع الصالحين من غير رجال الدين أن يغفروا ذنوب الإثم خيراً مما يستطيع أن يغفروا له القساوسة الأشرار ، ولكن الحق الذى لا ريب فيه أن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب . ومن واجبنا أن نرتاب بوجه عام فى صحة العشاء الربانى الذى يقدمه القس الآثم أو الخارج على الدين ، كما أن القس ، صالحاً كان ، أو طالحاً ، لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدس إلى جسم المسيح ودمه . ولم يكن شىء يبدو أبشع فى نظر ويكلف من تفكيره فى أن بعض من يعرفهم من القساوسة يستطيعون أن يأتوا بهذه المعجزة التى هى من صنع الله وحده :

وكان ويكلف ينكر فكرة التجسد كما ينكرها لوثر ، ولكنه لم يكن ينكر حضور المسيح بحق ويقول ان المسيح كان يحضر حضوراً روحياً ، حقيقياً ، صادقاً ، قوى الأثر ، ولكن حضوره هذا كان مع الحيز والنبذ اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعى الكنيسة . أما كيف يكون ذلك فهو سر غامض لم يحاول كلا الرجلين أن يفسره .

ولم يكن ويكلف يعترف بأن في هذه الأفكار خروجاً على الدين ، ولكن فكرة « اتحاد الجوهر » روعت بعض أنصاره ، فأسرع جون جونت إلى اكسفورد ، وألح على صديقه ألا يذكر شيئاً آخر عن العشاء الرباني (١٣٨١) ، ورفض ويكلف نصيحته ، وعاد فأكد آراءه في اعتراف له أصدره بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٣٨١ . واندلعت نيران ثورة اجتماعية في إنجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ ، ارتاع لها كل ذوى الأملاك ، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية أيا كان شكلها ، كنيسة كانت أو علمانية . وخسر ويكلف إذ ذاك معظم ما كانت تنفحه به الحكومة من تأييد ، وكان اغتيال سدبرى كبير الأساقفة سبباً في ارتقاء الأسقف كورتناى إلى منصب كبير أساقفة إنجلترا بدلاً منه . وظن كورتناى أنه إذا ما سمح لفكرة العشاء الرباني التى يقول بها ويكلف أن تنتشر ، فإن انتشارها سيقضى على منزلة رجال الدين ، أى القضاء على أساس سلطة الكنيسة الأدبية والأخلاقية . ولهذا دعا فى شهر مايو من عام ١٣٨١ مجلساً من رجال الدين ينعقد فى دير بلاكفرايز فى لندن . وأقنع كبير الأساقفة هذه الجمعية بأن تستنكر أربعة وعشرين من آراء ويكلف قرأها هو من مؤلفاته ، ثم بعث بأمر عاجل إلى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار فى التعليم أو الوعظ إلا بعد أن يثبت استمساكه بأصول الدين القويم . وأضاف الملك رتشارد الثانى إلى هذا أمراً أصدره إلى مدير الجامعة بأن يطرد منها ويكلف وجميع مؤيديه ، وكان ذلك جزءاً من الخطة

التي انتهجها لمقاومة الفتنة التي كادت تطوح به عن عرشه . فما كان من ويكلف إلا أن انسحب إلى أملاكه في لير وورث ، وكان لا يزال وهو فيها تحت حماية جون جونت على ما يبدو .

وارتبك ويكلف وتحير بما أبداه من إعجاب به القس جون بول زعيم الثورة ، فأصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة ، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية ، ويحث أتباعه على الخضوع لسادتهم من غير رجال الدين ، وأن يصبروا ويصابروا وهم أقوى ما يكونون إيماناً بأنهم سينالون خير الجزاء بعد الموت . لكنه مع ذلك ظل يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة ، وأنشأ طائفة من « القساوسة الوعاظ الفقراء » لينشروا إصلاحاته بين الشعب . وكان من هؤلاء « الأتباع » من لم يتلقوا من العلم إلا أقله ، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد ، وكانوا جميعاً يرتدون أثواباً من الصوف الأسود ويمشون حفاة ، كما كان يفعل « الإخوان » الأقدمون ، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشف لهم من جديد حقيقة المسيح . وكانت عقيدتهم المتأصلة في نفوسهم هي ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ ، وكانوا يصرون على أن يعظوا الناس بلغتهم القومية لا بالطقوس الغامضة التي تتلى عليهم بلغة أجنبية . وكتب ويكلف إلى هؤلاء القساوسة العلمانيين وإلى من يستمعون إليهم من المتعلمين بلغة إنجليزية سهلة قوية خالية من التعميق ثلثمائة موعظة ، وكثيراً من المقالات الدينية . وإذا كان يحث الناس إلى العودة إلى المسيحية كما جاءت في كتاب العهد الجديد ، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ إلى الدين الحق ولم يكن قد ترجم حتى ذلك الوقت (١٣٨١) إلا جزء قليل من الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ، وان كانت ترجمة فرنسية منه كانت معروفة إلى الطبقات المتعلمة ، وترجمة من اللغة الإنجليسكونية ، لا تفهمها إنجلترا

في أيام ويكلف ، قد وصلت إليها من عهد الملك الفرد . ووجدت الكنيسة ان الخارجين على الدين أمثال طائفة الولدرسين يفيدون كثيراً من الكتاب المقدس ، فأخذوا يشبطون من عزيمتهم على قراءة التراجم غير المعترف بها ، وأخذت تندد بما تتوقعه من فوضى في العقائد الدينية حين تعتمد كل شيعة إلى ترجمة الكتاب المقدس لنفسها ، وتلون تلك الترجمة بآرائها ، وحين يكون كل قارئ حراً في أن يفسر نصوص الكتاب المقدس كما يشاء . لكن ويكلف كان صادق العزيمة في أن يكون الكتاب المقدس في متناول كل انجليزى يستطيع القراءة . ويلوح أنه هو نفسه قد ترجم أسفار العهد الجديد ، وترك ترجمة العهد القديم لنقولا س هيرفور وجوير في وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكلف . وكان الأصل الذى ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية . لا الترجمة العبرية للعهد القديم أو اليونانية للعهد الجديد . ولم تكن الترجمة نموذجاً يحتذى في النثر الانجليزى ، لكنها كانت حدثاً خطيراً في التاريخ الانجليزى .

ولما كان عام ١٣٨٤ دعا البابا أربان السادس ويكلف للمثول بين يديه في رومة . لكن دعوة أخرى كانت ذات سلطان أكبر من سلطان دعوة أربان . ذلك أن المصلح المريض أصيب في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٣٨٤ بضربة شلل وقت أن كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة أيام من تلك الإصابة . ودفن في ترورث ، لكن عظامه قد أخرجت من قبره بناء على قرار من مجلس كنستانس (٤ مايو سنة ١٤١٥) وألقيت في مجرى ماء قريب من هذا القبر . ودار البحث عن كتاباته وأبيد كل ما عثر عليه منها .

وكانت آراء ويكلف تحوى كل عناصر الإصلاح الكبيرة ، تحوى انهماك رجال الدين في متاع الدنيا ، والدعوة إلى اتباع قانون أخلاقى شديد صرامة ، والعودة من الكنيسة إلى ما جاء في الكتاب المقدس ، ومن

توما الاكوينى إلى أوغسطين ، ومن حرية الإرادة إلى الجبرية ، ومن النجاة عن طريق العمل الصالح إلى النجاة باختيار الرحمة الالهية . وكانت هذه الآراء تحوى كذلك رفض صكوك الغفران ، والاعتراف السرى للقسيس ، وعقيدة التجسد ، وان القس واسطة بين الله والعبد ، وتحتج على إرسال الثروة القومية إلى رومة ، ودعوة الدولة إلى نبد طاعة البابوية ، والهجوم على أملاك رجال الدين (وبذلك مهد الطريق لهنرى الثامن) . ولو لم تقض الثورة الكبرى على حماينة الحكومة للجهود ويكلف ، لتأصل الإصلاح الدينى وعلت قواعده فى انجلترا قبل أن تشب ثورة الإصلاح فى ألمانيا بمائة وثلاثين عاماً .

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

١٣٨١

كان عدد سكان إنجلترا وويلز في عام ١٣٠٧ يقدر تقديراً غير موثوق به بثلاثة ملايين من الأهلين ، أى أنه قد ارتفع ارتفاعاً بطيئاً من ٢,٥٠٠,٠٠٠ وهو ما كان يظن أنه عدد السكان سنة ١٠٦٦ وهذان الرقمان يوحيان بأنه قد حدث تقدم بطيء أيضاً في الفنون الزراعية والصناعية — وتحديد قوى لعدد السكان بسبب القحط ، والمرض والحروب — في جزيرة زراعية ضيقة الرقعة ، لا ينتظر منها بمواردها الخاصة أن تعول عدداً كبيراً من الأهلين. وأكبر الظن أن ثلاثة أرباع السكان كانوا من الزراع ، وأن نصف هؤلاء السكان كانوا من أرقاء الأرض ، وكانت إنجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا بقرن من الزمان .

وكانت الفروق بين الطبقات أشد منها في أرض القارة الأوروبية وبدا أن الحياة كانت تركز على نقطتين الأعيان الطيبين الراحين أو المتغربين من جهة ، والخدمات يؤديها الزراع يغلى في صدورهم الغضب أو يحذوهم الرجاء من جهة أخرى . وكان الأعيان سادة كل ما هو لهم والكثير مما يتجاوزهم ، إذا استثنينا من ذلك ما عليهم للملك من واجبات محددة المعالم وكان لأدواق لانكستر ، ونورفوك ، وبكنجهام ضياع تنافى ضياع التاج ، ولم يكن آل نيفيل وبرسي قد فقدوا من ثروتهم إلا القليل الذي لا يكاد يذكر ، وكان السيد الاقطاعي يحتم على الفرسان الذيق يدينون له بالولاء وعلى اتباع هؤلاء أن يخدموه ويدافعوا عنه ، ويلبسوا ثياب زينته الخاصة . غير أنه كان في وسع الإنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة ، وكان في مقدور

ابنة تاجر ثرى أن تحظى بزواج نبيل ولقب من ألقاب الشرف ، ولو أن نشوس قد عاد إلى الحياة بعد موته لدهش إذ رأى أن حفيدته قد أصبحت دوقة وتصنعت الطبقات الوسطى ما استطاعت أن تصنعه من عادات الأشراف ، فبدأ أفرادها يخاطب بعضهم بعضاً في إنجلترا بلفظ سيد وفي فرنسا بلفظ Monsieur ، وسرعان ما أصبح كل رجل في كلا البلدين سيداً كما أصبحت كل امرأة سيدة(*) .

وكان تقدم الصناعة أسرع من تقدم الزراعة ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كادت جميع مناجم الفحم في إنجلترا تستغل ، وحتى كان الحديد ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير يستخرج من باطن الأرض ، وحتى كان تصدير المعادن من أهم الصادرات إلى البلدان الأجنبية ، وكان من الأقوال التي تجرى على الألسنة أن « قيمة المملكة في باطن الأرض أعظم منها في ظاهرها » . وبدأت صناعة الصوف في ذلك القرن تزيد من ثراء إنجلترا فأخذ كبار الملاك ينتزعون الأرض شيئاً فشيئاً من المستأجرين وأرقاء الأرض الذين كانوا يستخدمونها في الزراعة ويحولون أجزاء واسعة منها إلى مراعي تربية الضأن إلا إن بيع الصوف كان يدر عليهم من المال أكثر مما يدره حرث الأرض ، وأتى على تجار الصوف حين من الدهر كانوا فيه أغنى التجار في إنجلترا ، وكان في مقدورهم أن يقدموا للملك ادوارد الثالث أموالاً طائلة في صورة ضرائب وقروض ، ومع ذلك فقد عمل الملك على خرابهم : ذلك أن ادوارد الثالث قد ساءه أن يرى الصوف الغفل يخرج من إنجلترا ليغذى صناعة النسيج في فلاندرز ، فأغرى النساجين بالهجرة إلى بريطانيا

(*) إن هذا اللفظ ترجمة للفظ الإنجليزي . وهو مشتق من اللفظ الإنجليزي الفرنسي « ليفريه » أى التسليم ، أو المنحة من طعام أو ثياب يعطيها السيد لمواليه . واتخذت الثياب على مر الزمن صورة حلة رسمية يلبسها أتباع السيد العظيم تفاخراً وأبهة . واتخذت نقابات الحرف هذه العادة ، فكان أعضاؤها يلبسون الحلل المميزة لهم أثناء اجتماعاتهم واستعراضهم . وكانت هذه العادة من أسباب الزينة والمرح في « إنجلترا الطروب »

(١٣١١ وما بعدها) ، وعمل الإنجليز بناء على إرشادهم على إقامة صناعة النسيج فيها ، ثم حرم تصدير الصوف واستيراد معظم الأقمشة الأجنبية ، ولم ينته القرن الرابع عشر حتى أصبحت صناعة النسيج لا تجارة الصوف أهم مصادر الثروة السائلة في إنجلترا وحتى وصلت إلى مرحلة قرينة من الصناعات الرأسمالية .

وكانت الصناعة الحديدية تتطلب التعاون التام بين عدة حرف — النسيج ، والتقصير ، والتمشيط ، والصباغة ، والصقل ، ولم يكن في وسع نقابات الحرف القديمة أن تنظم ما يحتاج إليه الإنتاج الاقتصادي من تعاون ، فعمل أصحاب المشروعات الكبرى على جمع الاختصاصيين المختلفين من العمال في منظمة واحدة ، يشرفون عليها ويمدونها بالمال . على أنه لم يقيم في هذه البلاد نظام للمصانع كالذي كان قائماً في فلورنس وفلاندرز ، بل ظل معظم العمل يتم في حوانيت صغيرة على يد معلم كبير ، وصبيان ، وعدد قليل من البائعين المتجولين ، أو يتم في مصانع ريفية صغيرة تدار بقوة الماء ، أو في بيوت ريفية حيث كانت الأصابع الدائبة الكادحة تدير الأنوال إذا أتاحت لها أعمالها المنزلية الرتيبة فسحة من الوقت . وقاومت نقابات الحرف النظام الحديد بالإضراب ولكن تفوقه في الإنتاج تغلب على كل ضروب المقاومة ، وأصبح العمال الذين ينافسون الصناعات الحديدية في بيع نتائج كدحهم وحذقهم تحت رحمة الذين يمدون هذه الصناعات برءوس الأموال وبالمدرين ، وازدادت سيطرتها عليهم شيئاً فشيئاً وأصبح الكادحون في المدن « لا يدخرون شيئاً لغدهم . . ملابسهم رثة ، وبيوتهم قذرة . . يجدون كفايتهم من العيش في أوقات الرخاء ، ولكنهم لا يجدون ما يقيم أودهم في أيام الشدة » .

وكان جميع الذكور من سكان المدن في إنجلترا معرضين لأن يجندوا للعمل في الأعمال العامة ، ولكن كان في وسع الأغنياء منهم أن يشتروا أنفسهم بالمال . وكان الأهلون بوجه عام يعيشون في فقر مدقع ، وإن لم يبلغ

فقرهم في أغلب الظن من الشدة ما كان عليه في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان المتسولون في البلاد كثيرين ، وقد نظموا أنفسهم تنظيماً يقصد به حماية مهنتهم وحكمها ، وكانت الكنائس ، والأديرة ، وثقافات الحرف تقدم قليلاً من الصدقات التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وفاجأ البلاد - وهذه حالها - الوباء المعروف بالموت الأسود ، ولم يكن هذا الوباء كارثة حلت بها فحسب ، بل كاد يكون ثورة اقتصادية . ذلك أن سكان إنجلترا كانوا يعيشون في جو يصلح للزراعة والإنبات ولكنه يضر بالصحة فقد كانت الحقول خضراء طوال أيام السنة ، ولكن الأهالي كانوا يقاسون آلام النقرس ، والروماتزم ، والربو ، وعرق النساء ، وذات الرئة ، والاستسقاء ، وأمراض العين والجلد . وكانت الطبقات كلها تتغنى معدتها بالطعام (إن وجدته) وتدفي أجسامها بالمشروبات الكحولية ، وقد وصفهم رتشارد رول في عام ١٣٤٠ بقوله : « قلما يصل الآن أحد منهم إلى سن الأربعين ، وأقل من تلك القلة من يصل إلى سن الخمسين » ، وكانت النظم الصحية العامة بدائية ، فكانت روائح المدايق العامة ، وحظائر الخنازير ، والمراحيض تفسد الهواء ، وكان الأثرياء وحدهم هم الذين يحصلون على الماء الجارى من أنابيب تمتد إلى بيوتهم ، أما كثرة السكان فكانوا ينقلونه من القنوات المغطاة أو من الآبار ، وكان أثمن من أن يضيعوه في الاستحمام كل أسبوع . ولهذا كله كانت الطبقات الدنيا ضحايا سهلة للأوبئة التي كانت تفتك بالأهلين من حين إلى حين من ذلك أن الطاعون الدملي انتقل في عام ١٣٤٩ من نورماندى إلى إنجلترا وويلز ثم انتقل بعد عام من ذلك الوقت إلى اسكتلندة وإيرلندة ، ثم عاد إلى إنجلترا في أعوام ١٣٦١ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٥ ، ١٣٨٢ ، ١٣٩٠ ، ١٤٣٨ ، ١٤٦٤ ، وقضى في هذه السنين كلها على ثلث سكان البلاد ، وهلك فيه ما يقرب من نصف رجال الدين ، ولعل بعض المساوي التي شكت منها الكنيسة

الإنجليزية فيما بعد ترجع إلى اضطرارها إلى حشد رجال في خدمتها حشداً سريعاً ، وكانت تنقصهم الكفايات التي ينتجها التدريب والحلق القويم ، وكان لهذه الظروف أسوأ الأثر في الفن ، وتوقف بناء الكنائس أوكاد نحو جيل من الزمان ، وفسدت الأخلاق ، وانحلت روابط الأسر ، وطغت العلاقات الجنسية على القيود التي حاول نظام الزواج أن يقيد بها مراعاة لمصلحة النظام الاجتماعي ، ولم تجد القوانين مشرفين ينفذونها ، وكثيراً ما يتجاهلوها .

وتعاون الطاعون مع الحرب للتعجيل باضمحلال النظام الإقطاعي ، فقد هجر كثيرون من الزراع الأراضي التي كانوا يستأجرونها ونزحوا إلى المدن بعد أن فقدوا أبناءهم وغيرهم ممن كانوا يساعدونهم في فلاحتها ، واضطر الملاك إلى أن يستأجروا عمالاً أحراراً ، يؤدون لهم ضغفى ما كانوا يؤدونه قبل من الأجور ، وان يغروا بالعمل عندهم مستأجرين بشروط خير من الشروط السابقة ، وان يستبدلوا بالمال الخدمات الإقطاعية . وإذا كان الملاك أنفسهم قد اضطروا إلى ابتياع كل ما يشترونه بأثمان عالية ، فقد اضطروا إلى أن يطلبوا إلى الحكومة أن تتدخل لتثبيت موازنة الأجور . واستجاب المجلس الملكي إلى هذا الطلب بأمر أهم ما جاء فيه :

لما كان قسم كبير من أفراد الشعب وبخاصة طبقة العمال والخدم قد ماتوا أخيراً بسبب الوباء . . . ولما كان الكثيرون يرفضون العمل إلا في نظير أجور باهظة ، بل إن بعضهم يفضلون التوسل والتعطل على العمل لكسب أقواتهم ، فقد نظرنا نحن فيما قد يحدث فيما بعد من اضطراب مخزن من نقص في الأيدي العاملة وبخاصة بين العمال والفلاحين ، وبعد مناقشة هذه المسائل ، اتفقنا مع كبار رجال الدين وأعيان البلاد ، ورجال العلم واستعنا في ذلك بهم وتبادلنا وإياهم المشورة أمرنا بما هوأت :

١ - كل شخص صحيح الجسم تقل سنه عن ستين عاماً ، وليست له

(وسيلة) للعيش ، إذا طلب إليه (شخص آخر أن يعمل) يجب عليه أن يقوم بخدمة من يطلب ذلك إليه ، وإلا زج به في السجن حتى يقدم من يضمن قيامه بالعمل ؛

٢ — إذا غادر الخدمة عامل أو خادم قبل الوقت المتفق عليه ، حكم عليه بالسجن .

٣ — لا يعطى الخدم إلا الأجور القديمة لا أكثر منها .

٤ — إذا تقاضى صانع أو عامل أجراً يزيد على ما كان يتقاضاه عادة زج به في السجن .

٥ — يجب أن تباع مواد الطعام بأسعار معقولة .

٦ — ليس لإنسان أن يعطى شيئاً لمنسول يستطيع العمل ؛

لكن العمال وأصحاب الأعمال أهملوا هذا القرار إهمالاً واسعاً اضطر معه البرلمان أن يصدر (في التاسع من فبراير سنة ١٣٥١) « قانون العمال » الذي ينص على ألا تزيد الأجور على ما كانت عليه في عام ١٣٤٦ ، والذي حدد أثمان عدد كبير من السلع والخدمات وقرر وجوب استخدام الآلات . ثم صدر قانون آخر في عام ١٣٦٠ ينص على جواز ارغام الزراع الذين يتركون الأرض التي تعاقدوا على زراعتها أو استئجارها قبل انتهاء الموعد المحدد للعقود أو الإيجار على العودة إليها ، كما ينص على أن لقضاة الصلح إذا شاءوا أن يسموا هؤلاء المخالفين على جباههم . واتخذت فيما بين عامي ١٣٧٧ ، ١٣٨١ إجراءات أخرى مختلفة في قسوتها ، ولكن الأجور ارتفعت على الرغم من هذه القوانين والقرارات ، غير أن الأحقاد التي ولدتها هذه الأعمال في صدور العمال ورجال الحكم أثارت النزاع بين الطبقات وكانت سلاحاً جديداً في أيدي دعاة الفتنة ؛

وكان للثورة التي تأجج لهبها على أثر هذه الحوادث أكثر من عشرة مصادر ، فقد أخذ الزراع الذين كانوا لا يزالون من أرقاء الأرض يطالبون

بحريتهم ، وطالب المستأجرون بأن يحددوا إيجار الأرض بأربعة بنسات (١,٦٧ دولار) للفدان الواحد في السنة . وكانت بعض البلدان لا تزال خاضعة للسادة الإقطاعيين ، وكانت هذه تنوق إلى أن تتمتع بالحكم الذاتي ، وكان العمال في البيئات المحررة يكرهون الأقلية الغنية من التجار ، كما كان التجار المتقلون يتدمرون من فقرهم وعدم اطمئنانهم على مصادر رزقهم . وكان الزراعة في الريف ، والعمال في المدن ، بل كان قساوسة الابريشيات أنفسهم — كانوا هؤلاء جميعاً ينددون بسوء الحكم في السنين الأخيرة من عهد ادوارد الثالث ، والسنين الأولى من عهد رتشارد الثاني ، ويتساءلون لم توالى الهزائم على الجيوش الإنجليزية بعد عام ١٣٦٩ ، ولم تجن الضرائب الفادحة لتمويل هذه الهزائم نفسها . وكان أشد حقدهم ينصب على سندبرى كبير الأساقفة وعلى روبرت هاليز وهما كبيراً وزراء الملك الشاب وجون جونت ويتهمونهم بأنهم أنصار الفساد والعجز في دوائر الحكومة وأجدر من يجب أن توجه إليهم التهم .

ولم يكن لوعاظ اللولارد (أتباع ويكلف) إلا أقل صلة بهذه الحركة ، ولكن نصيبهم فيها كان هو تهيئة الأذهان للثورة ، فقد كان جون بول زعيمها الفعلى يكرر أقوال ويكلف ويحبذها ، وكان وات تيلر يطالب كما كان يطالب ويكلف بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وكان بول ، « قس كنت المحنون » (كما كان يلقبه فرواسار) ، يعلم الشيوعية للجماعة المصلين معه ، وقد صدر قرار بحرمانه من حظيرة الدين في عام ١٣٦٦ . فأصبح بعدئذ واعظاً جائلاً يندد بالمال الحرام الذى جمعه الأحرار والأعيان ، ويطالب بعودة رجال الدين إلى الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ويسخر من البابوات المتنافسين الذين كانوا بانشقاقهم يقتسمون ثياب المسيح : وتعزو إليه الرواية المتواترة ذلك البيت المشهور :

حيث كان آدم يحفر وكانت حواء تقيس

من كان وقتئذ السيد العظيم

أى حيث كان آدم يحفر الأرض وحواء تعمل على النول ، هل كان فى الجنة أقوام مقسمون طبقات ، وكان فرواسار ينقل الآراء المغزوة إلى بول فى طول يدل على شدة عطفه عليها ، وان كان فى الوقت نفسه محباً لطبقة الأشراف البريطانيين :

أصدقائى الأعزاء إن الأمور لاتستطيع أن تسير فى انجلترا سيراً حسناً حتى يصبح كل شىء مشاعاً ، وحتى لا يكون فى البلاد سادة ولا أتباع ، وحتى لا يكون الملاك سادة إلا بقدر ما نكون نحن ، ألا ما أسوأ ما يعاملوننا به . ولأى سبب يتحكمون فىنا ويسترقوننا هذا الاسترقاق ؟ ألسنا جميعاً أبناء آدم وحواء ؟ وأى شىء يستطيعون أن يظهروه لنا ليسودوا به علينا ؟... لأنهم ليسموننا عبيداً ، وإذا لم نقم بخدمتهم ضربونا بالسياط .. فلنذهب إلى الملك ونحتج إليه ، فهو شاب وفى مقدورنا أن نحصل منه على جواب فيه الخير لنا ، فإذا لم نحصل عليه فلنعمل بأنفسنا لإصلاح أمورنا(*) .

وقبض على « بول » ثلاث مرات وكان فى السجن عندما اندلعت الثورة . وبلغ السخط مداه بضريبة الوؤوس التى فرضت عام ١٣٨٠ ، وأشرفت الحكومة على الإفلاس ، وكادت تخسر جواهر الملك المرهونة ، وألحت الحرب فى فرنسا مطالبة بأموال جديدة . فقرضت على الشعب ضريبة مقدارها ١٠٠,٠٠٠ جنيه تجبى من كل نفس تناهز الخامسة عشرة من العمر . واتحدت عناصر الثورة المفرقة بهذه الضريبة الجديدة . وتنكب آلاف من الناس طريق الحياة ، وكانت حصيلة الضريبة أقل من المطلوب بكثير .. وأرسلت الحكومة مندوبين آخرين للكشف عن الممتنعين عن دفع الضريبة فجمع العامة قواهم متحدين إياهم ، ورجعوا عملاء الملك إلى خارج مدينة برنتود عام (١٣٨١) ، وحدث مثل ذلك فى مدن فوينج

(*) إلى هنا انتهت ترجمة المرحوم الأستاذ محمد بدران . (٧ - ج ١ - مجلد ٦)

دكورنجهام وسنت الينز . وعقدت اجتماعات شعبية للاحتجاج على الضريبة في لندن ، وأرسل المجتمعون إلى الثائرين في الريف يشجعونهم ويدعونهم أن ينضموا إلى الثائرين في العاصمة وبذلك يرغبون الملك على ألا يكون هناك رقيق أرض في إنجلترا .

ولقي فريق من الجبابة عند دخولهم مدينة كنت مقاومة غارمة . وفي السادس من يونية سنة ١٣٨١ ، حطم جماعة من الغوغاء غياهب السجون في دوشستر ، وأطلقوا سراح المسجونين ، ونهبوا القلعة . وانتخب الثوار في اليوم التالي وات تيلر قائداً لهم . ولا يعرف شيء عن ماضيه قبل ذلك ، ومن الواضح أنه كان جندياً مسرحاً ، لأنه نظم الجمع المشتت للقيام بعمل موحد ، واكتسب طاعته السريعة لأوامره .

وفي الثامن من يونية هاجم الجمع الهائج دور المبغضين إليه من الإقطاعيين والمحامين وموظفي الحكومة ، وقد تسلح بالقسي والسهام والحرارات والفؤوس والسيوف ، وتلقى مدداً من المتطوعين من جميع قرى كنت تقريباً . وفي اليوم العاشر من هذا الشهر دخل هذا الجمع مدينة كانتربري فرحب به أهلها ونهب قصر سدبري كبير الأساقفة ، وفتح أبواب السجن ، وانهب دور الأغنياء . وهكذا انضم سكان الجانب الشرقي من كنت بأسره إلى الثورة ، وأخذت المدن تنضوي تحت لواء الثورة ، واحدة بعد أخرى ، وبادر الموظفون المحليون إلى الفرار من وجه العاصفة . . . وبلأ الأغنياء إلى مناطق أخرى من إنجلترا ، أو اختبأوا في أماكن بعيدة عن طريق الثائرين ، أو تجنبوا الأخطار الأخرى بتقديم المساعدة بصورة ما إلى الثورة .

وفي اليوم التالي وجه تيلر جيشه إلى لندن . فلما بلغ مدلستون أفرج عن « جون بول » فانضم إلى فريق الفرسان وأخذ يقدم إليه عظامه كل يوم وقال الآن يبدأ حكم الديمقراطية الذي طالما حلم به ودافع عنه ، وتزول جميع الفوارق الاجتماعية ، ولن يكون هناك بعد الآن أغنياء وفقراء ، إقطاعيون وعبيد ، بل يكون كل إنسان ملكاً في ذاته (٦١) .

ونشبت في الوقت نفسه ثورات مماثلة في نورفولك وسفولك وبيفرلي وبرد جوتر وكبردج واسكس ويدلسكس وستسكس وهرتفورد وسومرست وجز الشعب في يوري سانت ادموند رأس كبير الرهبان وهو الذي حافظ بصلايته على حقول الدير الإقطاعية على المدينة . وقتل المتمردون في كلشستر عدداً من التجار الفلورنسيين ، ظناً منهم أنهم يقطعون الطريق على التجارة البريطانية . وأتلفوا ما وقع تحت أيديهم من الأضابير والعقود أو الوثائق التي تسجل الملكية الإقطاعية أو العبودية ، وهكذا أحرق الأهالي في كبردج ووثائق الجامعة ، وألقوا في مدينة ولدان كل وثيقة في محفوظات الدير طعمة للنيران .

وفي الحادي عشر من يونية أشرف جيش الثوار الذي نصفه من اسكس وهرتفورد على الضواحي الشمالية لمدينة لندن ، وفي الثاني عشر بلغ ثوار كنت مدينة سوزوارك ، على الشاطئ الثاني من التيمز مباشرة . ولم يبدأ أنصار الملك مقاومة منظمة واختبأ رتشارد الثاني وسدبري وهيلز في الحصن . وبعث تيلر إلى الملك يطلب مقابلته ورفض طلبه . وأغلق وليام ولورث عمدة لندن أبواب المدينة ، ولكن الثوار في داخلها أعادوا فتحها . وفي الثالث عشر رحب الشعب بقوات كنت التي دخلت العاصمة فانضم إليها آلاف العمال . وأمسك تيلر بزمام جموعه في حزم ، ولكنه هدا من ثورتها بأن سمح لها أن تحاصر قصر جون اف جوننت . فلم يسرق منه شيء ، وقتلت الجماهير شخصاً من المتمردين حاول أن يسرق كأساً من الفضة . بيد ان كل شيء قد دمر ، وألقي بالآثاث الفاخر من النوافذ ، ومزقت الستائر النفيسة خرقاً ، وسمحت الجواهر سحقاً ، وأنت النيران على القصر كله ، وتناست الجموع بعض المتمردين الذين استبد بهم الطرب وسكروا حتى غابوا عن الوعي في أقبية الخمر فذهبوا طعمة للنيران . ثم تحول الجيش بعد ذلك إلى تمبل ، وهي قلعة رجال القانون في إنجلترا ، وتذكر الفلاحون أن هؤلاء

الفقهاء هم الذين صاغوا صكوك عبوديتهم ، أوصادروا ممتلكاتهم في مقابل الضرائب ، فوضعوا هناك أيضاً محرقة تلتهم الوثائق ، وأشعلوا النيران في المباني حتى أتت عليها . وقوض السجن في نيوجيت كما دمر الأسطول . وانضم المسجونون السعداء إلى الغوغاء ، وألح التعب على الجموع من الجهود المضنية التي بذلتها لتجمع انتقام قرن كامل في يوم واحد فرقدت في ظاه المدينة ونامت .

وفي هذا المساء رأى مجلس الملك أن يسمح له بالحديث مع تيلر وهو خير من الرفض على كل حال . وأرسل دعوة إلى تيلر وأتباعه لمقابلة رتشارد في الصباح التالي في ضاحية شمالية تعرف بـ « مايل اند » . وبعد بزوغ الفجر من اليوم الرابع عشر من يونيو ، ركب الملك ، وكان في الرابعة عشرة من عمره ، إنقاذاً لحياته ، فخرج من القلعة يصحبه جميع مستشاريه ماعدا سديري وهيلز اللذين خافا أن تتعرض حياتهما للخطر . وشقت الجماعة الصغيرة طريقها وسط الجواهر المعادية إلى مايل اند ، حيث تجمع الثائرون من اسكس ، وتبعهم فريق من جيش كنت على رأسه تيلر الذي أدهشه استعداد رتشارد للاستجابة لجميع المطالب . وهي أن تلغى العبودية في كل أنحاء إنجلترا ، وتزول جميع الأعباء والخدمات الاقطاعية ، وتحدد قيمة إيجار العقار كما طلب المؤجرون ، ويعلن عفو عن جميع الذين اشتركوا في الثورة . ويأدر ثلاثون من الكتاب صياغة موثيق الحرية والعفو لجميع المناطق التي ثار أهلوها . بيد أن الملك رفض مطلباً واحداً ، وهو أن يسلم للشعب وزراءه وغيرهم من الخونة . وأجاب رتشارد بأن جميع الأشخاص المتهمين بأساءة استعمال السلطة سيحاكمون طبقاً للإجراءات التي ينظمها القانون ، ويعاقبون إذا ثبت أدانتهم .

ولما لم يقنع تيلر بهذه الإجابة ، ركب في فرقة مختارة من رجاله واتجهوا مسرعين إلى القلعة فوجدوا سديري يرتل القداس في الكنيسة . فسحبوه

إلى الفناء وبسطوه على الأرض ورقبته على كتلة من الخشب . ولم يكن جلاده حاذقاً ، ففصل رأسه عن جسده بثماني ضربات من الفأس . ثم جز المتمردون رأس هيلز واثنين آخرين . وثبتوا على رأس كبير الأساقفة تاجه بمسار نقد من الحمجمة ، ووضعوا الرؤوس على أسنة الرماح ، وماروا بها في أنحاء المدينة ، ثم علقوها على باب جسر لندن وانقضى ما بقي من ذلك النهار في سفك الدماء . وطالب تجار لندن ، الذين أبو المنافسة الفلمنكية الجاهير أن تقتل كل فلمنكي تجده في العاصمة . وكان يقدم إلى المشكوك في جنسيته الخبز والخبز ، ويطلب إليه أن يسميها ، فإن نطق اسميهما بلهجة فلمنكية دفع حياته ثمناً لذلك . وقتل في ذلك اليوم نيف ومائة وخمسون من التجار وأصحاب المصارف الغرباء في مدينة لندن وسقط كثير من رجال القانون الإنجليز ، وجباة الضرائب وأنصار جون أف جونت بضربات الفؤوس في ثورة انتقامية لا تميز بين مذنب وبريء . وقتل الصبيان في مختلف المهن والصناعات معلمهم والمدينون دائنيهم . وحتى إذا جاء منتصف الليل انسحب المنتصرون لينعموا بالراحة مرة أخرى بعد أن أشبعوا شهواتهم .

وأبلغ الملك بهذه الأحداث فعاد أدراجه من مايل اند ، ولم يتجه إلى البرج ، بل إلى جناح والدته بالقرب من كنيسة سانت بول وقفل في الوقت نفسه عدد كبير من فرق اسكس وهرتفورد راجعين إلى ديارهم ، ابتهاجاً بالمواثيق التي سجلت حريتهم . وفي الخامس عشر من يونيو بعث الملك رسالة مهذبة ، إلى فلور الثوار ، يطلب إليهم لقاءه في ظاهر شمنفيلد خارج الدرجيت . ووافق تيلر على ذلك ولما كان رتشارد يخاف على حياته فقد قام بالاعتراف وتناول الأسرار المقدسة قبل الموعد المضروب ، ثم ركب في حاشية تتألف من مائتي رجل أخفوا سيوفهم تحت أرديتهم غير العسكرية ، وتوجه تيلر إلى شمنفيلد ولم يكن معه غير رفيق واحد يحرسه . وتقدم بمطالب جديدة غير معروفة على التحقيق ويبدو أنها كانت تتضمن مصادرة أملاك

الكنيسة وتوزيع دخلها على الشعب . وأعقب ذلك نزاع ، فقد وصف أحد حاشية الملك ، تيلر بأنه لص فأمر تيلر مساعدته ، بقتله فوق العمدة ولورث في الطريق فما كان من تيلر إلا أن طعن ولورث الذي أنقذه الدرع المستور تحت عباءته وطعن ولورث بنخجره تيلر وأنفذ أحد سراة رتشارد سيفه في تيلر مرتين فعاد تيلر إلى رجاله صائحاً بالخيانة ، وسقط ميتاً عند أقدامهم فذهلوا من هذه الخيانة المفصوحة وأعدوا سهامهم وتأهبوا لإطلاقها . ومع أن عددهم كان قد أخذ في النقصان إلا أنهم ظلوا قوة لا يستهان بها وقد أحصاهم فروسافرت بعشرين ألف رجل من المحتمل أنهم كانوا يستطيعون الإحداق بحاشية الملك . ولكن رتشارد خرج إليهم في شجاعة وهو يصيح « أيها السادة ، اتقتلون مليكم ؟ سأكون رئيسكم وقائدكم ، وستنالون مني ما تطلبون . وليس عليكم إلا أن تتبعوني إلى الحقول بعيداً » ومضى غير واثق أوعوا كلامه ؟ أتركونه حياً ؟ وتردد الثوار . ثم اتبعوه واختلط معظم الحرس الملكي بهم .

أما ولورث فقد ركض بفروسه عائداً إلى المدينة ، وأصدر أوامره إلى شيوخ النواحي الأربع والعشرين أن ينضموا إليه بكل القوات المسلحة التي يستطيعون حشدوها . وكان كثيرون من المواطنين الذين عطفوا على الثورة أول الأمر قد أخذوا يحسون القلق من جراء أعمال القتل والتخريب ، وشعر كل امرئ ، يملك عقاراً أن أملاكه وحياته في خطر ، وهكذا وجد العمدة لفوره جيشاً تحت امرته يتألف من سبعة آلاف رجل كأنما انشقت عنهم الأرض . فعاد بهم إلى شمشيلد ، وهناك لحق بالملك وأحاط به ، وعرض عليه أن يعمل السيف في الثائرين . فأبى رتشارد ، فهم الذين وهبوا له الحياة عندما كان تحت رحمتهم ، وهو لا يريد أن يبدو أقل منهم كرماء وقد أعلن إليهم أنهم أصبحوا أحراراً يستطيعون أن يرحلوا بسلام . وسرعان ما انقشع الذين بقوا من ثوار اسكس وهرتفورد ، واختفى عصاة لندن

في ديارهم ، ولم تبق إلا ثلة كنت فاعترض رجال ولورث المسلحون ، طريقهم إلى داخل المدينة ولكن رتشارد أمر أن لا يمسه أحد بسوء ، فتركوا المدينة آمنين ، ثم اضطرب نظامهم ثانية على طول طريق كنت القديم . وعاد الملك إلى والدته ، التي رحبت به ودموع الفرحة بسلامته في عينها . وقالت : « اه ، يا بني الصحيح ، كم تحملت من الألم والعذاب من أجلك اليوم . » فأجاب الصبي : « حقاً يا سيدتي أنني أحس ذلك جيداً ، ولكن عليك الآن أن تبتهجي وتحمدى الله ، لأنني اليوم استعدت ميراثي وكان مفقوداً ، واستعدت ملك إنجلترا أيضاً (٦٣) .

وأصدر رتشارد في اليوم نفسه وهو الخامس عشر من يونية - وربما كان ذلك بتأثير العملة الذي أنقذه - قراراً ، ينفي من لندن ، كل امرئ لم يقض فيها السنة الماضية بأسرها وإلا تعرض للموت صبراً . وأخذ ولورث وجنوده يفتشون في الطرقات والمساكن عن الغرباء ، وقبضوا على كثيرين وقتلوا البعض . . وكان بينهم رجل يدعى جاك ستروا ، اعترف ، تحت وطأة التعذيب من غير شك ، أن رجال كنت رسموا خططهم لينصبوا تيلر ملكاً . وجاء في الوقت نفسه وفد من ثوار اسكس إلى ولتام وطلبوا من الملك تصديقاً رسمياً للوعود التي قطعها على نفسه في الرابع عشر من يونية . فأجاب رتشارد بأن هذه الوعود قد صدرت بالإكراه ، وليس في نيته أن يبقى عليها ، وأخبرهم بنقيض ما توقعوا « لا تزالون أوغادا ، وستظلون أوغاداً » ، وتوعد بالانتقام الرهيب من كل رجل يظل على عصيانه المسلح (٦٤) . ودعا المندوبون الناحيون أتباعهم أن يبعثوا الثورة من جديد ، فاستجاب البعض بيد أن رجال ولورث أبادوهم في مذبحة هائلة في الثامن والعشرين من يونية .

وألغى الملك المغيظ الحاقق في الثاني من يولية جميع المواثيق وعهود الأمان التي أصدرها إبان الثورة ، ومهد الطريق إلى تحقيق قضائي عن هوية

زعماء الفتنة وأعمالهم : فقبض على المئات ، وحوكموا ، وقتل مائة وعشرة أو أكثر . واعتقل جون بول في كفنترى ، فاعترف جريئاً بدوره القيادي في الثورة ، ورفض أن يطلب العفو من الملك : فشنق ، وسُجل ، وقطعت جثته أربعة ، ووضعت رأسه مع رأس تيلر وجاك سترو في مكان رأسى مديري وهيلز لتزين جسر لندن . وفي الثالث عشر من نوفمبر عرض رتشارد على البرلمان تقريراً عن أعماله ، وقال ، إذا كان المجتمعون من الأساقفة والأعيان والعامّة يرغبون في تحرير رقيق الأرض ، فإنه يرغب في ذلك أيضاً . ولكن الأعضاء كان جلهم من أصحاب الأراضي ، الذين لا يستطيعون أن يقبلوا حق الملك في تجريدهم من أملاكهم ، وكانت نتيجة التصويت وجوب الإبقاء على جميع العلاقات الإقطاعية « (٦٥) » وعاد الفلاحون المنهزمون إلى محاريثهم ، والعمال المنحوسون إلى مغازلهم .

٤ - الأدب الجديد

كادت اللغة الإنجليزية تصبح ، بعد أن مرت بمراحل بطيئة ، وسيلة ملائمة للأدب . فقد أوقف الغزو النورمندى عام ١٠٦٦ ، تطور اللغة الانجلوساكسونية إلى الإنجليزية ، وظلت الفرنسية هي اللغة الرسمية للمملكة فترة من الزمان . ونشأت بالتدريج مفردات ولهجة جديدة ، أساسها ألماني ، يخالطها وتزينها كلمات وصيغ غالية . ولعل الحرب الطويلة مع فرنسا قد حفزت الأمة إلى أن تتمرد على السيطرة اللغوية لعدوها : فأعلن عام ١٣٦١ ان الإنجليزية هي لغة القانون والمحاكم ، واستحدث حامل أختام الملك سابقة دستورية عام ١٣٦٣ بافتتاحه البرلمان بخطية إنجليزية . وظل العلماء والمؤرخون والفلاسفة (إلى عهد فرنسيس بيكون) يكتبون باللغة اللاتينية لتصل كتاباتهم إلى قراء من دول مختلفة ، بيد أن الشعراء وموئلي المسرحيات أنشأوا منذ ذلك بلغة انجلترا :

وأقدم مسرحية باقية بالإنجليزية « من مسرحيات الخوارق » — وهي عرض درامى لقصة دينية — أخرجت في مدلاندرز ، حوالى عام ١٣٥٠ بعنوان القضاء على الجحيم ، وقد مثلت مفاخرة بين الشيطان والمسيح عند مدخل الجحيم وأصبح مألوفاً في القرن الرابع عشر بين نقابات كل مدينة أن تعرض حلقة من مسرحيات الخوارق ، بأن تعد النقابة مشهداً ، من الكتاب المقدس عادة ، وتنقل الممثلين والمعدات فى سفينة ، وتؤدى المشاهد على مسارح مؤقتة تشيد فى الساحات الشعبية للمدينة ، وتعرض نقابات أخرى فى الأيام التالية ما يلها من المشاهد من قصص الكتاب المقدس نفسه . وأقدم ما يعرف الآن من هذه الحلقات هى خوارق شستر ، التى مثلت عام ١٣٢٨ ، حتى إذا جاء عام ١٤٠٠ عرضت حلقات مشابهة فى يورك وبيفولى وكبردج وكفنترى وريكفيلد ولندن ولقد أثمرت الخوارق اللاتينية ، فى فترة مبكرة ترجع إلى عام ١١٨٢ ، نوعاً جديداً أطلق عليه « المعجزة » التى تدور حول كرامات بعض القديسين وآلامهم وظهر حوالى عام ١٣٧٨ نوع آخر — هو المسرحية الأخلاقية — يبرز مغزى أخلاقياً ، بتمثيل إحدى الحكايات ، لا بما بلغ هذا القلب ذاته فى مسرحية « كل إنسان » (١٤٨٠) . ونحن نسمع فى فترة مبكرة من القرن الخامس عشر عن قالب مسرحى آخر ، أقدم عهداً بلا شك وهو « الفاصل » ولم يكن تمثيلية بين تمثيلات ، ولكنه كان عرضاً يقوم به ممثلان أو أكثر ولا ينحصر موضوعه فى الدين أو الأخلاق ، وربما كان دينياً مرحاً مسفهاً مفحشاً . ومثلت فرق من المنشدين الجوالين هذه الفواصل فى أهباء قصور الأمراء أو دور النقابات ، وساحات المدن والقرى ، أوفناء إحدى الحانات . وأنشأت اكستر عام ١٣٤٨ أول دار إنجليزية معروفة للتمثيل ، وهى أول مبنى أوربى وقف على العرض المسرحى وخصص له منذ المنشآت الرومانية الكلاسية ولعل الكوميديات قد نشأت عن هذه الفواصل ، أما تراجيديات المسرح الاليزابيثى الحصب فلعلها نشأت عن الخوارق والأخلاقات .

وأول قصيدة عظيمة — وهي من أعجب وأقوى القصائد — في اللغة الإنجليزية هي الموسومة بعنوان «رؤيا وليام المتعلقة ببيتز الحراث» . ولا يعرف عن مؤلفها شيء إلا ما يستشف من قصيدته ، ونحن إذا افترضنا أنها سيرة ذاتية ، فإننا نستطيع أن نسميه وليام لانجلاند ونجعل مولده من عام ١٣٣٢ . ولعله شغل مراتب كنسية دنيا ، ولم يصبح قط قسيساً ، وأخذ يجوب الأنحاء حتى بلغ لندن ، وحصل على الكفاف ، بترتيل المزامير في القداس من أجل الموتى وعاش ماجناً يتأثم بـ «جشع النظرة وشهوانية الجسد» ، وكانت له ابنة ولعله تزوج أمها ، وعاش معها في خص متواضع في كونهيل . ويصف نفسه بأنه طويل ، نحيل ، يرتدى إزاراً قاتماً يناسب حطام آماله الغبراء وشغف بقصيدته التي أصدرها ثلاث مرات (١٣٦٢ ، ١٣٧٧ ، ١٣٩٤) ، وكان يطيل في نسجها كل مرة مثله مثل الشعراء الانجلوسكسونيين ، لا يستعمل القافية ، وإنما يصطنع النظم الذي يجانس أوائل الكلمات مع اضطراب الوزن .

وبدأ بتصوير نفسه وقد غلبه النوم على أحد تلال ما لفرن ، فرأى فيما يرى النائم «حقلاً يعج بالناس» جاهير من الأغنياء والفقراء ومن الأخيار والأشرار ، ومن الصغار والكبار بينهم سيدة جميلة نبيلة يرمز بها إلى الكنيسة المقدسة . وهو يركع أمامها ويسألها «لا أن تمنحني كنزاً من الكنوز ، ولكن خبريني كيف أنقذ روحي» فتجيب :

إذا امتحنت جميع الكنوز ، فالصدق أحسنها . . ومن يصدق بلسانه ، ولا يقول غير الصدق ، ولا يسعى إلى أحد بعمله ، ولا ينوي له الشر بقلبه ، فإنه حري في نظر الإنجيل أن يكون إلهاً . وفي منزلة مولانا (١٧) .

ورأى في منام آخر ، الكبائر السبع ، وآتهم الإنسان في كل واحدة منها باللؤم في سخرية لاذعة : وغلب عليه في فترة من الزمن ، تشاؤم ساخر جعله يتوقع نهاية قريبة للعالم . وإذا ببيتز (بطرس) الحراث يظهر في

القصيدية . وهو فلاح نموذجي أمين ودود كريم يثق به الجميع كادح يخلص لزوجته وأطفاله وهو ابن بار للكنيسة دائماً . ورأى وليام في أحلام تالية نفس الرجل يبرز ، على أنه المسيح المتجسد في صورة البشر ، في صورة بطرس الرسول ، في صورة بابا ، ثم يختفي بانشقاق الكنيسة ومجيئ المسيح الدجال . ويقول الشاعر ، ان رجال الدين ، لم يعودوا الخلف القادر على إنقاذ الأرواح ، فقد فسد معظمهم ، إذ يخدعون البسطاء ، ويغفرون للأغنياء ويتقاضون ثمن غفرانهم ويتجرون في المقدسات ، ويبيعون الجنة نفسها في مقابل فلس واحد . وما الذي يستطيع المسيح أن يفعله في هذه المنحة العامة ؟ يقول وليام ، عليه أن يعود مرة أخرى ، ويتسامى على كل الجماعات الحية المتداخلة على ضروب الفساد ، ويبحث عن المسيح نفسه .

وفي قصيدة بترز الحراث نصيب من الهذو ، أما مجازاتها الغامضة ففيها إملال ، لكل قارئ يدرك أن الوضوح ، مسئولية معنوية ، يجب أن ينهض بها المؤلفون . وهي على ذلك قصيدة صادقة تنكل بالأشعار في غير تعصب ، وتصور المشهد الأنساني تصويراً حقاً ، وترتفع بلسان العاطفة والجمال إلى ذروة لاتضارعها سوى حكايات كاتربري في الأدب الإنجليزي إبان القرن الرابع عشر ، وكان تأثيرها عظيماً ، حتى لقد أصبح بترز بالنسبة إلى ثوار إنجلترا ، رمزاً للفلاح الحرى المستقيم ، ولقد امتدحه جون بول لثوار اسكس عام ١٣٨١ ، وبعث اسمه ، بعد ذلك بكثير في عصر الإصلاح عند نقد النظام الديني القديم والمطالبة بنظام جديد (٦٩) . وختم الشاعر أحلامه بأن تحول من بترز الذي يمثل البابا ، إلى بترز الفلاح مرة أخرى وهو يقول في الختام ، إذا كنا جميعاً مثل بترز فلاحين بسطاء ، نتبع المسيحية فذلك أعظم الثورات وآخرها ، ولن يحتاج العالم إلى غيرها أبداً .

أما جون جور ، فشاعر أقل من لانجلند العجيب ، خيالا وأضعف شخصية : ذلك أنه كان من أصحاب الأراضي الأغنياء في كنت . فامتلاً

ذهنه بالكثير من عناصر التحديق والعلم ، وكان بليد القريجة : فيما أنشأ
بثلاث لغات : وهاجم أيضاً أخطاء رجال الدين ، ولكنه كان يرتعد فرقا
من هرطقة المصلحين الإنجليز الأوائل اللولارد وتعجب من وقاحة الفلاحين
الذين قنعوا يوماً بالقمح والجة ، وإذا بهم يطالبون اليوم باللحم واللبن
والجن . ويقول جور ثلاثة أشياء لا ترحم ، إذالم يكبح جماحها : الماء ،
والنار ، والغوغاء . ألح الضيق بجوير المثالي من هذا العالم فانشغل بالآخرة ،
واعتزل في شيخوخته بصومعة . وانفق السنة الأخيرة من حياته في الصلاة
وكف البصر . ولقد أعجب معاصروه بأخلاقه ، وأسفوا على سلوكه
وأسلوبه ، وتخاصوا منه إلى تشوسر .

٥ - جيوفري تشوسر

١٣٤٠ - ١٤٠٠

كان رجلاً يتدفق فيه دم إنجلترا المبهجة وخرها ، رجلاً قادراً على
أن يطوى في قلبه متاعب الحياة الطبيعية ، وأن يرسم ونحزها في مرح
متسامح ، ويصور جميع مراحل المجتمع الإنجليزي ، بريشة جد عريضة
كريشة هوميروس ، وروح شهوانية كروح رابليه .

وكان اسمه ، كأكثر مفردات لغته ، فرنسي الأصل ، ومعناه الإسكاف ،
وربما كان ينطق شوساير ، وللوراثة مداعباتها لأسمائنا ، وهي إنما تذكرنا
بأن نصوغ أنفسنا طبقاً لهواها . . فهو ابن جون تشوسر ، خمار لندني .
لقد نال حظاً طيباً من العلم بفضل الكتب والحياة معاً ، وينضح شعره
بمعرفة الرجال والنساء من ناحية والأدب والتاريخ من ناحية أخرى .
ولقد سجل اسم « جيوفري تشوسر » رسمياً عام ١٣٥٧ ، ليكون في حاشية
دوق كلارنس المقبل . وبعد ذلك بعامين رحل ليحارب في فرنسا ، وأسر ،
ثم افتداه ادوارد الثالث : ونحن نجد عام ١٣٦٧ أجد الأعيان في مجلس

الملك ، بمعاش مقداره عشرون مارك سنوياً . وكان ادوارد كثير الرحلة مع حاشيته وأغلب الظن أن تشوسر كان يصحبه مستمتعاً بجمال إنجلترا وتزوج عام ١٣٦٦ فيليبيا ، إحدى وصيفات الملكة ، وظل على خلاف معها حتى ماتت واستمر ريتشارد الثاني يجرى عليه معاشاً ، أضاف إليه جون أمير جونت ، عشرة جنيهات كل سنة كما حصل على هبات أخرى من الطبقة العليا وهذا يفسر السبب الذي من أجله لم ينتبه تشوسر إلى الثورة الكبرى مع أنه كان خبيراً بالحياة .

وفي التقاليد الحسنة في تلك الأيام التي كلف الناس فيها بالشعر والفصاحة ، أن يوفد الأدباء في مهام سياسية في الخارج . فانتدب تشوسر مع آخرين للمفاوضة على عقد اتفاقية تجارية في جنوة عام ١٣٧٢ ، كما ذهب عام ١٣٧٨ ، صحبته سيرادوارد بيركلي ، إلى ميلان . ومن يدري لعله لقي هناك بوكاشيو العليل ، أو بترارك الطاعن في السن ؟ ومهما يكن من شيء فقد كانت إيطاليا نقطة تحول في إلهامه . ذلك أنه رأى فيها الثقافة أكثر صقلا وعلما وبراعة من إنجلترا ، وتعلم أن يحتفى بالآداب الكلاسيكية ، وباللاتينية منها على وجه خاص ، وتحول عن التأثير الفرنسي الذي صاغ قصائده الأولى ، إلى الإيطالي في الأفكار ، وقوالب النظم والموضوعات . حتى إذا عاد إلى موطنه ، وإلى مشاهدته وشخصياته ، كان قد أصبح فناناً بارعاً ، ومفكراً ناضجاً .

وما من امرئ في إنجلترا وقت ذاك استطاع أن يكسب عيشه من القريض ، ونحن نعتقد أن معاش تشوسر قد يسر له السكن والغذاء والكساء ، ذلك أن مجموع ما حصل عليه بعد عام ١٣٧٨ ، كان قريباً من عشرة آلاف دولار بالحساب النقدي في أيامنا ، يضاف إلى ذلك المعاش الذي كانت تحصل عليه زوجته من جون أوف جونت ومن الملك . ومهما يكن من شيء فقد أحس تشوسر الحاجة إلى استكمال دخله بالتعيين في مناصب حكومية

مختلفة . فعمل اثنتى عشرة سنة (من عام ١٣٧٤ - ١٣٨٦) « مراقباً للجمارك والمكوس » واتخذ له فى هذه الفترة مسكناً فى قلعة « الدجيت » ودفع فى عام ١٣٨٠ ، مبلغاً لم يذكر مقداره إلى سيسيليا تشومبين لتتنازل عن ادعائها بأنه اغتصبها . وعين بعد ذلك بخمسة أعوام قاضى الصلح لمقاطعة كنت ، وفى عام ١٣٨٦ سعى حتى انتخب فى البرلمان . وكان يقرض شعره فى فترات الراحة من العمل . ووصف نفسه فى قصيدته « دار الشهرة » بأنه يعود متعجلاً إلى بيته « بعد أن يسدد ما عليه ، وينسى نفسه فى كتبه ، ويجلس جامداً كالصخر ، ويعيش كالناسك فى كل شيء إلا الفقر والعفة والطاعة ، ويقف ملكاته على تقفية كتبه وأغانيه وأزاشيده » . ونخبرنا بأنه نظم فى شبابه « كثيراً من الأغاني وقصائد التشيب » . ولقد ترجم كتاب فينوس « عزاء الفلسفة » . فى نثر جيد ، وجزءاً من قصيدة جويوم دولوريس « قصة الورد » فى نظم بارع . وبدأ فيما يمكن أن يسمى المقطعات الشعرية الهامة « دار الشهرة » ، « كتاب الدوقة » ، « برلمان الدجاج » ، « اسطورة النساء الطبيات » ، ولقد سبق وأوضح لنا أنه لم يكن قادراً على إتمامها . وهذه القصائد جهود تنبئ عن طموح وان كانت تقليداً صريحاً للأصول الأوربية فى الموضوع والشكل جميعاً .

ودأب تشوسر على التقليد بل الترجمة فى أحسن قصائده المفردة وهى ترويلوس وكريسيد ، فاستعار من « الفلستراتو » لبوكاشيو ٢٧٣٠ بيتاً وأضاف ٥٦٩٦ بيتاً من مصدر آخر أوصاغها بنفسه . ولم يبذل محاولة ما ليخدع القارى عن هذه الحقيقة ، فهو يذكر مصدره مراراً ويعتذر عن عدم ترجمته بأسره . ويعد هذا التحول من أدب إلى آخر مقبولا ومفيداً فإن الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم لم يكونوا يستطيعون وقت ذاك أن يفهموا غير لهجتهم الخاصة . فموضوع القصة حق مشاع كما اعتقد مؤلفو التمثيليات من الإغريق والإنجليز فى عهد إليزابيث ، والفن إنما يتركز فى الشكل .

وتعد ترويلوس التي نظمها تشوسر على الرغم من جميع هذه النقائص ،
أول قصيدة قصصية عظيمة في اللغة الإنجليزية . ولقد وصفها سكوت بأنها
« طويلة مملة » وأنها كذلك وقال روزيتي « لعلها أجمل قصيدة قصصية على
شيء من الطول في اللغة الإنجليزية » ، وهذا أيضاً صحيح . ذلك لأن
القصائد الطويلة كلها مملة مهما كان جمالها ، فالعاطفة من مقومات الشعر
فإذا استغرقت ٨٣٨٦ بيتاً ، فإنها تصبح نثراً بسرعة انطفاء الرغبة . ولن
تحتاج أي سيدة إلى مثل هذه الأبيات الكثيرة لكي تنام ، ولما تردد الحب
وتأمل وماطل وأذعن بهذه البلاغة الفاخرة ، والأخيلة المطربة ، والقافية
السهلة السلسة .. ولا يضارع هذا النهر العظيم الفياض من النظم سوى ريتشارد
سون في نثره المتدفق كنهر المسيسي في تصوير الحب ، بأناة ، تصويراً نفسياً .
ومع ذلك فإن الخطابية المهنحة في سرف وصياغة الكلمات التي لا تحدد
وسعة المعرفة المعترضة لم تستطع أن تفسد القصيدة . فهي فوق هذا كله حكاية
فلسفية تصور كيف خلقت المرأة للحب ، وسرعان ما تحب شخصاً ثانياً
إذا طالت غيبة الأول عنها . وفيها شخصية واحدة رسمت وكأنها حية تسعى :
بندارس الذي كان في الألياذة قائد جيش ليشيا في طرواده ولكنه يصبح
هنا شخصية مفرطة داهية ديوثا جريئاً يقود العاشقين إلى الخطيئة وحسبنا
هذه الكلمة تعليقاً عليه . أما ترويلوس فهو محارب مشغول بمدافعة اليونان
ويحتقر الرجال الذين يتلكأون على الصدور اللينة ويصبحون عبيد الشهوة ،
وهو يحزن بكريسيديداً من أول نظرة . ولم يفكر بعد ذلك إلا في جمالها
ودلالها ورقتها . وبعد أن انتظرت كريسيديداً في شوق ، مدى ستة آلاف بيت
من الشعر ، من هذا الجندی الحي أن يصرح بحبه ، تقع بين ذراعيه ، وقد
تنفست الصعداء آخيراً الأمر ، وسرعان ما ينسى ترويلوس عالمين في وقت
واحد .

مرت منه جميع الهموم الأخرى .

هموم الحصار وهموم خلاص الروح .

وما ان أجهد تشوسر نفسه في الحصول على هذا الوجد ، حتى يتخطى مسرعاً نعيم العاشقين إلى المأساة التي تنقذ القصيدة من الإملال . فقد هجر والد كريسيد قومه إلى اليونان ، فأرسل الطرواديون وقد لاح عليهم الغضب كريسيد إلى هناك في مقابل الأسير انتينور . وافترق العاشقان البائسان بعد أن قطعاً على نفسيهما العهود بالوفاء إلى الأبد . ولما وصلت كريسيد إلى اليونان منحت إلى دياميدس ، الذي أوقع أسيرته في شركه برجولته ووسامته - فاستسلمت في صحيفة واحدة من القصيدة وهو ما كان قد حشد قبل ذلك في كتاب . وفطن ترويلوس إلى ذلك ، فبادر إلى الحرب باحثاً عن دياميدس وإذا به يلتقي مصرعه برمح اخيل . وختم تشوسر ملحمة الغرامية بابتهاال إلى الثالث المقدس ، بعث بها وقد أنه ضميره « إلى جوور الأخلاق لتصححها بسماحتك » .

وربما يكون قد بدأ « حكايات كانتبرى » عام ١٣٨٧ وكان مشروعاً رائعاً ، أن ينضم إلى جمع مختلف من البريطانيين في حانة تابرد في سوث وارك ، حيث تعاطى شوسر أقداحاً كثيرة من البجعة - ثم يركب معهم في عطله الحج إلى ضريح بكت في كانتبرى ، ويضع على أفواههم الحكايات والأفكار التي جمعها الشاعر من رحلاته طوال نصف قرن . ولقد استعملت هذه الوسائل لجمع القصص بعضها إلى بعض ، قبل ذلك مراراً ، ولكن هذه الوسيلة أحسنها جميعاً . ولقد حشد بوكاشيو في مجموعته « ديكامرون » طبقة واحدة فقط من الرجال والنساء ، ولم يظهرهم شخصيات مختلفة ، أما تشوسر فخلق حانة زاخرة بالشخصيات ، بلغت حداً من الواقعية في عدم التجانس ، حتى بدت أقرب إلى الحياة الإنجليزية من الأعلام التاريخية الحامدة ، إنهم يعيشون ويتحركون كما يتحرك الأحياء بالضبط ، إنهم يحبون ويكرهون ، ويضحكون ويبكون ، ونحن لا نسمع منهم وهم

يجوسون خلال الطريق الحكايات التي يقصونها فقط ، ولكننا نسمع متاعبهم
ومشاجراتهم وفلسفاتهم .

ومن الذى يعترض على ذكر هذه الأبيات المخضلة بنضارة الربيع
مرة أخرى ؟

عندما يحل ابريل بشآيبه
تكون رياح مارس قد نفذت إلى الجذور ،
وغسلت كل كرم برحيق أغصانها ،
وتكون الزهرة هى الفضيلة التى أثمرت ،
وعندما ألهمت الريح القرية بأنفاسها الحلوة .
فى كل حقل وفى كل مرج ، أيضاً
النباتات الندية ، تكون الشمس الفتية
قد سارت نصف مدارها فى برج الحمل ،
فترسل بغاث الطير أنغامها ،
وهى التى أنفقت الليل بطوله مفتوحة الأعين ، ..
ثم يذهب الناس المشوقون إلى الحج ...
إلى الأضرحة البعيدة ، المعروفة فى بقاع شتى ..
وفى سوئورك فى تاباد حيث أقطن
أسعد لأقوم بالحج
إلى كانتربرى بعزم خالص كامل ،
وجاء إلى المنزل فى الليل .
تسعة وعشرون صحبة واحدة ،
من أناس مختلفين ، التقوا بالصدفة
وألفوا زمراً ، وهم جميعاً حجاج ،
يتجهون راكبين إلى كانتربرى

ثم يقدمهم تشوسر الواحد بعد الآخر في رسومه الطريفة من استهلاله
الذى لا يضارع ،

وكان بينهم فارس ، وهو رجل محترم ،
وهو في ذلك الزمان أول من بدأ
الخروج راكباً ، فقد كان يحب الفروسية ،
والصدق ، والشرف ، والحرية والتهذيب . .
وقد خاض المعارك الدامية ،
وحارب من أجل عقيدتنا في ترامسين . . .
ومع أنه كان جديراً بالاحترام ، إلا أنه كان حكيماً ، يشبه في هيئته
العذراء .

ولم يصدر عنه الخبث ولم يقله
في كل حياته ، ولم يعرف عنه خلاق فظ ؟
فلقد كان فارساً كاملاً دقيقاً .

وابن الفارس :

... سيد شاب ،

عاشق ، وأعزب شهوانى . .
وقد توله في عشقه ، حتى أنه في كثير من الليالى .
لا ينام أكثر مما ينام العندليب .

وحارس يخدم الفارس والسيد ، وراهبة بارعة الجمال :
وكانت هناك أيضاً راهبة ، رئيسة راهبات ،
وفى بسمتها البساطة والخفر ،
وقسمها الأعظم هو بالقديس لويس ،
وكانت تدعى مدام اجلتين .
تحسن ترتيل الصلاة ،

مفعمة بانغى الكامل . . .
وكانت جد محسنة رحيمة
تجهش بالبكاء ، إذا رأت فأراً
وقع فى مصيدة ، فأت أو جرح
ولها جراء صغار ، تطعمها
باللحم المقلى أو اللبن وفتات الخبز ،
وتبكي بحرارة إن مات أحدها . .
وتلف معصمها بسوار من المرجان الصغير
وخرزتين مذهبتين ومزخرفتين باللون الأخضر .
ويتلأأ على صدرها دبوس من الذهب ،
منقوش على أوله حرف « ا » متوجا ،
وبعده عبارة « الحب ينتصر على الجميع » .
يضاف إلى هؤلاء راهبة أخرى ، وثلاثة قسس . وناسك مرح « يحب
الصيد » ، وراهب لا يضارع فى إخراج الاكتابات من حوافظ المتقين ،
ومع أنه كان أرمل لا ينتعل حذاءً ،
إلا أنه كان رضىاً فى مبادئه . يستطيع أن يحصل على فلس ، قبل أن
يمضى

ويكلف تشوسر بطالب الفلسفة الشاب أكثر من غيره :
وكان بينهم أيضاً كاتب من اكسفورد ،
قطع فى دراسة المنطق مرحلة طويلة .
وجواده ضامر مثل الكلب الأعرج ،
لقد رأيت غير يدين .
يبدو نحىلاً ، غاية فى التعقل .
تلفه سترة من الخيط ،

فلم يكن يحصل على صدقة من الكنيسة ،
ولم يكن خبيراً بشئون الدنيا ليحصل على وظيفة :
فوضع لنفسه على رأس السرير .
عشرين كتاباً مجلدة بالأسود أو الأحمر ،
عن أرسططاليس وفلسفته .

وهي عنده أفضل من الثياب النفيسة أو القيثارة الطروب . .
وبذل في دراسته فائق عنايته وغاية انتباهه . ولا يلفظ بكلمة لغو .
ولم يكن يسمع إلا متحدثاً عن الفضيلة الأخلاقية . وكان يسره أن يتعلم ،
وأن يعلم :

وهناك أيضاً « زوجة باث » وستحدث عنها بعد قليل ، وراعى كنيسة
فقير « وهو غنى بأفكاره وأعماله الدينية » وفلاح ، وطحان ، على أطراف
أنفه وتقف دونها خصلة من شعر أحمر كالشعر الحشن على أذنى
خنزير ، وأحد زبائن حانة أوزميل ، أو ناظر ضيعة ، أو محضر محكمة :

كان وغدا رقيقاً حنوناً ،

ولا يجد الناس خيراً منه .

وهو يجاهد للحصول على ربع نبيذ ،

وقرينة حسنة تصبح له حظية

اثني عشر شهراً ، ثم تخليه وهي حامل

... ويركب معه بائع غفران طيب . .

وجعبته أمامه على حجره ،

تمتلى إلى حافتها بصكوك غفران لا تزال كلها دافئة من روما ، وكان

هناك تاجر ، ورجل قانون ، وصاحب أعمال ، ونجار ونساج ، وصباغ ،

ومنجد وطباخ وبجار ، وكان هناك جيوفرى تشوسر نفسه ، يقف جانباً

في خجل ، بديناً من العسير احتضانه « ويفحص الأرض بنظراته كأنما

يفتش عن أرنب « ولم يكن مضيفنا أقلهم شأنًا ، وهو صاحب حانة تابارد ، الذى يقسم أنه لم يرفه عن جماعة كبيرة العدد كهذه ، والواقع أنه عرض عليهم أن يذهب معهم وأن يكون دليلهم ، واقترح لكى يقضوا الرحلة الستة والخمسين ميلا ، أن يروى كل حاج قصتين فى الذهاب وأخرين فى الإياب ، وأن من يروى أحسن قصة ، سيتناول العشاء على حساب الجميع ، عندما يعودون إلى الحانة . اتفق الكل على ذلك ، واكمل المشهد المتحرك لهذه الملهاة الإنسانية ، وبدأ الحج ، وروى الفارس المذهب الحكاية الأولى - كيف أن صديقين حميمين بلاجون وارسيت ، رأيا فتاة تجمع الأزهار فى بستان فوق كلاهما فى حبها ، واختصما من أجلها فى مبارزة دامية . . . لتكون المكافأة السنية لمن يتصر منهما .

ومن ذا يصدق أن قلما رومانسياً كهذا ، يستطيع أن يتحول فى بيت واحد ، من إطناب الفروسية إلى الإفحاش فى قصة الطحان ؟ ولكن الطحان كان يحتسى الخمر وتوقع أن عقله ولسانه قد يتفلتان فى شراكمهم المنسوب . ويعتذر تشوسر عنه وعن نفسه - فيجب عليه أن يسجل كل شيء بإخلاص - ويدعو القارئ المتعفف أن يتجاوزها إلى قصة أخرى « فإن هذا يخذش الحياء . . والأخلاق والدين » . وتبدأ حكاية رئيسة الراهبات بنبرة دينية حلوة ، ثم تردد الأسطورة الفاجعة التى تتحدث عن غلام مسيحي ، يقال أن يهودياً ذبحه ، وكيف أن محافظ المدينة قام بواجبه وقبض على يهودها وعذب عدداً منهم حتى ماتوا . وينتقل تشوسر من هذا الورع الدينى فى الاستهلاك ، إلى حكاية تاجر صكوك الغفران . . إلى سخرية لاذعة بباعة متجولين لصكوك الغفران ، وأصبح عمر هذا الموضوع قرناً من الزمان ، عندما أذاعه لوثر فى العالم ، ثم تحول فى الاستهلاك إلى حكاية زوجة باث ، وبلغ شاعرنا الحضيض فى أخلاقياته والذروة فى قوته . إنه احتجاج معربد على العذرية والعزوبة ، أجرى على لسان فاجر مدرب على شئون الزواج ،

لسان امرأة حصلت على خمسة أزواج ، مذ كانت في الثانية عشرة من عمرها ،
ودفنت أربعة منهم ، وتبحث عن السادس ليخفف من سورة شبابها .

لقد دعانا الله إلى أن ننمو ونتكاثر . .

ولم يذكر العدد الذي نبلغه ،

الزواج من اثنين أو ثمانية ،

فلماذا يتحدث المرء عنه بسوء ؟

يا عجباً . . هذا هو الملك الحكيم سيدنا سليمان ،

أحسب أنه اتخذ أكثر من زوجة ،

كما ترك الله الأمر لي

أن أجدد حياتي كالرجل أكثر من مرة . . .

وأأسفا وأسفا أن يعد الحب خطيئة !

ولن نورد هنا اعترافاتها الفسيولوجية ، ولا ما يناظرها من اعتراف
مذكور في حكاية سمنور ، حيث يعكف تشوسر على دراسة تشريح البطن
المتنفخ . ويصبح الجو مهياً عندما نصل إلى جريزelda المطيعة أبداً ، في حكاية
اكسفورد الكهنوتية ، ولم يستطع بوكاشيو أو بترارك أن يرويا هذه الخرافة
التي حلم بها رجل ألح الضيق عليه بنفس الجودة التي رواها بها تشوسر .

ولم يعطنا تشوسر غير ثلاث وعشرين من الحكايات الثمانية والخمسين
التي وعدنا بها في المقدمة ، ولعله شعر مع القارى أن الخمسمائة صحيفة تكفى ،
وأن نبع ابتكاره قد جف . بل إننا نجد في هذا التيار المتدفق فقرات كدرة .
تتجاوزها العين الناقدة . ومهما يكن من شيء فإن التيار البطيء العميق ،
يحملنا على صفحته وينشر جواً من النضارة ، كان الشاعر قد عاش على
طوال الشواطئ الخضراء ، لا عند بوابة لندن - ومع ذلك فليس نهر التاميز
بعيداً عن العين . وتعد بعض الأناشيد من ناحية الجمال الخارجى تمرينات
أدبية جامدة ، ومع ذلك فإن الصورة المتحركة تأتي حية بشعور وحديث

طبيعيين مباشرين ، وقلما توجد مثل هذه الملاحظة الكاشفة السريعة للناس والأخلاق بين دفتي كتاب واحد ، ولن يزودنا غير شكسبير بعد ذلك بمثل هذا الحشد من الصور والتشبيهات والمجازات (ويعتلى بائع صكوك الغفران المنبر ويومئ يميناً وشمالاً بين الجمهور كحمامة على سقف مخزن للحبوب) ولقد أصبحت لهجة شرق مدلاند التي استعملها تشوسر ، لغة انجلترا الأدبية ، وكانت مفرداتها قد كثرت إلى الحد الذي يتيح لها التعبير عن جمال الفكر ومناهجه وهكذا صارت لغة الحديث عند الإنجليز للمرة الأولى وسيلة الفن الأدبي العظيم .

وكانت مادة أدبه ، كما هو الحال عند شكسبير ، مطروقة من قبل . ذلك أن تشوسر استعار قصصه من كل مكان . حكاية الليل من تيسيد لبوكاشيو ، وجريزelda من مجموعة « ديكاميون » ، وأكثر من عشر حكايات من الخرافات الفرنسية . ويفسر المعنى الأخير ما اتسم به تشوسر من فحش ، ومع ذلك ، فإن أنكر قصصه لا يعرف له مصدر غير شخصه . وليس من شك في أنه كان يشارك كتاب المسرح في عهد الزابث ، في الاعتقاد بأن الأشخاص الذين تدور القصة عليهم يجب أن يعطوا جرعة فاجرة بين حين وآخر لكي يظلوا أيقاظاً ، ولقد جعل تشوسر رجاله ونساءه يتكلمون كأنما يناظرون طبقتهم الاجتماعية وأسلوبهم في الحياة ، وهو يكرر ، أنهم أبكثروا من احتساء الجعة الرخيصة . ومرحه في الغالب غير مريض من القلب ، تحفزه الشهوة ، لا بد أن تكون ممثلة حسنة الغذاء لقوم من الإنجليز قبل تزلزل الطهرين ، ولقد مزج هذا المرح مزجاً بارعاً بكل ما في البديهة الإنجليزية الحديثة من حيلة ودهاء .

وكان تشوسر على علم بأخطاء البشر وذنوبهم ، وجرائمهم وحقاقتهم وغرورهم ، ولكنه أحب الحياة على الرغم من هذا كله ، وصبر على كل امرئ لا يسرف في التبعج وقلما يفضح ، وحسبه أن يصف . وأن

يسخر من نساء الطبقة الوسطى الدنيا في حكاية زوجة باث ، ولكنه أعجب بقوتها الحيوية العارمة . وكان قاسياً غير مهذب مع المرأة ، قد تكشف كلماته وانتقاداته اللاذعة عن الزوج الجريح المنتقم بقلمه عن حياء لسانه عن التعبير بالليل . وهو على الرغم من ذلك يتلطف في الحديث عن الحب ، ولا يعرف نعمة أعظم منه ، ويملاً معرضاً كاملاً بصور النساء الطيبات . ولا يعترف بالفضل الذي يركز على الوراثة ، ويرى « ان الفاضل إنما هو الذي يقوم بعمل فاضل » بيد أنه لا يثق في تردد العامة ، والمغفل عنده هو كل من يربط حظه بالشهرة أو يندمج مع الغوغاء .

وكان متحرراً إلى حد كبير من خرافات عصره . فعرض بأدعياء الكيماويين ، ومع أن الدين سردوا حكاياته ذكروا التنجيم ، إلا أن تشوسر نفسه قد استنكره . وكتب إلى ابنه رسالة عن الاسطرلاب ، أظهر فيها دراية حسنة بالمعارف الفلكية الشائعة . ولم يكن عالماً متبحراً ، وان كان شغوفاً بإظهار علمه ، فحشا صفحاته بفقرات من « بيوشوس » بل إنه جعل زوجة « باث » تستشهد « بسينكا » . ويورد مشكلات في الفلسفة وعلوم الدين ، ولكنه يهز كتفيه أمامها عجزاً ولعله شعر ، بما يشعر به الرجل العملي ، بأن الفيلسوف الفطن لا يتوسل في حياته اليومية بمعارفه عما وراء الطبيعة .

أكان مسيحياً مؤمناً ؟ لا يوجد شيء يضارع غلظته وفضاظته في هجائه للرهبان ، في الاستهلال وفي تضاعيف حكاية « سومنور » ، ولكم صوب نفر من المؤمنين المحافظين للإخوان مثل هذه الطعنات . وهو يثير الريب هنا وهناك ، حول بعض العقائد الدينية الجامدة ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من لوثر في التوفيق بين العلم الإلهي السابق وبين إرادة الإنسان الحرة ، وهو يجعل ترويلوس يشرح النظرية الجبرية ، ولكنه يرفضها في الاستهلال له . وهو يؤكد اعتقاده في الجنة والنار ، ولكنه يعلق على ذلك في شيء من الطول ، بأنهما غايتان لا يعود منهما مسافر يشهد على صدق وجودهما .

وكانت الشرور تقلق باله وبخاصة تلك التي لا تنسجم مع القدرة المطلقة
على الخير : ويجعل « اركمسيث » يتساءل عن العدل الإلهي بعبارات جريئة
كعبارات عمر الحيام :

اوه أيتها الربة القاسية ، يا من تحكمين
هذه الدنيا برباط من كلمتك الخالدة ،

وكتبت في لوح قد من صخر

كلامك وعظمتك الخالدة ،

وماذا تكون البشرية في تقديرك

أكثر من خراف تزدحم في حقل ؟

لأن الإنسان يحق عليه الذبح كغيره من الأنعام .

وهو يعيش أيضاً بين السجن والاعتقال ،

ويلم به المرض وتنزل عليه المصائب الكبار .

ولم يقترف ذنباً في كثير من الأحيان ، يؤاخذ عليه .

وأى حكم في العلم السابق ،

بأن الذنب يعذب البراة ؟ .

وعندما يموت الحيوان فإنه لا يحس بالألم ،

ولكن الإنسان بعد أن يموت عليه أن يبكى ويشكو .. وأنا أترك

الجواب عن هذا كله للآلهة .

وحاول تشوسر في سنواته الأخيرة ، أن يعوض التقوى التي أفلتت

منه في شبابه . وألحق بحكايات كانتربرى ، التي لم تتم « صلاة تشوسر » ،

يطلب فيها العفو من الله والناس عن مجونه وانشغاله بغرور الدنيا ، وأوصى

« عندما تحين منيتي انتحبوا على ذنوبي ، واعملوا على انقاذ روحى » .

وتحول في هذه السنوات الأخيرة من الاستمتاع بالحياة إلى كآبة امرئ ،

يسترجع ، وقد اضمحلت صحته وحواسه ، ذكريات شهواته الطائشة

في صباه . وفي عام ١٣٨١ عينه رتشارد الثاني « مسجلاً لأعمالنا في قصرنا بوستمنستر » وغيره من القصور الملكية . ويبدو أن صحته قد ساءت بعد ذلك بعشرة أعوام ، مع أنه كان قد تجاوز الخمسين بقليل ، ومهما يكن من شيء ، فقد أثبتت الأعباء التي نيطت به أنها فوق طاقته ، فصرف عن منصبه . ولم نجده بعد ذلك يشغل وظيفة ما . ونضبت موارده المالية . وهان قدره حتى طلب إلى الملك ستة شلنات وثمانى بنسات (٧٩) . وفي عام ١٣٩٤ منحه رتشارد الثاني معاشاً مقداره عشرون جنيهاً في السنة مدى الحياة . ولم يكن هذا المعاش يكفي ، فطلب إلى الملك أن يمنحه برميلاً كبيراً من الخمر كل سنة ، فأجيب إلى سؤاله عام ١٣٨٩ . ولما حكم عليه بأن يسدد ديناً قدره أربعة عشر جنيهاً عجز عن الدفع (٨٠) . ومات في الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٤٠٠ ، ودفن في بوستمنستر أبي ، وهو أول وأعظم الشعراء الكثرين الذين نهضوا بعد ذلك بنظم الكلام الموزون (*) .

٦ - رتشارد الثاني

« أقسم عليك بالله أن تدعنا نفرش الأرض ونروى القصص الفاجعة عن وفيات الملوك (٨١) .

يقول هولنشد « كان رتشارد الثاني حسن الهيئة والطوية والفطرة ، إذا لم يؤثر فيها لوثم الذين حوله وخبث سيرتهم . . كان متلافاً ، طموحاً ، مستسلماً للذات الجسمية . ولقد أحب الكتب ، وأعان تشوسر وفرواسارت . وأبدى شجاعة وحضور بديهة ، وقام بأعمال حكيمة في الثورة الكبيرة ، ولكنه بعد تلك الأزمة المنهكة ، تورط في ترف منهك ، وترك دفعة الحكم إلى وزراء مبددين ، فقامت في وجهه هولاء الرجال معارضة قوية ، يتزعمها توماس دوق جلوسستر ، ورتشارد إيرل ارونديل وهنري بولنجبروك ،

(*) قد لا يعود دفنه هناك ، إلى شعره ولكنه كان عند وفاته عن مستأجرى عقار أبي .

حفيد ادوارد الثالث . وسيطر هذا الفريق على « برلمان لا يرحم » برلمان عام ١٣٨٨ ، الذى حكم بخيانة عشرة من رجال رتشارد وأعدتهم ، فجمع الملك عام ١٣٩٠ ، وكان لا يزال شاباً فى الثالثة والعشرين ، أزمة الأمور فى يديه ، وحكم البلاد حكماً دستورياً مدى سبع سنوات — أو بعبارة أخرى ، حكم متمشياً مع القوانين ، والتقاليد ، ومنسجماً مع نواب مختارين من الأمة .

وحرّم بموت زوجته الملكة آن البوهيمية الموطن (١٣٩٤) ناصحاً معتدلاً رشيداً وتزوج عام ١٣٩٦ إيزابل ، ابنة شارل السادس ، أملا أن يوطد من وراء ذلك السلام مع فرنسا ، وكانت لا تزال صبية فى السابعة من عمرها ، فأنفق الملك موارده على الحظايا والمقربين من الرجال والنساء وأحضرت الملكة الجديدة معها إلى لندن حاشية فرنسية . وجلب هؤلاء معهم أنماطاً فرنسية من الأخلاق وربما جلبوا أيضاً نظريات فرنسية عن الملكية المطلقة . ولما أرسل برلمان عام ١٣٩٧ إلى رتشارد قراراً بالشكوى من تبذير بلاطه ، أجاب متعظاً أن الحكم فى مثل هذه الأمور ليس من اختصاص البرلمان . وطلب اسم العضو الذى اقترح الشكوى ، فأذعن البرلمان وحكم على صاحب الاقتراح بالإعدام ، ولكن رتشارد عفى عنه .

وسرعان ما ترك جلوسستر واروندل لندن وظن الملك أنهما يتآمران على خلعه ، فأمر باعتقالهما وشنق اروندل ، وقتل جلوسستر خنقاً (١٣٩٧) .

ومات جون أوف جونت عام ١٣٩٩ ، فخلف إقطاعاً عامراً ، فصادر رتشارد أملاكه لحاجته إلى تمويل حملة يوفدها إلى أيرلندا ، فذعرت الطبقة الأرستقراطية من هذا الصنيع . وانتهز ابن دوق جنت ، المنفى المجرى من ميراثه ، فرصة انشغال الملك بإعادة الأمن إلى نصابه فى أيرلنده ، ونزل إلى البر فى يورك على رأس جيش صغير ، سرعان ما زاد عدده ، بانضمام النبلاء الأقوياء له . ووجد رتشارد عند عودته إلى إنجلترا قواته قد نقصت

إلى أقصى حد ، وأصدقاءه يفرون منه خائفين ، فسلم شخصه ومملكه إلى بولنبروك ، الذى توج على عرش إنجلترا باسم هنرى الرابع (١٣٩٩) وهكذا انتهت الأسرة البلانتاجينية التى بدأت بالملك هنرى الثانى عام ١١ ، وبدأت الأسرة اللانكسترية التى تنتهى بالملك هنرى السادس عام ١٤٦١ . ومات رتشارد الثانى سجيناً فى بونيتفراكت (١٤٠٠) ، بالغاً من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة ، وربما كان السبب فى موته أنه أصيب ، كما يذهب إلى ذلك هولنشد وشكسبير ، بنزلة برد فى سجنه ، ولعله قتل غيلة على يد أعوان الملك الجديد .

الفصل الرابع

فرنسا نحاضر

١٣٠٠ - ١٤٦١

١ - المشهد الفرنسى

لم تكن فرنسا عام ١٣٠٠ المملكة العظيمة التى تصل حدودها اليوم من القناة الإنجليزية إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الفوج والألب إلى المحيط الأطلسى . كانت تصل شرقاً إلى نهر الرون فقط . ولقد ضمت فى الجنوب الغربى ، مساحة كبيرة - جوين وجاسكونيا - إلى التاج الإنجليزى بزواج هنرى الثانى من الينور من أسرة اكويتين (١١٥٢) ، وفى الشمال أخذت انجلترا إقليم بونثيو ، ومعه ايفيل ، ومع أن الملوك الإنجليز استولوا على هذه الأراضى باعتبارها إقطاعات ، تابعة للملوك الفرنسيين إلا أنهم فرضوا عليها سيادتهم الكاملة . أما بروفانس والدوفينية والكونتية الحرة فقد كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أباطرتها من الألمان فى العادة . ولقد حكم الملوك الفرنسيون حكماً غير مباشر ، عن طريق أقربائهم الإمارات ، فالوا وأنجو وبوربون وأنجوليم . وحكموا حكماً مباشراً الربع الآتية باعتبارها التزاماً ملكياً ، وهى نورمانديا وبيكاردى وشامباني ، وبواتو وأوفرن ومعظم لانجويدوك ، وجزيرة فرنسا - وهى « الجزيرة » التى على الجانب الشمالى من وسط فرنسا وتركز حول باريس . وكانت أرتوا وبلوا ونيفير ولينوج ، وأرمانياك ووالنتينوا يحكمها سادة إقطاعيون يخضعون لملوك فرنسا خضوعاً اسمياً حيناً ويحاربونهم حيناً آخر . وكانت بريتانى وبرجنديا وفلاندرز إقطاعات فرنسية ، ولكنها كانت كما أسماها شكسبير « أقرب إلى الدوقيات الملكية » ، تتصرف كأنها دول مستقلة فى الواقع . ولم تكن فرنسا قد أصبحت فرنسا بعد .

وكانت أهم الإقطاعات الفرنسية وأكثرها ثقلًا ، في مستهل القرن الرابع عشر ، كونتية فلاندرز . ولم تنافس إيطاليا في تقدمها الاقتصادي في أوروبا بأسرها شمالى جبال الألب ، سوى فلاندرز . وكانت حدودها تتذبذب في غير انتظام في الزمان وفي المكان ، وحسبنا أن نشير إليها ، بأنها الإقليم الذى يضم بروج وجنت وبيروز وكورتراى . وتوجد شرقى شيلد ، دوقية برابانت ، التى كانت تضم وقتذاك انتورب وميشلين (مالين) وبروكسل وتورناى ولوفين . وتقع جنوبى فلاندرز الأسقفيتان المستقلتان : لياج وكامبراى ، وكونتية هانو حول فالنسين . وتضم فلاندرز ومع التوسع برابانت ولييج وكامبراى وهانو . وتقع إلى الشمال سبع مقاطعات صغيرة ، تؤلف تقريباً هولندا كما نعرفها اليوم . ولم تستطع هذه الأقاليم الهولندية أن تبلغ أوجها حتى القرن السابع عشر ، عندما اتسعت إمبراطوريتها ، إذا صح التعبير ، من رمبرانت إلى بتافيا . وكانت فلاندرز وبرابانت عام ١٣٠٠ قد خنقتهما الصناعة والتجارة وحرب الطبقات ووصلت قناة ، طولها اثنا عشر ميلاً بروجيس ببحر الشمال ، تمخرها مائة سفينة كل يوم ، تأتى بالتجارة من مائة ميناء فى ثلاث قارات ، ويعد اينياس سيلفيوس ، مدينة بروجيس ، واحدة من أجمل المدن الثلاث فى العالم . وألف صاغة بروجيس ، فرقة كاملة من حرس المدينة ، ونساجو جنت ، سبعة وعشرين فرقة من قواتها العسكرية ، التى بلغ مجموعها ١٨٩,٠٠٠ رجل .

وكانت المنظمة النقابية فى القرون الوسطى ، وهى التى منحت الصانع كرامة الحرية ، والاعتزاز بالحذق ، تفسح الطريق فى صناعات النسيج والمعادن فى فلاندرز وبرابانت لنظام رأسمالى (*) يمد فيه الممول رأس المال .

(*) نستطيع أن نعرف رأس المال على أنه السلع أو الأموال التى تستخدم فى إنتاج السلع للاستهلاك ونعرف الرأسمالى على أنه الذى يوظف رأس المال أو يقدمه ، والرأسمالية على أنها نظام اقتصادى أو علمية اقتصادية يسيطر عليها الرأسماليون .

والمواد والآلات إلى عمال المصانع الذين يأخذون أجرهم بالقطعة ، ولم تعد النقابة تحميهم وأصبح الالتحاق بالنقابة باهظاً ، وأصبح آلاف العمال رجال تراحيل — عمال اليومية — يتنقلون من بلد إلى آخر ، ومن مصنع إلى مصنع ، ولا يجدون إلا عملاً مؤقتاً ويحصلون على أجور تفرض عليهم العيش في مساكن قذرة . ولا تسمح لهم إلا بالقليل من المتاع لا يتجاوز الملابس التي يرتدونها . وظهرت أفكار شيوعية بين العمال والفلاحين ، وتساءل الفقراء ، لماذا فرض عليهم أن يعيشوا جائعين وصوامع النبلاء ورجال الدين تطفح بالغلال ؟ وحكم على جميع الذين لا يعملون بأيديهم بأنهم من الطفيليين . وشكا أصحاب الأعمال بدورهم ، من الخطر الذي يهدد أموالهم ، ومن عدم الاستقرار في الحصول على مواد الصناعة وموتميتها ، ومن تعرض شحناتهم للغرق ، وتذبذب الأسعار في السوق ، ومن الحيل التي يلجأ إليها المتنافسون ، والإضراب المتكرر الذي يرفع الأجور والأسعار ، واضطربت العملة ، فقلت أرباح رجال الأعمال ، إلى حد العجز عن الوفاء بالديون . وناصر لويس دى نيفير أمير فلاندرز ، أصحاب الأعمال . فثار العامة في بروجرز وبرز يويدهم الفلاحون المجاورون ، وخلعوا لويس ، ونهبوا الكنائس ، وذبحوا نفراً من أصحاب الملايين . فما كان من الكنيسة إلا أن أصدرت قراراً بحرمان المناطق النائرة ، ومع ذلك فقد أرغم الثائرون القساوسة على ترتيل القداس ، وانتحل أحد الزعماء نشيداً يسبق ديدورو بأربعائة وخمسين سنة ، يقسم بأنه لن يقنع حتى يشق آخر قسيس . . واستغاث لويس بمولاه ، ملك فرنسا ، فجاء فيليب السادس ، وهزم القوات النائرة في كاسل (١٣٢٨) ، وشق عمدة بروجرز ، وأعاد المقاطعة ، وجعل فلاندرز تابعة لفرنسا .

وكانت فرنسا على وجه العموم أقل تصنيعاً بكثير من فلاندرز ، وبقيت أغلب صناعاتها في مرحلة العمل اليدوى ، ولكن ليل ودوراي وكبراى وأمين اقتبست صناعة النسيج من المدن الفلمنكية القريبة . وعوقت الطرق

السيئة والمكوث الإقطاعية التجارة الداخلية ، بيد أنها أفادت من القنوات والأنهار التي ألفت شبكة من الطرق الطبيعية الكبيرة عبر فرنسا . وكانت طبقة رجال الأعمال النامية ، المتحالفة مع الملوك ، قد وصلت عام ١٣٠٠ إلى مكانة رفيعة في الدولة ، وإلى درجة من الثراء أذهلت الإقطاعيين ، والنبلاء الفقراء جميعاً . وحكمت قلة من التجار المدن ، وسيطرت على النقابات ، وأمضت في تقييد الإنتاج والتجارة . وحدثت هنا ، كما حدث في فلاندرز ، ثورة كادحين في المدن .

فقد انتفض عام ١٣٠٠ فلاحون فقراء ، عرفوا في التاريخ بالراعة ، واصطخبوا في المدن ، لما حدث عام ١٢٥١ ، وأخذوا يجمعون في انتفاضتهم العمال الكادحين المتمردين . وساروا جنوباً ، يتزعمهم راهب ثائر ، وأغلبهم حفاة عزل من السلاح ، معلنين أن القدس غايتهم . ودفعهم الجوع إلى انتهاب الدكاكين والحقول ، ولما تعرضوا للمقاومة ، استطاعوا أن يحصلوا على الأسلحة ، ويؤلفوا جيشاً . حتى إذا بلغوا باريس حطموا أبواب السجن ، وهزموا قوات الملك . فحبس فيليب الرابع نفسه في اللوفر ، وانسحب النبلاء إلى معاقلهم ، وجبن التجار في دورهم . وواصل الحشد سيره ، وزاد عدد أفرادِه بانضمام المعدمين في العاصمة إليهم ، حتى بلغوا أربعين ألفاً من الرجال والنساء ومن الأوباش والأتقياء . وذبحوا في فردن وأوخ وتولوز جميع من وقع في أيديهم من اليهود . ولما تجمعوا في ايجوز مورت ، على البحر الأبيض المتوسط ، أحرق بهم عمدة كاركاسون بقواته ، وقطع عنهم المؤن ، ولبث كذلك حتى مات جميع الثوار من الجوع أو الوباء ، وشنق القليلين الذين بقوا منهم .

وأى نوع من الحكومة ذلك الذي يترك فرنسا ، تحت رحمة الثروة الجشعة ، والفقر الذي لا يعبأ بقانون ؟ ولقد كانت حكومة فرنسا أقدر حكومة في أوروبا من نواح كثيرة : فإن ملوك القرن الثالث عشر الأقوياء ،

أخضعوا أمراء الإقطاع للدولة . وأنشأوا محكمة وإدارة قويتين ، بموظفين مدنيين مدربين ، واستدعوا للاجتماع في مناسبات مجالس مقاطعات أو مجالس عامة وكانت في الأصل تجمعاً عاماً لأصحاب المقاطعات ، ثم أصبحت مجلساً استشارياً يتألف من مندوبين عن النبلاء ورجال الدين ، والطبقة الوسطى . وأعجبت أوروبا كلها بالبلاط الفرنسي ، حيث اختلط الأمراء والنبلاء والفرسان الأقوياء بالنساء ذوات الأردية الحريرية ، في الحفلات الطريفة ، والمجون الرشيق ، والمبارزات الصاخبة في برجاس لامع ، ببريق الفروسية ، ولقد وصف جون ملك بوهيميا باريس بأنها « أعظم مقر للفروسية في العالم » وجاهر بأنه لا يستطيع أن يعيش خارجها . أما بترارك الذي زارها عام ١٣٣١ فكان وصفه إياها أقل خيالا : قال : « إن باريس مدينة عظيمة من غير شك ولو أنها دائماً أقل من شهرتها ، وتدين كثيراً لأكاذيب أهلها عنها ، والحق أنني لم أشهد مكاناً أقدر منها سوى افينيون . وتضم في الوقت نفسه أعلم الرجال ، وهي كالسلة العظيمة تجمع فيها ، أندر الثمرات في العالم . ولقد مر على الفرنسيين حين من الدهر ، وصفوا فيه بأنهم برابرة لشراستهم . أما الآن ، فقد تغير الحال تماماً . فإنهم يمتازون بمزاج مرح ، وحب للمجتمعات ، وسهولة وتلاعب في الحديث . . . وهم ينتهزون كل فرصة لإظهار امتيازهم ، وشن الحرب على جميع الأعباء بالتندر والضحك ، والغناء والأكل والشراب » .

وخلف ، فيليب الرابع ، لابنه عام ١٣١٤ خزانة خاوية أوتكاد على الرغم من مصادرتة التي تشبه القرصنة لأموال الداوية واليهود ، ومات لويس العاشر بعد حكم قصير (١٣١٦) ولم يخلف وريثاً للعرش ، وإنما خلف زوجة حاملا . وما هي إلا فترة حتى توج أخوه باسم فيليب الخامس . وظهر فريق منافس يطالب بالعرش لابنته لويس جان ، البالغة من العمر أربع سنوات ، ولكن مجلساً من النبلاء ورجال الدين أصدر عام ١٣١٦ (٩)

قراره المشهور الخاص بتوارث العرش وهو « أن القوانين والعادات المرعية بين الفرنج تستبعد البنات من وراثة العرش ». ومات فيليب (١٣٢٢) بلا ولد يخلفه ، فطبقت القاعدة مرة أخرى لتحول بين ابنته وبين ولاية الملك ، ونودي بأخيه ملكاً باسم شارل الرابع . والراجح أن القرار استهدف أيضاً أن يستبعد عن وراثة العرش ايزابل شقيقة فيليب الرابع ، وهي التي تزوجت من إدوارد الثاني ملك إنجلترا ، وأنجبت إدوارد الثالث عام ٣١٢ ، لأن الفرنسيين صمموا على ألا يحكم فرنسا ملك إنجليزي .

ومات شارل الرابع بلا خلف من الذكور (١٣٢٨) فانهت بموته دولة الملوك من أسرة كابيتان وعرض إدوارد الثالث ، الذي اعتلى عرش إنجلترا قبل ذلك بعام ، على مجلس النبلاء في فرنسا ، مطالبته بالعرش الفرنسي ، باعتباره حفيداً لفيليب الرابع ، وأقرب الأعقاب الأحياء لهيوكابت ، فرفض المجلس ، على أساس أن أم إدوارد لا تستطيع أن تنقل إليه تاجاً استبعدت هي نفسها عنه بقرار التوريث الذي صدر عامي ١٣١٦ ، ١٣٢٢ . وفضل البارونات عليه ابن أخ لفيليب الرابع ، وهو الكونت فالوا ، وبذلك يكون فيليب الرابع هو الذي بدأ أسرة فالو المالكة ، التي حكمت فرنسا ، إلى أن استهل هنري الرابع أسرة البربون عام ١٥٨٩ . واعترض على هذا الاختيار إدوارد ، ولكنه جاء إلى « أمين » عام ١٣٢٩ ، وأعلن خضوعه وأقسم بيمين الولاء لفيليب الرابع باعتباره مولاه الإقطاعي على جاسكونيا وجوين وبونثيو . ولما أنضجت إدوارد السنون ، وزاد دهاؤه ، ندم على خضوعه وحلم مرة أخرى بالجلوس على عرشين في وقت واحد . وأكد له مستشاروه ، بأن فيليب الحديد مستضعف ، يدبر وشيكاً للخروج في حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة . وظهر أن الوقت مناسب للبدء في حرب المائة عام .

٢ - الطريق إلى كريسي

١٣٣٧ - ١٣٤٧

وطالب إدوارد عام ١٣٣٧ رسمياً من جديد بالعرش وكان رفض طلبه السبب المباشر للحرب . وأصبحت نورمانديا ، بعد فتحها إنجلترا تابعة

للملوك الإنجليز ، 'مائة وثمانية وثلاثين عاماً ، وأعاد فيليب الثاني فتحها باسم فرنسا (١٢٠٤) ورأى كثير من النبلاء الإنجليز ، الذين انحدروا من أصل نورماندى ، فى الحرب المقبلة محاولة لاستعادة موطنهم الأصلي واقتطع فيليب الرابع وشارل الرابع جزءاً من مقاطعة جوين الإنجليزية التى كانت عامرة بالكروم ، وكانت تجارة النبيذ فى بورديو مورداً ثميناً لانجلترا حتى مات فى الدفاع عنها إلى حين عشرة آلاف إنجليزى . أما اسكتلندا فكانت شوكة فى جنب انجلترا ، وتحالف الفرنسيون مراراً معها فى حروبها مع انجلترا . وكان بحر الشمال عامراً بالسماك ، فادعى الأسطول الإنجليزى السيادة على هذه المياه فى القناة وخليج بسكاي واستولى على السفن الفرنسية التى سولت لنفسها أن تسخر من هذا الادعاء الأول بالسيادة الإنجليزية على البحار . وكانت فلاندرز منفذاً حيوياً للصوف البريطانى ، وأنف النبلاء الإنجليز الذين يجز الصوف من أغنامهم والتجار الذين يصدرون هذا الصوف ، أن تعتمد سوقهم الأساسية على النية الطيبة لملك فرنسا .

وأمر كونت فلاندرز عام ١٣٣٦ بحبس جميع البريطانيين هناك ، ويبدو أن فيليب السادس أيد هذا العمل وقاية من الدسائس الإنجليزية . فرد إدوارد الثالث على ذلك بأن أمر بالقبض على جميع الفلمنكيين فى انجلترا . وتحريم تصدير الصوف إلى فلاندرز وما هو إلا أسبوع حتى توقفت المغازل الفلمنكية لافتقارها إلى المادة الخام ، وتزاحم العمال فى الطرقات مطالبين بالعمل . واتحد العمال اليدويون والآليون فى جنت معلنين خروجهم عن طاعة الكونت ، وانتخبوا متآمراً دعياً هو جاكوب فان ارتفيلد حاكماً على المدينة ، وأيدوا سياسته التى تنشذ صداقة إنجلترا وصوفها (١٣٣٧) فألغى إدوارد الحظر ، وفر الكونت إلى باريس ، وأقر أهل فلاندرز جميعاً ديكتاتورية أرتفيلد ووافقوا على الانضمام إلى إنجلترا فى حربها مع فرنسا . وفى أول نوفمبر عام ١٣٣٧ سار إدوارد الثالث على تقاليد الفروسية

وأرسل إلى فيليب السادس إعلاناً رسمياً بأن إنجلترا ستشرع في الحرب بعد ثلاثة أيام .

وكان أول لقاء له أهميته في حرب المائة سنة ، معركة بحرية في سلويز بعيداً عن الساحل الفلمنكى (١٣٤٠) ، حطم فيها الأسطول الإنجليزي مائة واثنتين وأربعين سفينة من المائة والاثنتين والسبعين التى تؤلف الأسطول الفرنسى ثم تركت فى العام نفسه جان أميرة فالوا أخت فيليب وحماة إدوارد ، ديرها فى فونتنل ، وألحت على الملك الفرنسى أن يوفدها رسول سلام . فتعرضت فى طريقها إلى معسكر القادة الإنجليزي لأخطار كثيرة ، فوافقوها على عقد مؤتمر وأقنع توسطها البطولى الملكين بأن يعقدا هدنة لمدة تسعة أشهر . وساد السلام بفضل الجهود التى بذلها البابا كليمنت السادس إلى عام ١٣٤٦ . ولكن حرب الطبقات احتلت المسرح فى فترة الصفاء هذه . وكان النساجون المنظمون فى جنت يوفون أرسقراطية العمل فى الأراضى الواطئة . ورفضوا الخضوع لأرتفيلد باعتباره طاغية قاسياً ، ومبدداً للأموال العامة ، وأداة طيبة فى يد إنجلترا والبورجوازية . واقترح أرتفيلد أن تنادى فلاندرز بأمر ويلز حاكماً عليها فجاء إدوارد الثالث إلى سلويز تأكيداً للاتفاق . حتى إذا رجع أرتفيلد من سلويز إلى جنت وجد داره محاطة بجمهور ساخط ودافع عن حياته مؤكداً أنه وطنى فلمنكى أصيل ، ولكنه سئل وضرب إلى أن فاضت روحه (١٣٤٥) . وأنشأ النساجون ديكتاتورية عمالية فى جنت ، وبعثوا مندوبين عنهم فى أنحاء فلاندرز يدعون العمال للثورة . فاشتبك القصارون مع النساجين وأجلوهم عن الحكم وقتل كثير منهم ، وضاق الشعب بالحكومة الجديدة وبسط لويس دى ميل ، وكان قد أصبح كونت فلاندرز ، سلطانه على جميع مدنها .

وما أن انتهت الهدنة ، حتى غزا إدوارد الثالث نورمانديا واجتاحها . وفى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٣٤٦ ، التقى الجيشان : الإنجليزي

والفرنسي ، وتأهباً للمعركة الفاصلة . واستمع القادة والرجال من الجانبين إلى القداس ، وأكلوا جسم المسيح(*) وشربوا دمه وطلبوا معونة في إجهاد أحدهما على الآخر . ثم تحاربا في شجاعة ووحشية بلا هوادة . واكتسب إدوارد ، الأمير الأسود ، في ذلك اليوم ثناء والده المنتصر ، وصمد فليب السادس في حومة الوغى ، حتى لم يبق من رجاله إلا ستة جنود . وهلك في تلك المعركة الواحدة ، ثلاثون ألف رجل ، كما ذهب إلى ذلك فرواسار في تقديره غير الدقيق . وأشرف الإقطاع على الموت هناك أيضاً : فوقف فرسان فرنسا الراكبون ، المسلحون في رشاقة بالحرايب القصار ، بلا حول ولا قوة ، أمام حائط من الرماح الإنجليزية الطوال المصوبة إلى صدور أفراسهم ، بينما نشر حملة القسى من الإنجليز عند الجناحين ، الموت بين الفرسان الفرنسيين . وكادت شمس الفروسية تأفل في يوم الحصاد الطويل الذي تنفس فجره قبل ذلك في ادريانوبل بتسعمائة وثمانى وستين سنة ، وجاءت المشاة إلى المقدمة ، وضعفت سيادة العسكرية الأرستقراطية . واستعملت المدفعية في كرسى على نطاق ضيق ، وجعلتها صعوبة النقل وحاجتها إلى إعادة التعمير أكثر مشقة وأقل جدوى ، ولذلك قصر فلانى فائدتها على صخبها(**).

وقاد إدوارد جيشه من كريسى إلى حصار كاليه ، واستخدم المدفع في تحطيم الأسوار (١٣٤٧) . وصمدت المدينة عاماً كاملاً ، حتى ألحت المجاعة عليها ، فأذعنت لشرط إدوارد ، وهو أن يخرج الباقون على قيد الحياة بسلام ، إذا توجه ستة من أعيان المدينة إليه ، والحبال حول أعناقهم ، وفي أيديهم مفاتيح المدينة . وتطوع ستة منهم بالفعل ولما مثلوا أمام الملك ، أمر بشنقهم . فجئت ملكة إنجلترا أمامه ، تتوسل الإبقاء على حياتهم ، فاستجاب لها ، وأرسلت الرجال مخفورين إلى دورهم بسلام . وللنساء

(*) كناية عن القربان .

(**) كانت المدفعية قد بلغت قرناً من الزمان ، ذلك لأن المدافعين البربر استعملوا المدافع

في سبيلها عام ١٣٤٧

في التاريخ فضل أعظم من الملوك وهن يخضعن بشجاعة معركة يائسة لتحويل الرجال من جفوة التوحش إلى صقل الحضارة .

وهكذا أصبحت كاليه ، جزءاً من إنجلترا ، ولبثت إلى عام ١٥٥٨ ، منفذاً استراتيجياً لبضائعها وجيوشها على القارة . وثارَت عام ١٣٤٨ ، فحاصرها ادوارد مرة أخرى وحارب بنفسه متكرراً في المعركة . واستطاع فارس فرنسي ، اسمه أوستاس دي ريومونت ، أن يطعن إدوارد مرتين ، ولكنه غلب على أمره وأسر ، ولما استعاد إدوارد المدينة دعا أسراه النبلاء إلى الغداء ، ووقف اللوردات الإنجليز وأمير ويلز على خدمتهم ، وقال ادوارد للفارس الذي طعنه ريومونت « ياسير أوستاس ، إنك أشجع فارس رأيته في العالم المسيحي يهاجم عدوه . . ولذلك فأنا أمنحك تقدير الشجاعة وأجعلك فوق جميع رجال بلاطى » . ونزع الملك الإنجليزي عن رأسه إكليلاً نفيساً ووضع على رأس الفارس الفرنسي ، قائلاً :

« أيها السيد أوستاس ، إننى أهديك هذا الإكليل . . وأرجوك أن تضعه على رأسك هذا العام في محبتي . وإنى لأعلم أنك مقبل على الحياة ، نزع إلى الغزل ، مغرم بصحبة السيدات والآ نسات ، ولذلك قل ، أينما ذهبت ، إننى أعطيتك إياه . وأنا أمنحك حريتك أيضاً بلا فدية ، ولك أن تذهب حيث شئت » .

وعاشت الفروسية هنا وهناك ، بين الجشع والقتل ، واقتربت وكادت أساطير آرثر تشبه التاريخ الحى على صفحات فرواسارت .

٣ - الموت الأسود وغيره

١٣٤٨ - ١٣٤٩

لقد كان الطاعون العظيم محايداً حين دهم إنجلترا العامرة بالغنائم الفرنسية وفرنسا التي أصابها الهزيمة بالحرب . ووباء الطاعون حدث مألوف في تاريخ العصور الوسطى ، فلقد أزعج أوروبا اثنتين وثلاثين سنة من القرن

الرابع عشر ، وإحدى وأربعون سنة من الخامس عشر ، وثلاثين سنة من السادس عشر ، وهكذا تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان ، هذان وهما عاملان ثابتان متوسيان من ناحية ، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى ، على الحد من استغراق الإنسان في الذل . وكان الموت الأسود شر هذه النوازل ، ولعله أنوح ملمة طبيعية تعرض لها الإنسان في عصور التاريخ . ولقد وفد على برفانس وفرنسا من إيطاليا ، ولعله جاء مباشرة من الشرق الأدنى بوساطة البحرذان الشرقية التي ترسى على مارسيليا . وذهبت رواية ، غير محققة في ناربون ، إلى أن ثلاثين ألف شخص ماتوا في هذا الوباء ، وفي باريس خمسين ألفاً وفي أوروبا خمسة وعشرين مليوناً ، وربما كان المجموع « ربع سكان العالم المتحضر » وعجزت مهنة الطب أمامه ، فلم تكن تعلم سبب المرض (ولقد اكتشف كيتا زاتو ، برسن ، باسيليات الطاعون الدملي عام ١٨٩٤) ، وكل ما كانت توصي به هو ، المعضدات ، ومطهرات الجوف ، والمنعشات ، ونظافة المسكن والجسم ، والتبخير ببخار الخل^(٧) . ورفض عدد قليل من الأطباء والقساوسة علاج المرضى ، خوفاً من العدوى ، ولكن أكثرهم واجهوا المحنة برجولة ، وضحي آلاف من الأطباء ورجال الدين بحياتهم . وكان على قيد الحياة ثمانية وعشرون كاردينالاً عام ١٣٤٨ توفي منهم تسعة بعد ذلك بعام واحد ، ومن الثمانية والأربعين رئيساً للأساقفة ، مات خمسة وعشرون ، ومن الخمسة والسبعين والثلاثمائة أسقف مات سبعة ومائتان .

وكان للوباء آثاره على جميع نواحي الحياة وطبيعي أن يموت الفقراء ، بنسبة أكبر من الأغنياء ، فأدى ذلك إلى نقص في العمال ، وهجرت آلاف الأفدنة بلا فلاح ، ونفقت ملايين الأنعام . واكتسب العمال قدرة جديدة على المساومة إلى حين ، فرفعوا أجورهم ، ونفضوا عن كواهلهم كثيراً

من الأعباء الإقطاعية ، وقاموا بثورات جعلت النبلاء ، لا يستطيعون النيل منهم مدى نصف قرن ، بل أضرب القسس أنفسهم ، من أجل زيادة رواتبهم . وهجر عبيد الأرض ، المزارع إلى المدن ، واتسعت الصناعة ، وحصلت طبقة رجال الأعمال على مغام جديدة من الأرستقراطية التي تملك الأرض . ونالت الصحة العامة قسطاً من الإصلاح المعتدل . وأضعفت شدة الألم والمأساة عقول الكثيرين ، فأدت إلى أمراض عصبية معدية ، ويبدو أن جماعات بأسرها قد جُنَّت مثل « الفلاجلان » الذين ساروا عام ١٣٤٩ ، كما فعلوا في القرن الثالث عشر ، في طرقات المدينة عراة أو يكادون ، يضربون أنفسهم في ندم ، ويعظون بيوم الحساب ، والمدن الفاضلة ، ويدعون إلى ذبح اليهود . واستمع الناس بانتباه أكثر من المؤلف إلى قراء الأفكار ، ومفسري الأحلام ، والعرافين ، والدجالين وغيرهم من المشعوذين . وضعفت العقيدة الصحيحة وانتشرت الخرافة . وأرجع حدوث الطاعون إلى أسباب عجيبة . فنسبه بعضهم إلى اتصال في غير أوانه بين زحل والمشتري والمريخ ، وآخرون إلى تسميم المجذومين أو اليهود للآبار . فقتل اليهود في حوالي خمسين مدينة ، تمتد من بروكسل إلى برسلو بين عامي ١٣٤٨ - ١٣٤٩ ، وكاد يقضى على النظام الاجتماعي ، بموت آلاف من رجال الشرطة ، والقضاة وموظفي الحكومة ، والأساقفة والقسس . بل إن صناعة الحرب قد تعرضت للاضمحلال ، وتلكأت حرب المائة عام ، بين حصار كاليه ومعركة بواتييه (١٣٥٦) في هدنة متراخية ، بينما عوض النقص الهائل في صفوف المشاة ، برجال بلغ منهم الفقر مبلغاً ، جعلهم يرون الحياة تفضل الموت ببضعة ثلنات !

وتأسى فيليب السادس ، عن الطاعون والهزيمة ، بالزواج ، وهو في السادسة والخمسين ، من بلانش أميرة نافار ، البالغة من العمر ثمانى عشرة سنة ، وهي التي كان ينوى خطبتها لابنه . وتوفى بعد ذلك بسبعة

أشهر فقط . وكان هذا الابن ، جون الثانى « الطيب » (١٣٥٠ - ١٣٦٤) ، طيباً حتماً مع النبلاء ، أعفاهم من الضرائب ، ومنحهم الأموال ليصدوا الإنجليز عن أرضهم ، وأبقى على أشكال الفروسية ومزاياها جميعاً وخفض سعر العملة ، كوسيلة قديمة ، للوفاء بديون الحرب ، وزاد الضرائب مراراً ، على الطبقتين الدنيا والوسطى ، وسار فى أبهة ليلتى بالإنجليز عند بواتيه . وهناك أبيد رجاله الخمسة عشر ألفاً من الفرسان والاسكتلنديين ، والحشم وذبحوا وأسروا ، على يد سبعة آلاف من رجال الأمير الأسود ، بل إن الملك جون نفسه ، الذى حارب بعنف ، وقاد جيشه بحماسة ، كان بين الأسرى هو وابنه فيليب ، وسبعة عشر إيرل ، وعدد لا يحصى من البارونات ، والفرسان ، والأعيان . وسمح لمعظمهم أن يفتدوا أنفسهم على الفور ، وأطلق سراح كثيرين ، بعد أن وعدوا بإحضار الفدية إلى بوردو فى عيد الميلاد وعامل الأمير الأسود الملك بما يليق بمقامه من إجلال ، واصططحبه على أكف الراحة إلى إنجلترا .

٤ - الثورة والتجديد

١٣٥٧ - ١٣٨٠

أصبحت فرنسا كلها بالفوضى بعد محنة بواتيه . وكان من نتائج عدم النزاهة والكفاءة فى الحكومة ، ونقص سعر العملة إلى حد كبير ، والمبالغ الباهظة التى دفعت فدية للملك والفرسان ، والخراب الذى جره الحرب والطاعون ، والضرائب غير المشجعة التى فرضت على الزراعة والصناعة والتجارة ، أن قامت الأمة بثورة يائسة . ودعا ولى العهد دوفان(*) وهو

(*) يبدو أنه كان فى أول الأمر اسم علم ، دلفينوس (دلفان) ، ولما تكرر فى أسماء الأسرة المالكة غالباً فى فينا وأوفرن أصبح (١٢٥٠) من ألقاب التشريف ، وخلع رسمياً عام ١٢٨٥ ، على الابن الأكبر لكونت فينا ، ومن ثم استعمل دلفيناتوس أودوفيني للدلالة على الكونتية التى تتخذ جرينوبل الآن مقراً أساسياً وفى عام ١٣٤٩ باع الكونت مبولت الثانى صاحب فينوا ، الدوفينية بلقبها دوفان إلى شارل صاحب فالوا ، ابن الملك جون الثانى . ولما أصبح شارل ملكاً عام ١٣٦٤ ، نقل اللقب إلى ابنه الأكبر ، وعرف منذ ذلك الابن الأكبر للملك الفرنسى بدوفان فينوا .

شارل صاحب قالوا البالغ من العمر تسع عشرة سنة ، مجلس الطبقات للولايات الشمالية إلى الانعقاد في باريس . وذلك ليفرض ضرائب جديدة ، فأخذ على عاتقه أن ينشئ حكومة برلمانية في فرنسا . وكان لباريس وغيرها من المدن برلمانات منذ عهد طويل ، ولكنها كانت جماعات صغيرة معينة ، معظمها من رجال القضاء عادة ، ومهمتها محصورة في الاستشارة القانونية للحاكم المحلي أو الملك ، وتسجيل مراسيمه باعتبارها جزءاً من القانون الفرنسي . واستجوب هذا المجلس ، الذي سيطر عليه تحالف مؤقت بين رجال الدين والبورجوازية ، مجلس البلاط ، لماذا أدت المبالغ الكبيرة التي جمعت للحروب ، إلى وجود فرق غير منظمة وهزيمة منكرة ، وأمر باعتقال اثنين وعشرين من عملاء الحكومة ، كما أمر مديري الخزنة أن يعيدوا المبالغ التي اتهموا باختلاسها . وفرض قيوداً على امتيازات التاج ، بل إنه فكر في خلع جون الطيب ، وإبعاد أبنائه عن ولاية العهد ، وإسناد عرش فرنسا لى الملك شارل السيئ صاحب نافر ، وهو من أعقاب هيو كابت . بيد أن المجلس تأثر من خضوع ولي العهد وحكمته ، ونادى به نائباً للملك ، وأجمعوا رأيهم على إعطائه نفقات ، ثلاثين ألف رجل مدججين بالسلاح ، ولكن المجلس طالبه في الوقت نفسه أن يطرد الموظفين الفاسدين أو الجهلاء ، وحذره من العبث بسعر العملة ، وعين لجنة من ستة وثلاثين رجلاً للرقابة على أعمال الحكومة ونفقاتها . وأدان القضاة لإسرافهم على حاشيتهم ، وتراخيهم في العمل ، فقد كان تقويمهم القضائي متأخراً عشرين سنة ، وفرض عليهم أن يفتتحوا جلساتهم عند شروق الشمس . في نفس الوقت الذي يبادر فيه المواطنون الأثماء بالذهاب إلى محال أعمالهم ، أو حقولهم . وهذا « القانون العظيم » الذي صدر عام ١٣٥٧ ، حرم على النبلاء أيضاً مغادرة فرنسا ، وأوشن حرب خاصة بهم ، ووجه تعليماته إلى السلطات المحلية للمدن ، أن تعتقل كل نبيل ، يخرج على هذا المرسوم . وتصبح

الأرستقراطية بتنفيذه خاضعة للعامة ، والنبلاء لطبقة رجال الأعمال وعلى الملك والأمير والبارون أن يطيعوا المندوبين الذين اختارهم الشعب . وكأنه قد قدر لفرنسا أن تحصل على حكومة دستورية ، قبل الثورة بأربعة قرون .

ووقع ولي العهد هذا القانون في شهر مارس ولكنه بدأ يتملص منه في أبريل . وطالب الإنجليز بفدية عن أبيه ، يؤدي الوفاء بها إلى الخراب ، وتوعدوا بالتقدم إلى باريس . وتباطأ الناس في دفع الضرائب ، متذرعين بالقاعدة الجديدة التي تقول أنه لا يفرضها غير مجلس الطبقات . وألحت الحاجة الماسة إلى المبادرة بالدفع ، ودعا شارل هذا المجلس إلى الاجتماع ثانية في أول فبراير عام ١٣٥٨ ، وأنقص في الوقت نفسه سعر العملة ليزيد موره . وكان لاتين مارسل ، التاجر الغني ، شأن عظيم في الثاني من فبراير إذ أسهم بنصيب كبير ، باعتباره رئيساً لنقابة التجار في صياغة « القانون العظيم » وأتيح له أن يحكم باريس لمدة سنة ، فقاد فرقة مسلحة من المواطنين — يرتدون جميعاً قبعات بلوئي المدينة الرسميين ، الأزرق والأحمر — إلى القصر الملكي وأنب شارل على عدم طاعته لأوامر « القانون العظيم » ولما لم يعلن الأمير طاعته ، دفع مارسيل رجاله ، فقتلوا اثنين من الحجاب اللذين كانا يحرسان ولي العهد ، حتى انتشرت دماؤهما على الرداء الملكي .

وأخذ مجلس الطبقات يثير الفرع بهذا العنف الجريء ، ومهما يكن من شيء فقد سبق الثورة الفرنسية بأن سن قانوناً (مايو عام ١٣٥٨) يحصر مهمة التشريع لفرنسا في هذا المجلس ، ويفرض على الملك ألا يتصرف في الأمور الهامة إلا بموافقة الولايات ، ففر عدد كبير من النبلاء ورجال الدين من فرنسا ، وترك كثيرون من الموظفين الإداريين مناصبهم خوفاً على حياتهم . فما كان من مارسيل إلا أن عين مكانهم جماعة من الأهالي ، وحاول تجار باريس أن يحكموا فرنسا فترة من الزمان . والتجأ ولي العهد مع النبلاء إلى بيكاردي ، وألف جيشاً ، ونادى أهل باريس ، أن يسلموا

إليه زعماء الثورة ، وأعد مارسيل العاصمة للدفاع ، وأحاطها بأسوار جديدة ، واحتل اللوفر ، وكان وقتذاك مقر الملك ورمزه .

وفي الوقت الذي احتلت فيه الثورة مدينة باريس ، رأى الفلاحون في الريف ، أن الفرصة مواتية ، للثأر من سادتهم . وكان معظمهم عبيد أرض ، تفرض عليهم الضرائب لينعم سادتهم بأسباب الترف ولدفع الفدية عنهم ، وينتهبهم الجند وقطاع الطريق ، ويعذبون ليكشفوا عن مدخراتهم . ولما أهلك الطاعون عدداً عظيماً منهم ، وعرضتهم الحروب للمجاعة ، ثاروا في عنف لا حد له ، وشقوا طريقهم في قلاع الإقطاع ، ودقوا أعناق النبلاء التي وصلت إليها خناجرهم ، ووجدوا الخلاص من جوعهم وظمئهم في مخازنهم وأقبيةهم . وكان النبلاء يطلقون على مثال الفلاح الطيب القلب التقليدي « جاك المغفل » ، ونفذ صبر آلاف من هؤلاء ، فاندفعوا في أعمال وحشية ، وذبحوا سادتهم ، واغتصبوا السيدات ، وقتلوا الذراري ، وألبسوا زوجاتهم حلى اللائي توفين .

وأرسل مارسيل ثمانمائة من رجاله لمعاونة الفلاحين أملاً أن تصرف هذه الثورة الريفية ولي العهد عن مهاجمة باريس . واشتد ساعدهم ، وساروا إلى ميوكس التي التجأ إليها أميرات أورليان ونورمانديا ، وكثيرات من سيدات الطبقة الراقية ، فشاهدن حشداً من عبيد الأرض والمستأجرين يتدفق على المدينة ، واستسلمن ، معتقدات أنهم فقدن الشرف والحياة . وإذا بفرقة من الفرسان كأنها المعجزة في بعض أساطير أرثر ، تدخل ميوكس عائدة من الحروب الصليبية وتباغت الفلاحين ، وتحصد آلافاً منهم ، وتلقى بهم أكواماً في الجداول المجاورة فخرج النبلاء من مخابثهم ، وفرضوا الغرامات على القرى عقاباً لها . وساروا في أنحاء الريف ، وأعملوا القتل في عشرين ألف فلاح ، ولم يفرقوا بين ثائر وبريء (يونيه ١٣٥٨) . واقتربت قوات ولي العهد من باريس ، وقطعت عنها المؤن ، ويثن

مارسيل من المقاومة بجميع الوسائل ، فأهدى التاج إلى شارل السي ،
ومهد لرجاله دخول المدينة وأنكر جان مايلادن ، صديق مارسيل وبده
المنى ، هذا الصنيع وعده خيانة ، فعقد اتفاقاً سرياً مع ولى العهد ، وفى
الواحد والثلاثين من شهر يولية قتل جان وآخرون مارسيل بضربة فأس .
فدخل ولى العهد باريس على رأس النبلاء المسلحين . وكان معقولا حذراً
فى تصرفه وعكف على افتداء أبيه ، واستعادة الروح المعنوية ، والحياة
الاقتصادية لفرنسا ، وانسحب الرجال الذين حاولوا أن يخلقوا سيادة
برلمانية ، فى صمت ونموض . والتف النبلاء المعترفون بالحميل حول
العرش ، وأصبح مجلس الطبقات أداة طيعة فى يد ملكية زادت شوكتها .
وفى نوفمبر عام ١٣٥٩ نزل إدوارد الثالث إلى البر بجيش جديد فى كاليه :
وتنكب باريس ، مقدراً الأسوار الحديدية التى شيدها مارسيل ، ولكنه
أخضع الريف المحيط بها من ريمز إلى شارترز بإبادة المحاصيل ، حتى اجتاحت
الحجاعة باريس مرة أخرى . وطلب شارل الصلح بشروط مهينة . فعلى فرنسا
أن تسلم جاسكونيا وجوين إلى إنجلترا بريثة من كل التزام إقطاعى عليها
ملك فرنسا ، وأن تتنازل أيضاً عن بواتو وبريجور وكويرسى وسانتونج
ورورج وكاليه وبونشو وأونيس وإنجوموا وأجنوا ولیموزين وبيجور
وأن تدفع ، ثلاثة مليون كراون ، ليعود ملكها . وفى مقابل ذلك يتنازل
إدوارد ، وجميع أعقابيه ، عن كل ادعاء ، فى عرش فرنسا ، ووقعت معاهدة
بريتانى هذه فى الثامن من مايو عام ١٣٦٠ ، وهكذا ابتلى ثلث فرنسا بالحكم
البريطانى ، واستشاط منه غضبا . وأرسل اثنان من أبناء الملك جون وهما —
دوق انجو و دوق برى — إلى إنجلترا ، رهينتين على إخلاص فرنسا للمعاهدة .
وعاد جون إلى باريس ، وسط قرع الأجراس ، وابتهاج النبلاء والدهماء ،
ولما خرج الدوق انجو على كلمة الشرف ، وفر للحاق بزوجته ، عاد
الملك جون إلى إنجلترا بنفسه ، ليكون رهينة فى مكان ابنه ، مناشداً الدخول

في مفاوضات من أجل صلح أخف وطأة . فاستقبله ادوارد على أنه ضيف لا أسير ، وكرمه كل يوم على أنه زهرة من زهرات الفروسية . ومات جون في لندن عام ١٣٦٤ ، ودفن في كنيسة سانت بول ، أسيراً في موته . وأصبح ولي العهد البالغ من العمر ستة وعشرين سنة ملكاً على فرنسا باسم شارل الخامس .

واستحق لقب « الحكيم » ، الذي أسبغه شعبه عليه ، لهذا السبب وحده ، وهو أنه عرف كيف ينتصر في المعارك ، دون أن يحرك يداً . فلقد كانت يده اليمنى ، متضخمة دائماً ، وذراعه مترهلة ، ولم يكن يستطيع أن يرفع حربة ، وقيل أن شارل السيئ دس له السم . وإذا كان قد فرض عليه أن يعيش مقيداً ، فقد أحاط نفسه بمستشارين حكماء . فأعاد تنظيم كل إدارة ، وأصلح الجهاز القضائي ، وأعاد تكوين الجيش ، وشجع الصناعة ، وثبت سعر العملة ، وأيد الأدب والفن ، وجمع في اللوفر المكتبة الملكية ، التي زودت النهضة الفرنسية بالنصوص القديمة والترجمات ، وكانت نواة المكتبة القومية . وسلم للنبل الحق في استعادة المكوس الاقطاعية ، ولكنه تخطاهم وعين — قائداً عاماً للجيش الفرنسية — رجلاً بريثانيا اسمه برتراند دي جويسكلين . وهو رجل أسمر ، أفطس الأنف ، غليظ العنق ، ضخم الرأس . ولقد ساعد الاعتقاد ، في تفوق هذا « النسر البريتاني » على جميع القادة الإنجليز ، على تصميم الملك ، استرداد فرنسا من الحكم الإنجليزى . فأرسل عام ١٣٦٩ ، إلى ادوارد الثالث إعلاناً رسمياً بالحرب .

وكان رد الأمير الأسود ، أن أخضع ليموج ، وأعمل السيف في ثلاثة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا هو مذهبه في التربية السياسية ؛ وثبت أنه لم يكن موفقاً فقد تحصنت كل مدينة في طريقه ، وتزودت بالجنود ، واختزنن المؤن للمقاومة الناجحة ، واضطر الأمير إلى أن يقنع ، بتخريب الريف ، وإحراق المحاصيل ، واقتلاع منازل الفلاحين الخاوية ،

ولم يشأ دى جويسكلان أن يخوض معركة ، ولكنه ناوش مؤخرة الأمير ، وأسر العلافين ، وانتظر أن تشرف القوات الإنجليزية على الموت جوعاً . وحدث ما توقعه فانسحبت ، وتقدم دى جويسكلان ، وأخذت الولايات تعلن تخلصها الواحدة بعد الأخرى من التبعية ، وبعد عامين من القيادة الممتازة ، والولاء المشترك بين القائد والملك ، طرد الإنجليز من فرنسا بأسرها باستثناء بوردو وبرست وشرير ، وكاليه ، وبلغت فرنسا لأول مرة جبال البرانس . ومات الملك وقائده في العام نفسه (١٣٨٠) في ذروة النصر .

٥ - الملك المجنون

١٣٨٠ - ١٤٢٢

الملكية الوراثية تشبه لعبة الميسر ، تضع المغفل المحبوب ، في مكان الحاكم القدير ، فلقد كان شارل السادس في الثانية عشرة من عمره عندما توفي أبوه ، فعمل أعمامه أوصياء على الملك حتى بلغ العشرين ، وسمحوا له أن ينغمس في مجون لا يعرف المسئولية ، في الوقت الذي سار فيه نصف أوروبا ، إلى حافة الثورة . وكان صناع بروجس وعلى رؤوسهم قبعات حذاء ، قد اقتلعوا عام ١٣٥٩ دار البلدية التاريخية في ثورة جاحمة . وفي عام ١٣٦٦ ثارت الطبقات الدنيا في بيرس ، معلنة الحرب المقدسة على الأغنياء . وفي عام ١٣٧٨ أنشأ الكيومين في فلورنسا ، ديكتاتورية الكادحين . وفي عام ١٣٧٩ بدأ الفلاحون الجائعون في لانجيدوك - جنوبي فرنسا - حرب عصابات ، استمرت ست سنوات ، ضد النبلاء ورجال الدين ، تحت لواء قائد أمرهم قائلاً « اقتلوا جميع أصحاب الأيدي الناعمة ، وثار العمال في ستراسبورج عام ١٣٨٠ ، وفي لندن عام ١٣٨١ ، وفي كلونيا عام ١٣٩٦ . وقامت في جنت ، حكومة ثورية من عام ١٣٧٩ إلى عام ١٣٨٢ . وتوجت ثورة من عمال مدينة روين ، بزازا قوياً وقتل الشعب في باريس ، جياة الضرائب التابعين للملك بمطارق من الرصاص (١٣٨٢) »

وأمسك شارل السادس بأزمة الحكم في يديه عام ١٣٨٨ ، وحكم أربع سنوات ، حكماً صالحاً ، فاستحق بذلك لقب « المحبوب » ولكنه جن في عام ١٣٩٢ . فلم يعد يعرف زوجته ، وطلب إلى المرأة الغريبة عنه . أن تمسك عن توسلاتها . وسرعان ما انفض جميع الناس من حوله ولم يكثر به سوى أحط الخدم . ولبت خمسة أشهر لا يبدل ثيابه ، ولما روى أخيراً أن يغتسل احتاج الأمر إلى اثني عشر رجلاً للتغلب على مقاومته ، وابس تاج فرنسا ثلاثين سنة ، أباه يرثي له ، بينما تأهب ملك إنجلترا شاب شهم لغزو فرنسا من جديد .

ولقد أبحر هنري الخامس من إنجلترا في الحادي من أغسطس عام ١٤١٥ ، في ألف وثلاثمائة سفينة ، وإحدى عشر ألف رجل . فوضعوا مراسيمهم في الرابع عشر بالقرب من هارفليز ، عند مصب نهر السين . وقاومت هارفليز ببسالة ، ولكن بلا جدوى . وسار الإنجليز ، تغمرهم الغزة النصر ، ويسرع بهم داء الزرب إلى كاليه . والتقى بهم فرسان فرنسا في اجنكورت ، بجوار كريسي (٢٥ أكتوبر) . وكأنما لم يتعلم الفرنسيون شيئاً من معركة كريسي ، وبواتيه ، إذ ظلوا يعتمدون على الفرسان . ولم تستطع أكثر أفراسهم الحركة بسبب الأوحال ، أما الذين استطاعوا التقدم ، فقد واجهوا الأوتاد المسننة ، التي غرسها الإنجليز ، على زاوية من الأرض ، حول حملة القسي . فارتدت الخيل المتحيرة ، وحملت على جيشها ، ونزل الإنجليز على هذا الحشد المضطرب ، بالقضبان والفؤوس ، والسيوف ، وقادهم ملكهم هال ، ببسالة ، وتوتر شديد من الخوف ، وكان انتصارهم مذهلاً . ويقدر المؤرخون الفرنسيون ، خسائر الإنجليز بألف وستمائة رجل ، وخسائر الفرنسيين بعشرة آلاف رجل .

وعاد هنري إلى فرنسا عام ١٤١٧ ، وحاصر روين . وأكل المواطنون ما ادخروه من طعام ، ثم التهموا جيادهم ، وكلابهم وقططهم . وألقى بالنساء

والأطفال والطاعنين في السن ، خارج أسوار المدينة ، توفيراً للطعام ، فبحثوا عن معبر في خطوط الإنجليز ، فلم يسمح لهم بالمرور ، وظلوا كذلك بلا طعام ولا مأوى بين أقربائهم وأعدائهم ، فهلكوا جوعاً ، ومات خمسون ألف فرنسي من الجوع ، في هذا الحصار الذي لم يرحم . ولما استسلمت المدينة ، كبج هنري جناح جيشه من تقتيل الذين بقوا على قيد الحياة ، ولكنه فرض عليهم غرامة مقدارها ثلثمائة ألف كراون ، ووضعهم في السجن حتى يتسلم حصيلة المبلغ وفي عام ١٤١٩ ، تقدم نحو باريس التي لم يبق فيها سوى ، الفساد ، والانحلال ، والتوحش ، وحرب الطبقات . وتجاوز لإذلال ما حدث عام ١٣٦٠ فقد سلمت فرنسا ، بتمتضي معاهدة ترويس (١٠٤٢٠) ، كل شيء حتى الشرف . وقدم شارل السادس ابنته كاترين ، زوجة لهنري الخامس ، وتعهد بأن يورثه العرش الفرنسي ، ونقل إليه قيادة فرنسا ، وإزالة كل التباس لم يقر ببثوة ولي العهد . ولم تدافع الملكة ايزابيل عن هذا الاتهام بالفسق في مقابل أربعة وعشرين ألف فرنك كل سنة ، والواقع أنه لم يكن من السهل على المرأة في البلاط الملكي ، لذلك الزمان ، أن تعرف من هو والد ابنها على التحقيق . وأنكر ولي العهد المعاهدة ، وكان يسيطر نفوذه على جنوب فرنسا ، ونظم فرق جاسكونيا وأرمانيك لمواصلة الحرب . بيد أن ملك إنجلترا أخذ يحكم من الأوفر .

وبعد سنتين مات هنري الخامس بداء الزرب (الدوسنطاريا) ، فإن الميكروبات لم توقع المعاهدة ، ولما لحق به شارل السادس (١٤٢٢) توج هنري السادس ملك إنجلترا على فرنسا ، وكان دون السنة الأولى من عمره ، فحكم دوق بدفورد وصياً عليه . وكان قاسياً في حكمه ، ولكنه عادل مثل كل إنجليز ، يقدر له أن يحكم فرنسا . فأمن السفر بأن شق عشرة آلاف رجل من قطاع الطريق في سنة واحدة ، وأخذ يراقب منذ ذاك أحوال البلاد . وعاث الجنود المسرحون في الطرق الرئيسية فساداً ، وأفرعوا حتى

المدن الكبيرة مثل باريس ، وديجون . واكتسحت الحرب ، نورمانديا بالخراب ، من الأمام ومن الخلف ، كتيار قاتل خبيث ، بل هلك ثلث سكان لا نجدوك ، وهى تعد أحسن حظاً ، وهرب الفلاحون إلى المدن ، واعتصموا بالكهوف ، أو تحصنوا فى الكنائس ، كلما اقتربت الجيوش أو أحزاب الإقطاع أو عصابات اللصوص . ولم يعد الكثيرون من الفلاحين إلى ممتلكاتهم المضطربة وإنما عاشوا بالتكفف والسرقه ، أو هلكوا من الجوع أو الطاعون . وأقفرت الكنائس ، والمزارع ومدن بأسرها وتركت للبلى . وقد كان فى باريس وحدها عام ١٤٢٢ ، أربعة وعشرون ألف بيت مقفر ، وثمانون ألف متسول من مجموع السكان الذين يبلغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة . وأكل الناس لحم الكلاب وامعائها . وملأت الطرقات صيحات الأطفال المشرفين على الموت جوعاً .

٦ - الحياة بين الأطلال

كانت الأخلاق ، كما يتوقع المرء فى كل إقليم يصاب بالشلل الطويل المحزن فى الاقتصاد والحكومة . ولقد ألف جيوفرى دى لاتور لاندرى ، حوالى عام ١٣٧٢ ، كتابين يرشد بهما أطفاله فى هذه الفوضى ، ولم يبق منهما غير ما وجهه إلى بناته . وهو مجلد رقيق لطيف عامر بالحب الأبوى ، مشوب بالهم على عفة غير آمنة وبخاصة ، فى زمن اقترفت فيه نساء كثيرات ، الخطايا بلا جزع مما أوقعهن فى فضائح مزرية . ورأى الفارس الطيب أن يقاوم هذه المغريات ، وذهب إلى أن خير وقاية هى الإكثار من الصلاة . ويعرض الكتاب لعصر ، لم يزل متشبثاً بالمشاعر المصقولة ، والحس الأخلاقى . ونحن نلتقى بعد ذلك بسبعين سنة بشخصية منكورة ، هى شخصية المارشال دى ريز أورتز ، وهو رجل غنى عظيم وسيد بريتانى . واعتاد أن يدعو الأطفال إلى قلعته . بحجة تدويرهم على الترتيل الكنسى ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ويقدمهم قرباناً للشياطين ، التى كان ينشد عندها القوى السحرية .

ولكنه قتل من أجل المتعة أيضاً و (لقد أنبثنا) أنه كان يضحك على صباح مرتليه المعذبين أو المحتضرين . واتبع هذا النهج أربع عشرة سنة ، حتى اجترأ ، والد أحد ضحاياه ، باتهامه ، فاعترف بهذه التفاصيل كلها ، وشنق عام ١٤٤٠ ولولا أنه أساء إلى دوق بريتاني ، لما اقتصر منه ، ذلك لأن الرجال من طبقته قلما كانوا يقدمون إلى ساحة القضاء ، مهما كانت جرائمهم ومع ذلك ، فإن الأرستقراطية التي ينتسب إليها ، كثيراً ما أخرجت الأبطال أمثال الملك جون صاحب بوهيميا ، أوجاستون فيوبس دي فوا ، الذي أحبه فرواسارت وأثنى عليه . وفي هذه الأحوال تفتحت الأزهار الأخيرة للفروسية .

وأسهمت أخلاق الشعب في هذا الانحلال . فأصبحت القسوة والحيانة والفساد أمراضاً متوطنة . وكان السوقى والحاكم سواء في قبول الرشوة . وانتشر المحجون ، وشكا الوزير جرسون من أن أقدم الأعياد تنفق في لعب الورق(*) والميسر والتجديف في الرين . وكان المختالون والمزيفون واللصوص والصعاليك والشحاذون يسدون الطرقات بالنهار ، ويجتمعون بالليل ليستمتعوا بحصادهم ، في باريس ، في ساحة المعجزات ، التي سميت كذلك لأن المتسولين الذين يبدون في مظهر المقعدين ، يظهرون هناك فجأة وكل عضو من أعضاء جسمهم في صحة مذهلة .

وفشا اللواط ، وشاعت الدعارة ، وكاد المحجون يصبح عاماً . ودعت فرقة « الآدميين » في القرن الرابع عشر ، إلى مذهب العري ، وظلت تمارسه علناً إلى أن منعه محاكم التفتيش . وكانت الصور الفاحشة المخلة بالآداب ، رائجة كما هي الآن ، ويروى جرسون ، أنها كانت تباع حتى في الكنائس وأيام الأعياد الدينية . ونظم شعراء مثل ديشان قصائد غرامية

(*) ربما دخل لعب الورق إلى أوروبا في القرن الرابع عشر ، وأول رواية محققة عنه كانت عام ١٣٧٩ . ويبدو أنها جاءت عن طريق المسلمين عبر أفريقيا وإسبانيا والصليبيين .
ويزعم الصينيون أنهم مارسوه مبكراً عام ١١٢٠ .

للسيدات النبيلات . ووصف نيقولا دى كليمانج كبير شماسه باييه ، دير منطقته بأنه معبد مخصص للقيام بشعائر فينوس . وكان من المؤلف أن يتخذ الملوك والأمراء ، خليلات لهم ، وكان الكثير من الزيجات الملكية - زيجات النبلاء ينطوى على أغراض سياسية ، ولذلك لم تكن هذه الزيجات جديرة بالحب : واستمرت السيدات ، ذوات الحسب والنسب ، فى مناظرات رسمية ، حول جواز العلاقات الجنسية ، وأنشأ فيليب الحسور ، صاحب برجنديا ، فى باريس محكمة حب عام ١٤٠١ . ولقد وجدت وسط هذا الخضم من الاستهتار أو فى كنفه سيدات فضليات ، ورجال شرفاء ، ونحن نجد لمحة عابرة عن هؤلاء ، فى كتاب عجيب ألفه حوالى عام ١٣٩٣ ، رجل مجهول الاسم فى الستين من عمره ، عرف بأنه مدير باريس : « أعتقد أنه عندما يزف اثنان شريفان طيبان ، أحدهما إلى الآخر . فإن كل حب يزول . . . إلا حب كل منهما للآخر . وأرى أنهما عندما يصطحبان ، يهتم كل منهما بالآخر ، أكثر من اهتمامه بغيره ، ويربط كل منهما على الآخر ويمسك به ، ولا رغبة لهما فى الحديث أو الإشارة إلا لبعضهما . . وكل متعتهما الخاصة ورغبتهما الكبرى وسرورهما الكامل ، إنما هو أن يتمتع أحدهما الآخر ويطيعه » .

وأضيف إلى صور هذا العصر اضطهادات اليهود (١٣٠٦ ، ١٣٨٤ ، ١٣٩٦) والمجذومين (١٣٢١) ، ومحاكمة الحيوانات وإعدامها ، لإيذاء الناس وتساقدها معهم ، والشنق علناً ، الذى يدعو إلى حشد متطلع . وكانت تنبش القبور فى جبانة الأبرياء فى باريس ، كلما سقط لحم الميت عن عظمه ، لإفساح المجال لأموات جدد ، وتجمع العظام فى غير نظام ، فى مدافن خاصة بها ، على طول الأروقة ، التى كانت مع ذلك ، أماكن مألوفة ، للقاء العاشقين ، فأنشئت هناك الدكاكين ، ودعت البغايا الزبائن . ورسم أحد الفنانين ، مدة شهور على حائط الدير ، صورة لرقصة الموت

عام ١٤٢٤ ، تبدو الشياطين فيها وهى تدور حول نفسها مع الرجال والنساء والأطفال المسوقين فى خطوات مرحة متعاقبة إلى الجحيم . وأصبحت هذه الصورة مضموناً رمزياً لعصر يائس ، ومثلته إحدى المسرحيات فى بروجس عام ١٤٤٩ ، وصوره ديرر ، وهلين ، وبوش فى آثارهم الفنية . وغلب التشاؤم على نصف شعر هذا العصر . وهجا ديشان الحياة فى كل جوانبها تقريباً ، وبدأت الدنيا له ، كشيخ واهن جشع ، مضطرب منحل ولقد ختم كلامه بقوله « إن كل شىء سىء السيرة » . ووافق جرسن قائلاً : « إننا نعيش فى شيخوخة الدنيا » ، وإن يوم القيامة لقريب . واعتقدت امرأة عجوز ، أن كل وخزة ألم فى أصابع قدميها ، تعلن ذهاب إحدى الأرواح إلى الجحيم ، وكان تقديرها معتدلاً ، فإن الاعتقاد الشائع وقتذاك أنه لم يدخل الجنة أحد من الناس فى الثلاثين سنة الماضية .

وماذا عسى أن يصنع الدين ، فى تصدع أمة مغلوبة على أمرها ؟ لقد كان البابوات الحبيسون فى أفنيون يتلقون حماية الملوك الفرنسيين ، وأوامرهم فى السنوات الأربعين الأولى من حرب المائة عام ، وكانت معظم الموارد ، التى يجمعها أولئك البابوات من أوروبا ، تذهب إلى هؤلاء الملوك ، تمويلاً لحرب الحياة أو الموت مع بريطانيا ، واستطاعت الكنيسة أن تجمع للملكية فى إحدى عشرة سنة (١٣٤٥ - ١٣٥٥) مبلغ ٣,٣٩٢,٠٠٠ فلورن (٨٤٠,٠٠٠ دولار؟) وحاول البابوات مراراً أن يضعوا حداً للحرب ولكنهم فشلوا . وعانت الكنيسة مشقة مضمضة ، من جراء الحراب الطويل الذى منيت به فرنسا قرناً من الزمان ، فأفقرت مئات الكنائس والأديرة أو خربت ، وشاركت الطبقة الدنيا من رجال الدين فيما اتسم به العصر من انحلال الأخلاق . وتجاهل الفرسان والمشاة الدين لا يذكرونه إلا عند المعركة أو الوفاء ، ولا بد أنهم ارتابوا ، فى العقيدة بسبب عدم اكتراث السماء ، الذى يدعو إلى الجنون . واعتصم الناس فى عصيانهم أوامر الدين

بالكنيسة والعقيدة مفزعين ، وجملوا أموالهم وهمومهم إلى مزارات العذراء تسكيناً لروعهم ، وكانوا يصابون في القداس ، بوجد ديني ، عندما يستمعون إلى العظات المخلصة للراهب رتشارد أو القديس فنسانت فرر . وابتدعت في بعض البيوت ، تماثيل صغيرة للعذراء تفتح بطونها بلمسة من اليد ، فينكشف الثالوث .

وكان معظم قادة الفكر للكنيسة ، في هذا العصر ، من الفرنسيين . ولم يكن بيار دايلى واحداً من العلماء ، أصحاب الرأي فحسب ، وإنما كان من أقدر زعماء الكنيسة وأبعدهم عن الفساد ، وأحد السياسيين من رجال ، الاكليروس ، الذين عالجوا في مجمع كنستانس ، الفرقة في البابوية . وكان بين تلاميذه ، وهو مدير كلية نافار في باريس ، شاب ، أصبح فيما بعد ، أعلم علماء الدين في جيله . وزار جان دي جرسون الأراضي الواطئة ، فأعجب كثيراً من تصوف ريوذبرويك ، والورع الجديد عند « اخوة الحياة العادية » . فلما أصبح مديراً للجامعة بباريس (١٣٩٥) ، فكر في إدخال هذا النوع من التقوى إلى فرنسا على الرغم من نقده أنانية المذهب الصوفي وما فيه من القول بوحدة الوجود واقتنع أخواته الست بقدوته وحججه ، ولقد أنبثنا أنهن ظللن عذارى إلى نهاية حياتهن . وذم جوسبر ، خرافات الدهماء ، ودجل التنجيم والسحر والطب ، ولكنه اعترف بأن الرقي ، ربما يكون لها تأثير بالتسلط على الخيلة (٧٤) . ورأى أن معرفتنا بالنجوم ، ممعنة في النقص ، حتى إننا لا نستطيع ، أن نصور تنبؤات محددة ، بل إننا لا نستطيع أن نعين بالضبط مدى سنة شمسية ، ولا يمكننا أن نخبر عن الموضع الحقيقي للنجوم ، لأن أضواءها تتكسر ، في سيرها إلينا ، عبر أوساط متعددة . ودعا جوسون إلى ديمقراطية مقيدة ، وإلى سيادة المحامع ، في الكنيسة ، بيد أنه جذب ملكية قوية في فرنسا ، ولعل الأحوال السائدة في بلاده تبرر تناقضه ، وهي التي كانت أجوج إلى النظام منها إلى الحرية .

وكان رجلاً عظيماً في طرازه وجيله ، وكانت فضائله خاصة به ، أما أوهامه فمن عدوى عصره ، كما يجب أن يقول جيته . وتزعم الحركة التي استهدفت التخلص من البابوات المتنازعين ، وقصدت إصلاح الكنيسة ، وأسهم في إرسال جون هس وجيرونم البراغى إلى الموت .

وأخذت الطبقات العليا ، تمدح أشخاصها ، وتزين دورها ، وسط مظاهر الفاقة التي يعانيها شعبها . وارتدى أفراد العامة البسيط من السترات ، والقمصان ، والسراويل ، والأحذية ذوات الرقاب ، وقلدت الطبقات الوسطى الملوك ، على الرغم من القوانين الخاصة بالنفقات ، فارتدى أفرادها ، الأردنية الطويلة ، وربما كانت قرمزية اللون أو مخفوفة بالفراء ، كما ارتدى السادة النبلاء الصديريات ، والحوارب الطويلة ، والألعة الأنيقة والقبعات الرائشة التي تلمس الأرض عند الانحناءات المهدبة ووضع بعض الرجال قروناً على أصابع نعالهم ، لتطابق ما على رؤوسهم من رموز غير جليلة . وآثرت سيدات من ذوات الحسب ، القبعات المخروطية كأبراج الكنيسة ، وكن يشددن أجسامهن بسترات ضيقة وسراويل زاهية اللون ، وتنورات من الفرو ، تتدلى أطرافها على الأرض في جلال ويظهرن صدورهن بينما يزدن من جمال وجوههن بإسْدال النقاب عليها . وبدأت الأضرار تستعمل لحبك الملابس^(٤٠) ، وكانت قبل ذلك مجرد جلى ، ونحن نعكس هذه الحركة الآن . وكن يتألان ، حتى البديئات منهن ، بالحرائر والأنسجة المذهبة والمطرزة ، والأشرطة والخواهر على الشعر وعلى الرقبة واليدين والرداء والحذاء ، وتحت هذا البريق الوقائى ، كثرت عند كل نساء الطبقة العليا تقريباً .

وظلت دور الفقراء كما كانت في القرون السابقة ، إلا أن النوافذ من الزجاج شاعت فيها ، أما القصور الصغيرة وبيوت الأغنياء في المدن فلم تعد سجوناً مظلمة ، كانت قصوراً مريحة حسنة التآييث بساحات فسيحة بها

نوافير ماء ، ودرجات محواة عريضة ، وطنف معلقة ، وسقوف شديدة الانحدار تناطح السماء وتغوص في الثلج ، وقد زودت بغرف للخدم ، ومخازن ، وغرفة للحراسة وأخرى للبواب ، وغيرها للبياضات ، ومغسل ، وقبول للخمر ومخبز ، بالإضافة إلى القاعة وغرف النوم لأسرة صاحب البيت . وكانت بعض القصور ، كالتى يملكها بيار فوند (١٣٩٠) وشاتودن (حوالى ١٤٥٠) ارهاصاً بقلاع اللوار الملكية . وتعد دار الرأسالى الكبير جاك كور في بورجس ، أصون قصور ذلك العهد ، وهى عمارة كاملة لها برج قوطى من الحجر المنقوش ، وأفاريز وطنف مزخرفة ، ونوافذ على طراز عصر النهضة ، ولقد أخبرنا ، أنه قد تكلف كله حوالى ٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، بحساب النقد في أيامنا . وأثبت بالفاخر من الطنافس : مدافئ فخمة ، تدفئ على الأقل ، جانباً من الغرفة وسكانها ، ومقاعد ومناضد متينة ، دأب الصانع على نقشها بالحفر ، دون كلل ، وأرائك عليها حشيات على طول الجدران مبطنة بقماش^(٥٧) مزركش ، وخزائن تحف وصواوين ضخمة تعرض الصحف الذهبية والفضية ، تليها أكواب زجاجية أبهى منها ، وسجاجيد سمكية ، وأرضيات من البلوط المصقول أو قرميد مطلى بالميناء ، ومخادع معرشة مرتفعة وعريضة تتسع للسيد وزوجته وطفل أو اثنين . ولقد نام على هذه السرر المريحة رجال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ونساءهما ، عراة ، ولم تكن قمصان النوم قد أصبحت ضرورة لا غنى عنها .

٤ - الآداب

ولقد واصل الرجال والنساء تأليف الكتب بين هذه الأطلال ومنها الرسائل الباقية (١٣٢٢ - ١٣٣١) التى وضعها نيقولا من ليرا ، وقاموا بإضافات محققة لفهم نصوص الكتاب المقدس ، فهدت الطريق لـ « العهد

الحديد» لأرازمس وترجمة لوثر الألمانية . وغلبت على قصص هذا العصر ، الحكايات الغرامية الخفيفة مثل مائة حكاية جديدة التي ألفها انتوان دولاسال أو قصص خيالية عن الفروسية مثل فلور وبلانشفليز . أما الكتاب الذي ألفه جيهان ذو اللحية وهو طيب من ليبج يسمى السير جون ماندفيل فلا يقل عنها خيالاً ، ولقد نشر (حوالى ١٣٧٠) وصفاً لرحلاته المزعومة في مصر وآسيا وبولنده . وادعى جون أنه زار جميع الأماكن التي وردت أسماؤها في الأناجيل ، « الدار التي ذهبت إليها مريم العذراء للتعلم » ، والموضع الذي سحنت فيه الماء التي غسل بها إلهنا أقدام الرسل » ، والكنيسة التي فرت إليها مريم لتدر اللبن من صدرها الحليل ، وفيها عمود من الرخام ، اتكأت عليه ، ولا يزال مرطباً بلبنها ، ولم تزل الأرض لينة بيضاء حيث تساقط لبنها الأمثل ، وبلغ جون ذو اللحية أوجه في وصفه الصين ، فلم تكن فصاحة مقيدة بالعلم إلا قليلاً . ولكنه كان يدنو من العلم ، بين الحين والحين ، كما هو الحال في قوله كيف ظل أحد الناس يتجه ناحية الشرق إلى أن عاد إلى وطنه من جديد » ، مثل مستر باسبارتو في رواية جيل فيرن . وشرب مرتين من « نبع الشباب » ، ولكنه عاد إلى أوربا كسيحاً بداء النقرس ، الذي ربما أصيب به لعدم مغادرته ليبج على الإطلاق .

ولقد ترجمت هذه الرحلات إلى مائة لغة وكان لها وقع أدبي عظيم بين الناس أواخر القرون الوسطى .

وأروع ما أنتجه الأدب الفرنسي ، في القرن الرابع عشر فيما نعلم هو كتاب « التواريخ » الذي نظمه جان فرواسار . هذا المؤلف ولد في فالنسيين عام ١٣٣٨ ، وعكف على نظم الشعر في بواكير حياته ، حتى إذا بلغ الرابعة والعشرين ، عبر البحر إلى لندن ، ليضع أشعاره ، عند قدمي فيليبيا أميرة هانو ، زوجة الملك ادوارد الثالث . فأصبح كاتم سرها ، ولقي أشراف الإنجليز ، وأعجب بهم إعجاباً صريحاً ، جعله غير محايد

في تاريخه . وسرعان ما انتزعه غرامه بالرحلة ، فساقه إلى اسكتلندا ،
وبردو وسافوى وإيطاليا . ولما عاد إلى هانو أصبح قسيساً وكاهن شياى .
وهناك صمم على أن يعيد تأليف كتابه نثراً ، وأن يتوسع فيه من أوله ومن
آخره . ورحل مرة أخرى إلى إنجلترا وفرنسا ، يجمع المواد في مثابرة
ودأب . حتى إذا عاد إلى شياى وقف نفسه على إتمام هذا التاريخ « النبيل
الممتع . . الذى ستشدد الحاجة إليه بعد وفاتي . . ليشجع كل القلوب
الباسلة ، ويطلعها على مثل شريفة » . وليست هناك قصة خيالية أروع منها ،
والقارئ الذى يبدأ هذه الصفحات ، المسببة ، الألف والمائتين ، وهو ينوى
أن يقفز من قمة إلى قمة ، سيجد الأودية مشوقة أيضاً ، وسيسير في القراءة
في بهجة وأناة إلى النهاية . ولم يشغف هذا القسيس — مثله في ذلك مثل
يوليوس الثانى — بغير الحرب . وفتن بالحركة ، والشهامة والأرستقراطية ،
أما العامة فلم يلجوا صفحاته إلا باعتبارهم ضحايا النزاع الذى شجر بين
الأشراف . ولم يبحث في الحوافز ، واعتمد في ثقة بالغة على الروايات
المزوقة والمنحازة ، ولم يزعم أنه يفلسف الأخبار . فقد كان إخبارياً فحسب
بل أنه أعظم الإخباريين جميعاً .

وتحدد المسرحية العصر الذى تمثل فيه ، ولقد احتلت المسرحيات
الدينية والأخلاقية التى عرفت باسم « المعجزة » ، كما احتلت الفواصل
والهزليات المسارح المؤقتة التى تشيد في المدن . وأخذت الموضوعات غير
الدينية تزداد على الأيام واقترن المرح بالفحش في العادة ، بيد أن الموضوعات
الدينية ظلت مهيمنة ، ولم يستشعر الناس الملل قط من المناظر التى تمثل
آلام المسيح . ولقد تخصصت أهم فرقة تمثيلية في هذا العصر وهى فرقة
الإخوان الباريسية التى تمثل آلام السيد المسيح في تمثيل قصة الفترة القصيرة
التي قضها المسيح في أورشليم : وبلغت إحدى هذه المسرحيات التى ألفها
«أرنول جريبان» خمسة وثلاثين ألف سطر.

وكانت للشعر جماعته أيضاً . فقد أنشأت تولوز عام ١٣٢٣ أكاديمية للعلم البهيج ، وعملت المباريات العامة تحت رعايتها على إحياء فن الشعراء الجوالين « التروبادور » وطابعهم . وتألّفت جمعيات أدبية مماثلة في أمين ودواي وفالنسين ، وهي التي مهدت الطريق للأكاديمية الفرنسية التي أنشأها ريشيليو . واتخذ الملوك والسراة لهم شعراء مثلما اتخذوا منشدين ومهرجين يلحقون بحاشيتهم . وضم « رينيه الطيب » دوق انجواللورين ، وملك نابلي بالاسم فقط ، رهطاً من الشعراء والفنانين إلى بلاطه في كل من نانسي وتاراسكون وايكس ان بروفنس ، ونافس أحسن ناظم للقوافي ، حتى لقب « بأخر التروبادور » . وبسط شارل الخامس رعايته على أوستاش ديشان ، الذي شجب بالنساء ، وتزوج ثم شهر بالزواج في قصيدة عنوانها مرآة الزواج ، تبلغ اثني عشر ألف بيت ونعى على عصره الشقاء والحسة :

يا عصر الرصاص ، أيها الزمن المفسود ، أيتها السماء من النحاس ،

أيتها الأرض بلا ثمر ، مجدبة لا خير فيها ،

أيها الناس الملعونون ، بكل أسى مفعج : :

أليس من الحق أن أنلبكم جميعاً ؟

لأنني لا أرى شيئاً في عالم الغد ،

المفعم بالحزن الممغن في الاضطراب : :

ويشمل في فعاله كل شر : :

واليوم يحل زمن البلاء : :

ونشأت كريستين دي بيزان في باريس ، على أنها ابنة الطبيب الإيطالي لشارل الخامس ، فلما ترملت كان عليها أن تعول ثلاثة أطفال وثلاثة أقارب فوفقت إلى ذلك بأعجوبة بقرض الشعر الرائع وتأليف التاريخ الوطني ، وهي تستحق منا تحية عابرة بوصفها أول امرأة في أوربا الغربية استطاعت أن تعيش بقلمها . أما ألين شارتيه فكان أسعد حظاً ، فإن قصائده في الحب

مثل قصيدته « الفاتنة بلا رحمة » ذات الإيقاع الحسن التي زجر فيها النساء على إخناء مفاتنهن - قد أسرت الطبقة الأرستقراطية ، حتى قيل أن مارجريت أميرة اسكتلندا ، التي أصبحت ملكة فرنسا بعد ذلك ، قبلت شفقي الشاعر وهو نائم على إحدى الأرائك . وسرد أتين باسكييه ، هذه الأسطورة ، في قصص خلاب ، بعد مرور قرن من الزمان . .

لقد عجب الكثيرون من هذا الصنيع ولكي أقول الحقيقة فإنني أقرر أن الطبيعة ، قد وضعت روحاً جميلة في جسم ممعن في القبح - وهنا قالت السيدة أنهم يجب ألا يعجبوا من هذا الغموض ، فليس الرجل ، هو الذي رغبت في تقيله ولكنني قبلت الشفتين اللتين نطقتا بهذه الكلمات الذهبية . ولم يكن مقدراً على أرق شعراء فرنسا في هذا العصر أن يقول الشعر ، إذ كان ابن أخي شارل السادس ووالد لويس الثاني عشر . ولكن شارل دوق أورليان أسر في أجنكور ، وأمضى خمساً وعشرين سنة (١٤١٥ - ١٤٤٠) معتقلاً اعتقالاتاً ليناً بالإنجلترا . فغمرهم قلبه وتأسى بنظم الشعر الرقيق في الغزل ومحنة فرنسا . ولبثت فرنسا بأسرها تنشد أغنيتين في الربيع :

لقد بدل العام وشاحه البارد .

وشاح الريح والمطر والهواء المرير ،

وسار مؤتزرراً حلة من الذهب .

حلة من الشمس الضاحكة والفصل الجميل ،

وما من طائر أو وحش من وحوش الغابة أو الفلاة

إلا ويعلن بصياحه أو غنائه ،

أن العام يطوى وشاحه البارد .

بل إن إنجلترا كان فيها فتيات جميلات ، فنسى شارل أحزانه عندما

مر به الحب الهادي :

يا إلهي . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهي الرحيم الودود العادل . .

إن كل فضيلة من الفضائل المختارة التي فيها

لحديرة بالمديح النادر .

ومن ذا الذي يمل جمالها ،

النضر كل يوم نضرة لا تضارع ؟

يا إلهي . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهي الرحيم الودود العادل . .

وسمح له آخر الأمر أن يعود إلى فرنسا ، فجعل من قلعته في بلوا ،

موثلاً بهيجاً للأدب والفن ، حيث استقبل فيللون على الرغم من فقره

وجرائمه ، ولما بلغ شارل من العمر أرذله ، ولم يعد قادراً على المساهمة

في مرح أصدقائه الشبان ، نظم اعتذاره إليهم في أبيات رقيقة ، تصلح

أن تكتب على قبره :

حي بالنيابة عنى جميع الصحاب

الذين تلقاهم الآن في ألفة ،

وقل كم أكون سعيداً

إذا أصبحت واحداً من ثلثهم لو كان ذلك ممكناً ،

فإن الشيوخوخة تقتلني .

ولقد تحكم الشباب في حياتي مرحاً في زمن طال به العهد

ولكنه الآن ولى وذهب .

وكنيت عاشقاً ، ولن يقدر لي أكثر من ذلك أبداً ،

ولقد عشت في باريس حياة ممعنة في الحرية .

وداعاً فلن أشهد بعد ذلك أياماً طيبة . .

حي بالنيابة عنى جميع الصحاب . .

٨ - الفن

كان فنانون فرنسا لهذا العهد أكثر تفوقاً من شعرائها ، ولكنهم شقوا أيضاً بإحمالها . ولم تقدر لهم هناك رعاية كريمة يعتمدون عليها في المدينة أو الكنيسة أو عند الملك . « والولايات التي عبرت عن كرامة طوائفها ، بالمعابد الضخام ، وتسامت بهذا التعبير إلى عقيدة لا يرقى الشك إليها ، أضعفها وقضى عليها ازدياد سلطان الملك إلى جانب التوسع في الاقتصاد من المجال المحلي إلى المجال القومي ولم تعد الكنيسة الفرنسية تمول أو تلهم ، مثل المباني الهائلة ، التي ارتفعت على أرض فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولقد انحطت العقيدة ، كما اضمحلت الثروة ، وتبدد الأمل الذي دفع في هذه القرون إلى الحروب الصليبية ، وتشيد الكاتدرائيات في وقت واحد أي العمل والصلاة التي تحت عليه - فقد نشوته المنتجة وكان الأمر يحتاج في العمارة إلى طاقة أكبر من طاقة القرن الرابع عشر ، ليم ما بدأه عصر أشد فتوة . وعلى الرغم من هذا فقد أنجز جان رافى كاتدرائية نوتردام في باريس (١٣٥١) ، وأضاف « رون » كنيسة صغيرة للعدراء عام (١٣٠٢) إلى كاتدرائية سبق أن أنشئت باسمها ، وشيدت بوابتيه لكاتدرائيتها عام (١٣٧٩) واجهتها الغربية الشائخة .

وأخذ الطراز المشع للتخطيط القومي (١٢٧٥) ، يسلم قياده شيئاً فشيئاً ، إلى طراز قوطي هندسي ، يعتمد على أشكال اقليدية بدلا من الخطوط المشعة . وعلى هذا النحو شيدت بوردو ، كاتدرائيتها (١٣٢٠ - ١٣٢٥) وأقامت كان عام (١٣٠٨) برجاً رشيقاً ، مستدق الطرف ، على كنيسة سانت بيير ، ولقد تحطم هذا البرج في الحرب العالمية الثانية ، وزودت اكسير كاتدرائيتها بصحن جديد عام (١٣٥٥) ، وأضاف كوتانس عام (١٣٧١ - ١٣٨٦) وأمين عام (١٣٧٥) ، كنائس صغيرة

رائعة إلى مزاريهما التاريخيين ، وأكدت رون مجدها المعماري بإقامة الكنيسة المحيطة لسانت أوين (١٣١٨ - ١٥٤٥) .

ولما تصور ت فرنسا أنها منتصرة ، في الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، أظهر معماريوها طرازاً قوطياً جديداً ، مرحباً في ، وحه ، مسرفاً في تفاصيل النقوش المحفورة ، معقداً مبهرجاً في تفريقاته الزخرفية ، مسرفاً إلى حد غير معقول في الزينة . وأصبح العقد القوطي ، أو العقد المدبب لقوس متصل ، وقتذاك عقداً مخروطياً لقوس مقلوب ، كلسان اللهب الذي أعطى هذا الطراز اسمه (المشع) . ولم تعد تستعمل تيجان العمدة ، وتلولبت العمدة أو خططت ، وأفرط في حفر أماكن المرتل ، وحجبت يستائر حديدية من شرائط دقيقة ، وأصبحت الزخارف المدلاة كأعمدة الثلج الحامد المتدلى من سقوف المغاور والكهوف ، وصارت القباب تها من الأضلاع التي تتراوح بين الظهور والخفاء ، وابتعدت فواصل النوافذ ، عن الأشكال الهندسية القديمة الحامدة ، وفاضت في رشاقة فاتنة وتعمد لا يوصف ، وبدت الأبراج وكأنها شيدت من الزخرف ، واختفى البناء خلف الزينة . وكانت غرة هذا الطراز الحديد في الكنيسة الصغيرة التي شيدت باسم القديس يوحنا المعمدان عام (١٣٧٥) في كاتدرائية أمين ، وما إن جاء عام ١٤٢٥ ، حتى كان هذا الطراز قد غلب على فرنسا ، وبدأ عام ١٤٣٦ ، يحقق إحدى معجزاته الرقيقة ، وهي كنيسة سان ماكلو في رون . وربما ساعد ، على انتصار الطراز المشع في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، استرداد الثقة وبعث الروح العسكرية على يد جان دارك وشارل السابع ، ونمو الثروة التجارية ، كما يمثلها جان كير ، ونزوع الطبقة البورجوازية ، الصاعدة إلى الزينة المترفة . وظل الطراز القوطي في هذا الشكل النسوي ، إلى أن أعاد الملوك والنبلاء الفرنسيون من حروبهم في إيطاليا ، أفكار عصر النهضة المعمارية الكلاسية :

ويحمل نمو العمارة المدنية في أعطافه ، ظهور الطابع الدنيوى لهذا العصر . ورأى الملوك والأمراء ، أن هناك ما يكفي من الكنائس ، فابتنوا لأنفسهم قصوراً ، تكون فتنة للشعب ، ومأوى لحظياتهم ، وأنفق الأغنياء من نواب المقاطعات ، ثروات طائلة على دورهم وأعلنت المجالس البلدية عن غناها بتشديد دور البلدية الفخمة ، وصممت بعض المستشفيات مثل مستشفى بون تصميا جميلا طليقاً لا بد أنه قد أسبغ الصحة على المرضى . وجمع البابوات والكرادلة ، حشداً منوعاً من الفنانين ، وعضدوهم ، بيد أن بنائى فرنسا ورسامها ومثالها ، كانوا يلتفون حول نبيل أو ملك . وشيد شارل الخامس قصر فنسن عام (١٣٦٤ — ١٣٧٣) ، والباستيل عام (١٣٦٩) ، واستقدم الفنان واسع الأفق أندريه بونيفو ليحفر صوراً لفيليب السادس ، وجون الثانى وشارل نفسه للمقابر الملكية ، المصففة ، الرائعة ، التى ترحم ممشى كنيسة سانت دينيس وسردابها عام (١٣٦٤) . وشيد لويس أمير أورليانز قصر بيرفوند ، وكان جون دوق برى ، على الرغم من قسوته على الفلاحين ، واحداً من أعظم رعاة الفنون فى التاريخ .

وهو الذى صور له بونيفيه عام ١٤٠٢ كتاب المزامير . وهو ليس إلا واحداً من سلسلة المخطوطات المزوقة ، الموضوعة بالقرب من القمة ، فيما يمكن أن يسمى غرفة الموسيقى ، فى فنون الرسم . ولهذا السيد الفطن نفسه ، صور جاك دى هسدن « الساعات الصغيرة » و « الساعات الحميلة » و « الساعات الكبيرة » ، وهى تمثل كتب « الساعات » للصلوات اليومية الكنسية . وأخرج الإخوان بل جيهانيكان وهرمان مالويل من لمبورج ، الساعات الغنية (١٤١٦) وهى خمس وستون منمنمة تصور الحياة فى فرنسا ومناظر منها : النبلاء يصيدون ، والفلاحون يعملون ، ومنظر ريفى يضى عليه الجليد صفاء . وتعد هذه الساعات الغنية المستورة الآن ، حتى عن أعين السائحين ، فى متحف كوندية فى شانتلى ، والمنمنمات التى صورت للملك الطيب ، رينية صاحب النجوم آخر انتصارات فن التزييق ، ذلك لأن هذا الفن

قد نافسه في القرن الخامس عشر الحفر على الخشب وانتشار المدارس الموفقة في الرسم على الجدران واللوحات في فونتبلو وأمين وبورجس ، وتورومولان وافنيون وديجون إذا لم نتحدث عن أساتذة الفن الذين كانوا يعملون لدوق برجنديا... وأدخل بونيفيه وفان ايكس ، طرز التصوير الفلمنكية إلى فرنسا ، وكذلك عن طريق سيمون مارتيني وغيره من الإيطاليين في افنيون ، وعن طريق الدولة الإنجيفية في نابولي عام (١٣٦٨ - ١٤٣٥) ؛ ولقد أثر الفن الإيطالي في الفرنسي ، قبل أن تغزو الجيوش الفرنسية إيطاليا بزمان طويل . حتى إذا جاء عام ١٤٥٠ ، كان الفن الفرنسي ، قد نهض على قدميه ، وسجل انتسابه إلى هذا العصر بصورة الورع لفيلينوف وهي بلا توقيع ، وتوجد الآن في اللوفر .

ويعد جان فوكيه ، أول شخصية واضحة ، في فن التصوير الفرنسي ، ولقد ولد في تور عام (١٤١٦) ، وتعلم سبع سنوات في إيطاليا (١٤٤٠ - ، ١٤٤٧) ، وعاد إلى فرنسا ، وهو متحيز للمهاد المعمارية الكلاسية التي أصبحت في القرن السابع عشر ، هوسا ، على يد نيكولاس بوسان وكلود لورين . ومهما يكن من شيء ، فقد رسم صوراً متعددة لأشخاص وهي تكشف بقوة عن مقومات شخصياتهم : مثل جوفينال كبير أساقفة أورسان وحاكم فرنسا - وهو عبوس حازم ، وليس ممعناً في التقوى إلى الحد الذي جعله غير صالح للحكم ، وأتين شيفالييه وهو القائم على خزانة المملكة - رجل مهموم ، منزعج من استحالة الحصول على المال بالسرعة ، التي تنفقه بها الحكومة ، وشارل السابع نفسه ، بعد أن جعلت منه أنييه سورل رجلاً ، وأنييه في اللحم الوردى ، تحول على يد فوكيه إلى عذراء هادئة سنية بعينين خفيفتين وصدر بارز وزوق جان لشفالييه ، كتاب الصلوات ، وبدد ملل إقامة الشعائر بمناظر ، نضرة ، من وادي اللوار . وتحفظ رصيدة مطلية بالمينا في اللوفر ، بصورة فوكيه كما رأى نفسه - (١١)

صورة ليس لها مثل رفائيل سياء الأمانة ، يصعد إلى أعلى ، وإنما صانع
بالفرشاة ، في رداء العمل ، حازم حي ، مهموم ومصمم ، وعلى جبينه
سمة قرن كامل من الفقر . ومع ذلك ، فقد مضت حياته ، بلا ملات من حكم
ملك إلى آخر ، وارتقى ، إلى أن أصبح آخر الأمر «مصور الملك» لويس
الحادي عشر وبعد جهد السنين يأتي النجاح ، وسرعان ما يأتي الموت
بعد ذلك .

٩ - جان دارك ١٤١٢ - ١٤٣١

في عام ١٤٢٢ نادى ابن شارل السادس عشر الذي تبرأ منه أبوه ،
بنفسه ملكاً باسم شارل السابع . ونظرت فرنسا في عزلتها ، إليه لينقذها ،
ثم ران عليها يأس عظيم وكان هذا الشاب الجبان ، فاطر الهمة عديم الاكتراث
في العشرين من عمره ، لم يصدق أنه يستحق الملك الذي أعلنه ، وربما شارك
الفرنسيين شكوكهم في شرعية مولده . وتظهر الصورة التي رسمها فوكيه
له ، وجهاً حزيناً ساذجاً ، تحت عينييه جيوب ، وأنف ممتد . وكان متديناً
إلى درجة الفزع ، يسمع ثلاث صلوات كل يوم ، ولا يترك ساعة من
ساعات الكنيسة تمر دون أن يتلو ، ما يناسبها من صلاة ، وكان يخلو بين هذه
الأوقات ، إلى رتل طويل من الخطايا ، وأنجب اثني عشر مولوداً فرضهم
على زوجته الفاضلة . ورهن جواهره ، ومعظم الملابس التي على كاهله ،
ليتمول مقاومة بلاده لإنجلترا ، ولكنه لم يكن مفطوراً على الحرب ، فترك
الصراع لوزرائه وقواده . ولم يكن أحد منهم متحمساً أو متيقظاً ، وتشاجر
بعضهم مع بعض في حقد - اللهم إلا جان دينو الأمين ، والإبن غير
الشرعي للويس ، دوق أورليان . ولما تحرك الإنجليز جنوباً لمحاصرة تلك
المدينة عام (١٤٢٨) ، لم يتفقوا على خطة للوقوف في وجههم ، وكانت
الفوضى ، طابع ذلك الزمان ، وتقع أورليان ، على حنية ، في اللوار ، فإن
سقطت ، انضم الجنوب بأسره ، وهو المتردد في الولاء وقتذاك لشارل السابع

إلى الشمال ، ليجعل من فرنسا مستعمرة إنجليزية . وأخذ الشمال والجنوب
معاً يراقبان الحصار ، ويصليان من أجل حدوث معجزة .

وأخذت دمرمي القرية البعيدة ، الهاجعة إلى جوار الموز على حدود
فرنسا الشرقية تراقب الصراع بعاطفة دينية وطنية : وكان الفلاحون هناك
من أبناء القرون الوسطى في إيمانهم وشعورهم ، في العقيدة والشعور ، يعيشون
من الطبيعة ، ولكن فيما هو فوق الطبيعي ، وكانوا واثقين من أن الأرواح
تعيش في الهواء المحيط بهم ، وأقسم كثير من النساء ، أنهن رأينها وتحدثن
منها — واعتقد الرجال مثلما اعتقد النساء ، وهو ما كان سائداً
في أنحاء الريف الفرنسي ، أن الإنجليز شياطين ، تخفى أذنانها ، في اذيال
معاطفها وراجت نبوءة في القرية ، وهي أن الله سيرسل في يوم من الأيام ،
فتاة عذراء ، تنقذ فرنسا من هؤلاء الشياطين ، وتضع حداً لحكم الحرب
الشیطانية . وهمست زوجة عمدة دمرمي ، بهذه الآمال إلى جان ابنتها
في العمد .

وكان أبو جان واسمه جاك دارك ، فلاحاً ناجحاً ، ولعله لم يلق بالا ،
إلى مثل هذه الحكايات . وقد عرفت جان بالتقوى ، بين هؤلاء القوم
الأتقياء ، وأغرمت بالذهاب إلى الكنيسة ، وكانت تعترف بانتظام وحرارة
وشغلت نفسها بجمع الصدقات للكنيسة وألفت الدواجن والطيور ، في حديقتها
الصغيرة ، أن تأكل من يدها . واتفق لها في أحد الأيام ، أن تخيلت ، وهي
صائمة ، أنها رأت ، نوراً عجيباً فوق رأسها ، وأنها سمعت صوتاً يهتف
بها « يا جان كوني طفلة طيبة مطيعة . واذهي دائماً إلى الكنيسة » . وكانت
وقتذاك (١٤٢٤) في الثالثة عشرة من عمرها ، وربما أسبغت عليها التغيرات
في وظائف أعضائها ، مسحة صوفية في هذه المرحلة الممعة في الانفعال
من مراحل حياتها . وتحدثت « هواتفها » — كما نعتت هذه الرؤى — بأحاديث
كثيرة طوال السنوات الخمس بعد ذلك ، حتى خيل إليها آخر الأمر ، أن

الملك ميكائيل نفسه يأمرها : « اذهبي لإغاثة ملك فرنسا ، ولسوف
تستعينين ملكه . . . اذهبي إلى السيد بودريكورت ، القائد في فوكولور
وسيقودك إلى الملك » . وقال الهاتف في مرة أخرى : « يا ابنة الله ، ستقودين
الدوفان إلى ريمز ، حتى يستطيع هناك أن يحصل على رسامته وتوجيهه » .
ذلك لأن فرنسا كانت تشك في حق شارل الإلهي في الحكم ، فلم يحصل على
رسامته من الكنيسة ، ولكن إذا صب الزيت المقدس على رأسه ، فإن فرنسا
تقف من ورائه صفّاً واحداً وفي ذلك إنقاذها .

وبعد تردد طويل مزعج أطلعت أبيها على رؤياها . فذهل أبوها
عندما فكر في فتاة بريئة تضطلع بمثل هذه الرسالة الخيالية ، قال إنه لن
يسمح لها بذلك وتوعدها بأن يغرقها بيديه . وأراد أن يمجن في تقييدها
فأقنع ، شاباً قروياً ، أن يصرح بأنها وعدته بأن تمنحه يدها بالزواج ، فأكرت
قوله ، وفرت بعذرتها التي نذرتها لقديسها ، ولكي تطع أوامرهم ، إلى
عم لها ، وأخت عليه ، أن يأخذها إلى فوكولير عام (١٤٢٩) . وهناك
نصح القائد بودريكور ، عمها ، أن يصفع الفتاة ، البالغة من العمر
سبع عشرة سنة ، وأن يعيدها إلى والديها ، ولكن جان لما شقت طريقها ،
ومثلت أمامه ، وصرحت بجنان ثابت ، أنها مبعوثة من الله لمساعدة الملك
شارل على إنقاذ أورليان ، ذاب القائد المتعاطف ، فأرسل إلى شينون ، وهو
يفكر في أن بالفتاة مساً من الشياطين ، يطلب إذن الملك بأقائها . وجاء الإذن
الملكي ، وأعطى بودريكور الفتاة سيفاً ، وابتاع لها أهل فوكولير ، جواداً ،
ووافق ستة من الجنود أن يدلوها على الطريق ، في الرحلة الطويلة المخوفة
بالمخاطر ، عبر فرنسا إلى شينون . وتسربت بزي الرجال العسكري —
سترة وصدار وجوربين طويلين وطماق ومهمازين — وقصت شعرها كالفتيان —
ولعلها فعلت ذلك منعاً لتقحم الرجال ، وتيسيراً لركوب الجواد اكتساباً
لموافقة القواد والجند . وعبرت في رصانة وثقة مدنا ، اختلفت في النظر
إليها بين الخوف منها باعتبارها ساحرة ، أو إجلالها باعتبارها قديسة .

وبعد أن قطعت في رحلتها أربعمئة وخمسين ميلاً ، في أحد عشر يوماً ، بلغت الملك ومجلسه . ومع أن حلتها البسيطة ، لم تكن تنبئ عن أبهة الملك ، فقد عرفته جان (كما أثبتنا - وكيف ترفع الأسطورة يدها من تاريخ هذه الفتاة) لفورها ، وحيته بأدب قائلة . . « أمدك الله بطول العمر ، أيها الدوفان الكريم . . . ان اسمي جان لا بوسل ان وإله السموات يتحدث إليك بوساطتي ، وهو يقول انك سترسم وتتوج في ريمز ، وتكون وكيلاً للملك السموات ، الذي هو ملك فرنسا » . وقال أحد القساوسة وهو الذي أصبح راعي كنيسة العذراء ، فيما بعد ، إنها أكدت للملك ، في مجلس خاص ، شرعية مولده . وظن بعضهم ، أنها قبلت في أول لقاء لها مع شارل ، أن يكون رجال الدين أصحاب الحق في تفسير هوائفها ، وأنها اتبعت قيادتهم في حديثها مع الملك ، وعن طريقها يحل الأساقفة ، محل القادة في صياغة السياسة الملكية . ولما كان شارل لا يزال مرتاباً في أمرها ، فقد أرسلها إلى بواتييه ليمتحانها العلماء هناك . فلم يجدوا فيها شراً وكلفوا بعض النسوة أن يتأكدن من عذرتها ، واطمأنوا من هذه الناحية الحساسة أيضاً . لأنهم اعتقدوا أن للعذاري ، مثلهن في ذلك مثل مريم العذراء بعض المزايا باعتبارهن وسائل الله ومبعوثاته .

وكان دينوا ، قد أكد للحامية في أورليان ، ان الله سيغيثهم قريباً بشخص ما . فلما سمع عن جان ، كان بين مصدق ومكذب لآماله ، ورجا البلاط ، ان يرسلوها إليه توا . فوافقوا ، وأعطوها حصاناً أسعم وأحاطوها بدرع أبيض ، ووضعوا في يدها علماً أبيض ، مزيناً بزهرة فرنسا ، وأرسلوها إلى دينوا ، مزودة بجمع من الحرس ، يحملون الزاد للمحصورين . ولم يكن من العسير ، أن تجد منفذاً إلى المدينة (٢٩ ابريل عام ١٤٢٩) ، فلم يكن الإنجليز ، يحدقون بها إحداقاً تاماً ، ولكنهم قسموا رجالهم الذين يترأفون بين ألفين وثلاثة آلاف (أي أقل من حامية أورليان) على اثني عشر

حصناً ، فى أماكن استراتيجية بالضواحي . وحيا أهل أورليان جان ، باعتبارها مريم العذراء مجسدة ، واتبعوها مؤمنين بها حتى إلى الأماكن المخوفة بالمخاطر ، وصحبوها إلى الكنيسة ، يصلون إذا صلت ، ويكون إذا بكت . وترك الجند ، حظياتهم بأمرها ، وجاهدوا ، لكى يثبتوا تطهرهم ، ووجد أحد قادتهم وهو لاهير ، أن ذلك مستحيلا ، وجاءته فتوى من جان ، أن يقسم على عصا قيادته . وهذا المغامر الحاسكونى ، الذى نطق بالدعاء المشهور « إلهى مولاي أتوسل إليك أن تعمل من أجل لاهير ، ما يعملهُ هو من أجلك لو أنك كنت القائد ، وكان لاهير هو الله . »

وأرسلت جان كتابا إلى تالبوت ، القائد الانجليزى ، تقترح عليه ، أن يتحد الجيشان وأن يكونوا إخوة ، وأن يتقدموا إلى فلسطين ، لتخليص الأرض المقدسة من الترك ، ورأى تالبوت ، أن هذا يخرج عن نطاق مهمته . وبعد ذلك بأيام قلائل ، تجاوز فريق من الحامية الأسوار ، دون أن يعلموا دينوا أوجان وهاجموا حصناً بريطانياً . فأبلى الإنجليز بلاءاً حسناً ، وتقهقر ، الفرنسيون ، ولكن دينوا وجان ، سمعا بهذه الفتنة ، فركبا جواديهما واستحثا رجالهما أن يعودوا إلى الهجوم من جديد ، ونجح الهجوم ، وترك الإنجليز مكانهم وفى اليوم التالى هاجم الفرنسيون حصنين آخرين ، واستولوا عليهما ، وكانت العذراء وسط المعركة . وفى الصدام الثانى ، اخترق سهم كنفها ، فضمد الجرح وعادت إلى المعركة . وأخذ مدفع جويوم ديزى ، القوى يصب فى الوقت نفسه على قلعة الإنجليز فى ليه توريل ، قذائف ، تزن كل منها مائة وعشرين رطلا . وأعفيت جان من رؤية الفرنسيين المنتصرين وهم يذبحون خمسمائة من الإنجليز عندما سقط هذا المعقل الحصين . وانتهى تالبوت إلى أن قواته ، لاتفى بالحصار ، فأمرها بالانسحاب شمالا (٨ مايو). وابتهجت فرنسا بأسرها ، ورأت فى « عذراء أورليان » إرادة الله ولكن الإنجليز ، قالوا إنها ساحرة ، وأقسموا أن يأخذوها حية أو ميتة .

وفي اليوم التالي لانتصارها خرجت جان لتلقى الملك ، المتقدم من شينون ،
فحيها بقبلة ، ووافق على خططها ، في السير عبر فرنسا إلى ريمز ، وإن كان
معنى ذلك المرور بأرض معادية . وقابل جيشه قوات إنجليزية في مونج
وبوجنسى وباتاي ، وأحرز انتصارات حاسمة ، لطخوها بمذابح انتقامية ،
أفزعت العذراء . ولما رأت جندياً فرنسياً ، يذبح أسيراً إنجليزياً ، ترجلت
عن جوادها ، وأمسكت برأس الرجل المحتضر في يديها ، وواسته ،
وأرسلت تطلب كاهناً ، يعترف له . وفي الخامس عشر من يوليو ، دخل
الملك ريمز ، وفي السابع عشر ، رسم وتوج في احتفالات رائعة في الكاتدرائية
العظيمة . ورأى جاك دارك ، وهو عائد من دومري ابنته ، في زى الرجال ،
تمتطي صهوة جوادها في أبهة عبر عاصمة فرنسا الروحية ، فلم يدع الفرصة
تفوته ، وضمن بوساطتها ، إعفاء قريته من الضرائب . واعتزت جان نوبة
عابرة ، اعتقدت فيها أن مهمتها ، قد انتهت ، وفكرت ، « ان رضى الله
أن أرحل وأرعى الأغنام مع أختي وأخى » .

ولكن حمى القتال مازجت دماءها . ومع أن نصف فرنسا اعتقد أنها
ملهمة ومقدسة ، فقد كادت تنسى الآن أنها قديسة ، وأصبحت محاربة .
كانت حازمة مع جنودها ، تؤنبهم في حب ، وجردتهم من وسائل التسلية
التي يعدها جميع الجنود حقاً لهم ، ولما رأت بغيتين في صحبتهم ، جردت سيفها
من غمده ، وضربت إحداها بقوة ، تحطم معها السيف وماتت المرأة ،
وتبعت الملك وجيشه في غارة على باريس ، وكان الإنجليز لا يزالون يحتلونها ،
وكانت في العربة عند تطهير الخندق الأول ، وما إن اقتربت من الخندق
الثاني ، حتى أصيبت بسهم في فخذه ، ولكنها ظلت تحث الجنود . وفشل
هجومهم ، وبلغت إصاباتهم ألفاً وخمسمائة ، فلعنوها لأنها ظنت أن الصلاة
قد تسكت مدفعاً ، ولم يكن ذلك من تجاربهم . واتهمها بعض الفرنسيات
اللائى كن يتسقطن أول إخفاق لها بأنها قادت هجوماً يوم ميلاد العذراء

(٨ سبتمبر ١٤٢٩) . فانسحبت يفرقتها إلى كومبيين ، ولما حاصرها هناك البرغنديون المتحالفون مع الإنجليز ، قادت هجوماً ببسالة ، ولكنه صد ، وكانت آخر من انسحب ، ووجدت أبواب المدينة قد أوصدت قبل أن تبلغها . فسحبت عن جوادها ، وأخذت أسيرة إلى جون صاحب لكسمبورج (٢٤ مايو ١٤٣٠) وكرمها هذا السيد وأسكنها في قلاعه في بوليوو بوريفوار . وأوقعه حسن حظه في مأزق خطير . فإن مولاه ، فيليب الطيب صاحب برجنديا ، طالب بالغنيمة الثمينة ، وحث الإنجليز ، سيرجون على أن يسلم الفتاة إليهم ، آمليين أن يؤدي إعدامها العلني إلى تحطيم ذلك السحر الذي طالما قوى من عزائم الفرنسيين ، وأرسلوا يير كوشون ، أسقف بوفيه ، الذي طرد من كنيسة لمناصرته الإنجليز ، إلى فيليب بالسلطة والمال ليتفاوض على نقل العذراء إلى السلطات الإنجليزية ، ووعدوه إن وفق في مهمته ، أن ينصبوه كبيراً لأساقفة روين . وكان دوق بدفورد ، مدير جامعة باريس ، فناشد علماءها ، أن ينصحوا فيليب بأن يسلم جان . فقد تكون ساحرة خارجة على الدين ، إلى كوشون باعتباره رئيس الكهنوت في المنطقة التي أسرت فيها . ولما رفضت هذه المطالب ، قدم كوشون إلى فيليب وجون رشوة مقدارها عشرة آلاف كراون من الذهب . ولم تنجح هذه المحاولة أيضاً ، ففرضت الحكومة الإنجليزية حظراً على جميع الصادرات إلى الأراضي الواطئة : فواجهت فلاندرز الإفلاس ، وهي أغنى مصدر لموارد الدوق . ووافق نجون على الرغم من توسلات زوجته ، كما وافق فيليب على الرغم من لقب «الطيب» الذي يتسمى به ، على قبول الرشوة آخر الأمر ، فأسلما العذراء إلى كوشون ، الذي أخذها إلى روين . ومع أنها كانت من الناحية الرسمية هناك ، من سجناء محكمة التفتيش ، إلا أنها وضعت تحت الحراسة الإنجليزية في برج قلعة ، يحتلها إيرل ورويك بصفته حاكم روين . ووضعت الأغلال في قدميها ، ولفوا وسطها بقيد وربطت إلى جذع من الخشب .

وبدأت محاكمتها في الواحد والعشرين من فبراير عام ١٤٣١ ، واستمرت إلى اليوم الثلاثين من مايو . ورأس كوشون المحاكمة ، وقام أحد كهانه مدعياً عاماً . ومثل راهب دومينيكي محكمة التفتيش ، وأضيف حوالى أربعين من علماء الدين والشريعة إلى هيئة المحكمة . وكانت التهمة هي الهرطقة : وأفتت الكنيسة بأن ادعاء تلقى الوحي الإلهي هرطقة عقوبتها الإعدام ، وذلك لكي تقمع الفريق المفرع من المتجرين بالسحر ، الذين ابتليت بهم أوروبا . فأحرقت الساحرات ، لادعائهن القوى الخارقة ، والرأى الشائع ، بين رجال الكنيسة والمدنيين ، أن الذين يدعون مثل هذا الادعاء ، يكونون قد حصلوا في الواقع على القوى الخارقة من الشيطان . ويبدو أن بعض قضاة جان ، كانوا يعتقدون هذا في قضيتها ، وفي رأيهم أن رفضها الاعتراف بأن سلطة الكنيسة باعتبارها ، وكيل الله على الأرض ، تنسخ أوامر هواتفها ، يثبت أنها ساحرة . ثم أخذ أغلبية أعضاء المحكمة بهذا الرأى ، ومع ذلك فقد تأثروا من بساطتها الصريحة في إجاباتها ، وبتقواها وظهرتها الواضحتين ، فقد كانوا بشراً ، ويبدو أنهم شعروا بقدر عظيم من الشفقة نحو هذه الفتاة التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها ، وكان من الواضح أنها ضحية الخوف من الإنجليز . قال وروك بصراحة الجندی « إن ملك إنجلترا قد دفع فيها ثمناً باهظاً ، وهو لن يتركها مهما يكن ، تموت ميتة طبيعية » . واقترح بعض أعضاء المحكمة أن الأمر ينبغى أن يعرض على البابا — وذلك يخلصها ويخلص المحكمة من السلطة الإنجليزية . وأبدت جان رغبة في أن ترسل إليه ، ولكنها عقدت مفاضلة فاصلة قضت عليها ، فإنها تعترف بسلطته العليا في شئون العقيدة ، أما فيما يتعلق بما فعلته إطاعة هواتفها ، فليس لها من قاض غير الله . وأجمع القضاة على أن قولها هذا هرطقة . وقضت في المحاكمة شهوراً أنها كتمتها ، وأقنعت بأن توقع على تنازل عما سبق أن قالته ، ثم رأت أنها بهذا ستقضى حياتها سجيناً في نطاق القضاء الإنجليزي ، فسحبت تنازلها ، وأحاط الجنود

الإنجليز بالمحكمة ، وهددوا القضاة بالقتل ، إذا لم تمت العذراء حرقاً .
وفي الواحد والثلاثين من مايو ، اجتمع نفر من القضاة وحكموا عليها
بالإعدام .

وفي الصباح نفسه ، وضعت أكوام مرتفعة من الحطب في ساحة السوق
بمدينة زوين . ونصبت منصتان بالقرب منها — إحداهما لونسستر كاردينال
إنجلترا وأساقفته ، والأخرى لكوشون والقضاة ، ووقف للحراسة ثمانمائة
من الجنود البريطانيين . وأحضرت العذراء في عربة ، يصحبها راهب
أوغسطيني ، واسمه ، إسامبار ، الذي صادقها إلى النهاية ، معرضاً حياته
للخطر . وطلبت صلياً ، فسلمها أحد الجنود الإنجليز لياها ، وقد صنعه من
قضيبين من الخشب ، فقبلته ، ولكنها طلبت أيضاً ، صلياً باركته الكنيسة ،
وأقنع إسامبار الموظفين ، أن يحضروا إليها صلياً من كنيسة سانت سوفير .
فزجر الجند من التأخير لأن الوقت أصبح ظهراً . وسأل قائدهم « أتريدوننا
أن نتناول غداءنا هنا ؟ » . فانتزعها رجاله من أيدي القساوسة ، وساقوها
إلى القائمة التي تشد إليها . ورفع إسامبار ، أمامها صلياً ، وصعد راهب
دومينيكي معها إلى المحرقة . وأشعلت أكوام الحطب ، وارتفعت ألسنة
اللهب إلى قدميها . فلما رأت الراهب الدومينيكي ، لا يزال إلى جانبها ،
ناشدته أن يهبط آمناً . وابتهمت إلى هواتفها ، وقديسيها ، والملك ميكائيل
والمسيح ، ودخلت في سكرات الموت . وتنبأ أحد كتاب سر الملك الإنجليزي
بحكم التاريخ باكياً . . « قضى علينا ، لقد أحرقنا قديسة » .

وفي عام ١٤٥٥ أمر البابا كاليكستاس Calixtus الثالث ،
بوحى من شارل السابع ، أن يعاد فحص الأدلة التي أدين بها جان ،
وفي عام ١٤٥٦ (وكانت فرنسا منتصرة حينذاك) أعلنت المحكمة الدينية
التي أعادت النظر في الموضوع ، أن الحكم الذي صدر عام ١٤٣١ ، ظالم
وباطل . وفي عام ١٩٢٠ عد البابا بينديكت الخامس عشر عذراء أورليان ،
بن قديسي الكنيسة .

١٠ - فرنسا تبقى ١٤٣١ - ١٤٥٣

يجب علينا ألا نبالغ في الأهمية الحربية لجان دارك ، وربما كان في استطاعة دينوا ولاهير ، أن ينقذا أورليان بدونها ، فإن خططهما في الهجوم المتهور أحرزت النصر في بعض الوقائع والهزيمة في الأخرى ، وكانت إنجلترا تحس تكاليف حرب المائة عام . ولقد وقع فيليب صاحب برجنديا وحليف إنجلترا ، معاهدة منفصلة مع فرنسا ، بعد أن مل الحرب ، وزعزع تحلفه ، قبضة الإنجليز على المدن التي غزوها في الجنوب ، فتمكنت الواحدة بعد الأخرى من طرد الحاميات الأجنبية عنها . وأجلت باريس ، البريطانيين عام ١٤٣٦ . بعد أن ظلت محتلة سبع عشرة سنة ، وحكم شارل السابع آخر الأمر في عاصمة ملكه .

ومن عجيب ما يروى ، أن هذا الرجل الذي لبث طويلاً كالحيال لا حول له ولا قوة ، قد تعلم في ذلك الحين أن يحكم ويختار الوزراء الأكفاء ، وأن يعيد تنظيم الجيش ويهدئ من ثورة البارونات وأن يفعل كل ما يحقق الحرية لبلاده . فما الذي أحدث هذا التحول ؟ لقد حفزه إليه وحى جان ، فما كان أضعفه - فيما يبدو - إذ لم يرفع إصبعاً لإنقاذها . . . ويروى أن حماته الجديرة بالاحترام ، يولاند أميرة أنجو هي التي أعانته بالرأى السديد ، وشجعته على استقبال العذراء ومناصرتها . ونحن - إذا صدقنا الرواية - قلنا إنها قدمت لزوج ابنتها الحظية ، التي ظلت تتحكم في قلب الملك عشر سنوات . وكانت انبيه سورل - وهذا اسمها - ابنة سيد في تورين ، وكانت يتيمة في طفولتها ، فنشأتها على الأخلاق الحميدة ، إيزابل دوقة لورين . ثم محبتها ، وهي إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمرها ، لزيارة البلاط الملكي في شينون عام (١٤٣٢) أي بعد عام واحد من وفاة جان . وفتن شارل بجذائل شعرها الكستنائي ، وأغرم بضحكتها ، فأثرها لنفسه . ووجدتها يولاند سهلة الانقياد ، فرأت أن تصطنعها في التأثير على الملك ،

وناشدت ابنتها ماري ، أن تقبل هذه الحظية الأخيرة من حظيات زوجها . واستمرت مخلصه للملك ، خاتنة لعهود الزواج طوال حياتها ، حتى إن ملكاً ممن جاءوا بعد ذلك وهو فرنسيس الأول ، وكان صاحب خبرة طويلة بهذه الأمور امتدح ، « سيدة الجمال كله » بأنها خدمت فرنسا أكثر من أي راهبة حبيسة في دير . « والتد شارل طعم الحكمة من هاتين الشفتين » ، ولقد سمح شارل لها أن تخرجه من عادة الحمول والجن إلى الحد والعزم . فجمع حوله رجالاً قادرين مثل الياور ريشمون ، الذي قاد جيوشه ، وجاك كير الذي أعاد الاستقرار إلى مالية الدولة ، وجان بيرو ، الذي جعلت مدفعيته ، النبلاء المعارضين يلوذون بالفرار والإنجليز يسرعون إلى كاليه .

وكان جاك كير مغامراً في التجارة ، ورجلاً لا يعرف نسبة وحظه من التعليم قليل ، ومع ذلك ، كان يجيد العد ، كما كان فرنسياً اجترأ على أن ينافس بنجاح البندقيين والجنوبيين والقطلاتيين في التجارة مع الشرق الإسلامي . وكان يملك سبع سفن تجارية مجهزة ، يعمرها بمجرمين يستأجرهم ، ومشردين يختطفهم من عرض الطريق ، ثم يرسل سفنه تخوض البحار يرفرف عليها علم العذراء . واستطاع أن يجمع أعظم ثروة في فرنسا لعهدده ، حوالي ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، عندما كان الفرنك يساوي ما يقرب من خمسة دولارات بالعملة الهزيلة في أيامنا . وفي عام ١٤٣٦ عينه شارل مشرفاً على دار سك النقود ، وسرعان ما جعله مشرفاً على موارد الحكومة ، ومصرفاتها . ولقد أيد مجلس الولايات عام ١٤٣٩ ، الملك بحماسة في تصميمه على طرد الإنجليز من الأرض الفرنسية ، فشد من عزمته بقوانين متعاقبة (١٤٤٣ — ١٤٤٧) ليستولي على جميع الضرائب في فرنسا — أو بعبارة أخرى جميع الضرائب ، التي كان يدفعها المستأجرون لسادتهم الإقطاعيين ، فزاد دخل الحكومة سنوياً إذ ذاك إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ كراون ، فأصبحت الملكية الفرنسية ، منذ ذلك الوقت ، تختلف عن الملكية الإنجليزية ، في استقلالها

عن السلطان المالى للولايات ، وتستطيع أن تقاوم نمو ديمقراطية الطبقة الوسطى . وأمد هذا النظام القومى للضرائب ، الحكومة بالمال من أجل انتصار فرنسا على إنجلترا ، ولكن الملك كان قادراً على زيادة معدل الضريبة ، فقد أصبح ذلك وسيلة أساسية من وسائل الضغط الملكى ، وهو من أسباب اندلاع ثورة عام ١٧٨٩ . وكان لحاك كور شأن كبير فى هذا التطور المالى ، فاكسب إعجاب الكثيرين وعداوة قلة من الأقوياء . فقبض عليه عام ١٤٥١ بتهمة - لم تثبت أبداً - استئجار عملاء ليدسوا السم لأنثيه سورل وأدين ونفى من البلاد وصادرت الدولة جميع أمواله - وهى خطة بارعة للاغتصاب بطريق غير مباشر . ففر إلى روما ، حيث نصب ، أمير بحر على أسطول بابوى ، أرسل لتخليص رودس . ومرض فى كيوس ، ومات هناك عام ١٤٥٦ ، بالغاً من العمر إحدى وستين سنة .

وفى الوقت نفسه سار شارل السابع على منوال كير ، فأنشأ عملة مستقرة ، وجدد بناء القرى المحرقة ، وارتقى بالصناعة والتجارة ، وأعاد الحيوية الاقتصادية إلى فرنسا . وأمر بتسريح الفرق الخاصة من الجنود ، وألحق هؤلاء المسرحين بخدمته ، وهكذا تكون أول جيش نظامى فى أوروبا ، (١٤٣٦) . وأصدر مرسوماً ، نص على أنه يجب أن يوجد فى كل ناحية ، مواطن شديد البأس ، منتخب من زملائه ، يعنى من الضرائب كلها ، وأن يكون مسلحاً ، مدرباً على استعمال الأسلحة ، مستعداً فى كل لحظة ، لينضم إلى أمثاله فى الخدمة العسكرية للملك . وهؤلاء الرجال الأحرار من حملة القسى هم الذين طردوا الإنجليز من فرنسا .

وما أشرف عام ١٤٤٩ حتى كان شارل متأهباً للخروج على الهدنة التى وقعت عام ١٤٤٤ . وتعجب الإنجليز وصدموا وكانت قد أضعفتهم المنازعات الداخلية ، ووجدوا أن إمبراطوريتهم الآفلة فى فرنسا تكلفهم فى القرن الخامس عشر ما لا طاقة لهم به كما تنقل عليهم الهند فى القرن العشرين ،

فلقد تكلفت فرنسا على انجلترا عام ١٤٢٧ ثمانية وستين ألف جنيه في حين حصلت منها على سبعة وخمسين ألفاً فقط . وحارب الإنجليز بشجاعة ولكن بغير تبصر ، إذ اعتمدوا طويلا على القسى والقضبان ، ولم تعد الحطط التي صدت الفرسان الفرنسيين في كرسى وبواتيه تجدى في فورمينى (١٤٥٠) ، في الصمود أمام مدفع بيرو . وفي عام ١٤٤٩ جلا الإنجليز عن معظم نورمانديا ، وتركوا عاصمتها روين عام ١٤٥١ . وهزم تالبوت العظيم عام ١٤٥٣ وقتل في كاسلون ، واستسلمت بوردو ، وعادت جوين بأسرها فرنسية مرة أخرى ، واحتفظ الإنجليز بمدينة كاليه فقط . ووقعت الأمتان في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٤٥٣ المعاهدة التي وضعت حدا لحرب المائة عام .

الفصل الرابع

بلاد الغال الخالدة

١٤٥٣ - ١٥١٥

١ - لويس الحادى عشر : ١٤٦١ - ١٤٨٣

وكان ابن شارل السابع وولى عهده متعباً على غير العادة . ولقد زوج وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، رغم إرادته (١٤٣٦) من مارجريت صاحبة اسكتلندا ، وكان عمرها إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، فانتقم لنفسه بإهمالها واتخاذ الحليلات . وأغزمت مارجريت بالشعر ، ووجدت السلام الأبدى فى الموت المبكر (١٤٤٤) وقالت وهى تلفظ أنفاسها « تبا للحياة . . امسكوا الحديث عنها . . » وانتفض لويس على أبيه مرتين ، وفر إلى فلاندرز بعد المحاولة الثانية ، وانتظر نافذ الصبر أن يوول السلطان إليه . وأعانه شارل على بلوغ مأربه ، بأن انقطع عن الطعام إلى أن مات (١٤٦١) ، وحكم فرنسا بذلك واحد من أعجب الملوك وأعظمهم طيلة اثنتين وعشرين سنة .

وكان إذ ذاك فى الثامنة والثلاثين ، نجى غليظ القلب ، غير منغمس فى الترف ، له عينان مرتابتان وأنف طويل ، أقرب إلى الفلاح فى مظهره ، تتخذ زى الحاج الزاهد الذى يتألف من رداء أغبر خشن وقبعة رثة من اللباد ، وكان يصلى كالقديس ، ويحكم كأنما قرأ كتاب « الأمير » قبل أن يولد . مكيا فى . . واحتقر أهبة الإقطاع ، وسخر من التقاليد والمراسيم ، وبحث فى شرعية مولده ، وأذهل جميع العروش ببساطته . وعاش فى قصر دى تورنل الكتيب بباريس ، أو قصر بلسيه له تور ، بالقرب من مدينة تور ، كالأعزب ، وإن تزوج مرتين ، وكان شحيحاً وإن كان يمتلك فرنسا ،

ولم يحتفظ من الخدم إلا بالنفر الذين كانوا معه في المنى ، ولا يأكل من الطعام إلا بمقدار ما يتاح لأحد الفلاحين ، ولم يكن مظهره ينبئ عن شيء ، وإن كان ملكاً في كل شيء .

فلقد أخضع كل عنصر في شخصه لإرادته المصممة ، وكان على فرنسا ، أن تتحول بمطرقته ، من التمزق الإقطاعي إلى وحدة ملكية ودولة موحدة ، إذ يجب على هذه الحكومة الملكية المركزية أن ترفع فرنسا من رماد الحرب إلى حياة جديدة وبأس جديد ، ووقف لويس فكره أثناء الليل وأطراف النهار ، على هدفه السياسي ، بعقل واضح ماهر ، مبتكر ، لا يهدأ ، مثله في ذلك مثل قيصر ، يرى أنه ما من شيء يتحقق ، مادامت له بقية تحتاج إلى عمل . « أما السلام فلا يكاد يحتمل مجرد التفكير فيه » ، كما قال كومينيس . ومع ذلك فلم يكن موفقاً في الحرب ، وآثر الدبلوماسية والتجسس ، والرشوة على استعمال القوة ، وجمع الناس حوله لتأييد أهدافه بالإقناع والتلق والتخويف ، واحتفظ بحشد كبير من الجواسيس في خدمته في داخل البلاد وخارجها ، وكان يدفع مرتبات سرية بانتظام لوزراء ملك إنجلترا ادوارد الرابع . ويستطيع أن يستسلم ويحتمل الإهانة ويتظاهر بالخضوع ، وينتظر فرصة للنصر أو الانتقام . ووقع في أخطاء جسام ، ولكنه تخلص منها ببراعة مذهلة غير هيابة : ولقد عني بكل ما يتصل بالحكومة من تفاصيل ، ولم يكن ينسى شيئاً . وادخر مع ذلك فسحة من الوقت للأدب والفن ، فقرأ بهم ، وجمع المخطوطات ، وفطن إلى الثورة التي ترهص بها المطبعة ، واستمتع بصحبة المثقفين ، وبخاصة إذا كانوا « بوهيميين » بالمفهوم الباريسي . وانضم وهو في منفاه بفلاندرز إلى كونت شاروليه ، في تأليف أكاديمية للعلماء ، الذين أساغوا حذلقهم بحكايات مرحة على منهج بوكاشيو ، ولقد جمع انتوان دي لاسال ، بعضها في مصنفه « مائة حكاية جديدة » واشتدت وطأة الملك على الأغنياء ، ولم يحفل بالفقراء ، وكان

معادياً لتقابات الغمال ، وآثر الطبقة الوسطى باعتبارها أقوى مؤيد له ، ولم يرحم الذين يعارضونه أيا كانت طبقتهم وأمر ، بعد ثورة بربريان ، بأن تجب مذاكير ، كل ثائر منى ، يجسر على العودة . وفى حروبه مع النبلاء حبس بعض الأعداء أو الخونة السنوات الطوال فى أقفاص من الحديد طولها ثمانية أقدام وعرضها مثل ذلك وارتفاعها سبعة ، وهى وسائل ابتكرها أسقف فردان ، الذى شغل قفصا منها بعد ذلك أربع عشرة سنة . واشتد إقبال لويس فى الوقت نفسه على الكنيسة ، لحاجته إلى معونتها ضد النبلاء والدول ، وكانت معه مسيحة لا تكاد تفارق يده ، يردد عليها الصلاة الربانية وينقطع لصلاة العذراء ، انقطاع راهبة فى سكرات الموت ، ولقد افتتح عام ١٤٧٢ صلاة التبشير - وهى صلاة ظهر للعذراء من أجل سلم المملكة . وزار الأضرحة المقدسة ، وسجل الآثار الدينية ، ورشا القديسين ليقوموا بخدمته ، وأخذ العذراء معه فى حروبه . ولما قضى ، عرض كقديس على حامل فى كنيسة فى مدينة تور .

ونخلق بأخطائه هذه فرنسا الجديدة إذ وجدها مجموعة منحلة من الإمارات الإقطاعية والكهنوتية ، فجعل منها أقوى أمة فى العالم المسيحى اللاتينى . واجتلب نساغى الحرير من إيطاليا . وعمل المناجم من ألمانيا ، وعمل على تحسين الموانئ ووسائل المواصلات ، وحماية السفن الفرنسية ، وفتح أسواقاً جديدة للصناعة الفرنسية ، وجعل حكومة فرنسا حليفة للبورجوازية التجارية والمالية الناهضة . ورأى أن التوسع فى التجارة عبر الحدود المحلية والقومية فى حاجة إلى إدارة قوية مركزية . ولم يعد الإقطاع ضرورياً لحماية الزراعة والإشراف عليها ، وكانت طبقة الفلاحين تحرر نفسها ببطء من العبودية الحامدة ، ولقد مضى الزمن الذى كان فيه الأمراء الإقطاعيون يشرعون القوانين الخاصة بهم ، ويضربون سكهم ، ويمارسون السيادة على ولاياتهم ، وألزمهم شارل بوسائل صالحة وطالحة بالخضوع والنظام واحداً بعد واحد . (١٢)

وقيد حقهم في الاعتداء على أملاك الفلاحين في صيدهم ، وأنشأ إدارة بريد حكومية تحترق ولاياتهم (١٤٦٤) ، وحرّم عليهم ، أن يخوضوا حروباً خاصة بهم ، وطالبهم بالتأخر من الالتزامات التي أنفقوا في دفعها لسادتهم في الإقطاع وهم ملوك فرنسا .

ولم يكن الأمراء الإقطاعيون يحبونه . فاجتمع ممثلون لخمسة أسرة نبيلة في باريس وألفوا جبهة الصالح العام (١٤٦٤) ليبسطوا أيديهم على امتيازاتهم بشعار الصالح العام . وانضم كونت شاروليه إلى هذه الجبهة ، فقد جعلته وراثته لعرش برجنديا مشوقاً لضم شمال شرق فرنسا إلى دوقيته . ورحل شارل دوق برى وهو شقيق الملك لويس نفسه ، إلى بريتاني وتزعم الثورة . . . فتجمعت الأعداء والجيوش من كل جانب ضد الملك ، ولو استطاعوا أن يتحلوا لقضوا على الملك ، وكان أمله الوحيد أن يهزمهم متفرقين فرادى . فاندفع جنوباً عبر نهر آلييه ، وأكره قوة معادية على التسليم ، وأسرع عائداً إلى الشمال في الوقت المناسب ليحول بين جيش برجندي وبين دخول عاصمته . وادعى كل فريق أنه انتصر في معركة مونتهيري ، وانسحب البرجنديون ، ودخل لويس باريس وعاد البرجنديون مع حلفائهم وحاصروا المدينة . ولم يشأ لويس أن يخاطر بدفع الباريسيين إلى الثورة عليه ، وهم الذين يأبى عليهم ذكاؤهم أن يموتوا جوعاً فلم بمقتضى معاهدة كنفلان (١٤٦٥) كل ما كان يطلبه أعداؤه تقريباً - الأرض - والمال والمناصب ، وأخذ أخوه شارل نورمانديا . ولم يذكر شيء عن صالح الشعب ، وكان لابد من فرض ضرائب على الناس لجمع الأموال المطلوبة . وانتظر لويس وقته الملائم .

وسرعان ما انزل شارل إلى محاربة الدوق فرنسيس صاحب بريتاني ، الذي أسره ، وسار لويس إلى نورمانديا واستعادها بلا إراقة دماء . ولكن فرنسيس ، الذي توقع بحق ، أن لويس يطلب بريتاني أيضاً ، تحالف مع كونت شاروليه - وكان قد أصبح وقتذاك الدوق شارل الجسور صاحب

برجنديا — في معاهدة هجومية ، ضد الملك الذى لا رادع له . وشحن
لويس كل وسيلة من وسائل الدبلوماسية ، فعقد صلحاً منفرداً مع فرنسيس ،
واتفق على حضور مؤتمر شارل في بيرون . وكانت نتيجة ذلك ، أن سمح
شارل ، وأرغمه على التنازل عن بيكاردى والاشتراك في تطويق لياج .
وعاد لويس إلى باريس وقد بلغ الحضيض في السمعة والسلطان ، بل إن
البيغاوات دربت على السخرية منه (١٤٦٨) . وبعد عامين ، من تبادل
الحيانة والغدر ، انتهز لويس فرصة انشغال شارل في جلدلاند ، وسير
جيوشه إلى سانت كونتان وأمين وبوفيه . فآلح شارل على إدوارد الرابع
أن يتحد معه على فرنسا ، ولكن لويس أبعد إدوارد عن هذا المشروع
بالمال . وكان يعرف كلف إدوارد بالنساء ، فدعاه إلى الحضور ، ليلهو
مع نساء باريس ، كما أبدى استعداداً أن يعين لإدوارد ، كاردينال بوربون ،
ليكون صاحب كرسي الاعتراف الملكي ، الذى « يسره أن يحله ، إن
اقترب خطيئة ما بوساطة الحب أو الشهامة » . واحتال حتى جعل شارل
يقع في حرب مع سويسرا ، حتى إذا قتل شارل لم يأخذ لويس بيكاردى
فحسب وإنما أخذ برجنديا نفسها أيضاً (١٤٧٧) . وهدأ من سورة النبلاء
البرجنديين بالذهب ، وأرضى الشعب بأن اتخذ له خلية برجندية .

وأحس عندئذ أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يواجه البارونات
الذين ظالموا حاربوه ، وقلما لبوا نداءه ، أن يخرجوا للحرب من أجل فرنسا .
وكان أكثر الأمراء الذين تأمروا عليه عام ١٤٦٥ قد ماتوا ، أو أقعدتهم
الشيخوخة . وتعلم خلفاؤهم أن يخشوا ملكاً ، يقطع رؤوس الخونة من
الأرستقراطية ويصادر ضياعهم ، ملكاً أنشأ جيشاً قوياً من المرتزقة ،
وأنه مستعد على الدوام لجمع الأموال الطائلة لشراء الضمائر ودفع الرشى .
وآثر لويس أن ينفق أموال شعبه لا أرواحه ، فاشترى سردينيا وروسيون
من أسبانيا . وحصل على روشل يموت أخيه ، وأخذ النسوان وبلوا عنوة ،

وألح على رينيه أن يتنازل عن بروفنس للتاج الفرنسي (١٤٨١) ، وبعد ذلك بعام عادت أنجوومين إلى الملكية ، وفي عام ١٤٨٣ تنازلت فلاندرز ، وكانت تنشُد معونة لويس ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عن كونتية ارتوا مع المدينتين المزدهرتين اراس ودواي . وهكذا قهر لويس البارونات وسيطر على مجالس البلديات والولايات فأنجز بذلك لفرنسا تلك الوحدة القومية والإرادة المركزية التي أنجز مثلها بعد عشر سنوات هنري السابع ، لانجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، واسكندر السادس للولايات البابوية . وهذا الصنيع وإن أحل طغيان فرد محل طغيان أفراد كثيرين ، إلا أنه كان في ذلك الوقت حركة تقدمية ، توطد النظام في الداخل والأمن في الخارج ، وثبت العملة والمقاييس ، وتذيب اللهجات في لغة واحدة ، وتعين على نمو أدب وطني لفرنسا . ولم تكن الملكية مطلقة ، فقد احتفظ النبلاء بسلطات كبيرة ، وكانت موافقة مجلس الولايات ضرورية ، في العادة لإقرار الضرائب الجديدة . وأعفى النبلاء والموظفون ورجال الدين من الضرائب . أعفى النبلاء على أساس أنهم حاربوا من أجل الشعب ، والموظفون لأنهم كانوا يبخسون في الأجر والرشوة ، ورجال الدين لأنهم يحمون الملك والوطن بصلاواتهم . وكان الرأي العام والعرف السائد يحدان من سلطة الملك ، وكانت المجالس المحلية لاتزال تزعم أن أي مرسوم ملكي بقانون لا يصبح نافذا في مناطقهم إلا إذا وافق الأعضاء عليه ووثقوه . ومهما يكن من شيء فقد فتح الطريق للملك لويس الرابع عشر ونظام « أنا الدولة » .

وأخذ لويس نفسه بين هذه الانتصارات جميعاً يذوى جسماً وعقلاً . فسجن نفسه في بليسيه — ليه — تور ، خوفاً من الاغتيال ، وارتاب في الجميع ، وقلما رأى إنساناً ، وعاقب على الأخطاء والنقائص بقسوة ، وارتدى بين حين وآخر حلاتناقص فخامتها أرديته الخشنة في مطلع حكمه

وأصبح نحيلاً شاحباً حتى إن الذين رأوه تعذر عليهم أن يصدقوا أنه على قيد الحياة . وكابد الآلام سنوات من البواسير . وأصيب بالفالج في بعض الأحيان . وفي الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٤٨٣ ، أصابته نوبة من الفالج أفقدته النطق ، وما لبث خمسة أيام حتى مات .

فابتهج رعاياه ، لأنه أجبرهم على أن يدفعوا ما لا طاقة لهم به من تكاليف هزائمه وانتصاراته ، مما زاد الشعب فقراً ، وفرنسا عظمة ومجداً ، في كنف سياسته التي لا ترحم . ومع ذلك فإن العصور التي جاءت بعده ، أفادت من إخضاعه النبلاء ، وإعادة تنظيم المالية والإدارة والدفاع ، ورقية بالصناعة والتجارة والطباعة ، وتكوينه دولة موحدة حديثة . ولقد كتب كومنيس « إذا أحصيت جميع أيام حياته وعقدت موازنة بين المسرات والمباهج وبين آلامه ومتاعبه ، فستكون النتيجة ، عشرين يوماً محزوناً في مقابل يوم واحد بهيج . ولقد دفع هو وجيله ثمن ازدهار فرنسا وأبتها في المستقبل » .

٢ - المغامرة الإيطالية

وكان شارل الثامن في الثالثة من عمره عندما مات أبوه فلبثت أخته آن دي بوجيه ، ولم تكن تكبره بغير عشرين سنين ، تحكم فرنسا بتعقل ثمانى سنوات . فخفضت نفقات الحكومة ، وأعفت الشعب من ربع ضريبة الرؤوس ، وأعادت كثيرين من المنفيين ، وأطلقت سراح كثيرين من المسجونين ، ووقفت في مقاومة محاولات البارونات ، « الحرب الحمقاء » (١٤٨٥) ، لاستعادة سيادتهم المحلية التي انتزعها لويس . ولما اشتركت بريتانى مع أورليان ولورين وانجوليم وأورانج ونافار في عصيان آخر ، استطاعت بدبلوماسية وقيادة لويس دي لاترمويل أن تهزم الجميع ، وكانت مظفرة في وضع حد لهذه المشكلة بأن أعدت لزواج شارل من آن صاحبة بريتانى ، التي قدمت دوقيتها العظيمة صداقاً لتاج فرنسا (١٤٩١) . وعندئذ اعتزلت

تجاءبة الملك الحكم وعاشت بقية حياتها ، وهي إحدى ثلاثين سنة آمنة في زوايا النسيان .

أما الملكة الجديدة ، وإن اتفقت معها في الاسم إلا أن شخصيتها كانت مختلفة تمام الاختلاف ، فلقد كانت قصيرة مسحاء نحيفة عرجاء ، غليظة الأنف واسعة الفم على وجه قوطى طويل ، ولها عقلها الخاص بها ، وفيها من الدهاء والبخل ما في كل بريثاني . ومع أنها كانت بسيطة في ثيابها ، بحلتها وقلنسوتها السوداءوين ، إلا أنها كانت في المناسبات الرسمية — تتلألاً بالجوهر والثياب الموشاة بالذهب ، وهي لا شارل التي قربت الفنانين والشعراء ، وكلفت جان بورديشون أن يصور « صلوات آن أميرة بريثاني » . ولم تنس قط موطنها الحبيب بريثاني وطرائقها في الحياة ، فغلفت كبرياءها بالتواضع ، وعكفت على حياكة الثياب ، وكافحت من أجل إصلاح أخلاق الملك وحاشيته .

ويقول برنتوم الثرثار « إن شارل يشغف بالنساء أكثر مما تحتمله ، بنيته النحيلة » . واقتصر بعد زواجه على خلية واحدة . ولم يكن يستطيع أن يشكو من منظر زوجته ، فلقد كان هو نفسه طويل الرأس أحديب ، قسماته تم على السداجة ، عيناه واسعتان بلا لون ، قصير النظر ، وشفته السفلى غليظة ومتدلّية ، متردد في الحديث ، ويداه ترتعشان في تشنج . ومع ذلك كان حسن الطبع ، رحيماً مثالياً في بعض الأحيان . وقرأ قصص الفروسية ، وامتلاً رأسه بفكرة إعادة فتح نابلي لفرنسا وبيت المقدس للعالم المسيحي . وظلت أسيرة انجو ، تبسط يدها على مملكة نابلي (١٢٦٨ — ١٤٣٥) إلى أن انتزعها منهم ألفونسو صاحب أراجون ، وانتقلت مطالبة دوقات انجو بملكها إلى لويس الحادي عشر بالوراثة ، ثم جهر شارل بالمطالبة . واعتقد مستشاروه أنه آخر إنسان في العالم يستطيع أن يقود جيشاً في حروب كبيرة ، ولكنهم أملوا أن تمهد الديبلوماسية طريقه ، وأن الاستيلاء على نابولي ،

سيُسمح للتجارة الفرنسية ، أن تتحكم في البحر الأبيض المتوسط . وتركوا
أرتوا فرائش - كونتيه إلى ماكسميليان صاحب النمسا وسردينيا وروسيون
لفرديناند ملك أسبانيا وذلك لحماية أطراف المملكة ، ورجوا أن يحصلوا
على نصف إيطاليا من أجل الأجزاء التي اقتطعت من فرنسا واستطاع
لودوفيكو نائب الملك في ميلان أن يجمع جيشاً قوامه أربعون ألف رجل ،
ومائة مدفع حصار وست وثمانون سفينة حربية . وذلك بفضل الضرائب
الباهظة والجواهر المرهونة والقروض التي سحبت من رجال المال في جنوا .
وخرج شارل مبهجاً (١٤٩٤) ، ولعله لم ير بأساً من أن يخلف وراءه
أخته وزوجته . فقبول في ميلان بالترحيب (وكان بينها وبين نابلي حرازة
تريد أن تحسمها) . ولم يجد عند سيداتها مقاومة ما وخلف بعد مسيره
جمعا من الأبناء غير الشرعيين ، ولكنه أبى في شهامة أن يمس عذراء ناشزة
جلها وصيفه لإمتاعه ، وما كان منه إلا أن أرسل يطلب حبيبها ، ورأس
بنفسه حفل خطوبتهما ، ومنحها صداقاً مقداره خمسمائة كراون . ولم تكن
عند نابلي قوة عسكرية تقاوم جيشه فانتصر عليها في يسر ودخلها (١٤٩٥) ،
واستمتع بجمال مناظرها ، ومطاعمها ونساءها ، ونسى بيت المقدس .
ومن الواضح أنه كان من الفرنسيين السعداء ، الذين لم يصابوا بذلك
المرض التناسلي الذي سمي فيما بعد « بالداء الغالي » لأنه انتشر بسرعة في فرنسا
بعد عودة الجنود إليها . وعقدت « محالفة مقدسة » بين الإسكندر السادس
والبنديقية ولودوفيكو صاحب ميلان (الذي تحول عن ولائه السابق)
فأرغموا شارل على الجلاء عن نابلي والانسحاب عبر إيطاليا التي تناصبه
العداء . وحارب جيشه الآخذ في النقصان معركة غير حاسمة في فورنوفو
(١٤٩٥) ، وعاد مسرعاً إلى فرنسا ، حاملاً معه مقومات النهضة فيما
حمل من أسباب العدوى .

وفي فورنوفو أبدى بيير ثيراي سيد بايار ، لأول مرة وكان إذ ذاك

في الثانية والعشرين من عمره ، شجاعة أكسبته نصف اللقب المشهور الذي عرف به وهو « الفارس الذي لا يخاف ولا يلام » : ولقد ولد في قصر بايار بإمارة ولي العهد ، وهو من أسرة نبيلة ، لم يمت رئيس من رؤسائها طوال قرنين إلا في حومة القتال ، ولعل بيار أراد في هذا اللقاء ، أن يواصل ذلك التقليد . ونفق من تحته جوادان ، وظفر بأحد ألوية العدو ، فيجعله مليكه فارساً تقديراً لبسالته . واستطاع أن يحتفظ في عصر انتشرت فيه الفظاظ والعبث والخيانة بجميع فضائل الفروسية - فقد كان ، في غير تظاهر شهماً ، مخلصاً في غير خنوع . شريفاً في غير ثي ، ونخاض اثني عشر حرباً بروح رحيمة مرحة حتى لقبه معاصروه « الفارس الطيب » ، وسنلقاه مرة أخرى .

وعاش شارل بعد رحلته إلى إيطاليا ثلاث سنوات . وذهب لمشاهدة مباراة تنس في امبواز فصفع رأسه باب غير محكم ، ومات من نزيف في المخ بالغاً من العمر ثمانية وعشرين سنة . ولما كان أبناؤه قد ماتوا قبله ، فقد تحول العرش إلى ابن أخيه دوق أورليان ، الذي أصبح الملك لويس الثاني عشر (١٤٩٨) والذي ولد لشارل صاحب أورليان ، وهو شاعر عندما كان في السبعين من عمره ، وكان لويس عند توليه العرش في السادسة والثلاثين سقيم البنية منذ أمد . وكانت أخلاقه مهذبة على غير عادة ذلك العصر ، وسجاياه صريحة توصى بالحبة ، حتى لقد تعلمت فرنسا أن تحبه ، رغم حروبه التي لانفع فيها وكان يبدو متهما بعدم اللياقة ، لأنه طلق عام تنويجه جان دي فرانس ، ابنة لويس الحادي عشر ، ولكن ذلك الملك العنيد في مرونة ولين هو الذي أرغمه على الزواج من تلك الفتاة التي لا جاذبية لها ، عندما بلغ الحادية عشرة من عمره فقط . ولم يكن يستطيع أن يحبها ، فهو الآن يطلب إلى الإسكندر السادس أن يلغى ذلك الزواج على أساس قرابة العصب ، وأن يقر بناءه بالأرملة آن صاحبة بريتانى -

فى مقابل عروس فرنسية وكونتية ومعاش لابن البابا : قيصر بورجيا -
وحملت آن معها دوقيتها كجزء من جهاز العروس . واتخذتا مسكنهما فى بلوا ،
وأعطيا فرنسا نموذجا ملكياً للحب والإخلاص المتبادلين .

ويمثل لويس الثانى عشر سيادة الشخصية على الفكر . ولم يكن فى دهاء
لويس الحادى عشر ، بيد أن له النية الطيبة والرزانة الحسنة ، والفطنة ،
التي تتيح له أن يجسم الكثير من قوته فى أعوانه الذين أحسن اختيارهم .
وترك الإدارة ، ومعظم السياسة ، إلى صديق عمره جورج ، كاردينال
امبواز ، فأدار هذا الكاهن الحكيم الطيب ، الأمور بحذق ، حتى إن الشعب
المقلب كان كلما جد أمر ، هز كتفيه ، وهمس « دع جورج ينهض به » .
وتعجبت فرنسا عندما وجدت الضرائب المفروضة عليها تخفض ، خفض
أولا العشر ثم الثلث . وانفق الملك الذى نشأ فى النعيم أقل ما يمكن على نفسه
وعلى بلاطه ، ولم يسهن على حسابه مقربون . وألغى بيع الوظائف ، وحرم
على الحكام قبول الهدايا ، وأباح البريد الحكومى للجمهور . وقيد نفسه
بأن يختار ، لكل منصب إدارى شاغر ، واحداً من ثلاثة ، تعيينهم الهيئة
القضائية ، وألا يفصل موظفاً من موظفى الدولة إلا بعد محاكمة علنية وثبوت
عدم النزاهة أو الكفاية عليه . وسخر بعض المزليين ورجال البلاط من اقتصادياته
ولكنه كان يقابل مزاحهم بروح متسامحة . وقال « قد يقولون لنا بين بذاعاتهم
حتمائى نافعة ، دعهم يسلون أنفسهم ، وعليهم أن يحترموا شرف النساء . . .
وخير لى أن أجعل رجال البلاط يضحكون من تقديرى ، على أن أجعل
شعبى يبكى من تبذيرى » ، وكانت أفضل وسيلة تسرى عنه هى أن تدله
على طريقة جديدة تنفع الشعب . ولقد عبر أبناء الشعب ، عن اعترافهم
بالحميل له بأن لقبوه « بأبى الشعب » ولاتذكر فرنسا فى تاريخها مثل هذا
الازدهار .

ومن المؤسف ، أن هذا الحكم السعيد تلطخ صحيفته بغزوة أخرى

لإيطاليا . وربما نهض لويس وغيره من الملوك بهذه الهجمات ، ليشغلوا النبلاء المشاغبين ويتخلصوا منهم ، وهم بغير ذلك يزعمجون فرنسا بالحروب الداخلية ، مهددين بذلك الملكية والوحدة القومية اللتين لم تستقرا بعد . وكان على لويس بعد اثني عشر عاما من النصر في إيطاليا ، أن يسحب جنوده من شبه الجزيرة ، ثم خسر معركة مع الإنجليز في جوينجيت ، (١٥١٣) ، وهي التي أطلق عليها الوصف الساخر « معركة المهاميز » لأن الفرسان الفرنسيين ، فروا من المعركة بسرعة غير عادية . ووقع لويس صلحا ، وقنع بعد ذلك بأن يكون ملك فرنسا فحسب .

وزاد موت آن (١٥١٤) من أحزانه ، ولم تنجب له وريثا للعرش ، وزوج ، وهو غير راض تمام الرضى ، ابنته كلود إلى فرنسيس ، كونت انجوليم ، ويعد الثاني في ولاية العرش . وألح عليه مساعدوه ، أن يتخذ زوجة ثالثة ، وكان في الثانية والخمسين ، وأن يحجب فرنسيس ، الثائر بإنجاب ولد . فقبل ماري تيودور ، أخت هنري الثامن ، البالغة من العمر ست عشرة سنة ، فجعلت الملك يسير في حياة مريحة منهكة وتشبثت بكل ما يجب للجمال والشباب . وتوفي لويس في الشهر الثالث من زواجه (١٥١٥) ، فخلف لزوج ابنته ، فرنسا المزهرة ، التي ظلت تذكر بالحب أبا الشعب على الرغم من هزيمتها في عهده .

٣ - نهضة القصور

أحس الفن الفرنسي الآن كله ، اللهم إلا العمارة الدينية ، تأثير الملكية الآخذة بأسباب القوة وفتوحها الإيطالية ذلك لأن الكنيسة تشبثت بالطراز القوطي المشع ، في العمارة معبرة عن اضطهادها بالزينة المسرفة والتفاصيل المبالغ فيها ، ولكن هذا الطراز ، كان يحتضر ، مثله في ذلك ، مثل امرأة خليعة تجمع وهي تجود بأنفاسها كل المظاهر النسوية ، من رقة وزينة ورشاقة . ومع هذا كله بدأ تشييد بعض الكنائس الفخمة في هذا العصر : سانت ولفرام

في ايفيل ، سانت أتين دي مون في باريس ، والمزار الصغير المتقن الذي شيدته مرجريت أميرة النمسا في برو ، تخليداً لزوجها فيلبرت الثاني ملك سافوى . وأدخلت على المباني القديمة ، زخارف جديدة ، ووصفت كاتدرائية روين ، بابها الشمالي باسم « الباب المكتبي » نسبة إلى حوامل الكتب في صحن الكنيسة ، وأنفقت المبالغ التي جمعت للانغماس في أكل الزبد في لنت ، على إقامة البرج الجنوبي الرائع ، وهو البرج الذي أتمته الفكاهة الفرنسية : « برج الزبدة » ، واستطاع كاردينال امبواز أن يحصل على أموال يشيد بها الواجهة الغربية ، على الطراز المشع نفسه . ومنح بوفيه ، جناح الكنيسة الجنوبي ، رائعتها التي لم تم . ويفوق بابها ونافذتها الوردية معظم الواجهات الرئيسية ، وحسن سينلس ، وتور وترويس هياكلها ، وشيد جان لوتكسبيه في شارترز ، برجاً شمالياً غربياً مشرفاً ، وحاجزا ضخماً للمرتلين ، وقد ظهرت فيهما أفكار عصر النهضة التي تغلب الخطوط القوطية . أما برج سانت جاك الرائع في باريس ، فهو البقية المُرَّمة من كنيسة ، أقيمت في هذا العهد لسانت جيمس الأعظم .

وأفصحت مباني النبلاء المدنية عن الصراع والفوضى في ذلك العصر . وأنشئت البلديات للمدن في أراس ودواي وسانت - أوامر ونويون وسانت كاتان وكومبيين ودرين وايفريه وأورليان وسومور - وشيدت جرينوبل « دار القضاء » عام ١٥٠٥ ، وشيدت روين داراً أكثر بهاء عام ١٤٩٤ ، صممها روبرت انجو ورولان ليرو على الطراز القوطي المزخرف ، وأعاد القرن التاسع عشر زخرفتها . ثم جاءت الحرب الثانية فخربتها .

وهذا هو القرن الأول الذي ظهر فيه القصر ذو الطابع الفرنسي ، ذلك لأن الكنيسة أخضعت للدولة ، فغلب الاستمتاع بالحياة في الدنيا على الاستعداد للآخرة ، وأصبح الملوك يستطيعون أن يكونوا آلهة ، وأن يانشئوا ، تزجية لفراغهم ، فردوساً على طول نهر اللوار . وتحول « القصر المنيع » أو القلعة .

بين عامي ١٤٩٠ ، ١٥٣٠ إلى « قصر الملذات » . وطلب شارل الثامن بعد أن عاد من حملته على نابولي ، إلى معماريه ، أن يشيدوا له قصراً ، في فخامة ما شاهده في إيطاليا . وكان قد أحضر معه المعمارى الإيطالى فراجيوفانى جيوكوندو ، والمثال الرسام جيدوماتزونى ، والنقاش على الخشب دومينيكوبرنانى « بوكادور » ، وتسعة عشر فناناً إيطالياً آخرين ، وكان بينهم معمارى تخصص فى المباني الخملوية هو دومينيكو باتشيلو . وهو الذى أصبح قبل ذلك قلعة أمبواز القديمة ، وكلف الملك هولاء الرجال ، يعاونهم بناؤون وعمال فرنسيون ، أن يحولوها إلى مسكن مترف يليق بالملك « على الطراز الإيطالى » . وكانت النتيجة بالغة الفخامة : فقصد نهضت بجلال ، على منحدر يشرف على النهر الوديع ، مجموعة من الأبراج ، والقباب والطنف ، وزخارف من الرقارف ومخادع وشرفات . وهكذا ولد نوع جديد من العمارة .

فضايت هذا الطراز الوطنيين والمحافظين على القديم ، بالمزاجه بين الأبراج القوطية وبين قصور عصر النهضة ، وبإحلال الأشكال والتفاصيل الكلاسيكية ، محل الزخرف المشع . وظلت الجدران ، والأبراج الأسطوانية والأسقف العالية المنحدرة ، والشرفات الخاصة بالدفاع والحنادق العارضة ، تتسم بطابع القرون الوسطى ، تذكر بالوقت ، الذى كانت فيه دار المرء ، يجب أن تكون قلعته وحصنه فى وقت واحد ، ولكن الروح الجديدة أخرجت المسكن من غلافه العسكرى الكثيف ، وعرضت النوافذ وحدتها بخطوط مستقيمة . لتسمح بدخول أشعة الشمس ، وجعلتها بأطر من الحجر المنقور ، وزينت الداخل بانصاف عمد كلاسيكية مربعة وأفاريز وزينات مدلاة وتمائيل ونقوش عربية وزخارف بارزة ، وأحاطت البناء بالبساتين والنوافير والازهار وغابة للصيد أو سهل بسام . ولقد أدخل الظلام فى هذه الدور المترفة مكانه للنور ، كما انقشع الخوف والكتابة ، اللذان اتسمت بهما القرون

الوسطى وحل محلها اطمئنان عصر النهضة وجراته ومرحه . وأضحى حب الحياة طرازاً معمارياً .

ونحن نبالغ في الحكم على هذه القصور في عصرها الأول إذا ألحقنا بها أصلها أو إذا عرضنا لتطورها الكامل . فإن كثيراً منها كان موجوداً قبل ذلك في صورة القلاع ، ولم يحدث فيها غير مجرد التعديل ، وأكمل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، هذا الشكل الفني حتى بلغا به الانسجام الأرستقراطي ، وغير القرن الثامن عشر هذا الاتجاه وأحل ملحمة فرساي العظيمة ، محل روح القصور الغنائية المرحية . وكان قصر شينون الحصين ، قديماً ، عندما استقبل فيه شارل السابع ، جان (١٤٢٩) ، كما مر لوشي بتاريخ طويل باعتباره مقراً ملكياً وسجناً ، عندما وفد عليه لودوفيكو المورو سجيناً (١٥٠٤) وذلك بعد أن استولى لويس الثاني عشر على ميلان للمرة الثانية . وأصلح جان بوريه ، وهو وزير لويس الحادي عشر حوالي عام ١٤٦٠ ، قلعة لانجيه ، التي أنشئت في القرن الثالث عشر ، في شكل ، يتسم أساساً بطابع القرون الوسطى ، وإن كانت من أحسن القصور الباقية إلى الآن . وشيد شارل دامبواز حوالي عام ١٤٧٣ ، في شومون ، قصرآ آخر على نهج القرون الوسطى ، وأقام أخوه الكاردينال في جايون ، قصرآ حصيناً فخماً (١٤٩٧ — ١٥١٠) أثقلت الثورة الرعناء . ورمم دينوا وهو نبيل « ابن سفاح من أورليان » قصر شاتودن (١٤٦٤) ، وأضاف كاردينال أورليان لونجفيل ، جناحاً جديداً لهذا القصر ، على الطراز الذي يزاوج بين القوطى وعصر النهضة . ولاتزال في قصر بلوا ، أجزاء على نمط القرن الثالث عشر ، وقد أنشأ له لويس الثاني عشر ، جناحاً شرقياً ، في وحدة متجانسة من الآجر والحجر ، ومن الأبواب القوطية ونوافذ عصر النهضة ، ولكن ذروة فخامته كانت تنتظر فرنسيس الأول .

وكانت المرحلة الأخيرة للنحت القوطى رائعة إلى أقصى حد بالزخرف

المنقور ببراعة في المقابر ، وبالمحفة في كنيسة برو ، حيث تبدو سييل أجرباً ، في شكل لا يقل جمالاً عما هي في شارترز أوريمز . ولكن الفنانين الإيطاليين ، كانوا يعيدون في الوقت نفسه ، صياغة النحت الفرنسي على طراز عصر النهضة ، استقلالاً وانسجماً ورشاقة . وزاد الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بفضل زيارة رجال الدين والسفراء والتجار والرحالة ، وقامت الأشياء الفنية الإيطالية المستوردة وبخاصة الأدوات الصغيرة المصنوعة من البرونز ، مقام المبعوثين من عصر النهضة من النوق والشكل الكلاسيين . وتحولت الحركة ، بمجيء شارل الثامن وجورج وشارل صاحب امبواز ، إلى تيار متدفق والفنانون الإيطاليون هم الذين أنشأوا « مدرسة امبواز » ذات التأثير الإيطالي في المقر الريفي للملوك . وتعد مقابر الملوك الفرنسيين ، في كنيسة سانت دينيس ، سجلاً أثرياً ، للتحويل ، من جلال النحت القوطي الجهم ، إلى الأناقة الرقيقة والزخرف الذي ينم على المرح ، اللذين اتسم بهما تصميم عصر النهضة ، معلنة المجد مختلفة بالجمال حتى في انتصار الموت .

ويتجسم هذا التحويل في شخص ميكيل كولومب . ولد عام ١٤٣١ ، ووصف عام ١٤٦٧ بأنه « أعظم نحّات في المملكة الفرنسية قبل أن تغزو فرنسا إيطاليا وتبتلعها بزمن طويل . وكان النحت الغالي من الآن فصاعداً ، كله تقريباً من الحجر ، فاستورد كولومب رخام جنوا ، وحفر عليه صوراً لا تزال عابسة جامدة بمسحة قوطية واضحة ، لكنها وضعت في أطر زائفة بالزينة الكلاسيكية . لقد نقش لقصر جايون ، نقشاً بارزاً مرتفعاً يمثل « القديس جورج والتنين » — في صورة فارس لا حياة فيه على صهوة جواد ناشط خفيف الحركة ، وهما محاطان بأعمدة وأفاريز ورفرف في تصميم عصر النهضة . وبدأ في « عذراء العمود » المنقوشة على الحجر ، لكنيسة سانت جالميه ، وان كولومب حقق الوداعة الكاملة التي يتسم بها الأساوب الإيطالي في بساطة الملامح ولطفها ، وفي الخطوط الناعمة للشعر الرجل . وربما

كان كولومب هو الذى نقر ، فى شيخوخته « المدفن الشرقى » (١٤٩٦)
فى سرادب كنيسة فى سولزمس (*).

وتأثرت فرنسا فى التصوير بالأراضى الواطئة ، كما تأثرت بإيطاليا
فقد بدأ نيكولاس فرومنت بواقعية هولندية فى صورته « بعث لازاروس »
ولكنه انتقل عام ١٤٧٦ من أفنيون إلى ايكس آن بروفانس ورسم لرئيسه
صاحب انجو الصور ثلاثية الطيات « علية موسى » ، وتظهر الصورة
الرئيسية فيها ، وهى العذراء على العرش ، سمات إيطالية فى مهادها ، وفى
العنراء السمرء ، وموسى المهيب ، والمملك الفاتن ، وكلب الصيد المتحفز
والأغنام المخلصين ، وهنا أحرزت إيطاليا انتصاراً كاملاً . وطبع تطور
مماثل فى الأسلوب أعمال « أستاذ مولان » ، ولعله جان بريال . فلقد ذهب
إلى إيطاليا مع شارل الثامن ثم مع لويس الثانى عشر ، فرجع ومعه نصف فنون
عصر النهضة فى سجل مؤهلاته - فكان رسام منمنمات ونقوش جدارية
ومصور أشخاص ومثالا ومعمارياً . وصمم فى نانت - ونقش كولومب
على الحجر - المقبرة الرائعة لفرنسيس الثانى دوق بريتانى ، وخلد فى مولان
ذكر أوليائه آن وبير البيجوى ، مع الرسوم الجميلة للأشخاص التى توجد
الآن فى اللوفر .

ولم تحتفظ الفنون الصغيرة بالامتياز الذى كان لها فى القرون الوسطى
المتأخرة . فقد تحول المزخرفون القلمنكيون ، منذ زمن طويل إلى الموضوعات
الدنيوية والمناظر الأرضية . وتمثل منمنمات جان بورديشون فى « صلوات
آن أميرة بريتانى » (١٥٠٨) العودة إلى البساطة والتقوى اللتين تتسم بهما
القرون الوسطى مثل الأساطير المحببة عن العذراء وطفلها ، ومأساة جلجوثا
وانتصار القديسين ، والرسم رديئ والمهاد كلاسية واللون قوى صاف ، كل
هذا فى جو هادئ من التأنق والشعور النسوين . واتخذ الزجاج الملون

(*) استخرجت له صورة فى متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك .

في هذا العصر - وقد يكون ذلك على سبيل المقابلة - واقعية فلمينكية عند
عند النظرة الأولى لا تلائم النوافذ التي تدخل الضوء الساطع على أضيّة
الكاتدرائيات ، ومع ذلك فإن الزجاج الذي نقش في هذا العصر لاوخ
وروين وبوفيه ، فيه آثار من روعة القرن الثالث عشر . وأعادت ليموج
إشعال أفرانها ، التي خمدت طوال قرن كامل ، ونافست إيطاليا والبلاد
الإسلامية ، في طلاء الأواني بالمينا الصافية . ولم يفقد الحفارون على الخشب
حذقهم ، وذهب رسكين إلى أن مواضع الممثلين في كاتدرائية أمين هي
خير ما في فرنسا بأسرها ، وأثارت السجاجيد الملونة التي يعود تاريخها
إلى نهاية القرن الخامس عشر ، انتباه جورج صاند في قصر بريسالك
(١٨٤٧) ، وأصبحت ذخيرة متحف كلوني في باريس ، وفي متحف
جوبلنز سجاجيد رائعة (حوالي ١٥٠٠) تصور موسيقيين يعزفون في حديقة
أزهار السوسن .

وكان القرن الخامس عشر مجدياً بصورة عامة في الفن الفرنسي باستثناء
عمارة القصور . فلقد حرّثت أقدام الجنود الأراضى وأخصبتها بدماء
الحروب ، ولكن ختام هذه المرحلة ، هو الذي شاهد رجالاً عندهم الوسائل
والفراغ نثروا البذور التي استطاع فرنسيس الأول أن يجني ثمارها . فإن
صورة فوكيه لنفسه إنما تم على عصر نخوع وبأس ، وتعكس منمنمات
تلميذه بورديشون ، السلام العائلي في الزواج الثاني للويس الثاني عشر ،
والطمأنينة المبتسمة للأرض المسترجعة . فقد تجاوزت فرنسا أسوأ عهودها ،
ويوشك أحسنها أن يجيء .

٤ - فرانسوا فيون : ١٤٣١ - ١٤٨٠

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا القرن من الصراع والفوضى قد أفرع ،
شاعراً فحلاً ومؤرخاً كبيراً . وكانت إحدى النتائج الطبيعية للاقتصاد
القومي والحكومة مركزية ، أن استعمل الأدب الفرنسي لغة باريس ، أيا كان

موطن المؤلف : برجنديا أوبريتاني أوبروفانس . وكأنما أثرها فيليب دي كومين على اللاتينية ، ليثبت أن الفرنسيين قد نضجوا ، وسجل بها مذكراته . واستعار لقبه من كومين في فلاندرز ، حيث ولد . وهو من أسرة ممتازة ، لأن الدوق فيليب الخامس كان أشيئته ، ونشأ في البلاط البرجندى ، ولما بلغ السابعة عشرة (١٥٦٤) كان بين موظفي كونت شاروليه . حتى إذا أصبح الكونت ، شارل الحسور ، وأسر لويس الحادى عشر فى برون ، لم يرض كومين عن سلوك الدوق ، ولعله تنبأ بسقوطه ، فتحول راشدا إلى خدمة الملك . فجعله لويس حاجباً له وأسبغ عليه الإقطاعات ، وأرسله شارل الثانى فى وفادات دبلوماسية هامة . وأنشأ كومين فى الوقت نفسه أثرين كلاسيين من الأدب التاريخى : أحدهما مذكرات وتاريخ الملك لويس الحادى عشر ، وثانيهما تاريخ الملك شارل الثامن — وهما سرد ثرى بلغة فرنسية واضحة بسيطة كتبهما رجل عرك الدنيا وشارك فى الأحداث التى وصفها .

وهذان الكتابان شاهدان على الثروة غير العادية للأدب الفرنسى فى المذكرات . ولهما أخطاؤهما : فالحرب تكاد تستغرقهما وليس فيهما من الطرافة والحياة ما فى فرواسار أو فيلاردوين أو جوانفيل ، وفيهما كثير جداً من عبارات حمد الله والثناء عليه ، ذلك عند الإعجاب بسياسة لويس الحادى عشر الغاشمة . وكثيراً ما ينقطع عن السرد ويتعثر فى سقطات من اللغو . وعلى الرغم من هذا كله فإن كومين هو أول مؤرخ فلسفى : فهو يبحث عن العلاقة بين العلة والمعلول ، ويحلل الشخصيات والحوافز والمزاعم ويحكم على الأخلاق حكماً موضوعياً ويدرس الأحداث والوثائق الأصلية ليوضح طبيعة الإنسان والدولة . ولقد سبق بهذه الملاحظات مكيا فى وجويكشياردينى فى تقديره المتشائم للإنسانية فى قوله : « لا الفعل الفطرى ، ولا معرفتنا ، ولا حبنا لجاننا ولاشئ آخر غير هذا ، يكفى دائماً لأن بمنعنا من استعمال العنف بعضنا مع بعض أو يحول بيننا وبين الاحتفاظ

بما كان معنا . أو يصرفنا عن اغتصاب أملاك الآخرين بكل الوسائل الممكنة ..
والأشرار يصبحون أكثر شراً على معرفتهم ، أما الأخيار فيزداد صلاحهم
إلى أقصى حد .

وكان عنده ، مثل مكياڤلي ، أمل في أن كتابه يعلم الأمراء حيلة أو
حيلتين قال :

« ولعل السفلة لا يزعجون أنفسهم بقراءة هذه المذكرات ، أما
الأمراء ... فقد يقبلون عليها ، ويجدون بعض المعارف التي تكافئهم على
متاعبهم ... لأنه على الرغم من أن الأعداء والأمراء ليسوا دائماً سواء ،
فإن ، أعمالهم واحدة في العادة ، ومن المفيد دائماً أن نتخبر عما مضى . فإن من
أعظم الوسائل التي تجعل الإنسان حكيماً ، أن يدرس التواريخ . . وأن يتعلم
كيف يحدد ويلائم بين أحاديثنا وأعمالنا وبين النموذج والمثال اللذين كان
عليهما أسلافنا . وما حياتنا إلا فترة قصيرة ، غير كافية لتمدنا بالتجربة
عن أشياء جد كثيرة . »

واتفق شارل الخامس ، أحكم الحكام المسيحيين في عصره ، مع
ديكومين ووصف « المذكرات » بأنها كتاب صلواته .

وفضل الجمهور القصص الخيالي والمسرحيات الهزلية والهجائيات
وفي عام ١٥٠٨ ظهرت النسخة الفرنسية من « أماديس دي جول » واستمرت
حوالي عشر فرق تعرض مسرحيات الخوارق والأخلاقيات والهزليات
والمساخر وهي حماقات تسخر من كل إنسان حتى القسس والملوك . وكان
بيير جرنجور من أساتذة هذا الفن يكتب ويمثل هذه المساخر بحماسة ونجاح
طوال جيل كامل . وأقدم مسرحية هزلية في الأدب الفرنسي هي « السيد
بيير باتيلان » ولقد مثلت أول مرة حوالي عام ١٤٦٤ كما مثلت بعد ذلك
بأمد طويل عام ١٨٧٢ . وباتيلان محام فقير يتلهف على القضايا . وهو
يلح على بائع صوف أن يبيعه ستة أذرع من الثياب ويدعوه إلى الغذاء

معه في ذلك المساء ليتسلم الثمن . فلما جاء التاجر ، كان باتيلان في فراشه يئن من حمى مزعومة . ويصرح أنه لا يعرف شيئاً عن أذرع الثياب والغذاء . فينصرف التاجر مشمئزاً ، فيلعن راعي أغنامه ، ويتهمة بالتصرف سراً في بعض الخراف ، ويجره أمام القاضي . وهنا يبحث الراعي عن محام زهيد الأجر فيعثر على باتيلان ، الذي دربه على أن يمثل دور الأبله وأن يجيب على جميع الأسئلة بثغاء « الشاه » باء ، وتحير القاضي من هذا الثغاء وارتبك من خلط التاجر في شكواه بين الراعي والمحامي ، فأعطى فرنسا كلمة مأثورة تدعو فيها كل فريق وهي « فلنعد إلى هذه الأغنام » ولما يئس من الحصول على دليل منطقي في هذه الضجة ، رفض القضية وطالب باتيلان المنتصر بأجره ولكن الراعي أجابه بثغاء الشاه « با » ، ومكر الأبله بالمحتال البارع . وتتكشف القصة بكل ما في الروح الغالية من مهاترة . ولعل رايبليه قد ذكر باتيلان عندما فكر في بانورج ، وموليير قد تقمص جرنيجور ، والمؤلف المجهول لهذه المسرحية .

والشخصية التي لا تنسى في الأدب الفرنسي في القرن الخامس عشر هي شخصية فرنسوا فيون . فلقد كذب وسرق وغش وارتكب الفاحشة بقتل ، مثله في ذلك مثل ملوك عصره ونبلائه ، ولكنه كان أكثر تعقلاً . وبلغ الفقر منه مبلغاً جعله لا يملك حتى اسمه . ولقد ولد فرنسوا دي مونتكوربييه (١٤٣١) ونشأ في غمرات الطاعون والبؤس بباريس ، وتبناه قسيس طيب اسمه جويوم دي فيون ، فأخذ فرنسوا لقب هذا « الكفيل » فلطخه بالعار وأسبغ عليه الخلود في وقت واحد ، وصبر جويوم على فرار الصبي من المدرسة وعبثه ودفع له نفقات تعليمه في الجامعة ، واستراح في زهو عندما تحصل فرنسوا على درجة ماجستير في الآداب (١٤٥٢) ، وزوده بالطعام والمسكن في أروقة كنيسة سانت بنوا ثلاث سنوات بعد ذلك منتظراً أن يبلغ الأستاذ مرحلة النضج .

وليس من شك في تحول فرنسوا من التقوى إلى الشعر ومن علوم الدين إلى السرقة قد أحزن جويوم وأم فيون وكانت باريس تزخر بالخلعاء والبغايا والدجالين والنشالين والشحاذين وحماة العاهرات والقوادين والسكران ، فما كان من الشاب المستهتر إلا أن اتخذ له أصدقاء في كل طائفة ، وعمل ديوثاً فترة من الزمان . ولعله حصل من الدين فوق ما يطيق ، ولم يسغ الحياة في الدير ، فن العسير بوجه خاص أن يستجيب ابن رجل الدين للوصايا العشر . وفي الخامس من يونيه عام ١٤٥٥ بدأ « قسيس يدعى فيليب شرموى » العراك مع فرنسوا (كما يقول بنفسه) ، وقطع شفته بمديّة ، فما كان من فيون إلا أن أصابه بجرح عميق في فخذه ، ولم يمض أسبوع حتى كان فيليب قد أسلم الروح وأصبح بطلا بين رفاقه ، وخارجاً على القانون يطارده الشرطة ، ففر الشاعر من باريس ، وظل حوالى سنة مختفياً في الريف .

وعاد هزيراً شاحباً ، جامد الملامح وخشن البشرة ، ساهر العين حذر الشرطة ، يحطم الأقفال حيناً والحبوب أحياناً ، يستشعر الجوع إلى الطعام والحب . وأصبح عاشقاً لصبية بورجوازية ، احتملته حتى تجد فارساً خيراً منه ، يتغلب عليه ، فزاد حبه لها ، ولكنه سجل ذكراها بعد ذلك بأنها « سيدتى ذات الأنف الأعوج » . وأنشأ حوالى ذلك الوقت (١٤٥٦) « العهد الصغير » ، وهو أقصر وصاياه ، الشعرية فقد كان عليه أن ينى بديون كثيرة وأن يصلح أخطاء كثيرة أيضاً ، ولا يستطيع أن يتنبأ متى يختم حياته على جبل مشنقة . وهو يهجو عشيقته على قلة لحمها ، ويبعث بجوربه الطويل إلى روبرت فاليه ، « لكى يلبس خليلته رداء أكثر احتشاماً » ، وأوصى لبرنيه مارشان « بثلاث حزم من القش أو العشب الجاف ، ليضعها فوق الأرض العارية لينام عليها ، ويمارس لعبة الحب » ، ويمنح حلاقه « أطراف شجرى وقصاصاته » ، ويترك قلبه ، محزوناً شاحباً ميتاً لا إحساس فيه ، إلى التى « أبعدت عنها عني » .

وبعد أن تجرد من كل هذه الثورة ، وجد نفسه مفتقراً إلى الخبز واشترك ليلة عيد الميلاد عام ١٤٦٠ مع ثلاثة آخرين في السطو على كلية نافار ، وسرقت العصاة حوالى خمسمائة كراون . ولما اطمأن فرنسوا إلى نصبه الكبير من هذه المغامرة استأنف إقامته في الريف . واختفى عن نظر التاريخ عاماً واحداً ، ثم نجده في شتاء عام ١٤٥٧ بين الشعراء الذين أكرم وفادتهم ، شارل صاحب أورليان ، في بلوا ... وأسهم فيون في مباراة شعرية هناك ، ولا بد أنه قد أمتع ، لأن شارل أبقاه ضيفاً عليه أسابيع ، وأفعم كيس الشاب الخاوى بالمال . ثم حدثت بينهما مشادة أومشاجرة قضت على صداقتهما ، وعاد فرانسوا إلى عرض الطريق ، ينظم قصيدة اعتذار . وتجول جنوباً إلى بورجس ، واستبدل بقصيدة هدية من الدوق جون الثاني أمير بوربون ، وطوف حتى بلغ روسلون . ونحن نتصوره من شعره ، رجلاً يعيش على الهبات والديون ، على الفاكهة والجوز والدجاج يلتقطها من المزارع على طوال الطريق ، يتحدث إلى الفتيات الريفيات وبنات الهوى في الحانات . مغنياً أومصفراً على الطرق الكبيرة ، يراوغ الشرطة في المدن . ثم لا تقع له على أثر مرة أخرى ، وإذا به يظهر فجأة بأحد السجون في أورليان (١٤٦٠) وقد حكم عليه بالإعدام .

ولسنا نعرف ما الذى أوصله إلى هذا المصير ، وكل ما نعرفه أن مارى أميرة أورليان ابنة الدوق الشاعر ، دخلت في يولية من هذا العام المدينة رسمياً ، وأن شارل احتفل بهذه المناسبة بأن أعلن عفواً عاماً عن المسجونين . فانتقل فيون من الموت إلى الحياة في نشوة من الفرح . وسرعان ما استبد به الجوع فعاد إلى السرقة ، فقبض عليه وحوسب على فراره المتكرر قبل ذلك — وزج به في سجن ينفذ منه المطر في قرية مونج — سير — لوار بالقرب من أورليان . وعاش هناك شهوراً مع الجرذان والضفادع يعرض على شفته الممزقة ، ويقسم ليثأرن من عالم يعاقب اللصوص ويترك الشعراء يموتون

جوعاً . ولم يكن العالم كله قاسياً . فقد أصدر لويس الحادى عشر ، وهو
يمر فى أورليان ، عفواً عاماً آخر ، وأخبر فيون أنه أصبح حراً ، فرقص
على حصير السجن رقصة الفاندانجو (*) . واندفع إلى باريس أو قريباً
منها ونظم إذ ذاك وهو عجوز أصلع مفلس فى الثلاثين . أعظم قصائده ،
التي أسماها ببساطة « الأناشيد » ، وأطلق أعقابه عليها ، وقد وجدوا الكثير
منها يصاغ مرة أخرى فى صورة وصايا تهكمية باسم « العهد الكبير »
(١٤٦١ - ١٤٦٢) .

وهو يهب نظارته إلى المستشفى للمكفوفين المعوزين حتى يميزوا « إن
استطاعوا » الطبيب من الحبيث والعظيم من الوضع ، بين العظام فى مداخن
الأبرياء . وسرعان ما استولت عليه إبان حياته فكرة الموت . فتفجع على
زوال الجمال وتغنى بأنشودة جميلات الأمس :

قل لى أين ، وفى أى أرض للظلال ،

تقيم فلورا الحميلة من روما ، وأين

تايس وارشيبياد ،

بننا العم بجماهما النادر

والصدى ، وجماله الخارق

وهو الذى كلما ناداه المرء عند تدفق نهره

أوسار ، أجا ب من خارج الأرض ؟

وماذا صار إليه جليلد العام الماضى ؟

وهو يرى أن بخطيئة الطبيعة التي لا تغتفر ، أن تفتننا بالمحبة ثم تذيبها

بين أذرعنا . وأشد قصائد مرارة « مرثية الحميلة صانعة الخوذات » :

أين ذلك الحبين الواضح البلورى ؟

والحاجبان المقوسان والشعر الذهبي ؟

(*) رقصة أسبانية بالصنج .

والعينان البراقتان ، أين هذا الآن ،
وقد فتن أحكم الحكماء ؟
الأنف الصغير المستقيم الجميل ،
والأذن الصغيرة الرقيقة البديعة ،
أين الذقن الذى له طابع الحسن ، وأين
والشفقتان المضمومتان الحمران الواضحتان ؟
ويستمر الوصف من فتنة إلى فتنة ، ولم يترك شيئاً ، ثم تذوي كل واحدة
حسناً في ضلالة مرددة حزينة . . .
وتغضن الهدان وانقشعا ،
وانسحب الردفان كالنهدين
ولم يعد الفخذان فخزين ،
لقد ذبلت جميعاً كما ذبلت العضلات
ومن العجيب أنها تعنى هنا المنابر المحشو ، وهكذا لم يعد فيون يعشق
الحب أو الحياة ، فيوصى بجسده إلى التراب :
لأننى أهب جسمي ، أيضاً
إلى الأرض ، جدتنا
وستجد الديدان فيه مع ذلك غنيمة صغيرة ؟
فقد أنهكه الجوع أعواماً طوالاً .
ويترك كتبه إلى أبيه الذى تبناه معترفاً بجميله ، وهدية وداعه لأمه
العجوز ، أنشودة متواضعة ينظمها للعنراء . وهو يطلب الرحمة للجميع
إلا الذين زجوا به في السجن : الرهبان والراهبات والمهرجين والمغنين
والحشم والشجعان ، « أيها الماجنون الذين يبرزون كل مفاتنهم . . أيها
الشاغبون والمحتالون والبهلوانات المرحية ، والمهرجون يعرضون قردهم ،
وينشرون سجاجيدهم . . الطييون البسطاء الأحياء منهم والأموات - لأننى
تأدعو بالرحمة الشاملة ، لكل فرد منكم وللجميع » . وهكذا . .

وهنا ختام عهد فيون (الكبير والصغير معا) .
ختام عهد فيون المسكين . . فعندما يطويه الموت ،
أناشدكم أن تضرروا جنازته ،
عندما يصلصل الجرس فوق الرؤوس . .
أيها الأمير ، الرقيق كصقر محول ،
اسمع ما صنعه مع آخر زفراته ،
لقد احتسى رشفة طويلة من رحيق النبيذ الأحمر ،
عندما شعر بأقتراب منيته .

وعلى الرغم من هذه الوصايا وتحيات الوداع ، فإنه لا يستطيع أن يفرغ
كأس الحياة متعجلاً . وفي عام ١٤٦٢ عاد إلى جويوم دي فيون وأروقة
الدين ، وابتهجت به أمه . ولكن القانون لم يغفل عنه . وطلبت كلية نافار
أن يقبض عليه ، ووافقت على إخلاء سبيله بشرط أن يدفع نصيبه في السرقة ،
منذ ست سنوات - أي أن يدفع أربعين كراون سنوياً لمدة ثلاث سنوات .
وكان سيئ الطالع في ليلة إخلاء سبيله . لوجوده مع اثنين من رفاقه
المجرمين القدامى ، عندما دفعهم السكر إلى شغب طعن فيه أحد القساوسة .
ويبدو أن فيون كان لا مؤاخذه عليه في هذا الأمر ، فانسحب إلى غرفته ،
وصلى ينشد الطمأنينة ، ومع ذلك فقد قبض عليه مرة أخرى ، فعذب بصب
الماء في حلقة حتى كاد ينفجر ، ومما أدهشه أن يحكم عليه بالإعدام شتقاً .
ولبت في صحن ضيق ، أسابيع ، بين اليأس والرجاء وتوقع الموت لنفسه
ولصاحبيه فأنشأ وداعاً مؤثراً للعالم :

أيها الناس ، أيها الإخوة الذين يعيشون بعدنا ،
لا تجعلوا قلوبكم جد قاسية علينا ،
فإنكم إن منحتُمونا نحن المساكين بعض حشراتكم ،
فإن الله سرعان ما يأخذ عنكم هذه الحشرات .

نحن هنا خمسة أو ستة معلقون ، كما ترون ،
وهنا اللحم ، الذى كان كله حسن الغذاء ،
مأكولا متعفناً قطعته بعد ، مقطعاً ممزقاً ،
ونحن العظام نصير مع الجميع إلى تراب ورماد ،
لا تدعوا أحداً يضحك علينا نحن الأشقياء ،
بل ادعوا إلى الله أن يغفر لنا جميعاً . .
لقد غمرنا المطر وغسلنا نحن الخمسة جميعاً ،
وجففنا الشمس وأحرقتنا ، نعم ، هلكنا ،
فالغربان والجوارح بمناقيرها التى تشود وتمزق ،
قد سملت أعيننا ، وانتزعت لحانا وحواجبنا
أجراً لها ، لن نكون أحراراً أبداً ،
ولا مرة واحدة ، لنستريح ، وإنما تتعجلنا هنا وهناك
وتستاقنا بإرادتها الغشوم الرياح المتقلبة ،
وتنقرنا الطيور أكثر مما تنقر الفاكهة على أسوار البساتين ،
أيها الناس ، أقسم عليكم بحب الله ، ألا تدعوا كلمة سخر تقال هنا ،
ولكن ادعوا الله أن يغفر لنا جميعاً .

وكان لا يزال عنده بصيص من الأمل ، فألح فيون على سبانه أن يحمل
رسالة إلى أبيه الذى تبناه ، ليحمل إلى محكمة البرلمان استئنافاً لحكم واضح
الظلم . وتدخل جويوم دى فيون من أجل الشاعر مرة أخرى ، وهو الذى
يستطيع أن يغفر للناس مرات ومرات ، فلا بد أن تكون للشاعر بعض
الفضائل تشجع على حبه . وفى الثالث من يناير عام ١٤٦٣ ، نطقت المحكمة
بحكمها وأمرت بالآتى : . . يلغى الحكم السابق ، وبعد أن وضعت

في الاعتبار سوء خلق فيون المذكور - ينفي عشر سنوات من المدينة . .
 وكونتية باريس . فشكر فرانسو المحكمة في نشيد مرح ، والتمس مهلة
 ثلاثة أيام « للإعداد لرحلتى ووداع قومي » . فسمح له بذلك ، وأغلب
 الظن أنه رأى أباه وأمه للمرة الأخيرة . وجمع أمتعته ، وأخذ زجاجة النبيذ
 وكيس النقود اللذين أعطاهما إياه جويوم الطيب ، وتلقى بركاته وخرج
 من باريس ومن التاريخ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

كان لصاً ، ولكنه كان لصاً مطرباً ، والعالم في حاجة إلى الطرب .
 وكان يستطيع أن يكون فظاً مريراً كما في أنشودة « مارجو البدينة » ورمى النساء
 اللاتي لا يستجبن لرغباته بالأوصاف المفحشة ، وكان يتجاوز الحد في
 تصريحه بتفاصيل الجسم الإنساني . ونحن نستطيع أن نغفر هذا كله من أجل
 الآثام التي اقترفت في مقابل آثامه ، والرقعة المنبعثة من روحه دائماً ،
 والموسيقى الشجية في شعره . ولقد دفع عقوبة ما كان عليه ، وخلف لنا
 المثوبة فقط .

الفصل الخامس

انجلترا في القرن الخامس عشر

١٣٩٩ - ١٥٠٩

١ - الملوك

ماكاد يجلس هنري الرابع على العرش ، حتى تحدثه الثورة . فلقد
تخلص أوين جلن دوير من السيطرة الإنجليزية في ويلز إلى حين
(١٤٠١-١٤٠٨) ، ولكن هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الخامس ،
وكان يوم ذاك أمير ويلز ، تغلب عليه بخطة عسكرية مباغتة ، ومات أوين
جلندوير ، بعد لحظات من تبليغه العفو الكامل عنه ، من المنتصر الشهم
وذلك بعد أن أمضى ثماني سنوات مطارداً في حصون ويلز ونجاها . وقاد
هنري برسي إيرل نورثمبرلند ، بعض نبلاء الشمال في ثورة ، أراد لها أن
تسير في الزمن ثورة أوين جلندوير ، ضد ملك لم يستطع أن يني بالعهود
التي قطعها لهم على نفسه ، في مقابل معاونتهم إياه على خلع رتشارد الثاني ،
وقاد هاري ، الابن المشتهر للايرل ، الملقب « بالمهماز الحاد » (وهو
الذي صورته شكسبير شخصية محبوبة بلا مبرر) قوة عسكرية مترددة غير
غير كافية ضد الملك في شروزبري (١٤٠٣) ، وهناك مات الفتي في بطولة
حقاء ، وأبلى هنري الرابع في الصفوف الأولى من القتال بلاء حسناً ،
وأظهر ابنه « أميرهل » المرح المتلاف شجاعة جديرة بالظفر بأجنكورت
وفرنسا . ولم تترك هذه الثورات وغيرها من المتاعب لهني إلا فسحة ضئيلة
من الوقت أو الحاسة للسياسة ، وكانت موارده أقل من نفقاته ، كما اختلف
بلا كياسة مع البرلمان ، وختم ملكه بين الفوضى المالية وأصابته بمرض

الجذام، وهبوط المستقيم والمرض التناسلي . قال هولنشد « انه انتقل إلى جوار
ربه في السادسة والأربعين من عمره . . في ارتباك عظيم ومتاع قليل » .
وتذهب الروايات ويذهب شكسبير إلى أن هنري الخامس قد أمضى
شباباً طليقاً ماجناً ، وأنه تأمر للاستيلاء على العرش ، حتى على أب .
أقعده المرض وإن تشبث بالسلطان . ويكتفى المؤرخون المعاصرون بمجرد
الإشارة إلى ملذاته ، ولكنهم يؤكدون لنا ، أنه بعد توليه العرش « تحول
إلى رجل آخر ، ودرس كيف يكون أميناً شجاعاً مهذباً » . وهذا العايب
مع السكارى والخليعات ، يقف نفسه الآن ، على قيادة عالم مسيحي موحد
ضد الأتراك الزاحفين ، وأضاف إلى ذلك أنه يجب أولاً أن يغزو فرنسا
ولقد حقق غايته القريبة بسرعة مذهلة ، وهكذا جلس أحد الملوك الإنجليز
على عرش فرنسا لحظة مضطربة . وقدم له الأمراء الألمان فروض الولاء
وفكروا في تنصيبه إمبراطوراً . وقد نافس قيصر بصورة مجملة في وضع
خطط المعارك ، وإمداد جيوشه بالموثونة ، وحب جنده له . وفي
تعريض نفسه لجميع الوقائع والأجواء . ومات فجأة بالحمى في بوادي
فخنس (١٤٢٢) ولما يزل شاباً في الخامسة والثلاثين .
وأنقذ موته فرنسا ، وكاد يقوض أركان إنجلترا . وربما كانت شعبيته
تغري ، دافعي الضرائب بإنقاذ الحكومة من الإفلاس ، ولكن ابنه هنري
السادس كان ، عند توليه العرش ، في الشهر التاسع من عمره فقط ، وكانت
النتيجة السيئة أن أغرق نواب الملك الفاسدون والقادة غير الأكفاء ، الخزانة
في دين تعجز عن تسديده . كما كان الحاكم الجديد أقصر باعاً من الملك ،
فهو دارس دقيق عصبي المزاج شغوف بالدين والكتب ، ترتعد فرائضه
من فكرة الحرب ، وندب الإنجليز حظهم العاثر الذي أفقدهم ملكاً وأكسبهم
قديساً . . وفي عام ١٤٥٢ أصيب هنري السادس بالجنون على منوال شارل
السادس ملك فرنسا . ووقع وزراؤه بعد عام واحد ، صلحاً يعترف بهزيمة
إنجلترا في حرب المائة عام .

وحكم رتشارد ، دوق يورك ، عامين باعتباره حامياً للملك : وصرقه هنرى عن منصبه (١٤٥٤) فى لحظة من لحظات التعقل ، فادعى الدوق الغاضب ، العرش لأنه من نسل إدوارد الثالث ، وأنهم الملوك من أسرة لانكستر بأنهم مغتصبون ، وانضم إلى سالسبورى ووروك وغيرهم من البارونات فى حروب الوردتين — الوردة الحمراء تمثل آل لانكستر والبيضاء آل يورك — التى ظلت إحدى وثلاثين سنة (١٤٥٤ — ١٤٨٥) يتحرش فيها النبيل بالنبيل وكأنما تقدم الأرستقراطية الأنجلونو رماندية على انتحار متواصل ، وتركت إنجلترا فقيرة ومنعزلة ، وكان لابد أن يسرح الجنود نتيجة لسلام غير مألوف لهم ، فكرهوا أن يعودوا إلى زمر الفلاحين ، وانضموا إلى كل من الفريقين ، ونهبوا القرى والمدن ، وقتلوا بلا وازع من ضمير كل من يقف فى طريقهم . وقتل دوق يورك فى موقعة عند ويكفيلد التى ذكرها جولدسميث فى روايته المشهورة (*) (١٤٦٠) ، ولكن ابنه إدوارد إيرل مارش ، استمر فى الحرب بلا رحمة ، وذبح جميع الأسرى ، المنتسبين وغير المنتسبين ، بينما قادت مرجريت أميرة أنجو ، والزوج العقيم لهنرى الطيب ، آل لانكستر فى دفاعهم عن حوزتهم فى وحشية لا تعرف بالحياء وانتصر مارش فى توتن (١٤٦١) ، ففضى بذلك على أسرة لانكستر المالكة ، وأصبح أول ملك من أسرة يورك ، وتلقب بإدوارد الرابع .

ولكن الرجل الذى حكم إنجلترا فى واقع الأمر ، السنوات الست التالية ، هو رتشارد نيفيل ، إيرل وروك . وهو رأس عشيرة غنية كبيرة العدد ، وكانت له شخصية أسرة محببة ، كما كان داهية فى السياسة ، بارعاً فى الحرب ، فإن الفضل إنما يرجع إلى « وروك صانع الملك » فى الانتصار فى توتن ، وهو الذى أجلس إدوارد على العرش . ووقف الملك التى استراح من الصراع ،

(*) رواية قسيس ريكفيلد

نفسه على النساء ، في حين أحسن وروك الحكم حتى إن انجلترا بأسرها جنوبي تاين وشرق ستون (لأن مارجريت كانت لا تزال تحارب) أسبغت عليه جميع ألقاب التشريف ما عدا لقب الملك . ولما ثار إدوارد على الواقع وناصبه العداء ، انضم وروك إلى مارجريت وطرد إدوارد من انجلترا وأعاد هنري السادس إلى السلطة الإسمية (١٤٧٠) وأخذ يحكم مرة أخرى . ولكن إدوارد نظم جيشاً بمعونة برجنديا . وعبر إلى هل ، وهزم وروك وقتله في بارنت وهزم مارجريت في توكسبري (١٤٧١) وأمر بقتل هنري السادس في القلعة ، وعاش سعيداً في آخر حياته بعد ذلك .

وكان إذ ذاك لا يزال في الواحدة والثلاثين من عمره . ولقد وصفه كومين بقوله « كان من أجمل رجال عصره ، لا متعة له غير النساء والرقص والتسلية والقنص » . ولقد أفعم خزانته بمصادرة ضياع آل نيفيل ، وبقبول رشوة من الملك لويس الحادي عشر في مقابل الصلاح معه مقدارها مائة وخمسة وعشرون ألف كراون مع وعد بخمسين ألفاً أخرى كل سنة . وبلغ من طمأنينته أن تجاهل البرلمان ، الذي كانت فائدته بالنسبة إليه ، الموافقة على ما يريد من المال . وأحس بالاستقرار ، فاستسلم مرة أخرى للترف والحمول ، ولبس الفاخر من الثياب ، وأصبح سميناً مرحاً ، ومات في الواحدة والأربعين من عمره ، وقد بلغ أوج سلطانه واكتملت جوانب شخصيته (١٤٨٣) :

وخلف ولدين : إدوارد الخامس البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة ، ورتشارد ، دوق يورك ، في التاسعة : وكان عمهما رتشارد ، دوق جلوسستر ، خدم الدولة في السنوات الست التي خلت رئيساً للوزارة ، في جد وورع وبراعة ، حتى إنه لما نصب نفسه نائباً للملك ، وافقت انجلترا عليه بلا معارضة ، على الرغم من أطرافه المشوهة وظهوره المقوس وملامحه الجافية وكتفه اليسرى المرتعة على كتفه اليمنى . وسواء أكان الباعث نشوة السلطان

أو مجرد الشك في تدبير المؤامرات لخلعه ، فإن رتشارد سجن عدداً من الأعيان ، وأعدم أحدهم . وفي السادس من يوليو عام ١٤٨٣ توج نفسه ملكاً باسم رتشارد الثالث ، وفي الخامس عشر من الشهر نفسه قتل الأميران الصغيران في القلعة ، ولم يعرف أحد من الذى قتلهما . وثار النبلاء مرة أخرى ، يقودهم في هذه المرة ، هنرى تيودور ، إيرل رتشمند . ولما التقت قواتهم الصغيرة ، بجيش الملك ، المتفوق في العدد إلى حد كبير في بوسورث (١٤٨٥) ، رفض معظم جنود رتشارد القتال ، وما سطرده يائسة ، مفتقراً إلى الملك وإلى جواده . . وانتهت بذلك أسيرة يورك المالكة ، وبدأ إيرل رتشمند ، أسيرة تيودور وتلقب بالملك هنرى السابع ، وهى الأسرة التى تنتهى بإليزابيث .

ومارس هنرى ، تحت وطأة الضرورة ، الفضائل والردائل التى تصور له أن منصبه يتطلبها . ولقد رسم له هلبين صورة جدارية فى هوايت هول يندوف فيها طويلاً ، ممشوقاً لالحية له ، مفكراً عطوفاً . لا تكاد تتم ملاحظته على التدبير الماكر الغامض ، والكبرياء العبوس الثابتة ، والعزيمة المرنة وإن كانت صلبة فى مصابرتها ، وهى الصفات التى نقلت لإنجلترا من الانحلال والفقر ، فى عهد الملك هنرى السادس ، إلى الثروة والسلطة المركزة فى عهد هنرى الثامن . ويقول بيكون إنه كان يجب « ما تجلبه الخزائن المفعمة للناس من غبطة » ، لأنه عرف قدرتها على الإقناع فى السياسة . فبرع فى فرض الضرائب على الأمة ، واستنزف دماء الأغنياء بالصدقات والهدايا بالإكراه ، واستغل الغرامات فى شراهة لتكون مورداً لخزائنه ورا دعاً للجريمة ، وكان يتهج كلما رأى القضاة يلائمون بين الغرامة وبين جيب المحكوم عليه ، لا بينها وبين المخالفة . وهو أول ملك إنجليزى منذ عام ١٢١٦ جعل نفقاته فى حدود دخله ، وصدقاته وهباته تخفف من وطأة شحه . ووقف نفسه بإخلاص على شئون الإدارة ، وقلل من ملاحيه ليستكمل

عمله : وأظلم الشك الدائم حيانه ، ولم يكن ذلك بغير سبب ، فلم يثق في أحد ، وكان يخفى أغراضه ، ويحقق أهدافه بوسائل مشروعة أو غير مشروعة . وأنشأ محكمة ستارتشمبر لمحاكمة النبلاء المشاغبيين ، الذين بلغ سلطانهم حداً يخشى منه على التأثير في القضاة المحليين والمحلفين . وذلك في جلسات سرية . واستطاع عاماً بعد عام أن يخضع الأرستقراطية المتخلفة ، وطبقة رجال الدين الخائنة للملكية . وعارض بعض الأفراد الأقوياء ، القضاء على الحرية وتعطيل البرلمان ، ولكن الفلاحين صفحوا ، عن ملك كبح جماح سادتهم ، وأثنى الصانع والتجار عليه ، لعمله الحكيم على النهوض بالصناعة والتجارة . ولقد وجد إنجلترا في فوضى إقطاعية ، وحكومة جد فقيرة ، لا سمعة لها تبحث تحصل على الطاعة أو الولاء ، وخلف هنري الثامن دولة محترمة منظمة ، موثمنة موحدة وفي حالة سلم » .

٢ - نمو الثروة الإنجليزية

من الواضح أن ثورة عام ١٣٨١ العظيمة لم تسفر عن كسب ما . فلم يزل الكثير من فروض العبودية يؤخذ قسراً ، بل إن مجلس اللوردات قد رفض بعد ذلك بزمان ، في عام ١٥٣٧ قانوناً يقضى بالتحريم الكامل لعبيد الأرض . وازداد الضيق على « العامة » ، وأصبح آلاف من رقيق الأرض المتحررين عمالاً يدويين في المدن لا يملكون شيئاً ، وقال توماس مور ، إن الأغنام كانت تأكل الفلاحين . وكانت هذه الحركة طيبة من بعض الوجوه : فقد كانت الأغنام الراعية للكلاء ، تسمد الأرض المشرفة على البوار . وما إن جاء عام ١٥٠٠ حتى كان واحد في المائة من السكان فقط عبيد أرض . فنشأت طبقة من الفلاحين الملاك ، الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم وهي التي منحت تدريجياً للرجل الإنجليزي العادي ، الشخصية المستقلة القوية التي صهرت الكومنولث وكونت دستوراً غير مكتوب لحرية غير مسبقة .

ولم يعد النظام الإقطاعي مجدياً ، لأن الصناعة والتجارة ارتقتا بحيث اتخذتا الطابع القومي ، وتحولتا إلى اقتصاديات المال المنقول المرتبطة بالتجارة الخارجية . فحينما كان رقيق الأرض ينتج لسيد ، لم يكن عنده إلا حافز ضئيل للتوسع أو الإقدام ، ولكن عندما يستطيع الفلاح المتحرر والتاجر ، أن يبيعا إنتاجهما في السوق الحر ، فإن الرغبة الملحة في الربح تبعث الحياة الاقتصادية في الأمة ، وأخذت القرى ترسل مزيداً من الطعام إلى المدن ، وتنتج المدن مزيداً من السلع للوفاء بضمن هذا الغذاء ، وهكذا تجاوز تبادل الفائض ، حدود البلديات القديمة وقيود النقابات لتغمر إنجلترا ، وتصل إلى ما وراء البحار .

وتحولت بعض النقابات إلى « شركات تجار » صرح الملك لها أن تبيع المنتجات الإنجليزية في الخارج . وكانت معظم التجارة الإنجليزية تحمل في القرن الرابع عشر على سفن إيطالية ، أما الآن فإن البريطانيين يبنون سفنهم ، ويسيرونها في بحر الشمال والساحل الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط . وقاوم تجار جنوة والاتحاد الهنسياتي ، أهولاء الوافدين الجدد ، وحاربوهم بالقرصنة ومصادرة السفن ، ولكن هنري السابع ، اقتنع بأن تقدم إنجلترا يتطلب التجارة الخارجية ، فوضع الملاحة الإنجليزية في حماية الحكومة ، وأعد مع أمم أخرى ، اتفاقيات تجارية ، أقرت النظام والأمن البحريين . حتى إذا وافى عام ١٥٠٠ ، كان « التجار المغامرون » في إنجلترا ، يسيطرون على بحر الشمال . وكان الملك بعيد النظر فأوفد وهو يستشرف التجارة مع الصين واليابان الملاح الإيطالي جيوفاني كابوتو ، الذي عاش إذ ذاك في بريستول باسم جون كابوت ، ليجتاز عن ممر شمالي عبر الأطلنطي (١٤٩٧) . وقنع كابوت ، باكتشاف نيوفونديلاند ، والساحل من لبرادور إلى ديلاوير في رحلة ثانية (١٤٩٨) ، ومات في تلك السنة ، وتحول ابنه سيباستيان إلى خدمة إسبانيا . وربما لم يدرك الملاح والملك أن هذه الرحلات ، استهلكت (١٤)

التوسع الإمبراطوري البريطاني ؛ وفتحت للتجارة الإنجليزية والمستعمرين البريطانيين ، إقليمياً يمكن أن يصبح على الأيام — القوة والحلاص لانجلترا .
ودعمت الرسوم الجمركية الوقائية ، الصناعة القومية ، وخفض النظام الاقتصادي ، سعر الفائدة ، تخفيضاً كبيراً بلغ ٥ ٪ أحياناً ، ونظمت القوانين الحكومية تنظيمًا صارماً الأجور وأحوال العمل . وقضى قانون هنري السابع (١٤٩٠) بـ :

« على كل رئيس عمل أو عامل أن يكون في عمله ، بين منتصف شهرى مارس وسبتمبر ، قبل الساعة الخامسة صباحاً ، وله نصف ساعة فقط لتناول الإفطار ، وساعة ونصف لغذائه (في الظهر) وهو يستطيع النوم ، إن وجد فسحة له في تلك الفترة . . وعليه ألا يترك عمله . . إلا بين الساعة السابعة والثامنة مساءً . . ، وعلى كل رئيس عمل وعامل أن يكون في عمله عند انبلاج الصبح وذلك في منتصف سبتمبر إلى منتصف مارس ، وألا يغادره إلا بمجيء الليل . . ولا يسمح لأحدهم بالنوم نهاراً » .

ومع ذلك فإن العمال كانوا يستريحون ويشربون الخمر أيام الآحاد ، إلى جانب أجازة أربع وعشرين يوماً في السنة . ووضعت الدولة أسعاراً عادلة « لكثير من السلع ، وقد سمعنا عن اعتقالات حدثت ، لتجاوز هذه الأسعار . وكانت الأجور الحقيقية ، بالنسبة إلى الأسعار ، أعلى بشكل واضح في أواخر القرن الخامس عشر ، عما كانت عليه أوائل القرن التاسع عشر .

وأدى ضغط ثورات العمال في إنجلترا ، إبان ذلك العصر إلى الحصول على حقوق سياسية والوقوع في أخطاء اقتصادية واستمرت دعوة شبيهة بالشيوعية في كل سنة تقريباً ، وذكر العمال مراراً « بأنكم مخلوقون من نفس الطينة والمادة اللتين خلق منهما الأشراف ، فلماذا إذن يترضون ويلعبون ، وأنتم تعملون وتكدحون ؟ — ولماذا يملكون الكثير جداً مما في هذا العالم من ثروات وكنوز ، وأنتم تملكون أقل القليل ؟ » وكانت أعمال الشعب

كثيرة ، ضد التضييق على الأرض المشاع ، كما قامت خلافات موسمية بين التجار والعمال ، ولكننا نسمع أيضاً عن قلق من أجل الديمقراطية المحلية في المدن ، وعن تمثيل العمال في البرلمان وعن تخفيض الضرائب .

وفي شهر يونيه عام ١٤٥٠ ، سارت قوة كبيرة منظمة من الفلاحين وعمال المدن إلى لندن ، وعسكرت في بلاك هيث . وعرض زعيمهم جاك كيد ظلامتهم ، في وثيقة منظمة « إن جميع الناس من العامة ، لا يستطيعون أن يعيشوا من كد أيديهم وفلاحتهم ، بسبب الضرائب والمغرم وغيرها من المظالم » . ولا بد أن يلغى هذا الدستور العالي ، وأن تتألف وزارة جديدة . فاتهمت الحكومة زعيمهم كيد بالدعوة إلى الشيوعية(*) .

والتقى جنود هنري السادس ، وأتباع بعض النبلاء ، بجيش الثوار في سفنوكس (١٨ يونيه سنة ١٤٥٠) ومما أثار دهشة الجميع أن الثوار انتصروا وتدفقوا إلى لندن . وأمر مجلس الملك تهدئة لحواطرهم باعتقال لورد ساي ووليم كرومر ، وهما موظفان مكروهان لا يترازهما الأموال وطغيانهما . وفي الرابع من يوليه ، سلما إلى الغوغاء الذين حاصروا القلعة ، فحاكما الثوار ، وقد رفضا الدفاع عن نفسيهما وأعدما . ويقول هولنشد : إن الرأسين رفعا على قضيين ، وحملا عبر الطرقات في موكب مرح ، وكان فم كل منهما يصفع بقبلة دامية ، بين حين وآخر . وتفاوض كبير أساقفة كانتربري وأسقف ونشستر للصالح ، الذي منح بعض المطالب ووعده بالعفو العام . ووافق الثوار وتفرقوا بسوء مع ذلك فقد هاجم جاك كيد قلعة كوينز بورد في شيبى ، فاعتبرته الحكومة سخرجا على القانون ، وأصيب بجرح مميت وهو يقاوم اعتقاله وذلك في الثاني عشر من يوليه . وحكم على ثمانية من المتواطئين معه بالإعدام وعفا الملك عن الباقين ، فابتهج كافة رعاياه ابتهاجاً عظيماً .

(*) انظر صورة شكسبير الساخرة لـ جاك كيد : « سيكون هناك في إنجلترا سبعة أرغفة من التي بنصف بنس تباع بنس كامل ... وسأجعلها من الكبائر احتساء زجاجة الحمة الصغيرة ، إن كل شيء سيكون مشاعا . . . »

٣ - الأخلاق والطباع

كتب سفير البندقية حوالى عام ١٥٠٠ ، تقريراً إلى حكومته :

« معظم الإنجليز - سواء أكانو رجالاً أم نساء ، وفي جميع الأعمار - حسان وأجسامهم ممشوقة . . وهم يحبون أنفسهم حباً عظيماً ، ويحبون كل شيء يتعلق بهم ويعتقدون ، أنه ليس فى الناس سواهم ، وليس هناك عالم آخر سوى إنجلترا ، وكلما رأوا غريباً جميلاً قالوا « إنه يشبه الإنجليزى ، ومن الأسف الشديد أنه ليس كذلك » .

وقد يجب الإنجليز ، بأن معظم هذا الوصف ، بشيء من التعديل الضرورى ينطبق على كل الشعوب . . ومن المؤكد أنهم كانوا شعباً قوياً فى الجسم والأخلاق والحديث . وهم يقسمون بحرارة حتى إن جان دارك أسمتهم دائماً الملاحين .

وكان النساء أيضاً يتكلمن ببساطة ، ويتحدثن عن مسائل فسيولوجية وجنسية بحرية ، قد تذهل السفسطين اليوم . ومزاجهم كحديثهم خشن مفحش . وطباعهم جافية ، حتى عند الطبقة الأرستقراطية ، وعليهم أن يدرّبوا ويستأنسوا ، بقانون سلوكى صارم . ولقد نشأت الروح الشهوانية التى اتسم بها الإنجليز فى عهد أليزابث فى القرن الخامس عشر ، نتيجة لحياة يكتنفها الخطر والعنف والقحة . وكان على كل امرئ أن يكون شرطى نفسه ، مستعداً أن يقابل الصفعة بالصفعة ، وأن يقتل عند الضرورة برباطة جأش . وهؤلاء الحيوانات القوية نفسها يمكن أن تكون كريمة ، شهمة ، ورقيقة فى بعض الأحيان . فلقد بكى محاربون جفاة ، عندما مات سيرجون تشاندوس وهو فارس مغوار ، وتظهر رسالة مارجريت باستون إلى زوجها المريض (١٤٤٣) ، كيف يكون الحب ، لا عصر له ولا يضارعه شيء .

ويجب أن نذكر أن هذه السيدة نفسها ، قد هشت رأس ابنها ، عندما رفضت أن تزوج من اخناره أبواها .

ونُشئت البنات في حصانة رصينة واحتشام ، لأن الرجال كانوا حيوانات مفترسة ، وكانت العذرة عدة اقتصادية في سوق الزواج . ويعد الزواج حادثاً من أحداث تنقل المتاع . فالفتيات قد يتزوجن زواجاً شرعياً في سن الثانية عشرة ، والصبيان في سن الرابعة عشرة ، حتى بغير موافقة والديهم ، ولكن الخطبة كانت تعد في الطبقات العليا تعديلاً للمعاملات المالية ، بوساطة الآباء والأمهات ، عقب بلوغ الأطفال السنة السابعة من العمر مباشرة . وما دام زواج الحب شاذاً ، والطلاق محرماً ، فقد شاع الزنا ، وبخاصة في الطبقة الأرستقراطية . ويقول هولنشد : « لقد سادت هناك ، الرذيلتان الوبيئتان السكر والزنى ، مع الفحش البغيض ، وبخاصة عند الملك » واختار إدوارد الرابع ، بعد أن مر بتجارب عديدة في الحب ، جين شور ، لتكون الحظية الأثيرة لديه . ولقد خدمته بإخلاص نرق ، وأثبتت أنها صديقة رحيمة في البلاط لكثيرين من ذوى الحاجات . ولما مات إدوارد ، أرغمها رتشارد الثالث أن تجوب شوارع لندن ، في ثوب الندم الأبيض وربما كان ذلك استعراضاً لآثام أخيه ، وإخفاء لآثامه هو ، وعاشت حتى بلغت أرذل العمر ، محتقرة مبغضة من أولئك الذين ساعدتهم .

ولم يحدث في التاريخ المعروف إطلاقاً أن شعباً كان يماثل الإنجليز (الذين يتشبهون بالقانون اليوم) في استهتارهم إذ ذاك بالقانون إلى حد بعيد . ولقد جعلت حرب المائة سنة الناس قساة مستهترين . واستمر النبلاء بعد عودتهم من فرنسا ، يحاربون في إنجلترا ، واستخدموا جنوداً مسرحين في منازلهم . وشارك أبناء الطبقة العليا ، التجار الجشعين الذين داسوا كل فضيلة للحصول على المال . وكانت السرقات لا تحصى . وباع التجار الرديء من السلع واصطنعوا الزائف من الموازين ، وكاد

التدليس في نوع الصادرات ومقدارها يقضى على تجارة إنجلترا الخارجية ،
في فترة من الفترات . واستغلت التجارة في البحار القرصنة ، وكانت
الرشوة عامة أو تكاد : وقلما يحكم القضاة دون أن يحصلوا على « هدايا » ،
وكان جبابة الضرائب يرشون ، تيسيراً للتخلص منها ، ويطلب إلى الضباط
المجندين مثل فولستاف الذي صورته شكسبير ، أن يتغاضوا عن مدينة
من المدن ، فقد استطاع الأعداء ، أن يشتروا جيشاً إنجليزياً ، كان يغزو
فرنسا ، واشتد جشع الناس للمال وقتذاك إلى حد الجنون كما هو الآن ،
وأنكر شعراء مثل تشوسر الجشع في شعرهم ، ولكنهم مارسوه في واقع
حياتهم وكان من الممكن أن يتقوض الكيان الأخلاقي للأمة ، لولا أن أسسه
قد دعمتها حياة البساطة التي اتسم بها الرجل والمرأة في الطبقة العامة ، ففي
الوقت الذي كان فيه من هم أفضل منهم ، يدبرون الحروب والشرور لذلك
العصر ، احتفظ هؤلاء العامة بالحياة المنزلية وحافظوا على الجنس .

وعاشت جميع الطبقات ، ما عدا التجار والعمال ، في الريف أطول
مدة يستطيعونها كل سنة . وتحولت القلاع التي لم تعد حصينة ، بعد انتشار
المدفع ، ببطء إلى منازل كبيرة . وحل الآجر محل الحجر ، ولكن البيوت
المتواضعة ، كانت لا تزال تقام من الخشب والطين . وفقدت الردهة
الوسطى ، مساحتها وفخامتها . القديمتين وهي التي كانت تستعمل في يوم
من الأيام لجميع الأغراض ، وتقلصت إلى دهليز يؤدي إلى غرفة معيشة
كبيرة ، وغرف صغيرة ، وقاعة استقبال للحديث الخاص . وضعت
السجاجيد على جدران بيوت الأغنياء ، وأضاءت النوافذ ، وهي من زجاج
ملون في بعض الأحيان المدخل الذي كان مظلماً من قبل . أما دخان المآقد
الذي كان يتسرب قبلاً من النافذة والباب والسقف ، فقد جُمع في مدخنة ،
ومدفأة ضخمة تزين غرفة المعيشة . وقد تعلقت السقوف بالخشب والأرضيات
بالبلاط ، في حين ظلت السجاجيد قليلة نادرة . إذا نحن صدقنا أقوال
إراسموس التي يغلب فيها الجانب الأدبي على الدقة في التصوير .

« كانت جميع الأرضيات تقريباً من صلصال ، مفروشة بحصير من حلفاء المستنفعات ، وقليلاً ما تجدد حتى إن الأسس تظل عشرين سنة ، تردد أسافلها بالبصاق والقيء من الناس والكلاب والنبذ والجمعة ، وبقايا السمك وغيرها من القاذورات التي لا تسمى ، ويتصاعد منها ، بتغير الفصول ، بخار غير صحي في رأيي » .

وكانت المخادع فخمة مزينة بالنقوش المحفورة ، ومزودة بالأغطية عليها رسوم أزهار وتعلوها كُنتة . كما كانت مائدة الطعام ، في المنازل المريحة ، فنية ضخمة رائعة ، بنقوشها البارزة من خشب الجوز أو البلوط ويقوم بالقرب منها ، أو في القاعة بصفة عامة ، صوان للأواني أو الفصيات والتحف حيث ترتب للعرض أو الزينة . ونظمت ردهة الجلوس التي أعدت في الأصل للحديث ، لتناول الطعام .

وكانوا يتناولون وجبات الطعام الرئيسية نهائياً ، وذلك للاقتصاد في زيت الإضاءة و« الغداء » في الساعة العاشرة صباحاً ، والعشاء في الخامسة مساء . وحرص الرجال على ارتداء قبعاتهم عند الجلوس إلى المائدة ، ليمنعوا شعورهم الطويلة ، من مخالطة الطعام . واحتفظ بالشوك لأغراض خاصة مثل تناول الكامخ أو تجمير الجبن ، وظهر استعمال الإنجليز لها على النمط الحديث ، أول مرة عام ١٤٦٣ ، أما السكين ، فقد كان الضيف هو الذي يأتي بها معه ، يحملهما في جراب ، معلق بمنطقته ، ويتطلب آداب السلوك إذ ذاك أن يصل الطعام إلى الفم ، بوساطة الأصابع . ولم تكن المناديل مستعملة ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، فقد كان على الرجال أن يتمخطوا باليد التي تمسك السكين بدلاً من تلك التي تنقل الطعام إلى الفم . وكانت القوط غير معروفة ، ويحذر الطاعمون ألا ينظفوا أسنانهم بغطاء المائدة ، وكانت الوجبات دسمة ، ذلك أن الغذاء العادي لواحد من أصحاب الوجاهة ، كان يتألف من خمسة عشر أو عشرين صحناً . واحتفظ اللوردات

العظام بموائد عظام ، فقد كانوا يطعمون يومياً ، مائة من الندماء والزوار والحشم ، وكان وروك صانع الملك يذبح ستة ثيران كل يوم لمائدته ، وأطعم أحياناً خمسمائة مدعو . وكانت اللحم هي الطعام القومى والحضرات نادرة أو غير محبوبة . والجمعة هي الشراب القومى ، ولم يكن النبيذ موفوراً أو منتشرأ ، كما كان الحال فى فرنسا أو إيطاليا بيد أن المسموح به من الجمعة ، هو جالون للفرد كل يوم حتى الراهبات . وقال السير جون فورتسكيو (توفى عام ١٤٧٠) « لا يشرب الإنجليز الماء ، إلا فى أوقات معينة لأغراض دينية . أو للتكفير عن ذنب .

وكان الرداء فاخراً عند الطبقة الأرستقراطية . أما البسطاء فكانوا يرتدون جلباباً فضفاضاً وقلنسوة ، أو معطفاً قصيراً يلائم العمل ، وكاف الموسرون بالقبعات المكسوة بالفراء أو الريش ، وأردية مزينة بالزهور ، أو سترات مزركشة تنفخ عند الأكمام ، وجوارب طويلة ، شكاً منها قسيس تشوسر بقوله « تظهر الساقين فى صورة مفزعة منتفخة ينفث إحداها عن الأخرى بالإضافة إلى أرداف . . وكأنها الجانب الخافى من قردة فى ليلة مقمرة » . وارتدى تشوسر نفسه عندما كان تابعاً فى حاشية الملك ، سترة مشعة وجوربين أحدهما أحمر والآخر أسود . واختفت فى القرن الخامس عشر الأحذية المدببة ، التى شاعت فى القرن الرابع عشر ، واستدارت الأحذية واتسعت عند الأصبع الكبير من القدم . أما « زى النساء » فهو يثير السخط ، وعلى الرغم من أن محيا بعضهن ، ينم على العفة والطيبة الكاملتين ، إلا أنهن يبرزن بقلّة ردائهن غير المتناسق فتنهن ودلالهن . ومع ذلك ، فإن الصور التى وصلت إلينا ، تظهر الجنس المثير ، وقد حبس بإحكام فى حشد من الملابس من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

وتراوحت ألعاب التسلية فى الداما والشطرنج ، إلى النرد ، ومن صيد السمك إلى قنص الوحوش ، ومن رمى السهام إلى المبارزة . ودخلت أعبة

الورق إلى إنجلترا حوالى نهاية القرن الخامس عشر، وهم لا يزالون يلبسون ملوكهم وملكاتهم، على طراز ذلك العصر. وكان الرقص والموسيقى شائعين كالميسر، وكل إنجليزى تقريباً، يشارك فى الأغاني الجماعية، ولقد نافس هنرى الخامس جون دستيبل، مع أعظم الملحنين لذلك العهد. واعترفت القارة الأوروبية بالمغنيين الإنجليز. ولعب الرجال التنس، وكرة اليد وكرة القدم وغيرها من ألعاب الكرة القديمة ورمى الأطواق، وتصارعوا وتلاكموا، وأعدوا الديكة للعراك، وتراهنوا وتحرشوا بالدببة والثيران. واحتشد الناس لمشاهدة البهلوان والسائرين على الحبال يعرضون فنونهم التى كانت تسرى عن القدماء، وتدهش المحدثين. واحتفظ الملوك والنبلاء بالمشعوذين والمضحكين والمهرجين، وكان الملك أو الملكة يعينان من يشرف على ألعاب ومشاهد عيد الميلاد، ومنحوه لقب لورد. والنساء يخالطن الرجال فى حرية فى كل مكان. يحسبن الخمر فى الحانات، يركبن وراء كلاب الصيد، ويصنن بالصقور، ويصرفن المشاهدين عن المتصارعين فى بعض الدورات، وهن اللائى قادتهم الملكة للتحكيم فى رمية الأطواق ومنح التاج الذهبى.

وكانت الرحلة لا تزال مجهدة، ولكن ما من أحد استقر فى داره، على ما يبدو — وذلك من مساوىء الزواج من واحدة. والطرق موحلة أو متربة، ولم يميز اللصوص بين عنصر جنس وطبقة أو مهنة. والفنادق بهيجة المنظر على الرغم من قذارتها تزدحم فيها الصراصير والفئران والبراغيث. ويجد كل رجل نهم بائعة هوى، وقلما تجد الفضيلة مخدعاً صالحاً لها هناك. يذهب الفقراء راجلين والأوساط على صهوات الخيل، فى جموع مسلحة عادة، ويستعمل الأغنياء عربات، تجرها خيول مطهمة، ونسب ابتكارها إلى رجل مجرى فى قرية كوكر من أبناء القرن الخامس عشر. وكانت عربات اللوردات مزينة بالنقوش البارزة وموشاة بالرسوم ومذهبة، لها جشيات

وستائر وبسط ، ومع ذلك فلقد كانت أقل راحة من ظهور الإبل ، وكانت تترنح كمركب صيد بشرع واحد . ولم تكن السفن خيراً مما كانت عليه في العصر القديم ، ولعلها أسوأ حالا ، وأخذت السفينة التي جاءت بالملك جون من بوردو ، إلى لندن عام ١٣٥٧ اثني عشر يوماً .

وانتشرت الجرائم وبلغت المدن من الفقر حدّاً لا تستطيع معه ، إلا أن تستخدم شرطة من المتطوعين غير المأجورين . ولكن الذكور كان يطلب إليهم جميعاً أن يسهبوا في « ملاحقة » مجرم هارب ، وكان يبحث عن الموانع في الحكومات الصارمة من أجل القلة الذين يقبض عليهم ، وكانت عقوبة السطو والاختلاس والحريق العمد وانتهاك حرمة المعابد المقدسة ، كعقوبة القتل والتآمر ، وهي الشنق على أقرب شجرة ، وترك الجثة ردىاً للآخرين وطعمة للغربان . وانتشر التعذيب - لكل من المتهم والشهود - إبان حكم إدوارد الرابع ، واستمر مائتي سنة . وكثر المحامون .

وقد يكون حكمنا على هذا العصر ممعناً في القسوة ، متغافلين عن فظائع قرننا المتحضر . ولقد كان سير جون فورتسكيو القوام على العدالة في عهد الملك هنري السادس ، أحسن ظناً بعصره ، وكتب تمجيداً له مصنفين اشتهروا في وقت من الأوقات : وفي مجاورة امتدح قوانين إنجلترا . ومجد صحة المحاكمة بوساطة المحلفين ، ونعى التعذيب ، وكان مثاله ، مثل آلاف الفلاسفة ، في تحذير الأمراء الذين يجدر بهم أن يكونوا خدام الشعب المعتصمين بالقانون . ولقد وازن في كتابه « الملكية » أو « حكومة إنجلترا » بين فرنسا وإنجلترا على أساس من العاطفة الوطنية : فالإناس من فرنسا قد يحكم عليهم بغير محاكمة علنية : وقلما يدعى مجلس الولايات للاجتماع . والملك يفرض الضرائب على الحاجات الضرورية كالملح والخمر . وبعد أن بالغ في تمجيد بلاده على هذا النحو ، ختم السير جون كلامه بقوله إن جميع الحكومات ، يجب عليها أن تخضع للبابا ولو أدى ذلك إلى تقبيل قدميه .

٤ - اللولارد

أعاد أرنلد كبير الأساقفة عام ١٤٠٧ ، تأكيد سيادة الشريعة أو القانون الكنسى ، على كل تشريع وضعى ، وحكم بالكبيرة أو الهرطقة الكاملة على رفض أى مرسوم بابوى . وأقامت الكنيسة بعد ويكيليف ، وازدادت قوتها فى إنجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ، وفاضت الثروة المتدفقة عن خزائنها . وشاع الاكتتاب الدينى : فإن الأشخاص الذين يتوقعون الموت ، كانوا يتبرعون لبناء كنيسة ، ولإقامة القداس للتعجيل بدخولهم الجنة . وسيطرت الكنيسة على مجلسى البرلمان ، فقد كان لها فى مجلس الشيوخ حوالى عشرين أسقفاً وستة وعشرين من رؤساء الأديرة ، فى حين لم يكن فى المجلس من غير رجال الدين سوى سبعة وأربعين عضواً . وأصر هنرى السابع - وهنرى الثامن فيما بعد - لموازنة ذلك الوضع على تعيين أساقفة ورؤساء أديرتها من بين رجال الدين ، ويسر اعتماد الرتب الكهنوتية على الملكية ، تسليم رجال الدين ، لجهود هنرى الثامن فى سبيل تحقيق السيادة الملكية على الكنيسة الإنجليزية .

وفى الوقت نفسه استقر وعاظ ويكيليف المساكين على نشر أفكارهم المناهضة لرجال الدين . ولقد ذكر أحد مؤرخى الأديرة ، فى فترة مبكرة ، ١٣٨٢ فى مبالغة تم على الفرع « أنهم كانوا يتكاثرون بسرعة فائقة ، كالبراغم ، حتى غمروا المملكة بأسرها . . ومن النادر أن تلقى رجلين فى الطريق دون أن يكون أحدهما من تلاميذ ويكيليف . ولقد وجدوا الجمهور المستعد للاستماع إليهم بين صفوف عمال الصناعة ، وبخاصة نساغى نورفولك . وفى عام ١٣٩٥ أحس جماعة اللولارد ، أنهم بلغوا من القوة حداً ، أتاح لهم أن يقدموا إلى البرلمان ، بياناً جريئاً بمبادئهم : فقد عارضوا عزوبة رجال الدين ، واستحالة القربان دم المسيح ولحمه

وعبادة الصور وزيارة القديسين والصلوات على أرواح الموتى ، وثروة الكنيسة وكثرة الموقوف عليها ، واستخدام رجال الكهنوت في وظائف الحكومة وضرورة الاعتراف للقسس والاحتفال بالتعاويد ، وعبادة القديسين . وأوصوا في بيانات أخرى ، بأن الجميع يجب عليهم أن يعكفوا على قراءة الكتاب المقدس ، وأن يتبعوا تعاليمه باعتبارها فوق مراسيم الكنيسة . ورفضوا الحرب باعتبارها مناقضة للمسيحية ، والترف لأنه مناف للأخلاق ، وطالبوا بإصدار قوانين خاصة بالنفقات ، تفرض على الناس العودة إلى البساطة في الغذاء والكساء ، وكرهوا الإيمان ، ووضعوا في مقابل صفته القسم ، جيناً آخر مثل « أنا متأكد أن » و « إنها الحقيقة » ، وكان العقل الطهري ووجهة النظر الطهرية ، يتخذان شكلهما في إنجلترا قبل ذلك ، ولقد مزج نفر من الوعاظ ، الاشتراكية بعقيدتهم الدينية ، ولكن معظمهم ، كان ينفر من مهاجمة الملكية الخاصة ، وسعوا إلى تأييد الفرسان والنبلاء إلى جانب تأييد الفلاحين والعمال .

ومهما يكن من شيء فإن الطبقات العليا لم تستطع أن تنسى المأزق الشديد الذي نجت منه في ثورة ١٣٨١ ، ووجدت الكنيسة فيهم ، استعداداً جديداً لحمايتهم ، باعتبارهم قوة استقرار في المجتمع . وهدد رتشارد الثاني ممثلي اللورد في البرلمان بالاعتقال وأكرههم على الصمت . وطالب أساقفة إنجلترا عام ١٣٩٧ ، الملك بإعدام الهرطقة المتعمدين « أسوة بجميع الممالك الخاضعة للدين المسيحي » . ولكن رتشارد الثاني ، كره أن يسايرهم إلى هذا المدى ، ومع ذلك فقد أصدر هنري الرابع وبرلمانه عام ١٤٠١ المرسوم المشهور بحرق جميع الأشخاص الذين تحكم عليهم إحدى المحاكم الدينية بأنهم هرطقة بالإصرار ، وتباد جميع كتب الهرطقة . وفي العام نفسه ، أحرق وليام سوتري ، وهو قسيس على مذهب اللورد ، بعد أن شد إلى القائمة الخاصة بالإحراق . وقبض على غيره من أنصار المذهب نفسه ، وأجبروا على

تغيير آرائهم وعوملوا برفق . وقدم أمير ويلز ، إلى هنرى الرابع عام ١٤٠٦ ، عريضة تقضى بأن دعوة اللولارد ، وهجومهم على أملاك الأديرة يهددان كيان المجتمع بأسره . وأمر الملك بزيادة التشدد فى محاكمة الهرطقة . ولكن انغماس الأساقفة فى سياسة البابوية ، جرف نشاطهم ، عن الهرطقة والهرطقة إلى حين . وفى عام ١٤١٠ أدانت الكنيسة جون بادبى ، وهو خياط لولاردى ، وأحرق فى سوق سميثفيلد . وقبل أن تشعل المحرقة ، رجا الأمير هال ، بادبى ، أن يرجع عن آرائه ، وأن يمنح فى مقابل ذلك الحياة والمال ، فأبى الرجل ، وارتقى المحرقة حيث لقي الموت

وجلس الأمير على العرش عام ١٤١٣ باسم هنرى الخامس ومنح تأييده الكامل لسياسة القمع . وكان أحد أصدقائه هو سيرجون ألد كاسل لورد كوبهام ، وهو الذى رأى نظارة مسرحيات شكسبير ، بعد ذلك ، أنه عين فلستاف . ولقد أبلى الدكاسل البلاء الحسن فى الحرب فى سبيل الأمة ، ولكنه تسامح مع دعاة اللولارد ، وبسط عليهم حمايته فى ضياعه بهيرفوردشاير وكنت . وطالب الأساقفة بمحاكمته ثلاث مرات ، وأبى حضور المحاكمة ثلاثاً ، ولكنه استسلم بناء على دعوة مكتوبة من الملك ، وقتل أمام الأساقفة (١٤١٣) فى نفس الموضع من كنيسة سانت بول ، حيث حوكم ، ويكلف قبل ذلك بست وثلاثين سنة . وأكد اعتقاده الثابت فى المسيحية ، ولكنه لم يقبل التخلّى عن آراء اللولارد فى الاعتراف أو القربان . فأدين بالهرطقة ، وسجن فى برج لندن ، وأعطى مهلة أربعين يوماً ، على أن يعود عن هذه الآراء ، ولكنه بدلا من ذلك ، فر هارباً . وما أن بلغ اللولارد الذين كانوا حول لندن ، خبر فراره ، حتى جهرّوا بالثورة ، وحاولوا أن يقبضوا على الملك (١٤١٤) . وفشلت المحاولة ، وقبض على بعض الزعماء وأعدموا . واختفى الدكاسل ، ثلاث سنوات فى جبال هيرفوردشاير وويلز ، ثم قبض عليه آخر الأمر ، وأعدم بتهمة الخيانة ، ثم أحرق بتهمة الهرطقة (١٤١٧) ، لأن الدولة والكنيسة طالبت كل منهما بحقوقها .

ونحن إذا قسنا اضطهاد اللولارد إلى غيرهم ، نرى أنه كان معتدلاً ،
وبلغ عدد الذين أعدموا أحد عشر رجلاً بين عامي ١٤٠٠ ، ١٤٨٥ .
ولقد سمعنا عن طوائف من اللولارد عاشت إلى عام ١٥٢١ ، وفي سنة
متأخرة هي سنة ١٥١٨ ، قتل توماس جان على المحرقة ، وهو الذي زعم
أنه حول سبعمائة شخص إلى المذهب اللولاردي ، وأحرق ستة آخرون
عام ١٥٢١ .

وأما فصل هنري الثامن لإنجلترا عن روما ، وقابلت الأمة هذا التحويل
بلا ثورة ، فإن اللولارد من حقهم ، أن يزعموا ، أنهم مهدوا الطريق إلى هذا
التحول إلى حد ما .

ونشر ريجفالد تيلوك ، أسقف تشيشستر عام ١٤٥٠ كتاباً ، اتخذ
له عنواناً ، على طريقة العصر المتقلبة ، كبح جماح اللوم الزائد عن الحد
لرجال الدين .

كان رداً صريحاً على المذهب اللولاردي ، وقد افترض وجود نزعة
قوية ضد رجال الدين بين الناس . واقترح القضاء على هذه الآراء ،
لا بالسجن في المحرقة ، ولكن بالاحتكام إلى العقل فحسب . وأمعن الأسقف
المتحمس في الاحتكام إلى العقل ، حتى أغرم بالعقل في ذاته ، وأوقعه ذلك
في الهرطقة ، وألقى نفسه ، يفند بالعقل بعض حجج اللولارد ، من الكتاب
المقدس . ووضع العقل فوق الكتاب المقدس بصورة قاطعة كميزان للحقيقة ،
في « رسالة عن الاعتقاد » - وهو موقف احتاجت أوربا فيه مائتي سنة
لاستعادته . وأضاف مؤلف « كبح جماح اللوم الذي لم يكبح جماحه »
أن آباء الكنيسة لا يوثق بهم دائماً ، وأن أرسطو ليس ثقة لا يناقش ، وأن
الرسول ، لا يد لهم في العقيدة ، وأن هبة قسطنطين كانت انتحالاً . وطالب
الأساقفة الإنجليز ببيكوك المعجب بنفسه بالمثل أمام محكمتهم (١٤٥٧) ، وخبروه
بين الرجوع عن آرائه أو الإعدام حرقاً . وكان يكره الإحراق ، وقرأ

علانية لإقراراً بالرجوع عن أقواله ، وشلح عن رتبته الكنسية ، واعتزل الناس في دير كنيسة تورني إلى آخر حياته (١٤٦٠) .

٥ - الفن الإنجليزى ١٣٠٠ - ١٥٠٦

كانت الكنيسة ، على الرغم من الهرطقة واللاكهوتية ، من القوة والثراء ، بحيث استطاعت أن ترفع فن العمارة الإنجليزية إلى مستوى من التفوق رفيع إلى حد ما . ولقد مول : نمو التجاوة وغنائم الحرب : الكاتدرائيات والقلاع والقصور ، وأسبغت على اكسفورد وكبريدج جلالاتاً شيدت من دور جميلة للعلم لا تضارع . ولقد أخذت مواد البناء في إنجلترا من رخام بربك ومرمر نوتنجهام إلى غابات شرود وأجر أى مقاطعة ، ثم تحولت إلى صروح النبلاء وأبراج اللوردات ذوات الأطراف الدقيقة ، والسقوف الخشبية التي كانت تماثل في متانتها وجمالها القباب القوطية من الحجر . واستبدلت بالدعائم القبيحة التي تربط السقف ، والتي تصل الجدار بالآخر في صورة متكلفة ، الدعائم البارزة المطروقة ، تحمل بأكتاف ضخمة من خشب البلوط ، والعقد المرتفع فوقها ، وبهذه الطريقة ، قوصرت بعض من أجمل كنائس إنجلترا صحنها . وهكذا حصلت كاتدرائية سلبى على سقف من خشب البلوط مضلع ومعقد ، تضارع الرسوم التي على شكل عقد ومروحة ، مما يسقف كنيسة « باث » ومنصة الترتيل في « إلى » - والجناح الجنوبي لكنيسة جلوسستر بأحجار متداخلة .

وأعطت نماذج من الزخارف الحجرية المفرغة في النوافذ ، ومن تغليف الجدران وحواجز المرتلين ، أسماءها لطرز معمارية متعاقبة ، تتداخل في الزمان وتختلط عادة في بناء واحد . واصطنع الطراز القوطي ذو الزخارف الهندسية (حوالى عام ١٢٥٠ - ١٣١٥) الأشكال الإقليمية ، كما هو الشأن

في كاتدرائية اكستر . وانصرف الطراز القوطي الذي توسل بالأقواس في الزخرف (حوالي ١٣١٥ - ١٣٨٠) ، عن الرسوم المحدودة ، إلى الخطوط التي تتماوج بحرية ، التي سبقت في شيء من التحفظ ، طراز فرنسا المشع ، كما هو الحال في النافذة المستديرة الجنوبية في لكون . وركز الطراز القوطي الرأسي (حوالي عام ١٣٣٠ - ١٥٣٠) ، على الخطوط الأفقية والرأسية في داخل العقد ، كما في كنيسة هنري السابع في دير وستمنستر . وخففت الألوان الزاهية ، التي اتسم بها الزجاج الملون في القرن الثالث عشر ، بأصباغ أخف وأبصباع فضي أو رمادي شاحب ، وناfst صور الفروسية الآفلة ، الأساطير المسيحية ، على هذه النوافذ . وبلغ الفن القوطي بذلك أوجه فاضمحلالة .

وقلما عرفت انجلترا مثل هذا الشغف بالبناء . فلقد جهدت ثلاثة قرون (١٣٧٦ - ١٥١٧) لكي تشيد الصحن الحالي في دير وستمنستر ، ونحن نستطيع أن نحس إحساسا ضيقاً في الهواذج الطوال لتلك السنوات ، جهد العقل واليد اللذين اشتركا في عمل مقام لا يضارع العبقریات الإنجليزية ، في خير أعمالها . ويعد تجديد بناء وندسور أقل روعة ؛ فلقد ابنتى ادوارد الثالث هناك على مساحة ضخمة ، البرج المدور الكبير (١٣٤٤) ، وبدأ ادوارد الرابع (١٤٧٣) تشيد كنيسة سانت جورج بمنصاتها الحميلة للمرتلين وعقدتها الذي على شكل المروحة وزجاجها الملون . وصمم الن دى ولسنجهام ، على الطراز القوطي المتوسل بالأقواس في الزخرف ؛ كنيسة رائعة للعدراء وبرج «صباح» لأيلي . وزودت كاتدرائية جلوسستر ببرج وسيط وعقد للمرتلين ونافذة شرقية ضخمة ، وأروقة متسعة ، وتعد سقوفها التي على شكل المروحة من عجائب انجلترا . ووسعت واشستر صحنها الكبير وزينت واجهتها الجديدة بالطراز الرأسي . وشيدت كفتري ، على هذا النحو الكاتدرائية ، التي لم ينفذ منها في الحرب العالمية الثانية ، سوى برجها المدبب الفخم : وأقامت

ببتربره ، عقدها الشاهق على شكل المروحة ، وأكملت يورك منستر صحنها ، أبراجها الغربية ومنصة المرتلين فيها . وكانت الأبراج هي المجد الذي يتوج العصر ، تسبغ النبل على كلتي مرتن والمجدلية في اكسفورد ودير فاونتين أبي وكنتربري وجلاستبرى ودربي وتونتن وغيرها من مئات الأضرحة . واستعمل وليام الويكهامي الطراز الرأسي في تصميم كلية اكسفورد الجديدة ، واتبع هذا النهج وليم وينيليت ، وهو معمر آخر في التسعين ، في « المربع الكبير » بكلية ايتون ، وختمت كلية الملك وكبردج ، العصر بكنيسة قد تغرى بنوافذها وعقدها ومنصات مرتليها كاليان بالعلم وتيمون الأثني بالصلاة .

وفي الطراز القوطي الرأسي طابع دنيوى واقعى يناسب تماما عمارة الكليات والقلاع والحصون وأبنية النقابات والبلديات . وشيد أمراء وروك على هذا الطراز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، قلعتهم المشهورة بالقرب من ليمنجتن . وشيدت الجيلد هول في لندن وهي مفخرة الطبقة التجارية في العاصمة ، بين عامى ١٤١١ ، ١٤٣٥ ولكنها أحرقت عام ١٦٦٦ . فأعاد كريستوفرورن بناءها ، وأضيف إليها الجزء الداخلى الحديد عام ١٨٦٦ وهو الذى انهار تحت وطأة القنابل في الحرب العالمية الثانية . كما اتخذت دكاكين المدينة ، في قوائم نوافذها نموذجاً من الطراز الرأسي ، وهي تخلب مع رؤوسها المقوشة وأفاريزها وطفها البارزة ، ألبابنا بسحر مجد بائد .

ولقد احتفظ فن النحت الإنجليزى في هذا العصر بالسمعة التى غلبت عليه ذلك لأن نحت التماثيل لواجهات الكنائس قد تخلف كثيراً عن العمارة التى كان الغرض منه أن يزينها كما هو الحال فى لنكولن واكستر . واستخدمت حواجز المذبح الكبير فى كاتدرائية وستمنستر ودير سانت البان ، قوالب للتماثيل ولكن هذا شىء لا يؤبه له لكى نضيفه إلى قصتنا . وأجود الأمثلة (١٥)

على هذا الفن إنما توجد في الآثار الجنازية . ولقد حفرت صور جميلة لادوارد الثاني على المرمز في كاتدرائية جلوسستر ، وللسيدة البانوربرس في بيفرلي منستر ولهنري الرابع والملكة جان في كنتربري ، ولرتشارد بوشان في وروك . وبلغ المثالون الإنجليز أوج براعتهم في عرض أزهار أرضهم الخضراء ونباتها . وكان الحفر الجيد يمارس على الخشب : وتبرهن منصات المرتلين في ونشستر وإيلي وجلوسستر ولنكولن ونوروتش الأنفاس بالجمال الذي بذل في إظهاره غاية الجهد .

وكان الرسم لا يزال فناً ثانوياً في إنجلترا ، تخلف كثيراً عن معاصره في فلاندرز وفرنسا وظل تزيين الكتب القديمة فناً محبباً ، ولقد دفع ادوارد الثالث مبلغ ستة وستين جنيهاً في مقابل مجلد مزين للقصاص الخيالي : وقدم روبرت من أورمزي إلى كاتدرائية نوروتش ، نسخة مزينة من المزامير تعدها مكتبة بدليان « أجمل مخطوطة إنجليزية » بين مجموعاتهما . واضمحل فن المنمنمات بعد عام ١٤٥٠ بظهور الرسوم الجدارية واللوحات الحائطية ، وأهل نجم هذا الفن في القرن السادس عشر قبل ظهور معجزة الطباعة الطريفة .

٦ - كاكستون ومالوري

في تاريخ مجهول من القرن التاسع عشر ، أنشأ مؤلف ، لا يعرف اسمه الآن ، أشهر المسرحيات الأخلاقية الإنجليزية ، فإن تمثيلته « كل إنسان » عبارة عن مجاز وأخلاقه تجريدات منفردة منذ البداية ، مثل المعرفة والجمال والمقولات الخمسة والرشد والقوة والفضل والمآثر والصدقة والقراءة والاعتراف والموت وكل إنسان والله . ونحن نجد في الاستهلال ، أن الله غاضب ، لأن وصاياها يتجاهلها تسعة من عشرة أشخاص في ستة أيام من كل أسبوع ، فيرسل الموت ، ليذكر سكان الأرض ، بأنهم لا بد أن

يبادروا بالعودة إليه ، وأن يقدموا حساباً عن أعمالهم . وهبط الموت من السماء إلى الأرض ، في مساحة خط واحد ، فوجد كل إنسان قد امتلأ فكره بالنساء والذهب ، فما كان منه إلا أن أمره بالانتقال إلى الأبدية . فاحتج كل إنسان بعدم الاستعداد ، وطالب بفسحة من الوقت ، وقدم ألف جنيه على سبيل الرشوة ، ولكن الموت يمنحه مسكناً واحداً— وهو أن يصطحب معه إلى الأبدية صديقاً يختاره . فأخذ الرجل يطلب المزاملة في هذه المغامرة العظيمة ، ولكن من طلب مزاملته يعتذر عن نفسه بشجاعة قائلا :

« إن كنت ستتناول الطعام ، وتحتسى الشراب وتبهج ،
أو تغنم معاً صحبة المرأة الشهية ،
فلننى لا أتركك »

فيجيبه كل إنسان : إذا فتعال معى فى رحلتى الطويلة .
الزميل : قدما بإيمانى ، لن أذهب معك الآن .
إلا إذا قتلت رجلاً : وأزهقت روحه ،
عند ذاك أعاونك صادقاً .

فالتجأ كل إنسان إلى قريبه ، إلى ابن عمه ، الذى رفض الدعوة بحجة « أننى مصاب بتقلص فى أصبع رجلى » . فناشد الرجل ، الفضل لمعاونته ، ولكنه كان حيساً ليست عنده الحرية لتقديم أى مساعدة . فتوسل الرجل آخر الأمر بالمآثر فابتهجت ، لأنه لم ينسها تمام النسيان ، فقدمته إلى المعرفة ، التى قادتة إلى الاعتراف ، الذى طهره . ثم هبطت المآثر معه إلى قبره ، ورحبت أناشيد ملائكية بدخول الآثم المطهر إلى الجنة .

ولقد انتصر المؤلف فى معظم الأحيان — ولا تقول انتصر تماماً — على قالب درامى عصى . فإن تشخيص صفة من الصفات ، لا يمكن أن يكون لها من الوصف ما للشخص ، ذلك لأن كل إنسان عبارة عن تناقض مركب متفاعل ، وهو فريد إلا إذا كان واحداً من جماعته ، والفن العظيم يجب أن

يصور العام عن طريق الخاص كما في هاملت أو كيوته ، أو أديب أو بانبرج واحتاجت التجربة والعبقرية قرناً آخر ، لكي تحول المسرحية الأخلاقية الفاترة ، إلى المسرحية الإليزابيثية ، التي تصور ، الإنسان المتغير إلى ما لا نهاية .

والحدث الأدبي العظيم في إنجلترا إبان القرن الخامس عشر ، إنما هو إنشاء أول مطبعة انجليزية . ولقد هاجر وليم كاكستون ، المولود في كنت إلى بروجس للتجارة . وترجم في أوقات فراغه عن الفرنسية ، مجموعة من القصص الخيالي الفرنسية . وطلب أصدقائه نسخاً من هذه المجموعة ، فكان ينسخها لهم بنفسه ، ولكنه يخبرنا بأن يده « كلت ولم تعد تستطيع الكتابة الكثيرة بسرعة » . وعشيت عيناه من النظر الطويل على الورق الأبيض . ولعله رأى في زيارته إلى كلونيا ، إنشاء المطبعة هناك (١٤٦٦) على يد أولرتش زل ، الذي تعلم هذا الفن الجديد في ميونخ . وأسس في عام ١٤٧١ كولاردمانسيون ، مطبعة في بروج ولجأ كاكستون إليها ، باعتبارها وسيلة لإخراج نسخ كثيرة من ترجمته . وفي عام ١٤٧٦ عاد إلى إنجلترا وأنشأ بعد ذلك بسنة في وستمنستر الحروف - ولعاه المطابع - التي أحضرها معه من بروج . وكان قد بلغ إذ ذاك الخامسة والخمسين من عمره ، ولم يبق له من حياته سوى خمس عشرة سنة ، بيد أنه طبع في هذه الفترة ثمانية وتسعين كتاباً ، ترجم أكثرها بنفسه عن اللاتينية أو الفرنسية . وكان لاختياره عنوان كتبه ، ولأسلوب مقدماته الطريف الخلاب ، طابع لا يمحى على الأدب الإنجليزي . ولما توفي (١٤٩١) تابع زميله الإلزابيثي وينكين دى ورد هذه الثورة .

ولقد حقق كاكستون ونشر عام ١٤٨٥ نصاً من أروع نصوص النثر الإنجليزي وهو - التاريخ الشريف للملك ارثر وعدد معين من فرسانه . وكان مؤلفها العجيب قد مات وربما كان ذلك في السجن - قبل ذلك بحوالى ست عشرة سنة . فلقد خدم السير توماس مالورى ، في حرب المائة سنة ،

كواحد من حاشية ريشارد دى بوشان أمير وروك ، ومثل وروك فى برلمان عام ١٤٤٥ ، ولما شعر بالوحدة فى أجازة الحرب ، اقتحم دار هيوسمث ، واغتصب زوجة الرجل ، وسلب بالإكراه مائة شلن من مارجريت كنج ووليم هيلز ، ثم اقتحم دار هيوسمث مرة أخرى واغتصب زوجته ثانية ، وسرق سبع بقرات وعجلين وخمساً وثلاثين وثلاثمائة من الغنم ، وانتهب كنيسة الرهبان البندكتيين فى كومب مرتين ، ووضع فى غياهب السجن مرتين . ويبدو من غير المعقول أن يؤلف مثل هذا الرجل ، تلك الأغنية الرقيقة التى تترنم بالفروسية الإنجليزية وهى التى نسميها الآن « موت الملك آرثر » ، وبعد أن اشتد الخلاف ، حول مؤلفها قرناً من الزمان ، أصبح من المجمع عليه أنها من تأليف السير توماس مالورى إبان سجنه .

وأخذ معظم القصص من الروايات الفرنسية عن الأساطير المتعلقة بالملك آرثر ، فرتبها فى سياق مقبول ، وضاعها بأسلوب محب خلاب . وأصدرها لطبقة أرستقراطية تفقد ماضى فروسيتها من فظائع الحرب وأهوالها ، ودعا من أجل ذلك إلى العودة إلى القيم العليا التى اتسم بها فرسان الملك آرثر متناسياً مظالمهم ومظالم نفسه . ومل آرثر الفسق والفجور فاستقر مع صاحبه الحميلة الجريئة جينفير ، وحكم إنجلترا - بل كل أوروبا فى الحقيقة - من عاصمته فى كاميلون (ونشستر) وطالب إلى فرسان مائدته المستديرة المائة والخمسين أن يقطعوا على أنفسهم عهداً : « ألا ينتهكوا حرمة أو يقتلوا نفساً . . . وألا يكونوا غلاظاً بأى حال من الأحوال ، وأن يرحموا من يطالب الرحمة . . . وأن يغثوا النساء الضعيفات ، ولو واجهوا الموت دون ذلك .

والحب والحرب هما الموضوعان الممتزجان فى كتاب يردد وقائع فرسان لا ضريب لهم ، من أجل سيدات وفتيات يفقن الوصف جمالا وفتنة وكان تريسترام ولانسيلون يجعلان من كل من ملوكهما ديوثاً ، ولكنهما يمثلان رغم ذلك الشرف والشجاعة . ولما التقيا وقد تحصن كل منهما

بالدرع والجوذة واللامة ، تبارزا ، وقد اختفت شخصية كل منهما أربع ساعات حتى كل سيفاهما وثلما .

ثم انبرى لانسيلو آخر الأمر قائلا : أيها الفارم ، إنك تبلى في الزال ، بليلاء الحسن كأعظم ما رأيت من الفرسان ، لذلك أطلب إليك أن تتفضل فتخبرني باسمك . فأجاب تريسترام : سيدى لقد أقسمت ألا أبوح باسمي لأحد . فقال سير لانسيلو ، الحق أنتى إذا طلبت فلا يحول قسم بينى وبين البوح باسمي . فقال سير تريسترام ، أحسنت ، ولذلك فأنا أطلب إليك أن تبوح باسمك . فقال : أيها الفارس الوسيم ، إن اسمي سير لانسيلو دى ليك . فقال : سير تريسترام : يا عجبا ، ما الذى فعلت ؟ فأنت أحب رجال العالم إلى ، فقال السير لانسيلو أيها الفارس الوسيم ، أخبرنى باسمك . فأجاب حقاً ، إن اسمي سير تريسترام دى ليون . فقال سير لانسيلو ، يا للمسيح ، أى مغامرة مرت بي . . وهنا ركع سير لانسيلو وسلمه سيفه . وهنا ركع سير تريسترام بدوره وسلمه سيفه واصطحبا إلى الصخرة ، وجلسا عليها وخلعا خوذتهما وقبل كل منهما الآخر مائة مرة .

وأى قفزة هذه ، من تلك المملكة الخيالية ، التى لا يعمل فيها أحد من أجل العيش . . كل النساء فيها « منعمات » إلى مادة الواقع الحقيقى إلى رسائل باستون وهى تلك الرسائل الحية التى جمعت أسرة مفرقة على الحب والمال فى إنجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ! ونحن نجد هنا جون باستون ، الذى مارس القانون فى لندن أو ضواحيها ، فى حين أخذت مارجريت تربي أطفالها وتدير أملاكه فى نوروتش ، إن نفسه كلها للعمل وهو جاد ، لاذع نزاع إلى المنافسة ، أما هى فكلها استسلام ، زوجة متواضعة ، قادرة ، شديدة الحياء ، ترتعد لمجرد التفكير فى أنها أساءت إليه . وهكذا كان آل جنيفر فى صميم العالم الواقعى . ومع ذلك فنحن نجد هنا أيضاً العواطف الرقيقة ، والهموم المشتركة بل الخيال ، وتعرف مارجريت

بروز لسير جون باستون الثانى انها تحبه ، وانها تأسف ، لأن الصداق ، الذى تستطيع أن تقدمه له ، أقل بكثير من مكانته ، « ولكن إن كنت تحبني ، كما أثق أنك حقاً كذلك ، فإنك لن تتركني لهذا السبب » وهو الذى آلت إليه ثروة آل باستون ، فيتزوجها على الرغم من اعتراض أهله ، ويموت فى غضون سنتين . وهكذا نجد قابلاً رقيقة ، تحت السطح الجاف لهذا العصر المضطرب .

٧ - الإنسانيون الإنجليز

يجدر بنا ألا ندهش من أن وفرة الدراسة للكلاسيات فى إيطاليا لعهد كوزيمو ولورنزو دى مدتشى ، لم تثر إلا صدى ضئيلاً فى إنجلترا ، التى كان تجارها لا يعبأون بالأدب إلا قليلاً ، والتى كان نبلاؤها لا ينجلون من أميتهم على الرغم من ثرائهم . ورأى السير توماس مور : فى مطلع القرن السادس عشر أن أربعين فى المائة من الشعب الإنجليزى فقط يستطيعون القراءة . وكانت الكنيسة ، والجامعات التى تسيطر عليها ، هى التى ترعى الدارسين وحدها . وإلى إنجلترا يرجع الفضل فى أن رجالاً أمثال جروسيني وليناكر ولانيمير وكوليت : استطاعوا ، فى هذه الظروف ، وتحت وطأة الحرب المدمرة الضارية ، أن يقبسوا من الشعلة الإيطالية : وأن يحماوا قدرأ كافياً من ضوئها وحرارتها إلى إنجلترا ، فيجعل ذلك رجالاً مثل أرازمس الحكم الفيصل فى الأدب يشعر بأنه فى وطنه عندما هبط الجزيرة عام ١٤٩٩ . ووقف الإنسانيون أنفسهم ، على دراسة الثقافتين الوثنية والمسيحية على السواء ، فأنكروهم قلة غير ناضجة من « الطرواديين » الذين خافوا أن يأتى هؤلاء اليونان « بالنفائس من إيطاليا ، ولكنهم وجدوا من يدافع عنهم بشجاعة ومن يصادقهم بين أكابر رجال الكنيسة ، أمثال وليم الوينفليتي ، أسقف ونشستر ووليم ورهام رئيس أساقفة كانتربرى وجون فيشر ، أسقف

روشستر ، وفيما بعد توماس كاردينال ولُسي ، رئيس قضاة إنجلترا .
واستشعر بعض الدارسين من الإنجليز ، منذ زيارة مانويل شريسو
لوراس ، (١٤٠٨) لإنجلترا بحمى لا يطفئها في نظرهم غير الرحلة إلى إيطاليا
للدراة أو المحجون ، ولقد عاد همفري ، دوق جلاوسستر ، من إيطاليا ، مغرمًا
بالمخطوطات ، وجمع مكتبة ، أثرت فيما بعد ، مكتبة بودليان . ودرس جون
تيتوفت ، إيرل ورسستر ، على جوارينو الفيروني في فيرارا وجون أرجيرو
بولوس في فلورنسه . ثم عاد إلى إنجلترا وبين يديه من الكتب أكثر مما
في نفسه من الفضائل . ودرس الراهب وليم تيلي من عام ١٤٦٤ - ١٤٦٧
في بادوا وبولونيا وروما ، وأحضر معه كثيراً من الآثار الكلاسية ، ثم أخذ
يدرس اللغة اليونانية في كانتربري .

وكان توماس ليناكرا أحد تلاميذه المتحمسين هناك . ولما عاد تيلي ،
(١٤٨٧) إلى إيطاليا ، اصططحبه ليناكرا معه ، وظل اثنتي عشرة سنة .
ودرس في فلورنسه على بوليتيان وشالكوند يلز ، وحقق كتباً يونانية لالدس
مانوتيوس ، وعاد إلى إنجلترا متبحراً في فروع مختلفة من المعرفة ، حتى
استدعاه الملك هنري السابع ، ليؤدب آرثر ، أمير ويلز . وأوجد مع
جروسين ولايمر في اكسفورد « حركة اكسفورد » لإحياء اللغات والآداب
القديمة ، فألهمت محاضراتهم جون كولت وتوماس مور ، واجتذبت أرازمس
نفسه . وكان ليناكرا أشهر الإنسانيين الإنجليز ، يجيد اللغتين اليونانية واللاتينية ،
وترجم جالينوس ، وارتقى بالطب العلمي ، وأسس الكلية الملكية للأطباء
وأوقف ثروته على تمويل كراسي أستاذية الطب في اكسفورد وكمبردج . وقال
أرازموس ، إن الفضل يرجع إليه ، في أن الدراسة الجديدة ، بلغت من
الاستقرار في بريطانيا ، حظاً لا يحتاج معه أي إنجليزي إلى أن يرحل إلى إيطاليا
في سبيل العلم .

وكان وليم جروسين قد بلغ الأربعين عندما انضم إلى ليناكر في فلورنسه .
فلما عاد إلى إنجلترا عام ١٤٩٢ ، استأجر غراً في كلية أكستر وفي
أكستر-نمورد وكان يحاضر عن اللغة اليونانية ، على الرغم من احتجاج
المحافظين الذين كانوا يرتعدون خشية ، أن تقضى النسخة اليونانية الأصلية
للعهد الجديد على ترجمة جيروم اللاتينية الشائعة وهي التي ظلت الحجة ألف
سنة . ولكن جروسين أكد من جديد ، أنه صحيح المعتقد ، مستقيم إلى
حد التزمت . ولم ينشأ في نفس الإنسانيين الإنجليز أى عداة للمسيحيين حتى
العداء المضممر الخفي ، كما حدث لبعض الدارسين في عصر النهضة الإيطالية ،
ولقد حرص هؤلاء الإيطاليون على التراث المسيحي ، وجعلوه مقدماً على
جميع عناصر التربية العقلية ، ولم يجد أشهر هؤلاء ، حرجاً من تولى منصب
نائب مطران كنيسة سانت بول .

ولقد كان جون كولت أكبر أبناء سير هنرى كولت ، وهو تاجر غنى
أنجب اثنين وعشرين طفلاً وتولى منصب عمدة لندن مرتين . وفي أكسفورد
مست الشباب ، جدوة الإنسانيين من ليناكر وجروسين « فالتهم بشغف »
كتب أفلاطون وأفلوطين وشيشيرون ورحل عام ١٤٩٣ إلى فرنسا وإيطاليا ،
وقابل ارازمس وبوديه في باريس ، وتأثر بسافونارولا تأثراً عميقاً في
فلورنس ، وهاله نزق الكرادلة والبابا اسكندر السادس وتحررهم في روما .
ولما عاد إلى إنجلترا ، ورث ثروة أبيه ، وأصبح من اليسير عليه أن يحرز
مكانة مرموقة في السياسة ، ولكنه آثر حياة الدرس في أكسفورد وتجاهل
التقليد القديم الذي يجعل تدريس علوم الدين وقفاً على القساوسة وأخذ يحاضر
أهل روما عن إنجيل القديس بولس ، فأحل النقد والشرح للنص الشائع ،

محل الخذلقة والجلد ، وانتعشت جماهيره الغفيرة بطرافة منهجه ، وبتركيزه على الحياة الفاضلة باعتبارها أسمى علوم الدين ، ولقد وصفه أرازموس الذى رآه فى أكسفورد عام ١٤٩٩ ، بأنه قديس تغرية الشهوة والترف دائماً ، ولكنه « احتفظ بزهرة عذرتة إلى وفاته » واحتقر الحياة اليسيرة التى يعيشها الرهبان فى زمانه ، وأوصى بثروته للأعمال الدينية والخيرية .

وكان يمثل معارضة الكنيسة مع ولائه لها ، فقد أحبها على الرغم من أخطائها . وتساءل عن الصدق الحرفى لسفر التكوين ، ولكنه قبل القول بأن الكتاب المقدس منزل بالوحى . وسبق المصلحين الدينيين بتأكيد صحة الكتب المقدسة على روايات الكهنوت وأشكاله ، ورفضه أن تكون الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى ، المزيج العقلى المخفف للمسيحية البسيطة ، وشكه فى قدرة القسس على التطهير بالاعتراف ، ووجود المسيح بالفعل فى القربان ، وفى استنكار الحياة الدنيوية التى يعيشها رجال الدين :

« لو أن الأسقف الأكبر ، الذى نسميه البابا . . . كان أسقفاً بحق ، لما فعل شيئاً بنفسه ، ولكن الله فيه هو الذى يفعل . فإن حاول شيئاً بنفسه ، فإنه يكون نافث سم لقد حدث هذا كثيراً . بالفعل منذ سنوات طوال ، وازداد فى هذه الأيام زيادة كبيرة ، حتى سيطر على جميع أعضاء الكنيسة المسيحية ، وإذا لم يقبض المسيح بيده على كنيستنا الممعة فى الاضطراب فإنها تشرف على الموت إن أولئك القساوسة اليائسين ، الذين يوجد منهم فى هذا العصر كثرة هائلة ليترددون فى الفجور الشنيع ، فهم لا يخشون الخروج من بطن بغى حقيرة إلى هيكل الكنيسة وإلى مذبح المسيح وإلى الأسرار الإلهية وسوف تحل عليهم نقمة الله فى يوم من الأيام .

وفي عام ١٥٠٤ نصب كولت نائباً لمطران كنيسة سانت بول ، ومن هذا المنبر الرفيع عارض بيع مناصب الأسقفية ، والفساد الناجم عن قوامة رجل واحد على موارد كنائس متعددة . وأثار بآرائه هذه معارضة عنيفة ، ولكن ورهام كبير الأساقفة ، عمل على حمايته . وكان ليناكر وجروسين ومور ، قد استقروا وقتذاك في لندن وقد برئوا من جمود أكسفورد وتعصبها للقديم ؛ وشحذت عقولهم زيارات أرازموس وسرعان ما حظوا بتأييد الملك هنري الثامن . وبدأ أن كل شيء ممدد لنهضة إنجليزية ، ستتحرك مصطحبة ، إصلاحاً دينياً سلمياً .

الفصل السادس

حادثة في برجنديا

١٣٦٣ - ١٥١٥

١ - الدوقية الملكية

استطاعت برجنديا ، بفضل موقعها على الجناح الشرقى لفرنسا حول ديجون ، وبفضل السياسة الرشيدة لدوقاتها ، أن تخرج من حرب المائة عام دون أن تصاب إلا قليلاً ، حتى أصبحت أكثر البقاع ازدهاراً ، في العالم المسيحي وراء الألب. ولما انقرضت الأسرة الدوقية البرجندية من آل كابيتان ، وعادت الإمارة إلى التاج الفرنسي ، منحها جون الثانى إلى رابع أبنائه فيليب (١٣٦٣) مكافأة له على شجاعته في مقاطعة بواتيه . ولقد أحسن ، فيليب الجسور ، تدبير الأمور في برجنديا ، إبان الإحدى والأربعين سنة التى لبثها دوق لبرجنديا ، وكان زواجه سياسياً إلى حد كبير ، حتى دخلت في حكمه هانو وفلاندرز وأرتوا وفرنش - كهنه وأصبحت دوقية برجنديا التى كانت من الناحية الاصطلاحية ، ولاية فرنسية ، دولة مستقلة ، غنيت بالتجارة والصناعة الفلمنكيتين ، ونعمت برعاية الآداب .

ومد جون الذى لا يخاف ، سلطانه بوساطة شبكة دقيقة من المحالفات والدسائس ، إلى نقطة الانفجار ، وأحست فرنسا أنها لا بد أن تقاوم التحدى . وكان لويس ، دوق أورليان ، يحكم فرنسا نيابة عن أخيه المجنون شارل السادس ، فعقد محالفة بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، في خطة تقضى بالوقوف فى وجه الدوق الذى لا يخاف إلى حد التهور . استأجر لويس جماعة من المقاتلين قتلوا جون ، فأعقب ذلك صراع عنيف

بين الحزب البرجندي والحزب الأرمنياكي — وهم أنصار حمى لويس كوث
أرمنياك — من أجل السيطرة على السياسة الفرنسية ، ومات جون بدوره
مقتولا بطعنة خنجر من يد مغتال (١٤١٩) . وأنكر ابنه فيليب الطيب
كل سبب من أسباب الولاء لفرنسا ، وعقد محالفة بين برجنديا وإنجلترا ،
وضم تورناي ونامور وبرابانت وهولنده وزيلند ، ولمبرج واوفان : ولما
عقد الصلح مع فرنسا (١٤٣٥) فرض الاعتراف بالسيادة العملية لدوقيته ،
والتنازل عن لكسمبرج ، وليج وكامبراي واترخت . وبلغت برجنديا إذ ذاك
أوجها ، منافسة في الثروة والسلطان أية مملكة من ممالك الغرب .

وأغلب الظن أن فيليب لم يكتسب لقب « الطيب » من القلوب الطيبة .
ذلك لأنه لم يكن يترفع عن الغدر والقسوة وسورة الغضب الأهوج . بيد أنه
كان ابناً وfiaً ، وإدارياً بارعاً وأباً محباً حتى لأبنائه الستة عشر غير الشرعيين .
وكان كغيره من الملوك شغوفاً بالنساء له أربع وعشرون خلية ، ويصلي
ويصوم ويتصدق ، وجعل عواصمه — ديجون وبروجس وجنت — مراكز
الإشعاع الفني للعالم الغربي خارج إيطاليا . وأتاح حكمه الطويل لبرجنديا
وولاياتها ، من أسباب الترف ، ما جعل رعاياه يتسامحون معه ولا يذكر
أخطاءه إلا القليل منهم وتمردت المدن الفلمنكية على حكمه ، وتحرقوا شوقاً
لروية تحول ، منظماتهم النقابية القديمة وحریاتهم الإقليمية ، إلى اقتصاد
قومي ، في ظل حكومة مركزية . وسحق فيليب وابنه شارل ثوراتهم ،
ولكنهما سمحا لهم بترضية سلمية ، لأنهما أدركا أن أعظم موارد الأمانة
إنما تستمد من صناعة هذه المدن وتجارتها وليس من شك أن مناطق الرين
السفلى ، قبل فيليب كانت تختلف في النظم الاجتماعية وشئون السياسة ،
باختلافها في العنصر ولغة الحديث ، فضمها في دولة موحدة ، وأقر فيها
النظام ، وأعان على ازدهارها .

وأصبح المجتمع البرجندى فى بروجس وجنت وليج ولوفان وبروكسل وديجون (١٤٢٠ - ١٤٦٠) إذ ذاك أكثر المجتمعات فى أوربا صقلا واجتذاباً للقلوب ، لانستثنى من ذلك فلورنسا المعاصرة التى كان يحكمها كوزيمو دى مدتشى . فقد احتفظ أمراء الدوقيات بجميع مظاهر الفروسية ، وفيليب الطيب هو الذى أنشأ نظام خبرة الصوف الذهبية (١٤٢٩) ، ويعود بعض الفضل إلى البرجنديين أحلاف إنجلترا ، فى اتخاذها أهبة الفروسية وبريقها وهذه الفروسية هى التى صقلت السطح الحشن للطباع الإنجليزية ، وأسبغت المجد على وقائع هنرى الخامس ، وبرزت فى صفحات فرواسارت وماورى . ولما تجرد النبلاء البرجنديون من السلطان المستقل ، عاشوا فى الحاشية أفراداً وأظهروا جميع أمارات الشرف وأبرزوا فى الرداء والحلى كل ما يزين التطفل والفجور . وأخذ التجار والصناع يحاكون حاشية الملك فى الزى وكانوا يطعمون ويلبسون زوجاتهم كأنما يهيئون المشهد لـ لوينز . وغداً الاكتفاء بالزوجة الواحدة فى ظل دوق محب مثله خيانة كبرى للملك أو الحكومة . ولقد أنجب جون الهينزبرجى المرح أسقف لياج ، اثني عشر ابن سفايح . . وكان بلجون البرجندى أسقف كامبراى ، ستة وثلاثون ابناً وحفيداً خارج نطاق الزواج ، وهكذا ولد كثير من علية القوم فى ذلك العصر ، الشيء الذى كان يعمل على تحسين النسل . . وكان من اليسير أن توجد البغايا فى كل وقت وبأى ثمن فى الحمامات العامة . وزعم فى لوفان أنهم صاحبات مساكن ، يؤجرنها للطلبة ، وكانت الحفلات كثيراً ما تنظم بالبذخ ، واستخدم فنانون مشهورون فى تصميم المناظر وإعداد الأنوار ، وكان الناس يعبرون الحدود والبحار ليشاهدوا المناظر الفخمة تملأ فيها النساء الغاريات أدوار الرباط والجنيات القديمات .

٢ - الروح الدينى

ونجد مقابل هذا المجتمع النائر القديسين والمتصوفة ، الذين أعطوا هولندا ، فى كنف أولئك الدوقات مكانة رفيعة فى التاريخ الدينى . فقد اعتزل القسيس جان فان ريسبرويك منصبه فى بروكسل وهو فى الخمسين من عمره (١٣٤٣) وأوى إلى دير أوغسطينى فى جرويننداييل ، بالقرب من واترلو ، حيث وقف نفسه على التأملات والتأليف الصوفية . وصرح بأن « روح القدس » هى التى كانت تهدى قلمه ، ومع ذلك فإن مذهبه فى الحلول كاد ينكر خلود الفرد .

« فإن الله ذاته ، يحل مع الأبرار ، فى غيبوبة الكيفيات . . . وهو فناء أبدى للنفس . . . وتحصل الدرجة السابعة ، عندما تكشف وراء كل المعرفة أو وراء المعارف بكل شىء ، فى أنفسنا لا عارف ليس له قرار . وعندما نتجاوز جميع الأسماء التى لله أو الكائنات ، فإننا نختصر ، ونتحول إلى لا إسمية أبدية ، حيث نفقد أنفسنا »

ونتأمل جميع هذه الأرواح المبرورة ، التى فنيت ودخلت وغابت فى جوهرها الإسمى ، فى ظلام غير معروف بلا كيفية .

ولقد شهدت الأرض الواطئة^(١) وولاية الراين الألمانية ، وفرة من جماعات غير دينية - البيجاردين والبيجوبنيين وإخوان الروح الحر - أثمرت أحوالها الصوفية غالباً التقوى والخدمة الاجتماعية والسكينة والسلم وأدت أحياناً إلى إنكار الأسرار المقدسة على أساس أنها غير ضرورية ، وإلى الرضى عن الخطيئة أحياناً لأنها ستفنى بالاتحاد فى الله . وتلقى جبريت (أو

(١) تستعمل الأرض الواطئة أو المنخفضة فى هذا الكتاب بمولها الأصلى لتدل بالتقريب على ما يشمل بلجيكا وهولندا الحديثتين .

جريت أو جيرار) جروت الدفترى ، قدراً صالحاً من العلم فى كولونى
وباريس وبراغ ، ثم امضى فترة طويلة فى صحبة « ديزبرويك » فى
جروبندايل ، وكان أثره فيه عظيماً جعله يرى أن حب الله هو الغاية فى
حياته . وبعد أن رسم شماساً (١٣٧٩) بدأ يأتى عظامه فى مدن دولنده ،
باللهجة العامية ، إلى جمادير ضاقت بهم الكنائس المحمية وكان الناس يتركون
أعمالهم وطعامهم ليستمعوا إليه . وكان أرثوذكسى المذهب فى تزمته ،
ويعده نفسه « مطرقة على رؤوس الهرطقة » فهاجم على الرغم من ذلك التحال
الأخلاقى الذى غلب على رجال الدين والمدنيين على السواء وطالب بأن ياتزم
المسيحيون بدقة أخلاقيات المسيح . . فاتهم بالهرطقة ، وسحب أسقف
أترخت ، حق جميع الشمامسة فى الوعظ ، وأصدر أحد أنصار حروت
وهو فلورس رد يوجمنزون Radewijnszoon ، قاعدة شبه رهبانية — شبه
شيوعية « لإخوان الحياة العامة » الذين عاشوا فى أخوة مدينة ديفنتر وعلى
رأسهم جروت ، وهم الذين شغلوا أنفسهم بالوعظ — دون أن يحصلوا على
مراسيم الرهبانية — وتقضى هذه القاعدة بأن يقوموا بالعمل اليدوى والتعليم
والعبادات ونسخ المخطوطات . . . ومات جروت فى الرابعة والأربعين من
عمره (١٣٨٤) بالجدري ، أصابته عدواه وهو يمرض صديقاً له ، ولكن
أنصاره مدوا سلطانهم عن طريق مائتى شعبة لإخوان فى هولنده وألمانيا .
وجعلت مدارس هؤلاء الإخوان للآثار الكلاسيكية الوثنية ، مكاناً بارزاً فى
مقدراتها ، فهدت بذلك السبيل لمدارس اليسوعيين الذين واصلوا عمل
مدارس الإخوان فى الإصلاح الدينى المعارض . ولقد رحب هؤلاء الإخوان
بالطباعة بعد ظهورها مباشرة ، واستعملوها فى نشر « عبادتهم الحديثة »
وكان اسكندر هيجوينز فى ديفنتر (١٤٧٥ — ١٤٩٨) مثلاً لا ينسى
للطلاب المجددين فى ذلك العصر فهو « المعلم القديس الذى يقف حياته على
إرشاد تلاميذه وهدايتهم أخلاقياً فأصلح المقرر الدراسى ، وركزه حول

الآثار الكلاسيكية ، واكتسب ثناء إيرازمس على صفاء أسلوبه اللاتيني ولما توفي لم يترك شيئاً غير ملابسه وكتبه ، ذلك أنه وهب كل شيء سواها للفقراء سرّاً . ونجد بين طلاب العلم الذين نبغوا في ديفنترنيقولاكس أكويساوى ، أرازموس ورودلف أجريكولا وجان دى جرسون ومؤلف كتاب « محاكاة المسيح » .

ولسنا نعرف على التحقيق من الذى ألف هذا الكتيب الشائق عن التواضع . ولعله توماس هموكن من مدينة كمبين Kampen من أعمال بروسيا . ولقد جمع فى سكينته خلوته بدير سانت اجنس بالقرب من زول ، (١٣٨٠ - ١٤٧١) من الكتاب المقدس ومن أقوال آباء الكنيسة ، ومن عبارات القديس برنارد شارحاً التجرد من الدنيا بالتقوى ، كما تصوره ويسبرويك روجروت وأعاد صياغة هذا كله فى لغة لاتينية وشيقة سهلة .

« ما الذى يجديك فى أن تشغل نفسك بجدل عميق فى الثالث ؛ إن كنت مجرداً من التواضع ، ومكروها من الثالث ؟ والحق ، أن الكلمات السامية لا تجعل الإنسان مقدماً عادلاً ، بيد أن الحياة الفاضلة هى تجعله أثيراً عند الله . وإنه لخير لى أن أحس ونخر الضمير من أن أحفظ الكتاب المقدس وأقوال الفلاسفة جميعهم فما الذى يفيدك ، إن افتقرت إلى حب الله وإلى فضله ؟ باطل الأباطيل والكل باطل ، سوى أن تحب الله ، وألا تخدم إلا إياه . وأسمى مراتب الحكمة ، أن تحتقر الدنيا وتتجه إلى مملكة السماء - ومع ذلك فلا تثريب على التعلم لأنه حسن فى ذاته كما أن الله قد أمر به ، ولكن الضمير الصالح والحياة الفاضلة مفضلان على الدوام .

العظيم بحق هو من يحمل فى قلبه حبا عظيماً . والعظيم بحق هو الصغير فى نظر نفسه ، الذى لا يأبه برفعة الشرف . والحكيم بحق هو الذى يطرح جانبا جميع الأشياء الأرضية باعتبارها روثاً ، حتى يغتم صحبة المسيح .

اهرب عن صحب الناس بأسرع ما تستطيع ، لأن معالجة الأمور

الديوية عائق عظيم . والواقع أن من التعاسة أن نعيش على هذه الأرض ...
وأنه لأمر عظيم أن نلتزم الطاعة في الحياة ، وأن يكون فوقنا رئيس ،
والأنا نكون مخيرين بمشيتنا . وأمن لنا أن نطيع من أن نحكم ... وبذلك
تبدو الصومعة التي نسكنها جميلة .

وفي « محاكاة المسيح » بلاغة رقيقة ، تعكس البساطة العميقة لعظات
المسيح وأمثاله . وهو رادع ضروري دائم لما في العقل الرخو والسفسطة
الجوفاء من غرور ذهني . فنحن عندما نكل من مواجهة أعباء حياتنا
فإننا نعتصم بالإنجيل الخامس لتوماس اكبيس . ولكن من ذا يعلمنا ونحن
في خضم العالم وأعاصيره كيف نكون مسيحيين ؟

٣ - برجنديا المشرقة ١٣٦٣ - ١٤٦٥

أخذت الولايات الخاضعة للحكم البرغندي على الرغم من أمثال هذه
الاستغفارات التوماسية ، تنغمس في نشاط عقلي ملحوظ . فلقد جمع الدوقات
أنفسهم - وفيليب الطيب أكثرهم في ذلك - المكتبات وشجعوا الأدب
والفن . وكثرت المدارس ، وسرعان ما أصبحت جامعة لوفان التي أسست
عام ١٤٢٦ ، مركزا من مراكز التعليم في أوروبا . ولقد سرد جورج
كاستيلان في « تاريخ دوقات برجنديا » تاريخ الدوقية في كثير من البلاغة
الناصعة وقليل من الفلسفة ، وإن كان قد عرضه بلغة فرنسية قوية ،
فأسهم به مع فرواسار وكومين في إيجاد تلك الوسيلة المحببة من النثر الواضح
الرشيق . وأقامت جماعات خاصة ، قاعات للخطابة للتدرب على الخطابة
والشعر وتمثيل المسرحيات . وتنافست لغتا المملكة - الفرنسية أورو مانسية
والوالون في الجنوب واللهجات الألمانية التي كان نتكلم بها الفلمنكيون
والألمان في الشمال - في إظهار الشعراء ، الذين أسدل النسيان عليهم ستاره .
وكان التعبير الأرفع للدوقية يتجسم في الفن . وبدأت أنتورب عام

١٣٥٣ كاتدرائيتها الكبيرة ذات الممرات الكثيرة وأتمتها عام ١٥١٨ ،
«وشيدت لوفان كنيسة سانت بيير الجميلة في تناسبها - وهي ضحية أخرى.
للحرب العالمية الثانية . وكان الناس والمدن من الغنى بحيث أصبح من
المستطاع أن يقدموا القصور ومباني البلديات ، في البهاء نفسه الذي كان
يشيد به الكنائس لله . واتخذ الأساقفة الذين حكموا لياج ، لأنفسهم ورجال
إدارتهم ، سكنا في أعظم قصر وأجمله في الأرض المنخفضة . وأنشأت جنت
دارها النقابية عام ١٣٢٥ . وبروكسل قاعة بلديتها في عام ١٤١٠ - ١٤٥٥
«ولوفان من عام ١٤٤٨ - ١٤٦٣ ، وأضافت بروجي دار بلديتها بين عامي
١٣٧٧ ، ١٤٢١ ، وتوجتها ببرج ناقوس عالمي الشهرة (١٣٩٣ - ١٣٩٦)
الذي استخدم كمعلم من المعالم للملاحين الضاربين بعيداً في البحر . وبينما
عبرت هذه المباني القوطية النيلة عن كبرياء المدن والتجار ، فقد أنفق
الدوقات وأفراد الطبقة الأرستقراطية الأموال على تزويد قصورهم وقبورهم
بضروب كثيرة ناصعة من النحت والتصوير والزخرفة الخطبة . ولما كان
الفنانون الفلمنكيون ، قد أخافتهم الحرب من فرنسا ، فقد تراحوا عائدين
إلى مدنهم . وحشد فيليب الجسور نجوما ساطعة من العبقريات ، ليزين
مقره الصيني في شارتريز دي شامبمول - وهو دير أرتوزي في الحقل
الهادي المجاور لريجون .

وأوفد فيليب عام ١٣٨٦ جان دي مارفي ، لكي يصمم له ضريحاً في
شارتريز . ولما توفي مارفي (١٣٨٩) أتم عمله كلوز ساوتر الهولندي ،
ولما توفي ساوتر بدوره (١٤٠٦) واصل العمل تلميذه كلوز ، وانتهى
الضريح آخر الأمر (١٤١١) فاستقبل رفات الدوق ، الذي كان قد مات ،
قبل ذلك بسبع سنوات . وفي عام ١٧٩٣ أمر مجلس ثوري في ريجون
بهدم الضريح العظيم ، فنثر حطامه أو أتلف . وفي عام ١٨٢٧ ، جمع رجال
الدين في المقاطعة ، بعد أن تنفسوا نسيم الحرية ، القطع الباقية منه

وأودعوها متحف ريجون . ورقد الدوق وزوجته الدوقة مارجريت أميرة فلاندرز في تابوت مرمرى جميل على منصة ضخمة من الرخام ، وتحتهما رسوم أربعين شخصا يكون - وهى اتى بقيت وحدها من النقوش التسعين - موت الدوقين في حزن صامت رائع . أما باب الكنيسة في شارتريز فإن سلوتر وتلاميذه (١٣٩١ - ١٣٩٤) نقروا خمسة رسوم فاخرة . العذراء تتلقى ولاء فيليب ومارجريت ، يقدمها إليها يوحنا المعمدان وكاترين القديسة الاسكندرية . وأقام سارتر في الصحن أروع أعماله وهو بئر موسى . - وهى قاعدة تحمل تماثيل لموسى وداود وارميا وزكريا واشعيا ودانيال ، وفوقها مشهد الصلب ، ولم يبق منه إلا رأس نبيل مهموم للمسيح تتوجه الأشواك . ولم تشهد أوربا مثل هذا النحت الذى تبدو فيه القوة الفائقة والجرأة الفريدة ، منذ أزهى عصور الفن الرومانى .

وكانت للمصورين دولة عظيمة كالمثابرين . وظل رسامو المنمنمات يحظون برعاية الكبراء . . فلقد دفع كونت وليام أمير هانو ، بسخاء من أجل تزيين « أجمل صلوات العذراء » (حوالى ١٤١٤) (*) . ووضع عبقرى مجهول (لعله هوبير فان ايك) نموذجاً ومستوى لألف رسام من الأرض الواطئة للمناظر الطبيعية وذلك بالتقاطه بدقة مجهرية ، ثغرا فيه سفن تاقى مراسيها أو تحجز عباب البحر ، والركاب يصعدون والملاحون ورجال الشاطئ يقومون بأعمالهم المختلفة ، والأمواج تتكسر على شاطئ هلالى ، والسحب البيضاء تسير خفية عبر السماء - كل هذا في حجم بطاقة الصورة الشمسية . وفي ١٣٩٢ زين ملكيور برويد رلام اليرسى دير شارتريز دى شامبمول بأقدم لوحة حائطية باقية معبرة خارج إيطاليا . ولكن برويد رلام

(*) وتعرف كذلك باسم صلوات تورين . وذاعت بعض هذه المنمنمات في حريق المكتبة الأهلية بتورين عام ١٩٠٤ ، ولكن صوراً فوتوغرافية منها قد بقيت ، وبقت أصول متعددة في متحف مدينة تورين .

والفنانين الذين نقشوا الحوائط وتماثيل الدير ، قد استعملوا أمزجة ألوان تقليدية — خلطوا ألوانهم ببعض المواد الغروية ، وقلما يتحقق بهذه الوسائل التدرج في الظلال والصفاء في الألوان الخفيفة ، وقد تقضى الرطوبة على العمل بعد تمامه . وفي فترة مبكرة أى عام ١٣٢٩ قام جاك كومبير من جنت بتجربة خلط الألوان بالزيت . وطور الفلمنكيون بعد قرن من المحاولة والخطأ هذا التطبيق الفنى الجديد ، وأحدث ذلك في الربع الأول من القرن الخامس عشر ، ثورة في فن التصوير . فعندما صور هوبرفان أليك . وأخوه الأصغر جان « تمجيد الحمل » لكاتدرائية سانت بيفن في جنت ، لم يؤكدوا تفوق الزيت كمطية لاون فحسب ، ولكنهما أنشأ ، إحدى روائع الفن في تاريخ التصوير ومن أجلها أصبحت سانت بيفن مقصدا للزائرين منذ ذلك الوقت .

أما من ناحية الشكل فإن هذا الأثر الذى يعد أعظم آثار الفن التصويرى في القرن الخامس عشر ، والذى يصفه جيته بأنه « محور تاريخ الفن » ، عبارة عن طية من ست لوحات جدارية ، مصورة على الخشب ، على كل جانب اثنتا عشرة صورة وعندما تفتح الطية ، يبلغ طولها إحدى عشرة قدما ، وعرضها أربع عشرة قدما ، وفي وسط الصف الأسفل ، منظر خيالى للريف ، مع مدينة ذات أبراج عالية — بيت المقدس — ترتفع في المساحة التى وراء التلال ، وفي الأرض الأمامية عين « ماء الحياة » وأبعد من هذا إلى الخلف مذبح وعنده حمل يرمز إلى المسيح يتدفق منه دمه القربانى ، بينما يتجمع حوله البطارقة والأنبياء والرسل والشهداء والملائكة والقديسون في عبادة خاشعة . وفي الوسط العلوى شخص يجلس على عرش ، يشبه شخصية خيرة لشرلمان له ملامح سامية ، ولقد رسم على أله الإله الأب — وهو تمثيل غير مطابق للربوبية وإن كان تصورا نبيلًا لحاكم رشيد وقاض عادل . ولا يتفوق عليه في هذه الصورة إلا شخصية واحدة — هى شخصية.

العدراء ، لها قسبات لطيفة ، شقراء تيوتونية ، لا تمثل الجمال ، بقدر
ما تمثل الطهارة والوداعة ، وبدت العدراء السستينية أقل نبلا . وعلى يسار
السيدة مريم جمع من الملائكة ، وفي أقصى اليسار آدم عارى الجسد . نحيل
حزين ، يتذكر في بوّس فترة سعيدة من الزمن . « وإلى يمين الإله الأب ،
يوحنا المعمدان ، وهو في زى أكثر ترفا من راع ، يعظ في البرية . وفي
أقصى اليمين تقف حواء عارية ، مكتئبة غير جميلة ، تندب الفردوس
المفقود ، ولقد ظلت صورتها فترة من الزمن ، مثلها في ذلك مثل آدم في
الطرف الآخر ، تصدم الفلندري الذى ترتعد فرائصه من البرد ولم يألف
العرى في الحياة أو الفن . وأعلى صورتها قابيل يقتل أخاه كمدخل رمزى
للتاريخ .

والجانب الخلفى من هذه المجموعة يهبط عن الطراز المتسامى للوحات
الداخلية . فنجد في الصف الأوسط ملاكا إلى اليسار ومريم إلى اليمين ،
تفصلهما مسافة ، يصوران البشارة - الوجهان عاريان ، والأيدى جميلة إلى
حد ظاهر ، والأزياء كأروع ما تكون في التصوير الفلمنكى . وفي الأسفل
مقطوعة شعرية لاتينية من أربعة أبيات ، ذهبت القرون ببعض كلماتها ،
أما الباقي فهي « بدأ هوبرت فان أيلك ، هذه المهمة الصعبة ، وهو العظيم
الذى لا يضارعه في حذقه أحد ، وجوهانس الذى يليه في الفن . . . شجعتهما
وصية » جودوكس فيد . وهذا الشعر في السادس من مايو ، يدعوكم لمشاهدة
العمل وقد تم » ، وفي البيت الأخير حروف معينة ، مجموعها في حساب
الحمل ١٤٣٢ ؛ وهى السنة التى أنجز فيها هذا الأثر الفنى . وكان فيد وزوجته
هما البواهيان . ونحن نتساءل : ما هو المقدار الذى رسمه هربرت ، والذى رسمه
جان ؟ إنها مشكلة تستعصى على الحل لحسن الحظ ، ومن ثم فقد تظل

الدراسات تكتب في الموضوع حتى يختفي (*) أثر للصورة .

وربما كان في هذه الصورة التي تعد بداية مرحلة جديدة في الفن إسرافاً في الأشخاص والمنمنمات : فقد أظهر كل رجل وامرأة وملاك وزهرة وغصن وفرار وحيوان وحجر ودرة بصبر وإخلاص بطولين - وقد أمتعت « ميشيلانجلو » الذي رأى ، في الواقعية الفلمنكية ، تضحية بالتعبير الأساسي ، في سبيل التفاصيل العارضة غير المتصلة بالموضوع . ولكنه لا يوجد شيء في إيطاليا المعاصرة ، يضارع هذه الصورة في المجال بالفكرة والتأثير ، ولم يتفوق عليها في فترة متأخرة من تاريخ التصوير ، إلا سقف الكنيسة السستينية لميشيلانجلو وضوروفائيل الجدارية في الفاتيكان ، وربما صورة « العشاء الأخير » لليوناردو ، قبل أن تدخل في تحللها الطويل . بل أن أوروبا المتعلمة كلها كانت تتحدث عن صورة « تمجيد الحمل » لبان الفراع من إنشائها . ولقد ناشد الفونسو الهام ، الفنان جان فان أليك ، أن يذهب إلى نابلي ، ويصور له ، أمثال أولئك الرجال والنساء ، ذوي الشعر الذهبي الذين كثروا في هذه الصورة وإن قل وجودهم في إيطاليا الجنوبية .

وخرج هيوبرت فان إيك من محيط علمنا بعد عام ١٤٣٢ (***) ، ولكننا

(*) لقد بقيت صورة « عبادة الحمل » برغم كثير من الإصلاحات والأحداث - ودمت في الأعوام ١٥٥٠ ، ١٦٦٣ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٩ ، ١٨٥٩ ، ١٨٣٩ ، ١٩٥١ . ولقد تفككت الأجزاء الرئيسية بواسطة جيش الثورة الفرنسية إلى باريس عام ١٧٩٤ ، ثم أعيدت عام ١٨١٦ . وبيع الجانبان (من غير آدم وحواء) إلى بائع صور فنية (١٨١٦) ، واشترهما متحف برلين (١٨٢١) ، وأعيدا إلى جنيت بمعاملة فرساي (١٩١٩) ، ونقلت المجموعة في الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا حماية لها ، وأخذها الألمان عام ١٩٤٢ ، وأخفيت عام ١٩٤٤ ، في مناجم الملح النمساوية ، وأعيدت إلى كنيسة عام ١٩٤٦ ، بوتباطة جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) وينسب إليه بغير تحقيق خمس صور : (نيويورك) ، ومريمات الثلاثة عند القبر (مجموعة فير هوتين فان بوتنجن) وصورة صغيرة للمفراء في فرنكفورت ، وجانبان للمذبح (نيويورك) تمثل الصلب والمحاكة الأخيرة وفيه بوتشيان ؟ .

نستطيع أن نتبع جان في حياة عاملة مزدهرة . فقد جعله فيليب الطيب حاجباً له (وكان إذ ذاك منصباً له جلاله وسلطانه) وأرسله إلى الخارج في سفارات وكأنه جوهرة من تاج برجنديا . وينسب إليه ما يقرب من أربع وعشرين صورة لا تزال باقية إلى الآن ، وتكاد تكون كل واحدة منها عملاً فنياً كبيراً . وفي درسدن صورة للعدراء وطفلها ، وهي تلى « عبادة الحمل » في إنتاج فان أليك ، وتمتدح بولين « الرجل ذا الزهرة » — وجه دميم غير متناسب إلى حد عجيب مع الزهرة الجميلة ، وفي حيازة مدينة ملبورن صورة للعدراء وطفلها في بلدية لنس « وهي لا تكاد تتجاوز تسع بوصات في ست ، ومع ذلك نقلت قيمتها بخمس وعشرين ألف دولار ، وتكتنز بروجرز صورة للعدراء والكاهن بايل — وفيها اللعدراء رائعة من شعرها المنساب إلى هدبة ودائها المثني في روعة . والكاهن سمين أصلع طيب وهي من أعم صور الأشخاص في القرن الخامس عشر ، وتعرض لندن الزوجين حديثاً ، جيوفاني أوفلفين ومعه عروسه في قاعة داخلية يتألفان بمرآة وشمعدان ، وحصلت مجموعة فريك في نيويورك ، حديثاً بثمن كبير لم يذكر ، على صورة للعدراء وطفلها زاهية الألوان ومعها القديسة بربارا وإليزابث ، وفي واشنطن صورة بشارة تمتاز بخداع يوهنم بعمق الفراغ وفخامة ثياب جبرائيل ، وهما يحولان البصر على مريم ، وفي حوزة اللوفر صورة للعدراء والحاجب رولان . وفيها مشهد أخاذ لنهر تتلوى عليه جسر يزدحم بالناس ومدينة ذات أبراج وحدائق مزدهرة ، وسلسلة تلال ترتفع مريحة بالشمس . ونجد في هذه الصور كلها ، إلى جانب الألوان التي تستوعبها إصرار على تصوير الواهين كما كانوا يبدو للعين ، بحيث يتم الوجه على الحياة التي عاشها صاحبها ، والأفكار والأحاسيس التي صاغت على مر السنين الملامح ، لتجعل منها ، اعترافاً يفصح عن الشخصية ولقد طرحت جانباً في رسوم الأشخاص هذه الروح المثالية التي اتسمت بها

القرون القرون الوسطى ، وبدأت تظهر طبيعة حديثة — لعلها تعكس الاتجاه الدينى للطبقة الوسطى — بكل مقوماتها .

ولقد حصل فنانون كثيرون آخرون على الشهرة فى هذه البيئة وذلك العصر الحصىين أمثال : بروس وكريستوس وباك دات ووبرت كامين (أستاذ فليال) ونحن نحنى رؤوسنا لهم خاشعين ثم فواصل السير إلى تلميذ كامين وهو روجر دى لا باستير . ولما أن بلغ روجر السابعة والعشرين من عمره ، ذاع صيته ، فى مسقط رأسه تورناى ، فأحرز مرتين الدرجات الثلاث ، أو قناني النيد الثلاث ، التى رصدها بلان فان إيك ، ومهما يكن من شىء ، فقد لبى الدعوة ليكون مصوراً رسمياً فى بروكسل ، ومن ثم جعل لاسمه الصيغة القلمنية روجيه فان درويدن . وفى عام ١٤٥٠ وكان قد بلغ الواحدة والخمسين ، رحل إلى روما للاحتفال بعيدة الخمسينى ، ولقى المصورين الإيطاليين ، واحتفل به بوصفه أحد مشاهير العالم وربما كان تقدم التصوير بالزيت فى إيطاليا بتأثيره . ولما توفى عام ١٤٦٤ فى بروكسل ، كان أشهر فنان فى أوروبا بأسرها .

وبقى فنه فى آثار كثيرة . ولقد صور أيضاً فيليب الطيب ، ورولان — وزير فيليب لمدة أربعين سنة — وشارل الجسور وغيرهم من الشخصيات البارزة . وتنتسم « صورة سيدة » بجمال يفرق الوصف فى المتحف القومى بواشنطن — وهى تجسم المشاكسة والتقوى والتواضع والكبرياء . وكان روجر فى فن تصوير الأشخاص رومانسيا لا يبلغ شان جان فان إيك ، ولكنه أظهر فى صورته الدينية ، دقة وإحساساً مرهفاً ، وعمقاً فى الانفعال وهو ما يفتقر إليه فن جان القوى الواقعى ، وربما كانت الروح الإيطالية أو الفرنسية ، تتوسل فى التعبير بالشكل القلمنى ، وتبعث بذلك منهج القرون الوسطى .

ولقد سجل روجيه ، مثله فى ذلك مثل الإيطاليين ، الأحداث الحيوية المثيرة ، فى قصته مريم وابنها : فإن جبريل يعلن فتاة مفزعة أنها ستكون

أم الزب ، والطفل في المزود ، وعبادة المجوس ، وصورة القديس لوقا
وفيهما العذراء وهي ترعى طفلها ، وزيارة مريم لاليزابث ، والأم تتأمل
طفلها في سعادة ، والحضور إلى الهيكل ، والصلب ، والنزول عن الصليب ،
والقيامة ، ويوم الحشر . وبلغ روجيه في هذا المشهد الأخير أوجه ، في
مجموعة لوحات لعلها صممت لتضارع « عبادة الحمل » ولكنها غير جديدة
بذلك تماماً . ولقد صورت لرولان ، وهي الآن في المستشفى الفخم ، الذي
أسسه الوزير العظيم في بوين . وفي اللوحة الجدارية الوسطى ، يجلس المسيح
للمحاكمة ، وتغلب الرحمة عليه عما في صورة ميشلانجياو ، ويقف في كلا
الجانبين الملائكة بملابسهم البيضاء الناصعة : يحمون وسائل عذابه وموته ،
ويظهر تحتهم ميكائيل رئيس الملائكة : يضع في الميزان الحسنات والسيئات :
وإلى اليسار تركع مريم في خشوع وضراعة ، وفي أحد الجانبين يجثو الأبرار
في صلاة شكر ، وفي الجانب الآخر يقع الأشرار فزعين في الجحيم ، وهناك
ثلاثية في أشورب تكاد تباغ في شهرتها هذه الصورة وهي تصور الأسرار المقدسة
السبعة في مشاهد رمزية . وأراد روجيه ألا تتمثله ، مستغرقاً في وجد ديني ،
فصور حسناء تغتسل ، وشابين يسترقان النظر إليها من خلال شق في الحائط ،
بفضول تشرىحى نهم لا يشيع أبداً .

٤ - شارل الجسور : ١٤٦٥ - ١٤٧٧

تبخر هذا الفوران كله بفضل حدة مزاج شارل المتهور ، الملقب خطأً
بالجسور . وهو الذي صور روجيه فان درويدن ، في صورة كونت شاروليه
الفتى الجميل الحاد ذي الشعر الأسود ، الذي قاد جيوش أبيه ، في انتصارات
دامية ، وعرك سلطان أبيه منتظراً وفاته . ففي عام ١٤٦٥ أحسن فيليب الطيب
بنفاذ صبره ، فسلم إليه مقاليد الحكم ، وأشبع بذلك طموح الشاب ونشاطه .

وأبى شارل تقسيم دوقيته إلى ولايات شمالية وأخرى جنوبية تتفرق مكاتاً

وتتعدد لغة ، وأبى فوق ذلك الولاء الإقطاعى الذى يدين به عن بعض هذه الولايات لملك فرنسا ، وعن بعضها الآخر لإمبراطور ألمانيا . وكان مشوقاً لتحقيق برجنديا العظمى ، مثل لوثرينجيا (لورين) فى القرن التاسع ، لتكون مملكة وسطى بين ألمانيا وفرنسا ، موحدة من الناحية الطبيعية ، ذات سيادة من الناحية السياسية . ولقد فكر أحياناً ، فى أن وفیات بعض أولياء العهود الذين يتدخلون فى نسبه فى وقت المناسب ، قد تسامحه العروش الفرنسية والإنجليزية والإمبراطورية ، وتسمو به إلى مصاف أرفع الشخصيات فى التاريخ مكانة . ولقد نظم ، تحقيقاً لهذه الأحلام ، أحسن جيش عامل فى أوروبا ، وفرض على رعاياه من الضرائب ما لا نظير له فى الماضى ، وكيف نفسه لمكابدة كل عناء وتجربة ، ولم يمنح عقله وجسمه ، ولا أصدقاءه وأعداءه ، فترة من الراحة والسلام .

يمع ذلك : فقد فكر لويس الحادى عشر ، فى برجنديا باعتبارها إقطاعاً من ملك فرنسا ، وحارب تابعه الفنى متفوقاً فى الحطط والدسائس . فانضم شارل إلى النبلاء الفرنسيين ضد لويس ، وغنم مديناً أخرى ، والعداوة الدائمة لملك عنيد . وفى هذا الصراع انتقضت دينان ولييج على برجنديا ، وأعلننا ولاءهما لفرنسا ، كتب بعض المتحمسين فى دينان Dinant ، على صورة معلقة لشارل ، إنه ابن سفاح لقسيس مستهتر . فهدم شارل أسوار المدينة بالمدافع ، وأباحها لجنوده ثلاثة أيام ينهبونها ، واسترق جميع رجالها ، وشرّد كل نساها وأطفالها ، وأحرق جميع مبانيها حتى أصبحت أثراً بعد عين ، وألقى بثمانمائة من الثائرين مقيدة أيديهم وأرجلهم من خلاف فى نهر الموز (١٤٦٦) ومات فيليب فى شهر يونيو التالى ، وأصبح كونت شاروليه ، شارل الجسور . فأعاد الحرب مع لويس ، وأجبر لياج التى ثارت مراراً بمحاصرتها ، على أن تؤيده وتجاونه فى هذه الحرب . وقدم سكان المدينة المتضورون جوعاً ، جميع ما يمتلكون ثمناً لحياتهم . فرفض العرض ،

وأباح المدينة ، ولم ينج من النهب بيت أو كنيسة ، وانتزعت كوؤس القربان من أيدي القساوسة وهم يقومون بالصلاة ، وأغرق جميع الأسرى الذين عجزوا عن دفع الدية الباهظة (١٤٦٨) .

والعالم ، وإن تردى ، طويلاً في أعمال العنف ، لا يستطيع أن يغفر لشارل قسوته ، وخروجه على تقاليد الإقطاع في حبس مليكه وإذلاله . فلما غزا جللرلاند ، وحصل على الأكراس ، وتقدم بخطى إمبراطور ليتدخل في كولونيا ومحاصرة نيس Neuss . بادر جميع جيرانه إلى الوقوف في وجهه . وأسخط بيتر فان هاجنباك ، الذي عينه والياً على الأكراس ، الناس لفظاظته وجوره وقسوته ، فشقوه ، وأعلن الاتحاد السويسري محاربة شارل إلى الموت (١٤٧٤) ذلك لأن التجار السويسريين كانوا من ضحايا بيتر ، والذهب الفرنسي كان يوزع من الناحية العسكرية في سويسرا ، والولايات السويسرية ، كانت تحس بأن اتساع سلطان شارل خطر يهدد حريتها . فترك شارل نيس ، واتجه ناحية الجنوب ، فترا اللورين - موحداً لأول مرة طرفي وقته - وسير جيشه عبر جورا ، إلى فود . وكان السويسريون أشجع الجنود في عصرهم ، فهزموا شارل بالقرب من جرانسن Granson ، ثم دحروه يالقرب من مورات (١٤٧٦) وهكذا اكتسح البرجنديون ، وبلغ الحزن يشارل أن أشرف على الجنون . فاغتتمت اللورين الفرصة وانتقضت عليه ، وأرسل السويسريون الرجال وبعث لويس الذهب لمعاونة الثورة . وألف شارل جيشاً جديداً ، وحارب الحلفاء بالقرب من نانس ، وهزم في المعركة ولقى الموت (١٤٧٧) . وفي الغداة ألهمت الغيلان قطعاً من لحمه العاري ، موجد غارقاً إلى النصف في مستنقع ، ووجهه متجمد ملتصق بالجليد . وكان في الأربعة والأربعين من عمره . وهكذا اندلجت برجنديا في فرنسا

٥ - الفن في الأراضي الراضية

١٤٦٥ - ١٥١٥

اضطرت فلاندرز الجنوبية فترة من الزمن بعد فيليب الطيب ، ودفعت الاضطرابات السياسية بكثير من النساجين إلى إنجلترا ، وكانت صناعة النسيج البريطانية النامية تحصل على تجارتها ومواردها الخام من المدن القلمنكية ، وما إن جاء عام ١٥٢٠ ، حتى كان النسيج الإنجليزي يزحم أسواق فلاندرز نفسها . وازدهرت بروكسل وميشلن ، وقالنسين بالتفوق في صناعة الشرائط والسجاجيد والفرش والحلي ، ونامور بفضل صناعة الجلود ، ولوفان بفضل جامعتها وجمعتها . وحوالي عام ١٤٨٠ ، بدأت القناة التي تصل بروكسل بالبحر قمرسب الطمي في مجراها ، وبذلت جهود جبارة لتطهيرها ، وقضت الرمال والرياح على هذه الجهود ، ولم تعد السفن التي تمر عبر عباب البحر ، تستطيع الوصول إلى بروكسل بعد عام ١٤٦٤ . وسرعان ما هجر تجارها ، ثم صناعتها المدينة إلى أنتورب ، التي كانت السفن ذوات الغاطس الكبير ، تدخلها من طريق مصب نهر شلد . وعقدت أنتورب اتفاقيات مع المصلين الإنجليز ، وشاركت كاليه في تجارة إنجلترا مع القارة الأوروبية .

ولقد بقيت الحياة في هولندا بفضل السلود ، التي ينبغي أن يعاد بناؤها مراراً ، وقد تنهار في أي وقت ، ولقد اختل بعضها عام ١٤٧٠ فأغرق عشرين ألفاً من السكان . وكانت الصناعة الرئيسية الوحيدة هي صيد سمك الرنجة وتجفيفها . وأخرجت هولندا كثيرين من أشهر المصورين في ذلك العصر ، ولكنها كانت أفقر من أن تحتفظ بهم ، فهاجروا جميعاً إلى فلاندرز ما عدا جيرتيخن الذي شرب نخب سنت جانتز .

وهناك ، حتى في المدن الآفلة ، كان الأغنياء من نواب المقاطعات يرتدون الملابس الفاخرة ، ويسكنون بيوتاً من الآجر المتيّن بها أساس فخيم - علقوا

على جدرانها حوراً على الشبيج من أراس وبروكسل ، وزودوها بآنية متألثة من النحاس الأصفر من دينان . وشيدوا كنائس رائعة مثل كنيسة نوتردام دي سالبون في بروكسل ، وكنيسة سانت جاك في أنتورب ، وأقاموا برج واجهة كاتدرائية أنتورب حجراً حجراً ، وبدأوا في تشييد قاعة البلدية العظيمة في جنت . وأمدوا المصورين بالمال ، وجلسوا أمامهم لتصوير أشخاصهم ، وتقربوا إلى السموات بفن يقوم على النذور ، وسمحوا للنساءهم بقراءة الكتب . وربما كانت نزعتهم الدنيوية ، هي التي حفزت فن التصوير الفلمنكي ، في الفترة الثانية من ازدهاره ، إلى التركيز على الواقعية والمناظر الطبيعية حتى في الصور الدينية ، والبحث عن موضوعات جديدة في الدور والحقول .

واستهل ديرك بوتس الاتجاه الواقعي بمبالات طبيعية عند أصحاب البدع . ولقد جاء إلى بروكسل من مسقط رأسه هارلم ، ودرس هناك على يد روجيه فان درويدن ، وأقام في لوفين ، وصور لكنيسة سانت بيير مجموعة لوحات جدارية هي « العشاء الرباني الأخير » ، ومعها لوحة حائطية موضوعها — عيد الفصح في أسرة يهودية — ويبدو أنها توحى بأن العشاء الرباني الأخير ، كان احتفالاً بعشيرة يهودية سنّية ، يقوم بها يهود لا يزالون مؤمنين باليهودية . وصور للكنيسة ذاتها « استشهاد القديس إيرازس » تصويراً حرقياً مذهلاً ؛ جلادان يديران دولاباً ، يخرج ببطء ، أمعاء القديس المتجرد من الثياب . وفي « استشهاد القديس هيبوليتوس » أربعة جياد تساق في أربع اتجاهات تنفصل ذراعي الفريسة ورجليها . وفي « قطع رأس الفارس البريء » نجد فارساً أتهمته إمبراطورة فاشلة في حبه انتقاماً منه ، بأنه حاول هتك عرضها ، فأمرت بقطع رأسه ، وفيها انبطحت الجثة الدامية على الأرض ، واطمأن الرأس المنفصل في حجر الأرملة ، وكان بوتس يتفادى عنفه ، في الغالب ، بإظهار الطمأنينة الراضية عند المحتضر أو الميت — وفي هذه الصور

ألوان حية ، ونجد بين حين وآخر منظرًا طبيعيًا حسنًا أو رسمًا منظوريًا ، بيد أن رسوماتها المتقنة وشخصياتها الجامدة والوجوه التي لا حياة فيها ، توحى بأن الزمن ليس حكيمًا في انتقائه على الدوام .

وقد يكون هوجوفان درجوز ، أخذ نسبته من جوز في زيلنده ، وهو شاهد آخر على عبقرية هولنده الحصية الآفلة . وفي عام ١٤٦٧ سمح له بأز ينضم إلى نقابة المصورين في جنت . وكان ذلك إرهاباً بشهرة التصوير الفلمنكي ، حتى إن تاجراً إيطالياً في فلاندوز ، وقع اختياره عليه ، لكي يصور ثلاثية كبيرة لمستشفى سانتا ماريا نيوفا في مدينة فلورنسا التي كانت تعج بالفنانين . وانتخب هوجو لموضوعه هذه العبارة « إن من حملته قد عبدته » . وصورة العذراء بالحجم الطبيعي ، يغمرها الخشوع ، وهي من الروعة بمكان ، وإلى اليسار راع يتنبأ بروعة رفائيل وتيتيان ، ويعد المنظر الطبيعي الشتوي ، عملاً جديداً ، من ناحية الحب المخلص للطبيعة . وأن ما اتسم به فان دوجوز من الواقعية العاتية ، والأداء الأصيل ، والرسم الدقيق والتحديد المضبوط للشخصية ، قد وضعه على قمة المدرسة الفلمنكية في الربع الثالث من القرن الخامس عشر . ولقد دخل أحد الأديرة بالقرب من يروكسل (حوالي ١٤٧٥) ، أما ليجد مزيداً من الهدوء بعينه على العمل ، وأما ليتخلص من المخاوف الدينية التي اعترته . وهناك واصل التصوير وأمعن في تعاطي الحمر ، (كما يقول راهب زميل له) ، واستولت عليه فكرة ، إن الله قد كتب عليه اللعنة الأبدية ، فأظلمت حياته ودفعته إلى الجنون .

ويخبرنا فسباسيانودا بستيش ، أن الدوق فيديريجو صاحب أوربينو Urbino ؛ قد أرسل حوالي عام ١٤٦٨ ، إلى فلاندرز يطلب مصوراً ، يزين غرفة مكتبه ، لأنه « لا يعرف أحداً في إيطاليا ، يفهم كيف يصوّر بالألوان الزيتية » . فلبى فان فاسنهوف الدعوة ، وهو صديق فان درجوز ،

وأقام في أريينو ، وعرف منذ ذلك باسم جوستس فان جنت . فصور للنوق العالم ثمانى وعشرين صورة لطائفة من الفلاسفة كما صور لفريق من الإخوان الرهبان في أريينو مذبحاً « تناول الأسرار المقدسة » . ومع أن هذه الآثار فلمنية الأسلوب إلا أنها تسجل تأثيراً متبادلاً بين فلاندرز وإيطاليا ، فقد تأثر المصورون الإيطاليون بالفن الفلمنكى في الإقبال المتزايد على استعمال الزيت والنزعة إلى الواقعية ، كما تسربت المثالية والحرفية الإيطالية في الفن الفلمنكى .

ونحن نجد أن هانز مملنج ، وإن كنا لم نعثر على خبر يفيد زيارته لإيطاليا ، قد أدخل في تصويره رشاقة ورقة ، لعله اكتسبها من مصوري كولونيا ، أو من روجيه فان درويدن ، أو لعل هذا التأثير قد جاءه من البندقية وعلى طول الرين إلى ميتر . ولقد ولد بالقرب من ميتر ، وربما اكتسب نسبه من مسقط رأسه مزلنجن ، ثم رحل من ألمانيا إلى فلاندرز ويروجس حوالى عام ١٤٦٥ . وهناك ، وبعد ثلاث سنوات ، طلب إليه سير جون دن ، وهو زائر إنجليزى ، أن يصور له « العنراء على العرش » . فكانت صورة تقليدية في المنهج والآراء . ولكنها تظهر في الوقت نفسه اقتداره الحرفى ، ورهافة حسه ، وتفرداً للعبادة . ولقد أبرز القديس يوحنا المعمدان ، في واقعة فلمنية والقديس يوحنا الإنجيلى في مثالية ملائكية ، وكشفت الفردية النامية في الفن ، من نفسها في صورة « مملنج » وهو يحتلس النظر متلفتاً حول عمود . وكان مملنج يشبه بروجينو ، الذى جاء بعده بقرن من الزمان في رسمه مئات الصور للعنراء ، في رقة الأمهات ومسكينة الأبرار وهذه الصور معلقة على جدران المتاحف ، تراها العين أينما اتجهت في برلين وميونخ وفيينا وقلورنسة ولشبونة ومدريد ، وباريس ولندن ونيويورك ووشنطن وكليفلند وشيكاغو . وتوجد اثنتان من أحسن هذه الصور بمسشفى سانت جون في بروجس ، ونجد أن مريم تسيطر على صورة « زواج القديسة كاترين الصوفى » ، حيث تبدو

الفخامة في كل شخصية ، وهي تتصل مرة أخرى « صورة عبادة الطفل » ويلفت النظر فيها المجوسى — وهو شخصية تشبه جوته المستشار الخاص — وى صورة راحة الأفق في ميونخ ، رسم مملنج جميع الأحداث الرئيسية في حياة المسيح المدونة . وسرد في صورة أخرى بتورينو « قصة » الآلام « وعرض فيها أخلاطاً من الرجال والنساء ، حتى إن « بروجل » وجد عناء في الضيق عليه في كثرة العدد . وصور من أجل صنلوق أرغن في دير بمدينة ناهيرة بأسبانيا ، ثلاثية للسيد المسيح تحيط به الملائكة ، تضارع صورة « الملك الموسيقى » للرسام ميلوزد دافورلى التى رسمت قبل ذلك بأعوام ، ولم يرمتحف أنتورب أنه مغبون عند ما دفع مائتين وأربعين ألف فرنك ثمناً لهذه الصورة عام ١٨٩٦ . يرسم صورة متعددة الأجزاء للمذبح مرضوعها ، « يوم الحساب » لأيا كويوتانى وهو وكيل لورنزودى مديتشى في « بروجس » ، ووضعت في سفينة مبحرة إلى إيطاليا ، ولكن ربانا هانسياتيا استولى على السفينة ، فاحتفظ لنفسه بما كان فيها من أموال وترك الصورة تذهب إلى كنيسة العنراء في دنزج .

ولقد صور مملنج في هذه الآثار الرئيسية وفي اللوحات الخاصة بالأفراد ، بعض الرسوم الرائعة للأشخاص : مارتن فان نيومنيوف و « امرأة » — في مظهر فخم تحت قبعها العالية وفي أصابعها خواتم كثيرة — وكلا الصورتين في إحدى مستشفيات بروجس ، وصورة « شاب » في معرض لندن للصور ، و « عجوز » في نيويورك ، وحامل السهم في واشنطن . وهى لا تبلغ الإلهام والعمق اللذين اتسم بهما فن تيتيان أو رفائيل أو هولبين ، ولكنها تبلغ السطوح البسيطة بخلق صناع . أما الصور العادية غيو الأسسية مثل آدم وحواء ، وأم سليمان في الحمام فلا تفتن الناظرين .

وزين مملنج في ختام حياته العملية تقريباً ، ضريحاً قوطياً ، في مستشفى بروجس ، وقد صمم لكى يستقبل ، آثار القديس أورسولا . قصص في ثانى

لوحات حائطية ، كيف أن السيدة الورعة ، خطيبة الأمير كونون ، أجلت زواجها حتى تجمع إلى روما ، وكيف أبحرت ، مع أحد عشر ألف عذراء ، في نهر الرين إلى بازل ، وقادتن في رحلة فوق جبال الألب ، واعتصمت ببركات البابا وكيف أن هؤلاء الـ ١١,٠٠١ قد استشهدن على يد الهون في كلونيا . وبعد ذلك بتسع سنوات (١٤٨٨) ، قص كارياكشيوف في صورة ، هذه القصة الرائعة المستحيلة في آن واحد ، برسم أدق ، وألوان أزهى ، وذلك لمدرسة القديس أرسولا في البندقية .

وليس من الإنصاف لمملنج ولا لأي مصور آخر ، أن ننظر إلى صورته ، نظرة كلية ، فكل واحدة منها لزمان ومكان معينين ومنهما تحمل خصيسته الغنائية . ونحن إذا نظرنا إليها نظرة عريضة فس نجد لتونا حدوده — ضيقة في الأفق والأسلوب ورتابة شخوصه ، حتى رسومه المتواضعة للعذراء بما فيها من شعر ذهبي مرسل ، والسطح محبب أو صادق ، ويضيء بألوان لامعة ، ولكن الريشة قلما تنفذ إلى أعماق النفس تحت هذا السطح ، إلى سر العزلة ، والدهشة ، والطموح والهموم . وصور النساء عند مملنج لا حياة فيهن ، وكلما جردهن عن ثيابهن ، فإننا نصاب بالحزن ، عندما نجد أن كل واحدة منهن عبارة عن معدة كبيرة وصدر رقيق . وربما كان الطابع الغالب في تلك الشئون مختلفاً عما هو عليه الآن ، بل أن رغباتنا قد تلقنا المبادئ . ومع ذلك فيجب أن نعترف أن مملنج عندما مات (١٤٩٥) ، كان زعيم مصوري شمالي جبال الألب بإجماع أوليائه ومنافسيه . فإن أحسن فنانون آخرون بأخطائه أكثر من إحساسهم بأخطائهم . فإنهم لا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه في رقة الأسلوب وصفاء إحساسه وروعة تلوينه . ولقد ظل تأثيره عظيماً قرناً كاملاً على المدرسة الفلمنكية .

وواصل جيرار ديفيد مذهبه . فلقد جاء إلى بروكس من هولنده حوالى عام ١٤٨٣ ، وفتنته رقة مملنج الغنائية ، وصوره عن العذراء تكاد تماثل

صور مملنج ، ولعلمها اقتسما فيما بينهما نموذجاً يصدران عنه . وهى فى بعض الأحيان كما فى صورة « الراحة أثناء الفرار إلى مصر » (وشنطن) ، فإنه يتساوى مع مملنج فى إظهار وصيانة جمال العذراء ، وتفوق عليه فى تحديد رسم الطفل . وتحول فى كهولته إلى التجارة ورحل إلى أنتورب ، وبه انتهت مدرسة بروجس ، بينما بدأت مدرسة أنتورب على يد كونتن ماسيس .

وكان ماسيس ، ابن خداد فى لوفان واستقبل فى نقابة سانت لوك للمصوريين بأنتورب عام ١٤٩١ ، بالغاً من العمر خمسة وعشرين عاماً . ومن العسير مع ذلك ، أن يوافق سانت لوقا على صورة « مأدبة هيرود » حيث كان هيرود يأمر بحز بسكين رأس المعبدان المفصول عن جسده ، أم على « دفن المسيح » حيث كان يوسف الأريماش ، يندف لطح الدم عن شعر الجثة التى لا دم فيها . وتزوج ماسيس مرتين ، ودفن سبعة أطفال ، فكانت له صلابة فى نسج لوحاته ، وحموضة فى زيوته . وبذلك استطاع أن يصور فاجرة أرادت أن تخدع مرأيا عن نقوده ، وأظهر فى حالة نفسية أهدأ ، اضيقاً يعد ذهبه ، بينما تنظر زوجته إليه نظرة يختلط فيها التقدير بالغيرة ، أما صور ماسيس للعذراء فهى أكثر إنسانية من صور مملنج ، إحداهما (فى برلين) تقبل وتداعب طفلها كآى أم ، وألوان ملابسها التى تتراوح بين الزرقة الناصعة والأرجوانية والحمرة تبرز جمالها . ولما تحول إلى فن تصوير الأشخاص ، فإننا نجده ينفذ فى ملامح الوجه إلى الشخصية وكان بذلك أكثر توفيقاً من مملنج ، كما فى الصورة الرائعة « دراسة من أجل صورة شخص » فى متحف جاكيار أندريه فى باريس ، ولقد لجأ إليه بيستر جيلليس Gillis (١٥١٧) عندما أراد أن يرسل إلى توماس مور ، صورة صادقة لشخصه وأخرى لأرازمس . وأحسن ماسيس مع تصوير جيلليس ، ولكن صورته لأرازمس كانت سيئة الطالع ، إذ أعقبتها الصورة التى رسمها هلبين .

ولما ذهب « دورد » (١٥٢٠) وهلين (١٥٢٦) إلى أنتورب قدما إلى ماسيس أسمى آيات الإجلال باعتباره عميد الفن الفلمنكى .

ومع ذلك فقد ظهر في الوقت نفسه في برابانت ، أكثر الفنانين أصالة وعبثاً في التاريخ الفلمنكى . ونحن نجد في آثار ماسيس — كما في الغوغاء بنظراتهم الشنراء في « إظهار المسيح للناس » (ملريد) أو الوجوه اللذيمة في صورة « عبادة المجوس » (نيويورك) — الوجوه الشوهاء القاسية كالتى صورها ليوناردو في عبثه الساخر بقلمه . ووفق هيرونيمس بوش في استغلال هذه الأصاحيك . ولقد ولد ، وأنفق الشطر الأكبر من حياته في برو — ل — ديك (في شمالى برابانت ، وهى الآن هولنده الجنوبية) ، وأصبح يعرف بصفته الفلمنكية « هيرتوجنبوش » واختصر أخيراً إلى بوش . وظل يصور الموضوعات الدينية المألوفة فترة من الزمان ، واقرب في بعضها كما هو الحال في « عبادة المجوس في ملريد » من العادية . ولكن إحساسه بالمضحك أخذ يسيطر على خياله وفنه . ولعله ارتاع في طفولته من حكايات القرون الوسطى عن العقاريت والأشباح ، وعن الشياطين تخرج من وراء كل صخرة ، أو تبرز من كل شجرة ، وأضحى الآن يستطيع أن يرسم هذه المردة رسماً كاريكاتوريا ، في هجاء يشفى نفسه منها . ويبعدها عن عقله بالضحك منها . وأنكر بحساسية الفنان وصحات الإنسانية — الشاذ أو اللذيم أو المشوه — والتقطهم في مزيج هستيرى من الغضب والسرور . بل إنه في المشاهد الرعوية كما في صورة « المولد » (كلونيا) ، فإنه يجعل الصدارة لأنف بقرة ، وفي « عبادة المجوس » (نيويورك) يجلس الفلاحون النظر من النوافذ ومن الطرقات المسقوفة تحت القناطر ، إلى العنراء وطفلها . ومع ذلك فقد رسم في هذه الصورة الأخيرة بحذق يبلغ حد الكمال ، صورة جليلة للقديس بطرس ، وملكاً زنجياً ، يضع وقاره المهيب سائر الأشخاص متضائل . ولما كان بوش قد بدأ بقصة المسيح ، فقد أظلم صورته بوجوه

بهيمة و عيون وحشية ، متوحشة ، وأنوف ضخام وشفاه ممطوطة سمجة نهمة .
ولما تحول إلى قصص القديسين ، فقد أظهر القديس يوحنا الإنجيلي في صورة
رقيقة إلى حد عجيب ، في مهاد غير عادي من المشاهد الطبيعية بين جزر
وبحر ، بيد أنه وضع في أحد الأركان شيطانا يتأمل — له قلنسوة قسيس
وذنب فار وأرجل حشرة — وينتظر في صبر أن يرث الأرض — وفي صورة
« إغراء القديس أنطوني » أحاط الناسك المتوحد اليائس ، بفاجرات مبتهجات
وتخيلات سحرية — « قزم غرست رجلاه في كتفيه وطائر له ساقا ماعز
وقرد له أرجل بقرة وفأر تتخطاه عليه ساحرة ومنشد متجول يضع على
رأسه جمجمة حصان . وأخذ « بوش » العجائب من الكاتلدرايات القوطية
وجعل منها عالماً قائماً برأسه .

كان أبعد ما يكون عن الواقعية . ولكنه كان ينقل بين حين وحين
مشهداً من الحياة ، كما في « الابن السفیه » ، إلا أنه بالغ هنا في إظهار
الدمامة والفقر والخوف . وليست صورته « ركبة الدريس » نسمة في أوائل
الربيع ، ولكنها تصوير مرير لعبارة « كل الحشائش لحم » وكل شيء مثالي
فوق الحمل : شاب يعزف الموسيقى لفنأة تغنى ، وخلفهما عشيقان يتبادلان
القبلات وملاك يبحث على ركبتيه ، وفوقهما يرفرف « المسيح » في السحاب .
بيد أنه يصور على الأرض قاتلاً ، يطعن عدوه المترنح ، وقوادة تغوى فتاة
على الفجور ، ودجالا يبيع الدواء لكل داء وقسيساً بديناً يتسلم النذور من
الراهبات ، وعجلات العرب تدهس بعض المحتملين غير المكترئين . وإلى
اليمن ، فريق من الشياطين ، تعاونهم قرودة ، يسحبون الأشرار إلى الجحيم .
ولقد علق فيليب الثاني ملك أسبانيا الذي غلبت الكآبة عليه هذه القطعة الفنية
في الاسكوريال . ووضع بالقرب منها ، زميلة لها هي « مباهج الدنيا » .
وفيها ترى غديراً ، يغتسل فيه العرايا من الرجال والنساء ، وحوله موكب
راكب من العرايا على متون حيوانات نصفها طبيعي ونصفها الآخر من

تهاويل الخيال ، وبرز الشوك والحسك من كل جانب في الصورة ، وفي مقدمتها ، عريانان يتعانقان في رقصة فالس ، بينما يحلق إليهما طائر ضخيم في نشوة فلسفية . ويظهر قطاع منها خلق حواء لتكون أصل جميع الشرور ، ويظهر قطاع آخر تعذيب الأشرار . وهي معجزة في الإبداع والحلق في الرسم والخيال المريض — وتمثل بوش خير تمثيل .

وقد يتساءل البعض : هل وجد ، حتى في فجر التجديد الحديث ، ملايين المسيحيين البسطاء الانفعاليين ، المصابين بكابوس مثل هذا ؟ وهل كان بوش واحداً من هؤلاء ؟ من العسير أن نقول ذلك ، فنحن نرى في صورة له تمثله في مكتبة أراس ، وقد بدأ في الشيخوخة ، تام القوة العقلية والحدة البصرية ، كان رجلاً حقيقياً ، تجاوز غضبه الهجاء ، واستطاع أن ينظر إلى الحياة بمرح امرئ سرعان ما يخرج من الحلبة . ولم يكن من الممكن أن يصور هذه الأخيلة الحاذقة ، إذا ظلت مستولية عليه . لقد تغلب عليها ، وهو أدنى إلى الغضب منه إلى السرور ، لأن الإنسانية احتضنتها على الدوام . ومما يؤكد أن معاصريه استمتعوا بآثاره ، على أنها مرح تصويري ، أكثر منها مفازع دينية ، زواج صوره المنقولة بالحفر والمطبوعة ، وجاء « بيتر بروجل » بعد جيل واحد فاستطاع أن يدرب هذه الشياطين ، ويحول أولئك الغيلان إلى حشد مرح سليم ، وبعد ذلك بأربعة قرون عكس الفنانون العصاة ، أمراض عصرهم العصبية ، بتصوير أخيلة ساخرة تعبق ، معبودهم بوشى .

وينحتم هذا الفصل في تاريخ التصوير الفلمنكى بظهور شخصية ، أدخل في المنهج التقليدى . ولقد ولد صاحب هذه الشخصية في « موبيج » ، ومنها أخذ نسبته « مابوس » ، واسمه « جان جوساير » ولقد رحل إلى أنتورب عام ١٥٠٣ ، ومن المحتمل أن يكون ذاك ، بعد أن ثقف الفن على يد دافيد في بروجس . ودعى عام ١٥٠٧ إلى بلاط الدوق فيليب البرجندي وهو

أحد ثمرات عشق فيليب الطيب ، وصحب جان الدوق إلى إيطاليا ، وعاد بشيء من الصقل أضيف إلى ريشته ، وشوق إلى تصوير العاريات والأساطير الوثنية ، ونحن نجد في صورته « آدم وحواء » أنه جعل الجسم العارى جذاباً لأول مرة في الفن الفلمنكى . وفي صورته مريم والطفل والملائكة والقديس لوقا يرسم العذراء ، أصدقاء لما في إيطاليا من أطفال سمان ومهاد معمارية تنسم بطابع عصر النهضة ، وقد يرجع الفضل إلى إيطاليا ، فيما نراه في صورة « العذاب في الحديقة » من العرض الرائق لضوء القمر . ولكن قوة « جوساير » تركزت في فن تصوير الأشخاص . ولم يصدر عن مصور فلمنكى ، منذ جان فان إيك ، هذه الدراسة للشخصية التي نجدها في صورة « جان كاروندليه » في متحف اللوفر ، ففيها يركز الفنان على الوجه واليدين ، ويكشف عن الغنى الموروث ، ويميط اللثام عن الإدارى الذى لا يتزعزع ، المهموم بأعباء السلطة ، وعلى يد ماسيس انتهى الرعيل الأول في التصوير الفلمنكى وهو الذى بلغ حد الكمال في الصور التي أبدعتها مدرسة « فان إيك » . وقبس جوساير من إيطاليا ، تلك التجديدات الحرفية ، والأناقة في الزخرف ، والرشاقة في الخطوط ، والحدق في إظهار الجلى والقائم على السواء ، وتصوير الأشخاص ، وهى السمات التي نجدها في القرن السادس عشر (إذا استثنينا بروجل) تحول التصوير الفلمنكى ، عن براعته وعبقريته في حدود وطنه وتتركه ثابتاً في تفوقه ، حتى بلغ أوجه على يد روبنز وفان ديك .

ولم ينجب شارل الجسور ابناً ، ولكن ابنته ماري كانت مخطوبة إلى مكسيميليان صاحب النمسا ، أملاً أن يحمى آل هابسبرج برجنديا من فرنسا . ومع ذلك عندما ضم لويس الحادى عشر الدوقية فرت ماري إلى جنت حيث دفعت الثمن لتكون الملكة الدستورية بموافقة فلاندرز وبرابانت وهانو وهولنده ، وهو توقيعها على « قرار امتياز جروت » (فبراير ١٤٨٨) ، الذى ناشدها أن لا تتزوج ، وألا تفرض ضريبة أو تعلن حرباً ، إلا بموافقة

(المقاطعات) أو مجالس الأقاليم الموقعة على القرار. وبهذا المرسوم وغيره من المراسيم الصادرة بعد ذلك ، بما فيها المدونة السعيدة كما أطلقت برابانت على تصريحها الخاص بحريتها المحلية ، بدأت الأراضي المنخفضة قرناً طويلاً من الصراع في سبيل الاستقلال. ولكن زواج ماري من مكسميليان (أغسطس ١٤٧٧) جاء بآل هابسبرج الأقوياء إلى الأراضي الواطئة « حتى إذا توفيت ماري (١٤٨٢) أصبح مكسميليان نائباً عن الملك. ولما انتخب مكسميليان إمبراطوراً (١٤٩٤) أسلم منصب نائب الملك في الأراضي المنخفضة إلى ابنه فيليب. ولما مات فيليب (١٥٠٦) عينت أخته ، مارجريت أميرة النمسا ، حاكمة عامة بوساطة الإمبراطور. ولما أعلن أن ابن فيليب ، وهو شارل الخامس المقبل ، قد بلغ سن الملك (١٥٢٥) ببلوغه الخامسة عشرة ، أصبحت الأراضي المنخفضة جزءاً من الإمبراطورية الهابسبرجية الشاسعة ، في ظل واحد من أكثر الحكام دهاء وطموحاً في التاريخ. ولهذا قصة .

الفصل السابع

أوروبا الوسطى

١٣٠٠ - ١٤٦٠

١ - الأرض والعمل

ما دام الإنسان يعيش تحت رحمة الجغرافية الطبيعية ، فقد كتب عليه أن ينقسم بوساطة الجبال والأنهار والبحار ، إلى جماعات تنطور في شبه عزلة ، مختلف لغاتها وشرائعها ، وملاحيها التي تتحكم فيها الظروف المناخية وعاداتها وأزيائها . ودفع الافتقار إلى الأمن الإنسان إلى الشك في الغريب ، فأصبح يكره ويختصم الملامح الأجنبية المستهجنة ، وطرائق العيش للجماعات الأخرى غير جماعته . وهذا التنوع الأخاذ في الأرض - من جبال وأودية وأزقة بحرية ومضايق ، وخلجان وغدران - الذي يجعل أوروبا منظراً جامعاً لمباهج شتى ، قد مزق ، سكان قارة صغيرة إلى عشرات من الأقوام ، يجتثرون خلافتهم ، ويحبسون أنفسهم في تراث أحقادهم . وهناك فتنة في هذا الخليط من النشأة المختلفة ويستطيع المرء أن يطلب الغوث لعالم من الناس ، محصور في أساطير بذاتها وأزياء بأعيانها . ومع ذلك ، فإن فوق هذه الخلاقات وتحتها . . . الخلاقات في الزى والعادة والعقيدة واللغة ، فقد فرضت الطبيعة والحاجة على الإنسان ، وحدة اقتصادية وارتباطا ، يزداد وضوحهما وسلطانهما كلما حطم الاختراع والمعرفة الحدود . وتستطيع العين المنصفة الشاملة أن ترى ، من الترويج إلى صقلية ومن روسيا إلى أسبانيا ، الناس لا يختلفون كثيراً في الزى واللغة ، وإنما تراهم مشغولين في مهن متماثلة ومصبوبين في قوالب أخلاقية متشابهة ، كالفلاحة والتعدين ونسج الملابس

وبناء المنازل والهياكل والمدارس ، وتربية الناشئين والتجارة بالفائض عن حاجتهم ويشكلون النظام الاجتماعي باعتباره أقوى وسيلة للدفاع والبقاء . وسنتأمل لحظة أوروبا الوسطى باعتبارها وحدة على هذا الأساس .

فقد كان الشغل الشاغل للإنسان في اسكنديناوه ، أن يقهر البرد ، وفي هولنده أن يتغلب على البحر ، وفي ألمانيا الغابات وفي النمسا الجبال ، وتوقف مصير الزراعة وهي أساس الحياة على مدى الانتصارات . وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كانت دورات المحاصيل قد أصبحت عامة في أوروبا مضاعفة غلة الأرض . ولكن نصف سكان أوروبا الوسطى بين عامي ١٣٤٧ ، ١٣٨١ ، قد هلكوا بالطاعون ، فعطل موت الفلس خصوبة الأرض . ولقد فقدت ستراسبورج في عام واحد ١٤٠,٠٠٠ نسمة وكراكا و ٢٠,٠٠٠ وبرسلاو ٣٠,٠٠٠ . ولبثت مناجم « هارز » بلاعمال قرناً من الزمان . وواصل الناس الأعمال القديمة معتمدين على صهر الحيوان الأعجم ، في حفر الأرض وحرثها . وتوسعت السويد وألمانيا في استخراج الحديد والنحاس ، كما كان الفحم يستخرج من آخن ودرتمند والزنك من سكسويناه والقصدير من هارز والفضة من السويد والبتروول والذهب من كارثيا وترانسلفانيا

وعمل هذا الفيض من المعادن على تغذية الصناعة النامية التي غدت بدورها تجارة رائجة . وكانت ألمانيا إماماً في التعديل فأصبحت بطبيعة الحال ، رائدة في علم المعادن . وظهرت أفران صهر المعادن هناك في القرن الرابع عشر ، فغير تشغيل المعدن بمساعدة المطرقة المائية والطاحونة الدوارة وغدت نورمبرج ، عاصمة تجار الحديد واشتهرت بموقعها وأجراسها . وجعلت التجارة والصناعة نورمبرج واجزبرج ومنيز وسبير وكلونيا ، مدناً ذوات حكومة مستقلة تقريباً . وبوأت أنهار الرين ومين ولش والدانوب ، مدن ألمانيا الجنوبية ، مكان الصدارة في المواصلات البرية ، مع إيطاليا والشرق . ونشأت بيوت تجارية ومالية ، لها أسواق وعملاء إلى مدى بعيد ، على طول

هذه الطرق ، وتفوقت في القرن الخامس عشر على الحلف الهنسياني اتساعاً وقوة . وكان هذا الحلف لا يزال قوياً في القرن الرابع عشر . مسيطراً على التجارة في مجرى الشمال والبلطيق ، ولكن الأقاليم الاسكنديناوية اتحدت عام ١٣٩٧ لتحطم الاحتكار ، وسرعان ما بدأ الإنجليز والهولنديون بعد ذلك ينقلون سلعهم بأنفسهم . بل إن سمك الرنجة قد تأمر على الهانس ، إذ قرر أن يتكاثر في بحر الشمال ، بدلا من البلطيق ، ففقدت لوبك وهي من عمد الحلف تجارة الرنجة وأفل نجمها ، وغنمت أمستردام هذه التجارة وازدهرت .

وغليت مراحل حرب الطبقات تحت هذا التطور الاقتصادي — بين الريف والمدينة وبين السلدة لملاك وعبيد الأرض وبين النبلاء ورجال الأعمال وبين الغرف التجارية ونقابات العمال وبين الرأسماليين والصناع وبين الكهنوت والعلمانيين وبين الكنيسة والدولة . وكان رق الأرض في السويد والنرويج وسويسرا أخذاً في الزوال أو زال بالفعل ، ولكنه اتخذ حياة جديدة في المناطق الأخرى من أوروبا الوسطى ، أما في الدنمارك وبروسيا وسيليزيا وبوميرنيا وبرندنبرج ، حيث نال الفلاحون حريتهم بتمهيد البراري للزراعة ، فقد أعيد رق الأرض في القرن الخامس عشر على يد أرستقراطية عسكرية ، ونحن نستطيع أن ندرك مدى الفظاظة التي اتسم بها هؤلاء الفتيان النبلاء الألمان من مثل سائر رده فلاحو برندنبرج ، وهو يدعو بطول البقاء بلياد السيد المالك ، حتى لا يحل العبيد محلها في الركوب . وقنع البارونات والفرسان التيوتون ، في أراضي البلطيق أول الأمر ، باسترقاق أهل البلاد التي غزوها من الصقالبة ، وحملهم ، نقص الأيدي العاملة بسبب الطاعون والحرب البولندية عام ١٤٠٩ ، على أن يسترخوا جميع « الكسالى الذين يتسكعون في الطريق أو في المدن » ، وعقدت المعاهدات مع الحكومات المجاورة بشأن تسليم الهاربين من رقيق الأرض .

وقرب الأباطرة ، الطبقة البرجوازية التجارية ، لتحد من غلواء البارونات ، فحكم هؤلاء التجار البلديات تماماً ، حتى صارت دار البلدية في كثير من الأحيان ، هي بعينها الغرفة التجارية . وضعف سلطان النقابات المهنية وأخضعت للقواعد التي تضعها المجالس البلدية تحديداً للأجور ، ومنعت من العمل المشترك ، وتحول العمال الحاذقون للمهن ، المعتزون بخبرتهم ، هنا ، كما حدث في إنجلترا وفرنسا إلى عمال يدويين بلا حول ولا قوة . وحلول العمال الثورة حيناً بعد حين . وفي عام ١٣٤٨ استولى عمال مدينة نورمبرج على المجلس البلدى وحكموا المدينة مدة عام ، ولكن جنود الإمبراطور أعادوا التجار الأشراف إلى السلطة . وصدر في بروسيا عام ١٣٥٨ مرسوم يقضى بصلم أذن ، كل عامل يضرب عن العمل . واندلعت ثورات الفلاحين في الدنمرك (١٣٤٠ ، ١٤٤١) ، وسكسونيا وسيلزيا وبرندنبرج وأراضى الرين (١٤٣٢) والنرويج والسويد (١٤٢٤) ، ولكن هذه الثورات كانت منحلة العرى في التنظيم فلم ينتج عنها غير أعمال عنف عارضة . وانتشرت الأفكار الثورية في المدن والقرى . ولقد كتب عام ١٤٧٨ متطرف مجهول ، رسالة يعرض فيها « إصلاحاً يقوم به القيصر سيجيسموند » وهو شخصية خيالية ، وذلك على أسس اشتراكية . وهكذا مهد المسرح ببطء لحرب الفلاحين عام ١٥٢٥ .

٢ - إقرار النظام

النظام أبو الحضارة والحرية ، والفوضى هي القابلة التي تولد الدكتاتورية ، ومن ثم فإن التاريخ يمتدح حيناً بعد حين الملوك . وكانت وظيفتهم في القرون الوسطى أن يحرروا الفرد من السيطرة المحلية وأن يركزوا في يده واحدة ، سلطة التشريع والقضاء والعقاب وإصدار السكة وإعلان الحرب . ونبأكي البارون الإقطاعي على فقدان الاستقلال المحلى : بيد أن المواطن

البسيط رأى الخير في أن يكون هناك سيد واحد وعملة واحدة وقانون واحد ،
وقلما أمل الناس في تلك الأيام التي فشت فيها الأمية ، أن الملوك أنفسهم قد
يخفون من الوجود ، ولا يخلفون وراءهم ساطناً غير القوانين والأخطاء التي
اقترفها الناس بحرية .

ولقد حكم اسكنديناوه بعض الملوك الأفذاذ في القرن الرابع عشر فوجد
ماجنوس الثاني ملك السويد ، قوانين مملكته المتعارضة في مجموعة قوانين
منسجمة قومية (١٣٤٧) . ونظم أريك الرابع في الدنمرك البارونات ودعم
السلطة المركزية ، وأضعفها كريستوفر الثاني وأعادها ولدنمار الرابع ، وجعل
بلاده ، إحدى الدول الرئيسية في السياسة الأوربية . ولكن أعظم شخصية
في الدول الحاكمة الاسكنديناوية في ذلك العصر ، هي شخصية ، مارجريت
ابنة فالديمار ، ولقد زوجت وهي في العاشرة (١٣٦٣) من هاكون السادس
ملك النرويج ، وهو ابن ماجنوس الثاني ملك السويد ، وبدأ أنه قد كتب
عليها ، بفضل الزواج والدم ، أن توحد العرشين اللذين تربط بينهما القرابة ،
ولما قضى أبوها (١٣٧٥) أسرعت إلى كوبنهاجن ومعها ابنها أولاف وعمره
خمس سنوات ، وأقنعت الناجين في البارونات ورجال الدين أن يقبلوا ابنها
ملكاً على أن تكون هي نائبة الملك . وبموت زوجها (١٣٨٠) ورث
أولاف تاج النرويج ، ولما كان لا يزال في العاشرة من عمره فقد أصبحت
مرجريت هناك أيضاً نائبة ملك ، وكانت إذ ذاك في السابعة والعشرين من
عمرها . وأذهلت حكمها وحياتها وشجاعتها معاصريها ، الذين ألفوا عدم
الكفاءة . أو العنف في الحكام من الرجال ، وأيد السادة الإقطاعيون في
الدنمرك والنرويج مفاخرين ، هذه الملكة الرشيدة الحيرة ، وهم الذين تسلطوا
على ملوك كثيرين قبل ذلك . حتى إذا بلغ أولاف سن الرشد (١٣٨٥)
غنمت له دبلوماسيتها ، حق الجلوس على عرش السويد . ولكنه مات بعد
ذلك بسنتين ، فظهر أن خططها التي وضعتها في فراصة وبعد نظر ، لتوحيد

اسكنديناوه قد حبطت بموته : ولكن المجلس الملكي في الدنمارك ، لم يجتهد وريثاً ذكراً يضارع « مارجريت » في القدرة على إقرار الأمن والسلام . فتجاوز القوانين الاسكنديناوية ، التي تعارض بحكم المرأة ، وانتخبها نائبة ملك (١٣٨٧) . وتقدمت إلى أسلو ، فاختيرت نائبة ملك النرويج مدى الحياة (١٣٨٨) ، وبعسد ذلك بعام ، أقصى النبلاء السويديون ملكاً لم يرضوا عنه ، ونصبوها ملكة عليهم . وأقنعت العروش الثلاثة كلها بأن تباع أريك أكبر أبناء أخيها ، ولياً لعهودها . واستدعت عام ١٣٩٧ مجالس الدول الثلاث إلى كالم في السويد ، وهناك أعلن أن السويد والنرويج والدنمارك قد اتحدت إلى الأبد ، تحت سلطة حاكم واحد ، على أن تحتفظ كل واحدة منها بعاداتها وقوانينها . وتوج أريك ملكاً ، بيد أنه كان لا يزال في الخامسة عشرة ، فاستمرت مارجريت نائبة ملك إلى أن مات (١٤١٢) ، ولم يحظ حاكم أوربي آخر في ذلك العصر بمملكة متسعة كهذه ، أو بحكمه موفق كحكمها .

ولم يرث ابن أخيها حكمها ، فجعل أريك الاتحاد ، يصبح في الحقيقة : إمبراطورية دنمركية ، بمجلس في كوبنهاجن يحكم الدول الثلاث . واضمحلت النرويج في هذه الإمبراطورية ، وفقدت زعامتها الأدبية التي احتفظت بها من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر . وفي عام ١٤٣٤ تزعم انجلبركت انجلبركسن ثورة السويد على سيادة الدنمارك ، وجمع في أربوجا (١٤٣٥) مجلساً قومياً من النبلاء والأساقفة وملاك الأراضي وممثلي المقاطعات ، وأصبح هذا المجلس المتوسع في تكوينه ، وقد استمر خمسمائة سنة ، رينخستاج السويد الحالي . وانتخب انجلبروكس وكارك كنتسن نائبي ملك . واغتيل بطل الثورة بعد ذلك بعام ، وحكم كنتسن السويد نائب ملك ، ثم ملكاً ، إلى أن مات (١٤٧٠) .

وبدأ في الوقت نفسه كريستيان الأول (١٤٤٨ - ١٤٨١) أسرة

الدنبرج الحاكمة ، التي حكمت الدنمرك إلى عام ١٨٦٣ والنرويج إلى عام ١٨١٤ . ودخلت أيسلنده في حكم الدنمرك إبان نيابة مرجريت عن الملك (١٣٨١) . وقد ولى مجد تاريخ الجزيرة وأدبها ، ولكنها استمرت تقدم إلى أوروبا التي تمزقها الفوضى ، درسا لم يلتفت إليه عن كفاءة الحكومة ونظامها .

وكانت أقوى ديمقراطية في العالم وقتذاك مستقرة في سويسرا . ونجد أن البطولة في تاريخ هذه البلاد المنيعة كانت مجسمة في الولايات ، وفي عام ١٢٩١ بدأت الولايات التي تكتنفها الغابات ، ويتحدث أهلها الألمانية وهي أوري وشوتز وانترفالدين ، تؤلف اتحاداً من أجل الدفاع المشترك . وأحرز الفلاحون السويسريون انتصاراً تاريخياً على جيش آل هابسبرج في مورجارتن (١٣١٥) ، فاحتفظ الاتحاد باستقلال حقيقي بينما اعترف بالسيادة الإسمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأضيفت إلى الاتحاد ولايات جديدة : لوسون (١٣٣٢) وزبورخ (١٣٥١) وجلاروس وزج (١٣٥٢) وبرن (١٣٥٣) ، وأصبح اسم ولاية شوتز يطلق على الجميع عام ١٣٥٢ . وشجعت الحدود الجغرافية على الاستقلال الذاتي وقبل الاتحاد اللغات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية وطرائق كل منها تبعاً لانحدار أوديتها ومجاري أنهارها ، فاحتفظت كل ولاية بإصدار قوانينها بوساطة مجالس ينتخبها المواطنون . وتراوح تمثيل الحرية بين ولاية وأخرى ومن عصر إلى عصر ، ولكن جميع الولايات خضعت لسياسة خارجية موحدة وحل منازعاتها بوساطة مجلس اتحادى . ومع أن الولايات يحارب بعضها بعضاً ، فإن دستور الاتحاد أصبح وظل مثالا موحيا بالاتحاد - اتحاد أقاليم تستمتع بالحكم الذاتي تحت أجهزة وقوانين اختيرت بحرية .

وتطلب دفاع الاتحاد عن جريته تدريباً عسكرياً لجميع الذكور وخدمة عسكرية عند الطلب ، يتقدم بها جميع الرجال بين العاشرة والستين وأصبح

المشاة السويسريون ، المسلحون بالحرا ب والمدر بون على النظام الدقيق ، أكبر جيش مخوف باهظ التكاليف في أوربا . ورأت الولايات أن تقتصد في دخلها ، فأجرت فرق جيشها للدول الأجنبية ، وجعلت « البسالة السويسرية حينا من الزمن سلعة تجارية . ولبت الأمراء النمسيون ، يدعون لأنفسهم حقوقا إقطاعية في سويسرا ، وحاولوا الحصول عليها أحيانا ، فقضى على هذا الادعاء في سمناتش (١٣٨٦) وتافلس (١٣٨٨) ، بمعارك تستحق الذكر في تاريخ الديمقراطية . وأكدت معاهدة كنستانس عام ١٤٤٦ مرة أخرى ، حرية سويسرا الفعلية وولاءها الأسمى للإمبراطورية الفعلية .

٣ - ألمانيا تتحدى الكنيسة

كانت ألمانيا أيضا اتحاداً ، ولكن الأجزاء التي تألفت منها ، لم تكن تحكم بوساطة مجالس ديمقراطية ، وإنما بوساطة أمراء مدنيين أو دينيين ، يعترفون بولاء محدود ، فقط لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وحكم بعض هذه الولايات مثل بفاريا ووتنبرج وثورنجيا وهى وناسو وميس وسكومونيا وبرندنبرج وكارنثيا والنمسا والبلتنيان - دوقات أو كونتات ، أومرغريفات(*) أو غيرهم من السادة المدنيين ، بينما خضعت ولايات أخرى - مثل مجدبرج ومينز وهال وبامبرج وكلونيا وبريمن وستراسبورج وسالزبورج وترية وبازل وهلديشين - من الناحية السياسية بدرجات متفاوتة ، لأساقفة أورويساء أساقفة ، وما وافت سنة ١٤٦٠ ، حتى كانت حوالى مائة مدينة قد حصلت على موافق تحررها بالفعل من حكامها المدنيين أو الدينيين . ويوجد في كل إمارة مندوبون عن الطوائف الثلاث - النبلاء ورجال الدين والعامة - يجتمعون بين حين وآخر في مجلس إقليمي ، يحدد عن طريق المال سلطة الأمير . وأرسلت الإمارات والمدن الحرة ممثلين لها إلى الريخستاج أو المجلس الإمبراطوري . وكان يدعى مجلس خاص هو كرفير ستنتاج

(*) المرغريفات : لقب ألماني .

أو مجلس المنتخبين ، لاختيار الملك ، وجرى العرف أن يتألف من ملك بوهيميا ودوق ساكسونين ومارجريف Margrave براندنبرج وكونت بلاتين وروثساء أساقفة منيز وترير وكلونيا . وكان اختيارهم يسفر عن تنصيب ملك ، ويصبح رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عندما يتوجه البابا ، ومن ثم فلقبه قبل التتويج هو « ملك الرومان » والأصل أن يتخذ عاصمة في نورمبرج ، وكثيراً ما يتخذها في مكان آخر ، حتى في براغ . وارتكز سلطانه على العرف والسمعة ، أكثر من اعتماده ، على الممتلكات أو القوة ، وليست له من الأرض سوى أملاكه الخاصة باعتباره أميراً إقطاعياً مثل كثيرين غيره ، وكان يعول على ربحنتاج أو الكوفيرستنتاج للحصول على الأموال لإدارة حكومته أو شن الحرب ، ولقد فرض هذا التعويل على رجال قادرين من أمثال شارل الرابع أو سيجمند ، سقوطاً مهيئاً في الشؤون الخارجية . وقضى الباباوات الأقوياء في القرن الثالث عشر على أسرة هوهنشتوفن ، فأنهك ذلك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي أنشأها (٨٠٠) البابا ليو الثالث وشارلمان . أما في عام ١٤٠٠ فقد كانت ارتباطاً واهياً من ألمانيا والنمسا وبوهيميا وهولنده وسويسرا .

وبعث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، عندما أختار يوم واحد من عام ١٣١٤ ، فريقان متنازعان من المنتخبين لويس أمير بافاريا وفردريك صاحب النمسا ، ملكين متنافسين واعترف البابا يوحنا الثاني والعشرون ، من مقره البابوي في الأفنيون بالاثنتين كملكين ، ولم يجعل أحدهما إمبراطوراً ، واحتج بأنه ما دام البابا ، لا يملك إلا أن يتوج الملك إمبراطوراً ، فيجب أن يسمح له ، أن يحكم على صحة الانتخاب ، وقال الخبر الطموح أكثر من ذلك ، بأن إدارة شئون الإمبراطورية يجب أن تسند إلى البابوية بين وفاة إمبراطور وتتويج آخر . وآثر لويس وفردريك الاحتكام إلى الحرب . وانتصر لويس على غريمه وأسره في موهلدورف (١٣٢٢) ومن ثم ادعى (١٨)

لنفسه السلطة الإمبراطورية الكاملة . فأمره يوحنا أن يجرد نفسه من جميع الألقاب والسلطات ، وأن يمثل أمام المحكمة البابوية ليتلقى الحكم بعضيان الكنيسة . فأبى لويس وأصدر البابا قراراً بحرمانه (١٣٢٤) وطلب إلى جميع المسيحيين في الإمبراطورية أن يخرجوا عن طاعته ، وحكم بحرمان كل إقليم يعترف به ملكاً عليه . فتجاهلت معظم ألمانيا هذه المراسيم ، لأن الألمان كانوا كالأнгليز ، يعدون باباوات أفنيون ، خدامها وحلفاء لفرنسا . ولقد بدأ الناس يرون أنفسهم ، إبان ضعف العقيدة والبابوية المضطرد ، وطنيين أولاً ومسيحيين بعد ذلك . واضمحلت الكاثوليكية ، التي تتجاوز لقومية ، ونشأت القومية وهي بروتستانتيية .

وحصل لويس في هذا المأزق على المعونة والتأييد من حلفاء متباينين . ووسمت نشرة البابا يوحنا «Pope John's bull Cam inter nonnulla» (١٣٢٣) بالهرطقة ، القول بأن المسيح والرسول أبوا تملك العقار ، وأنه وجه محكمة التفتيش ، لتستدعى أمام جلساتها «الفرنسيسكان الروحانيين» الذين أكدوا هذا الرأي . . ورد كثير من الإخوان الرهبان ، الاتهام بالهرطقة على البابا ، وعبروا عن فزعهم المقدس من ثروة الكنيسة ، ووصف بعضهم الخبر العجوز بأنه خارج على المسيحية ، وقاد ميكل سيزينا ، رئيس الروحانيين ، أقلية كبيرة منهم ، إلى التحالف الصريح مع لويس ملك بافاريا (١٣٢٤) فتشجع لويس بتأييدهم ، وأصدر في مدينة ساشزينها وزن منشوراً ضد «يوحنا الثاني والعشرين» ، الذي يدعى أنه بابا ، واتهمه بأنه سفاح نصير للظلم ، صمم على أن يقوض أركان الإمبراطورية ، وطالب بأن يعقد مجلس عام ، يحاكم البابا بتهمة الهرطقة .

ومما شجع الملك أكثر من ذلك ، ظهور أستاذين من جامعة باريس ، في بلاطه بنورمبرج وهما مرسينيوز من بادوا وجون من جانندان — وليس من شك في أن كتابهما «دفاع عن السلام» قد هاجم بابوية أفنيون ، في عبارات

أدخلت السرور على الملك : « ما الذى تجده هناك غير حشد من تجار الرتب الدينية من كل صقع ؟ وماذا غير صخب المتلاعبين بالقضايا ، . . . وامتهان الرجال الشرفاء ؟ أما إنصافهم الأبرياء فيسقط في الحضيض ، إلا إذا اشترى بالمال ، وردد المؤلفان أقوال الوعاظ الألبجنيين والولدنيزيين فى القرن الثالث عشر ، وسبقاً لوثر بمائتى سنة ، وكانت حجتهما أن تعتمد المسيحية ، كلية على الكتاب المقدس . ويجب أن يدعى مجلس عام للكنيسة لا بوساطة البابا ولكن بوساطة الإمبراطور ، وينبغى أن يحصل على موافقة الأخير فى انتخاب أى حبر ، والبابا مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر ، عليه أن يخضع للإمبراطور .

وابتهج لويس بذلك ، وصمم لينهبن إلى إيطاليا ، وليتوجن إمبراطوراً ، بوساطة أهل روما . وخرج فى أوائل عام ١٣٢٧ على رأس جيش صغير ، وبعض الفرنسييسكان والفيلسوفين ، اللذين استخدمهما فى تأليف تصريحات العامة . وأصدر البابا فى أبريل نشرات جديدة ، تقضى بالحرمان على جون بومارسيلوز ، وأمر لويس أن يترك إيطاليا . ولكن الفيكونت الحاكم رحب به فى ميلان ، وتسلم التاج الحديدى ، باعتباره الملك الاسمى للمبارديا . وفى السابع من يناير عام ١٣٢٨ ، دخل روما ، وسط تهليل ، جمهور ينكر إقامة البابا فى أفنيون . واستقر فى قصر الفاتيكان ، واستدعى مجلساً شعبياً للاجتماع فى الكايتول . وظهر أمام الجمع الحاشد مرشحاً لتقلد التاج الإمبراطورى وأبدى الجمع موافقته الصاخبة ، وفى السابع عشر من يناير وضع على رأسه التاج المنشود ، وكان الذى وضعه هو المأمور سكبارا كولونا — علو البايوية العنيد ، الذى حارب قبل ذلك بربع قرن تقريباً بونيفاس الثامن وتوعده بالموت ، والذى رمز ثانية فى لحظة ، إلى تحدى الدولة الناشئة ، للكنيسة الآخذة فى الضعف .

ولم يدر فى خلد البابا يوحنا قط ، وقد بلغ الثامنة والسبعين — أن يهزم .

فأعلن حرباً صليبية ليجرد لويس من كل سلطة ، وأمر الرومان ، أن يطرده من مدينتهم ؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة قرار الحرمان ، وأن يعودوا إلى طاعة البابوية . فأجاب لويس بعبارات تذكر بسلفه هنري الرابع المحروم من غفران الكنيسة ، فعقد اجتماعاً شعبياً آخر ، وأصدر أمام الجمع مرسوماً إمبراطورياً ، يتهم البابا بالهرطقة والطغيان ، ويجرده من منصبه الكهنوتي ، وحكم عليه بعقوبة ، تقررها السلطات الزمنية . وتألقت لجنة ، من رجال الدين ومن العلمانيين ، بتوجيه لويس ، فعينت بيتر الكورفاري منافساً على كرسي البابوية . وعكس [لويس] تقاليد ليو الثالث وشارلمان ، فوضع التاج البابوي المثلث على رأس بيتر ، ونادى به بابا نيقولاس الخامس (١٢ مايو ١٣٢٨) . ودهش العالم المسيحي ، وانقسم إلى معسكرين ؛ على نفس الأسس تقريباً التي قسمت أوروبا بعد الإصلاح الديني .

وقلبت الأحداث المحلية الصغيرة الموقف رأساً على عقب . فقد عين لويس مارسيز من بادوا مديراً روحانياً للعاصمة ، فأمر هذا الرجل ، القساوسة القليلين الذين بقوا في روما ، أن يحتفلوا بالقداس كالمعتاد ، على الرغم من قرار الحرمان ، ثم عذب بعض الدين رفضوا ، وعرض راهباً أوغسطينياً لحب الأسود على الكايتول ؛ فأجس كثير من الرومان بأن هذه الأعمال تحمل الفلسفة فوق طاقتها . ولم يتعلم الإيطاليون قط ، حب التوتون ، فلما اغتصب بعض الجنود الألمان ، الطعام من الأسواق ، دون أن يدفعوا له ثمناً ، شبت الفتن . واحتاج لويس إلى المال لينفق على جنده وحاشيته ، ففرض جزية مقدارها عشرة آلاف فلورن على المدنيين ، ومبالغ مماثلة على رجال الدين واليهود . وبلغت المعارضة حداً من الخطورة جعل لويس يرى أن الوقت قد حان ، ليعود إلى ألمانيا . فبدأ في الرابع من أغسطس عام ١٣٢٨ ، انسحابه عبر إيطاليا . وفي اليوم التالي احتلت الكتائب البابوية روما ، وخربت قصور الذين أيدوا لويس من الرومان ، وصودرت

أملأهم لحساب الكنيسة . ولم يند الناس مقاومة ، بل عادوا إلى عبادتهم
وجرائمهم .

واطمأنت نفس لويس في بيزا بقاء نصير جديد ، هو أشهر فيلسوف
في القرن الرابع عشر . فقد قرأ وليام الأوكهامي من سجن بابوي في أفينيون ،
وعرض على الإمبراطور خطماته قائلا (عن رواية غير محققة) « دافع عنى
بسيبك وسأدافع عنك بقلمى » . فأصدر كتابات قوية ، ولكنه لم يستطع أن
ينقذ الموقف . فقد أقصى لويس ، جميع العناصر الحاكمة في إيطاليا ، وكان
أنصاره من الجياليين ، يأملون أن يحكموا شبه الجزيرة لمصلحتهم باسمه ،
فأجزنهم أن يجدوه يزعم لنفسه السلطات والمصالح جميعها ، يضاف إلى ذلك
أنه جعلهم يقرضون ضرائب باهظة لخزائنه . وكانت قواته ضئيلة لا تناسب
مزاعمه ، فانصرف عنه كثير من الجياليين حتى للفيكونت ، وعقدوا مع
البابا صلحا بالشروط التي قدروا عليها . وترك منافس البابا ، لموارده فاستسلم
لضباط البابا الذين قبضوا عليه ، وسبق أمام يوحنا الثاني والعشرين ، وحبل
المشنقة حول عنقه ، فألقى بنفسه على قدمي البابا مستغفرا (١٣٢٨) . فعفى
عنه يوحنا ، وعانقه كضال يعود إلى الكنيسة ، وحبسه مدى الحياة .

وعاد لويس إلى ألمانيا ، وأرسل الوفود مراراً إلى أفينيون ، تعلن سحبه
لقراراته السابقة واعتذاراته ، من أجل عفو البابا واعترافه . فرفض يوحنا ،
واستمر في الحرب إلى أن مات (١٣٣٤) . واستعاد لويس بعض نفوذه ،
عند ما بدأت إنجلترا حرب المائة عام ، ورغبت في محالفته ، واعترف إدوارد
الثالث بلويس إمبراطوراً ، وحيا لويس بدوره ، إدوارد ، باعتباره ملكاً
لفرنسا . فاغتنم مجلس من الأمراء والمطارنة الألمان (في ١٦ يوليو سنة ١٣٣٨)
فرصة محالفته دولتين كبيرتين ضد البابوية ، وقرر ، أن اختيار ملك ألماني
بوساطة الناجحين الألمان ، لا تبطله سلطة أخرى ، وأعلن مجمع في فرنكفورت
الموافقة على المين (٣ أغسطس ١٣٣٨) أن قرارات البابا ضد لويس

ملغاة وباطلة . وحكم بأن لقب الإمبراطور وسلطته ، متحفاً من الناحيتين الإمبراطوريتين ، ولا يحتاجان إلى إقرار من البابا . وتجاهلت ألمانيا وإنجلترا احتجاجات البابا بندكت الثاني عشر ، وبذلك سارا خطوة نحو الإصلاح الديني .

وتمل لويس بالنجاح ، فقرر أن يطبق إلى أقصى حد نظريات مارسليوز ، وأن يمارس السلطة الدينية والدنيوية معاً ، فصرف من عينهم البابا عن صدقات الكنيسة ، وعين رجاله في مكانهم ، ووضع يده على الأموال التي جمعها جباة البابا من أجل حرب صليبية ، ونسخ زواج مارجريت أميرة كارينثيا — وهي وارثة معظم التيرول — وزفها إلى ابنه ، على الرغم مما بينه وبينها من قرابة تجعل الزواج منها من ناحية الشريعة الكنسية باطلاً . فأقسم الزوج المرفوض وهو أخوه الأكبر شارل كما أقسم أبوهما جون ملك بوهيميا أن ينقما منه ، ورأى كليمنت السادس ، الذي أصبح بابا عام ١٣٤٢ ، في هذا فرصة ، ليخلص من العدو العنيد للسدة البابوية . واستطاعت الدبلوماسية البارعة أن تكتسب ناخباً بعد آخر ، إلى الرأي الذي يقول ، إن السلام والأمن ، لا يعودان إلى الإمبراطورية ، إلا بخلع لويس وتنصيب شارل ملك بوهيميا إمبراطوراً ، وتعهد شارل بطاعة أوامر البابا ، في مقابل تأييده . وفي يوليو عام ١٣٤٦ اجتمع مجلس ناخبين في رنر ، وقرر بالإجماع ، أن يكون شارل ملكاً على ألمانيا . وأخفق لويس في أن يجد ، أذنًا صاغية في أفنيون لإلحاحه بالخضوع للبابا ، فأعد العدة للحرب حتى الموت دون عرشه ، وكان أثناء ذلك مشغولاً بالصيد وقد بلغ الستين من عمره ، وسقط عن جواده وقتل (١٣٤٧) »

وأحسن شارل الخامس الحكم ، ملكاً وإمبراطوراً . وكرهه الألمان لأنه جعل براغ عاصمة الإمبراطورية ، ولكنه أصلح الإدارة في ألمانيا ، كما فعل في موطنه ، وأمن التجارة والمواصلات ، وأنقص الضرائب ، واحتفظ بعناية

مستقرة ، وأمد الإمبراطورية كلها بجيل من الناس ينعم بسلام نسبي . وفي عام ١٣٥٦ ، نال شهرة فيها قدر من المغالطة في التاريخ ، بإصدار سلسلة من القوانين عرفت « بالذئبة البابوية الذهبية » — وإن كانت قليلا من كثير من الوثائق تحمل الخاتم الإمبراطوري الذهبي . لعله اقتنع بأن غيابه الطويل عن ألمانيا يتطلب مثل هذا الإجراء ، فقد منح الناخبين السبعة سلطات تكاد تمحو سلطة الإمبراطور . وكان على الناخبين أن يجتمعوا سنوياً ليصدروا التشريعات الخاصة بالمملكة ، والملك أو الإمبراطور ، مجرد رئيس لهم ويذهب المنفعة . وكانوا في ولاياتهم يملكون السلطة القضائية الكاملة ، وملكية المناجم والمعادن الكامنة في الأرض ، والحق في ضرب السكة الخاصة بهم ، وزيادة الدخل إلى جانب الحق المقيد في إعلان الحرب وإبرام معاهدات السلام . وكانت هذه الذئبة بمثابة إقرار ثانوي للحقائق الواقعة ، فحاول شارل أن ينشئ بوساطتهم اتحاداً تعاونياً من الإمارات . ومع ذلك فقد شغل الناخبون بشؤونهم الإقليمية ، وأهملوا مسئولياتهم باعتبارهم يؤولون مجلساً إمبراطورياً ، حتى أن ألمانيا ظلت إمبراطورية بالإسم فقط . وقد هيا الاستقلال المحلي للناخبين على هذا النحو لناخب سكسونيا أن يحمي لوثر ، وما أعقب ذلك من انتشار المذهب البروتستانتي .

وحافظ شارل في شيخوخته على ولاية العهد الإمبراطوري لابنه بوساطة الرشوة بالحملة (١٣٧٨) وتحلى ونسلوس الرابع ببعض الفضائل ، ولكنه كان يدمن الشراب ويجب موطنه الأصلي ، فكره الناخبون منه ذلك وخلعوه (١٤٠٤) . مؤثرين عليه روبرت الثالث الذي يخلف أثراً يذكر في التاريخ . واختير سيجموند أمير لكسمبورج ملكاً على المجر (١٣٨٧) وهو في التاسعة عشرة من عمره ، وانتخب عام ١٤١١ ملكاً على الرومان وسرعان ما حصل على لقب الإمبراطور . وكان رجلاً ذا ملكات متنوعة ، جذاباً ،

جميلاً مغروراً وكريماً محبوباً وقاسياً في بعض الأحيان وثقف لغات متعددة .
وكلف بالأدب لا يفضل عليه سوى النساء والسلطان . وربما مهدت نياته .
الطيبة له موضعاً صغيراً في جهنم ، ولكن شجاعته كانت تخونه في الأزمات .
ولقد حاول مخلصاً أن يصلح مساوى الحكومة الألمانية ويقضى على أسباب
ضعفها ، وأصدر بعض القوانين الصالحة ، ونفذ القليل منها ، بيد أن الناخبين
أحبطوا مساعيه ، باستقلالهم الذاتي ومجاظتهم على ما ألفوه وعدم رغبتهم في
الإسهام بنصيبهم في نفقات صد هجمات الترك المتقدمين . وأوقف في أعماله
الأنخيرة ماله ونشاطه على مجاربة المؤسسين في بوهيميا . ولما توفي (١٤٣٧) .
بكت أوروبا فيه ، رجلاً كان يمثل التقدم الأوربي فترة من الزمن وإن أخفق
في كل شيء إلا الكرامة .

ولقد أوصى شارل الناخبين في بوهيميا والمجر وألمانيا أن يختاروا زوج
ابنته ، ألبرت أمير هبسبورج . ونعم ألبرت الثاني بالتيجان الثلاثة ، ولكنه
مات بالدوسنطاريا قبل أن تفتح قدراته ، في حملة ضد الأتراك (١٤٤٠) .
ولم يخلف ابناً ، ولكن الناخبين ، اختاروا للتاجين الملكي والإمبراطوري ،
شخصاً آخر من آل هبسبورج هو فريديريك أمير ستيريا ، ومنذ ذلك وقع
اختيارهم مراراً على أمير من آل هبسبورج ، حتى أصبح السلطان
الإمبراطوري في واقع أمره ، ملكاً وراثياً ، في هذه الأسرة الموهوبة الطموح .
وجعل فريديريك الثالث ، النمسا ، دوقية كبرى ، واتخذ آل هبسبورج فيينا
عاصمة لهم ، وأصبح المفروض أن يكون ولي العهد ، هو الدوق الأكبر
للنمسا ، ودخلت الصفة الوراثية في الأخلاق النمساوية والفييناوية كقوم نسائي .
رشيقي يمتزج بخشونة الشمال المذكورة في النفس التيوتونية .

٤ - المتصوفة

لقد غرس القرنان الرابع عشر والخامس عشر بذور الإصلاح الديني :
وكايد لويس ملك بافاريا وويكيليف في انجلترا وهس في بوهيميا ، التجربة
قبل لوثر وهنري الثامن وكالفن ونوكس وأصبحت ثورة رجال الدين
المتزايدة في اسكندناوة والمعفاة من الضرائب عبئاً ثقيلاً على الشعب والحكومة
وزعم النقاد أن الكنيسة كانت تملك نصف أراضي الدنمرك ، ولها الحق الإقطاعي
على كوبنهاجن نفسها . ونظر النبلاء بحسد مشوم ، إلى أملاك لا يحميها إلا العقيدة
بل إن المسيحيين المحافظين كانوا ضد الكهنوت . أما في سويسرا فقد كان
الاستقلال الأشم للولايات تمهيداً لظهور زونجلي وكالفن . وفي عام ١٤٣٣
طردت مجديبرج ، كبير أساقفتها وكهانها ، وانتقضت بمرج على حكم
الأساقفة ، وحاصرت بأسو أسقفها في قلعتها . وفي عام ١٤٤٩ ، وجه
أستاذ في جامعة أرفورت (حيث قدر للوثر أن يدرس) إلى البابا نيقولاس
الخامس ، دفاعاً عن مجالس العامة باعتبارها أعلى سلطة من البابوات .
وانتشرت أصدااء من ثورة الهوسيين في بوهيميا المجاورة ، إلى ألمانيا بأسرها ،
وحافظت الجماعات الولدنيزية ، هنا وهناك ، سرّاً على الهرطقة القديمة
والأطباع الشبيهة بالشيوعية . واتجه الورع نفسه إلى تصوف يقترب من
الهرطقة .

وأجمع التصوف عند جوهانس إيكهارت ، مذهباً من مذاهب وحدة
الوجود ، لا يعبأ بالكنيسة ، ويكاد يتجاهل القانون الديني المحدود . وكان
هذا الراهب الدومينيكي على حظ من العلم جعل لقب « أستاذ » جزءاً من
اسمه . وصيغت كتاباته الفلسفية بلغة لاتينية متحلقة ، ولو أنها كانت كل
أثاره ، لما بلغ حظاً من الشهرة أو الخطر . ولكنه كان يدعو بلغة ألمانية
منظومة في ديره في كولونيا ، إلى مذهبه الجريء ، وحدة الوجود

عرضه لمحكمة التفتيش . واتبع ديونيس الأريوفاغيط (*) وجوهانز سكوتس ارجينا ، فجهد للتعبير عن حسه الغلاب بباله موجود في كل مكان . وهذه الإله غير المحدود ، لم يتصوره إيكهارت ، شخصاً أو روحاً ، ولكنه وحدة مطلقة خالصة هوة بلا كيفية وبلا شكل ، للإله الصامت الواسع حيث لا يرى قط خلاف ، لا أب ولا ابن ولا روح قدس ، حيث لا يوجد واحد في داره ، ولكن حيث تكون جذوة النفس في سلام أكثر مما تكون مع نفسها . ولا يوجد بصفة أساسية سوى هذا الإله الذي لا شكل له ” الله كل شيء ، وكل شيء هو الله . إن الأب ينجيني بلا توقف ، فأكون ابنه . وأنا أقول أكثر من ذلك : إنه يُنجِبُ في ذاته ، وفي ذاته ينجيني . والعين التي أرى بها الله هي العين ذاتها التي يراى الله بها وعيني وعين الله عين واحدة “ .

وفي كل فرد قطعة من الله ، وعن طريقها تستطيع الاتصال به مباشرة وتستطيع أن تكون ذاته . لا عن طريق شعيرة الكنيسة ، ولا حتى عن طريق الكتاب المقدس ، ولكن عن طريق هذا الوعي الكوني وحده تستطيع النفس أن تقترب وأن ترى الله . وكلما تجرد الفرد من أغراضه الذاتية والديوية ، كلما أصبحت هذه الجذوة الإلهية أكثر شفافية وأحد بصره حتى يكون الله والنفس واحد آخر الأمر ، و ” نتحول كلية إلى الله “ . فليست اللجنة والأعراف والجحيم أماكن ، ولكنها أحوال النفس .. فالافتراق عن الله هو الجحيم ، والاتحاد معه هو الفردوس . واشتم كبير أساقفة كلونية من هذه الأقوال رائحة الهرطقة ، فدعا إيكهارت للسحاكمة (١٣٢٦) فأكد الرجل صحة محافظته على العقيدة واقترح أن يحكم على أقواله باعتبارها مبالغات أدبية ، ومع ذلك فقد أدانه الأسقف . فاستأنف الراهب الحكم إلى

(*) قاضى بمحكمة يونانية ملياً قديماً .

البابا يوحنا الثاني والعشرين ثم تخلص من المحرقة بالموت في الوقت المناسب (١٣٢٧) .

وانتشر تأثيره على يد تلميذين دومينيكين عرفا كيف يحتفظان بمذهبه في وحدة الوجود في نطاق أمين . فقد عذب هانيريك سوسو نفسه ، ستة عشرة سنة ، في زهادة صارمة ، وحفر اسم المسيح في لحمه على قلبه ، وزعم أنه تلقى في فمه دما من جراح المسيح ، « وألف » كتيبه في الحكمة الخالدة « باللغة الألمانية . لأن الله كما قال ، أوحاه إليه بهذه اللغة . أما جوهانزبولر فقد وصف ديكهارت بأنه « أستاذه الأقدس » ودعا في ستراسبورج وبازل إلى مذهب الاتحاد الصوفي بالله . ونسب لوثر إليه كتابا عنوانه علم اللاهوت الألماني ، وكان تأثير هذا الكتاب ، فيه عميقا ، ببساطة معتقده : الله ، المسيح ، الخلود .

ونظرت الكنيسة بشيء من الاهتمام إلى المتصوفة الذين تجاهلوا أغلب تعاليمها ، وأهملوا شعائرها وزعموا الوصول إلى الله بلا استعانة من القصص أو الأسرار المقدسة . وهنا نجد مبادئ الإصلاح الديني بحكم الفرد على نفسه ، وكل إنسان في ذاته قسيس ، وليس التبرير في الأعمال الطيبة ولكنه في العقيدة السامية . وفي رأى الكنيسة أن الإيحاءات الحارقة قد تأتي من الشياطين والمجاذيب كما تأتي من الله والقديسين ، وأن الأمر يحتاج إلى إرشاد صارم يحفظ الدين من التحلل إلى فوضى تتألف من ديانات وعلوم دين فردية . ولا يزال هذا الخلاف في الرأي يقسم المخلصين .

٥ - الفنون

طال مكث الطراز القوطي في ألمانيا ، بعد أن أخلى مكانه ، في إيطاليا وفرنسا ، لموثرات عصر النهضة الكلاسية بأمد طويل . وهو الآن يتوج المدن المزدهرة في أوروبا الوسطى بكنائس ، لم تبلغ في جلالها المهيب ما بلغت المزارات العظيمة في فرنسا ، وهي مع ذلك ترفع الروح بجملها الهادئ

وروعتها غير المتكلفة . ولقد بدأت إسلا تشيد كاتدرائيتها عام ١٢٨٧ ،
وفرايبورج السكسونية عام ١٢٨٣ ، وأولم عام ١٣٧٧ (وبها أعلى برج
نوطى فى العالم) وشرعت فينا فى بناء كاتدرائية القديس ستيفن ١٣٠٤ ،
وسترولزيند كنيسة السيدة مريم عام ١٣٨٢ ، وبادنرج كنيسة أخرى
لسيدة مريم عام ١٤٢٥ . وأضافت أخن وكلونيا موضع المرتلين فى
كاتدرائيتهما ، وأتمت ستراسبورج « الموسيقى المجددة » الخاصة بكاتدرائيتها
عام ١٤٣٩ ، وشيدت أكرانتن كنيسة القديس فيكتور الجامعية الأنيقة ،
وقد خربتها الحرب العالمية الثانية . واعتزمت نورمبرج بأربع كنائس
مشهورة ، تصقل التقوى بالفن والنق . وتلين كنيسة لورنز (١٢٧٨ -
١٤٧٧) إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ببابها الفخم ونافذتها
المستديرة المتألثة . وكانت كاتدرائية القديس (١٣٠٤ - ١٤٧٦) ستيفن
معلماً محبباً ، فإن سقفها المنحدر يغطى صحن الكنيسة ومماشيها بقنطرة واحدة ،
وأسقطه إله الحرب عام ١٩٤٥ . وأعيد عام ١٣٠٩ بناء ممشى كنيسة
سبالدوس وأقيم فيها عام ١٣٦١ مكان جديد للمرتلين ، وتم حوالى عام
١٩٤٨ بناء أبراجها الغربية وركب بين عامى ١٣٦٠ ، ١٥١٠ زجاجها
المللون البديع . وزودت كنيسة السيدة مريم (١٣٥٥ - ١٣٦١) ، بدهليزها
المزين بكثير من التماثيل ، وأصبحت أثراً يبعد عين فى الحرب العالمية الثانية ،
ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه ، وفى كل يوم عند الظهيرة تنحني
يلا كلل تماثيل الناحين الأربعة ، فى الساعة المشهورة بالواجهة أمام شارل
الرابع ، اعترافاً بجميل دستور المشهور . وكان فن النحت لا يزال ساذجاً ،
يبد أن الكنائس فى برسلاو وهالجارتن وكنيسة سيبالدوس فى نورمبرج ،
كانت تتلقى تماثيل خشبية أو حجرية للعلماء من بعض النبلاء .

ولم تجميل المدن كنائسها فحسب وإنما جعلت أيضاً مبانها العامة وحوانيها
ودورها . وقامت وقتذاك تلك الدور ، هرمية السقف المعروش نصفها

بالخشب ، التي تكسب المدن الألمانية ، فتنة مشوقة توحى بجو القرون الوسطى ، للعيون العصرية المثالية . وكانت « دار المجلس مركز الحياة المدنية ، وهي ملتقى النقابات الكبيرة أحياناً ، وقد تحمل حوائطها صوراً جدارية ، وكانت أعمال الخشب فيها تحفر عادة بما عرف عن التوتون من عزم وقوة . وللهو الكبير في دار المجلس بمدينة بريمن (١٤١٠ - ١٤٥٠) سقف من خدوع الخشب المنقوش ، وسلم محوى بأعمدة وحاجز من الخشب المنقوش ، وثریات مزخرفة على شكل سفن . ولقد خربت دور المجالس الآتية في الحرب العالمية الثانية : مجلس كلونيا (١٣٦٠ - ١٥٧١) عقد فيه الاجتماع العام الأول للاتحاد الهندسياني ، ومجلس منستر (١٣٣٥) ، حيث أبرمت معاهدة وستفاليا ، ومجلس برنزيك وهي من دور القرن الرابع عشر من المجالس البلدية التي على الطراز القوطي ، وفرنكفورت - على - المين (١٤٠٥) حيث دعا الناجبون إمبراطوراً جديداً لتناول طعام الغداء . وفي مارينبورج ، شيد أشياخ الشعب التوتوني قصرهم الألماني الضخم (١٣٠٩ - ١٣٨٠) . وقد واجهت دار البلدية كنيسة سيبالدس في نورمبرج ، وشيدت (١٣٤٠) لكي تسع جميع أعضاء ريشستاغ الإمبراطورية ، ثم رمم ست مرات ، فلم يبق منه إلا القليل من طابع القرون الوسطى في الشكل . وأقام هيفرتش بارلو ، وهو مثال من براج ، في ميدان السوق أمام كنيسة العذراء ، النبع الجميل (١٣٦١) الذي تكثر فيه تماثيل أبطال وثنين ويهود ومسيحيين وتجسم نورمبرج في القرون الثلاثة بين عامي ١٢٥٠ ، ١٥٥٠ بتماثيلها وكنائسها وعمارتها المدنية ، الروح الألماني في أوجه وكماله . وكانت طرقاتها الملتوية في أغلبها ضيقة غير مرصوفة ، ومع ذلك فقد كتب بابا المستقبل بيوس الثاني عن نورمبرج .

« عندما يأتي المرء من فرانكونيا السفلى ، ويرى هذه المدينة المحيطة ، فإن فخامتها تبدو عظيمة بحق . فإن دخلها ، تأكدت مشاعره الأولى بجمال

الطرقات وتناسب المنازل ، والكنائس . . جديرة بالعبادة جدارتها بالإعجاب .
وتسيطر القلعة الإمبراطورية بشموخها على المدينة ، وكأنما بنيت دور ثواب
المقاطعة للأمراء . والحق أن ملوك اسكتلندة يسرهم أن يسكنوا بيوتاً مترقة
كالتى يسكنها المواطن العادى فى نورمبرج » .

أما الفنون الصناعية الصغرى والصناعية فى المدن الألمانية ، على الخشب
والعاج والنحاس والبرونز والحديد والفضة والذهب ، فقد بلغت وقتذاك
النضج الكامل لنموها فى القرون الوسطى . وأنتج الفنانون والنساجون أقمشة
مزركشة رائعة تعلق على الحوائط ، كما مهد النقاشون على الخشب الطريق
لديرر وهولبين ، وزين المنمنمون المخطوطات عشية ظهور الطباعة على يد
جوتنبرج ، ونقش العاكفون على زخرفة الخشب ، الأثاث الفخم ، وصاغ
سباكو الحديد ، للكنائس ، فى القرن الخامس عشر ، نواقيس لا مثيل لها
فى رخاصة حلبيها . ولم تكن الموسيقى فناً فحسب ، ولكنها كانت نصف
حياة الفراغ فى المدن . ومثلت نورمبرج وغيرها من المدن حفلات تنكرية
عظيمة تتألف من التمثيليات والأغاني الشعبية . ولقد عبرت الأغنية الشعبية
عن أحاسيس الشعب الدينية أو الغرامية . وشنت الطبقات الوسطى هجوماً
جماعياً على مشكلات تعدد الأنغام ، ونافست النقابات فى تأليف فرق الغناء
الجماعى الضخمة ، وأخذ القصابون والدباغون وسباكو النواقيس وغيرهم
من الرجال الأقوياء يتبارون للحصول على جائزة المغنى الأول فى دورات
إنشادية صاخبة وأسست أول مدرسة للمغنيين الأوائل فى مينز عام ١٣١١ ،
ونشأت غيرها فى ستراسبورج وفرنكفورت على المين وويرزبرج
وزيورخ وأوجزبرج ونورمبرج وبراغ . أما الطلاب الذين ينجحون فى
الحصول على الأجازات الأربع وهى دارس وصديق مدرسة وشاعرومغن
فيمنحون لقب أستاذ . وهبط العنصران الرومانى والمثالى إلى الأرض عند

النسبيين(*) لما حمل نواب المقاطعات الألمان الأغنية ، واقعيتهم الشهوانية .

وإذا سيطرت الطبقة التجارية على المدن ، فإن جميع الفنون ما عدا عمارة الكنائس ، تتخذ اتجاهها واقعياً . وكان الجو بارداً ورطباً في الغالب لا يشجع على العرى ، ولم تجد عبادة الجسم أو الكبرياء الجسمي موطناً ملائماً هنا كما كان الحال في إيطاليا . إبان عصر النهضة أو في بلاد الإغريق . ولما رسم كونراد وتز الكنستانسي « سليمان وملاكة سبأ » ألبسهما وكأتهما يعيشان على جبال الألب في فصل الشتاء . ومع ذلك فقد كان في حوالى عشرة مدن مدارس تصوير في القرن الخامس عشر : ألم وسالزبرج وفرنكفورت وأوجزبرج وميونخ ودرستاد وبازل وأخن ونورمبرج وهمبرج وكولبار وكولونيا ، وبقيت إلى الآن نماذج من هذه المدارس جميعاً ونحن نقرأ في أخبار ١٣٨٠ : « كان في كولونيا في هذا الوقت مصور مشهور اسمه ولهم ، لا يوجد له مثل في طول البلاد وعرضها . ولقد رسم رجالاً ببراءة ينحيل للرأى معها أنهم أحياء » وكان الأستاذ وليلم واحداً من كثيرين « على الفطرة » . ولقد أنشأ الأستاذ برترام والأستاذ فرانك وأستاذ سانت فيرونیکا وأستاذ مذبج هسترباكر — تحت التأثير الفلمنكي في الغالب نظاماً للتصوير المشترك في ألمانيا ، ورسموا موضوعات الإنجيل التقليدية بعاطفة دينية ، يمكن إرجاعها إلى إيكهارت والمتصوفة الألمان الآخرين .

وتنتهى بالمصور ستيفن لوكر ، الذى مات في كولونيا عام ١٤٥١ ، هذه المرحلة التمهيدية للتطور ، وبذلك نصل إلى أوج المدرسة الأولى . وتعد صورته « عبادة المجوس » مفخرة كاتدرائية كولونيا ، وهى تضارع معظم الصور التى أنشئت قبل منتصف القرن الخامس عشر ؛ ففيها عذراء جميلة متواضعة معترزة بنفسها في وقت واحد ، وطفل مبتهج وحكام الشرق وهم المانيو السحنة ولكنهم حكماء بحق . وتأليفها تقليدى ، وتلوينها ناصع بالأزرق

(*) النسبيون هم الشعراء الألمان الغنائيون الذين شاع مذهبهم من ١١٥٠ - ١٢٥٠ م .

والأخضر والذهبي . وفي « عذراء وردة التكعيبية وعذراء البنفسج » ، صورت
الأمهات الشواب المثاليات الألمانيات ، ذوات الجمال الرقيق الرصين . بكل
ما في فن القرون الوسطى من حيوية ، تتجه بوضوح إلى التجديد . فقد كانت
ألمانيا على عتبة أعظم عصورها .

٦ - جوتنبرج

ما الذي وضع نهاية للعصور الوسطى ؟ أسباب كثيرة أخذت تعمل
خلال ثلاثة قرون : فشل الحروب الصليبية ، وزيادة معرفة أوروبا الناهضة
بالإسلام ، والاستيلاء المحقق على القسطنطينية ، وبعث الثقافة الكلاسيكية
الوثنية ، وانتشار التجارة بفضل رحلات أسطول هنري الملاح وكولمبس
زفاسكو دا جاما ، ونشأة الطبقة التجارية التي مولت مركزية الحكومة الملكية ،
وتقدم الدول القومية ، متحدة سلطة الباباوات التي تعلو على القومية ، وثورة
لوثر الموفقة في وجه البابوية ، والطباعة :

ولقد كان التعليم كله تقريباً ، قبل جوتنبرج ، في يد الكنيسة . . .
وكانت الكتب باهظة الثمن ، والنسخ مجهداً وغير معبئي به أحياناً . واستطاع
قليل من الكتاب الاتصال بجمهور كبير ولكن بعد وفاتهم ، وكان عليهم
أن يكسبوا عيشهم من التعليم ، أو الانخراط بفرقة من فرق الرهبان ، أو
بمعاش يجريه عليهم الأغنياء أو صدقات يحصلون عليها من الكنيسة . ويدفع
ناشرو كتبهم ، النزر اليسير لهم ، أولاً يدفعون لهم شيئاً على الإطلاق ،
بل إذا وجد ناشر يدفع لهم ، فإن حق الطبع لم يكن مكفولاً لهم ، إلا بمنحة
بابوية بين حين وآخر . وكانت المكتبات كثيرة ، وإن تكن صغيرة ،
وكانت للأديرة والكاتدرائيات والكليات وبعض المدن مجموعات متواضعة
قلما تزيد على ثلثمائة مجلد ، وحفظت الكتب عادة داخل الجدران ، وربط
بعضها بالسلاسل في المقارئ أو الأدراج . وكان لشارل الخامس ملك فرنسا

مكتبة مشهورة بحجمها ٩١٠ مجلدات ، ولهمفري ، دوق جلوسستر ٦٠٠ مجلد ، وربما كانت مكتبة الدير بكنيسة السيد المسيح في كنتربرى ، تضارع في الكبر أى مكتبة خارج حدود الإسلام ، وضمت ٣٠٠٠ مجلد ، عام ١٣٠٠ . وكانت بخير مكتبة عامة في إنجلترا هي مكتبة ريتشارد دى بوري سانت ادموندز ، الذى سجل غرامه بكتبه في رسالة « حب الكتب » (١٣٤٥) ، وجعل هذه الكتب تشكو من سوء المعاملة التى لقيتها من « ذلك الحيوان من ذوات الساقين الإثنين المسمى امرأة » ، الذى أصر على أن تستبدل بها التيل الرقيق أو الحرير .

وزاد الطلب على الكتب بكثرة المدارس وانتشار القراءة ورأت طبقات رجال الأعمال ، القراءة مفيدة في شئون الصناعة والتجارة ، وفرد نساء الطبقتين الوسطى والعليا ، بواسطة القراءة ، إلى عالم من الخيال ، يستعصن به عن دنيا الواقع ، وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كان الوقت الذى لا يستطيع فيه القراءة غير رجال الدين قدولى أوكاد ، وأدى هذا الإقبال المتزايد إلى ظهور جوتنبرج أكثر من أى شيء آخر ، حتى عن زيادة مقدار الورق وظهور مداد زيتى . ولقد أحضر المسلمون صناعة الورق إلى أسبانيا في القرن العاشر ، وإلى صقلية في القرن الثانى عشر ، وانتقلت إلى إيطاليا في الثالث عشر ، وإلى فرنسا في الرابع عشر ، وكانت صناعة الورق قد بلغ عمرها قرناً من الزمان عندما جاءت الطباعة . ولما صار ارتداء التيل مألوفاً في أوروبا في القرن الرابع عشر ، اتخذت صناعة الورق مادتها الرخيصة من خرقة المنبوذة ، فهبط سعر الورق وتهاونت سهولة الحصول عليه مع انتشار القراءة ، على تقديم مادة الكتب المطبوعة وتسويقها .

أما الطباعة نفسها فكانت كالأثار المطبوعة ، أقدم من المسيحية فقد طبع البابليون على الآجر حروفاً أو رموزاً ، وطبع الرومان وشعوب كثيرة أخرى على النقود ، والخزانون على أوانهم ، والنساجون على الأقمشة ، ومجلدو الكتب على أغلفتها ، واصطنع كل رجل من الأعيان ، في العصور

القديمة أو الوسطى ، الطباعة ، كلما وقع الوثائق بنحاته ، واستخدمت وسائل مماثلة في الخرائط وأوراق اللعب . ويرجع تاريخ الطباعة الحجرية — وهي كتب من الخشب أو المعدن تنقش عليها كلمات أو رموز أو صور — في الصين واليابان إلى القرن الثامن ، وربما قبل ذلك . ولقد طبع الصينيون بهذه الطريقة ، عملة ورقية ، في القرن العاشر أو قبله . وظهرت الطباعة الحجرية في تبتيز عام ١٢٩٤ ، وفي مصر حوالي عام ١٣٠٠ ، ولكن المسلمين فضلوا النسخ بالخط على الطباعة ، ولم يعملوا في هذه الحالة ، كما في أحوال كثيرة أخرى ، على نقل التقدم الثقافي من الشرق إلى الغرب .

واستعملت طباعة الحروف — وهي الطبع بحرف منفصل متحرك — في الصين منذ عام ١٠٤١ — ولقد استخدم وانج تشن عام ١٣١٤ حوالي ستين ألف حرف خشبي متحرك ، لطبع كتاباً واحداً في الزراعة ، وحاول أول الأمر استخدام حروف طبع معدني ، ولكنه وجد أنها لا تستوعب المداد في يسر كالخشب . وكان الحرف المطبعي المتحرك ، مع ذلك ، قليل التيسير أو الفائدة ، للغة لا أبجدية لها ولكنها تضم أربعين ألف حرف منفصل ، ولذلك ، ظلت الطباعة الحجرية هي المألوفة في الصين إلى القرن التاسع عشر . وفي عام ١٤٠٣ طبع إمبراطور كوري ، عدداً كبيراً من المجلدات ، بوساطة حروف معدنية متحركة ، وكانت الحروف تحفر على خشب صلب ، وصبت قوالب من عجينة الخزف على تلك النماذج ، وفي هذه القوالب صيغت الحروف المعدنية .

أما في أوروبا فربما ظهرت الطباعة بالحروف المتحركة في هولندا أولاً ، وهي ليست قبل عام ١٥٦٩ ، طبقاً للروايات الهولندية . وطبع لورنس كستر البارلي ، كتيباً في الدين بالحروف المعدنية المتحركة عام ١٤٣٠ ، بيد أن هذا الشاهد غير محقق . ولم يسمع شيء غير ذلك في هولندا ، عن الحروف المتحركة ، حتى عام ١٤٧٣ ، عندما أقام ألماني من كولونيا ، مطبعة

في أترخت : ولكن هؤلاء الرجال كانوا قد تعلموا فن الطباعة في ميّنز .

وولد جوهان جوتنبرج هناك لأسرة ثرية حوالى عام ١٤١٠ واسم أبيه جتر فليش ومعناه لحم الأوزة ، وآثر جوهان لقب أمه . وعاش معظم سنواته الأربعين الأولى في ستراسبورج ، ويبدو أنه قام هناك بتجارب في قطع الحروف المعدنية وصبها . وأصبح حوالى عام ١٤٤٨ مواطناً في ميّنز . وفي الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٤٥٠ تعاقد مع جوهان فست ، وهو صائغ غنى ، رهن له بمقتضى ذلك العقد ، مطبعته في مقابل دين مقداره ٨٠٠ جلد ، بلغ بعد ذلك ١٦٠٠ جلد « وربما كان جوتنبرج هو الذى طبع صك غفران ، أصدره نيقولا الخامس عام ١٤٥١ ، ولا تزال باقية منه نسخ متعددة ، تحمل أقدم تاريخ طبع وهو عام ١٤٥٤ . وقاضى فست جوتنبرج مطالباً إياه بسداد الدين عام ١٤٥٥ ، فعجز عن الوفاء وتنازل عن مطبعته ، واستمر فست في إدارة المؤسسة مع بيتر سكوفير ، الذى استخدمه جوتنبرج صفاً للحروف . ويعتقد البعض أن سكوفير هو الذى طور وقت ذاك ، الأدوات الجديدة وفن الطباعة : « مِجْنُوب » جامد في الصلب المنقوش لكل حرف ورقم وفاصلة ، وبيت معدنى لتلقى المجاوب ، وقالب معدنى أيضاً لصف البيوت والحروف في سطر ،

وفي عام ١٤٥٦ ، أقام جوتنبرج ، بمال اقترضه مطبعة أخرى ، ومنها أصدر ، في تلك السنة أو التى تليها ، ما اعتبر بصفة عامة أول كتاب له ، مطبوع بالحروف المعدنية المتحركة ، وهو النسخة المشهورة الجميلة المنسوبة لجوتنبرج من الكتاب المقدس — وهى مجلد ضخّم في ١٢٨٢ صحيفة من القطع الكبير على عمودين . وفي عام ١٤٦٢ حاصرت جنود أدولف أمير ناسو ، مدينة ميّنز ، ففر الطابعون ، فنشروا بذلك الفن الجديد ، في أنحاء ألمانيا . ولما جاء عام ١٤٦٣ كان هناك طابعون في ستراسبورج وكولونيا وبازل وأوجزبرج ونورمبرج ولم . أما جوتنبرج ، وكان أحد الفارين ، فقد أقام

في التفتيل ، حيث واصل طباعته . وجاهد الأزمات المالية المتلاحقة ، حتى تصدق عليه أدولف (١٤٦٥) بمنحة تضمن له دخلا يحميه غوائل الدين . ومات بعد ذلك بثلاث سنوات .

وليس من شك في أن حروف الطبع المتحركة ، كان لابد أن تظهر على يد غير جوتنبرج لو لم يولد ، إذ دعت إليها ، حاجة العصر الملحة ، وهذا يصدق على معظم المخترعات . ولقد كتب جويوم فيشييه الباريسي ، وهو من أهل باريس عام ١٤٧٠ ، رسالة يعبر فيها عن الترحيب الحماسي الذي قوبل به الاختراع وهو يقول : « لقد اكتشفت في ألمانيا طريقة جديدة مذهشة لإنتاج الكتب ، ولقد حصل حذاقها فهم ، في مينز ومنها نشره في العالم ولسوف ينتشر نور هذا الاكتشاف من ألمانيا ، حتى يعم جميع أنحاء الأرض . ولم يرحب به كل الناس . فقد احتج النساخون بأن الطباعة ستقضي على أسباب معاشهم ، وعارضته الطبقة العليا بحجة أنه ابتذال آلى ، وخشوا أن يقلل من قيمة مخطباتهم الخطية ، وارتاب فيه رجال السياسة والدين لاحتمال أن تصبح الطباعة محلية سهلة للآراء الهدامة . ومع هذا كله فقد شقت لنفسها طريق النصر . وفي عام ١٤٦٤ أقام ألمانيان مطبعة في روما ، وفي عام ١٤٦٩ أو قبله افتتح ألمانيان آخران دار طباعة في البندقية ، وفي عام ١٤٧٠ أدخل ثلاثة من الألمان أيضاً هذا الفن في باريس ، وفي عام ١٤٧١ وصلت الطباعة إلى هولندا ، وفي عام ١٤٧٢ إلى سويسرا ، وفي عام ١٤٧٣ إلى المجر ، وفي عام ١٤٧٤ إلى إسبانيا ، وفي عام ١٤٧٦ إلى إنجلترا ، وفي عام ١٤٨٢ إلى الدنمرك وفي عام ١٤٨٢ إلى السويد وفي عام ١٤٩٠ إلى القسطنطينية . وأصبحت نورمبرج على يد أسرة كوبرجر وباريس على يد الاتيينيين وليون بفضل دوليه والبندقية بفضل ألدوس مانوتيوس وبازل بوساطة أمرباخ وفروبن وزيورخ بوساطة فروشاور وليدن على يد الزيغير ، خلايا عامرة بالطباعة والنشر . وسرعان ما أصبح نصف سكان أوروبا من القارئ كما لم يحدث ذلك قط

من قبل » . وأضحت الرغبة في اقتناء الكتب ، إحدى عوامل الفوران في عصر الإصلاح الديني » وإليك ما كتبه دارس من بازل إلى أحد أصدقائه « في هذه اللحظة بالذات ، وصل من البندقية ، حمل عربية كاملة من الكتب الكلاسيكية ، من خير طبعايت ألدوس . هل تريد شيئاً منها ؟ إن كنت تريد أخبرني في الحال ، وأرسل النقود ، فما تكاد سلعة كهذه تصل ، حتى ينهض إليها ثلاثون شارياً لكل مجلد ، متسائلين عن الثمن ، وبقفا بعضهم أعين بعض للحصول عليها » واستمرت ثورة الطباعة بالحرف المتحرك .

وإذا أردنا أن نصف نتائجها جميعاً ، كان لزمنا أن نسجل نصف تاريخ العقل الإنساني الحديث . ووصف أرازمس ، في نشوة رواج مؤلفاته ، الطباعة بأنها أعظم المكتشفات ، ولعله بنحس بذلك . الكلام والنار والعجلة والزراعة والكتابة والقانون بل لعله قد بنحس وصول الإنسان إلى استعمال الألفاظ النكرات الشائعة . وأحلت الطباعة محل المخطوطات الخفية ، نصوصاً رخيصة الثمن ، تتضاعف بكثرة ، في عدد نسخها ، التي تمتاز بدقتها وخفة حملها عما كانت عليه من قبل ، وتعمل بذلك على التوحيد بين المشتغلين بالعلم ، حتى أن الدارسين في بلاد شتى ، يستطيعون أن يعمل أحدهم مع الآخر بوساطة مراجع إلى صفحات معينة من طبعايت معينة . وكثيراً ما كان الكيف ضحية الكم ، بيد أن أقدم الكتب المطبوعة ، كانت في كثير من الأحوال نماذج فنية للطبع بالحرف المتحرك والتجليد . ولقد أذاعت الطباعة — أو بمعنى آخر يسرت للجمهور — كتيبات رخيصة للإرشاد في الدين والأدب والتاريخ والعلم ، فأصبحت أعظم وأرخص الجامعات كلها ، تفتح أبوابها للجميع . ولم تثمر الطباعة عصر النهضة ، ولكنها مهدت الطريق للتنوير للثورتين الأمريكية والفرنسية . . . للديمقراطية . وجعلت الكتاب المقدس ملكاً شائعاً . وهيأت الناس لدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الإنجيل ، وسمحت بعد ذلك بدعوة العقلين من

الاحتكام إلى الإنجيل ، إلى الاحتكام إلى العقل . وقضت على الاحتكار
الكهنوتي للتعليم ، وسيطرة القساوسة على التربية . وشجعت آداب اللهجات
المحلية ، لأن الجمهور الكبير الذي تتطلبه لا يمكن الوصول إليه عن طريق
اللغة اللاتينية ويسرت الاتصال والتعاون الدوليين بين العلماء . وأثرت في نوع
الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لحيوب الطبقات الوسطى وأذواقها ، بدلا
من إخضاعهم لمن يزعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية ، وأعدت بعد
الحديث المأفوز ، وسيلة ميسرة لاستيعاب الهذر ، أكثر مما عرف العالم
إلى زماننا .

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

